تاريخ الأديان القديم



الدكتور رؤوف سبهاني

مؤسسة البلاغ

دار سلوني



تاريخ الأديان القديم

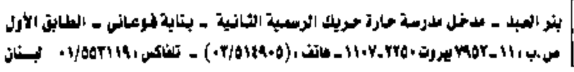
الدكتور رؤوف سبهاني



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م




بئر العبد - مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية - بناية فوعاني - الطابق الأول
ص.ب: ١١ - ٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ - ١١٠٧ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

مقدمة

النجاة هي غاية الكون، وهي التطّهر من أوساخ العواطف والشهوات الحيوانية، والتخلص من قيود الحياة، ومن تكرار المولد والموت، وهي التمسك بالخير، والتخلي عن ارتكاب الشر، و«**النجاة**» طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية. وهي الفوز بالسرور الخالد الذي لا يشوبه ألم ولا حزن ولا همّ، ولا تكون للأرواح الناجية مطامع خاصة ولا أهداف تستميلها، والشخص الناجي ليس بذي جسم مادي، وليس بطويل ولا قصير، ولا لون له، يحيط بكلّ شيء، مطلق من جميع القيود، يكون دائماً في سرور وطمأنينة واستقرار ونعيم مقيم، مكانه فوق الخلاء الكوني، وليس للنجاة نهاية فهي أبدية سرمدية. ولا تحصل النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من عوائق ومتاعب. ولا نجاة بالمعنى الحقيقي إلا للبشر.

فمنذ أن خلقنا الله ووضع فينا معجزاته وأبدع في خلقه، كان الانسان على أحسن صورة، ومنذ بدء البشرية بدأت معها الحضارات وتطورت وتحضرت ونمت سعياً للوصول الى السعادة الأبدية التي يرجوها كل البشر.

يتصوّر كل مخلوق على هذه البسيطة أن سعادته تكمن في شيء ما وأمرٍ ما، وغالباً ما كان يراها في رضى الإله خالق الكون عنه، والبعض الآخر في رضى آلهة متعددة، وكل غايتهم الوصول الى السعادة الحقيقية والخلاص من التعلق في الأمور الدنيوية.

ففي كل حقبة زمنية كان هناك شعب معين وله حضارة ما، له معتقداته وأديانه وحضارته أضف الى أنه متعصب لها، وقد يصل هذا التعصب في بعض الأوقات الى حدٍّ أن يضحي المرء بحياته للحفاظ عليها وما زالت الى يومنا هذا.

مَنْ لا ماضي له لا حاضر له، انطلاقاً من هذه المقولة ونتيجة لما نعيشه اليوم، فحياتنا ما هي إلا نتيجة حضارات ومعتقدات وفكر وتقدم وتطور وصل إلينا، إذ كانت كل ديانة قديمة تعكس واقعاً اجتماعياً وتاريخياً وتسعى للعمل على تطوير المجتمع وتقدمه والسّعي الى تعلم كيفية التعامل مع الآلهة، حتى لا تغضبها وعملية «**المصالحة مع القوى الطبيعية**» ونيل السعادة في الدنيا والآخرة، كانت هدفاً سعت إليه جميع الديانات.

سوف نرى في هذا البحث الكثير من النصوص التي تبعث أجواء من الأمن والمحبة والسلام ومن الواقع الساكن الذي عاشته بعض المجتمعات منذ بدء التاريخ، فكانت معظم الديانات تقول بأن الآلهة خلقت الأشياء ليرتاح البشر، وكان البشر يسعون للحصول على الرحمة الإلهية، دون التمييز بين غني وفقير فالبشر أمام الله، كلّهم سواسية كأسنان المشط، سواسية في الخلق وفي الموت، وفرض عليهم واجب العبادة وتقديم القرابين وإيفاء النذور والتعبد لنيل رضى المعبود.

وكما لاحظنا لقد طغت ثنائية الخير والشّر على كل المعتقدات وكان لكلّ رأيه الذي سعى إليه لإثباته.

كما ووجدنا أنّه لكلّ شعب دين يعتقد به ومبادئ يؤمن بها وأخلاق يتخلّق بها من خلال معتقداته، فالانسان وُلد هكذا على فطرته وسجيته، وهذه الطبيعة البشرية التي خلقها الله فينا، وهو لضعفه وجهله يسعى دائماً لإيجاد قوى خفية يعتبرها أقوى منه وتسيره.

هناك تباين واضح في سلوك الأمم والشعوب القديمة والحديثة فهناك الكثير من القواسم المشتركة بين البشر قديماً وحديثاً، وقد عبّرت عنها الشعوب في معتقداتها وفي أديانها التي سعت الى نشرها في كل أقطار العالم وبالأخص جانب

العبادات وهذا ما دفعني الى اختيار موضوع الكتاب «**تاريخ الأديان القديم**» الذي بين أيديكم، رغبة مني في التعرف على تلك الأديان وسعياً مني لإيصالها للقرّاء هادفاً الى زيادة مخزون المعرفة لديهم ولأبيّن للمجتمع الكثير الكثير من الحقائق التي خفيت عنهم والتي تسلط الضوء على أمور عدة داخل هذا الكتاب.

ولقد اتبعت في كتابي «**تاريخ الأديان القديم**» منهج العرض والتحليل من خلال النصوص تارة والمعايشة معهم تارة أخرى، ومن أهم الأسس التي حاولت أن أبرزها في أبحاثي هي:

أولاً: أن الانسان متديّن بالفطرة ومتعصب بالفطرة إلى معتقداته وهو يدافع عنها حتى الموت، وهو تابع لأسرته ولمجتمعه في دينه ومعتقداته.

ثانياً: أهمية الاطلاع والسعي الى الإلمام بعقائد الآخرين، حتى نتمكن من تطوير عقولنا وسعياً الى الارتقاء والسمو الى مستوى «الإنسانية».

ثالثاً: ما دفعنا الى تأليف ووضع هذا الكتاب والذي يعطي فكرة عامة وشاملة عن الديانات والمعتقدات قدر الإمكان هو إرشاد القارئ وتعريفه على مختلف الديانات والتعمق في مضمونها ومنها، أن الأديان والفرق والمذاهب المذكورة في الكتاب، والتي قد تكون قديمة منذ آلاف السنين،هذه الديانات لها أتباع ومناصرون معاصرون ومتأثرون بها فكرياً.

رابعاً: حاولنا في كتابة هذه الأبحاث الابتعاد عن إثارة العرقية والطائفية وأن تكون بعيدة عن الآراء الشخصية إذ الهدف من هذه الأبحاث تنمية الفكر، وإذا حصل وذكرنا نصاً من مصدر ما أو مرجع ما، لا نتحمل مسؤولية ذلك آملين من القارئ العزيز أن يتفهم هذا.

خامساً: لم يكن من السهل الحصول على بعض المصادر والمراجع والتي فقدت من المكتبات المعروفة والمرموقة، حتى أننا اضطرّنا بحثنا لبعض الديانات إلى الاستعانة بمصادر من دول متعددة والعمل على ترجمتها، وخاصة في الديانات الإيرانية الفارسية وذلك لعدم توفر المصادر باللغة العربية.

وقد جاء هذا الكتاب مقسّماً الى أربعة أبواب، كما وسعينا إلى ترتيب هذه الديانات زمنياً من الأقدم الى الأحدث قدر المستطاع.

ففي الباب الأول تحدثنا عن الديانات القديمة المختلفة وهو مقسم الى سبعة فصول تناولنا فيها الحديث عن: الوثنية والصنمية عند العرب، العيلاميين، الصابئة المندائية، الفينيقية والكنعانية، الديانة المصرية، ديانات ما بين النهرين، واليونانية والرومانية القديمتين.

وفي الباب الثاني تناولنا الحديث عن الديانات الهندية والتي جاءت في خمسة فصول وهي: الهندوسية، البوذية، الجينية، اليانية، السيخية،شارحاً فيها بصورة مفصلة عن تلك الأديان.وفي الباب الثالث تحدثنا عن الديانات اليابانية والصينية في أربعة فصول وهي: الكنفوشية، الشنتوية، العقيدة الطاوية وديانة الزن، موضحاً فيها منشأة هذه الأديان ومعتقداتها وآثارها.

وأخيراً في الباب الرابع تناولنا الحديث عن الديانات الإيرانية والتي لم تذكر في الكتب العربية إذاً فهي تترجم لأول مرة وكان هدفنا السعي الى تزويد المكتبات العربية قدر المستطاع بهذه المعلومات وبصورة مفصلة عن تلك الأديان، والتي جاءت في خمسة فصول هي: الزردشتية، الزروانية، المزدكية، الميترائية، المانوية.

آملين من المولى ﷻأن ينال هذا العمل إعجابكم وكلُّ هدفنا هو «**العلم**» وهو ما أمرنا الله تعالى به وسعياً منا الى خدمة المجتمع بما فيه من فائدة ومرضاة لله والى فهم حقيقة فطرة الانسان التي تميل الى عبادة الباري ﷻولا تستخدم الدين والمتدينين أدوات للمقاصد الدنيوية والشيطانية.

والله وليُّ التوفيق

المؤلف

الدكتور رؤوف سبهاني

الباب الأول

الفصل الأول: الديانة المصرية القديمة

الفصل الثاني: الديانة الفينيقية والكنعانية

الفصل الثالث: ديانة الصابئة المندائية

الفصل الرابع: ديانات بلاد ما بين النهرين

الفصل الخامس: ديانة العيلاميين

الفصل السادس: الديانات اليونانية والرومانية القديمة

الفصل السابع: الوثنية والصنمية عند العرب

الفصل الأول

الديانة المصرية القديمة

أ.لمحة تاريخية.

ب.هيكلية الحكم والإدارة.

ج.مهام الفرعون.

د.آلهة مصر القديمة.

هـ.ثالوث طيبة.

و.مسألة الخلق.

ز.العبادات.

ح.عالم الموت.

أ. لمحة تاريخية

تبرز لنا معالم الحضارة المصرية الثقافية والعلمية والدينية من خلال رؤيتنا للمعابد والأهرامات والمقابر والمسلات والتماثيل واللوحات والتوابيت وأوراق البردي والأثاث والأدوات وغير ذلك.في مطلع القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة الحضارة المصرية القديمة وذلك مع حملة نابليون على مصر. وأول من بدأ بدراسة هذه الحضارة والحديث عنها العلماء الفرنسيون حيث وضعوا كتاباً بعنوان «وصف مصر» وأول ما تحدثوا عنه الآثارات وقيمتها الفنية والكلّ ـ كما نعرف ـ الغرب والدول الأوروبية يسعى للحصول على آثارات مصر.

إنّ أبرز ما عثر عليه من الآثارات في مصر كان قرب مدينة الرشيد وهو عبارة عن حجر بازلين ـ طوله أكثر من متر وعرضه ثلاثة أرباع المتر ـ كتب عليه نص واحد باللغتين اليونانية والهيروغليفية. وقد استطاع العالم الأثري شمبليون بعد دراسة حوالي ٢٠ سنة، أن يفكّ رموز الحجر ويقرأ الكتابة الهيروغليفية الموجودة عليه وذلك سنة ١٨٢٢ م. وأهم المصادر عن ديانات مصر القديمة ما تزال محفوظة في متون الأهرام.

وأبرز تلك المتون: نشيد أخناتون في مدح «آتون» وكتاب الموتى وتقويم الأيام السعيدة والأيام غير السعيدة. تتحدث هذه المصادر وغيرها عن عقيدة تقديس الملوك والسلطة الملكية من خلال المحافظة قدر الإمكان على جثة الملك، وتطلعنا على تصورات سكان وادي النيل عن الثواب والعقاب والمصير

خصوصاً وأنّ الأدوات التي عثر عليها في قبور الفراعنة ترمز إلى ما يحتاجه الميّت في الحياة الآخرة وتوضّح عقيدتهم الدينية فيما يتعلق بمسألة الحياة الثانية.

يتوالف شعب مصر القديمة من سكان البلاد الأصليين فمنهم من ينتمي إلى الجنس الحامي (نسبة إلى حام) ومنهم النوبيون القادمون من أواسط أفريقيا ومنهم الليبيون الذين امتازوا باللون الأبيض إضافة إلى الآسيويين الذين وفدوا إلى مصر من الشمال الشرقي. لكن هذه الشعوب ما لبثت أن انصهرت بسرعة مع سكان مصر الأصليين وأخذت بلغتهم وتطبعت بعاداتهم. تمركزت الحضارة المصرية القديمة في الشمال الشرقي من أفريقيا على ضفاف نهر النيل العظيم وعلى الهضاب الممتدة إلى الشرق منه – حتى البحر الأحمر- وجزء من الهضاب الليبية في الغرب.

كل عمليات الحفر والتنقيب ما غايتها إلّا الكشف عن عمر الحضارة المصرية وقد كشفت الحفريات التي جرت في مصر العليا عن وجود أدوات نحاسية يعود تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد. وقد لاحظ المنقّبون تزايد وتطور الأدوات النحاسية التي يعود تاريخها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد إذاً فإن بدايات الحضارة المصرية تعود الى هذا التاريخ.

ويؤكد المؤرخ المصري «مانيتون» وذلك في عام ٢٨٠ ق.م. أن الأسر المصرية أرست دعائم ملكها منذ الألف الثالث قبل الميلاد. وقد كانت هذه البلاد حتى هذا التاريخ قد عرفت نظام المدن والممالك وقد نشأ في وقتها دولتان في مصر:دولة مصر العليا (جنوباً في وادي النيل) ودولة مصر السفلى (شمالاً في الدلتا). وأوّل توحيد لهاتين الدولتين كان في عهد الملك مينا (ملك مصر العليا) وذلك نحو عام ٣٠٠٠ ق.م. وهو أول من أسّس أسرة حكمت مصر المتحدة، وكانت عاصمته مدينة أبيدوس. وعرف عن الملك مينا أنّه لبس التاج المزدوج وهو الأبيض الذي كان يستعمل في مصر العليا، والأخير الذي كان يستعمل في مصر السفلى. ولكن في عهد الاسرة الثانية عادت وانفصلت مصر العليا عن مصر السفلى وفي عهد الأسرتين الثالثة والرابعة كان بناء أهرامات مصر العظيمة والكثيرة ومؤســس الأسرة

الثالثة هو الملك «**زوسر**» الذي شيّد أول هرم في مصر وهو الهرم المدرج القائم في خرائب سقارة. وفي عهد زوسر انتقلت عاصمة مصر من أبيدوس إلى ممفيس والتي تقع على الحدود بين الدولتين ليسهل عليه الإشراف على الوجهين القبلي (الجنوب) والبحري (الشمال).

وقد توسّعت الإمبراطورية الفرعونية في عهد «**سنفرو**» الذي أسس الأسرة الرابعة بعد أن أخضع القبائل الموجودة في سيناء واستخرج النحاس من مناجمها وسجّل انتصاراته على صخورها. بعد ذلك قام بإخضاع بلاد النوبة وجمع ماشيتها وضمَّها إلى ممتلكاته كما وسعى إلى بلاد «**فنيقيا**» في ذلك الوقت المعروفة اليوم بلبنان وفلسطين وذلك طمعاً في الحصول على خشب الأرز والصنوبر لبناء أسطوله البحري. بعد موته خلفه ابنه «**خوفو**» وقد قام هذا ببناء هرم «**خوفو**» وهو من أكبر أهرام مصر. وتبعه ابنه «**خفرع**» الذي بنى هرماً له بالقرب من هرم أبيه. ثم جاء «**منكرع**» وبنى هرماً ومعبدين بالقرب منهما وكانت هذه الأهرامات من أشهر الحضارات وتفتخر بها الحضارة المصرية بشكل كبير. بعد ذلك حكم البلاد فراعنة ضعفاء، لم يتمكنوا من ضبط الأمور فتمكن الكهنة من السيطرة على مقاليد الحكم.

بعد ذلك أسس «**أوسركاف**» وهو «**كاهن الإله رع**» الأسرة الخامسة، هذه الأسرة لم تهتم كسابقاتها من الأسر ببناء الأهرامات بل انصرفوا لبناء المعابد لإله الشمس. ومن أشهر ملوك هذه الاسرة الملك أوناس وهو الذي أمر بتشييد هرم في سقارة وتزيينه بكتاباتٍ دينية أطلق عليها اسم «**نصوص الأهرام**» وقد اعتبرها العلماء من أهم المصادر التي عرّفتنا على المعتقدات الدينية للمصريين القدماء.

في عهد الأسرة السادسة شهدت مصر حالة من التّفكك السياسي إذ استقلت المدن وتحوّلت إلى دويلات ضعيفة، وبقيت حالة التفكك نحو قرنين من الزمن (من ٢٥٠٠ إلى ٢٣٠٠ ق.م) تعطلت في هذه الفترة مشاريع الرّي وتدهورت الحياة الزراعية وتوقفت التجارة، عندها استغلت الشعوب الآسيوية هذا الضعف وأخذت تهاجم المدن المصرية. وقد مرَّ خلال هذه الفترة خمس أسر استمرت بنفس

الضعف، وقد عادت الحيوية إلى مصر في عهد الأسرات التي لحقتها الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، وقد عرفت هذه المرحلة بمرحلة الدولة الوسطى، في عهد الاسرة الثانية عشرة والتي دامت من عام (٢٠٠٠ إلى ١٨٨٨ق.م.) أسسها «**أمنمحات**» الأول شهدت مصر في عهدها استقراراً سياسياً وتحسناً في الأوضاع الاقتصادية إذ نشطت الزراعة والتجارة واستغلال المناجم المعدنية. ونظمت الحملات العسكرية على ليبيا والنوبة وسيناء. ثم في عهد الملك «**أمنمحات**» الثالث تمّ بناء قصر أطلق عليه هيرودوت وهو «مؤرّخ يوناني اسم اللابيرنت ***Labyrinte*** وهذه الكلمة تعني متاهة ذلك لأن القصر مؤلف من ٣٠٠٠ غرفة ويتيه الزائر بين أروقته.

اهتمّ «**أمنمحات**» الثالث بالزراعة والتجارة وصكّ النقود وسعى إلى تحسينها، بعد ذلك عاشت مصر فترة مظلمة في ظلّ حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة. في تلك الأثناء قدمت إلى مصر جماعة من الهيكسوس جاءوا من سورية وفلسطين تشكّلوا في قبائل سامية وحثّية وكاشية واستقروا في القسم الشرقي من دلتا النيل وكانت عاصمتهم مدينة أفاريس قامت هذه القبائل بعدة هجمات على مصر واستولوا على الحكم فيها الذي دام ١٥٠ عاماً نشأت خلاله الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة ونالت مصر استقلالها عن الهيكوس في عهد الاسرة السابعة عشرة وكان ذلك في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد.

شهدت مصر بعد استقلالها وطردها الهيكسوس فترة رخاء سياسي واقتصادي دام طوال عهد ثلاث أسر (١٨، ١٩، ٢٠) واستمرت الأسر تتطور وقد مرّت عدّة ملوك في عهدها حتى دبّت الفوضى في عهد الاسرة العشرين، وازداد نفوذ الكهنة وكثرت ثروتهم فأصبحوا لا يحسبون حساباً لسلطة الملك «رمسيس» أو دبّروا مؤامرة لقتله وقتلوه بعد حكم أحد عشر ملكاً من الملوك الضعفاء. احتلّ الإسكندر مصر عام ٣٣٢ ق.م. بدون مقاومة بعد تعرضها لعدة غزوات متتالية من قبل الليبيين والنوبيين والآشوريين والفرس والمقدونيين.

ب. هيكلية الحكم والإدارة

عرفت مصر النّظام الملكي نحو عام ٣٠٠٠ ق.م. واستمرّ الحكم ملكياً حتى غزو الإسكندر عام ٣٣٢ ق.م. وقد كان يحكم مصر بدايةً البيتُ العالي أي «**الفرعون**» ثم تطوّر إلى اسم «**ملك**» وقد كان يعني اسم فرعون عدّة معاني من عدّة لغات، أمّا في اللغة العربية فقد استعملت كلمة «**فرعون**» كما في الآية: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[1] وقد ورد هذا اللفظ في القرآن ٧٤ مرة.

في عهد الأسر القديمة كان الفرعون هو الإله وبعد مماته يخلفه فرعون آخر من صلبه أي ابنه وينتقل هو إلى السماء. بعد ذلك فُقدت سلطته فبعد أن كان هو «**الإله الأعظم**» أصبح اسمه (الإله الطيّب) إذ أن سلطة رع (إله الشمس) أصبحت تفوق سلطته بحيث اضطر الفرعون إلى الادّعاء بأنه ابن «رع». واستمرت سلطة الفرعون بالضعف. وفي عهد الملك توت عنج آمون خضعوا لسلطة الإله آمون، استمرت سلطة الملك بالضعف وقلّ احترامه في عهد الأسر الحديثة إلا أنّه ظلّ محافظاً على اسمه الملك وكان يلقب بالفرعون أو الإله أو ابن الإله.

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٥٣.

ج. مهام الفرعون

تعدّدت مهامه. كان يعين الكهنة ويقيم المعابد ويطبّق الطقوس هذا دينياً، أما عسكرياً فقد كان يقود الجيوش ويحامي عن البلاد، كان يقيم في قصر عظيم مع زوجة شرعية وكان على الشعب السجود له وطاعته وتقبيل الأرض تحت قدميه، عرفت مصر المناصب الوزارية ويلي الوزير القاضي ومن ثمّ حكّام الأقاليم وكلّهم كانوا من السلطة الحاكمة. وقد كان يأخذ إمداداته المادية والعسكرية من حكّام الأقاليم الذين كانوا يزودونه بالجند للدفاع عن الدولة.

والديانة المصرية القديمة ككل الديانات المعاصرة لها، هي تعكس شأناً اجتماعياً وجماعياً، وقضاياها تدور حول تأمين بقاء العالم والعمل على تطوير المجتمع وتقدمه والسعي إلى تعلّم كيفية التعامل مع الآلهة حتى لا تغضب، والمصالحة مع القوى الطبيعية إذ كانت تعدّ عندهم قوى إلهية وكانوا يعبدونها. كما وتسعى الديانة الى تخفيف هموم الخلاص الفردي من خلال الانتماء إلى فئة أو جماعة منظمة بعروة دينية متينة، وهناك نصٌّ مصري قديم يحكي قصة البشر وكيف ولدوا ؟ والنص يقول:

«إنّ البشر قطعان الإله: لقد صنع السماء ليدخل البهجة إلى قلوبهم وقاوم جشع المياه، وخلق نفس الحياة من أجل أنوفهم، وأنّهم على شاكلته وهم نتاج لحمه. يشرق في السماء ليحقق رغبتهم القلبية، ومن أجلهم خلق النباتات والحيوانات والطيور الاسماك، كل هذا ليضفي عليهم البهجة... لقد ذبح أعداءه

وقضى على أبنائه حيثما تآمروا للثورة عليه، أوجد الفجر ليسعدهم... وحين يبكون يصغي لهم، وجعل لهم حكاماً وارثين ليكونوا أنصاراً يشدون من أزر الضعيف وجعل لهم تعاويذ لتكون أسلحة تقيهم الحوادث. وأحلاماً في الليل والنهار.. ذلك أن الإله وحده يعرف طبيعة كل إنسان..»[1].

ومضمون النصّ أنّ البشر هم قطع من الإله وضع لهم السماء وسخّر لهم المياه وهم مثله ومن لحمه وهو يشرق في السماء كالشمس ليحقق رغبتهم، وقد خلق النباتات والحيوانات والطيور والأسماك، وخلق كل شيء لإسعادهم ونصر الضعيف بخيره وجعل لهم تعاويذ كسلاح لهم وهذا الإله وحده يعرف طبيعة كل إنسان.

«قال ربّ الكون للآلهة التي تستريح الآن عقب الاضطرابات التي شهدتها الحياة في رحلتها.

كلّ شيء على ما يرام فتهللوا.

سأعيد عليكم الأعمال الطيبة الأربعة التي توصل إليها قلبي..

خلقت الرياح الأربعة حتى يستنشقها الانسان حيثما كان..

وخلقت مياه الفيضان الجبارة حتى يحصل الفقراء على حقوقهم فيها مثل الأقوياء...

وخلقت كل انسان مثل أخيه..

ولم يكن قضائي أن يقترفوا (البشر) الشرور، إنّما هي قلوبهم التي انتهكت حرمة ما قلت، وخلقت قلوبهم بحيث لا تنسى الغرب (عالم الموتى) حتى تقدم القرابين الآلهة ولمقاطعاتها.

وخلقت الآلهة من عرقي،

بيد أنّ البشر خرجوا من دموع عيني..»[2].

---

(١) صليحة، أحمد: «الرمز والأسطورة في مصر القديمة» ص ٦٦ – ٦٧.

(٢) ملحمة جلجامش، النفس البابلي ١٠ الذي يتحدث عن الطوفان

في هذه النصوص تبدو لنا الأجواء الهادئة والواقع الساكن الذي عاشه وادي النيل منذ بداية التاريخ، وقد خلقت الآلهة الأشياء ليرتاح البشر، والفيضان رحمة إلهية هدفها حصول الفقراء على حقوقهم من الطبيعة مثل الأقوياء. من هذه المعتقدات نرى أن الناس سواسية في الخلق وفي الموت وفي تقديم القرابين والتعبد للآلهة. وما نراه أن الخير هو المبدأ الطاغي على كل آرائهم ومعتقداتهم الدينية.

د ـ آلهة مصر القديمة

ترتكز أسس الديانة المصرية على فكرة تقول بأن الملك إله، والملك الفرعون هو الذي يمثل الإله في شعائر أعياد شعبه وهو الوسيط الوحيد بين الآلهة والشعب.

الإله حورس:

هو ملك الأسرة الاولى وكان مجسداً بصقر قائم أو قاعد، وفي عهد الاسرة الثانية أصبح اسمه «**هورس وست**» أي الصقران وتحدثت عنهما نصوص الأهرام فكانت تنظر إليهما على أنهما أخوين وحاكمين متساويين. وبعد ذلك أصبح «**حورس**» يشكل ثالوثاً يتكوّن من الملك السماوي والملك الأرضي والصقر وقد أُعطي طابعاً كونياً وجُعل جرماً سماوياً أو نجماً أو شمساً والقصد من كلّ هذه التصاوير والرسم هو تصوير الملك جاثماً، أمّا فكرة الإله الأزلي والكوني فقد برزت لأول مرّة في نصوص الأهرام حين استبدل حورس بـ«رع» وأطلق لقب «**الإله العظيم**» على «**حورس**». ويبدو لنا أن فكرة الإله الكوني ظهرت مع توحيد البلاد سياسياً وتتمثل لنا هذه الفكرة في تصوير المظهر السماوي للثالوث، إذ إن حورس السماوي هو شمس بالنهار ونجم عند الغسق وهذا التصور وُضع خصيصاً لحورس، والقول بحورس الأزلي كان تعليلاً له خلال الألف الثالث ومفاده أن حورس ـ الملك ـ يتحول بعد الموت إلى أوزيرس.

الآلهة التسعة:

عبد المصريون تسعة آلهة باعتبارها الآلهة العظمى التي تمثل الكون وقد اجتمعت في عين الشمس الذي يدعى (هليوبولس) واختارت الملك الجديد بالتصويت، وهذه الآلهة هي: آتوم، شو، تفنوت، جب، نوت، أوزيرس، ايزيس، ست، نفتيس، وسميت هذه السلالة بـ«التاسوع» أو «الآلهة التّسع» وهيمنت هذه السلالة على الديانة المصرية في كل العهود المتعاقبة.

وتتحدث أسطورة الهيلوبولس عن الآلهة التسعة وتبدأ بـ:

الإله آتوم (*Atum*)

ويقال أيضاً «آشوم»: وتعني الحروف الأصلية في هذه الكلمة «آتوم» الإله الذي أكمل نفسه بنفسه، فهو قد خلق نفسه ثم خلق العالم بعد ذلك ومن صفاته أنه جاء للوجود من تلقاء ذاته ولم يخلفه أحد في ذلك، إذ دائماً نُرجع ذلك إلى الحديث عن الاحتمال والصدفة في كثير من الأساطير. وتقول الأسطورة إن «آتوم» هو الخالق الأول الذي اتّحد في هوية واحدة مع إله الشمس رع، وهو الذي خرج من عماء المياه الأولى الذي يسمى «نون *Nun*» ثم ظهر فوق تل– ويسمون هذا التل بالتلّ المزدهر الذي ظهر في أول العصور- وخُلِقَ آتوم، من غير زواج الإلهين: الإله «شو (*Shu*) والإلهة «تنفوت» (*Tenfete*)، كما وأطلق على آتوم اسم آخر هو آتون (*Aton*) وكلاهما يمثل الشمس. آتوم يمثلها بهيئة شيخ إنسي، وآتون يمثل قرص الشمس الذي يسطع على العالم في الصباح ويغرب في المساء وقد منعوا تمثيله بدمية أو صنم.

وفي عهد الاسرة الخامسة (٢٠٦٦ – ٢٥٠٠ ق.م.) زاوج المصريون بين إله البلاد «حورس» وبيت معبود إقليمهم «آتوم» وخرجوا بمعبودٍ جديد أسموه «رع– حورس» ورمزه إنسان برأس صقر ثم مثلوا هيئته بالشمس. وقد كان آتوم في الاسطورة إله السكون منذ الأزل وعندما عطس كان الهواء وكان الندى أمّا الهواء

فهو الإله «**شو**» وأمّا الندى أو الرطوبة فهي الآلهة تنفوت ومن هذين العنصرين ولدت الأرض والسماء.

انتشرت عبادة آتون (*Aton*) في عهد الملك الفرعون «**أختاتون**» وقد أعلنه هذا الملك الإله الواحد للدولة. ومعنى لفظة «**أختانون**» هو الذي يفرح بآتون. وقد خلق أختاتون توت عنج آمون الذي تحول من عبادة آتون إلى عبادة آمون. ولا بدّ من الإشارة إلى أن آتوم هو نفسه الإله خبري (*Khepri*) والإله سورع.

. الإله شو (*Shu*) والإلهة تنفوت (*Tenfete*):

الإله شو هو إله الهواء وزوجته تنفوت هي إلهة الرطوبة، وبعد زواجهما أنجبا عنصرين آخرين وهما إله الأرض «جب» وإلهة السماء «**نوت**» ثم أنجب هذان الأخيران أوزيريس وست، وإيزيس ونفتيس. وحكم هؤلاء جميعاً وكان عددهم تسعة وسموا بالتاسوع، حكموا العالم في بداية الأمر. بعد ذلك اجتمعوا وقرروا أن تكون سلطة الكون بيد حورس. وتُصوّر الأساطير لنا «**شو**» حاملاً قنطرة السماء وعلى رأسه ريشة نعامة كما وتورد الاساطير أنّ شو هو الذي أنار الطريق لـ «**أوزيريس**» وصحّح له العيوب في أعضائه بالقوّة السحرية، وأنّه هو الذي انتزع الضغينة من قلبي الأخوين «**حور**» و«**ست**» وجعلهما لطيفين مع أوزيريس. أيضاً قام شو بالفصل بين الأرض والسماء أي «**سب**» و«**نوت**».

. الإله سب (*Seb*) والإلهة نوت (*Nut*):

وعن قصة (سب) و(نوت) تخبرنا الأسطورة بأنّ «**سب**» إله الارض تزوج سراً من (نوت) إلهة السماء وذلك دون علم الإله رع، وعندما علم بالأمر أرسل شو (إله الهواء) الذي قام بإبعادهما عن بعضهما بالقوة، وكانت نوت تعتبر أم الآلهة، فقد نتج عن زواجها من (جب) الآلهة أوزيريس وإيزيس، وست ونفتيس، وأيضاً تقول الاساطير أن النجوم التي تولد في السماء وتبتلعها في الصباح هم أولادها.

كان المصريون يرمزون إلى نوت بالبقرة والشجرة ثم جمعوها في اسم «**حنجور**» وقد تربعت نون على عرش القداسة عند المصريين القدماء وكانت تبعث الخوف والرعب في نفوسهم، فهي تعانق زوجها «جب» في المساء ويظلان متعانقين حتى الصباح حيث يفرقهما شو ويفصلهما حتى المساء.

الإله أوزيريس» (*Osiris*) «أيزيس» (*Isis*):

هذان الإلهان هما أولاد سب ونوت وتقول أساطير مصر القديمة بأن أوزيريس هو الإنسان الأول والسلطان الخيِّر، والراعي الصالح. وأنه هو الذي علَّم المصريين الأعمال الحضارية من زراعة وملاحة ومهنٍ صناعية لإنتاج الضروريات والكماليات،وتساعده في ذلك أخته إيزيس. ويقال بأنّه أول ملكٍ بشريّ جرى تأليهه. وتقول الأساطير بأنّ أوزيريس قُتل ووُضع في صندوق وقُذف به إلى النيل ثم حملته الأمواج حتى شاطئ جبيل (بيبلوس) في فينيقية، ولكنه عاد وبُعث إلى الحياة من جديد بفضل زوجته إيزيس. التي أعادته إلى الحياة مرتين، وعندما كبر ابنه حورس قام بخوض حربٍ مع «جب» وانتقم في النهاية لأبيه.

تبرز لنا أسطورة أوزيريس وزوجته إيزيس والتي تجعل من الجبل مركزاً لبعض أحداثها وهذا يفسّر لنا التقارب بين قصة أدونيس (معبود جبيل في فينيقيا) وقصة أوزيريس، فأصبح أوزيريس المعبود المصري الأوحد والإله الأقوى ونُسبت إليه صفات الآلهة الكونيين الكبار. وكانت إيزيس أم حورس نسبت إليها حراسة الموتى والزواج الطيّب ومعرفتها بالطب وإعادة الحياة إلى الميت وسميت بملكة الحب وملكة السماء، ونجم البحر وأم الإله حورس. وهي تجسّد الخصب وذلك بفيضان نهر النيل في الربيع من كلّ سنة. ويحاول الباحثون التقريب بين أسطورة «**أوزيريس وإيزيس**» (المصرية) وأسطورة «**أدونيس وعشتروت**» (الفينيقية) وأسطورة «**تموز أودموزي وإنانا**» (السومرية والبابلية).

الإله «**ست**» هو ابن «**سب**» و«**نوت**» وزوج «**نفتيس**»، وإخوته أوزيريس وإيزيس. وهو إله الشّر ويمثل الصحراء بقحطها وجدبها، يرمز إليه برأس كلب أو حمار.

تخبر الأسطورة التي نسجت حوله عن عدوان الأخ على أخيه الناتج عن الحسد والحقد. إذ يحقد ست على أخيه أوزيريس ويقتله. وتقوم إيزيس بإعادة الحياة لزوجها. ثم إن حورس (ابن أوزيريس) يدخل في صراع مع عمّه ست انتهى بمقتل ست وانتصار حورس الذي عيّن ملكاً على مصر العليا ومصر السفلى، وعند مجيء الهكسوس إلى مصر وجدوا أن صفات ست تشبه صفات معبودهم بعل فوحدوا بينهما ودمجوا الاسمين معاً باسم «**ست – بعل**».

وتروي الأسطورة ذاتها أنّ نفتيس ساعدت أختها إيزيس في ردّ كيد زوجها ست، وساعدت قوى الخير (قوى أوزيريس) وأعانت الموتى على دحر قوى الشر المتمثلة بالموت.

حورس (***Horus***) هوابن أوزيريس وإيزيس، وقاتل عمّه الإله ست. وصراعه مع عمّه (قاتل أبيه أوزيريس) يمثل الصراع بين الشمال والجنوب في وادي النيل. ومعنى الاسم حورس «**العالي، الرفيع، البعيد**». ويسمى أيضاً بـ«**رب العينين، أو ضياء العينين العظيمتين: الشمس والقمر**». يصوّر بهيئة رجل برأس صقر. وعرف أيضاً ب «**حورس**» أو «**هورس**» ومن ألقابه: حيرواور، حيرومرتي، حيرونوب، حيروخنت خت، حيرومنت، خيروخوتي، حيروحكنو، حيروبيحوت. وله عدّة أسماء وأشكال: «**حورس**» و«**آتوم**» و«**آمون**» و«**رع**».

هـ. ثالوث طيبة

يتكوّن الثالوث الإلهي في طيبة من «**آمون**» و«**موت**» و«**خنسو**» و«**خنسو**» الأخير هو ابن الأولين، ويُرسم لابساً هلالاً وقرصاً يحيط بقلنسوة، وهناك بالإضافة إلى «**الآلهة التسعة**» مجموعة من الآلهة الثانويين، وهي آلهة مناطق أو مدن أو عُبدت من جماعات بشرية محدودة ولفترة قصيرة من هذه الآلهة:

أبوات: يصوّر برأس ثعلب أو ذئب، وهو من حراس زورق الشمس.

أبوفيس: يمثل الظلمة والصراع ضدّ الإله رع عندما يعبر السماء بقاربه، ويحصل عندئذ الكسوف.

أخنوم: ربّ الخصب، يصوّرعلى هيئة خروف أو برأس خروف، وهو إله النيل الأعلى، وأقيم له معبد في جزيرة الفيلة.

الكابية: يرمز إليها بطير أنثى النسر، وهي ربّة الجنوب في وادي النيل وحارسته.

امحوتب: إله الحكمة والطب، من البشر. وهو مهندس الملك زوسر وباني معظم الأهرامات القديمة من الأسرة الثالثة.

أنوبيس: يرمز إليه بجرو كلب. وهو ابن رع أو أوزيريس، وهو إله التحنيط والمقابر ومهمته قيادة الموتى إلى العالم السفلي (إله مدينة ابيدوس).

أنياد: مجمع الآلهة التسعة السابق ذكرها.

أوسيريسا: إله الموت وقيام الطبيعة.

أونوريس: إله الحرب (في مدينة أبيدوس).

ايرتا: ابن آمون وخالق الأرض.

بابا: الابن الأكبر للإله أوزيريس.

باست: ربّة الخصب، رسمت على شكل امرأة برأس هرّة ترفع بيدها اليمنى قيثارة (معبودة مدينة بوياسيت عاصمة دلتا النيل).

بتاح:عرف في مدينة منفيس ولا فرق بينه وبين الإله رع، إلا أن زوجته كما ورد في الأساطير،هي «**سمنحت**» وعقيدته كانت أساس مذهب الخلق بالكلمة الـ «*Logos*». وبنى له الفرعون سيتي الأوّل معبداً في مدينة أبيدوس، يصوّر على هيئة رجلٍ بلحية كثّة وقصيرة.

بوكيس: يرمز إليه بالثور المقدّس وعاش في مصر العليا في مدينة هرمونتس.

تحوت: إله القمر، ويدعى أيضاً بـ «**تحوت موزي**» أوكلت إليه المسؤولية عمّا يكتب ويقال القرد هو رمزه الحيواني.

توت: إله الحكمة، ومهمته تسجيل أسماء الموتى، وهو الذي علّم إيزيس الكلمات التي أعادت زوجها إلى الحياة، وكان معاوناً للإله رع وحارس الموتى، ويرمز إليه بالقرد ورأس كلب، كما صوّر على شكل طائر طويل المنقار.

توريت: أو أوبت، تحمي النساء أثناء الولادة وأثناء الرضاعة، وتُرسم على شكل فرس بحر واقفة على رجليها الخلفيتين.

جحوتي: يمثل لسان وكلمة بتاح (إله الشمس).

الجوزاء: لها صلة بالإله أوزيريس، وعدد نجومها ومنها النجم إيزيس.

خابي: من آلهة الجهات الأربع، ويتولى أيضاً رعاية الأعضاء الداخلية للإنسان.

حاتحور: عرفت كراعية للحبّ والمرح والموسيقى، وتمثل أيضاً الأم العطوفة، وكانوا يرمزون إليها ببقرة.

حاتور: إلهة السماء وتمثل الجزء الذي تطلع منه الشمس وتغيب فيه فقط، يرمز إليها برأس امرأة وقرني بقرة يتوسطهما قرص الشمس (عبدت في مدينة دنيرا) ويطلق اسمه عليها اسم حت ـ حرت.

حقات: حامية للحوامل، ومولِّدة الأطفال، زوجة الإله خنوم.

خنوم: زوج الإلهة «**حقات**» ودوره تصوير الأجنة في الأرحام، ويعتبر صانع الأواني والصور الإنسية.

رينينيت: تُرسم بهيئة أسد أو رأس أفعى، وعملها تغذية الطفل الحديث الولادة.

ساتي: الزوجة الأولى للإله أخنوم، حامية النيل الأعلى والشلالات.

سنحمت: إلهة محابرة ترسم بهيئة لبوة أو رأس لبوة، زوجة «**بتاح**» وأم «**نيفرتيم**».

سد: إله الموتى وحارس الحدود الشرقية.

سيلكت: إلهة الزواج والموتى، وحامية الجثث المحنطة.

شاي: الإله الذي يرافق الإنسان كلَّ حياته ويسجِّل أعماله ويظهر مع روح الميت عندما يقف للمحاكمة أمام «**أوزيريس**».وربما ساعدته في أعماله شنيت وهي كائنات ترصد أفعال الإنسان.

نيت: إلهة الأنوثة، ماهرة في النسيج وفي فنون التدبير المنزلي، وإلهة حرب أيضاً.

و. مسألة الخلق

في كلٍّ الأديان وفي كلٍّ عقيدة دينية الإله الخالق هو الإله الرئيس وقد كانت تؤمن هذه الاديان بتعددية الآلهة. كما وتدخلت طبيعة التقسيمات السياسية والمدنية والإقليمية في مصر. في تحديد الإله الخالق وكيفية الخلق ومراحله. وقد عثر الباحثون والعلماء في خرائب مصر، على نصوص فكّوا رموزها تحكي أساطير متعددة ومتنوعة عن مفهوم الخلق ووجود المخلوقات وأشهر أساطير الخلق المصرية هي أسطورة الهليوبوليس.

إنّ أبعاد أسطورة هليوبوليس وتصويراتها عن الخلق لها عناصر إلهية وصفات ولا بدّ لفهم هذه الأسطورة وأبعادها من ذكر هذه العناصر ودور كل إله والتسلسل المنطقي لعملية الخلق وكيف وُجد؟ فكلّ واحد من الآلهة كان على هيئة بشرية كأعضاء السلالة الواحدة، وقد كان لكلّ إله منهم صفاتٌ اختصّ بها دون سواه. إلّا أنّ خصائص الآلهة استوحتها الأسطورة من واقع الطبيعة المصرية إلى حدٍّ بعيد. كما ويمكننا ملاحظة ترافق خلق الآلهة مع خلق العناصر الكونية أو جعل الآلهة عناصر وظواهر طبيعية.

إنّ أوّل مجموعة من الآلهة خرجت إلى الوجود تتألف من جب ونوت وأوزيريس. لفظ جب هو عبارة عن لفظ مصري خالص ويعني الأرض كما وأن لفظ نوت يدلّ على المحيط الأزلي، أما أوزيريس فلم يُحدد المعنى المقصود من اسمه، تتألف المجموعة الثانية من الآلهة إيزيس وست ونفتيس.

أمّا ست فهو إله الشّر ويحتل الصحراء، إضافة إلى هؤلاء الآلهة آتوم،وشو، وتفنوت،وتتحدث الأساطير عن وظائف الآلهة فلقد خرج آتوم من عماء الماء الأول والذي يسمّى نوت ثم ظهر (آتوم) فوق تل. وأنجب آتوم من نوت الإله (شو) إله الهواء والإلهة (تفنوت) إلهة الرطوبة وقد استخدم رع الإله شو للفصل بين إلهة السماء نوت وزوجها إله الأرض جب.

هناك مشكلة كانت لدى المصريين متعلقة بخلق الإله آتوم لنفسه وهذا لاستحالة هذا الأمر فلا يمكن أن يُخلق إله من دون سبب لأنه لا يوجد سبب دون سبب فقالوا في هذا الموضوع: إن آتوم الذي يعني اسمه الواحد الكامل، ظهر إلى الوجود بأن أوجد ذاته. وتشير متون الأهرام إلى صورته على خبري أي أنه يجمع الطبيعتين: الذكرية والأنثوية.

ومن الآلهة الذين جمعوا الطبيعتين الجنستين الإله بتاح خالق مدينة منفيس ويسمى في آن معاً الأب والأم في لاهوت منفيس. وتقول هذه الأسطورة بتاح بالحكمة التي تقول «**إن بتاح خلق من نفسه آلهة أخرى سميت بتاح وقد أطلق عليها البشر أسماء أخرى**»[1].

وقد تحدث «**لاهوت الخالق**» لـ «**هرموبوليس**» الشديد الصّلة بـ (لاهوت الهيلوبوليس)، وتقول القصّة بأنّ الخلق بدأ مع ظهور التلّ الأول من المياه الأولى، ونشأ أيضاً أربعة أزواج من الآلهة مرتبطة بالصفات الكونية وهم «**نون**» و«**نونيت**» و«**حح**» و«**حومت**» باللانهاية و«**كوك**» و«**كوكيت**» بالظلام و«**آمون**» و«**أمونيت**» بالخفاء.وربما كانت هذه الآلهة الثمانية أربعة آلهة ثنائية الجنس وهي الأشكال الأصلية. وكان آمون على رأسهم لأن اسمه يعني «**الموجود الخفي**». بعد ذلك قامت الآلهة بتكليف خنوم (***Khum***) بصنع الكائنات الحيّة والبشر. وتُصوره الرسوم المصرية القديمة وهو جالس إلى دولابه الفخاري. وتقول إحدى الأساطير بأن الأرض وُجدت من زهرة اللوتس التي ظهرت في المياه الأولى على هيئة شاب

هو الإله «**نفر-تم**». وقد ورد ذكر «**بحيرة اللوتس**» في نصوص معبد «**إدفو**» على أنّها المقرّ القديم للإله الخالق.

وعلى صعيد الواقع برزت نظرة المخلوق المصري إلى خصوبة أرضه «**السوداء**» غير العادية وأدرك أن النيل والشمس أي الماء والغذاء هما السبب في هذه الخصوبة. وقد ارتبطت السيادة الإلهية بهاتين الظاهرتين الطبيعيتين. فأصبحوا يربطون فيضان نهر النيل باسم الإله مابي وكان هناك نجمة تظهر في أول شهر أيلول مع شروق الشمس وكانوا يسمّونها «**النجمة الشعر**» وذلك لتبشر ببدء الفيضان فأطلقوا عليها اسم سويتس واعتبروها رمزاً لبدء السنة الجديدة والولادة الجديدة للمزروعات والنباتات. ثمّ إنّ الإله «**رع**» أو إله الشمس هو الإله «**الأقوى**» و«**الأعظم**» و«**السيد**» في مجمع الآلهة. حتى أنّ المصريين أطلقوا لفظ «**رع**» و«**آتوم**» يعني «**الشمس**» ثمّ وحّدوا بين «**رع**» و«**آتوم**» في صيغة واحدة هي (رع آتوم).

ز. العبادات

درس علماء أوروبا في العصور الحديثة الآثار المصرية وقد كانت مكتظة بالحيوانات المقدّسة، كما لاحظوا عبادات بعض الشعوب البربرية المتوحشة في جنوب أفريقيا وأطراف آسيا وأمريكا حيث كانت تقدّس الحيوانات في هذا العصر تقديساً لا يقلّ عن تقديس المصريين القدماء لها في العصور الغابرة. وتحدثوا عن التقديس المصري للحيوانات وكان اسمه «**توتيمسيم**» وهي كلمة تدلّ على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة في قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان.

وقد قارن العلماء بين التقديس العصري، والتقديس القديم لا سيما أن هذا «**التوتيمسيم**» موجود حقاً عند المتوحشين العصريين ولا سيما في أطراف أمريكا. وقد اهتم العلماء بمعرفة داخل هؤلاء المتوحشين فسألوهم عن هذه الحيوانات المقدّسة وأهميتها بالنسبة إليهم، فأجاب البعض بأنّ أجدادهم الأولون كانوا حين يقدّسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنّهم يجلّون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التي تجري في عروق هذه الحيوانات. وقد أعلن أحدهم بأن الحيوان المقدس عندهم إنّما هو إله قبيلته.

وقد شاهد العلماء في بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون البطن الأول يقدّس الكلب وهو جدّه الأعلى والثاني يقدّس الخنزير، والثالث يقدّس الوزّ وهو مبدؤه الأساسي، والرابع يقدّس التمساح وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن، وقد لاحظ العلماء القاسم المشترك والتشابه

الموجود بين تقديس المصريين الغابرين وتقديس الشعوب المتوحشة وجزموا بأنهم متشابهين في عقيدتهم وتقديسهم ولا فرق بينهم سوى هذه العصور المترامية الأطراف، ولكن عارض الكثير من العلماء الأدقّاء هذه المشابهة معارضةً شديدة وأكدوا أنّها تنقصها الأسانيد العلمية التي يُعتمد عليها من ناحية وأنّها غير متناسقة من ناحية أخرى.

ويرى العلماء أن الأسباب التي جعلت المصريين يقدّسون الحيوانات ليست الأسباب التي تقول بالقرابة. فمثلاً يرى الأستاذ «ماسيرو» وهو كبير المستمصرين في القرن العشرين بأنّ المصريين في عصور ما قبل التاريخ كانوا منقسمين إلى شعوب وكل شعب كان يختار له حيواناً يطعمه إلى جانب إلهه الذي كان إذ ذاك رجلاً من بني الإنسان، ولكن ممّا لا شك فيه أن هذا التقديس كان يصدر منهم للحيوان على أنه حيوان، وكان السبب في ذلك إمّا خوفاً من ضرر هذا الحيوان وشرّه، وإمّا رغبة في نفعه وخيره. وأمّا ما كان يُقدَّس خوفاً منه مثل الأسد والتمساح فإنما كان يُقدَّس اتقاءً لشرّهم وليأمنوا ظواهر الشرور وخفيّها. وأمّا القسم الثاني أي التقديس للمنفعة كانوا فأمثلته العجول والأكباش والإوز. لأنّ هذه الحيوانات وأمثالها كانت تسهل عليهم الحياة وتعينهم على مشقّة العيش. فكان من الطبيعي أن يقدّسونها اعترافاً بجميلها وتفريقاً بينها وبين غيرها.

هذا في البداية أمّا في العصور التاريخية فقد تطورت علّة هذه القداسة فأصبح المصريون يقدّسون الحيوانات لأنها حَوَت فيها أرواح الآلهة التي لا بدّ لها أن تتجسد في كائن ما فتجسدت في هذه الحيوانات ونزلت إلى الأرض، فالنسر مثلاً كان يرمز إلى «**هوروس**» وابن آدي والعجل يعود إلى «**أنوبيس**» وأصبحت الآلهة تتمثل في عدّة كائنات فمرّة في إنسان أو حيوان أو شجرة أو عاصفة أو رياح وفي أخرى هي مزيج من إنسان وحيوان و«**هوروس**» مثلاً كان يمثل حيناً إنساناً وحيناً آخر نسراً وثالثاً إنساناً له رأس نسر ورابعاً نسراً له رأس إنسان.

كما وكان يؤمن المصريون بالحياة بعد الموت فتقطن في المومياء وفي التمثال الحجري، وقالوا بأن هناك عدة شخصيات للإنسان بعضها مادي وبعضها

روحي، وأنّ كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقلّ بنفسها من مأوى خاص، فإذا كان هذا شأن الإنسان فماذا سيكون شأن الإله. وهو الأعظم روحانية أن يكون له عدّة شخصيات تحلّ كل واحدة منها في مأوً. ثمّ فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مومياءات شخصيات الآلهة لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنّما يجب أن تكون مستحوذة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، وكانوا يحلون الإله تارة في عجل وأخرى في تمساح وثالثة في قط، ورابعة في طائر ثم يتبعون هذا الحُلول بتقديس ذلك القط أو ذاك العجل أو هذا الطائر ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة والإجلال ولا ينظرون إليها على أنها معبودات فقط بل على أن لها ظروفاً قد حلّت فيها شخصيات الإله الأعظم التي لا تتناهى.

لقد كانت هذه العبادة في أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات وينحصر فيه من بين جميع أفراد نوعه لميزة لا توجد في غيره، وقد شاهد «**هيرودوت**» في مصر هذه الحالة وأخبرنا بأن هناك حريقاً شبّ في مصر فوجه السكان جميعاً عنايتهم الى نجاة القطط قبل أن يفكّروا في إطفاء النار كما ويخبرنا بأن موت بعض الحيوانات كالقطط والكلاب كان يعقبه في مصر حداد عام وشامل.

أجل. لقد كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدّس شعب مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قويها وضعيفها.وبعد أن ارتقت مصر ونظّمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات أنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم، ثم أصبح في العصور التاريخية «الباز» رمزاً للإله (هورروس) إله القوة والخير والبركة وأيضاً البقرة كانت رمزاً للإلهة (هاتور).

ومع طول الزمن، اندمجت بعض المقاطعات في البعض الآخر، وأصبحت كلّها تحت إمرة إله واحد كما حدث في الماضي، أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر.

إضافة إلى عبادة الحيوانات، فقد عبد المصريون في ذلك الوقت الظواهر الطبيعية المتجلية بوضوح في «قرص الشمس» وقد عدّوه «**صديقاً لشعب مصر فتدفئه شتاءً وتأتيه بالحرارة صيفاً إلى جانب القمر وما يعتريه من ظهور واختفاء وصغر وكبر**»[١] وأيضاً لم يكن الحيوان وحده موضوع هذا الحُلول الإلهي ومقرّ تلك الأسرار الكونية.وإنّما كان النبات كذلك، وكثيراً ما نقرأ قصصاً تتحدث عن الأشجار المقدّسة الحائزة لغوامض الأسرار. فمن ذلك ما يخبرنا عنه الأدب المصري القديم من أنّه بينما كان فرعون جالساً ذات مرّة مع زوجته التي كان يحبها تحت إحدى الشجرات في سرور وسعادة وإذ بالشجرة تنحني على الملك وتقول له في أذنه إنّ زوجته خائنة. وهذا ما يدلنا على أنّ المصريين كانوا يعتقدون بكلّ الكائنات الحية وهذا ما جاء في أساطيرهم ومعتقداتهم. ولم يكن للمصريين كتاب سماوي مثل بقية الأديان ولم يكن هناك كتاب مقدس. ولكن كان لهم كتابة مقدّسة تحفظ في «**بيت الكتابات المقدسة**»[٢] ويدور محورعباداتهم حول الآلهة وطقوسها والاحتفالات التي يقومون بها، والتي تتضمن تقديم القرابين والنذور، وقد كان من أهم الطقوس لديهم تقديم القرابين للآلهة «**أن فكرة تعدد الآلهة ظلّت مسيطرة عليهم عدا فترة حكم الفرعون أخناتون**»[٣]، كما وقد بلغ تحمس الفرعون أخناتون ١٣٧٥ـ ١٢٥٨ق.م. لدعوة التوحيد ما جعله يناوئ الآلهة الأخرى التي كان المصريون القدماء يعبدونها،حمل الناس على ذلك.ولكنّهم لم يظلوا على عبادة إله واحد فترة طويلة عادوا بعدها الى التّعدد ولكنهم كانوا متمسكين بعقيدة الإله الأعظم أو الإله الأكبر[٤]. ولطالما حاول المصريون القدماء الوصول إلى فكرة المعبود الأوحد، والتي بنظرهم هي تلك القوة القادرة على فعل كل شيء في

---

(١) أرمان، أدولف، ديانة مصر القديمة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ص:١٦٥.

(٢) ميخائيل، نجيب مصر الشرق الأدنى القديم، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ص: ٦٢٠.

(٣) للاطلاع، يراجع أنستيندروف ديانة قدماء المصريين ص٤٦–٥١، تعريب سليم حسين، مطبعة المعارف المصرية ١٩٢٣م.

(٤) العقاد.عباس محمود،موسوعة العقاد الاسلامية،المجلّد الأول، توحيد وأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ص:٣٢٢.

أيّ وقت شاعت ولكن هذه الفكرة «**لم تكن دعوة نبوة ورسالة ولعلّها جاءت في زمن لم تتهيأ النفوس للوحدانية ونبذ الشرك. وتعدد الأرباب فهي دعوة كهانة وهم الذين يسترون ما يعملون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة إلا بمقدار**»[١]، لقد دعا أخناتون إلى التوحيد ولكنّ دعوته لم تكن من نوعها، بل إن تاريخ البشرية يذكر أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد دعا إلى الحنفية قبله بستمائة عام، ولقد وصلت عقيدة التوحيد إلى أخناتون عن طريق قبائل الهكسوس العربية التي حكمت في مصر زهاء قرنين من الزمن قبل عهد أخناتون وهذا ما رآه المؤرخون.

هذا وقد كان الهكسوس على اتصال بالمديانيين الذين كانوا يدينون بالإله الواحد يهوا، ويرى آخرون أن لدعوة إدريس ويوسف عليهما السلام أثراً كبيراً في نفس «**أخناتون**» ولأنه وكما هو معلوم لدينا أن كلاً من النّبيّين عاشا في مصر. ونقلاً عن القرآن الكريم عن حوارٍ دار بين نبي الله يوسف عليه السلام ورفاقه في السجن حول الوحدانية بقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[٢]

وعلى الرغم من ذلك إلا أنّه لم تصل دعوة أخناتون إلى التوحيد المطلق الذي عبّر عنه القرآن الكريم ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٣].

وقد جرت عادة المصريين أن يقيموا طقوسهم التعبدية كل صباح، وهي عبارة عن حركات وسجدات، تتخللها أناشيد دينية وإحراق البخور، «**كما وكانوا يقدمون القرابين وعندها يقوم الكاهن بفتح الحجرة الإلهية والتي تحتوي على الإله وذلك للتبرّك وتقديم النذور من الطعام والشراب ثم يقفلها عند المساء**»، إضافة الى ذلك كان المصريون يعبدون قرص الشمس وتدلنا على ذلك منحوتاتهم وصورهم فكلها فيها إيحاء ومقابلة بين ضوئه وظلمة الليل، وكذلك مقابلة بين

---

(١) سوسة، أحمد: «العرب واليهود في التاريخ» ص: ١٦٠.

(٢) سورة يوسف الآية٣٩.

(٣) سورة الشورى الآية١١.

الموت والحياة. كما وأن كافة الطقوس الدينية تُجرى وتنفذ باسم الملك وتصبح أكثر قدسية وتبجُّلاً عند حجرة قدس الأقداس حيث مركز الإله.

وقد عرف المصريون القدماء الصيام وكانوا يقومون به كفريضة دينية يتقربون بها من أرواح الأموات، وفي اعتقادهم أنّ الصيام يرضي الموتى ويواسيهم وذلك لحرمانهم من طعام الدنيا، وهو في الوقت نفسه تضامن معهم. وكذلك كانوا ـ إضافة إلى الصيام ـ يعبدون الآلهة وخاصة (أوزوريس) إلى جانب فروض الصلاة والحج وتقديم القرابين كما ويعرف الصيام لديهم بأنه فريضة دينية يتقربون بها إلى الإله أو أرواح الموتى ممزوجة بشيء من الطقوس المبهمة التي رسمها الكهنة ويمتنعون فيه عن بعض المأكولات وصيامهم نوعان: صيام الكهنة وصيام الشعب، فصيام الكاهن قد جمع بين كونه فرضاً أو استحباباً فكانت له مواعيده المحددة وقد يرتبط بالتصرف المفاجئ. ويقوم الكاهن من ضمن هذه الفريضة بخدمة المعبد لمدّة سبعة أيام متتالية من غير ماء قبل أن يلتحق بالمعبد وقد تمتد إلى اثنين وأربعين يوماً، والصيام يبدأ من طلوع الشمس إلى غروبها ويمتنعون خلالها عن تناول الطعام ومعاشرة النساء. إذ يمرُّ صيام الكاهن بمراحل عديدة حيث يصوم في الأيام العشر الأول عن أكل اللحم وشراب النبيذ، وفي ثاني عشرة أيام بعد تلقيه واجباته المقدسة ويصوم في ثالث عشرة أيام صوماً رغبةً منه لا فرضاً عليه.

واعتقد الكهّان أنّ الصيام له علاقة بالأسرار المبهمة فخلطوا بينه وبينها معتقدين أنّها تضفي القدسية عليهم، كما اعتقدوا ذلك في سائر الطقوس والعبادات، وكانت صلاتهم عبارة عن تراتيل سرية لم يسمحوا للعامة بالاطلاع عليها، وذلك ليضمنوا التبجيل والاحترام والتنعيم بما سيحصلون عليه من إرادات المعابد[1].

أمّا صيام الشعب فكان عبارة عن أربعة أيّام من كل عام تبدأ عندما يحلُّ اليوم السابع عشر من الشهر الثالث من فصل الفيضان.كما وهناك نوع آخر

(١) الدباغ، تقي: «الفكر الديني»، دار الشؤون الثقافية بغداد، ١٩٩٢، ص٨٥.

من الصيام حيث يحرم فيه أكل كلّ شيء من الطعام خلا الماء والخضر وذلك لمدة سبعين يوماً ويصومون في الأعياد وأعيادهم تكون وفاءً للنيل مثلاً، وفي موسم الحصاد[١].

ـ الحج: أمّا فريضة الحج عندهم، فتمثل بزيارة أماكن تواجد الآلهة في المعابد المنتشرة في المدن ومنها زيارة هيكل معبودهم (إيزيس) و(نتاح) في مدينة منفيس، و(آمون) في مدينة طيبة، وأيام الحج عندهم كانت من أسعد الأيام التي يتقربون منها بالدعوات وتقديم القرابين، وفق ما كان مألوفاً عندهم. وكانوا يغالون في الاعتقاد بسعادة أيام المراسيم الدينية الكبرى وكانوا يقولون: إنّ من يولد في هذه الأيام سيكون من أسعد الناس حظاً، ويزعمون أنه سيكون من كبار رؤساء الدين في المستقبل والحجاج كانوا يقدمون علامة على تعبدهم نصباً يثبتونها بطريقة بربرية في نقوش مثبتة في معابدهم القديمة ويقدمون النذور للآلهة وفي موسم الحج تقوم تجارة ضخمة حقيقية لهذه المناسبة.

أجل يمكننا القول بأنّ الديانة المصرية كانت تتأثر بالأحداث السياسية التي تحصل في البلاد، كما وإن وحدانية (أخناتون) لم تصل إلى التجريد المطلق الذي هو طابع الديانات السماوية، ولكن ظلت فكرة تعدد الآلهة فكرة مسيطرة ومن المحتمل أن عقيدة التوحيد قد ارتكزت أو استُمدّت من وحي إلهي بصورة مباشرة وقد ساهمت العديد من الأحداث في ذلك ومنها:

١. احتلال المصريين الكثير من أقطار آسيا، واتصالهم بها قد أطلعهم على ما فيها من آثار النبيين من شرائع وعقائد، فربما نالت هذه الآثار من نفوس المصريين شيئاً وانتقلت مع العائدين منهم إلى مصر.

٢. أن نبي الله إدريس عليه السلام الذي عرفه المصريون باسم (حورروس) أو(هورروس) هاجر هو وأتباعه من بابل إلى مصر سنة ٤٥٠٠ق.م. إذ كانت دعوته التوحيد وكان صدِّيقاً نبياً، وكانوا يعتقدون بأنّه من المحتمل أن يكون لدعوته أثر لاحق على عبادة المصريين. أيضاً بالنسبة لهجرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

(١) الصيام من البداية حتى الاسلام ص١١٤.

الى مصر، أمّا نبي الله يوسف عليه السلام الذي عاش في مصر مدّة من الزمن وظلّ فيها (عزيزها) فقد أخبرنا القرآن الكريم أنّه جادل بعض رفاقه جدالاً خفيفاً حول الوحدانية التي كان يدين بها في قوله:﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[1].

تأليه الفرعون:

كان هناك تنازع قوي بين الآلهة وهناك عدّة حروب بين إلهي القبلي والبحري وقد ظلّ الوضع هكذا مدّة طويلة إلى أن جاء إله قوي ادّعى أن روح الإلهين قد نزلت به وكان يضع فوق رأسه تاج الوجهين: القبلي والبحري ويضمهما تحت إمرته في شيء عظيم من الحزم لا يزيد عن كونه منفذاً فعلياً لأمر الإلهين. وكان هذا هو الفرعون العظيم «منفيس» وقد تمّ له ما أراد وأصبح هو الممثل للإلهين أو أصبح هو إلهاً حياً جامعاً بين القوتين اللتين ظلتا مفترقتين إلى عهده وكان يطلق عليه عدّة ألقاب مثل: مليك القطرين، هوروس وسيت، مصدر الخير والشر، والنور والظلمة، الخصوبة والجدب، وكانت زوجته تدعى بالملكة التي تحظى في كل ليلة. وهذا الفرعون كان عليه واجبات وله حقوق وذلك لأن كل شيء كان يتعلق به، وكان من واجبات الفرعون والتي يملي عليه أن يؤديها أن يعمل كل يوم عمل (هوروس وأوزيريس) وهي عبارة عن طقوس تعتبر بمثابة تجديد الخلق حتى لا يفنى العالم الحاضر وأن يعمل الملوك السالفون على الضرب على أيدي خصوم فرعون وجمع كلمة مصر من أقصاها إلى أدناها لكي يبقى الاتحاد أبداً. إذاً إن ما يفعله الفرعون ليس كما يفعله بقية الرعية من طقوس وعبادات فإذا كان النيل يفيض ويعود والزرع ينبت والمحصول جيّد والشمس تشرق وتغيب فإن ذلك سببه أن فرعون يقوم بالعبادات جيّداً وهكذا يحيا بنو الإنسان سالمين. فكان من الطبيعي أن يعتبر الفرعون إلهاً وأن يعاملوه معاملة الآلهة، فكان أفراد الرعية يشمون الأرض تحت قدميه ويقدسونه طالبين منه العفو والرضى. وهكذا كان

(١) سورة يوسف، الآية:٣٩.

للفرعون مقام خاص وله احترامات كهنوتية بل وإن عرشه كان أقدس ما أشرقت عليه الشمس في الكون وكانوا يفتدونه بأرواحهم وإذا أحسّوا بأنّ هناك شخصاً لا يفتدي الملك بكلّ ما لديه من غالٍ ونفيس مقتوا هذا الشخص وودّوا لو يبيدونه من فوق الأرض. وكان للمصريين عيد سنوي يجددون فيه العهد والولاء ويعيدون فيه مراسم التتويج الملكي حتى لا تقل هيبته إن طال به الزمن.

تأليه الفرعون ميتاً:

بنيت الفلسفة المصرية على فكرة أولية هي تأليه الملك أو حلول روح القدس في جسده وتعتبر هذه الفكرة هي اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية، وكانت الإشكالية الأولى التي طرحت في ذلك الوقت أن الملك يموت كما يموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذي من أولى صفاته الخلود ؟ ولكن ما إن طُرحت هذه القضية حتى وجد لها الكهّان حلاً، وهو أن الفرعون لا يموت كما يموت الناس، وإنما حين يعجز جسمه المادي عن النشاط العملي يخرج منه السّر الإلهي أو الروح المقدس ليحل في جسم الشاب الممتلئ بالقوة. إذاً فالروح واحدة تنتقل من جسد إلى آخر، ولكنّ هذا الجواب لم يشفِ غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود،فعندما أرادوا البحث في هذه الفكرة اصطدموا بالتقاليد الدينية القائلة بأن فرعون يعيّن خليفة له وهو في قبره وينصحه في المواقف الحرجة، ومن هنا وجدت مشكلة فلسفية جديدة ألا وهي: «كيف تقولون إن روح هوروس تغادر جسم فرعون المائت بعد عجزه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب النشيط ثم تعودون وتقولون:إن فرعون بعد رحلته إلى العالم الآخر يظلّ متصلاً بابنه يعاونه وينصحه ؟ وهكذا استمر الفلاسفة يطرحون الأسئلة والكهّان يجدون الحلول وما زلنا نرى حتى الآن الكثير من الإشكاليات التي لم يضعوا لها حلولاً.

د. عالم الموت

آمن المصريون بوجود حياة ثانية بعد الموت،ولقد أكدّوا اعتقادهم هذا بأمثلة مستمدة من الطبيعة ومنها أنه وكما يعود النبات إلى الحياة بعد الموت، فإن في مقدور الإنسان أيضاً أن يعود إلى الحياة بعد موته. وقد اهتم المصريون بالحياة بعد الموت مثل اهتمامهم بالحياة الأولى فكانوا يقومون بالأمور التالية: أولاً تحنيط الميّت[1]، ثانياً وضعهم الأواني والأطعمة في المقابر والتوابيت وفتح فم الميت ليتمكن من الكلام والأكل في الحياة الثانية التي سيحياها. كما ويعكس تحنيط الميت اعتقادهم بضرورة الاحتفاظ بالجسد نفسه وقد ساعدهم في ذلك جفاف التربة في الأماكن الصحراوية المخصصة لدفن الموتى (المقابر). والأسلوب الذي اتبعوه في عملية التحنيط كان يستلزم إزالة المخ والأمعاء، ثم يغلفون الجسم، من الخارج، بالنطروم (الصوديوم الطبيعي).

بعد ذلك تحشى التجاويف التي حدثت من تفريغ الأمعاء والدماغ بمزيج من النطرون والتوابل والزيت وتملأ بعد ذلك الفراغات بحشوة من الكتان، ثمّ توضع التوابل الحارة والزيوت على الجسم من الخارج أيضاً، ثم يلف بقطع الكتان ويوضع في التابوت المعدّ لهذه الغاية وتوضع الأجزاء التي تم تفريغها من الجسم في أربعة قدور صغيرة. عقائدياً إن عملية التحنيط هي محاكاة لما حدث

---

(١) حول التحنيط انظر: أ.ج.سبنر: «الموتى وعالمهم في مصر القديمة»، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة، ص:٢٨–٤٥.

في أسطورة أوزيريس، والتي تقول: إن رع أرسل ابنه أنوبيس (الابن الرابع لـ «رع») ليدفن أوزيريس بعد أن قتله أخاه ست.

واعتقد المصريون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغّرة منه تسمى القرينة تبقى بعد الموت، وكان في استطاعتها أن تنجو من الموت وذلك بحسب قدرتهم على الاحتفاظ بجسم الميت سليماً، وكانوا يؤمنون بالجنة ويعدون أنفسهم بالعيش مخلدين في ما يسمى بـ«**حقل الفيضان السعيد**» أي في عالم الحقائق السماوية الفنية وحيث الأمن والاستقرار. إذاً لقد كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت وبالجنة لمن عمل صالحاً وكان بريئاً من الذنوب.

وعرف المصريون طقوساً دينية متميزة تقام في أعياد فرعون أو أعياد الآلهة. ومثل هذه الأعياد ذلك الذي كان يقام في عيد الملك «سد» حيث يعاد الاحتفال الطقسي الذي تمّ فيه توحيد مصر على يدي الملك مينا، وينتهي الاحتفال برقصة يؤديها الملك نفسه، وهو يرتدي تنّورة قصيرة من الكتان ويعلق بها من الخلف ذيل حيوان. وأبرزهذه الأعياد:

ـ عيد «**حتحور**» عيد إلهة دندرة التي تقوم بزيارة حافلة بالمرح للإله حورس إله إدفو في العصر البطليمي.

- ـ عيد الإله «مين»(*Min*)، إله الخصب.
- عيد الوادي، وكانت تقام فيه الاحتفالات للإله «**آمون**» بأن تعبر الحشود نهر النيل لزيارة معابد الموتى من الفراعنة في الضفة الغربية. كما ويظهر أن جنازات الحكام الرؤساء كانت تجول بالمراكز الدينية الرئيسية في الدلتا، في سليس وهليبولس، ومنديس، وبهيت الحجر قبل عودتها إلى مقبرة بوتو نفسها حيث يستقبلون الجنازة برقصات تعبيرية دينية تسمى «**رقصات الماوو**». وبعد ذلك أصبحت هذه الرقصات تقليداً يمارسونه لكل الجنازات وليس فقط للحكام.



الديانة الفينيقية والكنعانية

أ-تمهيد.

ب-مصادر دراسة الديانة الكنعانية والفينقية.

ج-الآلهة.

د-الطقوس الدينية.

أ. تمهيد

نزح عدد من القبائل السامية عن الجزيرة العربية منذ عام ٣٠٠٠ق.م. واستقروا في المنطقة الممتدة من سفوح جبال آسيا الصغرى في الشمال إلى صحراء سيناء في الجنوب وقد عرفوا بالكنعانيين. كما وعرف من هذه القبائل الأموريون الذين استوطنوا في سوريا الداخلية إضافة إلى الفينيقيين الذين استقروا في المناطق الساحلية الممتدة من جبل الأقرع إلى جبل الكرمل (في فلسطين) أما المؤابيون فاستقروا في شرقي البحر الميت والآدميون اتخذوا من جنوب فلسطين وطناً لهم. وقد تميّزت القبائل الكنعانية بقوة تشبثها وارتباطها بوحدتها وباستقلالها الذاتي، فهي رفضت الاتحاد مع بعضها البعض لتشكيل أمبراطورية قوية كما حصل في مصر وبلاد ما بين النهرين واليونان، وكانت تتمتع بخصائص حضارية مشتركة ذات طابع سامي.

عرفت القبائل الكنعانية النظام الملكي في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد حيث تولّى الملك مهام شيخ القبيلة، أما في النصف الثاني من الألف الثاني ومع اشتداد غزو المصريين والآشوريين والحثيين لبلاد كنعان اضطر الكنعانيون إلى تأليف جيوش نظامية للدفاع قدر المستطاع عن بلادهم،وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العمران الموجود في كنعان لم يوازِ العمران الموجود في بابل وفارس وآشور ومصر من حيث الضخامة والسبب الكامن وراء ذلك قلّة إمكانيات

ملوكهم كونها محدودة. فيما يتعلق بميدان الأدب وكغيرهم من الشعوب كتب الكنعانيون الملاحم والأساطير مثل السومريين والمصريين واليونانيين وعثر حتى الآن على ملحمة وأسطورتين وقصة. وقد ساهمت هذه النصوص الأدبية في التعرف على الملامح الأساسية لمعتقداتهم الدينية وطقوس العبادة وكيفية ممارستها.

ب. مصادر دراسة الديانة الكنعانية والفينيقية

عثر المنقبون في خرائب أوغاريت على الساحل السوري على بعض المدوّنات الفينيقية والكنعانية والتي تشكل المصادر الأساسية التي أزاحت النقاب عن ديانة الفينيقيين، بالإضافة إلى آثار فينيقية لا تقلّ أهمية عن الأولى مثل المدافن وبقايا الهياكل والأنصاب والنواقيس وجميعها تم العثور عليها في خرائب صور وصيدا وبيبلوس وأوغاريت وإدوار.

هذا وقد وُجدت النصوص الأدبية مكتوبة على ألواح فخارية مبعثرة، ولكن بعد تحليلها (رموز الكتابة الأوغاريتية)من قبل الخبراء الفرنسيين تبيّن أنها كتابة مسمارية أي أبجدية وهي من أولى الأبجديات التي كتبها الإنسان وتنتمي إلى اللغات السامية وسوف نعرض فيما يلي لمحة عن مضمون النصوص التي تم العثور عليها في أوغاريت.

أسطورة «كرت السيد» (ملك صيدون):

اسم كرت(*Keret*) هو لقب البطل السيّد، دونت هذه الأسطورة (كرت) قبل الإلياذة بحوالي ثمانية قرون وقبل التوراة بحوالي ستة قرون إلا أنّها تعرضت للتشويه والضياع أما ملخصها فهو الآتي: «**ينظر كرت ملك هيبور إلى خرائب قصره المنهدم وموت زوجته وأولاده فيحزن لوضعه إذ كيف يمكن قيام حكم**

بدون قصرٍ ملكيّ وتنجب زوجته له وليّ العهد ليقوم بالمراسم الجنائزية بعد موته ويكمل أعماله من أجل إعادة بناء قصره،يغير كرت على مدينة بابل ويتزوج ابنة الملك التي أنجب منها ابنه البكر «يصب». وقد طلب هذا الأخير من أباه التخلّي عن عرشه ليحلّ مكانه، عندها غضب كرت وأنذر ابنه بقصاص إلهي واستعاد قوته وحصّن ملكه.

ملحمة «بعل» أو «بعل صفن» (بعل لبنان):

تتناول هذه الملحمة وصف الصراع القائم بين «بعل» إله المطر والعواصف وإله البحر «يم» والذي انتصر فيه بعل، ثم نشب بعد ذلك صراع جديد بين «بعل» و«موت» إله العالم السفلي وقد انتصر فيه «موت» وغُيّب بعل في باطن الأرض، هذا الأمر دفع شقيقته «عناة» للبحث عنه فلم تجده، فلجأت بعدها إلى الآلهة حيث ساعدتها في استخراج بعل الميت وإعادة دفنه من جديد ثم قصدت أيضاً مقام «إيل» ورجته بحرارة أن يشفق على «بعل» ويعيده ثانية إلى الحياة، فحقّق لها ما أرادت وأكمل «بعل» عيشه بهدوء وسلام، هذه اللوحة تمّ نقشها على سبع لوحات مشوّهة وغير متصلــلة.

أسطورة «أقهات بن دانيال» (الهرقلي):

تتناول هذه الأسطورة حياة الملك الحكيم دانيال الذي عُرف عنه شدّة احترامه للآلهة وعدم تأخره عن تقديم القرابين في موعدها، ليس لهذا الملك وريث يرثه، فوعده إيل بأن يرزقه ولداً شرط أن يسميه «أقهات». وتربط الآلهة بين نزول المطر وحياة أقهات وانحباسه بموته. تمكّن دانيال من الحصول على قوس جميل لولده يعطيه قوة إله، وقد أعجب هذا القوس الآلهة فسعت للحصول عليه حيث أرسلت «يطفن» خادم الإلهة «أشيرة» ليضرب «أقهات» ويأخذ القوس منه.

لبّى «يطفن» رغبة الآلهة وضربه حتى الموت ولكن القوس انكسر ووقع في الماء، وهكذا انحبس المطر بموت أقهات ويبست المزروعات وتلوّثت الأرض بدمائه.

عرف دانيال أن ولده قد مات، فطلبت فجمات وهي شقيقة أقهات من أبيها السماح لها بالانتقام لأخيها فذهبت متنكرة إلى مكان يطفن القاتل وسقته الخمر حتى سكر، إلا أن باقي الأسطورة ما زال مفقوداً ولم يتم العثور عليه.

قصة «الأشباح» (رفائيم):

إنّ الجزء المتبقي من هذه القصة ينحصر في ثلاث لوحات مشوهة تتحدث القصة عن إيل الذي دعا أرواح الأقدمين (الأشباح) إلى حفل تتويج بعل ملكاً على عرش حصل عليه بقوته وأعماله البطولية بمساعدة أخته «عنت» وتشتمل القصة على وصف يتضمن كيفية تقديم الذبائح والوليمة الاحتفالية.

ج. الآلهة

تميّز الكنعانيون كغيرهم من شعوب الشرق القديمة بعبادتهم لمظاهر الطبيعة وأسلافهم (على اعتبارهم أنصاف آلهة)وملوكهم وأبطالهم. فكان أن جعلوا لكلٍّ وجه من أوجه النشاط الإنساني إلهاً فأصبح لديهم آلهة للسماء والشمس والبحر والقمر والعواصف والمطر، إضافة إلى آلهة للصيد والملاحة والحرب وشفاء الأمراض والزراعة والخصب، وقد قدسوا إله الخصب واهتموا به اهتماماً كثيراً بشخص «**تموز**» (أدونيس) البطل و(عشتروت).

اشتهر الكنعانيون بعدم تسميتهم لآلهتهم بأسمائها الشخصية وذلك كشكل من أشكال الاحترام بل اكتفوا بذكر ألقابها وصفاتها وأفعالها وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث اعترفوا بالسيادة المطلقة لآلهتهم وبالسلطان الذي ليس فوقه سلطان، فقدّموا لها الذبائح والقرابين لنيل رضاها، ولم يكتفوا بذلك بل أقاموا لها التماثيل الحجرية البسيطة لعدم إجادتهم فن النحت والرسم ووضعوها في أقدس مكان من معابدهم.

ومن أشهر هؤلاء الآلهة:

« **إيل** » (*EL*):

هو الرئيس الأعلى لمجمع الآلهة عند الكنعانيين ورب السماء عرشه في السماء السابعة وهو بمرتبة «آنو» في ديانات سكان بلاد ما بين النهرين، وقد وضعته النصوص بأنه أبو الآلهة وخالق السماوات والأرض، وإله المحبة والسلام،وهو اللطيف والشفوق ومانح الخصب للبشر،موطنه الأصلي على الأرض عند منبع النهرين أي نبع أفقا في لبنان وعند بحيرة اليمونة المشهورة بجفاف مياهها وخاصة في فصل الصيف.

تروي الأساطير القديمة بأن قصة حبٌ نشأت بين «**أدونيس**» (تموز) وعشتروت وقد شهدت فصولها منطقة أفقا.تدعى زوجة «**إيل**» «**أشيرة**» أو «**أثيرة**» **أنجب منها ابنتين هما** «**عنت**» أو «**عناة**» أو«**إيلات**» وله أيضاً أبناء كثيرون هم الملائكة وعددهم سبعون (٥٠ ذكور، ٢٠إناث).

هناك ثلاثة آلهة تشارك «**إيل**» في حكم الكون وهم: «**بعل**» لحكم السماء والأرض،و«**موت**»لحكم عالم الأموات و«**يم**» لحكم البحار والمحيطات، ويلاحظ ورود اسم «**إيل**» في العديد من الأسماء:منها جبرائيل(رجل إيل)، إسماعيل (يسمع إيل)، هزئيل (رأي إيل)، بابل (باب إيل) والعديد غيرها.

« **بعل** » «*Baal*»:

تدلّ لفظة «**بعل**» على الربّ ومؤنثها «**بعلة**»، وله أسماء عديدة عُرف بها مثل «**أدون**» الذي تحول اسمه عند الإغريق إلى «**أدونيس**» ومثل «**النعمان**» صاحب القدرة على جلب الويلات والخيرات في الوقت نفسه،وهو يمثل الطقس بحسب أساطير أوغاريت،وقد نظّم الكون بعد انتصاره على إله البحر «يم» وهو إله مقاتل

وله صراع حادّ مع الإله «**موت**» إله مملكة الظلام والموت أو إله الجفاف. تميّز الإله «**بعل**» بدورته الحياتية وهي غير السنوية، بل هي عبارة عن سبع سنوات من الخصب وسبع سنوات من الجفاف«**موت إله الجفاف**»، وهذا يدلّ حتماً على أنّ هناك مواسم خصب ومواسم جفاف كل سبع سنوات وهذه الظاهرة موجودة في المنطقة السورية.

كثيرة هي البعال التي عرفتها أرض كنعان. إن اسم «**بعل**» ارتبط بأسماء المدن مثل: بعل حرّان، بعل بك (بعلبك) غير أنّ موطنه الأساسي هو في جبل صفن أي جبل الأقرع في سورية وهو مقرّه المقدّس.كما وتضمنت ملحمة «**بعل**»: «**في وسط جبلي المقدس، الجبل الإلهي في المكان المقدس**».

تصوره التماثيل في يده اليمنى صولجان وفي يده اليسرى رمز الصاعقة (عبارة عن رمح في رأسه شعلة) وعلى رأسه قبّعة لها قرون ثور. ولا بدّ من الاشارة هنا إلى أنّ الأرض التي تسقى بمياه الأرض فقط تسمى «**أرض بعل**» وهذا دليل مؤكّد على أن مياهها تأتي له من الإله «**بعل**». وكما روت الأساطير الأوغارتية فإن بعلاً هو ابن دجون وزوجته تدعى «**عناة**»، أما الأبعال الأخرى فهي: بعل العبري، وبعل العربي، وبعل أدير، وبعل بقاع (بعلبك) وبعل سابوس وبعل شافيم والعديد غيرها[1].

أدونيس (*Adonis*) وعشتروت (*Ishtar*):

اشتهر أدونيس بكونه إله الخصب عند الفينيقيين، وأصل الاسم آدون ويعني السيّد، أما حرف السين(س) فأضافه الإغريق حيث يعتقد الباحثون في الأساطير القديمة أن أدونيس من أسماء «**بعل**» وهو إله المطر والسحاب والبرق والرعد.

---

(١) راجع كتاب حسن نعمة: «ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة».

أساطير عديدة رويت حول قصة حبّ جمعت بين أدونيس وعشتروت وفي مناطق مختلفة من عالم الحضارات القديمة، ولعلّ أقدمها تلك التي رواها بانياسيس(*Baniasis*) في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد ورد فيها أن أدونيس مات بسبب إصابته بجروح أحدثها خنزير بريّ في ساقه فهبط إلى العالم السفلي، وقد دفع هذا الأمر عشتروت للبحث عنه بين الأموات لإعادته من جديد الى الحياة.

أمّا مركز العبادة الخاص بآدون فكان موجوداً في جبيل، وكانت تقام في المدن الفينيقية احتفالات للبكاء بمناسبة موت آدون في مطلع الصيف. وأخرى للفرح بإعادة إحيائه من جديد في مطلع الربيع وخاصة مع بروز أزهار الأقحوان الحمراء التي ترمز إليه. أما عشتروت فتعتبر الإلهة الأم وربّة الخصب والحب والحرب وقد عُبدت في جميع المدن الفينيقية.

عبد الكنعانيون أيضاً آلهة ثانويين مثل «يم» «**البحر الأول**» وشيش «**إلهة الشمس**» وداجون «**إله القمح**» وآشمون «**إله الشفاء وكان رمزه حيتين ملتفتين على عصا**» وموت «**إله الموت وملك العالم السفلي**».

د. الطقوس الدينية

اختار الكنعانيون التلال وقمم الجبال لبناء الهياكل والمزارات في كافة المدن والقرى السورية، فبحسب اعتقادهم هو المكان المناسب خاصة وأن الآلهة تفضل العيش في الأماكن المرتفعة.

في البداية كانوا يبنون حائطاً من الحجارة العادية عند منابع مياه الأنهار جاعلين منه مزاراً ومقصداً للزائرين المتدينين.ثم عمدوا بعد ذلك إلى نقل هذه المزارات إلى ساحات المدن العامة، وقد تم اكتشاف هذه المزارات في عمريت مقابل جزيرة أرواد في سورية ثم تطور فنّ العمارة إلى بناء الهياكل وذلك بعد منتصف الألفية الثانية ق.م. وصارت أبنية عادية، حتى إنّ النقود الفينيقية تضمنت رسوماً لهياكلهم وقد تم العثور عليها في مدينة بيبلوس جبيل. وتتألف الهياكل الفينيقية من ثلاثة أقسام: قلعة داخلية حيث يتم وضع تمثال الإله فيها،وقلعة أخرى خارجية مسقوفة، وأخيراً الباحة العامة المكشوفة أمام الهيكل. وأمّا القسم الداخلي وهو الأهم في الهياكل فيضعون فيه مذبحاً أمام تمثال الإله لاستخدامه في حرق البخور وتقديم الأقداس، حتى إنّ القاعة الداخلية سميت ب «**قدس الأقداس**» وكانوا يبنون مسكن الكهنة الذين يتولون الخدمة في الهيكل بالقرب من الباحة الخارجية. تميّز الفينيقيون والكنعانيون بعادات منها تقديم الهدايا والقرابين لآلهتهم، لدرجة أن حجم الهدية يجب أن يتناسب مع حجم الطلب

الذي يطلبونه من إلههم. أمّا فيما يتعلق بموضوع الضحايا فهناك ثلاثة أنواع: الضحايا البشرية والذبائح الحيوانية والهدايا وهي عادة ما تكون من الحليّ أو من ثمار الأشجار. كما وأنّ هذه الضحايا البشرية كانت تقدم عند حدوث الكوارث العامة مثل انحباس المطر، السيول الجارفة، الأوبئة وغيرها. أمّا الذبائح الحيوانية فتقدم في مناسبات الأعياد وفي حالات السرور والحزن. وبالإضافة إلى هذه الطقوس التي ذكرناها عرف الكنعانيون طقوس «**البغاء المقدس**» وهو ما يعرف أيضاً بـ«العهر أو الزنى المقدس» فهم يعتبرونه شكلاً من أشكال عبادة الخصوبة، هذ النوع من الطقوس عرفته الشعوب القديمة وهي إن دلّت على مستوى ديني منخفض.وهذا ما عبّر عنه المؤرخ الفرنسي ألبير فينسان (*Albert Vincent*) قائلاً: بغاية الأسف أنّه على مرّ القرون كان الفينيقيون يتعاطون الدّعارة والفحش باعتباره مقدّساً، وكانوا فوق ذلك يقدمون الضحايا البشرية قرباناً لآلهتهم وخاصة (بعل) المتعطش للدماء[1]. وقد تمّ العثور في صيدا وصور وجبيل وأوغاريت وغيرها على مجموعة من الجرار والأواني الفخارية التي كانت تُحفظ فيها الأطعمة والأشربة، إضافة إلى قناديل للإنارة وهذا دليل واضح على أنّهم كانوا يمدّون الميت بهذه الحاجيات لمساعدته في مشواره نحو العالم الآخر، مع العلم أنّه ليس من دليل يثبت صحة اعتقادهم بوجود حياة ثانية بعد الموت حتى الآن، فعاداتهم تقضي بتمديد الميت على ظهره وتوجيه رأسه نحو الشمال عند الدفن.

الفصل الثالث

ديانة الصابئة المندائية

أ. لفظ الصابئة.
ب. تاريخ الصابئة.
ج. الصابئة في فلسطين.
د. البحث في العقيدة الصابئية.
هـ. التعميد.
و. الصلاة عند الصابئة.
ز. الصيام في العقيدة الصابئية.
ح. كتب هذه الديانة.
ط. اللغة المندائية.
ي. أعياد ومناسبات الصابئة.
ك. المحرمات عند الصابئة.
ل. رجال الدين.
م. درجات رجال الدين.

أ. لفظ الصابئة

إن فريقاً من العلماء فسّر لفظة الصابئة بما يتفق مع الرأي ويعتمد القول أن الصابئة تركوا عبادة الأصنام ليعتقدوا بالتوحيد فيقال: «**إن لفظة الصابئة مأخودة من كلمة (سبأ) العربية بمعنى خرج من دين آبائه إلى دين آخر ومن صبأ النجم أي ظهر وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي ﷺ قد صبأ أي خرج من دين إلى دين**».

ويدعّم صحّة هذا التفسير أبو إسحاق الزجاج من قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ **أي ما** معناه «**الخارجين من دين إلى دين**» فيقال صبأ فلان يصبأ إذا خرج من دينه.

وقد ورد المعنى ذاته لكلمة صبأ في لسان العرب الذي يعدّ مرجعاً ومصدراً مهماً لتفسير الألفاظ فقد جاء في لسان العرب: وقد صبأ يصبأ صبئاً وصبوءاً، خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها.

وينضم إلى هذا الفريق بنو جذامة إذ يظهر في حديث لهم تفصيل أعمق في هذا الباب من تفسير كلمة صبأ إذ كانوا يقولون لما أسلموا صبأنا، صبأنا وكانت العرب تسمي النبي ﷺ الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام ويسمون من يدخل في دين الإسلام مصبوءاً ويسمون المسلمين الصُّبَاة. وقال ابن الأعرابي: «**صبأ عليه إذا خرج عليه ومال عليه بالعداوة**»[1]، وقد ذهب أكثر الباحثين القدامى والمعاصرين إلى هذا المعنى.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١/ ١٠٧ ١٠٨.

أما الصابئة فينتقدون إعادة أمر تسميتهم إلى انتقالهم من دين إلى دين آخر ويعرِّفون أنفسهم باسم (مندائي) فلا بدّ أن تكون تسميتهم بالصابئين قد جاءت من الأقوام المجاورين لهم.

ويحاول المستشرق نولدكه أن يحلّل كلمة صابئة مع ربطها باستخدامهم للماء فيقول: «**إن كلمة صابئة مشتقة من صبّ الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء**».

وتزيد الليدي دراور قاصدة المعنى السابق نفسه فتقول: «**إنها مأخوذة من كلمة (صبا) المندائية ومعناها الارتماس والاغتسال بالماء الجاري**»(١).

والتعريف الأصح يتلخّص في اعتبار أنّ الصابئة مشتقّة من الفعل صبَبَ صبّ الماء ونحوه، يصبّه صبّاً فصبَّ وانصب وتصبَّب أي أراقه وصببت الماء سكبته، ويقال صببت لفلان ماء في القدح ليشربه وماء صبّ كقولك ماء سكب.

والذي يدعو إلى تركيز اشتقاق كلمة صابئة على استخدامهم للماء أنّ الأقوام المجاورة لهم لاحظوا ارتماسهم بالماء وكثرة صبِّهم للماء على أجسادهم فسمُّوهم الصائين أو الصائة.

وهذا يرتبط بعقيدة أساسية عندهم لأن الشعار الرئيسي لديهم هو الارتماس بالماء الجاري واغتسالهم بالماء رمز طهارتهم اليومية وتسمى هذه الممارسة (مصبتة) أي التعميد.

ولكنَّ الإمام علياً عَلَيْهِ السَّلَامُ يورد معنى آخر للصابئة لاشتقاقها من الصبّ فيقول واصفاً أبا بكر حين مات: «**كنتَ على الكافرين عذاباً صبّاً**».

وإذا أردنا العودة إلى الأصل اللغوي لمعنى كلمة الصابئة فيظهر لدينا أن لغتهم مندائية آرامية انطلاقاً من أن الفعل (صبا) الآرامي نعني به يرتمس ويتعمّد وهم يقولون في صيغة الأذان عندهم: «**آنشب صابى بمصبتة**» أي أن كل من يتعمد بالمعمودية يسلم ويبين ذلك واضحاً حين يقولون في التعميد «(**صبينا بمصبتة**:

(١) دراور، ليدي، الصابئة المندائيون، ص: ٩.

أو بهرام ربّه) أيّ تعمّدنا بعماد إبراهيم الكبير»[1]. كما أن لديهم الكثير من العبارات التي تذكر كلمة (المصبتة) في طقوسهم.

ب. تاريخ الصابئة

إنّ تاريخ الصابئة حافل بالتنقلات والهجرات والمحن كما أنّه تاريخ عارم بالأسرار والخفايا التي ما زال بعضها غامضاً بالنسبة لكثيرين. ويعتبر الصابئة النبي يحيى عليه السلام نبياً لهم لذلك يعدّون أنفسهم من أهل الكتاب السماوي الذي تمثّل بالصحف التي جاء بها. لذلك وقبل الخوض في غمار تاريخ الصابئة لا بدّ من إضاءة حول حياة النبي يحيى عليه السلام.

كما تعرف أن ولادة النبي يحيى عليه السلام كانت بمثابة الأعجوبة والمعجزة وذلك لأن والده زكريا كان قد بلغ المشيب وامرأته كانت عاقراً فعندما رأى رزق الله سبحانه ينصب دائماً ويومياً على مريم ابنة عمران دعا ربه[1] قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2] ولم يكن من الله سبحانه إلّا أن استجاب دعاءه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]. عندها لم تسع زكريا فرحته وسعادته بالمولود المبارك وقد سمّاه يحيى «ذلك الاسم الذي لم يسبق له أن سمّي بهذا الاسم غيره واستفهم زكريا متعجباً كيف يكون له غلام وامرأته يائسة عقيم وهو

---

(١) الشيخ نزيه القميحا: قصص الأنبياء، ط٢، دار الهادي، ٢٠٠١م، ص: ٤٠٧.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٣٨.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣٩.

قد بلغ من العمر فأصبح شيخاً كبيراً»[١] فأجابه الخالق العظيم: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٢].

وإذا أردنا التفصيل أكثر في سرّ تسميته يحيى يمكن أن نورد ما قاله ابن كثير في تفسيره: «**قال قتادة وغيره: إنّما سُمّي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان. وروى العوتي وغيره عن ابن عباس: وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك في هذه الآية: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي بعيسى بن مريم**». وقال الربيع ابن أنس: «**هو أول من صدق بعيسى بن مريم**»، وفي قوله ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال قتادة: سيداً في العلم والعبادة وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلّا يحيى بن زكريا**»[٣].

وقد ورد ذكر النبي يحيى في أناجيل عديدة وفي عدّة مواضع منها ما جاء في الإصحاح الأول من إنجيل لوقا وفيها يرد ذكر ولادة النبي يحيى ومكانة النبي زكريا فعندما نقرأ نصوص هذه الأناجيل نشعر كأننا نقرأ القرآن ولكن بتسميات مختلفة وصياغة أخرى. وجاء في نص إنجيل لوقا ما يلي: «**كان في أيام هيرودوتس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من حزمَة**» أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات وكانا كلاهما بارّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرّب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقراً وكان كلاهما

---

(١) قصص الأنبياء، ص: ٤٠٨.
(٢) سورة مريم، آية: ٧ إلى ١٠.
(٣) ابن كثير، قصص الأنبياء، ج١، ص: ٣٦١.

متقدّماً في السّن فبينما هو يكهن في نوبة فرحته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرّب ويبخّر وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور فظهر له ملاك الرّب واقفاً عن يمين مذبح البخور فلمّا رآه زكريا سمعه يقول: إنَّ طلباتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيماً أمام الرّب ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس ويردّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرّب إلههم ويتقدّم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيّئ للربّ شعباً مستعداً. فقال زكريا للملاك: «**كيف أعلم هذا؟ لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها؟ فأجاب الملاك: وقال له: أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأُرسلتُ لأكلّمك وأبشّرك بهذا**»[1].

وبما أن الصابئة يعتبرون أنفسهم من قوم النبي يحيى عليه السلام فمن الطبيعي أن تأتي كتبهم على ذكره في مواضع كثيرة منها:

جاء في كتاب (أدراشي إد يحيا): «**ولد يحيى من أمه «انشبي»** وكان زكريا و«**أنشبي**» طاعنين في السّن ولكن ما حدث هو هذا: لقد شربت أنشبي ماءً فحملت من ذلك الماء ورأى أحد الكهان اليهود فيما يرى النائم بأن زكريا سيكون أباً وسيكون ابنه نبياً فانتظر اليهود يحيى ليقتلوه وبعد تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع دقائق[2] ولدت «**أنشبي**» وليدها وجاء «**أنوش أثرا**»[3] وأخذ الطفل وحمله إلى الفرات «**زيوا**»[4] ووضعه تحت شجرة تحمل ثمراً تشبه الأثداء. أخذ يحيى

---

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح، ص: ٨٩.

(٢) يقول الصابئة المندائيون: إن الله أراد أن يميز يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم(عليهم السلام) فجعل مدّة حملها أكثر من تسعة أشهر.

(٣) روح من أرواح الحياة نوش يعني رجلاً، وأثرا يعني كائناً سماوياً.

(٤) النهر السماوي الذي يقابل اسمه الفرات الدنيوي.

يتغذّى من حليبها مدة ثلاثين يوماً أرسل «**أنوش أثرا**» بعدها امرأة تدعى «**سوفان لوليتا**» للعناية به وفي اليوم الواحد والثلاثين قدم أحد «**الأثرى**» لتعميده **في** (اليردنة)[١] وعلّمه بعد ذلك الأبجدية وجلب كتاب الأرواح[٢] ووضعه بين يديه وعلمه القراءة والتلاوة وحين بلغ يحيى الواحدة والعشرين من عمره عمّده جمع من «**الأثرى**» وجعلوه (تلميذه) ثم علّموه جميع الطقوس والشعائر الدينية وأمروه أن يرافق «**أنوش أثر**» إلى أورشليم ليكون هناك نبياً وجاؤوا بزورق استقله الاثنان في نهر الأردن وصلا إلى أورشليم. وحين وصلا نادى «**أنوش أثرا**» بصوت عالٍ: «**مَنْ مِنَ الموجودين قد فقد طفلاً فليأت وليطالب به. وسمعت خادم«أنشبي»** النداء ورأت الفتى فذهبت إلى سيدتها وزفت إليها الخبر قائلة لِ «**أنشبي**»: **وجهه يشبه** وجه «**زكريا**». وكانت «**أنشبي**» متقدمة في السّن تقية طاهرة وكان زكريا **شيخاً** أيضاً. وحين قالت الخادم: إنني رأيت فتى في زورق في النهر يشبهكما **نهضت** «**أنشبي**» وجرت مسرعة إلى النهر دون أن ترتدي عباءتها وتغطي رأسها. ولمّا شاهد زكريا ذلك غضب لنزقها وطلّقها، ولما شاهد شامس ذلك قال له: «**إني لأعجب لك أن تطلق زوجك دونما سبب. لقد خرجت فرحة حين علمت أن ابنها على قيد الحياة**» فأجاب زكريا: «**سامحني يا مولاي لقد ذهبت شبه عارية فطلّقتها دون أن أعرف سبب فعلتها**».

وجاءت «**أنشبي**» إلى النهر واندفعت نحو يحيى فعانقها وقبلها فوبّخه «**أنوش أثرا**» لتقبيله امرأة يهودية[٣].

---

(١) اليردنة في الأصل نهر الأردن، وأصبحت تطلق كاسم لأي نهر.

(٢) سدرة او نشمانة.

(٣) يكره الصابئة اليهود كراهة مطلقة، لقيام اليهود بقتلهم ولردهم عن العقيدة التي جاء بها النبي يحيى.

أجاب يحيى: «سامحني أيها المولى لقد وضعني الرب[1] في رحم هذه المرأة تسعة أشهر فهي أمي وقلب كل ولد يحنّ إلى أمه». قال أنوش أثرا: «**ذلك حقّ يجب على المرء أن يكرّم والديه**». ذهب يحيى عليه السلام بعد ذلك إلى أورشليم وفتح عيون العميان وشفى المرضى وجعل الكسيحين يمشون على أرجلهم. وغضب الكهّان وجاؤوا إلى يحيى وأمروه بمغادرة أورشليم في الحال. رفض يحيى ذلك وتحدّاهم قائلاً: «**جرّدوا السيوف واضربوني وهاتوا الناس وأحرقوني وبالماء أغرقوني**» أجابه الكهان: «**نحن نعلم يا يحيى أنّ السيوف لن تنالك وأنّ النار لن تحرقك وأنّ الماء لن يغرقك**». وحين بدأ يحيى بتلاوة «**الكنزاربه**»[2] تكلّمت طيور الهواء مسبّحة بحمد الله وفتحت الأسماك أفواهها بالدعاء (الياة العظمى)»[3].

إذا تأملنا هذه القصة في الكتب الصابئية نلاحظ أن هناك تسميات غريبة وحتى الحوادث أكثر غرابة فيما يتعلّق بكيفية حمل أم يحيى عليه السلام وكيفية ولادته وما تمّ تصويره من تضحية الأم التي أدّت بها إلى طلاقها ولكنْ هناك رموز عديدة ومعانٍ مرتبطة بعقائد صابئية بتبعيتهم للنبي يحيى عليه السلام وهناك بعد إنساني حرصت الرواية على تبيانها من خلال حنين يحيى عليه السلام إلى أمّه على الرغم من كل الضغوطات الخارجية كونها يهودية.

ولا بأس في أن نذكر كتاباً آخر من الكتب الصابئية التي تطرّأت إلى ذكر ولادة النبي يحيى عليه السلام فقد جاء في كتاب «**كنزاريا**»:

«**وفي ذلك العهد يولد ابن اسمه يحيى بن أبوصارا زكريا ويأتيه في شيخوخته** ويكون عمر أنشوي مائة سنة، حينما تحمل به وتلده في هرمها. وأما يحيى، فسوف ينشأ في أورشليم لأن الإيمان يكون في صدره وسوف يطوف الأردن

---

(١) المقصود (بالرب) هنا (الحياة).

(٢) الكتاب المقدس للصابئين المندائيين.

(٣) أساطير صابئية: ص ٢٣ ـ ٢٦.

ويعمّد الناس مدّة ٤٢ سنة قبل أن يأتي العالم عطارد المتجسّد وبعد ولادة يحيى في أورشليم، بينما يطوف صقع الأردن ويعمّد سوف يأتي مشيها[١] ويتقدّم بتواضع، ليُصطبَغ ويُنتفَع بحكمته، لكنّ مشيها سوف يعبث بمذهب يحيى، ويغيّر عمار الأردن»[٢].

نلاحظ أن هذه الرواية قدّمت إيضاحات مكانية وزمانية يتخلّلها عقائد فلكية (يعمد الناس ٣٢ سنة قبل أن يأتي العالم عطارد المتجسّد) وأيضاً أماكن تدخل كل صميم تاريخهم (أورشليم، الأردن..).

هذه بعض الروايات المقدّسة عن ولادة النبي يحيى ولكن فيما يتعلّق بوفاته فهل تنساها الكتب المقدسة الصابئية حيث يتم وصف حالة يحيى قبل الموت ووصاياه فماذا جرى؟.

«إنه أحسَّ بدنو أجله، فقال لزوجته: ماذا أنت صانعة من بعدي؟ قالت: أنقطع عن الطعام والشراب تعجيلاً لأجلي، حتى أذهب وأنضم إليك فقال يحيى: بل ستأكلين وتشربين ثم لا تخطريني ببالك. قالت: سأعتزل الغسل، ولا أضفر شعري ما بقيت حتى أذهب، فقال يحيى: إنك لن تمضي ما تقولين، بل ستغتسلين وتضفرين شعرك وأصير عندك نسياً منسياً. قالت: سأنقطع في خبائي، لا أرى إنسياً حتى أموت وأنضمّ إليك، فقال يحيى: بل ستنقادين لإلحاح ذوي القرابة والأصدقاء فيخرجونك من خبائك وتنسيَنّي. قالت: وما عسى أن أزيد على ذلك؟ قال: كل ما تكلّمت به إنّما هو خفة ورعونة، إنّ خير ما تعملينه من بعدي: الابتهال إلى الله، ودعوة العلماء ليأكلوا ممّا تذبحينه لأجلي، فيصلّوا عليّ وتبقين أنت على بشاشتك. وما إن أتمّ يحيى حديثه مع زوجته حتى وافاه منداهي (أبوه) متمثلاً بصورة فتى وطلب إليه أن يعمده فوعده يحيى أن يفعل ما يريده في الغد،

---

(١) المسيح.

(٢) مجلة المشرق، لسنة ١٩٠١.

فلمّا كان الغد وافاه منداده‍ي، وهو يصلي، فظنّ أنّه جاء ليتعلّم الصلاة، ولكنه أخذ قبساً ورمى به يحيى فنام ودعا (منداده‍ي) الله جلّ جلاله أن يجعل النهار أربع ساعات فأجابه الباري إلى دعائه، فلمّا استيقظ يحيى من سباته بعد مضي أربع ساعات، ذهب إلى الماء الجاري فاغتسل وصلّى، وعندها طلب إليه الفتى (منداده‍ي) أن يعمّده، فنزل يحيى إلى النهر، وأمر الفتى أن يتبعه، فأخذ ماء النهر يرتفع بالتدريج، حتى غمر ثياب يحيى فأسرع يحيى إلى اليابسة، فنزل الماء، ولما عاد يحيى إليه، عاد الماء إلى الارتفاع، وتكرّرت الحال ثلاث دفعات، فلما كانت المرة الرابعة، أسرّ منداده‍ي إلى الماء أن لا يرتفع، فظهرت الطيور والأسماك ترفل بحلل بيض، وأحاطت بيحيى ومنداده‍ي، فأدرك يحيى السرّ، وصاح: (تبارك اسمك يا منداده‍ي)، وقبّله من جبينه، فظهر منداده‍ي بمظهره السماوي، فأراد يحيى أن يلمس يده، فردّ عليه الملاك (إن تمسّها تموت)، فردّ يحيى إنه يتمنى ذلك الموت؟ ليذهب إلى عالم الأنوار (اكمي دنهوره) فأعطاه منداده‍ي يده، فلمسها يحيى، فسقط جسده للحال ميتاً ورجلاه في الماء، وسائر جسده خارجه، ولحقت نفسه بنفس منداده‍ي وبينما الروحان تسبحان في الفضاء، رأت روح يحيى جسده مطروحاً على الأرض، تنهشه الطيور من كل جانب، وتأكل الأسماك به من جانب آخر فتأوّهت، فسألها منداده‍ي عن السبب؟ فأجابت إنها خلّفت وراءها أطفالاً كانت تودّ أن تقوم بأودهم، فردّ الملاك عليها: «ما لهذا تأوّهت، ولكنك نظرت إلى جثتك تنهشها الطيور والأسماك فجزعت، ولكني سأجعلها في حرز حريز، وعندها أخذ منداده‍ي حفنتين من التراب، وألقاهما على جثة يحيى، فكانت قبراً له. واستمرت الروحان في السير سوية حتى بلغتا نهر (دخشاشة)، وهو النهر الذي يفصل بين المطراني والفردوس، فركبتا زورقاً انتهى بهما إلى عالم الأنوار فأقام يحيى في قصر منداده‍ي»[1].

(١) مجلة التراث الشعبي: ٦/ ٧، ص: ٦٥.

نلاحظ من خلال هذه الرواية التي تتحدَّث عن وفاة النبي يحيى تواتراً كثيفاً لبعض الرموز المقدّسة عند الصابئة مثل: الماء عالم الأنوار الملاك المطراني... لذلك يمكننا تقدير مدى ارتباط الصابئة بالنبي يحيىعليه السلام وتقديسهم له وتصويره كمثال للحكمة والصبر.

على كل حال، فهذا ما تذكره الكتب المقدّسة عن وفاة سيدنا يحيى، أما كتب التاريخ فلم تغفل عن ذكر النبي يحيىعليه السلام إذ تتحدَّث عن أن «**هيرودتس الحاكم الروماني أراد الزواج من ابنة أخيه، فأباح اليهود له ذلك، فاستنكر النبي يحيىعليه السلام هذا الزواج ورفع صوته مطالباً بمنعه فطلبت (يهروديا) والدة العروس (سالومي) من ابنتها إقناع هيرودتس بقطع رأس النبي يحيىعليه السلام والتخلص منه فذبح يحيىعليه السلام وجيء برأسه على طبق من فضة إلى حفل ماجن راقص، وكؤوس الخمرة تدور على الأصفياء والفتيات والعرايا راقصات مغنيات**»[1].

إذا أردنا أن نقارن النصوص الصابئية بالنصوص الإسلامية نجد اختلافاً كبيراً، أما النص التاريخي فهو قريب إلى هذه النصوص الدينية التي جاء فيها حول وفاة النبي يحيى وسبب موته أنه روي عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام، أنه قال:

«**إن ملكاً كان على عهد يحيى بن زكرياعليه السلام لم يكفه ما كان عليه من الطروقة حتى تناول امرأة بغياً، فكانت تأتيه حتى أسنّت، فلما أسنّت، هيأت ابنتها، ثم قالت لها: إني أريد أن آتي بك الملك فإذا واقعك فيسألك ما حاجتك فقولي: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكرياعليه السلام، فلما واقعها سألها عن حاجتها، فقالت: قتل يحيى بن زكرياعليه السلام فلما كان في الثالثة بعث إلى يحيى فجاء به فدعا بطشت ذهب فذبحه فيها وصبّوه على الأرض فأخذ الدم يرتفع ويعلو وأقبل الناس يطرحون عليه التراب فيعلو عليه الدم حتى صار تلاً عظيماً ومضى ذلك القرن فلمّا كان من أمر بخت نصر ما كان رأى ذلك الدم فسأل عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتى دلّ على شيخ كبير،**

(1) المرجع نفسه.

فسأله فقال: أخبرني أبي عن جدي أنّه كان من قصّة يحيى بن زكريا عليه السلام كذا وكذا وقصّ عليه القصة والدم دمه قال بخت نصر: «لا جرم لأقتلنّ عليه حتى يسكن فقتل عليه مقتلة عظيمة حتى سكن الدم»[1].

(١) الشيخ نزيه القميحا، قصص الأنبياء، دار الهادي، ط٢، ٢٠٠١م، ١٤٢٢هـ، ص: ٤١٧-٤١٨.

ي. الصابئة في فلسطين

قبل الخوض في حياة الصابئة في فلسطين وأسباب هجرتهم منها إلى العراق وإيران والواقع والاضطهاد الذي كانوا يعيشونه هناك لا بدَّ من الإضاءة على واقع النبي يحيى هناك وعلاقته بالآسينيين ومسيرته في فلسطين.

بداية لا بدّ من تعريف من هم الآسينيون: هم طائفة يهودية أصبحت فيما بعد مستقلّة عن عامّة اليهود وانفردت بعقائد وأفكار خاصة بها وبالتالي أقامت هذه الطائفة في الصحراء بعيداً عن الناس.

وحينها قام النبي زكريا أسوة بغيره فألحق ولده يحيى بطائفة الآسينيين عندها نشأ يحيى بينهم وهناك عرف باسم يوحنا المعمدان. «**وخلال بواكير رجولة عيسى بدأت إشاعة مؤدّاها أن يوحنا قد انشقّ عن جماعة الآسينيين وأنّه كان يعيش وحده في البرية، وقد ارتدى ثوباً بسيطاً من وبر الجمال، مع نطاق من الجلد حول خصره، وبدأ يعظ الجماهير مباشرة، ولم يصبر على فترة التدريب الطويلة، التي كانت ضرورية لأيّ شخص يرغب في العضوية الكاملة في إخوان الآسينيين وهكذا كانت حركته الجماهيرية**»[1] وهكذا تابع مسيرته ساعياً إلى اجتذاب الناس واستقطاب جمهور كبير غير آبه لقانون السلوك الأسيني المتمثل بالسرية التامة وعدم البوح بأسرار جماعة الأسينيين حتى لو عذب المرء حتى الموت.

(١) عيسى يبشر بالإسلام: ٥٦.

وقد نتج عن مخالفة هذا الشرط تسلل الرومان والأعداء من اليهود لإفشال حركته عندها عرف يوحنا بما يتم التخطيط له من قبل الأعداء فوصفهم بالأفاعي وبالتالي تغيرت عقائد كثيرة في دعوته واختلفت عن العقائد اليهودية في كثير من الأفكار فأصبحت دعوة النبي يحيى عليه السلام دعوة عقيدية جديدة حيث انضم إليه الكثير من أبناء البلاد من وطنيين وأصحاب عقائد قديمة ومن اليهود حتى والجدير بالذكر أن السيد المسيح انضم إلى الدعوة الجديدة «**فقام نسيبه يوحنا بتعميده في مياه الأردن**»[1]. من هنا نشعر أن فلسطين أثناء مسيرة النبي يحيى عليه السلام بدأت تنقلب رأساً على عقب وتحدث فيها تغيرات جذرية وإذا تتبعنا الأحداث التي جرت بعد ذلك يتبين لنا واقع الأسينيين والصابئة في فلسطين وماذا حدث معهم فيما بعد.

وكان يوحنا بعلمه وحكمته يعلم ماذا ينوي الأفاعي فعله وأنهم سينجحون قبل أن يشرع في القتال ولذلك استبق الأمور وعمّد عيسى فكانت معموديته مصدر قوة له، وأتاحت له كثيراً من الارتياح على الرغم من أنه كان متأكداً أن دعوته لا تنتهي بانتهاء حياته.

وبالفعل حدث كما توقع يوحنا فقد قام اليهود بالحيلة والخداع بتقوية شوكتهم عن طريق قيامهم بالتعاون مع الملك هيرودتس بقطع رأسه وقد سبق ذكر كيفية وفاته بالتفصيل في الصفحات السابقة. «**وكان يحيى واضعاً كل الاحتمالات فهو قام بتعميد عيسى وإدخاله في حركته وبتحضيره ليتسلّم المهمة من بعده وبالفعل فقد تولّى عيسى المهمّة وأكمل مسيرته من بعده**»[2].

---

(١) مخطوطات البحر الميت: ٣٢.

(٢) عيسى يبشر بالإسلام: ٥٨.

بدأت الصعوبات بعد موت يوحنا فأخذ عيسى يواجه رفضاً من قبل أتباع النبي يحيى عليه السلام ولم يعترفوا بعيسى وذلك لاعتقادهم بأنه «**خرج عن الدين وقاد الناس إلى دين آخر وباح بالعقائد الباطنية وجعل الدين أكثر يسراً**»[1].

وفي هذا الصدد تعبّر بعض النصوص الصابئية عن سبب رفضهم لعيسى حيث جاء على ديوان (حرّان كوتيه)[2] وصفاً لعيسى عليه السلام: «قد حرف لكلمات النور وأبدى لها بالظلام وغيّر دين أولئك الذين كانوا على ديني وبدّل جميع الشعائر (ابيدائا) وأقام هو وإخوانه في جبل سيناء ودعوا لأنفسهم جميع الناس وجلبوهم لدينهم وأطلقوا عليهم اسم كريستيانا وسموا على اسم مدينة الناصرة (نزوته مدنتا)»[3]. وعلى الرغم من كل المتاعب التي تعرّض لها يوحنا ومن بعده عيسى إلا أن عقيدة النبي يحيى التي كانت متميزة انتشرت على الصعيد البشري واتسعت على الصعيد الجغرافي حتى أصبح اليهود يعانون خوفاً وحذراً من أن تشكل هذه العقيدة خطراً على العقيدة اليهودية لذلك أخذ اليهود يعدّون العدة بكل ما لديهم من قوة وحيلة فتكاثرت قوى الشر الوثني الروماني واليهودي فأقامت المذابح للصابئين وبدأ الواقع المرير يغزو الصابئة في فلسطين فذبح عشرات الألوف منهم لذلك فرّوا بدينهم متّجهين نحو الشمال.

بهذا نكون قد أعطينا لمحة سريعة عن بداية انطلاقة عقيدة الصابئة وتفرعهم كقوم للنبي يحيى عليه السلام في فلسطين. أما كيف كان واقعهم في فلسطين وما الأسباب التي دفعتهم إلى أن يهاجروا إلى العراق وإيران، فهذا ما سنعرفه في السطور القادمة. من هنا سنحاول عرض حالة الصابئة في فلسطين التي هي في نفس الوقت سبب هجرتهم إلى العراق وإيران.

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون: ٤٢.

(٢) من الكتب المقدسة عند الصابئين.

(٣) الصابئة المندائيون: ٤٦.

د. البحث في العقيدة الصابئية

لا عجب في اعتبار القرآن الكريم المعجزة الخالدة عبر الأزمان والأمكنة، فقد حَوَت صفحاته قصصاً وأحداثاً انطبعت في تاريخ أمم وشعوب كثيرة ومنها الصابئة. لذلك كان القرآن الكريم ملهماً للباحثين المسلمين للبحث والتنقيب والعناية بالديانة الصابئية نظراً لورود ذكرها في القرآن الكريم بوصفها ديانة كتابية سماوية كاليهودية والمسيحية.

ولكن كما هو الحاصل دائماً في أغلب الدراسات والبحوث، فقد اختلفوا في طبيعة هذه الديانة فمنهم من جعلها ديانة وثنية قائمة على عبادة الكواكب والنجوم والملائكة كامتداد لصابئة حرّان أو يسجدون إلى كائن تحت اسمه الآخرون عن جهل من العبادة المندائية المقدسة (بشمهيون او هي ربي) وتعني باسم الحي ربي[1].

والجدير بالذكر أنهم كانوا مهددين دائماً بالخطر بسبب شبهات تتعلق بعقائدهم في جنوب العراق فكثيراً ما يحدث الاعتداء عليهم لتهم وشبهات عقائدية تدور حولهم أقلها أنهم يعبدون الكواكب والنجوم أو يزهقون أرواح المحتضرين[2].

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٢٨.

(٢) نفس المصدر، ص: ١٩.

ومنهم من ردّ جذور العقيدة الصابئية إلى حضارات بابل وأشور وآخرين جعلوا أهلها من المجوس وأخيراً وُجد فريق ضمّها مع الديانات السماوية يعامل أبناؤها معاملة الكتابيين ولهذا أخذت منهم الجزية آنذاك.

وهناك فريق جعلهم ملحدين وجرّدهم من الدين فقال بعض الباحثين منهم: إنهم لا يعتقدون بدين أو شريعة، ومنهم من قال بأنهم طائفة من المشركين لا كتاب لهم.والصحيح أن ديانة الصابئة تعتمد في عقيدتها على مبدأ التوحيد والإيمان بالله الواحد.

هـ. التعميد

من أهمّ الطقوس المندائية يأتي في الدرجة الأولى التعميد (المصبته) وذلك «**لارتباط طقوسهم بالماء إذ نحت اسمهم من عملية الارتماس في الماء الجاري ويعني مصبته وهو مأخوذ من صبأ الأراية أي اغتسل**»[1] فالماء يأخذ في عقائد الصابئية حيزاً كبيراً فهو لا يعتبر رمزاً للحياة فحسب بل إلى جردة معينة الحياة نفسها ذلك لأنه مصدر استمرار البشرية وخصب الحياة والنسل. إن الماء يحتوي على سائل قادر لا على إخصاب الأرض بل النساء أحياناً، حيث يظهر في سيرة يوحنا المعمدان: «**لقد أعطى انش أثرا، انشبي ماء من البرونة لتشرب ومن ذلك أصبحت حاملاً وزكريا وانشبي كانا شيخين وحدث أن شربت ماء وأصبحت حاملاً من ذلك الماء**»[2].

ولتبيان مدى أهمية الماء ومكانة التعميد بالنسبة للصابئة نتوصل بالعلاقة الجدلية بين الماء والنور لأن الماء الذي يعكس النور برأيهم يعدّ شكلاً من أشكالاً النور ولإثبات ذلك تقول دراور حول هذه الجدلية: «**تتصل كلمة نهر المستعارة ربما من اللغة العربية نهر ويرينا الأصل نهركم، وثيقة العلاقة بين معنى النور والماء**

---

(١) نفس المصدر، ص: ٥١.

(٢) دراور، الصابئة والمندائيون، ص: ١٦٨.

في الفكر السامي ففي اللغة المندائية لدينا كلمة نهر ونهوراً أي نور وفي العربية لدينا نهر ونهار»[1].

والمغزى خلف هذه الممارسة للتعميد أنها تعتبر احتفالاً دينياً يحوي إجراءات وصلوات تتوافق مع طقوس الاغتسال ينتج عنها ارتداء الشخص المعمَّد حلة النور ومستشفياً بماء الحياة لتقوية جسمه فهو واحد من المناقيل التسعة يكون منها ثمانية ماء أرضياً والتاسع هو ماء الحياة؛ فيجلب هذا الشخص المعمَّد جميع خواص هذا الماء السماوي.

والعماد المندائي يمارس بثلاثة أنواع كل نوع يحتاج إلى مستلزمات وشروط وله أهداف ووظائف:

١ . مصبوتاً

«وهو العماد العام ومن مستلزماته الماء الجاري الذي عوّض عنه فيما بعد بأحواض الماء التي تقام عادةً داخل المندي مع إكليل الريحان أو الآس إشارة إلى الحياة والطيب، وكل يشترط الملابس الدينية»[2].

وخلاف المجوس واليهود والمسيحيين يقول المندائي عند المصبوتا:

«رسمي لا يكون بالنار ولا بالزيت ولا بالمسح رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي»[3].

أما الذي يقوم بإجراء هذا التعميد فهو الكاهن يوم أحد ويستخدم هذا النوع من التعميد الكامل للقضاء على نجاسات كبرى كالزواج، الولادة، التماس مع الميت وأيضاً للتطهير من خطايا أخرى كالكذب والنميمة ويجب أن يقوم

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٠.

(٢) مجلة مندائي: ٤٢/ ١٩٩٤.

(٣) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٦.

المندائي بالمصبتة بعد أي عراك حار وبعد أي عمل يخجل المرء من تبيانه والخطايا الكبيرة كالسرقة والقتل والزنا التي تتطلب أثراً من عماد واحد.

٢. العماد الشخصي

ويسمى (طماشة) وهو مجرّد اغتسال من النجاسات كالجنابة[١]، وغيرها ولهذا العماد طريقة خاصة في ممارسته حيث يجب أن تتم الطهارة في الماء الجاري ثلاث دفعات متتالية دون الاستعانة بأحد، والنفاس وبعد لمس الميت وبعد المضاجعة والاحتلام والاتصال بشخص نجس وهو واجب على المرأة بعد الولادة.

٣. النوع الثالث يسمى (رشامة)

وهو بمثابة «**الوضوء ثلاث مرات يومياً وتغسل خلاله أعضاء الجسم الخارجية**»[٢].

من هنا نلتمس مدى احتلال التعميد والاغتسال المكانة الواسعة في حياة الصابئة خاصة في المناسبات والأعياد ومراسم الزواج حتى للكبار يكون التعميد الطقس الأساسي في العقيدة الصابئية.

في مدينة الأهواز يتعمد الصابئة المندائية في نهر كارون وفي منطقة المزرعة نهر شاور وفي المحمرة نهر اروندرود والخفاجية (سوسنكرد) نهر الكرخة.

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص: ٥٦.

و. الصلاة عند الصابئة

المعروف أنه في الإسلام الصلاة فريضة واجبة على كلّ مسلم ومسلمة ولها أبعاد ومعان معنوية كثيرة كذلك نجد عند الصابئة فالصلاة فرض مكتوب ولها أوقات مخصصة وكيفية محددة. وهي عبارة عن قراءة وتبريكات مع الانحناء كلّما وردت كلمة السجود في النص المقروء كقولهم: «**قوموا أيها المسلمون المؤمنون اسجدوا وسبّحوا لله العظيم**»[1].

وهناك أذكار كثيرة تتلى أثناء هذه الصلاة قد تستغرق الساعة وربع الساعة تقريباً ومن جملة هذه الأذكار دعاء الاستغفار الذي هو طقس يمارسه الذابح أو صلاة لمغفرة الذبح وجاء فيه: «**ليباركني اسم الله المتعال واسم الملك ملكاً منداهي المقرب من عرشه أنني قد أديت عمل الذبح بسكين حديدية بأمر من الله تعالى وأنه غافر لذنوبي. اللهم اغفر لي ذنوبي وارحمني ولا تحرمني من شفاعتك. ليباركك اسم المتعال وملكاً منداهي**»[2].

أما أوقات الصلاة عندهم فمنهم من يعتبرون أنها في عهد آدم كانت سبعاً: الصبح والظهر والعصر والمساء والعشاء، وصلاتين فيما بينهما. ولكن النبي

---

(١) نفس المصدر السابق، ص: ٥٧.

(٢) برنجي، الصابئة المندائيون، ص: ٢٣٧.

يحيى أراد تخفيف الأمر عليهم فجعلها في ثلاثة أوقات: قبل طلوع الشمس وعند زوالها وقبل غروبها.

ويفضل الصابئة أن يخصص أيام الآحاد للصلاة الجامعة وهذا يذكرنا بيوم الجمعة الذي يعتبره البعض أقدس الأيام وتخصص فيها صلاة الجماعة لذلك يظهر أن يوم الأحد عندهم كان يوماً مميزاً. **«إضافة إلى صلاة الجماعة التي تقام في المندي هناك صلاة شخصية يصليها المندائي الجهة المباركة»**[١]. ولهذه الصلاة شروط وسمات يجب أن يتبعها المصلي حيث يجب أن تكون ثيابه طاهرة وأن يتقدم إلى الصلاة حافي القدمين رافعاً يديه مع انحناء قليل ويتلو سبع أذكار يمجّد فيها الخالق ويدعوه بأسمائه الحسنى.

ويظهر لنا أبعاد الصلاة المعنوية وأسرارها من خلال نص يحفظه الصابئة عن النبي يحيى يقول:

«أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً وإن مثل ذلك كمثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكم يسّره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» ويقول أيضاً: **«أمركم بالصلاة فإن الله يضب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا»**[٢].

من خلال هذا الحديث يدعو النبي يحيى قومه إلى أن يشكروا الله وحده من خلال هذه الصلاة لأنه هو الأحق بذلك ويضرب لهم مثلاً من واقع حياتهم لتقريب الصورة إلى أذهانهم ويطلب منهم أن لا يشركوا به شيئاً.

---

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص: ٥٧.

(٢) مجلة التراث الشعبي، العددان ٦ ١٧ السنة الخامسة ١٩٧٤، ص: ٦٤.

ز. الصيام في العقيدة الصابئية

الصوم أيضاً واجب مفروض على الصابئة وهو طقس مهم جداً إلى درجة أن ريح الصائم مقدس كما في قول النبي يحيى عليه السلام: «**وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرّة من مسك في عصابة كلُّهم يجد ريحاً وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[1]. من هنا يصوّر النبي يحيى بالمراد الذي يحمله الصائم لآخرته ولشدّة أهميته يأمر قومه به.

«**والصوم عند المندائية ستٌ وثلاثون يوماً متفرقة على مدار السنة تختم عادة بالأعياد**»[2] ولكن ورد في مصدر آخر أنهم يصومون ثلاثين يوماً أوّلها لثمان مضت من اجتماع آذار وتسعة أخر أولها لتسع مضين من اجتماع كانون الأول وسبعة أيام أخر أولها لثمان مضين من شباط[3].

أما اليوم فالصوم عند الصابئة انحصر «**بالامتناع عن أكل اللحوم فقط ويحرّم في أيامه ذبح الحيوان**»[4]. وهذا يدل على أن الصوم ليس مغزاه الإمساك عن الطعام بل الهدف أن يشعر الصابئي بجوع المحتاج الذي لا يستطيع الحصول

---

(١) مجلة التراث الشعبي، العددان ٦ ١٧ السنة الخامسة ١٩٧٤، ص: ٦٤.

(٢) مراني ناجيه، مفاهم صابئية مندائية، ص: ١٤٥.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٢١٩.

(٤) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٧.

على اللحوم ليسدّ جوعه. لذلك فالصوم عند الصابئة يخفي وراءه رسائل وتعاليم عديدة من بينها هذا القول:

«أمسكوا أفواهكم عن قول الكذب لأن الذي يحلّ في قلبه البغض ليس مسلماً»[1].

وتسمى الأيام التي يحرّم فيها أكل اللحوم أثناء الصيام «**بالمبطلات وهي ٣٣ يوماً حيث يبطل فيها النحر**»[2]. وقد قاموا بتحضير جدول بالأيام التي يحرّم فيها الذبح أي أيام مبطلة هو على الشكل التالي:

الشهر.. اليوم

١. شباط (شهر العيد الكبير)................................من ١ إلى ١٤ و٢٢

٢. آذار...٢٥

٣. نيسان...

٤.أيار.. ١، ٢، ٣، ٤

٥. سيوان..

٦. تموز.. ٩، ١٥، ٢٣

٧. آب...

٨. أيلول (شهر البنجة).....٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠ الأيام الخمسة التي تسبق البنجة.

٩. تشرين ١ ....بعد البنجة مباشرة

١٠. شروان...

١١. كانون.......................... ٢ اليوم الأول فيه عيد دهقة دمانة.

١٢. طابيت ٢٨، ٢٩ كنشي وزهلى مع اليوم الثلاثين منه.

---

(١) مراني ناجية، مفاهيم صابئية مندائية، ص: ١٤٥.

(٢) الصابئة المندائيون، ص: ١٠٦.

ع. كتب هذه الديانة

يعتبر الصابئة المندائيون أثراً من آثار التاريخ الحية فوجودهم يذكّر بأنبياء ورسل نسخت الأديان المتعاقبة شرائعهم ولم يبق منهم غير صحف نوح وإبراهيم فالمندائيون يقولون: «**إنهم أقدم ديانة سماوية على وجه الأرض وإن كتبهم هي صحف سادة البشر الأولين أي آدم وشيت وإدريس ونوح برفعهم على مصاف بدايات الأديان والشرائع الموحّدة في التاريخ**»[1].

لذلك وقبل البدء بالغوص في كتب الصابئة لا بدّ من تحديد جذور وبدايات هذه الكتب. «**يعتقد الصابئة بأنهم توارثوا كتبهم المقدسة بصورها الحالية عن آدم ومنه انحدرت إلى نوح وبعد الطوفان إلى سام ثم إلى ولده رام حتى وصلت إلى يحيى بن زكريا. ولكن على الرغم من ذلك فإن أكثر من باحث في شأن المندائيين أبدى صعوبة البحث في كتبهم الدينية بسبب تاريخها المجهول وموضوعاتها الشائكة**»[2]. ويعود السبب في ذلك إلى أن الصابئة يمنعون أصحاب العقائد الأخرى من الاطّلاع على كتبهم المقدسة لأنهم يرون في هذا الاطّلاع خطراً على عقيدتهم فهو أمر محرّم يؤثم فاعله.

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ١٩-٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٥٣.

والجدير ذكره أن الكتب المقدسة المندائية، قام الكهان بنسخها باليد والصابئة يتمسكون بهذه الكتب بشدة ويحافظون عليها لأنهم يعتقدون بأن امتلاكها يحميهم من الشرور في الدنيا والآخرة.

وتكتب هذه الكتب باللغة المندائية ومع ذلك فقليل من عامة الصابئة يستطيع قراءة هذه اللغة أو كتابتها وذلك لأن تعلّم هذه الكتب محصور برجال الدين. ولكي تبقى اللغة المندائية حكراً على رجال الدين والكهان مُنع تعليمها لأبناء الشعب كتابة وقراءة وذلك كما ذكرنا لأن أمر تعلّم اللغة والاطلاع على هذه الكتب أمر محرّم.

وتغلف الكتب المقدسة تغليفاً تاماً بالخام الأبيض وتربط بأشرطة من الخام أيضاً **«وإذا كانت الحروف المندائية مقدّسة فميزة الكتابة من القداسة بحيث لا يصنعها غير الكهنة ولا يصلح لرسم حروفها غير الحروف الدينية»**[١]. **«لكلٍّ كاهن تقريباً تركيبه الخاص لعلم الحبر (ديوثا) الذي يحفظ على شكل بلورات تذاب في الماء حيث يراد استعمالها»**[٢].

أما طريقة تحضير الحبر المقدس فهي: **«امزج الغراء بماء النهر واتركه إلى أن يذوب ثم إغلِه إلى درجة التبخر لمدة ستة أيام واسحقه في اليوم السابع واخلطه بمسحوق الفحم بنسبة مثقال واحد من الفحم إلى خمسة وعشرين مثقالاً من الغراء لمدة أربعة إلى خمسة أيام. امزُجه بالماء إلى أن يصبح عجينة ثم بعد غليانه يصير على شكل بلورات تمزج بماء النهر لعلم أكبر وينبغي أن يتلى عليه دعاء: أسوته ملكه صلاة التسليم»**[٣].

---

(١) الخيون رشيد، المذاهب والأديان بالعراق، ص: ٥٥.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص: ٦٩.

(٣) المصدر نفسه.

والجدير بالذكر أن صناعة الحبر تذكر بالوزير والكاتب ابن مقلة (ت ٣٢٨هـ) فكان يصنع حبره من سخام النفط بأخذ «**ثلاثة أرطال في جاد نخلة وتصفيته ثم يبقى في طنجرة ويصبّ عليه الماء ثلاثة أمثاله ومن العسل رطل واحد ومن الملح خمسة عشر درهماً ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهماً ومن العفص عشرة دراهم ولا يزال يوضع على نارٍ لينة حتى يثخن جرمه ويصير في هيئة الطين ثم يترك في إناء ويرفع إلى وقت الحاجة**»[1]. وأضاف آخرون شيئاً من الكافور لتطييب رائحته وشيئاً من الصبر لمنع الذباب من الوقوع عليه. وذكر القلقشندي: «**أن هناك أنواعاً من الحبر لا يتعامل معها السخام والنفط ومن يدري لعلّها الحبر المقدس كما يصنعه الكهنة المندائيون فالنفط مادة غير مرغوب فيها وتعدّ من المواد المنحوسة في التاريخ**»[2].

وهناك طريقة أخرى استخدمها أيضاً المندائيون لصناعة الحبر «**وهذه الطريقة تناسب الورق العادي يذكرها صاحب «صبح الأعشى»** وموادها: العفص الشامي والآس والماء والصمغ العربي والزاج القبرسي ويضاف إليه دخان من أجل السواد، والعسل من أجل حفظه فترة طويلة والصبر كمادة شديدة المرورة لطرد الذباب. أما الحبر المناسب للورق فيكون براقاً بلا دخان وكتابة فواتح الكلام قد لا تكون بالحبر العادي بل تكتب بالذهب بعد أن يحلّ وركه المستعمل في الطلاء في شراب الليمون الصافي النقي ويغسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ويترك ساعة حتى يرسب الذهب، ويضاف إليه قليل من الحبر (الليقة) أي اللاصق بالدواة ويضاف إليه الزعفران والصمغ المحلول»[3].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٢ ص٤٣٠ وما بعدها.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٦.

(٣) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب في العراق، ص٥٦.

وقبل البدء بالحديث من كل كتاب على حدة من كتب الصابئة يجب الالتفات إلى أن «**الذي يدرس كتاب المندائيين ويقارنه مع نصوص القرآن ويدرس فهمهم ويقارنه مع الفقه الإسلامي سيجد الموافقة واضحة بين الديانتين**»[١].

وإذا أردنا أن نسرد كيفية إيجاد الصابئة لكتبهم المقدّسة يمكننا القول إنها لم تنزل دفعة واحدة بل تدريجياً ويمكننا أن نستدل على ذلك من خلال دور النبي إدريس في حفظ هذه الكتب فالتاريخ يذكر لنا أن «**النبي إدريس عند الأديان الأخرى يعتبر أحد عظماء المندائيين من النوصرائيين العارفين في الدين وكان يحفظ عن ظهر قلب الكتب المقدسة ويحتفظ بها في مكان مقفل كما أنزلت تمن الحي الأزلي على آدم أبي البشر. وفي يوم من الأيام وجد كتاباً جديداً موضوعاً على الكتب الأخرى فمزقه لعدم معرفته بحقيقته لكنه أينما ذهب يجده أمامه وفي كل مرة يمزقه ويحرقه ويظهر له كاملاً في مكان آخر فاجتمع النوصرائيون الأربعة والعشرون فتوصّلوا إلى أن هذا الكتاب منزل من الله ولا بد أن يقرأ مثل الكتب الأخرى. غير أن الكتاب الجديد قاد إلى عبادة القمر وظهر كتاب آخر دلّ على دين آخر وهكذا أخذت الكتب تظهر** «لدنانوخت» واحداً بعد الآخر حتى ظهر له الكتاب السابع»[٢].

عرفنا إلى هنا أن هناك سبعة كتب ظهرت ولكن نتفاجأ عندما نعلم أنه كان لهذه الكتب تأثيرات سلبية على النوصرائيين وأنه لم يقتصر الأمر على سبعة الكتب التي «**أدّت إلى تفرق النوصرائيين إلى مذاهب باطلة ليس بينها مذهب الحق وبعدها نزل كتاب ثانٍ كان يشع نوراً من البداية ويحتوي على المعرفة الكاملة بالله**

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٣٤.

(٢) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٢٥.

فبعد قراءته انتصب أمام دوناخت ملاك نوراني هو هيبل زيوا دعاه إلى العروج معه إلى السماء»[1].

ولكن مع ذلك يجدر بنا أن نذكر قول هارون الرشيد حول الكتب السماوية وما ادعتها الصابئية منها منذ ذلك الزمان بالآتي: «**جميع ما أنزل الله تعالى من الكتب مائة كتاب وأربعة كتب، من ذلك مائة صحيفة أنزل الله تعالى فيما بين آدم وموسى فأول كتاب أنزله الله جل اسمه على شيث عليه السلام وهي إحدى وعشرون صحيفة والكتاب الثالث أنزله الله على أخنوخ (مصحف من الاسم المندائي دنانوخت) وهو إدريس عليه السلام وهو ثلاثون صحيفة والكتاب الرابع أنزله جلّ اسمه على إبراهيم عليه السلام وهو عشر صحائف**»[2].

نلمس من هذا القول عمقاً ودقةً وتفصيلاً في تاريخ الكتب الصابئية «**ولكن رواية النديم عن هارون الرشيد تجعلنا نشكك فيما ذهب إليه الكرملي إلى أن تاريخ كتابة «الكنزاربا»** كان بداية القرن الثامن الميلادي ولا ندري لماذا السنة (٧٠٨م) بالذات وكيف عدّه مترجم الرشيد من الكتب الأولى»[3].

هذا بالإجمال ما يتعلق بالكتب ولكن عددها لم يقتصر على ثمانية بل ظهر العديد من الكتب المقدّسة والمخطوطات المندائية وهي: «**كنزاربا، سيدر، أدنشماته، النياني، القلستا، ترسو ألف شياله، حران كويثا، المه ريشايه، مصبته هيبل زيوا، ديوان أباثر، دراشه اديهيا، تفسير البغرا، سفر ملواشه، رزستا، القماهي، شرح بارونا**»[4].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص: ٢٤ ٢٥.

(٣) الخيون رشيد، والمذاهب بالعراق، ص: ٥٤.

(٤) دراور، الصابئة المندائيون، ص: ١١٧ ١١٨.

١. كنزاربا:

ويطلق على هذا الكتاب عدة أسماء: الكنز العظيم، (سدرة ربه) الكتاب العظيم أو كتاب آدم على أساس أن الصابئة يعتقدونه صحف آدم.

ويتميز هذا الكتاب بأنه يتألف من قسمين يميني وشمالي، فإذا أمسكه أحدهم من القسم اليميني، كان قسمه الشمالي مقلوباً أي يكون أعلاه أسفله وإذا أمسكه من القسم الشمالي، كان قسمه اليمين مقلوباً فيستطيع شخصان جالسان على ضفتي الساقية الواحدة أن يقرأا فيه في وقت واحد.

٢. ادراشي إديحيا (سدرا ديهي):

ويدعى تعاليم يحيى أو دروس يحيى. ويتضمن حياة النبي يحيى من بدء ولادته العجيبة وتربيته في الجنة ثم نزوله إلى الأرض، ليبلّغ رسالته، إلى تاريخ وفاته، وصعوده إلى السماء. كما يتضمن تعاليمه وإرشاداته الدينية. ويقولون إن الملاك جبرائيل أوصى يحيى أن يضع هذا الكتاب ويسميه بهذا الاسم، وقد ترجمه إلى اللغة الألمانية المستشرق الألماني مارك ليدزبارسكي سنة ١٩١٥.

٣. سيدرة آد تشماته[١]:

هذا الكتاب بالنسبة للصابئة أساس الديانة الصابئية ويعتقدون بأنه نزل على سيدنا آدم أما الأمور التي يتخللها فتتعلق بما يجب الإتيان به من مراسم في مناسبات الجنّاز وتلقين الأموات، وكيفية دفنهم وأسباب تحريم البكاء أو الحداد، ويبحث في مواضيع أعمق من ذلك فيشرح كيفية انطلاق الروح من الجسد حتى وصولها إلى عالم الأنوار(آلمي دنهورا). وقد نقل المستشرق (ليدزيارسكي) القسم المختص بـ(طقوس التعميد) إلى الألمانية سنة ١٩٣٠م «ونشر

(١) أي طقس التعميد، وسر المعمودية المقدسة.

الكتاب بنصه المندائي في المجلّد الخامس من مجموعة (*Missions Scientifique en perse J. de Morgan*) في باريس عام ١٩٠٤ بعناية.

وهذا الكتاب أنزل بواسطة هيبل زيوا (جبرائيل) على آدم وشيت وإدريس ونوح كمجموعة من الصحف نزلت بفترات مختلفة إلا أن أسماء وأحداثاً عديدة دخلت في الكتاب تصل إلى زمن يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، ومع أن الصابئين يعتقدون أن كتاباً من كتبهم نزل على يحيى بشهادة القرآن»[1] والآية التي يعتمدونها لتدعيم رأيهم هي: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2]. غير أن المفسرين المسلمين كافة يشيرون إلى أنه كتاب التوراة لا الكتاب المندائي. وقد ترجم هذا الكتاب منذ عام ١٨١٣ على يد (ماثيو نوربيرغ السويدي) بحروف سريانية مع ترجمة لاتينية في أربع مجلدات في كوبنهاغن، كما ظهرت له ترجمات أخرى، كان أفضلها ترجمة البروفسور (ليدزيارسكي) إلى اللغة الألمانية وطبع عام ١٩٢٥.

وإذا تبحّرنا في محتوى هذا النوع من المخطوطات المندائية نجده شاملاً لمواضيع عديدة مصوغة في فقرات عديدة عن نظام تكوين العالم، وحساب الخلقة وأدعية وحكايات. وهناك قسم آخر من الكتاب يحدد (بقسم الشمال) يعالج شؤون الميت.

«ويختلف الصابئة في تحديد زمن كتابة هذا الكتاب فمنهم من يرجع كتابته إلى ما قبل النصرانية، ومنهم من ذهب إلى أنه من عهد يوحنا المعمدان»[3].

---

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب بالعراق، ص: ٥٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٢.

(٣) في خزانة المتحف العراقي نسخة كاملة من الطبعة الأولى برقم مطبوعات (٤٧٦٢/ ٤٧٦٦) وهي نادرة جداً وتضم الخزانة أيضاً نسختين من هذا الكتاب برقم (٢٥٣) وهي ١٦٨ + ٤٤٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١ سم رقم الثانية (١٤٤٠) وهي في ٤٩١ + ١٨٢ صفحة بقطع ٣١ × ٢١ سم وتحوي كل صفحة عشرين سطراً.

٤ . كتاب القلستا:

وهو كتاب يبحث في طقوس الزواج وقوانينه وشروطه ومراسمه، والاحتفلات التي تقام في أثناء العقد والأناشيد التي تتلى فيه وكيفية تحليل النكاح الشرعي وإجراء الخطبة.

٥ . اسفر ملواشه أي (كتاب الأبراج):

وهو مخطوط يبرز مدى ارتباط الصابئة بالفلك[1] فهو مخصص لأغراض التنجيم والفلك ويعتبر مرجعاً يستعين به الصابئة لمعرفة حوادث السنة المقبلة ولمعرفة البرج الذي ولد الشخص به،

«**فيستنبطون منه اسمه المقدس الذي يبقى محفوظاً لديهم**»[2]. والجدير بالذكر أن الليدي دراور نشرت هذا الكتاب بنصّه المندائيّ لسنة ١٩٤٩ فجاء في ٢٨٩ صفحة كما نشرت له ترجمة باللغة الإنكليزية.

٦ . تفسير بعزه:

يختصّ في علم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعمة المناسبة لكلّ طقس مما يجوز لأبناء الطائفة تناوله، ويعالج المعنى الداخلي للموجبات الطقسية.

---

(١) اعتقد المندائيون انطلاقاً من اهتماماتهم الفلكية بوجود بشر خارج كواكب الأرض فالكواكب السماوية عندهم ما دون عالم النور اتخذت سكناً للبشر الشبه روحيين والكائنات النورانية وكتبهم الدينية ترشد إلى عوالم يسكنها بشر قبلنا وتركز بالدرجة الأولى على عالم العهد مشوني كشطه وتذكر أيضاً أن البشر في هذا العالم لا يختلفون عنا كثيراً.

(٢) الصابئون، ص: ٨٩.

٧. كتاب الديونان:

ويسمى (الديوان) وهو كتاب ضخم يعدّ من أنفس كتب الصابئة فيه قصص بعض الروحانيين مع صورهم وهو قليل الوجود.

٨. أنياني:

يتحدث هذا الكتاب عن الطهارة الصغرى (الوضوء) الرشامة وبعض الأدعية للمسخثة (الغفران).

٩. ترسسر ألف شياله[١]:

ويتألف من خمسة أجزاء «**يتناول الجزء الأول، الأخطاء على الطقوس وطريقة غفرانها وإيضاح الشعائر**»[٢].

١٠. ديوان طقوس التطهّر (طراسه):

وهو كتاب يبين طرق التعميد بأنواعه على شكل ديوان، والتكريس بأنواعه، كتكريس الكاهن، وتكريس المندى، وتكريس الأستاذ (كنزفره).

١١. دواوين:

الرقى والتعاويذ وتدعى (قماهي) و(زرستي)[٣] وهي من الدواوين الطلسمية «**والحرز الطلسمي نوعان، فالكبير لا يمكن للإنسان أن يحمله ويُدعى (قماهة) أما**

---

(١) ذكرته دراور (ألف ترسسر شياله)، وصححه مترجما الكتاب الأستاذان نعيم بدري وغضبان الرومي إلى (ترسسو ألف شياله) أين اثنا عشر ألف سؤال.

(٢) دراور، الصابئة المندائيون، ص: ٧١.

(٣) قماهي (قما باللغة المندائية تعني يقمط) زرستي (زرس تعني يقروصون).

الصغير (زرستا) فهو الحرز المعتاد وهو ثابت لا يتغير ويكتب للتو على قصاصة طويلة من الورق عرضها من عقدتين إلى ثلاث تُلفّ بإحكام وتوضع في صندوق صغير من الذهب أو الفضة بحيث يمكن تعليقها في عنق الإنسان بوساطة سلسلة أو خيط وهذا النوع من الأحراز طويلة عادة حتى ليبلغ السبع أو الثماني أقدام طولاً ولهذا يستعمل له ورق رقيق جداً»[1].

١٢. قماها ذهيقل زيوا أي (عودة ذهيقل زيوا):

وهو عبارة عن درج فيه أكثر من ألفي ومئتي سطر. وتمثل تعزيمات يحملها متدينو الصابئة ويعتقدون بأن من يلبسها لا يتأثر بالسلاح الناري أو أي سلاح آخر «**وفي آخر الدرج الأصلي الذي ينسخ عليه والمحفوظ عند كاهنهم هذه العبارة: ازدهر، ازدهر لك انش لا تكذف ومعناها تحفّظ ثم تحفّظ، ثم أقول لك مَحفّظ من أن تكتب القماها لكل من كان أو لكل أحد**»[2].

ونشر هذا الكتاب بنصه المندائي سنة ١٩٠٤ في باريس بعناية ***J.de Morgan*** في المجلّد الخامس من مجموعة ***Mission Scientifique en perse***.

وقد قيل: «**إن عدد الدواوين يبلغ أربعة وعشرين ديواناً وهي أدراج كبيرة ومصوّرة أحياناً. ولا يظهر الكهّان هذه الدواوين إلا بتهيّب وبخاصة الديوانين المصورين اللذين يحتويان على مواد غير دينية. وهما مهمان لأنهما يلقيان ضوءاً على الشعائر والعقيدة واللغة**».

فالأول ديوان نهراوانا (ست ياردات طولاً وثلاث عشرة عقدة عرضاً)، وهو خارجه مزخرفة ونص إيضاحي لأنهار العالم حيث يجعلها جميعاً تتغذى من

---

(١) دراور، الصابئة المندائيون، ص: ٧٢.

(٢) الصابئون، ص: ٩٠.

(فرات زيوا) الفرات النوراني الذي ينبع من طور كالاملا[1] كما يصف الأشجار والنباتات والقصف في الأرض وبعض الكائنات السماوية. والثاني ديوان أباثر طوله ٩ يارادات وعرضه ١٣ عقدة. وتظهر بعض الصور في هذا الديوان.

وهناك ديوان (حران كويثا)، وديوان (ملكوثا)، وديوان (اكما الايا)، و(آلمه ريشا يا ربه)، و(آلمه ريشايا زوطة).

وقد قامت الليدي دراور بترجمة الديوانيين الأخيرين إلى اللغة الإنكليزية، وهما مطبوعان وموجودان في مكتبة المتحف العراقي. وهناك ديوان (زهروت رازاكسيه)، و(قداهة ربه) و(دموثة كشطه).

(١) كنزاريا كتاب المقدس.

ط. اللغة المندائية

اللغة الصابئية المندائية هي إحدى اللهجات الآرامية، واسمها مشتق من الكلمة الآرامية (مدعا) ومعناها المعرفة، واللهجة المندائية هي أنقى اللهجات الآرامية، لعدم اختلاطها بعناصر أجنبية، وهي تمثل اللغة الآرامية السليمة. ويطلق الصابئون على الألفباء اسم، ولكل حرف معنى خاص، ويمثل بالنسبة لهم قوة من قوى الحياة والنور، لذلك فإن للحروف عندهم قدسية خاصة، وتنقش حروف الألفباء على قدر عددها من قطع الفضة، أو الذهب، وتوضع تحت وسادة الصابئي، الذي يرغب بالإرشاد السماوي، حين تنزل به مصيبة ما، فيقوم في كل ليلة بوضع حرف واحد، حتى يرى مناماً له علاقة بمصيبته، فَيُعدُّ الروح التي تخفى ذلك الحرف قد انكشفت له، وأنها ستقوم بمساعدته، فيلبس ذلك الحرف كحجاب وتعويذة في عنقه، حتى يتم تخلّصه من تلك المصيبة أو المحنة، وعدد الأحرف ٢٤ حرفاً ولكلّ حرف معنى.

آ، با، كا، وا، هه، طا، يا، كا، لا، ما، نا، سا، أي، صا، قا، شا، تا، او، آ(كالحرف الأول).

ي. أعياد ومناسبات الصابئة

قلنا فيما سبق: إن دين الصابئة يشترك في أشياء كثيرة مع أديان أخرى كثيرة. ومن هذه الأمور الأعياد التي على الرغم من أنها أمر موجود في كل الأديان والمعتقدات ولكنها تضفي خصوصية معينة تضع الصابئية في جوّ من التفرد والتّميز.

والأعياد عند الصابئة خمسة، قد نلمس مع بعضها تشابهاً مع أعياد المسلمين ولكن هناك طقوساً يتفرّد بها الصابئة تتخلّل هذه الأعياد مثل التعميد وأنواع الأطعمة الفريدة وتَدخُّل الفلك في هذه الطقوس ممّا يجعلنا نتشوّق للخوض في تفاصيل هذه الأعياد ونجري جولة سريعة.

١. العيد الكبير (دهفة ربه): وهو الاسم الذي يطلق على رأس السنة، ومدة هذا العيد أربعة أيام تبتدئ باليوم السابع من شهر آب من كل سنة مندائية وتنتهي باليوم العاشر منه.ولهذا اليوم أعمال يقومون بها مثل: ذبح الخراف والفراخ، صنع الفطائر والحلويات، إضافة الى الأغسال المستحبة التي يقومون بها.

٢. العيد الصغير: وهذا العيد زمنياً يقع في اليوم الثامن عشر من شهر (تورا) وهو يدوم يوماً واحداً. ويسمى هذا العيد (دهفة حنية) أو (دهفة طرمه). وفيه عدة طقوس ومراسم من تعميدٍ وقراءة فواتح وغير ذلك ما يضفي على هذا اليوم قداسة ليكون عيداً ويستمر مدة ثلاثة أيام.

٣. عيد البنجة: عند الصابئة إيمان بوجود السنة الكبيسة ويدعونها (بروانايا) وهي خمسة أيام في السنة وتسمى أيضاً (البنجة) ولا ندري لماذا تعتبر من أسعد أيام السنة على الإطلاق، وتحدد أيام هذا العيد الكبير في الأيام العشرة الأول من شهر نيسان وتكون في بداية الربيع حيث تفتح أبواب عالم الأنوار ليلاً ونهاراً ولهذا تقام الصلوات في الليل ذلك لأنه لا يمكن إقامة صلوات بعد غروب الشمس في سائر أيام السنة. ويتخذ هذا العيد صفة دينية أكثر من أنه عيد للفرح والبهجة.

٤. عيد يحيى: وهم يعتبرون أنفسهم قومه وتابعين له فليس غريباً أن يحتفل الصابئة بمولد يحيى ويقيمون له عيداً في يوم ميلاده وهو يأتي في اليوم الأول من شهر حزيران. وفي هذا اليوم يجب على الأتقياء أن يتعمدوا كأساً فهم وهذا التعميد يشمل الكبار وهذه المرة الصغار أيضاً لأن طقس الصيف يستطيع الصغار تحمله.

٥. العاشورية: اسم هذه المناسبة يذكرنا بمناسبة عاشوراء الإسلامية الحزينة ولكن ليست هي المناسبة ذاتها فإذا نقبنا جيداً عن اعتقاد الصابئة بهذه المناسبة نجد أيضاً أنها مناسبة حزينة بالنسبة إليهم وهي ترتبط بديانة سماوية أخرى على زمن موسى نبي اليهود. وتقع هذه الذكرى في أول يوم من شهر تموز ويقيمون هذا اليوم الفاتحة على أرواح المصريين الذين غرقوا في البحر الأحمر حينما كانوا يلاحقون نبي اليهود موسى انطلاقاً من اعتقادهم بأن المصريين كانوا على دينهم وبأن جنس أسلافهم الصابئين الأوائل قد انحدروا من مصر الى جبل ماواي ولهذا تؤكل كل عام وجبة طقسية في ذكرى الحملة المصرية التي غرقت في الماء وهي تتبع اليهود.

ك. المحرمات عند الصابئة

كما في كل عقيدة دينية أعمال واجبة وأخرى مستحبة وبعضها مكروه فعله ومحرّم، كذلك عند الصابئة فبعد أن تعرفنا إلى بعض الطقوس الدينية وواجباتهم يجب أن نتعرف على الأمور المحرّمة عليهم، ومن أهمها:

١. القتل والقتال إلّا دفاعاً عن النفس، فهم كغيرهم من الأديان يبغضون العنف والحقد والحرب.

٢. أكل لحم كل ذي ذنب، وكل ما افترس من الطير والطيور آكلة الأسماك، ويحرّم أكل الغراب، والجمل، والحصان، والخنزير، والكلب والفأر، الأرنب الأهلي، والوحشي، والقط، ويعدّون ذبح الجاموس أو البقر من الجرائم الكبرى، والخراف والدجاج والأسماك والطير الحرّ والبط والإوز.

٣. شرب الخمر حتى السكر، وهنا يروي الجاحظ الذي انحدر من بيئة الصابئة المندائيين في البصرة «**أنّ غلاماً صابئياً سأل غلام شيخه إبراهيم بن سيار النظام عن علّة تحريم الإسلام للخمر، فأجاب لأنها تزيل العقل فقال الصابئي: ينبغي تحريم النوم لأنه يزيل العقل فقال الغلام المسلم: إنه قوت البدن فقال الصابئي: لنحرم ما فضل عن القوت**»[1] إذاً فهم لا يحرمون الخمر بحدّ ذاته ولكن المعيار هو عدم الوصول الى درجة السكر.

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٢٧٢.

٤.لعب الميسر.

٥. الختان وربما تأثرت الصابئة المندائين بالمحيط، فحرّم بعض رؤساء الفرق السرية الإسلامية الختان للسبب نفسه وهو عدم إنقاص ما خلق الله في الجسد.

٦. حلف اليمين، ولو كان صدقاً.

٧. يحرم على زوجة الميت، لبس السواد أو قصّ شعرها او البكاء والندب والعويل، لأنّ الموت عندهم هو عبارة عن انطلاق الروح من الجسد وتحررها من هذا القيد وعودتها الى عالم الأنوار.

٨. الأكل والشرب قبل الاغتسال من الجنابة.

٩. الزواج من أجنبي أو أجنبية.

١٠. أن يبقى الانسان أعزباً دون زواج «**ففي عقيدتهم حرّمت الجنّة على من يعزف عن الزواج ولا يولون عاقراً منصباً دينياً**».

هذا بعض من المحرمات لديهم ويجب على الصابئي أن يلتزم بها.

ل. رجال الدين

ممّا لا شك فيه أنّ لكلّ عقيدة رجال دين. وعلى رأس كل فرقة دينية لا بدّ وأن يتولى شؤون إرشاد هذه الفرقة وتوجيهها ونشر الأفكار الدينية بين أبناء هذه الطائفة رجال الدين والعلماء فكيف إذا ما تعلّق الأمر بعقيدة الصابئة التي تتميّز بكثير من الطقوس والعقائد الدينية الغريبة والتي تحتاج الى إشراف رجال الدين.

ومن الطبيعي أن يكون لمحل الكهانة وممارسة مهام رجال الدين شروط ومتطلبات تتعلّق بجسد الصابئي وعقله وروحه. وهناك شروط تتعلّق بالنسب إضافة الى مراحل عديدة يجب أن يجتازها الصابئي أو الصابئية للوصول إلى الكهانة.

أمّا فيما يتعلّق بالنسب فغالباً ما تكون الكهانة عند الصابئة وراثية لا سيما الصابئة المندائية. وغالباً ما نجد عائلات كان فيها الأب والابن كاهنين ويستمر هذا الحال لعدة قرون متواصلة إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّه لا يوجد كاهن من أسرة غير كهنوتية فالأمر ليس محصوراً بالحالة الوراثية، لأنّ الصابئي قد يصبح كاهناً إذا كان منحدراً من عائلة صابئية الأب والأم ولبضعة أجيال معيّنة بعد أن يمتلك كل المواصفات والصفات البدنية والعقلية والطهارة المعينة التي تؤهله للوصول إلى المرتبة الرفيعة بين الصابئة والتي تجوز على احترام وتقدير الصابئين لما لهذا الدور الديني من مكانة لديهم وأيضاً كلمة رجال الدين مسموعة ومنفذة فلا

يستطيع الصابئي ممارسة أي طقس من الطقوس كالزواج، والولادة، والتسمية، والتعميد والصلاة والذبح والجنّاز من دون وساطة رجال الدين وبالمقابل يدعم الصابئون رجال الدين عن طريق تقديم الهدايا لهم ليستطيعوا العيش عيشة كريمة، من هنا نلاحظ أنّ رجال الدين لا ينعمون بالترف والغنى بل إنّهم يعتاشون من أبناء قومهم من الصابئة كمقابل لما يهتمون به من مهامّ تتعلق بالحياة اليومية لدى الصابئة.

م. درجات رجال الدين

يقول المسعودي: «أعلى كهنتهم يسمى رأس كمري أي (درجة دينية) عرف بها كهنة المندائيين وهي تقابل اليوم رئيس أمة حسب اللفظ المندائي وهو أعلى درجة دينية بين المندائيين الحاليين»[1].

وأهم درجات رجال الدين وتراتبيتها هي:

١. الحلالي:

ويسمى أيضاً الشماس يسير في الجنازات ويقيم سنن الذبح للعامة، ولا يتزوج إلّا بكراً، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته ومنع من وظيفته، وتقتصر دراسته على بعض الكتب الدينية الأولية ويتعمّد التعميد الخاص بهذه الدرجة.

٢. الترميدة:

يسمى المرشح لهذه الدرجة (الشولية) وهذه المرحلة تعدّ أولى درجات الكهانة، لذلك يخضع فيها المرشح الى عدّة شروط ومراسم، ويجب أن يحفظ ما يكفيه من الطقوس والصلوات ويكون قد اعتاد على العمل كـ(قندلفت) ودرس الكتب المقدّسة بإشراف كاهن أو استاذ (كنزفره) حتى يصبح مؤهلاً لهذه

(١) الخيون رشيد، الأديان والمذاهب في العراق، ص١٤١.

الدرجة من درجات الكهانة أي الترميدة. ويخضع لهذه المرحلة بعد البلوغ حيث يتم تدشينه بمراسم خاصة شبيهة بمناسبات أخرى.

٣. الكنزفرة:

الترميدة الفاضل الذي لم يعقد على الثيبات مطلقاً يمكنه أن ينتقل الى كنزفرة أو (كنزبره) وذلك إذا حفظ كتاب (الكنزاربا) حينئذٍ مفسراً له، ويجوز له ما لا يجوز لغيره، فلو قتل واحداً من أفراد الطائفة لا يُقتصّ منه لأنه وكيل الرئيس الإلهي عليها. ويشترط لكي ينتقل إلى هذه الدرجة أن يكون مدبراً في أمور الدين مطلعاً على التفاسير والشروح الدينية وأن يكون متزوجاً وغير عقيم وسبق له أن عقد مهراً لترميده.

٤. ريش أمة:

أي رئيس الأمة، وصاحب الكلمة النافذة فيها «**ولا يوجد بين صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة لأنّها تحتاج الى علم وفير وقدرة فائقة**»[1] (فالكنزفرة) الذي يريد الارتقاء إلى درجة (ريش أمة) يجب أن يكون عالماً كبيراً وذا أهلية وكفاءة ممتازتين، وقادراً على محاكمة الأمور بشكلٍ مشهود من العلماء.

٥. الرباني:

وهي أعلى مراتب الاجتهاد، ولم ينل هذه المرتبة من السابقين غير النبي يحيى بن زكريا عليه السلام. كما لأنه لا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الدرجة في

---

(١) موسوعة العقائد ص:٣١٩.

وقت واحد. والرباني يرتفع ليسكن في عالم الأنوار وينزل ليبلغ طائفته تعاليم الدين، ثم يرتفع مرّة أخرى إلى عالمه الرباني النوراني»[1].

إذاً لكل ديانة طقوس وعادات وقوانين لا تسير إلّا بها ويجب على كل أتباع هذه الديانة التقيد والالتزام بالقوانين والتعاليم التي تخصّ هذه الديانة وكأيّ دين آخر، فالاحترام واجب ومفروض وهو الذي يعطي للإنسان قيمة في مجتمعه ويساعده على التعاطي مع كثير من الأفراد ومع سائر الديانات والطوائف فالدين يعلمنا كيف نحترم الآخرين فنحفظ حقوقهم ويحفظون حقوقنا، من هنا كان لكلّ ديانة تعاليم وطقوس وعقائد تفرضها على أتباعها وعليهم الالتزام بها للوصول الى الهدف الأسمى وهو السعادة، وهذا ما تسعى اليه جميع الديانات والطوائف.

الفصل الرابع

ديانات بلاد ما بين النهرين

أ. حضارات ما بين النهرين.

ب. السومريون.

ج. الحياة الدينية عند السومريون.

د. البابليون.

هـ العقائد الدينية عند البابليين.

و. الآكاديون.

ز. الآشوريون.

ح. عقائد الآشوريين.

ط. العبادات في الديانة العراقية القديمة.

أ. حضارات بلاد ما بين النهرين

إن الاعتقاد السائد للدارسين للحضارات والديانات القديمة وذلك عن طريق المعطيات المتوفرة لديهم أن التاريخ بدأ من سومر وأكاد. وسومر وأكاد هو الاسم الذي اطلق على بلاد ما بين النهرين «**دجلة والفرات**»، وأطلق عليها «أرض الرافدين «(العراق حديثاً).

لقد أثبت علماء الآثار والتنقيب قِدم هذه الحضارات حتى أنها أقدم من الحضارتين اليونانية والرومانية وقد تمكنوا من تحديد زمنها، فالحضارة السومرية امتدت من قبل ٤٥٠٠ق.م. إلى سنة ٢٣٥٠ق.م. والحضارة البابلية التي امتدت من سنة ٢٣٥٠ ق.م. إلى سنة ١٢٤٧ق.م.، ثم الحضارة الآشورية والتي امتدت من سنة ١٢٤٧ق.م. إلى سنة ٦١٢ق.م. وأخيراً، الحضارة الكلدانية والتي بدأت سنة ٦١٢ق.م. وانتهت بانتصار الفرس على الكلدانيين سنة ٥٣٩ق.م.[١]

ويعود أصل البابليين والآشوريين والكلدانيين الى الأصل السامي ووفادتهم الى بلاد ما بين النهرين كانت عبر غزوات وموجات نزوح بشري من شبه الجزيرة العربية الى الشمال الشرقي الخصيب، وكانوا يتكلمون اللغة العربية، أمّا السومريون فقد اختلف الباحثون في أصلهم ونسبهم فمنهم من قال بأنهم جاؤوا إلى بلاد ما بين النهرين من آسيا الوسطى أو من بلاد القفقاس، أو من أرمينية، أو من مصر أو السوس. ولم تتعرض

---

(١) العربي، محمد: موسوعة الأديان السماوية والوضعية، الديانات الوضعية المنقرضة، دار الفكر اللبناني ج٢، ص:٨.

أساطيرهم، التي تركوها، الى موطنهم الأصلي ولكنها تشير، فقط، إلى أنهم قد نزلوا إلى دلتا دجلة والفرات، في الجنوب، من منطقة تختلف كل الاختلاف عن البلاد الجديدة التي حلّوا فيها[1].

(١) صموئيل هنري هووك: منعطف المخيلة البشرية، ترجمة صبحي حديدي، دار الحوار للنشر، سورية، اللاذقية ط ١٩٨٣، ص١٥.

ب. السومريون

حلّ السـومريون في المنطقة الجنوبية من بلاد ما بين النهرين والممتدة على طول المجرى المشترك لنهري دجلة والفرات من مصبه في الخليج الفارسي وعلى ضفتي نهر الفرات بعد انفصال النهرين عند بلدة القرفة الحديثة. وفي هذه المنطقة تمّ العثور على أقدم المدن السومرية القديمة المدفونة تحت طبقات سميكة من الغرين (الطمي) سببتها فيضانات متكررة شهدتها تلك المنطقة في العصور الغابرة.

وأهم هذه المدن: أريدو (أبو شهرين الحديثة)، وأور(المقير الحديثة)، وأروك أو أريك (وتسمى أرك في التوراة وهي الوركاء حديثاً ولارسا (سنكرة حديثاً) ولكش(سيبرلا حديثاً)، وتبور(نفر الحديثة)[1].

وتبرز الآثار التي تمّ اكتشافها أن السومريين كانوا يمتازون بقصر القامة والأجسام الممتلئة، والأنوف الشم، والجباه المنحدرة إلى الوراء، والعيون المائلة إلى أسفل. أما ملابسـهم فكانت من جلود الغنم ومن الصوف المغزول. وكانت النسوة يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن، أما الرجال فكانوا يتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً وكانوا يحلقون رؤوسهم. واعتمدت النساء التزين بالأساور والقلائد والخواتم والأقراط للزينة ولإظهار ثراء أزواجهن.

ويقسـم الباحثون المجتمع السومري إلى نوعين هما:

---

(1) Ruth Whit house: the First Cities- Oxford 1977.

أولاً المجتمع الطبقي:

وهو عبارة عن ثلاث طبقات هي:

أ. الطبقة العليا تألفت من الملوك والأشراف ورجال الدين.

ب. الطبقة الوسطى، تألفت من الأحرار كالتجار والعبيد والعمال وأصحاب المهن.

ج. الطبقة الدنيا تألفت من العبيد.

ثانياً المجتمع المدني:

كان هناك أناس يعيشون في بيوت مختلفة بحسب منطقهم ووضعهم الاقتصادي، فسكان المدن كانوا يعيشون في بيوت واسعة مبنية بالطوب وهي عبارة عن مكعبات من الطين والقش فيها أدوات ووسائل راحة مصنوعة من الحجر والخشب والمعادن. أما سكان الريف فكانوا يسكنون في بيوت صغيرة مبنية من جذوع الأشجار والقصب وسعف النخيل.

وقد امتازت بيوت السومريين بأنها عالية ومبنية على تلال اصطناعية وقد قصد السومريون ذلك خوفاً من خطر الفيضانات، فأقاموا السدود وبنوا الأقنية لري السهول المجاورة وجففوا المستنقعات ودجّنوا بعض الحيوانات كالبقر والغنم والماعز واخترعوا المحراث وفلحوا الأرض وزرعوها، واستطاعوا التّحكم بمياه الأنهار، يعني التعرف على طريقة الرّي الصناعي(في غير مواسم الأمطار)، واكتشاف المحراث، كانا من العوامل الأساسية في الانتقال من طور المشاعية البدائية إلى طور الإقطاعية التي قضت بامتلاك الإقطاعي للأرض ولأدوات الإنتاج.

كما وكان هناك علاقات إقتصادية وتجارية امتدت الى مصر غرباً والهند شرقاً وكانت تتم عمليات التبادل التجاري بطريقة المقايضة، لأن النقود لم تكن معروفة عندهم لتقدير قيمة البضاعة. وقد عثر العلماء على ألواح تدلّ على أنّ التجارة عند السومريون كانت مزدهرة.

كما عرفوا العقود المكتوبة وشهادة الشهود ونظام التسليف الخاضع للفائدة العينية التي تتراوح بين ٢٥٪ و٣٣٪ في السنة.

عثر على الكثير من الأدوات التي تدل على صناعتهم وهي من الأمور التي تسهل حياتهم كالمناجل والإبر والمثاقب التي صنعوها من العاج والعظام كما وصنعوا المحاريث والدواليب والأسلحة كالرماح والسيوف والنبال والخوذ التي صنعوها من المعادن خاصة النحاس والقصدير إذ لم يكن الحديد معروفاً عندهم بعد، وكانوا يخلطون النحاس والقصدير للحصول على البرونز.

كما وعرفوا صناعة النسيج وحاكوا الألبسة الجلدية والصوفية، واستخرجوا الزيت والخمر وتفنّنوا بصناعة الخبز والأغذية.

إضافة الى ذلك عثر على المقابر السومرية على أنواع من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة التي لم تكن من إنتاج بلادهم الأمر الذي يدلل على اتساع علاقاتهم التجارية. فالذهب كانوا يستوردونه من عيلام وسورية، والفضة من عيلام وكليكية، والماس من بلاد القفقاس ووادي الأردن، وأحجار اللازورد حملوها من الشرق الأقصى. وربما اضطر ملوك سومر وأكاد إلى خوض الحروب للاستيلاء على مناجم المعادن والحجارة من ذلك أن ملك «ألله» واسمه «منشتوسو» أعلن الحرب على عيلام ليستولي على مناجم الفضة فيها، ولكي يحصل على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التي تخلّد ذكره. ويعلق ول ديورنت على ذلك في «قصة الحضارة» بقوله: «**تلك هي الحرب الوحيدة في التاريخ تخوضها الجيوش لأغراض فنية**».

أمّا نظامهم السياسي فكان مستقراً ويرجع ذلك لاعتقادهم بأنّ لكلّ مدينة إلهاً خاصاً بها متحكّماً بأمورها ومدافعاً عنها حتى إنّهم كانوا يؤمنون بأنّ كل مدينة من مدنهم بناها الآلهة لتكون مسكناً لواحد منهم تكريماً له على فعل خارق ومأثور قام به، من ذلك أن أنليل (إله) هو فتى مدينة «نيبور» الغضّ، وسيد كل البلاد(نشيد سومري). والإلهة «بو» هي التي شيدت مدينة لكش (كما ورد في نشيد الملك جوديا للإلهة «بو» راعية لكش ونصيرتها).

بعد تشابك العلاقات الاقتصادية توسّعت الدولة وبدأت تتشكّل الأمبراطوريات التي تجعل عدداً من المدن تحت سيطرة ملك كاهن يؤلف منها وحدة سياسية واقتصادية خاضعة لسلطانه. وكان هذا الملك ظالماً كما وعرف نظام الإقطاع، إذ كان من عادة الملوك بعد كلّ حرب اقتطاع مساحات واسعة من الأرض وتقديمها إلى الزعماء والقوّاد البواسل. وكان عليهم إمداده بالعتاد والجند إضافة الى الضرائب العينية من المحاصيل الزراعية التي تختزن في عنابر ملكية خاصة، ويوزع الملك قسماً منها كرواتب، على الموظفين والجنود.

وكان الجيش السومري يتألّف من فرق العربات التي تقوم على أربع دواليب وتجرها أربعة حمير وفرق المشاة وفرق الرماة. ومن الأسلحة التي استعملوها التروس المعدنية المستطيلة، والخوذ النحاسية والدروع، والرماح القصيرة والنّبال والعصيّ ذوات الرؤوس الحجرية.

إلى جانب النظام الملكي الإقطاعي عرف السومريون طائفة من الشرائع والقوانين التي نظّمت العلاقات بين أفراد الطبقة الواحدة أو بين الأفراد والسلطة. وأول كتاب شامل في القانون عرف حتى الآن هو من وضع الملك «**أور-انجور**»[1]. ويقول فيه: «لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمس الصالحة والعادلة[2]».

كما وكان للسومريين مآثرهم في ميادين العلم والمعرفة ومأثرة السومريين المهمة والأولى في تاريخها هي وضعهم الكتابة المسمارية والتي استخدمها فيما بعد البابليون والآشوريون والكلدانيون والعيلاميون. وكانوا يكتبونها على ألواح من الطين الطري وسميت كتابتهم بالمسمارية أو الإسفينية لأنّ الكاتب كان يضغط بقلمه على الطين ويحفر عليه الأحرف ثم ليحفظ تلك الألواح كان يشويه على النار فتثبت الكتابة، وقد كانت تقرأ الكتابة المسمارية من اليمين إلى

---

(١) أور-انجور، مؤسس أور(*Ur*) التي شهدت حالة ازدهار مستمرة دامت من ٣٥٠٠ق.م.إلى ٧٠٠ق.م.

(٢) انظر: الصفحة ***Wooley***، ٤٣٥.

اليسارأما الكتابة البابلية فتقرأ من اليسار الى اليمين، والبابليون هم أول من كتب بهذه الطريقة.

استخدم السومريون الكتابة في تدوين الشؤون الدينية والطلاسم والعقود التجارية والصكوك وقوائم البضائع التي تنقلها السفن، إضافة الى تدوين الشعر والنصوص الأدبية ومنذ ذلك الوقت في العام ٢٧٠٠ق.م. نشأت دور النشر في المدن السومرية.

ومن الإنجازات التي أحدثت تحولاً في حياة البشرية اختراع الدولاب واستخدامه في صنع العربات والمحراث لفلاحة الأرض واستصلاحها كما بنوا المدارس واهتموا بالطب وقد تمّ اكتشاف لوحة ترجع الى الألف الثالث وضعها طبيب وسجل عليها اثنتي عشرة وصفة طبية لمعالجة الأمراض، وشرح فيها كيفية استعمال الدواء وتحضيره، والكيمياء وتروي أسطورة جلجامش سعي هذا البطل لاكتشاف إكسير الحياة الذي يحفظ الشباب ويضمن الخلود للإنسان، وهو السائل الذي أدّى بالباحثين عنه إلى وضع أسس الكيمياء، فيما بعد عند العرب. وعلى صعيد علم الصيدلة عرف السومريون المنافع العلاجية لبعض النباتات كالقرفة والآس والزعتر والصفصاف والتين والتمر والحليب، والتقويم إذ ارتكزوا على الشهر القمري وجعلوا سنتهم اثني عشر شهراً.

ودرسوا الحساب والهندسة وفي فن البناء ابتدعوا الأشكال الهندسية والأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب فقد عثر في خرائب نپور على قنطرة (مبنية على طريقة العقد) لمجرى مائي أنشيء منذ خمسة آلاف من السنين، كما عثر في معابد أور الملكية على عقود يرجع تاريخها الى عام ٣٥٠٠ق.م. والعقود ويبدو لنا أنها كانت عبارة عن مداخل للبيوت المعقودة إذ كانت مألوفة في أور منذ عام ٣٠٠٠ق.م.

والفلاح السومري هو أول من عرف فن البناء واهتدى الى بناء المنازل وكان يفرز الأعواد، لبناء البيت، واستوردوا الحجارة لأنها غير متوفرة في بلادهم من الشمال وبلاد عيلام لبناء هياكلهم، وكانوا يزينونها بأعمدة وأفاريز من النحاس،

وكان هيكل ناتو في «أور» المثال الذي يحتذى في بناء سائر الهياكل، وبنى السومريون هياكلهم على تلال اصطناعية، كما وتفننوا في تزيينها لأنها مساكن آلهتهم وعرفت هذه الهياكل باسم «**الزيغورات**» (***Ziggurat***)والزيغورات من ناحية الشكل الهندسي شديدة الشبه بشكل ناطحات السحاب. والزقورات تسمح باستفادة الأبنية المجاورة من نعمتين ضروريتين: الهواء والنور.

ج. الحياة الدينية عند السومريين

تتركّز الحياة الدينية الخاصة بعبادة إله المدينة المسيطر على كلّ ما فيها، ويعتبر المعبد المركز الحيوي لكلّ مظاهر الحضارة في المدينة تتجمّع من حوله كل أوجه النشاط وكانوا يعتبرون أنّ الإله هو سيّد المدينة الحقيقيّ وعليه أن يختار وكيلاً عنه يسمونه «**إيشاكو**» يتولّى الحكم ويعهد إليه باسم الإله رعاية شؤون الأهالي، وهكذا جمع الحاكم مهمّة تصريف الأمور إلى مهمّته الدينية في الوقت نفسه يتولى الأعمال الكهنوتية بصفته الكاهن الأكبر للإله.

وقد كشفت النصوص التي عثر عليها بين أطلال معبد مدينة «**العبيد**» عن كهنة آلهة المدينة وهي الإلهة «**نين ـ هرساج**» وألقابها: «**أم الآلهة والبشر، التي ترعى أمراء المستقبل**» وكانت تمثل على هيئة بقرة لم تلبث أن اختارت لها زوجاً هو «**نانار**» إله «**أور**» الذي مثل على هيئة الثور القوي والذي يرمز به إلى القمر.

أمّا إله مدينة «**لجش**» فكان يدعى «**نين جيرسو**» وكانوا يصوّرونه على هيئة نسر كبير له رأس أسد ويقبض على حيوانين، وقد استمرّ هذا الأسلوب في تصوير الآلهة على هيئة حيوان يتكوّن من أكثر من عنصر منتشراً في العصر السومري وانتقل منه الى العصر البابلي. اعتقدوا في حياة خالق الموت، وكان الحاكم يدفن في تابوت يوضع في قبو بُني من الحجر ويحاط بعدد من رجالاته وخدمه. وحرص أهل سومر على تزويد الميت بما يحتاجه من أغراضه الشخصية

فيضعونها معه في التابوت وخارج التابوت كانوا يضعون أواني فخارية تحوي أنواعاً من القرابين لاعتقادهم بأنّ الميت سيكون له حياة أخرى بعد الموت.

إذاً، لقد نعم السومريون بحياة مزدهرة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية، إلا أن حياة الرخاء والازدهار التي أنتجت الحضارة السومرية العظيمة سرعان ما تلاشت أمام غزو العيلاميين من الشرق والعموريين من الغرب فظلت بلاد سومر خاضعة لهما حتى أقبل حمورابي ملك بابل واستعاد من العيلاميين مدينتي أورك وايسين واستفاد من إنجازات الحضارة السومرية لبناء حضارة الإمبراطورية البابلية وبسط نفوذه على آشور وعمور وسن القوانين ونظم الشؤون الإدارية وضمن للساميين حكم بلاد ما بين النهرين حتى قيام الدولة الفارسية عام ٥٣٩ق.م.

د. البابليون

في حوالي عام ٢١٠٥ق.م. بدأ رجل اسمه آبوم كفاحه بالقضاء على أمراء الدويلات الجنوبية ثم أعلن نفسه ملكاً على بابل بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكاد وبذلك حقق نهائياً وحدة البلدين تحت صولجان واحد. بعدها جاء حمورابي وأعلن نفسه ملكاً على بابل بعد أن بسط نفوذه على سومر وأكاد وبذلك حقق نهائياً وحدة البلدين تحت صولجان واحد وموطن واحد هو بابل.

بابل هي مدينة الحدائق الغنّاء المعلّقة وموطن عرش حمورابي الملك الإداري المنظم، والقائد العسكري المتحمّس والمشرّع الموحى إليه من الإله شمس، وقد جاءت الحضارة البابلية بعد الحضارة السومرية وعدّلت قليلاً في بعض مفاهيمها الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، ودامت حوالي الألف سنة بعد الحضارة السومرية أي في الفترة الممتدة من ٢١٥٠ق.م. إلى ١٢٤٧ق.م.وتقسم الى ثلاثة أدوار هي:

- الدور الآكادي من ٢١٥٠ق.م. إلى ١٩٤٧ق.م.
- الدور الآموري من ١٩٤٧ق.م. إلى ١٥٥٠ق.م.
- الدور الكاشي من ١٥٥٠الى ١٢٤٧ق.م. والكاشيون قوم غير ساميين هبطوا إليها من الجبال الشمالية الشرقية.

البابليون ينحدرون من أصل ساميٍّ جاؤوا من شبه الجزيرة العربية وأسسوا مدينة بابل شمالي المدن السومرية أور وأروك وبمحاذاة مدينة كش. وقد قامت

الأمبراطورية البابلية بعد عدة صراعات بين السلالتين السومرية والأكادية وذلك على يد حمورابي ملك بابل الشهير.

كان البابليون يمتازون بالبشرة السمراء وسواد الشعر، وكان الرجال يتركون لحاهم، ولباسهم عبارة عن مئزر من الكتان يغطي الجسم حتى القدمين وكانوا يحملون بأيديهم عصياً ذوات رؤوس مزخرفة بالرسوم والنقوش.

ورث البابليون الكثير من الحضارة السومرية فاعتمدوا في وسائلهم على العربة المدولبة وكانوا يعتمدون على التجارة في حضارتهم ومن أجل تسهيل الأعمال التجارية قاموا بشق الطرقات لتصبح ممرات سهلة للقوافل التجارية القادمة والذاهبة الى جميع البلدان، وبسبب نمو التجارة عاشوا حياة ترف ورخاء كما وتمكّن البابليون من وضع نظام مالي محكم. واعتمدوا لأول مرة في التاريخ نظام المقايضة وهو مقايضة السلع بالسبائك الذهبية والقمح بالشعير وغيرها من الأمور.

كثرت الصناعات والحرف اليدوية وكثر الصنّاع لإنتاج احتياجات الحياة المترفة من وسائل وأدوات.

سياسياً كان للملك الحقّ في أن يورث العرش لمن يشاء من أبنائه دون تفريق. وكان كل واحد من أولاد الملك يعتبر نفسه وليّ العهد ويجمع الأنصار حوله وقد يشنّ الحرب على إخوته إذا أقصي عن الحكم. وكانت سلطة الملك أقوى من سلطة الكهنة واختار بنفسه معاونيه من الموظفين الإداريين في العاصمة والمناطق. وكان الملك والموظف الإداري يخضع لسلطة قانون حمورابي وقد تمّ العثور عليه في خرائب مدينة سوس عام ١٩٠٢م، وهو منقوش على حجر الديوريت وفي أعلى النقش رسم يمثل حمورابي وهو يتلقى الشريعة من الإله شمس (إله الشمس عندهم).

وقد جاء في مقدمة شريعة حمورابي ما يلي: «...لما أن عهد آنو[1] الأعلى ملك الأنوتاكي[2] وبل[3] رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم، لما عهد [آنو وبل] حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك. ولما أن نطقا باسم بابل الأعلى، وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض، في ذلك الوقت ناداني آنو وبل، أنا حمورابي الألى، عابد الآلهة لكي أنشر العدالة في العالم وأقضي على الأشرار والآثمين وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء.. وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق».

أنا حمورابي، أنا الذي اختاره بل حاكماً، والذي جاء بالخير والوفرة، والذي أتم كل شيء لنبور.. والذي وهب الحياة لمدينة آرك والذي أمد سكانها بالماء الكثير.. والذي جمّل مدينة بارسيا، والذي خزن الحب لأوراش العظيم، والذي أعان شعبه في وقت المحنة وآمن الناس على أملاكهم في بابل، حاكم الشعب، الخادم الذي تسر أعماله أنونيث»[4].

وتفيد هذه المقدمة أن سلطة حمورابي، مؤيدة من إلهين وهما آنو وبل، مبسوطة على المدن السومرية، وأن بابل تقع في موقع استراتيجي في وسط العالم وأنها هي المركز، ومهمته محددة بنشر العدالة ورعاية مصالح الخلق وخدمة الآلهة.

---

(١) آنو إله السماء عند الآكاديين ويطلق عليه أيضاً اسم «آدوم».

(٢) الأنوتاكي: تسمية كان يطلقها السومريون والبابليون على آلهة الأرض والماء. «كي» تعني الأرض.

(٣) بل يقابله بعل في الديانة الفينيقية، واسمه أيضاً: حدد في الديانة السومرية، (بعل تعني السيد) وهو كما ورد في النص إله السماء والأرض.

(٤) أنونيت: ربّة آكادية. والنصّ نشره هاربر (*Harper*) في كتابه «قانون حمورابي» (***Code of Hamurabi***) الفقرات ٣و٧. وهو هنا بترجمة فؤاد زكريا في كتاب «قصة الحضارة».

وقد قامت شريعة حمورابي على عدّة مبادئ أشهرها: «**العين بالعين والسّن بالسّن** »**ويقال أيضاً** «**النفس بالنفس والعين بالعين**» وقد طبق العديد من القوانين طبقاً لهذه القاعدة ومنها:

١. إذا أحدث إنسان أذى لآخر(كسر سنّه، أو فقأ عينه أو جرح رجله) حلّ به نفس الأذى الذي سببه لغيره.

٢. في حال انهار منزل ويقتل من اشتراه يحكم على المهندس أو الباني بالإعدام، أمّا إذا تسبب السقوط بوفاة ابن الشاري حكم بالموت على البائع أو الباني.

٣. إذا تسبب الطبيب، أثناء جراحة، في موت المريض، تقطع أصابع الطبيب.

٤. جرائم يستحق مرتكبوها الإعدام: من هتك للعرض، خطف الأطفال، قطع الطرق، وقتل المرأة لزوجها بهدف الزواج من غيره، الجبن في أثناء القتال، في حال ثبوت الرشوة على الموظف وإهمال الزوجة لأمور بيتها، وغش الخمور بزيادة الماء عليها أو ما شابه ذلك.

٥. إذا اتهم رجل آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام، ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعي نفسه بالإعدام.

هذه بعض الأحكام من قانون حمورابي والتي تتأثر بها بعض أحكامنا في الوقت الحالي كما ويبدو لنا أن قانون حمورابي يستشف منه نوع من الحماية الاقتصادية التي قد لا تتوفر في كثير من البلدان.

هـ. العقائد الدينية عند البابليين

بقيت العقائد الدينية في عهد الأمبراطورية البابلية على ما كانت عليه في السابق، واستمر عدد الآلهة بعددهم الوافر الذي لا يقلّ عن خمسة وستين ألف إله.. وهذا ليس أمراً مستغرباً إذ كان لكلّ مدينة إله يحميها ولكلّ قرية ولكلّ جماعة ولكل أسرة وربّما لكلّ فرد إله يحميه.. إضافة إلى الآلهة الكبرى التي تمثل قوى الطبيعة والتي كان الجميع يتعبدون لها.

وعندما استقر الأمر لحمورابي جعل من الإله «**مردوك**» معبود مدينة بابل المحلّي وهو «**الإله الأعظم للأمبراطورية وسيد الآلهة أجمعين**». وقام الكهان تنفيذاً لرغبة حمورابي وألفوا الأساطير والروايات التي تروي قصة الخلق البابلية وتتحدث عن كيفية بدء الخليقة وكيف استطاع مردوك أن يصبح سيد المجتمع.

لقد آمن البابليون أنّ الناس بعد موتهم يذهبون كلهم.. العبقري منهم والأبله..القديس والمذنب.. الى مكان مظلم في جوف الارض سموه «**أرالو**» هو بمثابة دار العقاب.. حيث تقيّد فيه أرجل وأيدي الموتى أبد الدهر وحيث ترتجف أجسادهم من البرد. وإذا لم يتفضل أبناء الموتى وأقرباؤهم بوضع الطعام لهم على مقابرهم في أوقات معينة فسوف تدفن في قباب ونادراً ما كانت الجثة تحرق وتوضع بقاياها في قدر وكانوا يعتقدون أنّ الميت الذي لم يُعنى بدفن جثته على أحسن وجه سوف يسبب العذاب للأحياء.

ولقد كان الدين البابلي يرتكز في أساسه على تقديم القرابين للآلهة وإذا قام البابلي بتقديم القرابين للآلهة فهو يؤدي بذلك كلّ مهامه الدينية وهذه القرابين تذهب للكهنة وبعد ذلك يصبح بإمكانه أن يحكم على عدوه بفقء عينه أو قطع يده أو رجله أو شوي بقية جسده وهو حيّ.. ودون أن يؤذي بذلك آلهته..

هذا بعض ما تقدم من الحضارة البابلية وما أخذته عن الحضارة السومرية إضافة الى تأثرها بها وببعض حضارتها وعقائدها.

كما ولقد ساهم العنصر الآكادي في الحضارة البابلية بتطوير الحضارة السومرية في عدة نواح إذ غيّر في أنماط السلوك ونظام الحكم وعمل على تطوير العلوم.

و. الآكاديون

في الشمال من دولة سومر تقع دولة آكاد حيث قامت الأسس الدينية فيها على نفس العقائد التي كانت سائدة عند السومريين. فقد اعتقدوا أن العالم في بدء أمره كان يتكوّن من عنصر واحد هو الماء.. يحوي عنصرين أزليين هما المياه العذبة أبسو والمياه المالحة تيامات كما جاء في أسطورة الخلق والطوفان.. وبتزاوجهما انبثقت الخليقة.. الآلهة والبشر. وكانت الآلهة عندهم مخلوقات سماوية يمتازون عن البشر بحياة أبدية وإن كانت تسود بينهم وتربط بين الواحد منهم والآخر نفس الأحاسيس البشرية.

ومفهوم الآلهة عندهم أنّهم جميعهم محبون للخير، أما البشر فكانت هناك مخلوقات تمثلهم ليست ببشر كما أنها لا ترقى إلى مصاف الآلهة. وبينما عبد الناس الآلهة وقدّموا لها القرابين حاولوا الاتصال مع مخلوقات الشرّعن طريق السحر فقط رغبة في إبعاد أذاها عن أنفسهم.

وكان العالم ينقسم عندهم الى ثلاثة أقسام:

١. السماء ويسيطر عليها الإله «آدوم»أو «أنو».

٢. الهواء والأرض ويسيطر عليهما الإله «أنليل».

٣. البحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله «أنكي».

وكان هناك إضافة إلى هؤلاء مجموعة من الآلهة تمثل قوى الطبيعة والعناصر المهمة في بيئتهم. أما الناس فقد خُلقوا من طينة الأرض وشُكّلوا حتى يشبهوا

الآلهة وما خلقوا الا ليكونوا خدّاماً مطيعين لهم. ولذلك كان الناس يعتبرون أنفسهم ملزمين أمام الآلهة بأمرين: أولهما خشية الإله.. وثانيهما العبادة وتقديم القرابين.

لم تكن فكرة الحياة بعد الموت والجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلّد قد استقرت في عقولهم بعد. إذاً فإن تقديم القرابين والصلاة لم تكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعاً في النعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا. والعقيدة التي يعتمدون عليها هي أن الانسان مادام يعمل صالحاً فقد استحق رضى الإله وعاش متمتعاً في هذه الدنيا بالسعادة. أمّا إذا أذنب بقصد فإن الإله حاميه يتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر ويتردى في عالم الرذيلة. وإذا أراد الانسان أن ينجو من عالم الرذيلة فعليه أن يلجأ الى السحر ويتمتم بتعاويذه التي علّمها الإله«أنكي» للناس فحفظوها عن ظهر قلب. وكان الفرد الذي يتعلمها كاهناً لا عمل له إلا مساعدة الناس للتخلص من أيدي مخلوقات الشر والعودة الى حظيرة الآلهة.

ز. الآشوريون

عند الآشوريين فقد بقيت الأصول الدينية البابلية أيضاً في جوهرها تهيمن عليهم كما يقول د.عبد المنعم أبو بكر في كتابه دراسة حضارة الشرق القديم. وأن الدين لم يكن له السلطة على أصحاب الحكم كما كان في بابل وقد استخدموا الدين ليصبح ملائماً للميول الحربية والطابع العسكري الذي تميّز به الآشوريون.

وكان «آشور «إلههم القومي، وملك جميع الآلهة، وخالق البشرية، كما أنّه كان إلها حربياً لا يشفق على أعدائه.

وكانت زوجته عشتار المحاربة، تحتل المكانة الثانية في مجمع الآلهة الآشورية الذي يشمل الآلهة: «سن» و«شمس» و«أداد» و«بعل» و«نابو» و«نرجال» و«نسكو».

تتكوّن الطقوس الآشورية من أدعية وصلوات مصحوبة بتقدمات مختلفة، والنقوش الملكية مليئة بالدعوات مثل: «فلترضَ عني الآلهة عندما أرفع يدي إليها، ولتمنح حكمي أمطاراً غزيرة وأعواماً كثيرة مليئة بالثروة والرخاء ولتُعنِّي على الخروج من الحروب سالماً آمناً. ولتخضع لي كل الأقاليم المعادية وكل الملوك والأمراء الذين أعلنوا الخصومة ضدي. ولتسبغ بركاتها علي وعلى نسلي».

هـ. عقائد الآشوريين

كان الآشوريون يعتقدون بدنيا الموت، كان الاعتقاد نفسه عند البابليين، فالدنيا لا تعطي الفرصة لمن عمل صالحاً كي يتمتع فيها بشيء؛ فلم يكن الآشوري يبذل أي جهد ليقيم لنفسه مأوى يمضي فيه حياته الثانية هانئاً سعيداً. بل كان همه أن يرضي الآلهة لتمنحه السعادة والرخاء في الحياة الأولى، ولعل أوضح مثل لذلك ما قاله الملك آشور بني بعل للآلهة التي رمم معابدها: «امنحوني، **أنا الذي أخشى معبوداتي العظيمة، حياة تمتد أياماً وسرور القلب**».

أبرز الآلهة لديهم:

- إله السماء (أونو): وهو يمثل مركز الصدارة بين المعبودات في قوائم الآلهة في العراق القديمة وكان يعتبر أبا الآلهة.
- إله الأرض (إنليل): كان يُعتبر سيداً للمجمع السومري للآلهة ومع اسمه (سيد الريح والروح) ثم أخذ بعد ذلك لقب (سيد الأرض) وكان له مظهر الجندي المغوار.
- إله الماء (أنكي) كان ثلث أفراد الثالوث الرئيسي. وكان إله السحر ولعل ذلك يرجع إلى استخدام الماء العذب في طقوس التطهير وهو الذي يتلو الرقيّ للآلهة.

- إله العالم السفلي (نرجال) وهو إله الوباء به تعمير العالم السفلي والذي يعاقب بالحديد والنار من يعتدي على الشريعة، وكوكب نرجال هو كوكب المريخ وزوجته (أرشيكجال)سيدة الأرض العظمى.
- إله الشمس (شمس) وأكثر صورة دائرة بأربعة أشعة تخرج بينها مجعدة تمثل المعبود الشمسي ورمز لطيران الشمس من الشرق إلى الغرب تصور الكرة الشمسية ذات أجنحة وذيل طائر.
- إله القمر (سن) وهو يظهر مع بداية الشهر وتلمع قرونه وتحدد بستة أيام، وحين ينحدر الشهر يتحول القمر إلى شيخ مسنّ له لحية من لازورد ينفذ بحكمته وأقواله الرصينة قرارات الآلهة وعدد أقدار البشر. وينفّذ العدالة مع شمس في الليل وفي النهار وزوجته هي بنجال أي السيدة العظمى ولد لهما شمس إله الشمس وعشتار ربة الزهر.
- إلهة الزهرة (عشتار) إحدى بنات سن إله القمر، هي ذكر في الصباح يشرف على الحروب والمذابح، وأنثى في المساء ترعى الحب والشهوة.
- الإله مردوك الإله الوطني الذي لعب دوراً رئيسياً في مصير بابل. وهو الابن البكر «**لانكي**» إله الماء.
- الإله آشور: وتاريخه مرتبط بتاريخ مدينة «**آشور**» يشغل في مجمع الآلهة الآشورية وقائمتهم المكان الأول ويشار إليه كصاحب أعلى مركز بين المعبودات وتاريخه مستمر في التصاعد المستمر. زاد نمواً في بلاده واغتصب اختصاصات غيره من المعبودات فكان أباً للآلهة أجمعين وغدا خالقاً للآلهة جميعاً وسيّدهم وملكهم، وهو الذي يمنح التاج والصولجان للملك ويمتدح الناس قوته وعظمته وجلاله ويرأس مجمع الآلهة الآشورية ليحدد مصائر البشر. ومن إحدى الصلوات التي يوجهها الناس اليه كلّ صباح هي:

ألا ليهدأ الغضب في قلب مولاي..

ألا ليهدأ قلب إلهي..

أنا لا أعرف الإثم الذي ارتكبت

سوءاتي أجهلها

فليذكر إلهي اسماً طيباً

ليذكر الإله المعروف أنني أكلت حطاماً طاهراً

وشربت شراباً طهوراً

لقد أكلت يا إلهي ما ليس بطاهر سهواً

أي ربي.. إن آثامي كثيرة وتعدياتي كبيرة..

الإله في غضب قلبه تطلع إليّ

الإله في هياج قلبه حاصرني

سعيت وراء العون ولكن أحداً لم يأخذ بيدي

بكيت ولكن واحداً لم يأت إلى جانبي

لقد غُلبت على أمري وأنا مليء بالحزن

ألا فليهدأ الغضب في قلب إلهي.

هذا بعض ما عُرف عن حضارات وعقائد بلاد ما بين النهرين قديماً وهناك من عرف بأن بلاد ما بين النهرين قديماً هي ما يعرف اليوم بالعراق حديثاً وهذا بعض من معتقداتها وحضارتها.

ط. العبادات في الديانة العراقية القديمة

عبد العراقيون القدامى آلهة كثيرة، وأعطوها صفات المقدس الإلهي وهي الشعور العميق بشخصيته وبأن له القوة الخارقة والسيطرة الأبدية[1]. ولكنهم لم يعرفوا التوحيد المطلق للإله، ولكنهم نعتوا كبيرهم بـ (رب الأرباب) أو (الإله الأعظم) وهو ما يعرف بالتفريد.

ويدور محور عبادتهم حول الآلهة المعبودة التي مرّت بمراحل الحيوية وهي الاعتقاد بوجود قوى أو أرواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة إله، والطوطمية وهي تجسيد الأرواح في النباتات والأصنام كالإله لها تأثير كبير على مجريات الحياة العامة قبل تكاملها. وعدّوا آلهتهم كائنات سماوية تتسيّد القوى في الكون. إلّا أنّهم كانوا يعتقدون بأنّهم قادرون على التأثير على مظاهر الطبيعة، وهي من أصول عبادتهم وتسخيرها بالسحر القائم على مبدأ التشبيه وهو الاعتقاد بإمكان استحداث الشيء بتقليد عملية حدوثه.

وكان من ذلك أن جسدوا آلهتهم بصور البشر والحيوان، وصوّروا لها بيوتاً تعيش في السماء، ثم تطوّرت الفكرة فأسكنوها في المعبد[2].

---

(١) بوتير. جان، الديانة عند البابليين، ترجمة د.وليد الجادر، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٠،ص١٢.

(٢) عزيزي،محسن: المعتقدات القديمة في العراق، ص٤٠-٤٢.

إن جوهر عباداتهم مستمد من فكرهم الديني، الذي يستتبع ما يشعرون به، ويعتقدونه ديناً في صورته البدائية، المستوحى من محيطهم، وما رافقه من متغيرات طبيعية وبشرية، فألزموا أنفسهم بطقوس آمنوا أنّ في أدائها جلباً للخير والعطاء ودفعاً للمكروه.

وعبادتهم مقسّمة الى نصفين الأول عام ويقوم به الفرد لتحقيق غاية الخلق من وجوده، وآخر خاص لدفع المكاره، كما أنها تنوّعت تبعاً للطقس الذي يؤديه المتعبّد في البيت أو في المعبد.

فكانوا أحياناً يقدمون القرابين للآلهة مع ما يتبع ذلك من صلوات أو حرق البخور، وأخرى طقوس يقوم بها المتعبد نفسه بدون وساطة من الكاهن كالدعاء وصلاة التوبة والاستغفار.

وأبرز آلهتهم المعبودة (أنو) إلهة السماء، (أنليل) سيد الريح العاصفة، و(أيا) سيد الأرض[١].

ولعلّ أهمّ طقس تعبدي لديهم هو محاورة الآلهة ثم لإقامة الصلوات والأعياد فالمحاورة نشأت تطبيقاً للمفهوم التشبيهي للآلهة، وإن تقديم القرابين على اختلافها والضحايا يفسّر اقتناعهم بالهيمنة الإلهية على كل شيء والمفهوم التشبيهي مفهوم استحدثه العراقيون القدامى وكذلك المصريون بأن نعت الملوك أنفسهم بألقاب تنمّ عن ألوهيتهم إشباعاً لرغباتهم.

إنّ إقامة الصلاة للآلهة يعتمد على نوع المناسبة التي من أجلها أقيمت الصلاة، والتي تعني رفع شأن هذا الإله أو ذاك، فيقدم المصلي نفسه للآلهة، **«ويركع أمامها ويقبل أقدامها، ثم يرفع يديه بالدعاء وتارة يرفع يده اليسرى إلى الأعلى، والأخرى توضع على الصدر، أو أنّه يرفع يداً واحدة للدعاء، والصلاة عندهم تقام في الصباح»**[٢].

---

(١) بوتيرجان: الديانة عند البابليين، ص٥٠.

(٢) الأحمد، سامي سعيد: المدخل إلى تاريخ العالم القديم، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٨، الديانة عند البابليين ص١٤٧.

ولا تنفصل الصلاة عن بقية الشعائر، فهي تصلى مع تقديم القرابين وحرق البخور، وعلى المتعبد أن يؤمن بأن الآلهة تسمعه وتستجيب لدعائه ويخاطبها ويجعلها تشعر بما يكنّه لها من حبّ كبير لتبقى راضية عنه.

وكانوا إذا أقاموا الصلاة الجماعية إنّما يقومون بها طلباً لمحو الكوارث وإبعادها وجلب الخير ودفع المكروه، ويصاحب دعواتهم تراتيل دينية مصحوبة بالموسيقى والمغنين الذين وضعت لهم نقابة تدير شؤونهم، وتقوم بتدريسهم، وكان أغلب المغنين من الأسرى.

كما وارتبطت الصلاة عندهم بتقسيم السنة حسب مدار القمر إلى اثني عشر شهراً يضاف إلى ذلك بين حين وآخر شهر لموازنتها مع السنة الشمسية، وكل شهر إلى ثلاثين أو تسع وعشرين يوماً. وأول شهر يبدأ بظهور القمر الجديد الذي كان ظهوره يعدّ عيداً ترافقه الصلاة[1].

وكانت الصلاة مرتبطة عندهم بالأعياد، كعيد الزواج المقدس بين الآلهة أو بين الكاهن والكاهنة، وعيد رأس السنة.

أمّا الزكاة فكانت متمثلة بالصدقة الموجبة للعطاء والتصدق سواء للآلهة أو للفقراء والمحتاجين، فكانت آلهة الزراعة والخصب تحثهم على التصدق بجزء من محصولهم للفقراء والمساكين، وكان للكهنة خدَمة المعبد النصيب الأكبر من الصدقات ممثلة بالقرابين والأموال يقدم من النذور.

كان الصيام عندهم فرضاً إلزامياً عليهم وعرف باسم «شيتو»[2]. كما وكانوا يصومون ثلاثين يوماً عدد ما تقطعه الشمس في كل برج من بروجها، فيمسكون عن الطعام والشراب من شفق الشمس إلى شفق غروبها، ويفطرون على غير اللحوم من الألبان والنباتات، إلا ما حرم منها، ويقسمون الثلاثين يوماً إلى ثلاثة أقسام:

الأحمد، سامي سعيد: المدخل إلى تاريخ العالم القديم، ص٢٧٩.

(١) فاضل، محمد: «الحراب في صدر البهائية والبابية»، دار التقدم ١٣٢٩، ص٨٨.

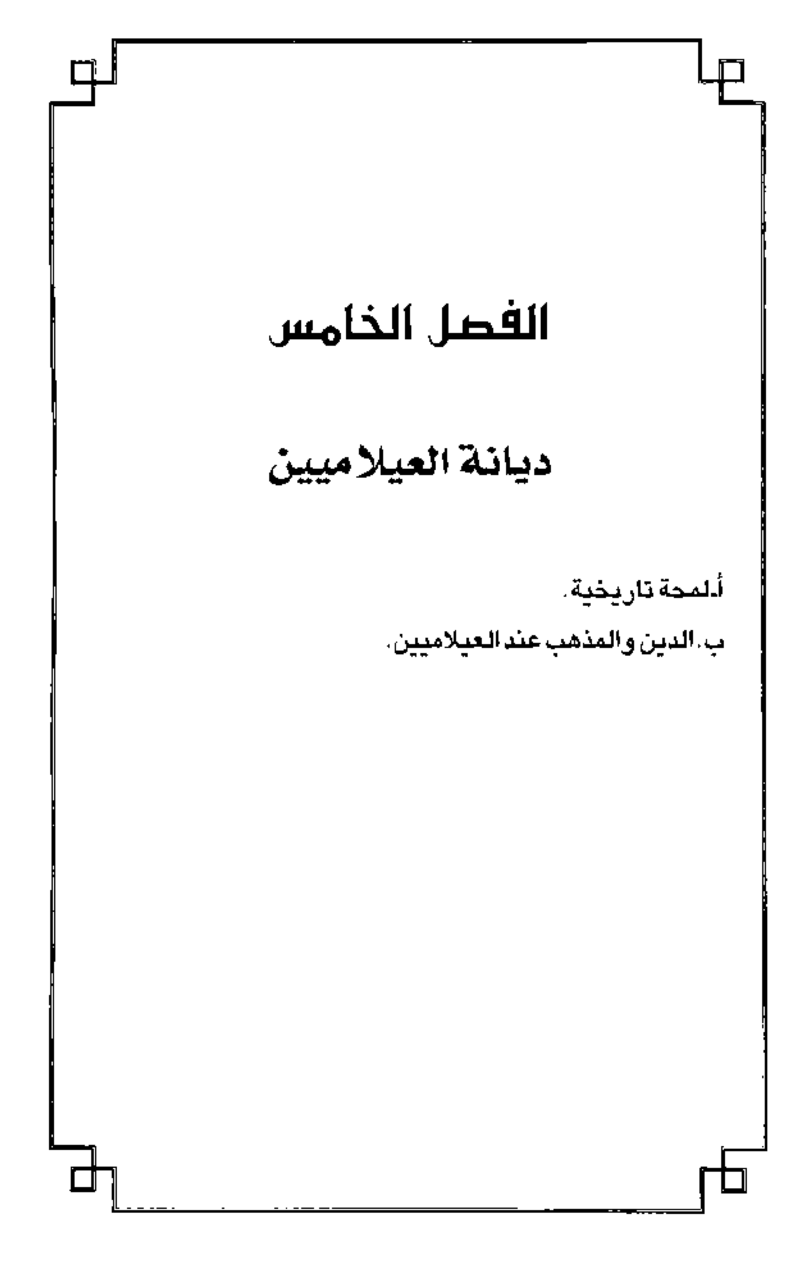
(٢) الحراب في صدر البهائية والبابية ص٨٨.

١. في فصل الشتاء يصومون قسماً فيه أربعة عشر يوماً متتالية موافقة لأعداد الكواكب السبعة المشهورة وأفلاكها.

٢. قسم يصومون سبعة أيام في الربيع.

٣. قسم يصومون فيه تسعة أيام في أواخر الصيف.

لم يكن الحج عندهم محصوراً بمكان معين وكانت الاحتفالات الدينية المقامة للآلهة الكبيرة في المعابد الدينية والمقرونة بمظاهر الفرح والابتهال مظهراً من مظاهر الحج، المصحوب بالصلاة والموسيقى تفخيماً وتعظيماً لآلهتهم. وكانوا يعتبرون أن كل الأماكن التي توجد فيها النصب الإلهية أماكن مقدسة يقصدونها بين الحين والحين.



الفصل الخامس

ديانة العيلاميين

أ. لمحة تاريخية.

ب. الدين والمذهب عند العيلاميين.

أ. لمحة تاريخية

العيلاميون عرفوا قبل التاريخ بال«هاتمتي»، وقد اشتهروا في ذلك الوقت بالصناعة الحرفية مثل الخزف والفخار والطين، وتحوّلوا فيما بعد من حِرفيين إلى جماعات محاربة تخوض المعارك والحروب، ومن أشهر المعارك التي خاضوها «سيالك».

عاش العيلاميون في جنوب إيران على شكل تجمعات قبلية في الجبال والسهول، وبسبب وفرة المياه في تلك الأراضي ووجود أنهار كثيرة مثل كارون، ودز، والكرخة، اتخذوا مدينة الشوش عاصمة لهم معتمدين على زراعة المحاصيل الزراعية وتربية المواشي والدواجن.

شيئاً فشيئاً تدرّج العيلاميون للاهتمام بالتنقيب عن الآثار وقد أجرى علماء الآثار حفريات في مدينة الشوش فعثروا على تماثيل صغيرة مصنوعة من الفخار والطين لآلهة كان العيلاميون يقدّسونها ويعبدونها، ومن أشهر آلهتهم، الإله الأكبر هوبان وأنشوشيناك، والإله الشوش، وكيريريشا.

تأثّر العيلاميون بحسب موقعهم الجغرافي بجيرانهم السومريين فبدأت العلاقات التجارية تأخذ مجراها بين القبائل العيلامية والقبائل السومرية، ومن ثمّ نشأت حروب بينهما فدمّر السومريون مدينة أور.

وبالرغم من ذلك فقد تعلّم العيلاميون تقليد الخط المسماري السومري، ووجدت كتابات قديمة حوالي عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد في شبه الجزيرة بوشهر

بمدينة ري شهر، وأثبت علماء الخط مدى أهمية تلك الكتابات القديمة وامتداد بلاد العيلام من الخليج الفارسي حتى الجنوب الشرقي من إيران الحالية. بينت أهمية وجود تلك الكتابات التي وجدت أيضاً في مدينة(*Liyan*) على قدرة ملوك العيلام في تلك الحقبة على التوسع غرباً. وقد أطلق آنذاك اسم إيدحاج (*Idhaj*). وبعد مرور الزمن تغيّر اسمها وعرفت باسم آنشان (*Anshan*) أو أنزان (*Anzan*).

أوجد العيلاميون في الزمن القديم نمطاً من السكن وهو التجمعات السكنية أو المدن وقد أسسوا لهذه الغاية المدن الكبرى ومن أهمها شوش (*Susa*) التي كانت مركزاً أساسياً للتجارة ومدينة أوان (*Awan*) التي تقع إلى الشمال الغربي لمدينة شوش قرب المدينة الساسانية إيوان كرخه التي كان يسكن فيها سلاطين عيلام.

أول الآثار التاريخية للعيلاميين كانت في زمن ساركن (*Sargon*) ملك أكاد الذي حكم من (٢١٦ حتى ٢٣٧١ ق.م) قبل فتح سومر هجم الملك ساركن على عيلام ولم يواجه أي مقاومة. وبعد وفاته انقلب العيلاميون على خلفه ريموش (*Rimush*) حيث جهّز لهم حملة كبيرة فدمّر ذلك العصيان وقد وجد علماء الآثار في حفريات مدينة بابل غنائم أثرية وتاريخية من عهد ريموش (*Rimush*).

أظهرت الحفريات الأثرية وهذا ما أكدته التواريخ شجاعة الشعب العيلامي وتمرده على الملوك التي حكمت بعد ريموش مثل مانيشتوسو (*Manishtusu*) الذين قاوموه مدة طويلة ولم يستقر الوضع إلا في زمن حكم نارام سين العظيم (*Naram-Sin*) الذي حكم بالعدل فانصاع له العيلاميون ولم يقاوموه.

في زمن الملك العظيم نارام سين (*Naram-Sin*) وفي ظل نفوذ سلالة آكاد ظهر التطور والعمران حيث بنوا العمارات والأبنية الكثيرة وأقاموا التماثيل لملوك آكاد ولفترة محدودة طغت اللغة الآكادية على اللغة العيلامية في بعض المناطق التي كانت قريبة من سلطة الحاكم وقد عثر المؤرخون وعلماء الآثار في الحفريات العائدة لزمن أحد ملوك عيلام هيتا (*Hita*) على عقد تجاري عليه اسم الملك نارام سين باللغة العيلامية بقيادة بوزور – أنشوشيناك (*Puzur – Inshushinak*) الذي

كان قائم مقام الحاكم لمدينة شوش، باستعادة مكانتهم المعنوية والقيادية تحت أمره وبدعم معنوي من الإله السامي حيث انتصروا على قبيلة غوتي (*Goti*) وهي إحدى أكبر القبائل البربرية التي تسكن في المناطق الشمالية وفي أقصاها حيث يتواجد شعب كاسبين (*Caspin*).

لقد بنى بوزور أنشوشيناك المعابد والأبنية الكثيرة في مدينة شوش (*Susa*) وزين هذه المعابد وزخرفها بالحلي والجواهر والغنائم التي استولى عليها في حروبه. بعد وفاة نارام سين أعلن بوزور أنشوشيناك عن استقلال دولة عيلام وشنّ هجوماً كبيراً على بابل ووصل إلى شمال بلاد آكاد وواجه صعوبات كثيرة انسحب بعدها بسبب الهجوم المتكرر من قبائل غوتي وجيرانهم في الجنوب قبيلة لولوبي (*Lollobi*)، لقد أضعفت هذه الحروب والمشاكل حكومة آكاد في عيلام.

بعد رجوع بوزور- أنشوشيناك من حملته على شمال بلاد آكاد تَوَّجَهُ العيلاميون ملكاً عليهم، ولم تستمر سلطته طويلاً بسبب الحملات التي شنّها على مملكته قبائل غوتي ولولوبي، وبعد ذلك الزمن بسنوات عدة لم يعد يعرف شيء عن تاريخ العيلاميين.

من التقاليد المعروفة عند العيلاميين أن الملك ينتقل بالوراثة إلى سلالة الأم وفروعها وهذا السبب ترك نقصاً كبيراً في المعلومات التاريخية والأثرية عن هذه الدولة.

أكدت النقوش والأثريات المكتشفة أن بين (سنة ٢٠٩٥ وسنة ٢٠٤٨ ق.م) حكم دولة عيلام شولكي(*Shulgi*) خليفة عورنامور (*Urnamor*) المؤسس الثالث لسلالة عور(*Ur*) واستولى على أنشان وأيضاً على شوش.

بنى ملوك عور المعابد في مدينة شوش لآلهة عيلام أنشوشيناك ونينهورساك، وقد وجد العلماء في حفريات مدينة شوش معبدين كبيرين وعثروا بداخلهما على الهدايا والنذورات والتماثيل النحاسية والألواح الحجرية وأشياء ثمينة أخرى مثل

المجوهرات والمحابس والعقود والميداليات كما عثروا على قبور تعود لعصر عور في منطقة أكروبوليس الشوش.

كان للعيلاميين طقوساً خاصة في دفن أمواتهم فكانوا يضعون الجثة على جانبها الأيسر ويجمعون الأرجل إلى بعضها وكانوا يتركون أيدي بعض الجثث في قدح صغير من النحاس ظنّاً منهم أنّ الميت ربما يتناول شيئاً من هذا القدح في الحياة الثانية، وكانوا يتركون في كل قبر إلى جانب الجثة بعضاً من الأواني الصغيرة المصنوعة من الحجر والفخار.

لقد عثر العلماء على أكثر من ٣٠٠ لوحاً حجرياً يعود تاريخها بين (١٧٠٠ و٢٣٠٠ ق.م) وكلها تعود لمدينة شوش (*Susa*) التي توضح لنا معالم تلك الحقبة من الزمن، لقد أظهرت هذه الكتابات والعقود المكتشفة مدى تعلقهم بآلهتهم حيث يذكر أحد الآلهة لكل وقت من تلك الحقبة مثل أنشوشيناك إضافة لذكر ملك ذلك العصر لأن الملك كان منتدباً من قبل الإله لذلك كان لا بد من ذكر اسمه إلى جانب اسم الإله.

أهم الآلهة عند الشوش كان الإله أنشوشيناك الذي أقاموا له الأدعية وقدموا له القرابين في حين كان أهم الآلهة في مال أمير الإله هوزيان شهلا (***Hurzian Shahla***).

كانت عيلام تحت سيطرة بابل حتى أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد ولكن بسبب المشاكل التي تعرض لها الحكم في بابل قامت ثورة عند العيلاميين تحت راية القائد أبارتي (*Ebarti*) الذي ثبت استقلال الدولة العيلامية وأوجد سلالة حاكمة جديدة بحدود سنة (١٨٥٠ قبل الميلاد) حيث خلفه من بعده شيلهاها (*Shilahaha*) وشيمتي شيلهاك (*Shimti-Shlihak*) وغيرهم ممّن تولوا الحكم في عيلام.

لم يعثر في تحقيقات علماء الآثار على معلومات كافية عن هؤلاء الحكام ولكن حسب ما ذكر أن الملك سوكولماه (*Sukkulmah*) كان حاكماً عظيماً وتبوأ مقاماً عالياً حيث أصبح بمستوى البشر الأكبر وكان حاكماً على كل عيلام.

في زمن الملك شيلهاها قام ابنه كودور مابوك (*Kudur- Mabuk*) بهجوم على بابل حيث تمّ فتح مدينة أمونياك (*Emutabal*) قرب لارسا المدينة الواقعة في الشمال الغربي لمدينة عور (*Ur*).

قام كودور مابوك (*Kudur- Mabuk*) بنقل مركز الحكم إلى لارسا (*Larsa*) حيث خلفه ابنه من بعده الملك ريم سين وبقي حاكماً على تلك البلاد حتى قام حمورابي الذي كان ملكاً على بابل بهجوم كبير على عيلام وانتصر عليهم وأنهى حكومة ريم سين على لارسا (*Larsa*) وقد أكّدت المعلومات الواردة في فصل الظهور وهو الفصل الرابع عشر من كتاب التوراة ما ورد عن هذا العصر.

استمر تسلط البابليين على عيلام بعد وفاة حمورابي، ولكن العيلاميون قاموا بثورات عديدة ضدّهم خلال سبعين عاماً.

في سنة ١٨٥٠ق.م نظّم الحياة في عيلام كوتير–ناهونت (*Nahhunt-Kutir*) ووضع القوانين والأسس العصرية لبناء دولة متطورة وأسس سلالة وطنية خلفته من بعدها وتركت العديد من الآثار الحضارية والثقافية. ولقد أظهرت الحفريات المكتشفة عن وجود ألواح حجرية مكتوبة باللغة الآكادية وحلّوا رموزها، دلّت على التطور الكبير الذي كان قائماً في ذلك العصر. بعد مائة عام من هذا التاريخ حكم عيلام عدد من السلاطين ولكن لم يعثر في هذه الحفريات والكتابات على أسمائهم سوى واحد منهم وهو الملك كوك ناشورال(*Kuk Nashurul*) الذي كان يبدو أكثر قوة من سلاطين عصره وترك آثاراً كثيرة محفورة ومكتوبة وقد حكم حوالي عشر سنوات من (١٨١٠ – ١٨٠٠ ق.م).

وفي سنة ١٦٠٠ ق.م. وسّع الكاسيتيون (*Kassites*) نفوذهم من بابل إلى عيلام ومنذ ذلك التاريخ وطيلة أربعة قرون لم يتّضح شيء أو يعرف أي تغييرات حصلت عند العيلاميين، ولكن في أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد ومع بداية دخول الآريائيين إلى إيران لم تتأثر أوضاع عيلام.

شهد دخول الآريائيين إلى إيران مرحلتين أساسيتين الأولى والثانية حيث فصل بينهما مدة خمسمائة عام تقريباً، وقد أكدّ التاريخ أنّ الآريائيين تحدّروا من

أصل هندو. أوروبي وقد تحرّكوا شمالاً بين النهرين وبعضهم سكن في ميتاني *(Mittani)* والهوريان (***Huzzians***) أحد فروع سلالة كاسبين (***Caspin***).

لقد استقر الآريائيون عند دخولهم في آبنية كبيرة وظنّوا بأنّهم ملوك تلك الأرض وتركوا آثاراً عديدة للآلهة الهندو. أوروبية التي كانوا ينتمون إليها وقد كشفت هذه الآثار عن أسماء هذه الآلهة ويُذكر منها: إيندرا (***Indra***) فارونا *(Varuna)* ميترا (***Mitra***) وناساتيا (***Nassatya***). وقد أقاموا لها المعابد حيث كانت تقام الاحتفالات والطقوس عندها، فكانوا يقدمون لها الأضاحي والهدايا الثمينة خصوصاً عند الحوادث الكبيرة مثل الحروب والأمراض، إضافة للمناسُبات السنوية مثل بداية فصل الربيع وذكرى تأسيس الدولة أو ذكرى تنصيب الحاكم.

في أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد قام البابليون بهجمات عديدة على الكاستيين ممّا أضعف من قوّة وقدرة هذه السلالة التي كانت تحكم عيلام في تلك الحقبة ممّا شجّع العيلاميين على استغلال هذا الضعف للثورة عليهم بقيادة الملك باهير. إيششان (***Pahir – Ishshan***) الذي أسّس السلالة الجديدة للعيلاميين وأقام سلطنة مستقلة بعد تغلبه على الكاستيين(***Kassites***). ومن السلاطين الذين عُرفوا في تلك الحقبة الملك هوبان نومنا (***Huban Numena***) وهو ثالث الحكام من السلالة الجديدة الذي بادر بتوسيع حكومته وبسط سلطة دولته. وقد وجد علماء الآثار في حفرياتهم في مدينة ليان (***Liyan***) التي عرفت باسم النهر الذي يمرّ قرب مدينة بونهر، وجدوا كتيبات حجرية نقش عليها اسم هوبان نومنا، إضافة إلى نقوش على ألواح حجرية أخرى نقش عليها اسم الإله هوبان وكيريرشا (***Kirirsha***) وكانت هذه الآلهة، تستمد سلطتها من آلهة أنشوشيناك التي كانت تدعم السلاطين والحكام في بسط سلطانهم.

بعد وفاة هوبان نومنا سنة ١٢٦٦ ق.م. انتقلت الملك إلى الابن وفي عصره ازدهر الفنّ وخاصة الفنّ النحاسي بأقصى درجة وقد دلّ على ذلك تمثال الملك نبير–آسو (***Napiz-Asu***)، ومن أفضل الآثار المتبقية في عصر سلطنة أونتاش هوبان هي عمارة زيغورات (***Ziggurat***) في جوغا (***Chuga***) زنبيل (***Zanbil***) التي كانت تقع

في الجنوب الشرقي لمدينة شوش (*Susa*). يتميّز مبنى زيغورات بارتفاعه الذي يقدّر بحوالي مئة قدم وهو أكبر الأبنية المشابهة له بين النهرين وسومر، وهو مشابه أيضاً لمدرج ساكارا (*Saqqara*) الموجود في مصر حيث كان المدرج يتألف من عدّة طوابق وكان المعبد في الجزء العلوي منها.

لقد وجد العلماء في الآثار المتروكة غرفاً عديدة في زيغورات وعثروا على آلاف الهدايا والنذورات لآلهة ذلك العصر في كل غرفة منها.

وفي سنة ١٢٤٥ ق.م. جلس على عرش الملك هوبان أونباتار(*Huban Unpatar*) خلفاً للملك هوبان أونتاش حيث لم يعثر في المخطوطات والأثريات المتروكة على شيء مهم في عصره. في سنة ١٢٤٨ ق.م. بعد وفاة هوبان أونباتا خلفه على الملك أخوه كيدين هوتران(*Kidin-Hutran*) الذي أظهر طاقته الحربية الكبيرة وذلك في شنّ حملتين عسكريتين على بابل وقد أثبت جدارته وقوته على أخصامه، ثم خلفه بعد وفاته هللوداشن – أنشوشيناك (*Halludash – Inshshinak*) ثم شوتروك ناهونت (*Shutruk Nahhunte*). تسلّم الحكم بعد وفاة أبيه سنة ١٢٠٧ ق.م. وقد حصلت في عهده أحداث كثيرة واضطرابات عديدة.

قام شوتروك ناهونت بهجوم واسع على بابل وكان آخر حاكم من سلالة كاسيت ابنه كوتر ناهونت (*Kutur Nahhunte*). رجع شوتروك ناهونت إلى عيلام منتصراً وحمل معه من بابل غنائم كثيرة، وضمن هذه الغنائم عصاً لا سيما تلك التي حفرت عليها قوانين حمورابي، قام شوتروك ناهونت (*Shutruk Nahunat*) بحكّ جزء من الكتابة الخاصة بقوانين حمورابي ليُسجل اسمه عليها تخليداً لذكراه ولكن لأسباب لم تعرف بعد بقي الحك كما هو ولم يسجل اسم شوتروك ناهونت عليها.

في سنة ١١٧٠ ق.م. حكم عيلام كوتور ناهونت(*Kutur Nahhunte*) الذي استمر في الحكم أربع سنوات وبعد وفاته خلفه أخوه شيلهاك أنشوشيناك (*Shilhak Inshushinak*) الذي حكم أطول مدّة في تلك السلالة.

كان لحكومة عيلام أهمية سياسية واقتصادية كبيرة في زمن أوباج المقتدر وقد وصلت هذه الأهمية لأعلى مستوى في عصر سلطنة شيلهاك أنشوشيناك حيث واصلت جيوش العيلاميين إلى المناطق الشمالية هجومها على بابل، وقد خضعت جميع الضواحي في المغرب والجزء الأكبر من الجنوب الغربي لإيران لسلطة العيلاميين.

في الحروب العديدة التي شنّها شيلهاك أنشوشيناك على بابل حصل على غنائم وثروات كثيرة وقد خصص هذه الغنائم وصرفها في تشييد الأبنية والمعابد في مدينة الشوش. من أكبر وأفخم هذه الأبنية معبد أنشوشيناك في الشوش، يقع هذا المعبد على مرتفع عالٍ بعرض ٧٠ قدماً وطول ١٣٠ قدماً. وجد العلماء والمنقبون في هذا المعبد هدايا ثمينة ونذورات وتماثيل للملك بوزور أنشوشيناك(*Puzur Inshushinak*) والملكة آسو(*Asu*) زوجة الملك أونتاش-هوبان (*Untash Huban*) وغنائم وهدايا الدول الأجنبية إضافة لكتابات قوانين حمورابي وعصا الانتصار عند نارام سين والعمود الحجري المخروطي مانيشتوسو (*Manishtusu*).

كانت عيلام في أوج عصرها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في عصر الملك شيلهاك أنشوشيناك، وبعد وفاته سنة ١١٥١ ق.م. بدأت في عيلام مرحلة التراجع. في ذلك الوقت حكم بابل الملك نبوخذ نصر الأول (١١٤٦ ـ ١١٢٣ ق.م.) الذي كان يعاني من عقدة انتصارات العيلاميين على بابل وخاصة تلك التي خاضها الملك العيلامي شوتروك ناهنت. وقد تركت عنده أثراً كبيراً وصمّم على الانتقام وإخضاع عيلام لسلطته عندما تسلّم الحكم، حيث جهّز حملته الأولى عليهم وكانت فاشلة ثمّ جهّز حملة ثانية انتصر فيها في معركة كبيرة حصلت قرب مدينة الشوش وقد وجدت جثث الكثيرين في أرض المعركة من بينها جثة ملك عيلام وكبار قادته العسكريين. بعد تلك المعركة فيها أي شيء ولم يترك أيّ أثر.

بقيت الحال كذلك حتى سنة ٧٤٢ ق.م. حيث دخل تاريخ عيلام مرحلة الصحوة وانتهت بذلك الفترة المظلمة الطويلة عند بداية حكم الملك هوبان

نوكاش (*Huban – Nokash*) في هذه السنة وبسبب ضعفه وعدم قدرته على الحرب ضد سلالة آسور، اتحد مع مروداخ بالادان ***Marodak) (Baladam*** وهو أحد أكبر قادة كلدة حيث كان يسكن مع قومة حول منطقة الأهوار عند دجلة والفرات. هاجم مروداخ سنة ٧٢٠ ق.م. آشور في زمن حكم سارغون الثاني ودمّر واحتل بلادهم وفرض سيطرته على بابل وسومر، هذه الانتصارات شجعت العيلاميين على الاتحاد مع مروداخ لاستعادة حقّهم في عيلام والذي سلبه البابليون طيلة فترة طويلة من الزمن.

في سنة ٧٥٢ ق.م. جلس على الحكم شوتروك ناهونت (***Shutruk-Nahhunet***) خلفاً لخاله هوبان نوكاش وقد كان هذا الحاكم الجديد داعماً لسياسية مروداخ بلادان (***Marodak– Baladam***) كما فعل سلفه.

شهدت فترة حكم مروداخ بالادان وشوتروك ناهونت حوادث وحروباً كثيرة مع الآشوريين، فقد انتصر العيلاميون في حربهم على آشور. وبعدها بفترة طويلة سيطرت آشور على معظم أنحاء السلطنة في بابل وعيلام ودخل جنودها أهمّ قلاعهم العسكرية. بعد ذلك جهّز شوتروك ناهونت ومروداخ بلادان ***Marodak-Baladam*** جيشاً عملاقاً وحاربوا الآشوريين وانتصروا عليهم واستعادوا المُلك والسيطرة على بابل وعيلام، ولكن هذه الحكومة لم تستمر طويلاً بسبب القوة والسيطرة التي فرضها القائد الآشوري الجديد سنخريب (***Sennacherib***).

في عام ٧٠٥ ق.م.جلس على الحكم في آشور سنخريب خلفاً للملك الآشوري سارغون (***Sargon***) وجرى بينه وبين بابل وعيلام حروب كثيرة كان نتيجتها أن انتصر سنخريب على مروداخ بالادان وانتزع منه الحكم على بابل.

وبنتيجة هذا الموقف وبعد ضعف القوّة العسكرية عند البابليين انسحب شوتروك ناهونت من الحكم تاركاً السلطة على عيلام لخاله هللوشو–أنشوشيناك (***Hallushu-Inshushinak***) الذي بقي في الحكم من سنة (٦٩٩ حتى٦٩٣ ق.م.) في ربيع سنة ٦٩٤ ق.م. شنّ هللوشو – أنشوشيناك هجوماً على بابل ودخل مدينة

سيبار ومدينة بابل وأسر في المعركة آشور – نارين سوم *(Ashur-Nadin – Shum)* ثم قتله.

وانتقاماً لدم ابنه هاجم سنخريب العيلاميين وقتل الكثير منهم واستعاد سيطرته على بابل من جديد. كما وشهدت فترة حكم شوتروك ناهونت الحوادث والحروب الكبيرة، كذلك كانت فترة حكم هللوشو ـ أنشوشيناك، وبنتيجة هذه الحروب لا سيما تلك التي قادها سنخريب على بابل وانتصاره عليهم، قامت قدرة كبيرة في عيلام ضد (هللوشو–أنشوشيناك) لم يقدر على قمعها ممّا اضطره إلى ترك الحكم وتسليمه إلى الملك هوبان إيمنا الثاني *Huban – Immena – II* الذي واصل حروبه ضدّ الآشوريين.

في ذلك الوقت ولأول مرة في تاريخ العيلاميين عرفت مجموعات سكانية جديدة هم الفرس الذين سكنوا شرق مدينة شوشتر ولكن بسبب الضغط الآشوري بعد وفاة هوبان إيمنا الثاني*(Huban- Immena)* خلفه من بعده هوبان هلتاش الذي لم يذكر التاريخ عنه شيئاً، الذي جلس بعده على الحكم شيلهاك أنشوشيناك الثاني ثم من بعده هوبان هلتاش الثاني، وقد تميّزت هذه الفترة بصراع شديد على السلطة بين العيلاميين. وهذا ما شجع الآشوريين الذين بادروا لتحريك الفتنة وتقوية الصراع بينهم.

كان هوبان هلتاش الثاني على خلاف شديد مع شيلهاك أنشوشيناك الثاني *(Shilhak-Inshushinak II)* وقد أيّد الآشوريين في البداية ثمّ انقلب عليهم وهاجم بابل وسيطر على مدينة سيبار *(Sippar)*.

بدأ الملك الآشوري آسرحدون *(Esarhaddon)* إعداد العدة لاستعادة السيطرة ودحر العيلاميين وأثار الفتنة والثورة في عيلام رداً على هجوم هوبان هلتاش الثاني الذي لم يستطع قمع هذه الفتنة فتنازل عن السلطة لشقيقه أورتاكي (*Urtaki*) الذي حكم على عيلام في ٦٧٥ حتى ٦٦٣ق.م.

في بداية حكمه أيّد أورتاكي الآشوريين كما فعل شقيقه من قبل، ثمّ جهّز جيشاً بعد فترة غير منظورة واتّحد مع (رقيبه) تبتي هوبان أنشوشيناك *(– Tapti*

(Huban- Inshushinak) حاكم مدينة شوش *(Susa)* وهاجموا مدينة بابل فانسحب منها الآشوريون.

بعد استقرار العيلاميين في بابل وسيطرتهم عليها، فتك بهم مرض الطاعون الذي قتل عدداً كبيراً من جيشهم ومات معهم أورتاكي *(Urtaki)* أيضاً بسبب المرض ممّا اضطر الحاكم (تبتي – هوبان – أنشوشيناك) إلى الانسحاب مع ما تبقى من قوّاته وحكم على عيلام بعد هذه الفترة، حيث أعاد تنظيم جيشه وهاجم الآشوريين ولكنه انهزم أمامهم في معركة كبيرة على ساحل نهر الكرخة قرب مدينة الشوش *(Susa)*. في هذه المعركة قتل (تبني هوبان أنشوشيناك) مع الكثير من جنده.

في ذلك الوقت كان آشور بانيبال *(Ashur-Bani-Ball)* ملكاً على الآشوريين، وقد نصّب أحد أبناء أورتاكي هوبان نوغاش **Huban Nugash** حاكماً على مناطق مدكتو *(Madakutu)* ونصّب الابن الثاني لأورتاكي تاماريتو *(Tamaritu)* حاكماً على هيدالو *(Hadalu)*. بعد ذلك بدأ الصراع عند الآشوريين بين الملك آشور بانيبال وشقيقه شاماس–شوم–أوكين *(Shamash-Shum-Ukin)* الذي أعلن عصيانه على الملك وقام بثورة ضدّه.

اغتنم هوبان نوغاش الفرصة وهجم على بابل، وفي نفس الوقت عند هجوم العيلاميين على بابل قام تاماريتو الثاني *(Tammaritu II)* ابن أخت هوبان هلتاش الثاني بثورة داخلية وخلع هوبان نوغاش عن الحكم وتسلّم السلطة مكانه على عيلام.

شهدت تلك الفترة من الزمن الفتن الكبيرة وعدم الاستقرار والفوضى وصار كل طرف يدّعي الملك في عيلام ممّا أضعف من قوتهم وسلطتهم، وفي سنة ٦٤٨ ق.م. شنّ أحد المنافسين على السلطة هوبان هلتاش الثالث *(Huban – Hiltash – III)* والذي كان حاكماً على شمال عيلام هجوماً على الآشوريين، فقام عندها بل إيبني *(Bel – Ibni)* وهو حاكم منطقة ودمّر جيش هوبان هلتاش الثالث. ثم اشتبك جيشه قرب هيدالو *(Hidalu)* مع قوات قوروش من باراسوماش فظهر أنه

غير قادر على الحرب مع الآشوريين فاستسلم وترك ابنه الأكبر أروكو *(Aruku)* رهينة عند آشور بانيبال بعد معركة دامية.

رجع بل إيبني منتصراً من المعركة ولكن هوبان هلتاش الثالث جمع جيشه وأنصاره وهاجم الآشوريين للمرة الثانية.

غضب آشور بانيبال من هجوم العيلاميين على بلاده وسيّر جيشه بهجوم كبير قاده بنفسه على عيلام، فهرب هوبان هلتاش الثالث إلى الجبال الشمالية فاقداً أمله بأي مقاومة، ودخل آشور بانيبال إلى مدينة الشوش وسيطر على قصر السلطنة وفتح خزائنه وأخذ جميع المجوهرات والحلي والأشياء الثمينة والتماثيل والأسلحة، ثم دخل المعبد الكبير إله أنشوشيناك وسلب منه الأثاث والتماثيل والمجوهرات وحملها معه إلى مدينة نينوى *(Nineveh)* بعد أن دمّر المعبد وحرق مدينة الشوش، وأسر الحكام والعائلة المالكة لعيلام، وحكام المدن التابعة وأخذهم إلى بلاده.

بعدها بقي الآشوريون مدة شهرين في بلاد عيلام ليدمروها ويحرقوها وبذلك انتهت حقبة طويلة من الزمن دامت مئات السنين شهدت فيها عيلام تاريخاً من الاستقرار تارة والفوضى تارة أخرى كانت حافلة بالأحداث الكبيرة وخلفت أثراً هاماً في التاريخ الثقافي والحضاري.

ب. الدين والمذهب عند العيلاميين

لم تتوفر حتى الفترة الأخيرة معلومات عن الدين والمذهب عند العيلاميين ولكن بعد الكشف عن جغازنبيل (تل كالسله) في جنوب غرب إيران وفي صحراء قاحلة في عام ١٩٤٠ م. توفرت معلومات في هذا المجال. وفي البداية تمّ العثور على لوحة منقوشة على الآجر تقع على أطراف التّل وكانت هذه اللوحة بالخط واللغة العيلامية وتحكي قصة مدينة مذهبية بنيت بأمر من الملك أونيتاشغال *(unitashgal)* وكان هذا الملك يعيش في حوالي عام ١٢٥٠ ق.م.

هذا التّل كما يعرف من اسمه مثل سلة وضعت بصورة مقلوبة على الأرض. وقد تمكّن علماء الآثار أن يخرجوا هذا المكان المقدس الوحيد من هذه المدينة الكبيرة ومن داخل الأرض.

ونستخلص من ذلك أنّ العيلاميين لم يكن لديهم رغبة ببناء زيغورات *ziggurat* ولم يكن متداولاً بينهم. ولكن الكشف عن هذه المدينة القديمة والدينية قد أزال هذا الوهم. إن مساحة فناء هذا المكان المخصص للعبادة تبلغ مائة وواحد وعشرين متراً مربعاً وكان هذا المكان مربع الشكل. وقد حصر هذا المربع بجدار يضم غرفاً مخصصة للعبادة والدعاء. ولكن المراسم الدينية العامة كما تدلّ الشواهد كانت تقام في فنائه. وقد بنوا مبنى زيغورات في وسط هذا المربع أو في فناء المبنى ومساحته ثلاثة عشرة متراً ونصف المتر المربع. ويضم مبنى زيغورات خمس طوابق ويبلغ ارتفاعه حوالي خمسين متراً مربعاً. وفي الطابق

الخامس العلوي يوجد مكان لعبادة الربّ الكبير وربّ أرباب العيلاميين المسمّى إين شوشي ناك *Ynsgushinak*. ومن المؤسف أنّ مساحته التي تقدر بمترين ونصف المتر قد تهدمت من القسم العلوي من زيغورات على أثر العوامل الطبيعية وقد ألحق الخراب خسائر بأجزاء أخرى.

كما وإن جوانب من هذا المبنى لا زالت واقفة وسليمة بعد مضي ثلاثة آلاف عام. ومن جهة أخرى فإن تكامل فنّ صناعة الآجر في عيلام يثير الإعجاب. فالآجر الذي بنيت منه الجدران الخارجية لزيغورات مصنوع من اللون الفضّي وعندما ينعكس عليه النور تسطع منه ألوان ذهبية وفضية. إن ما هو أكثر أهمية هو الابواب المصنوعة من الخشب والتي نُقشت بقطع صغيرة من الزجاج. قطع الزجاج ملونة بألوان مختلفة وهذا يدلّ على أنّ صناعة الزجاج في عيلام كانت متكاملة إلى حدٍّ ما وهذا التكامل لم نشهد نظيراً له في أي مكان ولا يتصوره الباحثون والمحققون.

لربما كان تمثال الرّب الكبير اين شوشي ناك *Ynshushinak* في الطابق الخامس هو أعلى نقطة من زيغورات. ولكن من المسلّم به أنّ مراسم العبادة العامة كانت تجري في فناء زيغورات، ويبدو أنّه عندما كان يأتي الملك للعبادة كانوا ينقلون جثمان الرّب الكبير من الطابق العلوي إلى الأسفل. وقد تمّ الكشف عن غرف في جدران بعض طبقات زيغورات لم يتم التعرف عليها حتى الآن بصورة صحيحة. ففي إحدى هذه الغرف تمّ الكشف عن مواد بناء حمراء اللون وربما كانت تستعمل لتزيين الطبقات العليا ولكن ما بقي من غرف الطبقة الثانية فكانت خالية.

إنّ الشواهد وطريقة بناء المبنى تدلّ على أنّ القرابين كانت لها أهمية كبيرة في هذا الدين. وكانت المراسم الدينية تقام في الفناء الداخلي. وكان في فناء المبنى مجموعتان من المنصات الصغيرة وكل مجموعة تضم سبع منصات. ومجموعها أربعة عشرة منصة وقد حفروا ترعة صغيرة وسطها. وكانت هذه المنصات عبارة عن مكان لتقديم القرابين وكانت تقام في أزمنة محددة عندما يكون الملك والملكة حاضرين. وكانوا يضعون الحيوانات التي كان مقرراً أن

يذبحوها على هذه المنصات وكانت هذه الحيوانات تذبح خلال مراسم يجريها الكهنة. وكان دم هذه القرابين يجري داخل الترعة الوسط بين المنصات.

وفي القسم العلوي كانت مجموعتان من المنصات التي كانت تذبح عليها القرابين. كما أنه يوجد كرسيان متميزان مخصصان بلا شك للملك والملكة. وتظهر الوثائق والمستندات بأنه بعد إقامة مراسم القربان لربّ الأرباب كان الملك والملكة يعبُران من الأمام وكان الكهنة يتبعونهما حتى يصلا إلى الطابق السفلي للمعبد. وربما كان الأمراء وقادة الجيش يحضرون هذه المراسم وكذلك عامة الناس وكانوا أحراراً في الذهاب إلى الطابق السفلي لعبادة الربّ الكبير.

فالمكان العام داخل زيغورات كان فناء المعبد المفروش بالآجر.ولكن الحلقات والأبراج الخمسة في زيغورات كانت خاصة بالكهنة وكانوا يترددون على الطوابق ومختلف الغرف أو يسكنون فيها. فالجدار الذي كان يحيط بالفناء كان يشمل سبعة أبواب صنعت على أحسن طراز. فعامة الشعب كان يسمح لهم المرور من باب أو عدّة أبواب.

وحول زيغورات يطرح عادة هذا السؤال: ما نوع الأبنية التي بنيت وهل هذه الأبنية مثل الأهرامات المصرية كانت تستخدم كمقابر أو أنها كانت معابد؟ لقد سافر المؤرخ اليوناني هيرودوتس ***Herodotos*** إلى هذه المدينة في القرن الخامس للميلاد أي قبل مائة عام من سقوط آخر ملك لبابل ويقول بأن برج بابل هو مقبرة زه اوس ***Zeus (jupiter***)ربّ الأرباب نجمة المشتري ومن هنا تطرح الأسئلة والشكوك.

وبالأخذ بعين الاعتبار هذا الموضوع فإنّ أبحاثاً وحوارات وحفريات جرت في حوالي قرن من الزمن وقد قيل الكثير وكتب الكثير وبجمع ودمج وجهات النظر هذه يجب أن يطرح هذا الرأي بأن زيغورات كانت معبداً ومكاناً للعبادة ومقبرة.

إذا أخذنا هذا الموضوع بعين الاعتبار، نرى أنه في القرن الأخير وضعت عدة كتب وبحوث تشير إلى أن «زيغورات» كان معبداً ومحلاً للعبادة وأيضاً مقبرة للأموات.

لقد جمعت أغلب الشعوب والدول التي كانت تسكن في القسم الشرقي من الكرة الأرضية أمثال السومريين والبابليين والآشوريين والعيلاميين عقائد مشتركة حول الموت والحياة وبعد الموت، فهم مقرّبون جداً من بعضهم البعض في ناحية الأصول والجذور، تجمعهم نفس العادات والتقاليد، فهم مثلاً «**يدفنون موتاهم في غرف خاصة في منازلهم، وذلك عائد لاعتقادهم بأن الروح بعد الموت تحيا من جديد. وهذه العقيدة مازالت مدوّنة وحتى اليوم على جدران معبد** "**زيغورات**" وخاصة في القسم العلوي منه والتابع للمحراب المقدس للإله يوشوشناك *Yushushinak*. وقد أصبح هذا المعبد مزاراً» يقصده عامة الناس والكهنة للعبادة.

وقد خصّص الطابق السفلي منه للعبادة ويضمّ هذا القسم أيضاً مقابر للموتى. عندما بلغت السابعة عشرة من عمري ذهبت برفقة مجموعة من الطلاب لزيارة معبد «**زيغورات**» وأثناء تجولنا في المعبد لفتت أنظارنا الزخارف والرسومات الرائعة والتصميمات الهندسية حيث لا يستطيع أي إنسان أن يصف هذه الصور الرائعة.

فالشعوب آنذاك كانت تعتقد بأن الرّب ينزل من السماء ويجلس على أعلى نقطة في معبد «**زيغورات**» حيث يتمكن من رؤية الناس وهذا الأمر ليس جديداً ففي القرون الوسطى مثلاً كانت تبنى الكنائس في المرتفعات وأكبر دليل على صحة ذلك سُلّم يعقوب الذي كان يمتد من الأرض وحتى السماء.

وإلى جانب معبد «**زيغورات**» يوجد أيضاً معبد لإله العيلاميين شوش ناك ويحتوي على عدة غرف خاصة يقصدها بعض الرؤساء وأصحاب القصور القريبة من هذا المعبد.

وقد كشف علماء الآثار عن مجموعة من هذه الغرف كانت موجودة تحت التراب ولكلّ غرفة من هذه الغرف إله خاص، وتقدم فيها القرابين للإله والهدايا

وهكذا نفهم بأن مذهب العيلاميين كان قائماً على أساس عبادة الطبيعة وعناصرها ومن أهم الآلهة عندهم «رب النوع» ويعني ثمرة الأرض الدالة على كثرة النعم ومعظم الهدايا المقدمة كانت من الفخار والذهب والفضّة أمّا القرابين التي كانت تقدم فهي من الغنم والماعز والمواشي الأخرى. وعمد أغلب الناس في تلك الفترة إلى تقديم القرابين بغية قضاء حوائجهم، المستفيدون من هذه الهدايا والقرابين هم الكهنة الذين يعتمدون في عيشهم على أموال الناس.

الفصل السادس

الديانات اليونانية والرومانية القديمة

أ. لمحة تاريخية.

ب. التفاعل الحضاري.

ج. مفهوم الألوهية عند الإغريق والرومان.

د. الآلهة.

أ. لمحة تاريخية

دخل الإغريق أرض اليونان، وبدؤوا يستقرون وينشئون المدن والقرى على سواحل بحر إيجه المتصل بالبحر المتوسط، وحدث هذا عام ٢٠٠٠ق.م.، وتنسج الأساطير والروايات قصصاً عدة حول نسب القبائل اليونانية، فهناك رواية تقول أن نسب جميع القبائل يعود إلى جدّ وأصل واحد هو «**دوڤاليون**»، وهذا الرجل هو الوحيد الذي نجا مع زوجته عندما غضب زفس رئيس الآلهة من البشر لكثرة خطاياهم. وقد أحدث الطوفان الكبير مجزرة مات فيها كل من كان حياً على وجه المعمورة، باستثناء «**دوڤاليون**» وزوجته اللذين كانا داخل السفينة التي رست على جبل قرب اليونان، وإلى هذين الزوجين يعود نسب كل القبائل اليونانية بحسب هذه الرواية، وتشرح الأسطورة ما يلي: إن «**دوڤاليون**» وزوجته التي اسمها «**بيرها خلّفا وراءهما ولدين هما «دوروس» و«بولوس**» وهذان الولدان تركا وراءهما ولدين أيضاً هما «**إيون**» و«**آخيئوس**». ومن هؤلاء الأربعة تسلست وتفرّعت كل القبائل اليونانية: الدوريون، والإيليون والأيونيون والإخائيون. أما لماذا يطلق عليهم اسم الإغريق؟ هذا لأن قبيلة غرايكو وقد أطلق عليهم لقب غريكي، وباللغة العربية تعني الإغريق. أما اسم اليونان فهو مشتق من اسم المستعمرات التي أنشأها «**اليونانيون**» على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى أو «**ياوون**»إسم أطلقه الفنيقيون على اليونان وحوّره العرب، فأصبح باللغة العربية اليونان. في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان الدوريون مسيطرين على شبه الجزيرة اليونانية

بكاملها وعلى جزيرة كريت وميلوس وكوس وردوس وعلى غيرها من الجزر الموجودة بالقرب منها. وبعد احتلال الدوريين للأراضي اليونانية بقرنين، بدأت الأحوال والأوضاع تستقر وترتكز، وأخذوا ببناء وتوسيع المدن اليونانية في شبه الجزيرة، وعلى شواطئ آسيا الصغرى بداية، برزت أهمية ومكانة مدينة أسبارطة من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، واستطاعت أن تفرض سيطرتها وتبسط نفوذها على بقية المدن المجاورة لها، وبعدها انتعشت مدينة أثينا وأخذت تتسابق مع مدينة أسبارطة على قيادة المدن اليونانية كافة.

احتل الفرس سنة ٥٤٦ق.م.المدن اليونانية الآسيوية التي ازدهرت على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية، وفي عام ٤٩٢ق.م. أعدّ الفرس العدة ووجّهوا ضربتهم نحو شبه جزيرة اليونان واحتلوا مقدونيا في الشمال، لكن قوة المدن اليونانية واتحادها أدّيا إلى هزيمة الأسطول الفارسي ودفعاه للتراجع إلى حدود آسيا الصغرى.

لم يستكن الفرس وفكّروا بطريقة تمكّنهم من السيطرة على جميع المدن فوجدوا أن يقوموا بتوجيه ضربة قاضية لمدينة أثينا باعتبارها زعيمة المدن اليونانية كافة فعندما تسقط، تنهار بقية المدن، فبدؤوا بهجوم بريّ وبحري عام ٤٩٠ق.م. وعملوا بكل جهدهم كي يسيطروا على أثينا، لكن الجيش الأثيني، استطاع بفضل قوته وحنكته، وخاصة أنّ المعركة على أرضه، أن يفاجئ الفرس في سهل الماراتون، ويلحق بهم هزيمة ضاربة ويجبرهم على التراجع. لم يسكت الفرس على الهزيمة النكراء وأعادوا الكرّة، وغزوا أثينا من جديد، وتمكنوا من السيطرة عليها وتخريبها عام ٤٨٠ق.م.عندها أحسّ اليونانيون بالخطر الشديد الذي يهددهم من قِبل الزحف الفارسي وأقاموا تحالفاً قوياً بين المدن وخاصة بين أثينا وإسبارطة، وبفضل هذا التحالف تمكّن اليونانيون من القضاء نهائياً على الجيش الفارسي وطرده بعيداً، وكان ذلك في معركة بلاتيا البرّية وقرب ميكالي البحرية. ورغم هذا التحالف بين أثينا وإسبارطة استمرت الحروب بينهما من سنة ٤٣٠حتى سنة ٤٠٤، وتعرف هذه الحروب باسم «**الحروب البيلوبونيزية**»، ولم يتمكن أحد

الطرفين من السيطرة على الآخر وقد ظلّت الأوضاع على هذا المنوال بين هذه المدن إلى أن تسلّم الإسكندر المقدوني سدّة الحكم وذلك عام ٣٣٦ق.م. وبعد وفاة والده فيليب المقدوني. تمكن الإسكندر بفضل قوّة عزيمته وإرادته من توحيد المدن اليونانية وتحسين الأحوال نحو الازدهار والرقيّ، ووضع نظاماً ملكياً برئاسته وقد مكّنه نظامه الجديد من إقامة حملة على الشرق وتابع زحفه حتى وصل إلى حدود الصين.

امتاز المجتمع الروماني عن غيره من المجتمعات بكون نواته تكوّنت من مجموعة كبيرة من الحضارات والشعوب المتعددة الديانات، لكن الحضارة الرومانية جمعتها كلّها في ظلّ نظام سياسي واحد هو الأمبراطورية الرومانية العظيمة. ومن هذه الشعوب: الفنيقيون والعبرانيون والإسبانيون والغاليون واليونانيون، غير أنّ الرومانيين الأصليين كانوا متميزين عن غيرهم، ومن هذه الشعوب كلّها كسائر الشعوب القديمة كان الرومان يؤمنون بالوثنية، أي أنهم كانوا يعبدون قوى الطبيعة، ووضعوا لكلّ مظهر من مظاهرها إلهاً يديرها ويدبّر أمورها، وبفضل اندماجهم واتصالهم المباشر باليونانيين والفنيقيين، تطورت نظرتهم الدينية وأصبحوا يعتقدون بوجود آلهة تحمل صفات البشر بشكلها وعواطفها، وبذلك يكون الرومان قد أخذوا مفاهيم الألوهية عن اليونانيين واستوردوا آلهتهم منهم وأطلقوا عليها أسماء رومانية، فبنوا لها المعابد والهياكل، وقاموا بتقديم الأضاحي لها كي يدفعوا عنهم غضب هذه الآلهة ويفوزوا برضاها.

وأهم الآلهة التي عبدها الرومان الأوائل «**تلوس ماتر**»*(Tellus Mater)* أي الإلهة الأم وهي إلهة الأرض، «**وسيرس**» *(Ceres)* إلهة القمح فيرفاكتور *(Vervactor)*، و«ريداريتور *(Regarator)* وأكيتور *(Occator)*، وسريتور *(Sarretor)*، وغيرهم من الآلهة الصغيرة التي نحتت أسماؤها من العمليات الزراعية كحرث الأرض، وبذر البذور، وتسميد الأرض وتمهيد التربة، وجني المحصول وتخزينه. ولم يكن عند الرومان قوى روحية خارج نطاق العمليات الزراعية

والتي تعتبر وظائف خاصة محددة لمواسم أو أوقات معينة[١] وجعل الرومان الأوائل إلهة ترعى أمور الولادة وتنشئة الوليد منها (لونينا)«*Lunina*» التي تهزّ المهد و(ماجيتانوس) «*Magetanus*»التي تسحب الصرخات الأولى للوليد، وروميناا«*Rumina*» إلهة الرضاعة، وفابيلنيوس«*Fabulinus*» التي تعلمه الكلام، وستاتلينوس «*Stabulinus*»التي تعاونه في محاولاته الأولى للوقوف، وهناك أيضاً اللارت«*Lares*»التي ترعى الأسر وتحرس الحقل، وجونو أو يونو«*Juno*»التي تحمي الأنوثة والزواج، وكانوا يعتقدون أنّ الزواج في شهر يونيو يكون زواجاً سعيداً جداً[٢] وبرزت أسماء آلهة كبار، وذلك من جرّاء احتكاك الرومان بالحضارات الأخرى منها: ساتورن «*Saturnus*» إله البذار، ونبتون«*Neptune*» إله الماء، وكويرينوس«*Quirinus*»القوة الغامضة التي توحّد فيما بعد (روميلوس) المؤسس الأسطوري لأمبراطورية روما وفيما بعد في المرحلة اللاحقة من تاريخ ديانتهم حيث عملوا على إقامة هياكل ومعابد عظيمة على تلّ الكابتول«*Capitoline*» وهو أعلى تلال روما السبعة، كمعبد الإله جوبيتير (أوزفس بالإغريقي) كأفضل وأعظم إله وجعلوه يسيطر على مجمع آلهة الكابتول على النحو الذي كان يسيطر فيه زفس على مجمع آلهة الأولمب.

---

(١) بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص:٩٢.

(٢) بارندر،المرجع السابق نفسه ص:٩٣.

ب. التفاعل الحضاري

نقل اليونانيون العديد من مقومات حضارتهم عن المصريين والبابليين وغيرهم من حضارات الشرق. وكتب بهذا الصدد مايلي:

«لقد مضى الزمن الذي كانت ترجع فيه أصول جميع الفنون إلى بلاد الإغريق، أو أن الحضارة الإغريقية قد انبعثت كاملة النضج من دماغ الإله الأولمبي زفس. فلقد أصبحنا نعرف الآن أن زهرة تلك العبقرية اجتذبت رحيقها من الليديين[١] والحثيين ومن فنيقيا وكريت بابل ومصر، ولكن جذور تلك الزهرة تمتد إلى أبعد من ذلك، إلى سومر التي هي أقدم هذه الأمم».

وربما كان قبل سومر حضارات لم تتوصّل بعد ذلك إلى التعرف عليها، وكان التواصل الحضاري بين الشرق وبلاد اليونان تمرّ عن طريق آسيا الصغرى على يد الحثيين والليديين. واقتبس اليونانيون عن البابليين النظام الستيني[٢] والمقاييس والأوزان والساعة الشمسية ومبادئ الفلك وآلة الرصد، أخذ الرومان عن الآشوريين فن نحت التماثيل الحيوانية ونقش الأفاريز، وعن الليديين طريقة صك النقود. ومن المؤكّد أن اليونانيين أخذوا، اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد ينتشرون بكثرة في مصر كتجار أو كجنود مرتزقة في الجيش المصري. كما اقتبس بعض العلماء والفلاسفة اليونانيين الكثير من المعارف والعلوم عن

(١) نسبة إلى ليديا.

(٢) عرف نظام الأعداد عند البابليين بالنظام الستيني لأنه ينطلق من العدد الستين.

المصريين، نذكر منهم طاليس(ولد سنة ٦٤٠ق.م.)الذي اقتبس الهندسة عن المصريين والفلك عن الكلدانيين وطوّر هذين العلمين، وفيثاغورس (ولد سنة ٥٨٠ق.م.) الذي زار مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين وأسس مدرسته الشهيرة كروتونا (جنوب إيطاليا) لنشر أبحاثه في الرياضيات. واستمر التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب اليوناني بعد حملة الإسكندر على مصر وفنيقيا وبلاد فارس. ومن الواضح أن تأثير الشرق كان عظيماً في ميدان السياسة والدين، بينما كان تأثير اليونان أقوى في مجالات العلم والفن والفلسفة.

ج. مفهوم الألوهية عند الإغريق والرومان

في الحقيقة إن ما أُتيح في مخيلة هوميروس وهزيود هو نظام صارم لحياة آلهة الأولمب بزعامة زفس، فالكتب الشعرية الكثيرة التي وضعها شعراء الإغريق، وعلى مدى عهود طويلة، لتمجيد الآلهة وبيان مآثرها الحسنة والسيئة ما هي في الحقيقة إلّا محاولةً لرسم صورة عن آلهة يستحقونها. أو ربما أرادوا جمع اعتراف وقيم ووضع رموز لها وسموها آلهة لمجرد احتياجهم إلى آلهة غيرهم من الشعوب الاخرى، وذلك لتفسير ما لا يمكن تفسيره بدونها.

لقد شكّلت آلهة«**الإلياذة والأوديسة والأعمال والأيّام**» لـ«**هزيود**»[1] الرديف الضروري لتفسير ما عجز عن تفسيره الحكماء والعلماء من مظاهر الطبيعة ووساوس الضمير واضطراب الانفعالات الإنسانية. فإذا كان افتراض هطول المطر يحتاج إلى أوامر زفس، أو أن بلوغ الحكمة يحتاج إلى وحي أثينا (ربّة الحكمة) وغيرها من الأمور لإيجاب الحقّ فالأولى الأخذ بها. ويقول م.بورا والذي تحدث عن الأبعاد النفسية التي أنتجت آلهة الإغريق بقوله: أحسب اليونانيون في الواقع بالكبر لم لهم من طاقات، ولكنهم بعد ذلك أقروا كثيراً من الأمور التي كان يعزّ عليهم إدراكها وأرجعوا إلى الآلهة كل ما التبس عليهم فهمه، كما كان يجب أن تقام علاقات بالآلهة وأن يُبتغى أقصى العون من جانبهم، وليس ذلك لمجرد الخوف من أن يختل نظام الطبيعة أو الخوف من أن تتعب الأرض بثمارها وإنّما

(١) هزيود صاحب كتاب الأعمال والأيام (٧٥٠-٧٠٠ق.م.).

مردّ ذلك إلى أن بواعث الانفعال الإنساني ذاتها ترتكزعلى لحظات الفكر الملهم، وترتكز على وفرة من الطاقة الفياضة ليس في وسع الانسان أن يستحضرها بإرادته وحدها»[١].

تعامل اليونانيون مع آلهتهم في صور بشرية مشخّصة في تماثيل ورسوم منقوشة وترتاح في معابد لتلقّي الأضاحي والقرابين، وشأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب القديمة. وربما كانت آلهتهم، في الماضي السحيق، قد تلبست أشكال وجوه أو أجسام الحيوانات. لقد جاء في أشعار هوميروس في وصف أثينا بأنها صاحبة وجه البومة، وهيرا صاحبة وجه البقرة وزيوس الذي تشكل بصورة ثور أو ثعبان، وارتباط اسم أبولون بالذئاب والفئران، واسم بوسيد بالجياد واسم أرتميس بالدبية وهذه ظاهرة عرفت في تراث المصريين الديني وسائر شعوب الشرق، إلا أن هذه المرحلة لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما مثلوا آلهتهم بأشكال بشرية صافية وجعلوا لكل واحد منهم رفيقاً من الحيوانات وهذه الظاهرة تعبر عن «نقلة جبّارة من نقلات الفكر المتحرر، إذ تعني أن اليونانيين قد تأثروا بمدى القدرات البشرية وإمكانياتها، تأثيراً جعلهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن الآلهة في أي شكل مغاير للأشكال البشرية»[٢]. لم تكن أشكال الآلهة الإغريقة والرومانية تختلف عن الأشكال البشرية وكذلك طبائعهم. فآلهتهم تحب كما يحب البشر وتكره وتغضب وتنتقم وعلاقة الآلهة لا تخضع لهواجس تقلق بالهم، كالخوف من المستقبل ومن السقوط إلى هوّة العدم أي الموت. والآلهة خالدة وتتمتع بشباب دائم، وجمالها لا يخفت، وقدراتها وعواطفها لا تنضب. إنّ تشبيه اليونانيين لآلهتهم بالبشر هو في الواقع تقدير كبير لقيمة الإله من جهة، وتأليه لصفات البشر والصورة الإنسانية من جهة ثانية.

---

(١) س.م.بورا: التجربة اليونانية. ترجمة د.أحمد سلامة محمد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب رقم ٦٧ ص٧٨.

(٢) نفس المرجع ص:٧٩.

فالآلهة عندهم ارتقت من مجرد مسوخ حيوانية فيها سمات بشرية إلى بشر يتمتعون بأرقى وأقوى ما في الانسان من سمات فالآلهة يتمتعون بقوّة بدنية لا تضاهى. فقد كان الإله أطلس يحمل كرة الكون على كتفيه، وزفس يرفس فولكون ويجعله معلقاً في السماء وهو الذي عاش تسع سنوات في قعر البحر يصنع أساور وخواتم وأقراطاً لربات الجمال، أيضاً تحدثوا عن قدرات آلهتهم الجنسية وتعدد الزوجات والقيام بالعديد من المغامرات العاطفية ولكن مقابل هؤلاء نرى أثينا ربّة الحكمة تؤثر العفّة وتحافظ على بكارتها إلى الأبد. أبناء الأرض هم من إله واحد هو الإله «جايا» وأبناء زفس أو جوبيتر. ولكن المشابهة ليست مطلقة وقد قال الشاعر بندار[1] وهو يعبّر عن النوازع الدينية:

«سلالة واحدة، واحدةٌ تلك التي انحدر منها البشر والأرباب.
من أم واحدة نفخت الروح فيك كل منا
بيد أن فارق القدرة العليا يفصل بيننا،
إذ أن فريقاً يفنى ويزول بينما تبقى السماء
بلونها النحاسي موئلاً راسخاً سرمدياً،
ومع ذلك فبمقدورنا أن نكون صنو الخلود
بفضل ما لنا من عقل متفوّق وجسد عظيم،
ذلك بالرغم من أننا لا ندرك إلى أي هدف
نحن سائرون آناء الليل وأطراف النهار
لقد خطّ القدر أنّ علينا أن نكون على الدرب سائرين[2]».

يمكن للإنسان الوصول إلى مبتغاه عن طريق القرابين والذبائح يقدمها للآلهة لينال مبتغاه ويقول أرسطو شارحاً فهم اليونانيين للصلة التي تربط بينهم وبين الآلهة، قال:«**وممّا لا شك فيه أنّه إذا اختلف الناس فيما بينهم في مجرد**

---

(١) شاعر يوناني غنائي شهير (٥٢٢-٤٤٣ق.م.)
(٢) المرجع السابق نفسه.

أشكال أجسادهم بقدر ما تختلف تماثيل الآلهة عن البشر، فسوف يسلِّم الجميع بأن الطبقة الأدنى لا بدّ أن تكون رقاً للطبقة الأعلى».

د. الآلهة

لم تعرف الديانة اليونانية والرومانية نبياً متميزاً ومتفوّقاً ولا يوجد فيها من سعى إلى تفسير طبيعة الآلهة، وليس لديها كتاب مقدّس ولا نص محدد يعلم الفضيلة والأخلاق الصالحة، ويكشف الظواهر الطبيعية للكون ولا يؤمنون بيوم الحساب والبعث. إذاً لم يكن هناك كهنة ينشرون تعاليم صارمة وعلى الرعية تنفيذها، والميزة الأساسية للديانة اليونانية والتي جعلتها تبعد قدر الإمكان في حلول فئة معينة من البشر أو لارتقاء هذه الفئة لتصبح آلهة كما هي الحال في باقي الديانات المصرية أو الشرقية.

أمّا الوقوف على التجربة اليونانية فيتطلب تجربة دينية في أبعادها الإنسانية الصرفة ومن حيث مناسبتها لنظام وحياة المؤمنين بها. وقد أثرت آلهة اليونان وبسطت نفوذها على الرومان، وكان ذلك واضحاً من الناحية الأساسية في تكوين الشخصية اليونانية.

وقد شكلت الإلياذة والأوديسة للشاعر الملحمي «هوميروس» وكذلك كتاب الأعمال والأيام لـ«هوزيود» والمسرحيات الكثيرة للعديد من الشعراء اليونانيين وهو المصدر الأساسي للتعريف على الآلهة اليونانيين ونظمهم من ناحية الوظائف التي اختص بها كل واحد منهم. وقد اعتقد الباحثون أن هناك علاقة بين تطور الأوضاع اليونانية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً في سياق تطور الديانة اليونانية.

كانوا في بادئ الأمر يعبدون آلهة ترتبط بظواهر كونية شائعة. فأولى آلهتهم هي «**جايا**» أي الأرض التي أطلقوا عليها ألقاباً عديدة منها: «**الأم العظيمة**» وقد ولدت بعد «**كاووس**»، أي حالة العدم الأولية والتي لا يمكن وصفها ولا تعريفها. وتزوجت من أورانوس[1] أي السماء وأنجبت كل الكائنات وأصبحت أم الآلهة والمردة والخيرات والشرور، والفضائل والرذائل، وقالوا بأن الأرض تعني الطبيعة وأطلقوا عليها عدة أسماء «**أوبس**»، «**تيللوس**»، «**فستا**»، «**كيبل**»، وإن أسباب هذه التسمية توحي بأمرين: إمّا أن تكون هذه التسميات نابعة عن صفات تتمتّع بها الأرض أو وظائف أو تكون ناتجة عن ورود هذه الأسماء في مدن وقبائل مختلفة الدلالة على مدلول واحد.

وتزوجت الأرض من السماء وبحسب أساطيرهم كان (لابن الأثير والنهار) خمسة وأربعون ولداً من عدة نساء منهم ثمانية عشر من «**تيتيا**» وأهمهم:تيتان وساتورن وأوقيانوس. وهؤلاء تمردوا على أبيهم وبتروا عضوه التناسلي ومنعوه من الإنجاب[2] وقد أثرت هذه الثورة ضدّه على نفسيته فجعلته قاسياً متوحشاً وهم كانوا كرهوه ونقموا عليه لأنه حبسهم منذ ولادتهم في كهف مظلم وقد ورث ساتورن أباه وكان أقل قسوة منه. وساتورن (***Saturne***) أو خرنوس (***Cronos***)[3] والتي تعني الزمن باللغة الإغريقية لم يكن أفضل من أبيه تزوّج من شقيقته «**ريا**» وتنبأت مصادر النبوءات أنّ واحداً من أبنائه سوف يقضي عليه ويغتصب عرشه فطلب من زوجته أن تسلمه كل مولود ولدته. وابتلع خرنوس كل مولود تسلمه من «**ريا**» وأودع الجميع جوفه «أي جوف الزمن «وهكذا أصبح في جوفه خمسة من أبناء ريا. أشفقت ريا على مولودها السادس وخدعت زوجها بأن أعطته حجراً ملفوفاً بقماط فظهر وكأنه طفل حقيقي وأرسلت مولودها إلى كهف في

---

(١) أورانوس *Oranus-Coelus* بالإغريقية راجع الأساطير الإغريقية والرومانية ص١٦.

(٢) راجع:ب كوملان،الأساطير الإغريقية والرومانية ترجمة أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني رقم ١٠٤ سنة ١٩٩٢ص١٦.

(٣) خرنوس قد تكون مشتقة من «المكمل» أو «المنضج». وهذا الإله كان موجوداً قبل الإغريق.

جبل مهجور حيث عكفت الحوريات في ذلك الجبل على رعايته والعناية به. وعندما أصبح الطفل شاباً أراد الانتقام من والده وتخليص إخوته، فعمل ساقياً عند أبيه وسكب له شراباً مؤلفاً من عصير نبات الخردل وكمية من الملح بعد أن أضاف إليهما شراباً محلى بعسل النحل. وشرب خرنوس وأفرط في الشرب حتى أحسّ بمحتويات معدته وقد فارت كل ما فيها على الفور، وتقيأ الحجر الملفوف بالقماش ثم أبناءه الخمسة. واندفع الأبناء بقيادة شقيقهم الأصغر للانتقام من أبيهم وانتهت المعركة بانتصار خرنوس تحت قيادة ابنه الشاب الذي أطلق عليه اسم زفس وأصبح حاكم السماء والأرض وعاقب كل من وقف مع الظلم والطغيان ما عدا أطلس[1] الذي حكم عليه بأن يحمل قبة السماء فوق كتفيه. بعد ذلك ارتفع قدر زفس وأصبح ربُّ الأرباب، وملك الملوك. والحاكم الأسمى للأرض والسماء وما بينهما. وصانع أقدار الآلهة والبشر. ولم يصل زفس إلى هذه المنزلة بسهولة ولقد اضطر إلى خوض معركة ضارية ضدّ والده، وحارب جماعات المسوخ والمردة[2]والتياتن[3] والكوكلوبيس، وانتصر عليهم جميعاً. وقد نشأت هذه التصورات في الأساطير الإغريقية في جزيرة كريت أو دخلت إليها من بلدان أخرى.

وهناك دراسات أشارت إلى هذا الواقع مثل دراسة ماكس مللر كما وقد ذهب هذا المذهب «بارندر» والدكتور عبد المعطي الشعراوي.

يتحدث بارندر عن أن الإلهة الأم كانت موجودة عندما وصل إلى اليونان وقد جاءت من آسيا عبر جزر بحر إيجه متخفية في أشكال مختلفة وكان اسمها في أفيسوس ارتميس(*Artamis*) وأصبح معبدها إحدى عجائب الدنيا، ومن هناك

---

(١) راجع، د.عبد المعطي الشعراوي: أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢، ص:٧٨-٨٠.

(٢) المردة هم الجيل الرابع الذي أنجبه جايا من جراء اللقاء الأخير بينها وبين دماء أورانوس بعد الطعنات التي تلقاها من ابنه خرنوس.

(٣) أولاد تيتيا زوجة أورانون وهم عمالقة.

وصلت إلى جزيرة ديلوس (*Delos*) ثم من ديلوس إلى أركاديا وبروررون في اتيكا. وجعل اليونانيون الأرض أم الطبيعة وربّة للطبيعة والبرية ويقول بارندار إن كريت هي المركز الرئيسي للثقافة المبكرة وفيها نشأت الديانة المينوية والتي تعرف أيضاً بالديانة الكريتية. وتسميتها بالمينوية نسبة إلى مينوس الملك أو البيت الحاكم الذي سيطر على جزيرة كريت. يشبه هوميروس مجمع الآلهة في جبل الأولمب بالمجتمع البشري لكن بصورة أعظم وأكبر. وزفس هو القائد الأعلى والسيد المسيطر، وأب الآلهة والبشر. ويليه مجموعة من الآلهة المتعددة الوظائف والتخصصات دخلت إلى صميم الأساطير والفنون –من نحت وشعر- بعد أن ترسخت كقيم في نفوس الإغريق ثم الرومان. وأبرز هذه الآلهة:

١.هيرا (*Héra*) أو جينون (*Jnonu*) بالرومانية:

هيرا وقد صنفت حارسة الزواج، وهي ابنة خرنوس وكيبيل وزوجة زفس القلقة دائماً وكانت عبادة هيرا شبيهة بعبادة زفس من حيث المهابة والانتشار وهي تبعث في النفوس الوقار والاحترام وقد انتشرت هذه العبادة في أرجوس إلى الشمال الشرقي وفي ساموس وهي جزيرة مواجهة لآسيا الصغرى وقرطاجة في تونس، كما وأقيمت لها التماثيل من الذهب والعاج ونُصب لها حربة رفيعة طويلة ودرع صغير. ويمثلونها عادة في صور سيدة ذات هيبة وجلال وبالقرب منها الطاووس وهو الطائر المحبب إليهاوكانت هيرا زوجة زفس وعلاقتهما كانت قلقة بسبب غرامياته وقد كانت الخيانات التي يقترفها مع بنات حواء تثير غيرتها وغضبها. حتى إنها تآمرت مع نبتون ومينرفا لخلع زفس من عرشه ولكنها لم تنجح وقد أنجبت الكثير من الأولاد منهم هيبا، وفلولكون، ومارس وتيفون وايليتيا وأرجيا.

٢.أثينا (*Athéne*) أو مينرفا (*Minerve*):

أثينا ابنة زفس، وإلهة الحكمة والحرب والعلوم والفنون، ومن الأحداث المهمة في حياتها نزاعها مع نيتون بسبب إطلاق اسمها على مدينة أثينا وقد حسم الخلاف بأن قرر القضاة المولجون في القضية من قبل الآلهة، بأن يطلق على المدينة اسم من يقدم من الاثنين، أثينا ونبتون، أفيد شيء للمدينة فضرب نبتون الأرض بحربته الثلاثية الأسنة فأخرج منها حصاناً وضربت أثينا فأخرجت زيتونة وفازت في المباراة وأُطلق اسمها على المدينة للحصول على لقب ملكة الجمال.وكثيرة هي المدن التي وضعت نفسها تحت حماية أثينا،لكن مدينة أثينا كانت الأحب إلى قلبها،وفي هذه المدينة رُفعت أجمل تماثيل للإلهة أثينا وأعظم الهياكل وخاصة معبد العذراء الذي أقيم لها على الأكروبول(٤٤٧_٤٣٢ق.م.) الذي يعتبر أروع نموذج للعمارة الإغريقية[1].

٣.هستيا (*Hestia*) أو فستا (*Vesta*)

هستيا الإغريقة هي إلهة النار، أو النار نفسها. وتعني اللفظة «**موقد البيت**» وترجع عبادتها إلى آسيا الصغرى وكانت مقدّسة عند الطرواديين قبل تدمير مدينتهم وقد نقل عبادتها إلى إيطاليا إينياس. والمعروف أنّ اليونانيين كانوا يبدؤون تضحياتهم وطقوسهم الدينية ويختمونها بترانيم تمدح هستيا. وقد كان لها معبد خالٍ من التماثيل وفي وسطه مذبح للضحايا ولها أيضاً معابد في دلفي وأثينا وأرجوس وميلتوس والجانب الأساسي في طقس عبادتها يعتمد على تغذية النار المكرّسة لها لتبقى مشتعلة. وكانت فتيات عذراوات يقمن بحراسة النار في معابدها والتي تنقض عهد البكارة في أثناء كهانتها تُعدم أو تُدفن حية.

---

(١) كوملان:الأساطير الإغريقية ص٢٨-٢٩.

٤. فيبوس (*phébus*) أو أبولون (*Apollon*)

هو ابن زفس ولاتونا وأخو ديانا التوءم، وقد ولد في جزيرة ديلوس، وفيبوس هو إله الفصاحة والشعر والموسيقى والطب والنبوءات، يحيي حفلات الموسيقى مع ربات الفنون ويسكن معهن في جبال برناسوس وهليكون وبيريوس، تلقى قيثارته الشهيرة من ميركور(*Mercure*) وبرع في العزف عليها. وفيبوس دائماً شابّ، لأنّ الشمس لا تشيخ وهو يحمل سهاماً ترمز إلى أشعتها ويوجد له معبد في دلفي من أجمل وأروع المعابد وأغناها. كما وشيّد الإمبراطور أغسطس له معبداً في قصره على تل بالاتينو في روما لاعتقاده بأنه مدين لآبولون بانتصاره في معركة اكتيوم. وقد أقيمت له عدة تماثيل مختلفة نظراً لتعدد وظائفه إذ يرتدي أبولون النبي في تماثيله رداءً طويلاً يشبه رداء الكهنة، ووضع الثعبان عند قدمي تمثاله الذي يعبر عن معرفته بالطب وظهر في تمثاله كصياد بصورة شاب يرتدي وشاحاً مسلحاً بقوس، وهناك تمثال في قاعة بلفيدير في الفاتيكان وهو يُعدّ من أجمل وأروع ما صنع لأبولون، وله تمثال في جزيرة رودس من أضخم التماثيل على الإطلاق وأن ارتفاعه بلغ ستين ذراعاً.

٥. أرتميس (*Artamis*) أو ديانا (*Diane*)

«ارتميس هي ابنة زفس ولاتونا وشقيقة نيبوس التوءم وولدت قبله بلحظات وشهدت ما عانته أمها من جراء ولادة شقيقها وقررت أن تحافظ على بكارتها للأبد، وهي إلهة الغابات، وكانت تحب الصيد وهو هوايتها المفضلة. اسمها في الأرض ديانا وفي السماء «فيبيا» أي القمر، وفي الآخرة **«هيكاتا»**. ديانا هي إلهة قاسية ووقورة ومنتقمة أيضاً، وديانا أي القمر، في السماء بعد أن يختفي إله الشمس، استخدمت من الحيوانات الغزالة والخنزير الوحشي، ويقدم لها من القرابين باكورة الثمار والعجول والكباش.

ومن أشهر المعابد لديانا معبد في أفيزوس والذي هدم وأعيد بناؤه سبع مرّات، ودمر عن آخره سنة ٢٦٣ق.م. في عهد الأمبراطور جالينوس.

٦.ديميتر (*Demetre*) أو كيريس (*Cérés*)

هي إلهة الزراعة وابنة ساتورن وقد قامت بتعليم الناس الزراعة وبذر الحبوب وحصاد القمح، وصنع الخبز. أحبها جوبيتر أو زفس ونبتون. ولكي تفلت من نبتون تحوّلت إلى فرس وعندما لاحظ الإله ذلك انقلب حصاناً وأثمر غرامهما الحصان آريون.

خطف بلوتون ابنتها بروسيربينا (من زوجها جوبيتر) فحزنت عليها وانطلقت تبحث عنها في جميع الأقطار وبعد أن تعدو كل النهار توقد شعلتها وتواصل عدوها في الليل. وقد كان أهل جزيرة صقلية يحتفلون بذكرى رحلات ديميتر الطويلة، فيعدون بالليل حاملين المشاعل. وقد كانت أغرب طقوسهم في بلاد الإغريق تلك التي كانت تقام لها في كيريس إذ كان يضرب فيها عابدوها بعضهم بعضاً بالسياط المصنوعة من قشور الأشجار. وكان لديميتر في أثينا عيدان لتكريمها يسمى أحدها اليوسنا، والثاني تيسمو فوريا.

٧.هيفايستوس (*Hephastos*) أو فولكون (*Vulcain*)

فولكون وهو من أبناء جوبيتر وهو من أقبحهم من زوجته جينون، وتقول الأسطورة إن أمّه شعرت بالخزي حين ولدته فألقت به إلى البحر وهناك تعهدت تربيته تيتيس وأورينوما الجميلتان،

وبقي فولكون في قعر البحر تسع سنوات يصنع لهاتين الإلهتين الأقراط والأساور والخواتم والعقود. حقد فولكون على أمّه وقرر الإيقاع بها فصنع كرسياً من ذهب له لولب سرّي وأرسله إلى السماء. أعجبت جينون بالكرسي ورغبت في الجلوس عليه، وما إن جلست حتى أطبق عليها الكرسي. وكانت قد بقيت مسجونة في الكرسي لولا تدخل باخوس الذي أسكر فولكون وأجبره على تخليص جينون. وقد كان فولكون إله النار والحديد والبرونز والفضة وكل المواد القابلة للانصهار، وينسب إليه كل المصنوعات المطروقة. وقد نشأت كلمة

فولكون للدلالة على البركان، ذلك لأن مكانه كان في جزيرة تغطيها الصخور وتنفث من قمتها دوامات من اللهب والدخان.

٨.أريس (*Aris*) أو مارس (*Mars*)

وهو من أبناء جوبيتر وجينون. وتعني لغوياً «**الشجاع**» وهناك أسطورة تقول بأن جينون أحسّت بالغيرة عندما أنجب جوبيتر الإلهة مينرفا دون أن تسهم هي في إنجابها. فقررت أن تحمل وتلد فأشارت عليها الإلهة فلورا أن تلمس زهرة معينة. وقد أنجبت من هذه الزهرة مارس وعهدت بتربيته إلى الإله برياب الذي علّمه الرقص وأنواع الرياضات التي تساعد في تحضير المرء للقتال. عرف عن مارس أنّه إله الحرب وأنّ النصر إلى جانبه دائماً، ويبدو أنّ هذا الإله لم يكن معروفاً كثيراً في اليونان، ونشير فقط إلى وجود تمثال له في النبع المخصص لعبادة مارس معتمداً في ذلك على عقائد الشعب. ومن ذلك اليوم ساءت صحة نيرون فقال الشعب بأن الأمبراطور جلب لنفسه نقمة الآلهة.

٩.أفروديت(*Aphrodite*) أو فينوس(*Venus*):

فينوس أو أفروديت بالإغريقية أشهر الآلهة على الإطلاق لأنّها تهيمن ومنذ القدم على مباهج الحب. جعلها جوبيتر زوجة لفولكون وشاعت غرامياتها مع فولكون، وشغفت بحب أدونيس وكانت أماً لـ«كيوبد» أي الحب وأم ايناس أي الورع وتشبه في غرامياتها «**إنانا**» في الأساطير البابلية.

اقيمت المعابد لفينوس في كل المدن الإغريقية والرومانية وهي تجمع في تماثيلها الأناقة والجاذبية والبسمة الجميلة. وأخلص حب عاشته فينوس هو حبها لأدونيس ابن ميرها وكينير، بحسب الأساطير، وقد انتقلت أمّه ميرها إلى بلاد العرب في الشرق فراراً من غضب أبيه، وولد في كهف ثم انتقل إلى فينيقيا. بعد ذلك رأته فينوس فأحبته وتبعته في رحلات صيده في غابات جبل لبنان، غضب منها مارس لأنها أحبّت إنساناً عادياً وسخط عليها وتحوّل إلى وحش بريّ وانقض

على أدونيس وأحدث جرحاً في فخذه تسبب في موته، عندها وصلت فينوس متأخرة إلى حبيبها ولم تستطع مساعدته فاحتضنته وبكته زمناً طويلاً ثم حوّلته إلى زهرة «**شقائق النعمان**» حمراء.

وعبد الرومان آلهة عديدة غير هذه ومنها: ديونيسيوس*(Dionysos)* أو باخوس *(Bacchus)* وهو إله الخمرة، وتيمس*(Thémis)* وهي إلهة العدالة، وكوبيدون*(Cupidon)* أو إيمورس *(Imoris)* وهو إله الحب، وميركور*(Mercure)* أو هيرميس*(Hermés)* وهو الإله الرسول أو المترجم، ولاتون*(Latone)* إلهة التوليد.

ويعيش في جبل الأولمب، بالإضافة إلى الآلهة، مجموعات من الربات منها: ربات الرشاقة *(Les craces)*أو الشاريت*(Les Charites)*، وربّات الفنون *((Les ruses)*، وربّات الساعات *(Les heures)*، والباركات *(Les Parques)*.

وذكرت الأساطير الإغريقية والرومانية العديد من أسماء الآلهة الثانويين والذين تأتي منزلتهم دون منزلة آلهة الأولمب الكبار. والآلهة الرئيسية بين هذه الآلهة، التي تقوم بوظائف موكولة إليهم من الآلهة الكبار، إله الفجر«**أيوس**» *(Eos)* أو «**أورورا**» *(Aurore)*، وإله الشمس *(Hekios)*، وإلهة القمر *(Séléné)* سيلينيا، وإلهة النجوم *(Astres)*، والدب الأكبر والدب الأصغر والبليادات *(Les Pleiades)* أي نجوم الثريا، والهياد *(Les hyades)* أي الممطرات، والرياح، وغيرهم من الآلهة التي لا تعد ولا تحصى. وكثرة الآلهة تابع لاعتقادهم بأنه ليس في الكون ظاهرة أو حركة أو حياة إلا ولها إلهة أو إله يدبر شؤونها وينظمها ويحفظ ديمومتها.

الفصل السابع

الوثنية والصنمية عند العرب

أ. ماهية الوثنية والصنمية.

ب. انتشار عبادة الأصنام والأوثان عند العرب.

ج. الآلهة عند العرب.

د. أصنام العرب في الجاهلية.

تمهيد

إنّ الحياة الاجتماعية التي نعيشها اليوم هي نتيجة حضارات وفكر وتقدم وتطور وصل إلينا من كلّ حدب وصوب فكانت نتيجته ما نعيشه اليوم، إن كان على صعيد الحياة الاجتماعية والأخلاقية والمبادئ العقائدية والدينية فكان ما كان من طوائف ومذاهب وأديان. لكن مَنْ لا ماضيَ له لا حاضر له، ودائماً نعود الى التاريخ والى الزمن سعياً وراء حضارتنا لننهل من معينها ونأخذ من عادتهم وندرسها ونبحث عن أسبابها.

وفي حديثنا عن الأديان القديمة، وجدنا أنه لكلّ شعب دين يعتقد فيه ومبادئ يؤمن بها وأخلاق يتخلّق بها، وإذا ما عدنا الى زمنٍ بعيد قبل الاسلام وفي العصر الجاهلي، كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان والحجارة، فما هو المقصود من هذا التعبير؟ وماذا نعني بالأصنام والأوثان؟.

أ. ماهية الوثنية والصنمية

الوثنية والصنمية هي كل ما يُعبد من حجر أو صنم أو وثن وهم ما يسمونهم بالوثنيين والصنميين، وإنّ كل فرد اتخذ من دون الله إلهاً فهو وثنيّ أو صنميّ، ولا تقتصر عبادتهم على الأوثان والحجارة إنّما كانوا يؤمنون بالقوى الطبيعية والكواكب والزوابع والحالات الناجمة عن نظام كوني أوجده الله تعالى.

انتشرت عبادة الأصنام عند العرب وصوّروها ونحتوها رمزاً لآلهتهم، وكانوا يصنعون الحجارة ويرون فيها رمزاً لآلهتهم، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[1].

لم يستطع العلماء تحديد الزمن الذي بدأت فيه عبادة الأصنام، وتقول بعض الروايات أن عبادة الأصنام كانت قبل أسطورة «**عمرو بن لحي**»، فالعرب كانوا يعبدون الأصنام في زمن النبي إبراهيم عليه السلام وبعد أن بنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، وتعظيماً لهذا البيت ولقدسيته كانوا يطوفون حوله ويعبدونه ومن لم يستطع المجيء دائماً الى الكعبة والطواف حولها كان يأتي منها بحجرٍ الى بيته أو قبيلته ويعبدون هذا الحجر نظراً لقدسيته فهو من الكعبة.

«**عمرو بن لحي «هو رجل قاتل الجراهمة وأخرجهم من مكة وتولّى هو حجابة البيت المقدّس وبعض الروايات تعيد تأسيس الكعبة إلى «مضاض بن**

(١) سورة هود، آية: ١١.

عمرو الجرهمي» الذي تزوّج بابنة إسماعيل وهو من بني الحرم الذي أعطى مكة سيادتها على كل القبائل والمدن العربية ويؤكد الشهرستاني أن عمرو هو من جاء بصنم (هُبل) وأمر الناس بعبادته لأنه من مكة. وكان هذا في الصيف الأول من القرن الثالث للميلاد.

وعلى الرغم من تضارب الروايات فإن تحديد زمان وبداية عبادة الأصنام عند العرب صعب، فإن عبادة الأصنام لا يمكن أن نعيدها الى شخص ما (عمرو) أو (إسماعيل) إنّما نعيدها الى الطبيعة البشرية التي خلقها الله فينا، فالانسان لضعفه وجهله يسعى دائماً الى إيجاد قوى خفية يعتبرها أقوى منه وتسيّره، إذاً إن ما قيل عن قدسية الحجر الأسود حمل على عبادته وحملوا الحجارة من الكعبة وكانوا يعبدونها في أي مكان، وكانوا يصنعون الأصنام ويطلقون عليها الأسماء ويعبدونها.

وكان هناك عدة أنواع من هذه الحجارة ومنها:

أولاً. الصنم: «هو ما كان له جسمٌ أو صورة «[١]، وهذا يعطي أن الصنم هو عبارة عن تشخيص لهيئة ما أو لحيوان ما، ويقول ابن الكلبي في هذا المجال: إنّ الصنم هو «**ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة، صورة إنسان فهو صنم**»[٢] وقد وردت هذه اللفظة كثيراً وهي تعني المعبود بل ربما كان الى جانب الصنم الرّب أو الإله فقد يكون هذا الرّب أو الإله الذي يعبده الإنسان ما هو إلا صنمٌ من حجر موجود في منزله.

أمّا لغوياً فيقولون بأن هذه اللفظة معرّبة عن لفظة «شمن» وقد ورد ذكرها في تاج العروس وبعض علماء اللغة الأوروبيين يرجعون لفظة «صنم» الى ***Selem*** بمعنى صورة في العبرية، ***S-L-M***

(١) ابن منظور، لسان العرب، مجلّد ١٢، ص٣٤٩.

(٢) هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥،ص٥٣.

اسم إله ورد ذكره في نقوش آرامية بتيماء[1]، إذاً إنَّ أول من أمر بعبادة الأصنام (عمرو بن لحي) ويقال أيضاً إنّه أمرالناس بعبادة الصنمين (آساف ونائلة)، كما وروي عن ابن عباس أنه قال:

«**دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثماية وستون صنماً، فطاف على راحلته وهو يقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً» وأشار إليها فوقعت جميعها**»[2].

إضافة الى الصنم كان هناك اسم آخر لهذه الأشياء التي كانوا يعبدونها مثل الوثن والنصب.

ثانياً الوثن: هو أيضاً مصطلح استخدمه العرب للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها، وقد وردت هذه اللفظة في النصوص ويقصد بها الصنم الذي يرمز إلى الإله.

ولأنه قد وردت لفظة الصنم والوثن، نلاحظ أن هناك اختلافاً واجباً بينهما ويردّ المفسرون ذلك الى بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن الأصنام مثل ابن الكلبي الذي قال: «**إنّ كل تمثال معمول من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو صنم أمّا إذا كان من حجارة فهو وثن**»[3].

وقالوا أيضاً: إنّ كل ما هو مصنوع من حجارة فهو عبارة عن أوثان كانوا يقدمون لها القرابين والذبائح. إذاً لا يمكننا الخلط بين الوثن والصنم وأيضاً لا يمكننا التفريق إذ إنه لا ميزة واضحة بينهما سوى أن الصنم من الخشب وهو على صورة إنسان والوثن من الحجارة وقد يكون شكلاً معيناً غير الإنسان، والأوثان تعتبر مقدّسة وقد ألّهها العرب وعبدوها نظراً الى ما عرفوه من قدسية حجارتها لأنها من الكعبة. ويستخلص (كرنكو) جملة من أمثال عدة أقوال وعدّة مؤرخين تحدثوا عن الفرق بين الوثن والصنم فيقول:

---

(١) د. محمود سليم الحوت، «الميتولوجيا عند العرب»، ص:٣٧.
(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص١٢١.
(٣) هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، ص٥٣.

«إن الصنم شيء يُعبد من دون الله، له شكل مصنوع من حجر أو خشب أو معدن، ويميّزه عن الوثن بأن هذا ليس له جثة وإنّما يذكر مرادفاً لما عليه من رسم أو صورة»[١].

إذاً يمكننا القول: إن الأوثان كانت أكثر انتشاراً من الأصنام لأنها عبارة عن حجارة لا تتطلب جهداً كالأصنام في النحت والتصنيع، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[٢]

---

(١) محود، سليم الحوت: «الميثولوجيا عند العرب» ص:٣٨.

(٢) سورة، الحج، آية: ٣٠.

ب. انتشار عبادة الأصنام والأوثان عند العرب

كانت عبادة الأصنام منتشرة بين العرب في الجاهلية وكان اهتمامهم بها كبير، فقد كان لكلٍّ قبيلة صنم تهتم به. وإنّ أول من اتخذ الأصنام من بني إسماعيل بن إبراهيم وسمّوا بأسمائهم حين فارقوا دين أبيهم (الحنفية)، وقد كان يدعى بهذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، كما واتخذوا «**سواعاً**»، فكان لهم برهاط من أرض ينبع. وكذلك كلب بن وبرة من قضاعة، الذين اتخذوا «**وداً**» الجندل. كما وكان هناك أيضاً «**أنعم**» من طيء وأهل جرش من مذحج اتخذوا «**يغوث**» بجرش وأيضاً خيوان وهم بطن من حمدان اتخذوا «**يعوق**» بأرض همدان من بلاد اليمن، وذو الكلاع من حمير واتخذوا «نسراً» بأرض حمير[١].

وبعدها تفرّق أبناء اسماعيل في الجزيرة العربية وانتشروا طلباً للرزق والعيش ويقول ابن الكلبي: إنّ السبب الذي دفعهم الى عبادة الأوثان والحجارة هي قدسيتها فكانوا كلّما مرّ مارٌ بمكة حمل معه من حجارتها وطافوا حوله تيمناً بالكعبة.

أما ابن هشام فيقول في السيرة: إن عمرو بن لحي استقدم الصنم «هُبل» من مآب من أرض البلقاء الى مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص٨.

ويرد ابن الكلبي عبادة الأصنام إلى عمرو، وقد سأل أهل البلقاء، وكانوا يعبدون الأصنام، أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة»[1].

إذاً إنّ هذا الكلام يعني أنّ هناك من كان يعبد الأصنام قبل عمرو بن لحي في شمالي الجزيرة العربية حيث البلقاء، وهو ربما كان من أوائل الذين أدخلوا عبادة الأصنام الى شبه الجزيرة العربية (مكة وبلاد الحجاز) مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ تقديس الأحجار منذ أن وضع إبراهيم الحجر الأسود في زاوية الكعبة. وعلى ما يبدو أن التحقيقات التاريخية لم تثبت حتى الآن الى من يعود إدخال هذه المعتقدات والعبادات، كما وهناك تركيز على شخصية عمرو بن لحي. لكن هذه المسألة إنما تعود الى أبعد من شخصية في الزمان وربما تكون قد بدأت بجوٍّ عام عرفه العرب القدامى عن طريق احتكاكهم بغيرهم من الشعوب القديمة وهكذا برز ما يبدو لنا من الترميز والتشخيص ونشأت بعدها التماثيل والأصنام والأوثان.

وقد تكون هذه العبادات تأتت من بعض مظاهر الطبيعة مثل السماء وما فيها من نجوم وكواكب، والأرض وما عليها من جبال وأنهار ووديان وحيوان ونبات، وربما من حرص العرب على تعظيم هذه الأمور إما لغرابة فيها أو لقوةٍ ما، فمثلوها بشخصيات مناسبة وعبدوها وطافوا حولها.

إضافة الى ذلك لم يخلُ بيت عند العرب من الأصنام الصغيرة والتي كانوا يعبدونها ويؤدون لها القرابين معترفين بربوبيتها أصنام أخرى أقل أهمية كانت تخصّ كل قبيلة على حدة فالوثنية عند العرب أصبحت مع التاريخ ديانة الأجداد والآباء دخلت في التراث والتقاليد، ودافعوا عنها دفاع المستميت عن وجوده.

وكانت الكعبة مقصداً ومحجاً للعرب جميعاً، وكانت مصدر رزق لأهل مكة، إذ يأتيها العرب من كلّ حدبٍ وصوب، وقد قاموا بنصب الأصنام والأوثان حولها تبركاً وتيمناً وكان الشخص الذي يحجّ الى مكة ويطوف حول الكعبة يرى

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص٨.

معبوده ويتبرك منه أيضاً ويطلب منه الرضا والغفران ويقدم القرابين، كلّ ذلك لأجل التماس التبرك وسعياً في زيادة الرزق والأموال[١].

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٣، ص٩٣.

ج. الآلهة عند العرب

لم يتمكن المؤرخون من تحديد عدد الآلهة عند العرب إذ ما كانوا يستطيعون تحديد هل كل وثن وصنم يعبد هو إله؟ أو أن هذه الأصنام كانت عبارة عن تشخيصات متعددة لإله واحد؟

هناك الكثير من الأصنام والأنصاب والأوثان عند العرب مما لا حصر له ولا جمع فالبعض قال إن عدد الآلهة موازٍ لعدد الأصنام والأوثان التي عرفها العرب، ويقول محمد الجازم «**إنه كان لكل قبيلة أكثر من صنم، وكان منها عند الكعبة الكثير**» وليس في الاستطاعة حصر أصنامهم في الجاهلية فكثرتها تتجاوز العدّ[1]. إذاً لو دققنا النظر لوجدنا أن عدد الأصنام عند العرب هو فقط من باب السرد الإخباري وليس التحقيق العلمي الدقيق، فكثير من العرب كانوا يصنعون أوثاناً من التمر فإذا جاعوا أكلوها، والحقيقة المطلقة تقول بأن كثرة الأوثان والأنصاب ماهي إلَّا مجرد تشخيصات للآلهة يعبدونها ويقدمون لها القرابين وهي لا تعني الآلهة مطلقاً.

فمن المستحيل أن نعتبر أن الأصنام كلها آلهة إذ بحسب بعض المؤرخين يقال إنه في الكعبة وحدها كان هناك ٣٦٠ صنماً. هذا ما أورده العديد من المؤرخين في كتبهم كاليعقوبي وفي كتب السيرة والمعاجم والشروح لابن اسحاق وابن هشام.

(١) محمد نعمان، الجازم: «أديان العرب في الجاهلية»، ص١٥٥.

بيد أن المستشرق «نلدكه» يقولون بأنه كان لدى العرب العديد من المؤلّهات أي الآلهة التي يعبدونها[1] فقد كان الرجل من العرب إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك[2].

إذاً خلاصة القول إن عدد الأصنام والآلهة عند العرب تمحورت في أنّه من دون شك بأن هناك انتشاراً واسعاً للمشخصات (أصنام أوثان أنصاب)، وإنّ كثيراً من الروايات التي تؤديها كما وأنّ واقع وجودها وحول الكعبة يؤديها، ولكن لا يمكننا اعتبار هذه الأصنام هي آلهة بحدّ ذاتها، إذاً إنّ عدداً من المشخصات كان يرمز إلى إله واحد، وإن بدا للبعض أن لكلّ صنم عبادة يختص بها وله قدسيته فلا يمكننا أن نأخذ بهذا القول، ذلك لأنه لا يمكننا اعتبار أنّ كلّ عربي كان يملك مشخصاً في منزله إضافة الى أن هذه المشخصات كانت تُشرى وتباع في الأسواق والعرب كانوا مستميتين في الدفاع عنها إذاً فلا يمكن الحديث عن كثرة الآلهة إنّما عن كثرة تشخيصاتها.

إضافة الى أن العربي كان يتبع عادات وتقاليد وعبادات أهل قبيلته، فقلّما كان هناك عدد من الآلهة لقبيلة واحدة، وقد سُمّيت بعض القبائل بأسماء آلهتها، إذاً لم يكن هناك تعدد آلهة إنما كان هناك كثرة مشخّصات.

---

(١) محمود سليم الحوت: «الميتولوجيا عند العرب» ص٤٠.
(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص٣٣.

د. أصنام العرب في الجاهلية

اختلفت أشكال أصنام العرب في الجاهلية، وبالرغم من ذلك فهي تعتبر آلهتهم المقدسة، فهم بالتالي يعبدونها ويقدمون لها القرابين ومن أشهر هذه الأصنام: المناة، العزى، اللات، هُبل. وهذه الأصنام ليست مجرد تماثيل للآلهة بل على العكس فهي الآلهة نفسها، لهذا السبب عظّموها واهتموا بها، وجعلوا لها الطقوس التي تولوا ممارستها حولها.

نشير هنا الى أن هذه الأصنام الأربعة اتحدت في الشكل والمعنى والرمز في ممارسة الطقوس، مع العلم أنها ليست الوحيدة، فهناك أصنام عديدة أخرى منها ما يُنسب الى الأماكن الطبيعية ومنها ما يُنسب الى الحيوان، ومنها ما ينسب الى أشياء أخرى غيرها.

١. الصنم مناة:

يعتبر هذا الصنم من أقدم الأصنام العربية بحسب قول ابن الكلبي وقد تمّ نصبه على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقُدَيْد بين المدينة ومكة. وكان العرب يعظمونه ويذبحون حوله ومنهم الأوس والخزرج الذين يحجون إليه ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده[1].

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص١٣.

وإضافة الى هؤلاء عظّمته أيضاً قريش وخزاعة وهذيل وجميع العرب من الأزد والغساسنة.

وعلى ما يبدو فإن هذا الصنم كان عبارة عن صخرة لأجل ذلك أُنّث حيث أضيف إليه زيد مناة وعبد مناة وأوس مناة، أمّا الغساسنة فقد بالغوا بتعظيمه لدرجة أن الملك الحارث ابن أبي شمّر أهداه سيفين أحدهما يسمى مخذّماً والآخر رسوباً وقد ورد ذكر مناة أيضاً في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾.

وتعني لفظة «مناة» الموت أو القدر فهي مشتقة من المنا والمنية ومنها أيضاً «مِنى» وهو موضع في مكة يراق فيه الدم. وهي من الأصنام المعروفة عند النبط فقد ورد اسمها في أقدم النقوش النبطية[1]، أما بالنسبة للبابليين فهي تمثل آلهة الموت ويطلق عليها اسم «مامناتو».

يتّضح ممّا تقدم أنّ «مناة «مثلث الموت وليس القدر عند العرب فالقدر بتصورهم هو رجل لا امرأة وبتعبير أوضح هو مذكر لا مؤنث.

وقد عقد الدكتور محمود الحوت مقارنة بين ألفاظ «مناة» ومشتقاتها المتعددة، فوجد أن هناك تشابهاً بين مناة العربية وبين الكلمتين مناتا الآرامية ومنوت العبرية، وهو تشابه أيضاً كالحاصل بين الماني في البيت الذي سرده ياقوت وماني إله القدر أو إله الموت، وحتى في اللغة فإن المنيّة تعني الموت أو الأجل[2] وعلى ما يبدو فإن عبادة مناة كانت منتشرة بين معظم قبائل العرب وبرموز مختلفة، ولعلّ أبرز ما يدعم ذلك هو انتشار الأسماء المركبة منها عند العرب كـ(عبد مناة، زيد مناة، أوس مناة) كما أن تأنيث هذا الصنم أدّى الى اعتباره إحدى بنات الله[3].

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام د.السيد عبد العزيز ص٤١٩.
(٢) محمود سليم الحوت، «الميتولوجيا عند العرب»، ص٦٥.
(٣) ن.م.ن.ص.

٢. الصنم اللات:

هي آلهة عربية قديمة ولكنها أحدث من «مناة» من حيث الزمان فقد ذكرت في نقوش الأنباط والتدمريين. وهي اسم يمثل فصل الصيف عند البابليين «**اللاتو**» وحتى أنفسهم اعتبروها إله الشمس[1] ، أما العرب فنسبوا إليها فصل الصيف. ويروى أن اللات هي من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب بعد أخذها من النبط وهي عبارة عن صخرة مربّعة بيضاء[2]. لم يستبعد الدكتور جواد علي أن يكون هذا الصنم نصباً من الأنصاب المستخدمة عند تقديم القرابين والذبائح ومن هنا احتار الناس في أمرها مع مرور الزمن، حيث توهّموا أنّ هذا النصب هو الصنم بحدّ ذاته.

ومن الممكن أيضاً أن يكون «**اللات**» من بقايا الوثنية البدائية التي تُعبد فيها الأحجار حتى ولو كانت مجرد حجر صخرٍ لا شكل لها. ولهذا السبب أشار ياقوت الحموي إلى أنّه يوجد في صخرة اللات والعزى شيطانان يكلمان الناس[3].

فاللات إذاً غريبة عن العرب فهم أدخلوها إلى داخل شبه الجزيرة العربية بعد أخذها من الشمال، فهي في الأساس إلهة نبطية. وقد ذكر الأب لويس شيخو اللات بقوله: «**إن اللات هي الزهرة ولنا على ذلك شهادة هيرودوتس المؤرخ الذي اعتبر أن العرب يعبدون الزهرة السماوية وهم يدعونها «التيا». كما وأصلح اسمها في محل آخر فدعاها الألات، وهو اختصار الألاهت، كما اختصروا الاسم الكريم الإله فقالوا الله. ثم اختصروا الألات فقالوا اللات، وكانت اللات معبودة في كثير من جهات الجزيرة وليس الطائف كما زعم كَتَبَة العرب. فإن الأثريين وجدوا كتابات عديدة ورد فيها ذكر اللات ولا سيما في بلاد النبط في حجر وصلخد وبصرى حيث كان لها هيكل وفي أنحاء حوران وحتى تدمر، وتدعى هناك بألقاب تدلّ على مقامها كاللات العظمى وأم الآلهة. وكانوا يضيفون إلى اسمها اسم**

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ص٧٤.

(٢) ابن الكلبي، الأصنام، ص١٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤.

المكان الذي تكرم فيه، فيقولون «لات صلخد ولات حوران». وممّا يدلّ على انتشار عبادته بين العرب كثرة الأسماء المركبة من اسمها، كوهب اللات، وتيم اللات وعمرواللات وزيد اللات وغيرها[١].

يعتبر العلماء إذاً أن اللات ومناة اسمان من أسماء «**العزى**» وهي عبارة عن الزهرة التي سميت بأسماء مختلفة وذلك عائد لظهورها بعد غروب الشمس وقبل طلوعها. وهذا الرأي مخالف طبعاً للعرب والمسلمين الذين فصلوا بينهما وتعاملوا معهما على أساس أنهما صنمان مختلفان والدليل على ذلك هو القرآن الكريم الذي أورد أسماء هذه الأصنام بصورة منفصلة عن بعضها البعض.

أمّا فيما يتعلق بهدمها فيروى: أن الرسول كما أرسل المغيرة بن شعبة لهدمها، وأخذ المعول وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف وضرب بالمعول ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وفرحوا، وقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة. ثم قالوا مستهزئين لأصحابه: من شاء فليقترب عندئذ من المغيرة وقال: والله يا معشر ثقيف إنّما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، وعلا سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض. غير أن سيدها لم ييأس من انتقام الربّة، وجعل يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفروه حتى أخرجوا ترابها، ثمّ رجعوا إلى الرسول فقسّم أموالها بين المسلمين، وبالرغم من هدم اللات استمرت ثقيف محافظة على ولائها لها.

كما وأشار ياقوت الحموي نقلاً عن أبي حبيب «أن اللات كان بيتاً لثقيف بالطائف «وكانوا يسيرون الى ذلك البيت ويضاهون به الكعبة وله حجبة وكسوة وكانوا يحرمون واديه[٢].

---

(١) شيخو، لويس: «النصرانية وآدابها بين العرب الجاهلية»، ص: ١٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص: ٤.

وهكذا يتضح أن رواية ياقوت الحموي عن عمرو بن لحي تخالف بعض الروايات التي تفيد بأن عمرو بن لحي قد يكون أتى بالصنم «**اللات**» من عرب الشمال.

٣. الصنم العزّى:

وهي صنم تحدث عنها العرب بصفة مؤنثة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[1]
وهي زمنياً أحدث من مناة واللات وقد تكنى بها العرب قبل العزّى وعبدوها وأقسموا بها.

وقد كانت تعبد عند اللخميين في الحيرة لأنّه قد حلف بها ملك الحيرة (المنذر الرابع) كما وقيل إنّه ضحى لها بأربعمائة راهبة أسيرة كنّ متنسكات في أديرة العراق[2]، وقد لازمت القساوة هذا الصنم من حيث التضحيات والتقديمات.

والعزّى لغوياً هي تأنيث الأعز، والأعز بمعنى العزيز، والعزى بمعنى العزيزة[3].

كما وكانت العزى تعبد بثلاث شجرات سمرات بنخلة حيث كان يشتّي الرّب لحرّ تهامة بعد أن يكون قد اصطاف في اللات لبرد الطائف. وكانت العزى من أعظم الآلهة عند قريش فكانوا يزورونها ويتقربون عندها بالذبح، ولم تقتصر عبادتها على قريش فقط بل عبدتها الكثير من القبائل العربية أمثال غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان[4].

---

(١) سورة، النجم، آية ٢٠.
(٢) محمود سليم الحوت، الميتولوجيا عند العرب، ص٧٠.
(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٦٦٥.
(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص٩٧.

٤. الصنم هُبل:

هو من أعظم أصنام قريش، ويقول بعض الباحثين في ديانات العرب إن هُبل هو نفسه بعل عند العبرانيين. وقد كان إله الخصب والزراعة عند الإسرائيليين، وأيضاً كان عند العرب إله الخصب بدليل أن الروايات تقول إن عمرو بن لحي أتى به من «هيت» من أرض الجزيرة(١). ويقول اليعقوبي إن هُبل هو أول صنم كان قد وضع بمكة وقد أحضر من «مآب» في الشام أو من العراق «هيت»(٢).

لغوياً لا يمكننا اعتبار (هُبل) كلمة من الأسماء العربية لأنه اسم غريب ولا يحتاج الى تأويل، وقد حاول ياقوت الحموي أن يجد اشتقاقاً لاسم هذا الصنم فلم يفلح، وكان العرب يعتبرونه إله مكة والكعبة. نصل إلى جرجي زيدان الذي تحدث عن هُبل فاعتبره من آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين، وقد استدلّ على ذلك بعدة دلائل هي:

أولاً ـ أن هذا الصنم جيء به من خارج البلاد العربية فهو إذاً غير عربي.

ثانياً ـ ياقوت أجهد نفسه في معجم البلدان فلم يوفق في إيجاد اشتقاق لغوي له، فهو غير عربي.

من هنا اعتبره زيدان عبرانياً أو فينيقياً أصله هبعل، وهو اسم أكبر الأصنام عند الفينيقيين أو الكنعانيين.

ولكن بالعودة إلى ابن الكلبي وابن إسحاق وابن هشام في السيرة فإننا نجدهم يصرون على أنّ قريشاً كانت تضع أصنامها في جوف الكعبة ومن بينها الصنم (هبل) وكان أعظمها، كما وكان مصنوعاً من العقيق الأحمر على صورة إنسان ويده اليمنى مكسورة، فجعلت له قريش يداً من ذهب.

---

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٦٤.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢٩٥.

هذه الأصنام وغيرها الكثير من الأصنام اللاتي كان العرب يعبدونها ويقسمون بها ويقدمون لها القرابين والأضاحي وكانت كلّها بمثابة الآلهة عندهم وكانوا يعبدونها ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط وسنذكر بعضاً منها:

أصنام عمرو بن لحي وهي التي نسبت إليه على أنه هو الذي أحضرها وصنعها وأمر الناس بعبادتها وهي:(ود، سواع، يغوث، يعوق، نسر) إضافة إلى ذلك هناك آخرون مثل صنم أساف ونائلة، وصنمين وقد كانا على هيئة غزال وسُمّيا (غزالا مكة).

أصنام نوح وهي نفس أصنام عمرو بن لحي مضاف إليها (اليُعبوب، عُمْيَانس، رضى، مناف، سعد، الأقيصر، نُهْم، عائم، سُعَيْر، الفلْس، الشمس، المحرِّق، الأسحم)

ولم تقتصر الآلهة عند العرب على الأشخاص فقط بل كان عندهم آلهة للأماكن فكان العرب ينسبون أسماء آلهة لبعض المواضع مثل:

«**ذو الشرى**» إذ كان هناك موضع يقال له الشرى وقد نسب العرب اسم هذا الموضع الى هذا الصنم الإله، وهناك أيضاً«**ذو الخلصة**» وهو ذو مكانة عظيمة ويقع هذا الصنم بين مكة واليمن في موضع يدعى «**تبالة**» على مسيرة سبع ليال من مكة. وأيضاً هناك ذو الكفين وذو الرجل وهي من الأصنام التي عدّها المؤرخون ذوات الأماكن نظراً لموضع الكفين ولموضع الرجل فاعتبروها من آلهة الأماكن ونسبوها إليها.

هذا ما كان يعبده العرب في العصور الغابرة والتي حاول العلماء والمؤرخون وبذلوا جهودهم سعياً لإيصال أكبر قدر ممكن من المعلومات للقراء وهذا ما رأيناه نحن في بعض الكتب سعياً لإغناء القارئ وإطلاعه على العديد من العبادات والطقوس التي كان العرب يقومون بها قبل الاسلام إذ نظراً لطبيعة البشر التي تحتاج في كل عصر وفي كل زمان الى معبود تعبده وتشعر نحوه بالأمن والطمأنينة على أنه هو خالقها أو واسطتها الى الله....

لمحة عن الهند

تقع جمهورية الهند في جنوب آسيا، وتشمل معظم أراضيها شبه القارة الهندية، تمتد سواحلها على أكثر من ٧٠٠٠كلم، تتجاور الهند مع الصين ونيبال وبوتان من الشمال، وباكستان وأفغانستان من الشمال الغربي وبنغلادش وميانمار من الشرق في المحيط الهندي، وتحيط بها جزر المالديف من الجنوب الغربي وسيريلانكا وأندونيسيا من الجنوب الشرقي.

تشكّل الهند ثاني أكبر بلدان العالم من حيث عدد السكان، إذ يبلغ عدد سكانها اليوم مليار ومئة مليون نسمة. وهي تمثل المرتبة السابعة من حيث المساحة.

كما وشهدت الهند قيام عدد من الحضارات القديمة وكانت مركزاً للطرق التجارية المهمة، وقامت فيها ديانات عديدة منها: الهندوسية، البوذية، الجينية، السيخية، واليانية.

كما شهدت نمواً اقتصادياً خلال العشرين سنة الأخيرة حتى أصبحت ذات شأنٍ في المنطقة والعالم. كما وُجد في الهند في بيمبتكا في ماديا براديش عدد من الملاجئ الصخرية نقش عليها رسومات قديمة يعود تاريخها إلى العصر الحجري ممّا يدلنا على وجود الإنسان فيها منذ القدم.

منذ حوالي ٩٠٠٠سنة ظهرت المستوطنات البشرية وعرفت باسم حضارات وادي السند. شهدت عصراً ذهبياً في القرن الخامس قبل الميلاد. وشكّلت ممالك مستقلة، وكان أهمّها ماوريا في شمال البلاد، توحّد ملوكها لأول مرة وأشهرهم أشوكا.

في سنة ١٨٠ق.م.، بدأت الغزوات تتوالى على الهند، وحملت معها ممالك مختلفة: هندية إغريقية، هندية بارتية، ومملكة كوشان.

شهدت الهند عصراً ذهبياً مع حلول سلالة «كوبتا» في القرن الثالث للميلاد. قامت ممالك عديدة في الجنوب منها: تشالوكياس وتشراس... عرفت معها الفنون والرياضيات والعلوم والهندسة والفلك والفلسفة. في الفترة الأموية بدأت

الجيوش الإسلامية بمحاولات لغزو الهند، واستقرت الرقعة الإسلامية على حدود نهر السند.

ومن أفغانستان أطلق الغزنويون أولى حملاتهم على الهند. إذ استطاعت دولة آل تغلق (١٣٥٠م) أن تضمّ إليها معظم أراضي شبه الجزيرة الهندية.

ولقد شكل قدوم المغول حدثاً بارزاً في تاريخ الهند، واستطاعوا أن يؤسسوا حضارة جديدة امتزجت بالثقافتين الهندية والإسلامية. كانت المنطقة الجنوبية للهند منعزلة عن السياسة وتطوراتها. أخذت الوفود الأوروبية بالقدوم إلى الهند منذ اكتشاف الطرق البحرية الجديدة ممّا جعل التنافس التجاري بين البرتغاليين والفرنسيين والإنكليز قائماً في هذه البلاد الغنية وبدؤوا ببناء مستعمرات جديدة لهم.

وقد استغلت الوفود الغربية موارد البلاد وفرضت قوانين جديدة عليها، عندما قام الهنود بثورة شعبية سنة ١٨٥٧م تمرداً على هذا الوضع انتهت بالقضاء على الحكم المغولي في الهند وأصبحت عندها مستعمرة خاضعة لبريطانيا.

كان الماهاتما غاندي يقود حركة سلمية تتمثل باللاعنف، حصل من خلالها على وعد بالاستقلال، وفي يوم ٨آب ١٩٤٩، أعلن استقلال الهند رسمياً وفي ٢٦كانون الأول ١٩٥٠أصبحت البلاد جمهورية مستقلة.

عرفت الهند نزاعات طائفية وانتفاضات شعبية بسبب تعدد الديانات والأعراق فيها. وأثناء حكم أنديرا غاندي تمّ الإعلان عن حالة طوارئ فأصبحت الهند دولة ديمقراطية علمانية.

قامت الهند بالعديد من الحروب مع جيرانها الصين وباكستان. وكانت الهند من الأعضاء المؤسسين لدول عدم الانحياز.

دخلت الهند في نادي الدول النووية بعد أن أجرت أولى تجاربها النووية تحت الأرض عام ١٩٧٤م، ثم أكملت بعدها خمسة تجارب أخرى سنة ١٩٩٨م، بإشراف الرئيس عبد الكلام فتحولت إصلاحاتها الاقتصادية إلى أكبر الدول نمواً في العالم. إنّ الدستور الهندي يقضي: إن الهند جمهورية ديموقراطية وعلمانية

ذات سيادة. نظامها السياسي جمهوري ذو طابع اتّجاري، يتشكل البرلمان من غرفتين تشريعيتين، لهما نظام وضع على شاكلة النظام البرلماني البريطاني. نظام الحكم في الهند ذو ثلاث هيئات: تشريعية وتنفيذية وقضائية.

الرئيس أعلى سلطة تنفيذية في رأس الدولة وصلاحياته هي شرعية يقوم بالدفاع عن الدستور والمصادقة على القوانين وبإصدار مراسيم العفو، وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ويتم اختيار الرئيس ونائبه بهيئة انتخابية لمدة خمس سنوات، رأس الحكومة هو رئيس الوزراء وبيده معظم السلطات التنفيذية يقوم نوّاب الحزب الحاكم باختياره ولا ينصّ الدستور على اختيار رئيس الوزراء من بين نواب البرلمان.

الهيئة التشريعية في الهند هي البرلمان، ويتألف من غرفتين العليا وتسمى «**راجياسابها**» والسفلى وتسمى «**لوك سابها**»، تقوم الهيئة الانتخابية باختيار أعضاء ٢٤٥ لمجلس الدولة لمدة ست سنوات، ينتخب أعضاء ٥٥٢ للغرفة الثانية بطريق الاقتراع لمدة خمس سنوات، وعن طريق هذا المجلس تتم مختلف القوى السياسية والتشكيلية الحكومية، وكل مواطن هندي يبلغ الثامنة عشرة من عمره له حق الانتخاب.

تتألف السلطة التنفيذية من رئيس ونائب رئيس ومجلس وزراء يرأسه رئيس الحكومة. وأي من الوزراء يحقّ له أن يكون عضواً في إحدى غرفتي البرلمان. وتخضع الهيئة التنفيذية للهيئة التشريعية، كما وتتمتع الهند بنظام قضائي مستقل يتمثل برئيس المحكمة العليا، وهي أعلى الهيئات القضائية، تقوم المحكمة السيادية بحق النظر في قضايا النزاعات ونقض قرارات المحاكم العليا الهندية. كما ويوجد في الهند ثماني عشرة محكمة عليا، بعضها يملك صلاحيات عدة اتحادية وبعضها على ولاية واحدة فقط. وفي حال التنازع بين الهيئة التشريعية والهيئة القضائية يلجأ إلى رئيس الدولة، فإن الدستور يحمي الهيئات المستقلة على أساس هيئة الانتخابات الهندية، هيئة مراقبة ومحاسبة.

معظم تضاريس الهند تتشكل من سلسلة جبال الهملايا بينما تتشكل باقي الولايات الشمالية الوسطى والشرقية ففيها سهول خصبة. وفي غرب الهند تمتد صحراء «تار» أمّا المناطق الجنوبية فأغلبها تتشكل من هضبة الدكن.

كما ويوجد في الهند العديد من الأنهار الكبيرة أهمها: الكنج، براهما بوترا، يامونا غوداواري وكريشنا وهي تساهم في نشاط البلاد الزراعي.

مناخ الهند يختلف من منطقة إلى أخرى، فهو استوائي في الجنوب ومعتدل في الشمال. وهناك مناخ قاس في التندرا المناطق الشمالية الغربية لجبال الهملايا، والأمطار غزيرة وتتساقط بكثرة في هبوب الرياح الموسمية. أمّا بالنسبة للغة والدين والطبقات فهي عوامل فاضلة في التنظيم الاجتماعي والسياسي للهند.

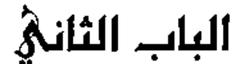
تعدّ مدينة مومباي أهم تجمع حضاري ودلهي وكلكتا وتشيناي أيضاً، فإن النسبة المتعلمة في الهند تقارب ٦٤،٨٪ منها ٥٣،٧٪ من النساء و٧٥،٣٪ من الرجال.

أما نسبة العاملين فهي ٣٩،١٪ من إجمالي السكان. وتتوزع هذه النسب حسب الجنس كما يلي: ١،٧٪ رجال، و٢٥،٦٪نساء ويبلغ متوسط الحياة ٢٢،٦٦سنة وتبلغ نسبة الولادات ٢،٢٣٪ إضافة إلى الهند وحيث يشكلون ٨٠٪ من عرقية الشعب الهندي.

في الهند ثاني أكبر تجمّع للمسلمين بعد أندونيسيا، إذ تبلغ نسبة المسلمين ١٣،٤٪ والمسيحيين ٢،٣٣٪، والسيخ ١،٨٤٪، والبوذيين ٠،٧٦٪...ممّا يدل على التنوع الديني الكبير لأهالي الهند.

إن الهندو. آرية والدرافية هي عبارة عن موطن لاثنين من العائلات اللغوية الرئيسية وتضم الهند اثنين وثلاثين لغة رسمية.

إضافة إلى ذلك تستعمل الحكومة اللغتين الهندية والإنكليزية في المراسيم والمناسبات الرسمية. أمّا تاريخياً فكانت اللغتان السنسكريتية والتاملية اللغتين الأصليتين. أمّا عدد اللهجات في الهند فيبلغ حوالي ١٦٥٢الهجة.



الفصل الأول : الديانة الهندوسية

الفصل الثاني : الديانة البوذية

الفصل الثالث : الديانة الجينية

الفصل الرابع : الديانة اليانية

الفصل الخامس : الديانة السيخية

الفصل الأول

الديانة الهندوسية

أ. تمهيد.

ب. الأصول الدينية.

ج. الآلهة عند الهندوس.

د. مؤسس الديانة الهندوسية.

هـ. الملاحم والأساطير الهندوسية.

و. عقائد الهندوسية.

ز. شعائر وعبادات الهندوس.

ح. تقاليد الهندوس.

ط. نظام الطبقات عند الهندوس.

ي. نماذج من الفقه الهندوسي.

أ. تمهيد

الهندوسية وتعرف أيضاً بالبرهمية، وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند وهي ديانة تطورت مع الزمن وقد تشكلت عقائدها وطقوسها بأشكال مختلفة عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر. غير أن الشيء الثابت والذي لم يمحه الزمن هو طبيعة الإنسان الهندي وخاصة من ناحية اهتمامه في الأمور الروحية والزهدية لدرجة أنه بإمكاننا أن نقول إن هذا الدين تقلب مع طبيعة الإنسان الهندي ولم يكن له قانون معيّن يميزه.

هذا وقد انتشرت الهندوسية خلال ثلاثمائة عام تقريباً من إقليم صغير شمالي الهند إلى مساحات شاسعة تحتوي الآن مئات الملايين من البشر. أمّا فيما يتعلق بطريقة التكاثر والانتشار فإن مرد ذلك يعود إلى أن زعماء بعض المناطق القبلية من الروحانيين عابدي (الطبيعة) يقومون بتقليد بعض العادات الهندوسية كالامتناع عن أكل اللحوم وخاصة البقر أو عن تناول المسكرات أو التخلي عن عادات لا تقرها الهندوسية مثل الزواج من خارج العشيرة وتحريم زواج بناتهم من رجال دون مستوى طبقتهم، ووضع القيود على الاتصال واللمس والجلوس على المائدة وإكراه الأرامل على حياة العزوبة وتقديم الضحايا للأسلاف وإعادة تعميد آلهتهم الوطنية بأسماء آلهة وآلهات هندوسية حميمة.

وهناك روايات تشير أو تزعم أن الهندوسية ديانة مغلقة وهي شبيهة بالديانة اليهودية بحيث لا يُعدُّ هندوسياً إلا من كان أبواه هندوسيين وهذا طبعاً ناتج عن

الفروق الحاصلة بين الهندوسية البدائية والهندوسية الجديدة، فالبدائية والتي يطلق عليها (البرهمية) يعود تاريخها إلى ديانة الآريين البيض الذين غزوا الهند حوالي عام ١٥٠٠ق.م. ثم ضمت بعد ذلك تدريجياً عناصر مختلفة من الديانة التي كانت سائدة في وادي الإندوس مثل عبادة عضو التناسل (اللنجام) أي عبادة الإخصاب وعبادة الأشجار المقدسة. وفي حين أن البرهمية كانت مقتصرة فقط على الطبقة الأرستقراطية حتى القرن الرابع قبل الميلاد أي في الوقت الذي نهض فيه البوذيون لمقاومة الطبقة السامية (الأرستقراطية).

وقد ظهرت بعد ذلك هندوسية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد أعطت الأفضلية لنصوص الفيدا لكنها كانت أكثر تسامحاً من البرهمية القديمة فقد أبقت على جانب كبير من الديانات الشعبية كما اجازت القيام بالشعائر المحلية المتوارثة.

ب. الأصول الدينية

مارس الهندوس الأوائل شعائرهم الدينية في الهواء الطلق والسبب في ذلك يعود إلى عدم وجود معابد خاصة بهم، فالجماعة التي تؤدي شعائرهم الدينية كانت هي نفسها تؤدي مهام الكهنة لانعدام توفرهم آنذاك، وكغيرهم من الشعوب كانوا ينظرون بإجلال إلى مظاهر الطبيعة ويقدسونها فجعلوا لكلّ ظاهرة الإله الذي يحركها أو يسكنها حتى إنهم قدّسوا بعض الحيوانات وبخاصة البقرة، وفي أسفار الفيدا إشارات حول المرحلة البدائية الأولى للديانات الهندوسية حيث انتشار عبادة القوى الطبيعية وهي مرحلة تبدأ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى مرحلة تدوين الفيدا في القرن الثامن قبل الميلاد، هذا وتحتوي الفيدا على أناشيد وابتهالات لعدد كبير من الآلهة.

ج. الآلهة عند الهندوس

١. الإله أندرا:

وهو ما يعرف بإله العواصف والحرب حيث هناك أغنية تعظمه وتقدم أوصافه وقدراته وهذه الأغنية تقول: هو الأعلى من كل شيء وهو الأسنى ذو القوة العليا الذي أمام قدرته الغالبة ترتعد الأرض والسماوات العالية، أيها الناس استمعوا لشعري إنما هو أندرا إله الكون، هو الذي قهر الشياطين في الحساب وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار واقتحم كهوف الكآبة الأكدار، وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام، وأضاء النار القديمة من البرق في الغمام، ذلك هو أندرا البطل الجسور. الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله والجبال المرتفعة تخر له وتسجد لجلاله، هو الذي يرسل صواعق السماء على أعدائه، فلتُهدَ إليه السبائك المقدسة فإنه يقبل هذه الخمرة ويمنحنا رضاه، ويستمع للشعر وأغاني الولاء»[1].

٢. الإله ياما *(yama)*:

وهو إله الموت أو الديان الذي يحاسب الموتى على أفعالهم في حياتهم، وياما هو أول إنسان مات وارتفعت روحه إلى رحاب السماء وصار إلهاً.وفي الفيدا أغنية تتحدث عن نشأة ياما وتشرح دوره وتدعو إلى احترامه.هذه الأغنية تدعو الناس إلى ملاقاة ياما الذي يجمع الموتى بآبائهم وأسلافهم ويساعدهم في قطف

---

(١) محمود علي خان: في التقديم لأناشيد الريج فيدا، ص٤٤.

ثمار الأعمال الحسنة في أعلى السماء وتحذر الناس من الخطيئة وهي تشير إلى أن الإنسان يكتسي في الحياة الثانية جسداً آخر.

٣. الإله فارونا *(Varuna)*:

وهو إله التدبير والتنظيم للقوى الطبيعية والأعمال والأخلاق الإنسانية. ودور فارونا يشمل أيضاً المحافظة على نظام الطبيعة وحماية الإنسان من الشرور ومن الوقوع فيها فالإنسان الذي يقع في الخطيئة يتوجب عليه أن يطلب المسامحة من فارونا لينعم بعد ذلك بالهدوء والاستقرار.وهكذا إذاً سعى الهندوس جاهدين للتقرب من مظاهر الطبيعة وعبادتها حيث اعتبروها آلهة يمكن استرضاؤها عن طريق تقديم القرابين لها ودعوتها لمساعدتهم على حلّ مشكلاتهم ورفع المعاناة عنهم.

وقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث قدّسوا بعض الحيوانات كالأفعى والسعادين، وللبقرة قداسة خاصة فمنعوا أذيتها أو إزعاجها، هذا إلى جانب تقديسهم للمياه النظيفة والصافية وخاصة لمياه نهر الغانج» بشكل خاص فهم يعتقدون أن لها القدرة على تخليصهم من خطاياهم وذنوبهم عند اغتسالهم بمياهها فجعلوه المظهر الأرضي للمظهر السماوي.

هذا التقديس لم يحصل فجأة فجمال الطبيعة وسحرها هو الذي حرّك فيهم الشعور الديني حيث أقبلوا عليها بكلّ عواطفهم لدرجة أنّهم صاروا إذا ما توجهوا إلى واحدة من ظواهر الطبيعة تغاضوا عن غيرها وأطلقوا عليها أجمل الأوصاف والأسماء وتغزلوا بها بأجمل المعاني.

وبعد فترة من الزمن بدؤوا يشعرون بأن الآلهة تتفاوت في الرتبة والقوة والعظمة وتنقسم إلى رؤساء ومرؤوسين حتى انتهوا إلى الاعتقاد بوجود الإله الأعظم والأقوى الذي لا يماثله غيره من الآلهة أو الموجودات.

إذاً لقد جمع الكهنة الهنود آلهتهم في إله واحد وعظموه بأجمل الصفات وأجلّها وحصروا فيه القدرة على إخراج العالم إلى الوجود من ذاته ونفسه وجعلوا

قدرته وحدها المهيمنة على العالم من حيث حفظه أو إهلاكه. من هنا اهتم الكهنة بثلاث صفات هي:

الإيجاد والحفظ والتدمير أو الإلغاء وأطلقوا على إلههم ثلاثة أسماء وهي:

- براهما من حيث هو موجد وخالق العالم.
- فشنو وهو حافظ للعالم وموجوداته. وهو ممتلئ بالحب والرحمة يصورونه على هيئة إنسان جاء ليقدم الخير والعون للبشر.
- شيفا المهلك والمدمّر للعالم وما فيه ومهمته نقيض مهمة فشنو.

ويوضع في معبد فشنو تماثيل للآلهة منها ما هو من صوره المختلفة وما هو من تجسيداته الأرضية وهناك معابد لزوجات كل من فشنو وشيفا.

إن أسماء وأدوار الآلهة في أشعار الفيدا الأولى تعود إلى أصول هندو-إيرانية. فالإله سوما ***Soma*** يقابله في الإيرانية الهوما. وقد خضع الإله سوما لعملية توحد فيما بعد مع إله القمر وحصرت فيه السيادة على القمر والإشراف على نمو الغلال في الحقول الفسيحة ونمو الأجنّة في الأرحام الحيوانية والإنسية.

وهناك أيضاً الإله فارونا وهو إله ذكري كسائر الآلهة الأوائل في الفيدا، فهو المنظِّم للعالم وتعاقب الفصول الأربعة المتتالية، وهو ينظم أيضاً الحياة الاجتماعية والأسرية من خلال عيونه الكثيرة المنتشرة في كل الأنحاء حتى إنه في الخلوات وأثناء اجتماع اثنين يكون هو ثالثهما.

وإضافة إلى هؤلاء الآلهة هناك الإله «رودرا» الذي تحمل سهامه المرض وعرف أيضاً بإله الشفاء من المرض بواسطة الأعشاب إلا أن دوره بسيط جداً في الفيدا.

د. مؤسس الديانة الهندوسية

لا يوجد للديانة الهندوسية مؤسس معين، ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون فقد تمّ تشكل الديانة وكذلك الكتب عبر مراحل طويلة من الزمن وكما ذكرنا سابقاً فهو دين الطبيعة الهندية نفسها إلا أنه يمكن لنا تحديد هويته من أسفار شعرية موجودة في كتاب يدعى «بيداس» ويعود تاريخ كتابته إلى ٨٠٠ـ٥٠٠ ق.م. وعبر هذا الكتاب نشأ نظام الكهنوت وتم توضيح الناحية الفلسفية عن هذا الدين ومع تطور هذا الأخير تطورت فكرتهم عن الله الذي هو في نظرهم ليس شخصاً ولكنه جوهر ويطلق عليه: «براهما». في الحقيقة إن هذه العقائد والكثير غيرها من الأفكار الدينية لم تظهر بشكل واضح في كتابهم المذكور لكن الدارسين والمفكرين لهذا الدين هم الذين ابتدعوها لتتناسب. ومع هذه الأناشيد الشعرية والطبيعة الهندية.

هـ المذاهب الهندوسية

تحكم الديانة الهندوسية ثلاثة أمور هي: المذاهب أو الأنساق الستة (*Prashanas*) للمستويات العقلية والملاحم البوراناس (*Puranas*) التي تروي الأساطير ونظام الطبقات على صعيد السلوك الأخلاقي.

إنّ المذاهب العقائدية الستة تتضمن طرقاً تؤدي إلى الانعتاق والتحرر من العلائق المادية الأرضية ويمكن إدراج هذه المذاهب في ثلاثة أزواج وهي:

- نيايا وفيشيسكيا (*Nyaye. Vashesika*).
- سانخيا ويوغا (*San khya. Yaga*).
- ميمنسا والفيدانتا (*Mimansa. Vedanta*).

١.مذهب نيايا وفيشيسيكا:

يتضمن هذا المذهب مجموعة من الأفكار المنطقية، فهدفه الأول هو هداية العقل وتوجيهه نحو الصواب في القول والمعتقد. وواضع ومؤسس هذه القواعد هو جوناما (*Jonama*) الذي يهدف ومن خلال سعيه إلى بلوغ حالة النرفانا (*Nervana*) عن طريق التفكير الصحيح والواضح.

أما مذهب فيشيسيكا فهو شبيه بمذهب ديمقرطيس وهو صاحب المذهب الذري في الفلسفة اليونانية وواضع هذا المذهب هو كانادا (*Kanada*) الذي يعتبر

أن العالم ليس فيه إلا ذرات وفراغ، وعن اجتماع الذرات في الفراغ وجدت الأشياء ثم إن الذرات أزلية ومغايرة للروح.

وعند تعرف الروح على الذرات فإن الانعتاق والتحرر يتحققان تلقائياً.

٢. مذهب سانخيا ويوغا:

هو من أقدم المذاهب، وهذا المذهب يقول بوجود قوى «**جوناز**»(***Gunas***) ثلاث في الكائنات تسبب الخير والانفعالات والبلادة في الأشياء. أما لفظة يوغا فتعني «**النير**» والتي تشير إلى خضوع الإنسان لنير من نظامٍ تقشفيّ قاسٍ ليبلغ حالة الطهارة الكاملة من أدران المادة، كما أنّ لهذه اللفظة تفسيراً آخر مستمداً من أصلها اللغوي في السنسكريتية وهي تعني «**الاتحاد**» وتطلق على حياة الزهد والتصوف الساعية للتخلص من علائق المادة للاتحاد مع روح الكون المطلق. ويفرض مذهب اليوغا على أتباعه نظاماً رياضياً قاسياً من خلال حركات جسدية صعبة جداً تسمى هاتا يوغا (***Hata yogo***) وهذه العقيدة مشتركة عند جميع المذاهب الهندية لتحقيق هدفها السامي وهو الاتحاد بالآلهة.

٣. مذهب ميمنسا والفيدانتا:

أقام هذا المذهب مدرسة في تفسير الفيدانتا (***Veolanta***) وهو ما ميّزه عن غيره وهذه اللفظة تعني «**نهاية الفيدا**» ويقصد بها اليوبنشاد (***Upanshad***) أو الكتاب الذي يتضمن التراث الفلسفي الهندوسي حول الله والروح وبراهما. ومن أبرز شراح اليوبنشاد الفيلسوف الهندي شانكار[١] الذي خلص إلى وضع تصور «**للواحد الأوحد**» أو «**براهما**» أو «**الروح المطلق**» الذي تتحدث عنه اليوبنشاد.

---

(١) شانكار: ولد في جنوب الهند وعاش ما بين ٧٨٨-٨٢٠م وعرف عنه تجواله في بلاد الهند واستقراره أخيراً في مقاطعة كشمير. ويعتبر من عظماء فلاسفة الهنود.

٤. الكتابات المقدسة:

اندمجت معتقدات الشعوب والقبائل الوافدة إلى الهند مع معتقدات قبائل البلاد الأصليين وتشكل من هذا الاندماج عقائد وطقوس دينية خاصة وبناء ديني متكامل ومقدس، وقد حظيت هذه العقائد الدينية بقدسية وشرعية عند عموم سكان شبه الجزيرة الهندية، وقد وصلت القبائل الآرية إلى بلاد الهند في القرن السابع عشر قبل الميلاد إلا أن الأشعار الدينية التي اكتشفت تعود إلى ١٥٠٠ ق. م. وجميعها تشيد بمآثر الآريين المجتاحين للبلاد.

٥. اسفار الفيدا:

دونت الأشعار الدينية في أربع مجموعات حوالي القرن الثامن قبل الميلاد وهي جميعها تشكل ما يسمى بملحمة الفيدا وتعرف أيضاً باسم أسفار الفيدا وهذه الكلمة تعني المعرفة أو الحكمة، وسوف تكتشف من خلال هذه المجموعات مدى تطور العقيدة الهندوسية ورقي تصوراتها عن الآلهة والتغير الذي طرأ على القيم والمفاهيم الأخلاقية والاجتماعية.

المجموعة الأولى تشكل كتاب «ريفغيدا»[1] وهو من أقدم الكتب الهندوسية على الإطلاق فهو يحتوي على ١٢٨ نشيداً وأكثر هذه الأشعار تتطرق في حديثها عن التضحية والإقدام ويشكل هذا الكتاب وثيقة تاريخية قيمة ونادرة فهي أقدم وثيقة دينية وأدبية مدوّنة في العالم.

والريفغيدا كلمة سنسكريتية وهي تعني الفيدا النارية نسبة إلى النار وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: الأول عبارة عن كتابة نثرية تحتوي على أدعية وصلوات مع شرح مفصل لكيفية ممارسة بعض الطقوس الدينية. أما الثاني فيسمى براهمانا وهو يحتوي على تعاليم تتعلق بناحية تنظيم العبادات والواجبات الدينية المفروضة على التابعين.

---

(١) « ريفغيدا» «*Rigveda*» أو «ريج فيدا» أو المعرفة الملكية وهو ساما فيدا *Sama-veda* أو السمهيتا *Samhitas*.

المجموعة الثانية تدعى السمهيتا أوساما فيدا[1] ويصل عدد أشعارها إلى حوالي ٥٨٥ تصلح للإنشاد والترتيل. وهذه التسمية تعني الفيدا الشمسية (نسبة للشمس) وينقسم بدوره إلى قسمين: الأول يدعى منترا ويحتوي على أناشيد ومزامير تغنى في بعض المناسبات. أما الثاني فيدعى برهمانا ويشتمل على أشعار تشرح العبادات والواجبات الدينية.

المجموعة الثالثة وتسمى ياجورا فيدا وهي الفيدا الهوائية (نسبة إلى الهواء) وتنقسم بدورها إلى قسمين: يطلق على الأول ياجورا فيدا البيضاء أما الثاني فيسمى ياجورا الفيدا السوداء ويعرض هذا الكتاب لمختلف أنواع التضحيات التي تقام عن أرواح الموتى، أو تضحيات النار والبدر والهلال وسائر الكواكب.

المجموعة الرابعة وتدعى أثارفا فيدا ويعود أصله إلى الأثارفيين وهم كهنة كانوا يعبدون النار وهي تنقسم إلى قسمين القسم الأول يسمى «**تترا**» ويشتمل على أدعية وصلوات للاستغفار والرجاء ورُقى ضدّ السحر. أما القسم الثاني فيسمى «**برهمانا**» ويحتوي على مجموعة من شرائع الديانة البرهمانية. وقد كتبت هذه السلسلة في الفترة الممتدة من ٨٠٠ ق.م. إلى ٦٠٠ق.م. وهي تركز على شرح الترانيم وتطبيقاتها العملية في المناسبات وإقامة الطقوس الدينية. وإلى جانب هذه السلسلة هناك سلسلة أخرى تتألف من كتاب أرانياسكا ***Aran- yakas*** وتسمى أيضاً (نصوص الغابة) وهو كتاب يقدم إلى المسنين الذين تركوا أهلهم وانصرفوا لقضاء بقية حياتهم في النسك والعبادة.

أما اليوبنشاد وهو أحد كتب هذه السلسلة فيعني «**الجلوس بالقرب من المعلم**» ويحتوي على ١٠٨ من محاورات جرت بين المعلّم وتلاميذه وقد ساهم في تأليفه مجموعة من الكهنة والقديسين وقد دوّنت ما بين ٦٠٠ ق. م. و٣٠٠ ق.م.

---

(١) ساما فيدا ***sama-veda*** أو السمهيتا ***Samhitas***.

و. الملاحم والأساطير الهندوسية

تحتل الملاحم الهندوسية منزلة القداسة وهي الركيزة الأساسية للكتب العقائدية ومن أهم هذه الملاحم الهندوسية:

- المهابهارتا ***Mahabharta***.
- غيتا ***Gita***.
- يوغا فستي ***Yogavasisthe***.
- رامايانا ***Ramayna***.

جميع هذه الملاحم هي ملكية عامة لجميع المذاهب الهندية.

١. ملحمة مهابهارتا:

تعتبر هذه الملحمة من أهمّ الملاحم الهندية ولها شهرة واسعة عند الهنود وهي تضاهي من حيث المرتبة الإلياذة والأوديسة عند الإغريق، والملحمة هي عبارة عن قصيدة عدد أبياتها كثيرة أكثر من ألف بيت من الشعر.

أسّس هذه الملحمة مهابهارتا «**وياس**» ابن العارف الكبير «**برسرا**» ودوّنها «**كنيتي**» تلميذ وياس عام ٩٥٠ق.م. وقد تولى نشرها «**سوتا**» حيث اهتم اهتماماً خاصاً بها من ناحية تدريسها ونشرها وهو الذي وضع افتتاحيتها والتي جاء فيها «**إنني أوفر حظاً وأسعد طالعاً بإبلاغي إليكم رواية مهابهارتا التي وصفها «وياس»**

ليعلمكم الدين الإنساني ويرشدكم إلى الحياة وغاياتها، وقد سمعت رواية مهابهارتا بجوهرها والقصص الاستطرادية المشتملة عليها.

ثم بعد ذلك حدث أن قمت برحلة طويلة زرت فيها الأماكن المقدسة وزرت ساحة القتال التي دارت فيها رحى الملحمة الكبرى التي تتحدث عنها وتصفها هذه الأنشودة».

لقد كانت غاية «**وياس**» من وضع هذه الملحمة تعليم الدين الإنساني من خلال طرح بعض الإرشادات عن الحياة وغاياتها ومن هنا اتخذت هذه الملحمة مكانتها العالية في نفوس سكان البلاد الهندية وأصبح باستطاعة أي هندي تعلمها مهما كان انتماؤه الطائفي أو العرقي.

تصف هذه الملحمة صراع ومقتل الأخوين بندافاس ***Pandavas*** وكورافاس ***Kauravas*** والتي جرت أحداثها في مملكة هستنابور حيث اشترك فيها جميع ملوك الهند وقد سجّلوا انتصاراً عظيماً.

وسبب هذه الملحمة يعود إلى أن الملك في «**هستنابور**» كان له ولدان «**دهري تاراشترا**» وهو الولد الأكبر الذي تنحّى عن سدة الحكم بسبب إصابته بالعمى فتولّى أخوه الأصغر «**بندا**» الملك. إن هذا الأخير اقترف ذنباً كبيراً فحُكم عليه بالنفي إلى الصحراء التي انتقل إليها مع زوجته وأثناء تطبيق باندا لقرار النفي آل المُلك إلى أولاد أخيه الذين أطلق عليهم اسم «**كورا**».

توفي «**باندا**» في منفاه تاركاً وراءه خمسة أولاد تحت رعاية نساك الكهوف. وبعد أن أنهى أولاد «**باندا**» تحصيلهم العلمي ودراستهم الديانية وبعدما تعمّقوا في فهم الفيدا والكتب المقدسة عادوا من جديد إلى مملكة أبيهم مطالبين بالعرش إلا أن الكورا لم يستجب لطلبهم وناصبهم العداء وأجلاهم عن الحكم ممّا أدّى إلى نشوب القتال بين الباندا والكورا. ولحلّ هذا النزاع اقترح على الفريقين الاشتراك في لعبة النرد بحيث يكون الملك من نصيب الرابح، وبسبب خسارة الباندا في اللعب حكم عليهم بالنفي مجدداً إلى الصحراء ولمدة ثلاثة عشر عاماً وبعد انتهاء هذه المدة عاد الباندا مجدداً إلى هستنابور وطالبوا

بحقوقهم. إلا ان «دريودهن» الملك المنتمي إلى الكورا رفض طلبهم فنشبت الحرب مرة ثانية بين الفريقين والتي أسفرت عن فوز الباندا وهزيمة الكورا، وهكذا عاد الحق إلى الباندا.

وقد تضمنت هذه الملحمة إضافة إلى ما تقدم الكثير من المعتقدات والآراء والقيم الهندوسية، وقد وردت روايات كثيرة أشارت إلى وجود أحداث وحروب جانبية وصراعات بين الآلهة. ولهذه الملحمة ميزة أساسية تمثلت في احتوائها على أسماء كثيرة لآلهة الهندوس لدرجة أن صاحب كل مذهب يجد في الملحمة ما يعجبه من الآلهة.

ولا بدّ لنا من التوقف هنا عند بعض الأحداث التي تضمنتها ملحمة مهابهارتا والتي لخصها الدكتور أحمد شبلي: إن الحرب وقعت بين الآلهة وجماعة **«أسورا»** وعلى رأس كل فرقة كان هناك قيادة حازمة تتولى تدبير المكائد والحيل لتحظى بالفوز والنصر. وكان «برهيستي» واحداً من هؤلاء القادة، وقد امتاز بخبرته بالكتب المنزلة ومعرفته بأسرارها. أما القائد **«سوكرا جاريا»** فهو الخبير المحنّك وقد تولى قيادة **«أسورا»** وتميز بقدرته على إحياء من يموت من جماعته وهذا ما مهّد له الانتصار على الآلهة[1].

إزاء ذلك اضطرت الآلهة وبسبب خسارتها إلى طلب المساعدة من **«كاجا»** الذي اعتزل القتال، طالبة منه التعرف على سر إحياء الموتى من **«سوكرا جاريا»** فوافق على طلبهم وتوجه إلى سوكر قائلاً له: قصدت إليك لأتلقى دروس الحكمة والعرفان تحت وصايتك، فقبل سوكر طلبه وجعله واحداً من تلامذته وكان لسوكر ابنة جميلة اسمها «ديوناتي» وكان كاجا يقضي معها معظم أوقاته فأحبته وتعلقت به، وقد انعكس هذا الأمر سلباً على جماعة أسورا حيث تخوفوا من أن تؤدي هذه العلاقة إلى امتلاك كاجا لسر **«سن جيوني»** فيصبح بالتالي قادراً على إحياء الموتى فدبروا حيلة للقضاء عليه. الحيلة الأولى تمت عبر استدراج كاجا إلى المراعي مع قطيع أستاذه، إلا أن طول انتظار **«ديوناتي»** لحبيبها ونفاد

(١) نقل ترجمتها أحمد الشبلي في مقارنة الأديان، ص ٨٦.

صبرها وكثرة الآلام التي أصابتها بسبب فراقه كانت وحدها من الأسباب التي دفعت والدها للإعفاء عن كاجا ورده إلى الحياة.

قامت بعد ذلك جماعة أسورا بحيلة جديدة فقتلت كاجا وأحرقت جثته وألقتها في البحر وعندما بلغ الخبر ديوناني أسرعت إلى والدها طالبة منه أن يعيد الحياة إلى كاجا فلبى رغبتها. ولم تكتف جماعة أسورا بحيلها المتقدمة بل واصلت مكائدها وقتلت كاجا وأحرقت جثته ووضعت رمادها في كأس خمرة وقدمته إلى سوكر فشربه وهذه المرة أيضاً طلبت ديوناني من والدها إنقاذ حبيبها وإعادته إلى الحياة ولما حاول سوكر إعادته تحرك كاجا في بطنه عندئذ أخبر الوالد ابنته بأن حياة كاجا تحتم موته هو، هنا احتارت الفتاة بين أبيها وحبيبها وأيهما تختار؟

إلا أن سوكر وجد الحل الصحيح وهو تعليم كاجا سر «سن جيوني» وهي العملية التي تعيد الحياة للميت من جديد، وقد نفّذ بعد ذلك كاجا ما طلبه منه سوكر، وعندما عادت الحياة لسوكراجاريا انحنى التلميذ أمامه وقال له: إن الشيخ الذي يعلم التلميذ الساذج يصبح بمقام الوالد فأنت قد علمتني وأصبحتَ والدي وبما أنني قد خرجت من أحشائك فقد أصبحت بالنسبة لي بمثابة الأم. ولعلّ في هذا الموقف إجلالاً لوفاء جاكا وعرفانه بجميل أستاذه لما قدّمه من حكمة ومعرفة بسر «سن جيوني».

٢. غيتا *Gita*:

تشيرالروايات إلى أن مؤلف غيتا هو كرشنا أحد القديسين الهندوس. وقد تناولت هذه الروايات جانباً من الجوانب التي اهتمت بها ملحمة مهابهارتا فتناولت سيرة البطل «أرجنا» إلا أنها لم تهتم بالجانب الخرافي والأسطوري بل ركزت على الجوانب الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية. وتشكّل هذه الملحمة إحدى الروافد المهمّة لفهم العقيدة الهندوسية والجوانب الفلسفية والاجتماعية في ذلك العصر والثقافات الشعبية والمعتقدات الدينية وكيفية ممارسة الطقوس

والآراء العامة حول الحياة والموت، كمّا أنها تنتقد في الوقت نفسه عبادة الجنّ والعفاريت والمبالغة في تقديس الأسلاف وسلوك الزهد المبالغ فيه. وأهم المقاطع التي تضمنتها غيتا الحوار الذي جرى بين القائد البطل أرجنا والفيلسوف كرشنا عند بدء القتال بين الحزبين المتحاربين رغم انتمائها لعائلة ملكية واحدة، وفيما يلي بعض ممّا جاء في الحوار:

قال أرجنا للحكيم كرشنا: «**سيدي أرى أمامي أقاربي الأعزاء وأصدقائي القدماء ففيهم الأخ وابن الأخ والخال وابن الخال والعم وابن العم. فيهم الأبناء والأحفاد وفيهم الشيوخ الذين نشأت على تبجيلهم، أراهم أمامي وقلبي يرتعد ويدي ترتعش وأشعر بحلقومي كأنه قد جفّ فهل يليق بي أن أحارب هؤلاء الأحبّاء الأعزّاء والأسلاف الأجلاء؟ كلاّ لأني إن حاربتهم أحرم من راحة البال أبداً، إنّ حياة الذّل والفقر خيرٌ من النصر الذي أناله بقتلهم. أجل لا يحلّ لي قتلهم وإنهم لو قتلوني لا أرضى برفع يديّ عليهم، لا ريب أنّهم ظالمون ومع ذلك لا يطاوعني قلبي في قتالهم، ثمّ إني إن حاربتهم فنيت أسرتنا العريقة في المجد بأسرها وبفنائها تفنى سائر عاداتها وتقاليدها وإذا ذهبت هذه الأخيرة فما الذي يمنع البقية الباقية منها ولا سيما النســاء من الضلال والغواية؟ فينتشر الشّر وتعمّ الفتنة في النساء وبفساد النساء تختلط الأنساب وتزول فروق المراتب البشرية، إن هذا الشّر مستطير وهو ما ينتج من هذه الحروب وسفك الدماء**».

«الذين يتحاربون ويسببون هذا الفساد، لا بدّ أن يجازوا بالجحيم وليس هؤلاء وحدهم الذين يصلون بالنار،بل يدخلها أسلافهم أيضاً لأنهم فقدوا أخلافهم الذين عليهم أن يقدموا لأرواح الأسلاف ما يجلب لهم الراحة والسعادة. وهكذا تفنى الرسوم والعادات وهكذا يذهب الدين

فيصير نسياً منسياً ونحن ما زلنا نسمع أنّ الذين كانت حالتهم هكذا يدخلون الجحيم الأبدي. ولذلك فمباشرتنا الحرب إثمٌ ليس فوقه إثم».

أجاب كرشنا: «**إنّ خورك (ضعفك) يا أرجنا، في هذه الساعة الرهيبة لعارٌ ليس فوقه عارٌ، وأنت لن تجد بعده راحة البال طول حياتك وسيكون ذلك سمةً**

سوداء على جبينك لا يمحوها الدّهر أبداً. أيّها البطل الشجاع، ما هذا الجبن الذي لا يليق برجلٍ مثلك، وطّد نفسك على الحرب وسر إلى النصر الذي ينتظرك».

قال أرجنا: «كيف يحلّ لي أن أحاربهم وأنا أرى فيهم أساتذتي وأعمامي وأخوالي الذين يجب عليّ احترامهم، أليست حياة التسوّل خيراً من الملك الذي أناله بقتلهم» ابتسم كرشنا من كلام أرجنا، وقال له: «تتكلّم بكلام العقلاء، ثم أراك تهتم بما لا يهتم بهم العقلاء ألا تعلم أن العاقل في مثل هذا الموقف لا يبالي بالحياة ومصيرها؟ هل تظن أنني أنا وأنت وجميع هؤلاء الملوك، وسائر هؤلاء الناس، وُجدوا بعد أن لم يكونوا شيئاً؟ هذا ما لا يقوله عاقل، وسيبقى موجوداً دائماً، وكما ترى الحياة تطرأ عليها الطفولة والشباب والشيخوخة، كذلك تنتقل الروح من جسدٍ إلى جسدٍ آخر وهذا التنقل هو الذّي نسميه بالموت ولذلك فإن العقلاء لا يزعجهم الموت».

«يا أرجنا إن الألم واللذة مناطهما المشاعر التي مآلها إلى الفناء فلا ينبغي لك أن تقيم لها وزناً والذي يرتفع فوق الألم واللذة هو الذي ينال السعادة الدائمة والنجاة الأبدية. لا يمكن أن ينعدم ما هو موجود ولا يمكن وجود شيء من العدم عليك بهذه المعرفة».

«يا أرجنا يفنى الجسم ولا فناء للروح فالروحُ ليس لها بداية ولا نهاية فعليك يا أشجع الشجعان أن تبعد الأفكار الباطلة عن نفسك وأن تتأهب للقتال لأنّ واجبك هذه الساعة هو القتال».

«أكرر لك يا أرجنا إن الروح لا يموت ولا يزول. إنّه خالد لا النار تحرقه ولا الماء يغرقه ولا السلاح يقطعه. هو دائماً على حالة واحدة لا يقبل التغير والتبدل وإن كنت في ريب مما أقول وترى الروح كالأجسام يموت ويولد، فبالأحرى أن لا تتأخر عن الحرب لأن الذي ولد لا بدّ من أن يموت والذي مات لا بدّ من أن يولد مرة أخرى فإن كان هذا مقدراً لا مناص منه فلم هذا التردد منك؟ إن هؤلاء الذين تراهم لم يكونوا في الماضي ولا يكونون في المستقبل. إنهم أبناء الحال لا غير فلمَ

تبكي لهم وتهتم بهم؟ إن الحياة سر تحيرت منه الألباب ولكن لا يفهمه أحد»[١].

وتابع كرشنا: «**لقد أضلتك كلمات «الفيدا»** فصرت لا تفهم قيمة الغرض وما يتبعه من الواجبات والذين يتمسكون بألفاظ الفيدا وحدها ويرون فيها كل شيء يركبون شططاً (غلطاً). إنهم إنّما يجرون وراء أهوائهم النفسية، يمنّون أنفسهم بالجنة لأنّهم حريصون على لذائذ الحياة، فيقومون بطقوس يرونها تضمن لهم الجنة. ولذلك تبلبلت عقولهم وتشعبت سبلهم وضلت أعمالهم فهم في حيرة وارتباك يجرون وراء شهواتهم ولا يستطيعون حصر أفكارهم في نقطة واحدة».

ويسأل أرجنا: كيف للمرء أن يجمع عقله؟

ويجيب كرشنا: «إن الذي تغلب على أهوائه النفسية، وملك حواسه كلها لا يخاف شيئاً ولا يطمع في شيء ولا يحب أحداً فهو الذي نال العقل وجمعه. إن الحواس تتبع ميولها فعلى المرء أن يجذب قبضة حواسه من مشتهياتها كما تجذب السلحفاة أطرافها إلى بعضها. أجل إن النفس لطاغية جامحة إلا أنه يجب السّعي لضبطها وتحويلها إلى الله فالذي لا علاقة له بشيء ولا يخاف شيئاً ولا يطمع وحواسه تحت أمره فهو مطمئن حقاً، وإن كان يفعم بأعمال الحياة الدنيا كغيره من الناس، أما العمل الحقيقي فهو التحرر من سلطة النفس فمن تحرر منها، فقد فاز بالطمأنينة الحقيقية واهتدى إلى الله وفاز بالنجاة»[٢].

سأل أرجنا: إن كانت النجاة لا سبيل إليها إلا بالتغلب على الحواس وقهر النفس فلماذا نهتم بأمور الناس؟

أجاب كرشنا: «إنّ الذّي يتجرد من الدنيا بترك واجبه لا يصل إلى الكمال أبداً والأعمال التي تأسر الإنسان هي التي يقوم بها لإرضاء نفسه لا لأجل المصلحة العامة. فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية منزّهة في أهواء النفس وما عاشت

(١) يريد كرشنا في هذا المقطع البرهنة على روحانية النفس وتمايزها عن البدن أي اعتبار طبيعة الروح غير طبيعة البدن ومصيرها غير مصيره والقول بثنائية الإنسان أي أنه مؤلف من جوهرين اثنين «النفس والبدن» وهي نظرية سيقول بها سقراط فيما بعد.

(٢) ترجمة، الشلبي أحمد، «مقارنة الأديان»، ص: ٩٠-٩١.

هذه الدنيا إلا بمثل هذه الأعمال النبيلة المنزّهة والذي يطبخ الطعام ليأكله وحده لآثم وإذا أكل فلا يأكل إلا إثمه، والذي لا يهتم بمصلحة غيره فهو سارق والذي يحيا لإرضاء حواسه فحياته كلّها إثم، ليس لأحد أن يسخر غيره لإشباع ميوله، وإنّما الطريق إلى الله أن تكون الأعمال خالصة له ولنفع خلقه».

وسأل أرجنا مرة أخرى: هل من الأفضل للإنسان: التجرد من الدنيا ومراقبة النفس أو تطهير النفس مع التعلق بأمور الدنيا؟

أجاب كرشنا: «إنّ الذين يفرّقون بين الطريقتين أطفال لا يعقلون، أمّا العالم العاقل فلا يفرق بينهما والإنسان يصل إلى الكمال بأيّ طريق سلكه إن قام بشروطه حقَّ القيام. والذي يرى الطريقين سبيلاً إلى المقصود فهو المصيب».

«والناسك الحقّ هو الذي لا يبغض ولا يشتهي شيئاً ولا يرى غير الله شيئاً إنه يجري وراء واجبه دائماً قد طهّر قلبه وتغلب على حواسه فنفسه في قبضة يده لا تنازعه ولا تحيد به عن الصواب وهو يرى جميع الأرواح كروحه ولا يفرق بينهما ولا يقصد بعمله إلا وجهه تعالى وحده». ثم سأل أيضاً أرجنا: **«أليس قهر النفس الأمّارة كما تقول من أصعب الأمور؟»**.

أجاب كرشنا: «أجل يا عزيزي إنه من أصعب الأمور، لا يكون قهر النفس إلا بصدق النية والتمرين والرغبة عن لذائذ الدنيا والذي حرّم قوة الإرادة والعزيمة فلا يتمكن من قهر نفسه ولا ينال النسك، والشرائع الظاهرية والطقوس الرسمية، لا تنفعه بشيء. إنّ مجرد الرغبة في هذا السلوك يُغني المرء عن الفيدا وعن شرائع الفيدا. هذه الرغبة تجعله فوق كل هذا، ومن سعى مع هذه الرغبة سعياً صادقاً، وإن كان قليلاً ينتفع به، وإن اضطرب قلبه ولم ينجح في النسك كل النجاح لأن طريق التقدم الروحي ينفتح أمامه يسلكه إذا وطدّ عزمه».

والعارف الذي يعبد الله يرى الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة وأينما يتجه بوجهه يرى وجه الله الحي الذي لا يموت والرّب الذي به يقوم كل شيء»[1].

---

(١) نقل ترجمتها أحمد الشلبي في مقارنة الأديان، ص: ٩٠-٩٣.

٣. يوغافاسستي:

يوغافاسستي (*Yogovasisthe*) قصيدة طويلة تتألف من أربعة وستين ألف بيت من الشعر المنظوم، قيل إن مجموعة من الشعراء شاركوا في تنظيمها وتعود أحداثها إلى القرن السادس الميلادي. ويصف القديس الهندوسي «ترثها» (*Tirtha*) هذه القصيدة قائلاً: إن أعظم وأنفع كتاب ألف تحت السماء هو بلا ريب كتاب يوغافسستي الذي يسمح لمن يقرؤه من أن يعرف نفسه ومن عرف نفسه عرف ربه».

ويتضمن هذا الكتاب عدة مسائل في الفلسفة واللاهوت جرّت على شكل حوارات بين تلميذ اسمه راما *Rama* وأستاذه، حيث يعرض راما هواجسه والأسئلة التي تدور في خلده حول الجسد والحياة والألم واللذة إضافة إلى الروابط الاجتماعية ثم بعد ذلك يتولى الأستاذ الإجابة على هذه التساؤلات بأسلوبٍ إقناعيّ وواعٍ. كما وتحدّث راما عن هذه الهواجس قائلاً:

«جرّبنا مراراً وتكراراً أنه لا يمكن أن ننتظر سعادةً حقيقيةً دائمةً من حياتنا هذه تيقّنّا ذلك ولا نرتاب فيه ومع هذا يسوقنا الهوى إلى أن نأمل من هذه الحياة كل سعادة «.

«اتصفت الطفولة بالضعف والعجز وعدم القدرة على الكلام والتّجرد من العلم والرغبة فيما لا ينال والتقلب الفكري وقلة الحيلة ترى ماذا يجود علينا به الزمن الذي تسميه الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تخطف أبصارنا ثم لا تلبث أن تختفي؟ وتجيء بعدها الشيخوخة بآلامها القاسية. تبدو النساء جميلات فاتنات لفترة من الزمن فقط وذلك أيضاً للذين على أبصارهم غشاوة من الجهل وإلا فالحقيقة التي لا مراء فيها أنه ليس في أجسادهن شائبة من الجمال وإنّما هو جهلنا الذي يخدعنا فيظهرن لنا كأنهن جميلات».

يتّضح ممّا تقدم أن الهواجس التي تعبر عنها هذه المقاطع تتعلق على ما يبدو بأمور الجسد والمراحل الثلاث التي يمرّ بها الإنسان (الطفولة – الشباب – الشيخوخة) وما تتضمنه من متاعب، وفتنة النساء الخادعة.

وقد أجاب الأستاذ العالم عن هذه الهواجس قائلاً: «إنّ علّة سائر الآلام والمصائب هي تريسنا (*Trisna*) أي الرغبة في المآرب الدنيوية. هذه الرغبة شبيهة بلدغة الحيّة السّامة التي تقطع كالسيف البتّار، وتنفذ كالرّمح الحاد وتحرق كالنار وتطحن كالرحى الثقيلة ونحن نفتتن بالحياة لأننا نجهل فطرتنا الحقيقية وماهية الدنيا. فإذاً، الجهل هو علّة العلل لسائر الآلام. إنّ منبع جميع الشرور هو قلّة العلم وأحسن دواء لمعالجة ذلك هو الوصول إلى الحكمة وهذه الأخيرة لن تُنال سوى بالسّعي والجهد لأن العلم لا ينزل علينا بنفسه فليس هناك سوى شيء واحد اسمه الحظ أو القضاء والقدر بل على العكس نستطيع أن نصنع قدرنا بجهدنا وهذا ما يساعدنا على التخلص من الشقاء المحيط بنا فالذين يتكلمون عن القضاء والقدر ولا يسعون بأنفسهم هم أعداء أنفسهم وهم الجهلة والكسالى، فإذا كان هناك شيء اسمه الحظ فهو أعمالنا الماضية ومن أجل هذا يجب على كل واحد منّا أن يسعى بعزم ثابت ليحقّق ما يريد وأول ما يطلبه الطالب الباحث هو الحق في كلمات أربع هي:

١. **الطمأنينة**: ومعناها أن يصفو قلب المرء من كلّ كدر.

٢. **القناعة**: ومعناها ألا يرغب المرء في شيء ولا يعادي شيئاً فالحكمة لا تنزل على العقل الذي استعبدته الأهواء والرغبات.

٣. **مصاحبة الحكماء**: لأنها تزيل الظلمات عن القلب.

٤. **التأمل العميق**: لأنه الوسيلة إلى الحق.

فإذا توفرت هذه الصفات يصبح هذا الطالب بشوشاً منشرح الصدر يعامل سائر الناس بالحسنى ولا يشعر باليأس ولا بالكبر ولا بالاضطراب الفكري كله عطف وحنان وحب، يشعر بالابتهاج في جميع أحواله حتى في شيخوخته وعجزه وموته، فحياة الشخص المتحرر أنبل حياة وأشرفها والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته»[1].

---

(١) ترجم هذه المقاطع الدكتور أحمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان ص٩٤-٩٧، وذلك عن الفيلسوف أتريا.

٤.ملحمة رامايانا:

وهي قصيدة أسطورية تروي حكايات عن بطولات الملك راما ملك أيودا، ولـم يحدد لهذه الملحمة أي تاريخ وكذلك لم يرد أي ذكر عن مؤلفها إلا أنّه من المؤكد أنّها كتبت قبل ملحمة مهابهارتا.

تهتم هذه الملحمة بالأمور السياسية والقانونية والدستورية. ومن أهمّ المقاطع التي وردت في هذه الملحمة الخطبة التي ألقاها «**داسارتها**» ملك الهند أمام مجلس الشورى عندما أحسّ بدنوّ أجله آملاً من وراء ذلك كسب تأييده في تعيين ابنه راما ولياً للعهد. وأبرز ما جاء في هذه الخطبة: «**اخترتموني ملكاً وقد بذلت كلّ جهدي في القيام بواجباتي نحوكم وهآنذا قد بلغت من الكبر عتيّاً ويحتم علي واجبي أن أصارحكم بأن أعباء المُلك فوق مقدرتي الآن وأراني أضعف من أن أتحملها وهذه الأعباء تحتاج إلى رجل أقوى مني جسداً وعقلاً. وإنكم لتعرفون** «راما» ابني ولا تخفى عليكم مزاياه التي تؤهله ليكون ولي عهدي وينوب عني ما دمت حياً ويخلفني بعدي ويخدم شعبه كأبيه. هذا رأيي أنا ولكم الحرية التامة في قبوله أو رده، فإن قبلتموه فذاك ما أريد وإن رفضتموه واخترتم رجلاً غيري فإني أنزل على إرادتكم وأقبل قراراكم بطيب نفس، لأن غايتكم وغايتي واحدة هي خدمة الشعب وخير البلاد».

كان هدف داسارتها من هذه الخطبة إيصال رأيه الخاص حول غاية الملك، ألا وهو «**خدمة الشعب وخير البلاد**» والرفع من قيمة الحياة الديمقراطية القائمة على الشورى وعدم التسلّط والانفراد بالقرار السياسي وهذا ليس من طبيعة الملك في شيء». وقد ترك داسارتها بعد ذلك الأعضاء يتنافسون حول تنصيب «**راما**» ولياً للعهد، وبعد الموافقة على تنصيبه من قبل مجلس الشورى صدر قرار من قبل المجلس نفسه يقول بأن تنصيبه ملكاً لا يكون إلا إذا سار على خطى أبيه في الحكم وإدارة الشؤون العامة في البلاد. وقد علّق داسارتها بعد ذلك قائلاً:

«**لا يوجد العدل إلا بالحق ويجب أن يكون الحق محضاً صريحاً لا تشوبه شائبة في الكذب والباطل وأعضاء هذا المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون**

ساكتين هم أكثر الكاذبين شراً، والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الذاتية خوفاً من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون في نار جهنم»[١].

وعقائد الهندوسية:

أهم العقائد في الديانة الهندوسية أربع وهي:

١. الكارما.

٢. تناسخ الأرواح أو تجوال الروح.

٣. الانطلاق.

٤. وحدة الوجود.

وسنطلع فيما يلي على رأي الهندوس حول هذه المعتقدات الأربع:

١. الكارما:

يقول البروفسور أتريا: إنّ الشهوة هي أقوى عامل في حياتنا لكن شهواتنا تؤثر على الآخرين فنحن في أعمالنا التي نفرض بها الشهوات نحسن إلى الآخرين أو نسيء فلا بدَّ أن ينطبق علينا قانون الجزاء المسيطر على حياة سائر الأحياء الحرّة في الكون، وقانون الجزاء يسمى في اللغة السنسكريتية (***Karma***) وليس لأحد أن يتملّص منه.

وجميع أعمال البشر الاختيارية المؤثرة في الآخرين سواء أكانت خيراً أم شراً لا بدَّ من أن يجازى عليها بالثواب أو العقاب وفقاً لناموس العدل الصارم، فنظام الكون إلهي قائم على العدل المحض، وإن العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل، وإن في الطبيعة نوعاً من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء. وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله ويكون الجزاء في الحياة.

إلا أن الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أن الجزاء قد لا يقع، فالظالم لا ينتهي دون أن يقتص منه، والمحسن قد ينتهي دون أن يحسن إليه ولذلك

(١) ترجم هذه المقاطع الدكتور أحمد شلبي وأثبتها في كتابه «أديان الهند الكبرى» ص٩٧ – ٩٩.

لجؤوا إلى القول بتناسخ الأرواح ليقع الجزاء في الحياة القادمة إذا لم يتم في الحياة الحاضرة.

أما فلسفة اليوغا فتحاول تقريب موضوع الكارما إلى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعاً لما وضعنا لها من أسباب بما قدّمنا من أعمال وهذا يشبه ما يقال عندما تقع مصيبة على شخص فإننا نقول: «**من عمله**»: إذاً، الجزاء من جنس العمل.

٢. تناسخ الأرواح:

يطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيراً اصطلاحياً آخر هو «**تجوال الروح**» والتناسخ يعني رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي في جسم آخر.

وسبب هذا التناسخ عائد لسببين الأول: أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد، والثاني أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بدَّ من أدائها فالميل إذاً يستلزم الإرادة والإرادة تستلزم الفعل في هذا الجسد وإن لم يصلح هذا ففي جسد غيره، وإذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما زالت الذنوب، ولم يرتكب الإنسان إثماً ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب نجت روحه وتخلّصت من تكرار المولد وامتزجت بالبراهما سواء كان الاكتمال في جسد واحد أو أجساد متعددة. نذكر أن من الشروط اللازمة لتجوال الروح، أن الروح في عالمها الجديد لا تذكر شيئاً من عالمها السابق، فكل دورة منقطعة تماماً بالنسبة للروح عن سواها من الدورات وهنا تلتقي الديانة الهندوسية مع الأديان السماوية في جانب ولكنها سرعان ما تبتعد عنها منقطة الالتقاء. هي خلود الروح وحسابها على ما قدمت ولكن الأديان السماوية ترى الروح كائناً مستقلاً بجسم فهو يحاسب على ما ارتكب مع هذا الجسم ويتم الحساب بعد أن يعترف الإنسان بأخطائه كافة.

هذا وقد تسرّب القول بالتناسخ إلى قلة من المسلمين. يقول ابن حزم: افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت وهذا قول أحمد بن حافظ وأبي سلم الخراساني ومحمد بن زكريا الطبيب الذي صرّح بذلك في كتابه الموسوم «**العلم الإلهي**». وقد قال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه البتة.

٣. الانطلاق:

إن معنى اكتمال الميول والشهوات هو توقفها وتغلب الإنسان على نفسه بحيث لا يبقى له شهوة ولا ميل بل يقنع بما حصل عليه ولا يتطلب مزيداً فإذا تمّ ذلك مع انقطاع عن الأعمال وعن علائق الدنيا وما فيها من ملاذ وعصيان تلك التي تستلزم تكرار المولد، إذا تمّ له ذلك نجا من تكرار المولد وامتزج ببرهما وهذه الحالة هي التي يعبرون عنها بالانطلاق الذي يعني الامتزاج ببراهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق في دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى وهذا الانطلاق لا يكتسب بالأعمال لأن الأعمال الصالحة يجازى عليها الإنسان عن طريق الميلاد المتكرر كالأعمال الشريرة تماماً.

٤. وحدة الوجود:

هذا المبدأ وثيق الصلة بالمبادئ السابقة بل يمكن القول إن هذه المبادئ كلّها وثيقة الصلة بعضها ببعض كان الناس يؤمنون بأن في العالم قوّة عظيمة يلزم التقرب لها بالعبادة والقرابين وكانت هذه القوة تسمى «**براهما**» وفي مرحلة تالية لم تعد القرابين المادية ضرورية بل حلّ محلها مراقبات على ظواهر كونية تخيلها

الناس ضحايا وذلك كالشمس والنار والهواء وفي مرحلة ثالثة راقب الإنسان نفسه وتصورها قرباناً يوصل إلى «براهما» وفي مرحلة رابعة تجردت المراقبات عن تصور القرابين بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنهم القوّة الكامنة العالمية المؤثرة ثم وصلوا في التمثيل إلى العينية وأذعنوا أن النفس الشخصية هي عين القوة الحيوية العالمية أو البراهما فصار المفكّر والموضوع الخارجي شيئاً واحداً.

وفي فلسفة الهند الأخلاقية المسماة «**ويدانت**» وردت العبارة التالية: هذا الكون كلّه ليس إلا ظهوراً للوجود الحقيقي الأساسي وإن الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، إن الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصلية وإن الجبال والبحار والأنهار.. تفجر من ذلك الروح المحيط الذي يستقر في سائر الأشياء. وهذا التفكير هو ما قال به سانكرا (***Sankra***) في القرن الثامن الميلادي إذ وضح فلسفة الهندوس في وحدة الوجود وحاول أن يدلّل على رفض الازدواج وأن الروح الإنسانية هي جزء من الروح العالمية.

ز. شعائر وعبادات الهندوس الطهارة

هناك أماكن عديدة في الهند يطغى عليها طابع القداسة ويعود ذلك إلى التراكم عبر السنين، ويعتبر نهر الغانج من الأنهار الأكثر قداسة وفيه يلقون رماد موتاهم بعد حرق جثثهم وهناك من يقول بأن نهر الغانج ينبع من تحت قدمي الإله الحافظ «فيشنو» وبما أن للماء فوائد عديدة للبشر فقد اعتمد الهندوس الماء العامل الأساسي في الطهارة.

ونجد أنّ طقوسهم في الطهارة بواسطة الماء بعضها متفق مع ما جاء في الشرائع السماوية، فالجنابة عندهم يتمّ التطهر منها بالاغتسال بالماء كما جاء في نصوص كتابهم منوسمرتي «**إذا ما خرج المني من الإنسان فإنه يتطهر بالغسل**».

وبالنسبة للمرأة كذلك تغتسل بعد الحيض، وأمّا بعد الإجهاض وإسقاط الحمل قبل أوانه فالواجب معرفة كم من الأشهر مضى على حملها بحيث تقوم بالتطهر بعد عدة أيام هي عدد الأشهر التي مضت على الحمل في منوسمرتي «**تطهر المرأة بعد الإجهاض بيوم عن كل شهر في أشهر الحمل وتطهر بعد الحيض بالغسل**».

كذلك يطهر المرء بالغسل إذا لمس شخصاً من الأسافل أو امرأةً حائضاً، وكل من يموت في معركة أو قتال لا يتنجّس أحد بموته.

نشير أيضاً إلى أنّ الطهارة عند الهندوس منها ما هو حسّي وهو الاغتسال بالماء ومنها ما هو معنوي كطهارة الروح بالعلوم المقدسة والقلب بالعبادات وهكذا دواليك. ولهذا الغرض التطهيري نص شرعهم على ما يلي:

«إن العلم والنار والطعام والتراب والقلب والماء والطلي بخثي البقر والهواء والطقوس الدينية والشمس والزمن كل أولئك يطهر جسم الإنسان...! إن البدن يطهر بالماء أما الجوف فيطهر بالصدق ويطهر الروح بالعلوم المقدسة ويطهر القلب بالعلم الصحيح».

الصلاة:

لا تتم الصلاة عند الهندوس إلا بالأركان التالية: الاستحمام، ارتداء الثياب النظيفة ذات اللون الأصفر أو الأبيض، إضافة إلى غسل الأيدي والأفواه بالماء المعطر. وأثناء أداء الصلاة هناك هيئة تخصّ كلاً من الرجل والمرأة. فالرجل يجلس متربعاً والمرأة تجثو على ركبتيها.

ولا يوجد في الهندوسية صلاة جامعة فالصلاة كلها فردية وهي ثلاثة أنواع:

١. صلاة برفقة الكاهن واتّباع ترانيمه.
٢. صلاة برفقته دون اتّباع الترانيم.
٣. صلاة فردية محضة.

أمّا بالنسبة لصلاة الهندوس فهي مرتين في اليوم: الأولى صباحاً والثانية مساءً وتفسيرهم أنّ كل صلاة تسقط ما حصل من هفوات وأخطاء وذنوب حصلت في الإنسان ما بين هاتين الصلاتين، فصلاة الصباح تسقط ذنوب الليل وصلاة المساء تسقط ذنوب النهار. وإن من لا يؤدي هاتين العبادتين قائماً في الصباح وقاعداً في المساء يجب أن يطرد كالشودر ويمنع من أداء الواجبات الدينية ويحرم من حقوق المولودين ثانية.

نلاحظ ممّا تقدم من تشدّد الهندوس في مسألة الصلاة أن من لم يؤدِ الصلاة عندهم يطرد ويصبح من المنبوذين وهم الطبقة الخادمة وهذا عقاب قاسٍ إضافة

إلى حرمانه من حقوق المولودين ثانية. ويستخدم الهندوس عند طقوسهم في معابدهم برفقة الكاهن إضافة إلى الماء في الطهارة النار التي يوقدون بها البخور، ومع ذلك الأزهار. والصلاة التي تؤدى في المعابد، تؤدى على الشكل التالي: «**يتلو الكاهن تعاويذه التقليدية وبعدها يركع الشخص تحت قدمي الصنم متضرعاً.. يتلو الكاهن الأدعية التقليدية كل طبقة لها وضع خاص في الأدعية التي يتلوها الكاهن، في الختام يتلو الكاهن دعاءً مخصوصاً... يصلي الشخص ثمّ يرش الماء ثم يخرج**».

إحراق الموتى:

لا اعتبار للبدن في المفهوم الهندوسي فالنّفس عندهم هي الأساس، فهي تنتقل في دورة الحياة من بدن إلى آخر طلباً للتزكية والتطهر حتى إذا ما تمّ لها ذلك تَوقَّفَ حلولها في الأبدان واتحدت بالروح الكلية «النيرفانا «من هنا اعتمدوا نظاماً قاسياً مع البدن في الحياة وإذا ما مات المرء فيكون في طقوسهم إحراق جثمانه ومن ثمّ وضع الرماد في أنبوب وإلقاء هذا الرماد في نهر الغانج النهر المقدس عندهم. والغريب أيضاً في طقوسهم تكريمهم البقرة عند موتها ضمن مراسم معينة بعكس الإنسان الذي يحرقونه، وإحراقهم المرأة حية مع زوجها المتوفى وقد بقيت هذه العادة سارية المفعول إلى أن سنت الحكومة البريطانية قانوناً يمنع ذلك.

«لا تجلس على الحصير أو الفراش الجالس عليه من هو أكبر منك قدراً، وإذا كنت جالساً ودخل عليك من هو أكبر منك قدراً فقم له واستقبله وسلّم عليه.

والصغير إذا لقي الكبار عليه أن يبدأهم السلام وأن يعرفهم بنفسه بعد السلام عليهم قائلاً: أنا فلان. هذا التكريم ينطلق في القدر والعلم لا من العمر فقط، ويتّسع ليشمل عدداً كبيراً من ذوي الشأن المحيطين بالإنسان، لذلك جاء الأمر عندهم بضرورة احترام وإجلال مجموعة كبيرة من الأشخاص «**قف وعظّم خالك وعمّك وحماك والعلماء الذين يقومون بالأعمال الدينية وأستاذك ولو كانوا أصغر منك سناً**».

أمّا قبل ذلك فقد كان التكريم مقتصراً على الوالدين فهما أصحاب الفضل الأساسي على الإنسان، وقد عانيا ما عانيا في تربيته وإعداده «**ليس بالمستطاع مكافأة الأبوين حتى ولا بمئة سنة على ما يقاسيانه من العذاب في نسل الأولاد... على التلميذ أن يقوم على خدمة الأبوين والأستاذ بما يرضيهم وبذلك ينال ثواب عباداته كلها. إن طاعة هؤلاء الثلاثة هي خير العبادات فعلى التلميذ ألا يقوم بعبادة ما، رجاء الثواب وزيادة الحسنات إلا بإذنهم**».

فالوالدان والأستاذ هم أكثر من يحسنون للإنسان ويسهمون في تشكيل شخصيته، لذلك وجب عليه أن يبادلهم الإكرام فالإجلال، وهذا الاحترام يعبر عنه بأسلوب المخاطبة وبالهيئة عند التخاطب مع الأستاذ. والأدب الهندوسي

في هذا الباب فيه «**يجب على التلميذ ألا يكلم أستاذه وهو مضطجع أو جالسٌ على حصيرٍ أو يأكل أو كان منحرف الوجه عنه، بل عليه أن يكلمه قائماً إن كان الأستاذ جالساً، ويتقدم إليه ويقترب منه إذا كان قائماً ويسرع إليه إن كان قادماً ويركض خلفه إنْ كان سائراً**».

تتضمن الهندوسية جملة وصايا تصبّ كلها في مجال اتّباع الفضائل فقد ورد في نصوصهم: «**لا تؤذِ غيرك ولو أوذيت، ولا تتكلم بما يؤذي غيرك ويمنعك من النعيم الأخروي، ولا تحسد الآخرين على ما آتاهم الله من فضله**».

نشير هنا إلى أن الهندوسية تحرّم القمار، وتطالب الحاكم أن يمنع القمار وكل أشكال الرهانات، وأن يعمل على معاقبة من يمارس ذلك، ويعدون القمار كسباً غير مشروع، وهو من جملة أنواع السرقة، يقولون في تحريم القمار: «على الملك أن يمنع المقامر والرهان في مملكته لأنهما يبيدان الملك... على الملك أن يعمل جهد طاقته لإبادة المقامرين والمراهنين لأن القمار والرهان سرقة ظاهرة».

كما وتحرم الهندوسية أيضاً الرشوة وتحارب النفاق والتدليس، وتحظر التنجيم والارتزاق، كما أنّها تعاقب من لا يمارس عمله وخاصة الأطباء بصدق وأمانة، وتطالب الحاكم بأن يلاحق هؤلاء وينزل بهم العقاب المناسب لاستئصال الفساد في المجتمع وقد ورد في شرع منوسمرتي:

«**إن المرتشي والماكر والمدلس والمقامر والمعلم الذي يعلم أداء الطقوس الدينية بالأجر لا للثواب، والذي يسلك بالخبث والنفاق، والذي يعيش بالتنجيم ورجال الحكومة الكبار والطبيب الذي يمارس مهنته بصدق والمشعوذ والمومس الماكرة وغيرهم من الناس الذين يخادعون ويمكرون جهراً والذي يتزيّا بزي الفرق العالية هم شوك للرعية، على الملك أن يستقصي أخبار هؤلاء الناس ويقبض عليهم، فإذا أصبحوا في قبضة الملك عليه أن ينظر إلى إجرامهم وإلى قواهم البدنية ثم لينزل العقاب بكل واحد منهم بالنسبة إلى جرمه**».

وتحرّم الهندوسية أيضاً السرقة، والسارق عندهم ينال عقوبة قاسية تصل إلى حدّ الإعدام وشرعهم يقول:على الملك أن يقطع أيدي اللصوص الذين يسطون

على المنازل ليلاً للسرقة ثم ليصلبهم... تقطع إصبعا اللص في أول سرقة يسرقها وتقطع يده وقدمه في السرقة الثانية ويعاقب بالموت في السرقة الثالثة. ويُحرِّم أيضاً الخمر لأنه نجس ومصدر للخبث «**إن الخمر نجسة كالإثم، فعلى المولودين في ثانية ألا يشربوها**» ومن تقاليد وآداب الهندوسية أيضاً تحريم الغشّ، والغشّاش يعاقب، كي يرتدع هو وسواه عن فعل الغش. وقد ورد في منوسمرتي: «**يعاقب بالغرامة المالية الصغرى أو المتوسطة كل من يغشّ زبائنه أو يغالي في الثمن**».

ط. نظام الطبقات عند الهندوس

بلاد الهند كانت آهلة بالسكان من أكثر ممّا يزيد على ثلاثمائة سنة قبل الميلاد وكان الدرافيديون من أبرز سكانها الأوائل وبعدهم التوراتيون والآريون، ومع هؤلاء الأخيرين وبعد استقرارهم في الهند بدأت تتبلور شخصية الهند الحضارية.

وقد شكّلت الهندوسية، ديانة أغلب الهنود حتى يومنا هذا، فإن الهندوسية ليست ديانة فحسب وإنما حدث من خلال مفاهيمها وكتبها تاريخ الهند الحضاري. وقد اختلط النظام الديني بالنظام السياسي وبالنظام الاجتماعي عموماً بما في ذلك النظام الاقتصادي الزراعي فكان من نتيجة ذلك العمل من قبل أصحاب النفوذ الديني وأصحاب النفوذ السياسي لترسيخ نظام طبقي اجتماعي يضمن لهم السيطرة فكان من ذلك أن تبلور نظام الطبقات عند الهندوس الذي وزّع الهنود في أربع طبقات مغلقة وكان ينتمي الأبناء بذلك إلى طبقات آبائهم حكماً.

يتكون المجتمع الهندوسي من أربع طبقات هي:

- البراهمة.
- الكاشتريا.
- الديشاش.
- الشودر.

كل واحدة من هذه الطبقات تتميز عن غيرها وقد ورد في شرع منوسمرتي:

«لسعادة العالم خلق براهما البراهمة من وجهه، والكشتريين من ذراعيه، والويش من فخذيه، والشودر من قدميه».

هذه الأسطورة الغريبة التي تجعل أهل الطبقات الأربع من أربعة مواقع مختلفة من جسم «براهما» جاءت لتكرس الاستعلاء في هذا المجتمع ولترسيخ التسلّط.

والجدير ذكره أن هذا التوزيع الطبقي بالخلقة ملازم لأبناء الطبقات وعليهم أن يسلّموا به، لا بل واجب كل أبناء طبقة أن يعملوا ويسعوا لتنفيذ المهمات الموكلة لطبقتهم ضمن هذا النظام.

إن هذا النظام الطبقي لا شكّ أنه يسدّ الطريق أمام الكفاءات والقدرات ويمنع العدالة بين الناس وبالتالي فهو نظام ظالم لا يقبله عقل أو منطق لذلك ثارت البوذية عليه وأنكرته ولا أظن الواقع يقبله إذ من غير المقبول أن نحكم على مستقبل إنسان وموقعه منذ الولادة وقد جرت محاولات عديدة للتخفيف من حدّة هذا النظام الطبقي الجائر وكانت أبرز هذه المحاولات محاولة المهاتما غاندي في أوائل هذا القرن العشرين للميلاد ولكن محاولته لم تثمر الكثير لأن هذا التمايز الطبقي متأصّل في العقيدة وفي المجتمع عند الهندوس والخلاص منه يحتاج لوقت طويل نسبياً ولتعديلات في النصوص المعتمدة من الديانة الهندوسية وهذا ليس أمراً سهلاً. في نماذج من الفقه الهندوسي يحتوي كتاب «**منودهر ماساسترا** *Manudhra masastra*» على جميع الشرائع التي تتبعها الطوائف الهندوسية، وقد أشار ناشر هذا الكتاب إلى أن مؤلفه هو أول إنسان على الأرض أو أول عارف وضعه بإلهام من الله في زمان غارق في القدم ولكنّ الأصّح أنّه وضع في فترات متتالية بعيد ما بينها. ومن بين هذه النظم والقوانين التي وردت في هذا الكتاب هي تلك العائدة إلى السلطة الحاكمة والمرأة إضافة إلى بعض النظم المالية:

١. الملك:

خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لا تحتقرن ملكاً وإن كان طفلاً لأنه إله في صورة إنسان فوق الأرض.

وقد منح الله الملك السلطان الذي يعاقب به المذنبين فلا ملك إلا بسلطان، ولا طاعة إلا بسلطان العقاب وعلى الملك أن يصطفي لنفسه الوزراء من الأسر الطيبة ممن اتصفوا بالعلم والشجاعة والنزاهة وإنّما جاز له ذلك لأن الرجل الواحد يصعب عليه القيام بأعباء الملك الثقيلة. كما ويجب على الملك أن يختار سفراءه من أهل العلم والفراسة الذين تكفيهم الإشارات للنفوذ إلى الأسرار العميقة. ويجب عليه أيضاً الرفق بالطيبين والشدة مع الأشرار فالملك العادل الذي لا يداهن الناس يحبه الناس.

٢. المرأة:

ليس للمرأة حرية الاختيار سواء كانت بنتاً صغيرة أو شابة أو عجوزاً بل الخيار لأبيها، أمّا المتزوجة فالخيار يعود لزوجها والأرملة الخيار في أبنائها وليس لها أبداً أن تستقل وعلى المرأة أن ترضى بما ارتضاه لها والدها زوجاً فتخدمه طول حياته ولا تفكر في رجل آخر بعد وفاته بل عليها حينئذ أن تهجر ما تشتهيه من الأكل اللذيذ واللبس الحسن والزينة كلها وتعيش أرملة إلى آخر عمرها.

وفي حال وجدت زوجاً لا يعتني بها ولا يقدرها ويحب امرأة غيرها فيجب الا تحقد عليه ولا تقصر في خدمته ونيل مرضاته.

وليس لولد البنت أن ينال شيئاً من المال أو المتاع عند تزويجها لأن من يفعل ذلك فكأنه باع بنته. والأسرة التي تحترم المرأة فإن الآلهة تخصّها بعطفها، وأما الأسرة التي تُحتقر فيها المرأة فإن حسناتها تذهب سدىً.

ومن الضروري أن تشهد النساء للنساء والرجال للرجال، وشهادة النساء وإن كن نزيهات لا يقام لها كبير وزن لأن عقولهن لا توازن فيها، كما أن المرأة سيدة

بيتها فعلى الرجل أن يسلمها مقاليد البيت وواجباتها أن تلد وأن تربي أولادها وتدبر أمور منزلها ولتعلم المرأة أن عظمتها منوطة بعظمة زوجها. وإذا ابتليَ أحدٌ بزوجةٍ شريرةٍ قاسيةٍ مراوغةٍ فله أن يطلقها ويطردها من بيته.

٣.مسائل اقتصادية:

لا يجوز أخذ الربا الفاحش، ولصاحب المال أن يأخذ روبية وربع روبية، ربا عن مئة روبية في كل شهر. وإذا حاول عم الصبي الصغير أن يستولي على أملاكه، فليمنعه الملك من ذلك وليحوّل الأملاك إلى إدارته حتى يبلغ الصبي الرشد.

والعقار الذي لا يوجد له صاحب يبقيه الملك في يده ثلاث سنوات فإن لم يُعرف صاحبه خلال هذه المدة يصبح ملكاً للملك بعدها. وإذا وجدت محفظة مال في مكان، يأمر الملك بحفظها حتى يظهر صاحبها والذي يسرق مثل هذا المال يُلقى أمام فيلٍ ليدوسه جزاءً لجنايته.

ويجب على الملك أن يكتفي بالقليل من الضرائب على رعيته فيأخذ من أرباح الفضّة والذهب النصف ومن الحبوب الثُمن والسُدس. ومن ثمار الأشجار السُدس وكذلك قصب السكر والعطور والعقاقير، أما الصنّاع والعمّال والمنبوذون فيسخّرهم الملك يوماً واحداً في كل شهر لأعماله فهذه هي الضريبة التي عليهم أن يدفعوها.

والولد الأكبر هو الذي يرث والديه، أما إخوته وأخواته فكلهم يعيشون تحت إمرته، لأن الأخ الأكبر بمنزلة الأب ولا يملك الولد والزوجة والرفيق شيئاً وكل ما يحرزونه هو ملكٌ لعائلتهم. ولا يجوز أيضاً للملك أن يفرض ضريبة على الأعمى والأبله والأكسح وابن السبيل ومن يساعد المتبتلين إلى الكتاب المقدس.

ي. انتشار الديانة الهندوسية

الهندوسية هي دين توحيد من جهة ودين تعدد من جهة أخرى كما سبق القول، وتظهر فيها أفكار بدائية كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأجداد وعبادة البقر بشكل خاص.

وقد ارتقت الهندوسية عندما تجمّع البراهمة في القرن الثامن قبل الميلاد فأعادوا التفكير في دينهم ووضعوا مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما... وكانت الهندوسية تُعنى بنظام الطبقات وتقول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود... ومن أهم ما عنيت به تقديم القرابين على أن يتم بحضور برهمي وبتريكه، وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يعتبر كمن يترك والديه يموتان جوعاً. ضعفت الهندوسية عندما خرج غوتا بوذا ومهاويرا بمذهبيهما أو بدينيهما، ولكن الهندوسية سرعان ما نفضت الغبار عنها وعادت إلى الحياة وقضت على الانتصار المؤقت الذي تحقق للبوذية والجينية ولكن الهندوسية ظهرت هذه المرة في ثوب جديد نوعاً ما بفضل شرائع «منو» التي نسقت الديانة وأكسبتها قوة كانت من عوامل انتصارها على البوذية والجينية. وقد وجهت شرائع «منو «عنايتها إلى الطقوس. وتقديم القرابين أكثر من اهتمامها بالآلهة. ويُعتبر هذا تطوراً كبيراً من الهندوسية التي كانت توجه عناية كبيرة إلى الآلهة فاتجهت الآن إلى الطقوس والمظاهر، وكان من مظاهر هذا الإهمال أن اعتبر الإله «براهما» ليس مستقلاً بل

موزعاً في جميع المخلوقات أطيبها وأخبثها يشاطرها مصائرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها وفي ذلك يقول «منو»: «**تستقر الروح العليا في أرقى المخلوقات وأسفلها**».

وقد انتعشت الهندوسية متغلبة من حيث العدد على كل الأديان التي قامت في الهند فالهندوسية ليست ديناً فحسب، إنها مجموعة عادات وتقاليد وأفكار، إنها التراث الوجداني والعقلي والاجتماعي المتوارث جيلاً عن جيل، على أن انتعاشها في الزمن الحديث جاء وقد تشربت من البوذية والجينية والإسلام صوراً من أفكارها، وألواناً من معتقداتها وآدابها، ويبلغ عدد الهندوس الآن حوالي مائتي مليون نسمة.

لقد أثرت الهندوسية بدرجات متفاوتة في البوذية وفي أفكار بعض المسلمين وفي بعض الأديان والمعتقدات الهندية الأخرى، ومن الهند خرجت هذه الأديان تحمل ملامح من الهندوسية فانتشرت في الأقطار المجاورة للهند، وبخاصة شرقي آسيا وجنوبها الشرقي. فالإسلام الذي وفد من الهند إلى بعض مناطق أندونيسيا والفيليبين فيه بعض عناصر من الهندوسية، والبوذيةُ التي هجرت الهند إلى كمبوديا وتايلاند وبورما ونيبال ليست بوذية خالصة ولكن فيها عناصر كثيرة من الهندوسية وفي بالي بأندونيسيا دين هو عبارةعن مزيج من الهندوسية والبوذية والأفكار البدائية التي سبقت الويدا وعاصرت قرونها الأولى.

كان دستور الهند دائماً إحاطة الفكر الهندي بسورِمتين بحيث لا يتسرب منه ولا له أيّ شيء من الخارج، وفيما عدا البوذية لم تصدّر الهند شيئاً من أفكارها وفلسفاتها.كما وتهتم الهندوسية بالخرافات وتهبط في مستواها متأثرة بالسّحر وبالألفاظ الجوفاء كما ويؤخذ على الهندوسية السلبية العميقة والتسامح الذي يصل إلى درجة الرضا بالضّيم، وربما عُدَّ التسامح فضيلة ولكن المبالغة فيه تنقله إلى محيط الرذائل.

أما فيما يتعلق بحرق أجسام الموتى الهندوس فإن الفكر الهندي لا يهتم في حال الحياة، أي في حال حمله للروح التي هي موضع الاهتمام والتقديس فإهمال

الجسد بعد خروج الروح منه أيسر وأسهل.إن الهندي يفضّل الانفراد والأنانية كما أن العلاقة بين الفيلسوف وبين العالم ليست سوى علاقة سحر وافتتان.

والهندوسية دينُ غموضٍ وخفاء والصدق أهم معالم الهندوسية على اختلاف شعبها والزهد والحرمان طريق الهندوسية المفتوح للجميع كوسيلة للنقاء، والهندوسية دين الحكمة ومن أجل الحكمة في الهندوسية تأثّر الإغريق بها عندما ذهبوا إلى الهند واتصلوا بثقافاتها. هذا وقد مرت على الهندوسية آلاف السنين، ولا تزال محتفظة بتعاليمها ولم يستطع أي إصلاح داخلي من أن يغير من جوهرها ولا سمحت بإصلاح خارجي ليقتحم عليها رقعتها، فإذا هبت حركة إصلاحية داخلية كالبوذية كان تأثير الهندوسية في حركة المقاومة أكثر من تأثرها بها، لذا ستضطر الهندوسية للانحناء أمام الأفكار التي تقاوم اتجاهاتها الآن وفي المستقبل.

الفصل الثاني

الديانة البوذية

أ. من هو بوذا؟.

ب. زواج بوذا.

ج. تحول سيدهارتا إلى بوذا.

د. الحقائق الأربعة.

هـ البوذية قبل بوذا.

و. الفلسفة البوذية ومبادئها.

ز. أصول الديانة البوذية.

ح. الأسس الفكرية للعقيدة البوذية.

ط. الفرق البوذية.

ي. الله في التفكير البوذي.

ك. تعاليم البوذية.

تمهيد

البوذية وهي فلسفة وضعية انتحلت الصبغة الدينية وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية الهندوسية في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت في البداية تناهض الهندوسية وتتجه إلى العناية بالإنسان كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير، وبعد موت مؤسسها تحولت إلى معتقدات باطلة وذات طابع وثني ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألهوه. وهي تعتبر نظاماً أخلاقياً ومذهباً فكرياً مبنياً على نظريات فلسفية وتعاليمها ليست وحياً وإنّما هي آراء وعقائد في إطار ديني، وتختلف البوذية القديمة عن البوذية الجديدة في أنّ الأولى صبغتها أخلاقية في حين أن البوذية الجديدة هي تعاليم بوذا مختلطة بآراء فلسفية وقياسية عقلية عن الكون والحياة.

أ. من هو بوذا؟

ليس هناك تاريخ محدد يمكن الرجوع إليه أو الاستناد عليه، بل على العكس من ذلك اختلفت الآراء حول تاريخ ولادة بوذا فالبعض قال إنه ولد عام ٥٦٦ ق.م والبعض الآخر أشار إلى عام ٥٦٣ ق.م إلا أن الرأي الراجح أن سيدهارتا بوذا ولد عام ٥٦٨ ق.م وهو ابن حاكم مقاطعة ساكاس ولهذا سمي حكيم ساكاس بإقليم نيبال في القسم الشمالي من الهند الوسطى، والده يدعى سودهودانا وهو من عائلة غوتاما وملك قبيلة ساكيا المتحدرة من سلالة ايكشفاكو، أما أمه فهي مايا ديفي (*Maya _ Davus*) التي توفيت بعد الولادة بسبعة أيام فقامت أختها ماها باحتضان ورعاية المولود وتربيته.

يروي الإنجيل قصة حياة بوذا والأسرار التي أحاطت بمولده ونشأته وتربيته وجميعها كانت مميزة وفيه إشارات إلى عذاباته ومعاناته في صراعاته مع الشر وحواراته مع الكهنة البراهمة وتحوله عنهم وسلوكه طريقاً مميزاً حتى انكشفت له الحقائق، كما ويتضمن الإنجيل أيضاً خطب ومواعظ بوذا وإرشاداته لسلوك الطريق المستقيم الذي يوصل في النهاية إلى الخلاص والتحرر من براثن العبودية ومن شرور الحياة المتمثلة بالألم والتعب والموت والفوز بالدخول إلى حياض الخلود.

ويدعو الإنجيل كذلك الإنسان أن يتحول إلى كأس نظيفة طاهرة مقدسة ومستعدة لتلقي الكوثر الإلهي من كلمات المعلم السيد بوذا.

كانت والدة بوذا مايا ديفي «**أكثر جمالاً من زنبقة الماء وقلبها أصفى من زهرة اللوتس، مثلها في ذلك مثل ملكة السماوات**»[1] طاهرة من كل دنس، وهذا ما دفع زوجها إلى احترامها واحترام قداستها وحكمتها. عندما أحسّت بدنو موعد الولادة طلبت من زوجها أن يرسلها إلى أهلها فلبّى رغبتها وما إن وصلت الملكة إلى بستان يدعى لومبيني حتى «**صنعت الأشجار باقة عظيمة من الأزهار العطرة وبدأت أسراب العصافير تغرّد على الأغصان... خرجت الملكة من محملها لتتنزه ووصلت إلى شجرة** «بلاكشا» العظيمة العملاقة فشعرت بأنّ ساعة ولادتها قد أزفت... ولما شعرت بآلامها أرسل الإله براهما العظيم إلى هذه الروح الطاهرة أربعة ملائكة نصبوا شبكة من الذهب لاستقبال الطفل الذي خرج من جنبها الأيمن كالشمس المشرقة مشعّاً وكاملاً»[2] وقد رافق حدث الولادة هذا معجزات ظهرت باستعادة العميان لنظرهم والبكم لسمعهم، وتحرر كذلك السجناء من السلاسل التي كبلتهم ومشى العرج وصدحت الموسيقى السماوية وفرح الملائكة، إلا أن الشيطان تعذب وحده ولم يفرح أبداً، حتى أنّ الحيوانات وسائر الكائنات فرحت بنبأ الولادة لأن السلام سيحكم الأرض فالبوذا هو رسول السلام إلى الأرض والمخلص من كل أنواع الظلم والشقاء.

وقد ذهلت الأم من تلك الأعاجيب التي رافقت ولادة ابنها لدرجة أن الشكوك ساورتها وأحدثت في نفسها ألماً مبرحاً وتملكها الحزن.

---

(١) انظر إنجيل بوذا ترجمة سامي سليمان شيّا، دار الحداثة، بيروت ١٩٩١ ص٢٠.

(٢) انظر إنجيل بوذا ص٢٠.

وقد دفعت هذه الولادة العجيبة ملوك «**الناغا**»[1] إلى إظهار احترامهم للشريعة الجديدة الباهرة وجعلتهم يتخلون عن البوذوات السابقين وعددهم ثلاثة أو ستة أو أربعة وعشرون غير بوذا الكيامونى. حتى أن القديس الناسك آزيتا الذي انتقل فوراً إلى قصر الملك سودهودانا للإعلان عن المستقبل الذي ينتظر بوذا آمن به أيضاً، وحتى الآلهة ستترك هياكلها وتأتي لعبادة الطفل خاصة وأن «**المولود الجديد سيحمل الخلاص إلى العالم كله**»[2].

وقد تحدث أزيتا عن بوذا قائلاً: «**تشبه عقيدته الطاهرة الشاطئ الذي يرحب بالغرقى، تشبه سلطاته التأملية عذوبة مياه البحيرة بحيث يستطيع العطشى المحترقون بنار الفجور إطفاء ظمئهم براحة تامة**». وقال أيضاً: «**سينشر غيوم رحمته على نار ميول الإنسان الشريرة وعلى أتون ملذاته الحسية فيتساقط من هذه الغيوم مطر شريعته ويتمكن من إطفاء هذه الميول الرديئة وهذه الملذات النجسة، سيفتح أبواب اليأس الثقيلة الواسعة وسيحرر كل الخلائق التي وقعت في فخاخ الشباك التي حاكوها بأنفسهم من الجنون ومن الجهل**»[3]. وهكذا يرى أزيتا أن ولادة بوذا تعني ظهور ملك الشريعة الذي سيخلص من الاستعباد كل المساكين والمظلومين واليائسين.

---

(١) الناغا اسم لحية عملاقة تفوق بذكائها كما هو الاعتقاد ذكاء الإنسان بما لها من قدرة على تشكيل نفسها بأشكال مختلفة تبعاً لإرادتها.

(٢) انظر انجيل بوذا ص٢٢.

(٣) انظر انجيل بوذا ص٢٢.

ب. زواج بوذا

عندما بلغ بوذا سنّ الشّباب عزم والده الملك على تزويجه فاستدعى أهله وطلب منهم إحضار بناتهم ليختار بوذا عروسه من بينهن غير أنّ الشكوك ساورت أهل البنات حول مدى بلوغ الأمير ونموّ قدراته الجسدية والفكرية، ولإزالة هذا الشّك خضع الأمير لكشف طبي أثبت مقدرته الكاملة في كل التمارين الجسدية والفكرية وقد اختار بعد ذلك الأمير ابنة عمّه الملك كولي للزواج بها ورزق بولد أسماه راهولا.

وقد ورد في الإنجيل أنّ الأمير سيدهارتا «**كان يتمّ واجباته الدينية ويغسل جسده في مياه نهر الغانج المقدّس ويطهّر قلبه بمياه الشريعة ومع أنّ الرجال كانوا يرجون تحقيق السلام لأولادهم كان هو يأمل بحرص كلّي على إعطاء السلام إلى العالم**»[1].

وهكذا يكون الأمير قد طبّق المراحل الثلاث التي تفرضها الشريعة الهندوسية وهي مرحلة الاهتمام بالذات وإعدادها الإعداد الصحيح من الناحيتين: الجسدية والفكرية ثمّ الاهتمام بعد ذلك بالروابط العائلية من خلال الزواج والإنجاب ليتفرغ بعد ذلك إلى الاهتمام بالشأن العام والسلام العالمي وما يعنيه ذلك من توحد الذات الفردية مع الذات الكونية.

---

(١) انظر انجيل بوذا ص٢٤.

ج. تحول سيدهارتا إلى بوذا

سئم الأمير سيدهارتا من حياة الترف التي عاشها في القصر وتولدت لديه رغبة جامحة إلى مشاهدة العالم الخارجي، وقد سعى والده جاهداً لإبعاد ابنه عن الانشغال بمتاعب الحياة المنظورة

إلا أن محاولاته باءت جميعها بالفشل. بدأت تجربة الشقاء الإنساني التي عاشها سيدهارتا عندما شاهد أثناء جولته خارج القصر وبعربته الملكية أنواعاً من مظاهر الشقاء والألم التي لم يصادفها من قبل فقد شاهد في البداية رجلاً عجوزاً منحياً مجعد الوجه لا يستطيع الوقوف من دون الاستناد إلى عصاه. كما والتقى أيضاً بمريض مشوه الجسد يتأوه من شدة الألم وعندما استفسر عن حالته أجيب بأن عناصر جسد هذا الرجل الأربعة مشوشة وهي حالة كثيراً ما تصيب الأغنياء والفقراء والحكماء. وإزاء هذه الأحوال التي شاهدها الأمير وجد وبعد تأمل عميق أن الشيخوخة والمرض والموت ما هي إلا مظاهر لحقيقة واحدة وهي التغير. إن اكتشاف حقيقة التغير كان مدعاة لقلق الأمير ودافعاً جوهرياً للبحث عن السعادة الحقيقية في الخلاص أي سعادة النرفانا التي تؤدي إلى سلام الفكر والروح إلا أن أكثر ما أثقل على سيدهارتا وحمل إليه الألم هو عدم وجود إنسان قادر على شفاء الناس من شرور الوجود المتمثلة بالهرم والمرض والموت، وهذا السبب هو الذي دفع وبشكل جدي أن يكون سيدهارتا هو ذلك الإنسان المخلص.

«وقد حصلت للأمير وهو في حالة التأمل الرؤيا الأولى إذ شاهد بعين روحه مخلوقاً كبيراً متوشحاً بالجلال هادئاً ووقوراً وعندما سأله الأمير من أين أتيت ومن تكون؟ أجابت الرؤيا: أنا ناسك متكدر من فكرة الهرم ومن المرض والموت وهربت من بيتي لأبحث عن طريق الخلاص، ولهذا قد هدمت كل فكرة عن العالم وانسحبت إلى وادٍ صغير قاحل لأعيش فيه حياة العزلة. أنا أتسول طعامي وقد نذرت نفسي إلى كل ما هو ضروري فقط».[1] هذه الرؤية كانت الدافع الأساسي لقرار سيدهارتا بترك حياة البذخ والترف التي عاشها في قصر والده وسلوك الحياة الدينية وهذا ما نلمسه من قوله: «**أتت الساعة للبحث عن الدين أتت الساعة لقطع كل الروابط التي تمنعني من الوصول إلى الاستنارة الكاملة، أتت الساعة لأسلك حياة التائه المتسكع المتسول لأحصل على طريق الخلاص**»[2]. كان الأمير في التاسعة والعشرين من عمره عندما عزم على هجر الحياة المادية فأيقظ خادمه الأمين تشاندكا في منتصف ليلة مقمرة من شهر يوليو ليسرج جواده كانتكار وخرج من القصر حتى أن الأسطورة تقول إن الملائكة أغلقت فم الجواد حتى لا يصهل ومنعت حوافره من ملامسة الأرض حتى لا يسمع صوتها وسار الأمير وخادمه حتى وصلا إلى شاطئ نهرانوما وهناك حلق الأمير شعر رأسه بسيفه وخلع ملابسه وما كان يتحلى به من جواهر وأعطاها لخادمه.

انضم سيدهارتا إلى جماعة من النساك أو الزهاد وظل فترة من الوقت يعمل بجدية تامة جاهداً في السعي وراء الحقيقة الروحية بمنهج الزهد فغيّر مظهره إذ قصّ شعره المسترسل واستبدل ثوبه الملكي بثوب خشن بلون التراب وهام على وجهه يحمل قصعة الشحاذ على طريقة النساك البراهمة وتغير جمال شبابه بفعل القداسة التي كانت تحيط برأسه كهالة من نور «**وكان كل الذين يرونه**

---

(١) انظر انجيل بوذا ص٢٧.

(٢) المصدر السابق ص٢٩.

يتأملونه بإعجاب»[1] وقد تابع سيدهارتا حياة الزاهد المتجول آملاً في الوصول إلى حل مشكلات الوجود الإنساني والتحق بـ «الشرمانيين» وهم الرجال المتدينون الجوالون الذين نذروا أنفسهم للسعي إلى الزهد لكي يعثروا على طريق التحرر من عبث الحياة الظاهرة.

وقد التحق الأمير بمعلمين من البراهمة هما أرادا وأودراكا وقد أخذ عنهما تعاليم وآراء الهندوسية حول الأنا والإنسان والعوالم الثلاثة ووحدة الأشياء والتقمص والوجودات السابقة. إن تناوله للعقيدة الهندوسية بروح نقدية كان شرارة الإصلاح ومقدمة لتشييد أسس الديانة البوذية. وقد كانت انتقادات البوذا شديدة للقساوة المنتشرة في مذابح الآلهة فمن وجهة نظره هل تستطيع الذبيحة البريئة أن تمحو خطايا الإنسانية؟ وهل الذنوب لا تكفر إلا بإراقة الدماء؟ ومن هنا أطلق بوذا صيحته الداعية إلى تطهير القلوب والتوقف عن القتل. لقد أعاد بوذا للإنسان وحدته إذ اعتبره جهازاً عضوياً مركباً من مجموعة عديدة من المواد المتلاصقة المختلفة، فالإنسان مركب من مجموعة من الصور المادية من الحس والفكر والذكاء. وقد ترك بوذا الناسكين بعد ذلك وانتقل إلى صومعة الرهبان الخمسة المقيمين في دغل مدينة «أورفيليفا» حيث طبق نظامهم الصارم في قهر شهواتهم وصيامهم وإماتة الجسد والتأمل المجرد، عاش بوذا مع الرهبان الخمسة ست سنوات أنهك فيها جسده بأنواع قاسية من النسك حتى توصل أخيراً إلى الاكتفاء بحبة أرز أو حبة قمح كغذاء يومي. ثم تأمل بعد ذلك في حالته فوجد أن ضعف جسده لم ينفعه في التقدم خطوة واحدة في بحثه عن الخلاص فترك عندئذٍ الصوم ونزل إلى النهر حيث اغتسل غير عابئ بابتعاد الرهبان عنه واحتقارهم له وهكذا مضى بوذا سالكاً طريقه الخاص يصارع من أجل الوصول إلى المعرفة الحقيقية بعدما أمضى فترة سبع سنوات برفقة الرهبان. سلك بوذا طرقات مختلفة

(١) انظر انجيل بوذا ص٣١.

حتى وصل إلى شجرة البودهي[1] المدعوة شجرة المعرفة المقدسة فجلس تحتها يتأمل في أمور العالم وبينما هو جالس في فيئها تقدم الشيطان منه ومعه بناته الثلاث المجربات اللواتي حاولن إغواءه لكنه لم يكترث لهن فما كان من الشيطان إلا أن أمر كل الأرواح الشريرة بالانقضاض عليه لكن بوذا لم يخف منهم فتحولت جهنم إلى جمر عطرٍ وتبدلت الصواعق وتحولت إلى أزهار اللوتس فتقهقر الشيطان وانصرف بعيداً عن شجرة المعرفة.

ثم عاد بوذا بعد ذلك إلى تأملاته مكتشفاً أن كل شقاءات العالم وكل الشرور تتولد من الأعمال المجرمة والتي تنساب منها الآلام كما اكتشف أن الجهل هو الجذر لكل الشرور لا بل هو سبب كل ألم وأن إزالته تعني هدم الشهوات التي تتولد منه والابتعاد عن الأنانية.

---

(١) شجرة البودهي شجرة التين.

د. الحقائق الأربع

أثناء انغماسه في تأملاته وجد بوذا أنّ الحقائق النبيلة التي تمهد الطريق إلى الخلاص من كل أنواع العذاب والشقاء هي أربع:

١. **الحقيقة النبيلة الأولى:** هي وجود الألم، هذا الألم الذي نشعر به عندما نولد، عندما نهرم، عندما نمرض حتى أننا نتألم لمجرد التفكير بالموت وعندما نفترق عمن نحب.

٢. **الحقيقة النبيلة الثانية:** هي سبب الألم والذي هو ميل الإنسان إلى الشر وإلى الملذات الحسية.

٣. **الحقيقة النبيلة الثالثة:** هي توفيق الألم من يخضع أناه يتخلص من الميل إلى الشر ومن الملذات الحسية.

٤. **الحقيقة النبيلة الرابعة:** هي الطريق ذات الشعب الثمانية إلى توقيف الألم. حيث يسلك الحكيم هذا الطريق ويضع حداً نهائياً للألم[١].

في هذا السياق يشير الإنجيل إلى أنّ بوذا قد اختلى بنفسه سبع مرات وكل مرة كانت مدتها أسبوعاً وكان يتذوق في هذه الخلوات سعادة الخلاص الكبرى ممّا يدلّ على أنّ إشراق الوحي لم يكن دفعة واحدة وإنّما على امتداد تسعة واربعين يوماً.

---

(١) انظر انجيل بوذا ص٤٣.

وهكذا أمضى بوذا حوالي الأربعين عاماً يجتهد في نشر الشريعة الحقيقية ويدرّب تلاميذه على سلوك درب الخلاص ويمتّن روابط الأخوة بينهم. مات بوذا وهو في الثمانين من عمره بمدينة كوسينارا وكان ذلك يوم قدّم له الحداد تشوندا في قرية پاڤا طبقاً من لحم الخنزير المجفّف حيث ألمّ به مرض شديد، وقد طلب بوذا من تلميذه آنندا أن ينقله إلى مدينة كوسيارا حيث كانت وفاته بعد أن ألقى وصيته على تلاميذه ومريديه وقد أحرق جثمانه باحتفال ملكي مهيب.

بعد سبعة أيام من وفاته قسم رفاته بالتساوي على ثمانية مجموعات حيث نقلت كل جماعة حصتها وبنت فوقه ضريحاً مقدّساً والتي أصبحت فيما بعد مراكز للعبادة.

هـ. البوذية قبل بوذا

رغم تسجيل التراث البوذي لأكثر من ٢٤ بوذياً وردت أسماؤهم قبل بوذا جوتاما، إلا أن التاريخ لم يأت على ذكرهم كشخصيات تاريخية رغم اعتراف بوذا جوتاما نفسه بوجودهم.

إن اسم بوذا ليس اسم شخص عادي، وإنما هو لقب ديني شريف يعني الحكيم أو المستنير أو ذو البصيرة النافذة.

يشير البوذيون إلى أن الهدف الصحيح والحكيم من وجود بوذا هو تلقين الناس العقيدة الصحيحة، لأن بعد فترة زمنية ستفسد هذه العقيدة ويسيء الناس فهمها أو تنقرض ولا تعود إلى الصحة أو الحياة إلا بعد أن يظهر بوذا آخر يعيد إحياءها وإصلاحها.

ويعتقد البوذيون أن مئات من السنين قد مرت قبل وصول بوذا جوتاما إلى مرتبة البوذية أو المرتبة الأرهاطية كما يسمونها، ويقال إنه قد وصل ثلاثة من قبل جوتاما هذا إلى تلك المرتبة ولكنهم لم يصلوا إلى درجة عظمته وكماله ولم يظفروا بالنجاح الذي ظفر هو به وحتى الهنود بعد ظهور جوتاما ووفاته لا يزالون ينتظرون ظهور بوذا آخر ينقذ العالم مما فيه من بؤس وشقاء.

و. الفلسفة البوذية ومبادئها

تابع بوذا جذب التلاميذ إليه وخاصة أولئك الذين كانوا شغوفين لسماع المزيد من تعاليمه والاسترشاد بالطريق (ماجا *Maga*) الذي تحدث عنه. فقام بعرض هذه التعاليم من مجموعة كبيرة من الحكايات والأمثولات والتشبيهات والطرائف وغيرها من أساليب التعليم الشعبي.

كان أتباع بوذا وخلال الأربعين عاماً التي قضاها في ممارسة نشاطه العام يمثلون جميع الطبقات وكافة المهن والأعمال. وكان بوذا وتلاميذه في البداية يشكلون جماعة من «الشرمان» المتجولين غير أنهم لا يتجولون طوال العام، خاصة مع هطول الأمطار الموسمية الغزيرة في شمال الهند حيث تصبح عملية التنقل صعبة ومحفوفة بالمخاطر، مما دفع هؤلاء الرهبان البوذيين إلى اللجوء إلى أماكن أشبه بالمخابئ للاحتماء بها حيث يعيشون حياة جماعية ليعودوا بعد ذلك إلى التفرق في أماكن شتى مع انتهاء فترة المطر.

أولاً: الإله:

تشير الروايات إلى أن البوذية الأولى كانت تعترف بوجود الآلهة الذين كان يعترف بهم البراهمة حيث ينظرون إلى الإله على أنه خالق الكون موجود بذاته لم يدرك بالحواس وإنّما بالعقل. ويقوم هذا الدين على أصلين رئيسيين هما: وحدة

الوجود والتناسخ. وللبراهمة أصنام مع العلم أنها تقرر أن براهما نفسه مثله مثل غيره من الكائنات عرضة للفناء والتغير، وتنكر أن وجوده مستمد من ذاته وأنه كائن روحاني مجرد من كافة الشوائب وأنه وحده مصدر الإلهام والمعرفة.

ثانياً: النفس:

تنكر البوذية الأولى ما يقوله البراهمة عن أن النفوس مستقرة ولا يعتريها أي تبدل أو تحول ولا يلحقها أي عطب ولا فناء على عكسها هي التي تطبق مبدأ التحول الدائم والتعرض المستمر للعطب والفناء على النفوس البشرية الجزئية. وبالرغم من ذلك نجد أن البوذية متأثرة بالفلسفة البراهمية وبغيرها من الفلسفات الهندية في القول بمبدأ التناسخ أي إعادة حياة الفرد مرة بعد أخرى. وقد أشار جوتاما في هذا السياق إلى أن وجود أي فرد من بني الإنسان إنما هو في رأي بوذا نتيجة لائتلاف عدد من العناصر البدنية والعقلية يطلق عليها اسم الخندات *Khandlhas* أي المجموعات وهي عبارة عن خمس مجموعات انقسمت فيما بعد إلى مجموعات فرعية، أما الخمس الرئيسة فهي على الشكل الآتي:

١. مجموعة الصفات البدنية.

٢. مجموعة الإحساسات.

٣. مجموعة الإدراكات الحسية.

٤. ثالوث الفكر والقول والعمل.

٥. الحالات الشعورية الأخرى.

وهكذا لا يمكن أن يتحقق كيان أي فرد إلا بوجود هذه المجموعات جميعها واتحادها مع بعضها البعض. أما عند الموت فتنفصل هذه المجموعات عن بعضها حيث يفنى الفرد ولا يبقى له أي وجود باعتباره فرداً مستقلاً له مميزاته

الخاصة، فبوذا يعتبر أن الشعور بالاستقلال الذاتي شعور وهمي خداع ناشئ عن الجهل.

ورغم فناء الفرد إلا أن مبدأ الكارما الخاص به يبقى وبطريقة لا يعرفها سوى بوذا وحده، ومبدأ الكارما هذا يكون سبباً في إيجاد مخلوق جديد وفي بيئة مناسبة لا يتذكر أي شيء عن المخلوق السابق مع العلم أن وجود المخلوق الجديد بنظر بوذا من الناحية الخلقية امتداد لوجود المخلوق السابق وهذا ما يسمى بمبدأ التناسخ.

ثالثاً: العالم:

رفض جوتاما مجاراة الفلاسفة المعاصرين بالبحث في المسائل الميتافيزيقية الخارجة عن حدود الطبيعة الواقعية كالبحث في وجود الآلهة أو عدمها وإذا كان العالم أبدياً أزلياً لا يحده زمان ولا مكان اقتصرت بحوث جوتاما على العالم كما يراه هو ذلك العالم الذي تدل المشاهدات على أنه يخضع لمبدأ التحول والتغير الدائم وعلى أن من صفاته الحياة والنمو والعطب وأخيراً الفناء. فالعالم الخاضع لهذه الظروف والذي لا يتغير ولا يتحول هو وحده الذي يعنيه لا غيره من العوالم والكائنات التي لا تخضع بدورها للمشاهدة والمعرفة المباشرة.

رابعاً: مبدأ الكارما:

تأثرت البوذية كثيراً بمبدأ الكارما والذي يعني خضوع الكائنات والحوادث الكونية لسلسلة الأسباب والمسببات. ويعلن هذا المبدأ أن حياة الفرد في عصر ما هو نتيجة حتمية لحالته أو سلوكه في حياة سابقة.

خامساً: مبدأ التناسخ:

يرتبط هذا المبدأ ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الكارما فهما متلازمان لأنه إذا لم يكن بدّ من تنفيذ حكم القصاص بأن تنال الروح جزاءها فلا مناص من انتقالها بطريقة ما وبصورة ما إلى كائن آخر لتكفر عن سيئاتها إن كانت شريرة في الحياة الأولى وهذا ما يقصده البوذيون أن الروح تولد مرة بعد أخرى ولا تزال كذلك حتى تصل إلى درجة النيرفانا.

خامساً النيرفانا:

سعى بوذا دائماً إلى أن يشرح للناس الطريقة الكفيلة بإنقاذ الإنسان نهائياً من ربقة الكارما وعدم اضطراره لأن يحيا أو يولد مرة أخرى وذلك بأن تصفو روحه وتتخلى عن الأوزار التي تتطلب تناسخها وانتقالها إلى كائن آخر تسلك فيه مسلكاً خلقياً طيباً يبرئها من تلك الأوزار أو يجعلها صالحة للاتصال بالملأ الأعلى وفقاً لمبدأ النيرفانا.

والمقصود بالنيرفانا هو انتقال الروح إلى الملأ الأعلى ليحظى بحياة صافية وراقية ولكن هذا المبدأ طرأ عليه فيما بعد معنى جديد إذ قصد به وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحاني من خلال تطهير نفسه والقضاء على جميع رغباته المادية.

والفرق الحاصل بين المعنيين واضح فالمعنى الأول يشير إلى أن هذا المبدأ لا يتحقق إلا بعد الموت، أما الثاني فيشير إلى أن المرء يمكن أن يصل إلى مرتبة النيرفانا في حياته.

ز. أصول الديانة البوذية الأخلاق

هناك أربع حقائق يبني بوذا عليها فلسفته الأخلاقية وهي:

أولاً: إن الوجود كله همّ وحزن، ومردّ ذلك أنّ الحياة بكافة أشكالها وبجميع صورها ليس فيها إلا ما يؤلم الإنسان ويضيره فكل فرد يولد وينمو وهو معرّض للمرض وللشيخوخة وللموت وهو في كل مرحلة من هذه المراحل وفي كل صورة من هذه الصور يعاني الكثير من الآلام والأزمات.

ثانياً: إن السبب الرئيسي للغمّ والحزن هو الشهوة فالإنسان ونتيجة احتكاكه بالحياة الخارجية المادية تتحرك في نفسه الشهوات الحسية والرغبات الدنيوية وهذا ما يدفعه إلى الاستمتاع بملذات الحياة ومباهج العيش، غير أنه في الغالب لا يستطيع تحقيق كافة رغباته وهذا ما يوقعه في الهم والحزن. وهكذا إذاً فالشهوة هي منبع الحزن ومصدر الهم والغمّ.

ثالثاً: إذا استطاع الإنسان التغلب على شهواته فإنه سيبعد بالتالي عنه الهمّ والحزن وسيقطع أي صلة تربطه بالحياة المادية.

رابعاً: لكي يحقق الإنسان هدفه المنشود وهو إزالة الهمّ والغمّ عليه أن يتبع في سلوكه في الحياة مبادئ ثمانية تسبب لنفسه السعادة وتكفل له التحرر من أغلال الحياة ومتاعبها.

وهذه المبادئ هي:

١. القول الطيب (أي حفظ اللسان من الكذب والنميمة والاستهزاء بالناس).

٢. الفهم السليم للعقيدة (والإيمان بالحقائق السابقة).

٣. الأغراض النبيلة (الاتجاه إلى عمل الخير واجتناب الاتجاه إلى الشر).

٤. العمل الصالح (أي عدم الاعتداء على أموال الآخرين وأرواحهم).

٥. اتباع خطة قويمة في الحياة وكسب العيش (حسن معاملة الناس وكسب المال من أعماق مقبولة).

٦. بذل الجهد الصادق (عدم الكسل والتراخي، وغرس الاتجاهات الطيبة).

٧. الأفكار الصحيحة والانغماس في العمل دون الشعور باليأس.

٨. التركيز الذهني السليم أو صدق التأمل الروحي أو التفرغ للتبتل والرياضة الروحية كي يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو النيرفانا ***Nirvana***. هذا وإضافة إلى مبدأ الحب الشامل.

ولم يكتف جوتاما بإذاعة المبادئ الثمانية الإيجابية بل أضاف إليها عشر وصايا سلبية خمساً منها عامة موجهة إلى جميع الناس وخمساً خاصة بالرهبان وتلاميذ بوذا.

أما الخمس العامة فهي:

١. لا تقتل ٢. لا تسرق

٣. لا تزن ٤. لا تكذب

٥. لا تتناول مسكراً

وأما الخمس الخاصة فهي:

١. لا تتناول طعاماً يابساًبعد الظهر.

٢. لا تحضر حفلات الرقص والغناء والتمثيل.

٣. لا تتزين بأيّ نوع من الزينة ولا تستخدم أي نوع من الطيب.

٤. لا تنم على فراش وثير.

٥. لا تقبل من أحدٍ ذهباً ولا فضة.

إذاً لو طبق البوذي المنهج المرسوم له واتبع التعليمات المعطاة له واجتنب النواهي فإنه بالتالي يحطم بالتدريج الأغلال العشرة التي تقيد روحه وترغمها على الرجعة لتصل إلى درجة الكمال.

ويرجع تشدّد البوذية على الجانب الأخلاقي إلى كونه أحد السقاب الثلاثة التي تشكل الطريق البوذي وشعاب الطريق البوذي هي الأخلاق والتأمل والحكمة وهذه الشعاب ليست مراحل تأتي الواحدة منها بعد الأخرى إنما هي دروب يتم السير عليها جميعاً دفعة واحدة، إن الهدف المباشر للأخلاق البوذية هو بناء إنسان يكون سيد نفسه وصالحاً وطاهر القلب، أما الهدف الأقصى فهو تهيئة الإنسان لبلوغ حالة الفكر الهادئ الذي تخلص من فكرة الأنا وليدخل في سلام الخلود[1].

التأمل والحكمة:

يشكل التأمل والحكمة عنصران أساسيان من عناصر الطريق البوذية وهما النتيجة الطبيعية للسلوك الحق فالعمل الصحيح يلازمه الفكر الصحيح والموقف الصحيح. وقد خاطب بوذا الرهبان في أيامه الأخيرة قائلاً:«**أيها الرهبان كونوا ملأى بالإيمان ومتواضعي القلوب وبعيدين عن الخطيئة ومتلهفين ونهمين للتعلم، وأقوياء ونشيطين وأصحاب مروءة وذوي عزم وفاعلين في تفكيركم ومملوئين بالحكمة**»[2]

وبالعودة إلى التأملات التي يجب أن يلتزم بها الإنسان للوصول إلى جنة الفردوس، أشار بوذا إلى أن هنالك خمسة تأملات هي:

---

(١) انظر انجيل بوذا ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ص١٩٢.

التأمل الأول: التأمل بالمحبة التي بواسطتها تضع قلبك بشكل تتمنى فيه وبكل حرارة الخير والازدهار والسرور لكلّ الكائنات دون أن يكون أعداؤك بعيدين عن هذه النعم.

التأمل الثاني: التأمل بالشفقة والتي من خلالها يجب أن تفكر بأن كل المخلوقات هي في شدة وشقاء فترسم في أفكارك وتخيلاتك آلامها النفسية المبرحة وقلقها الشديد بطريقة تخلق في نفسك رحمة عميقة تجاهها.

التأمل الثالث: وهو التأمل بالفرح الذي بواسطته تتخيل فرح ونجاح وسرور الآخرين فتفرح فرحاً شديداً لهم وتشاركهم في أفراحهم.

التأمل الرابع: التأمل بطمأنينة الفكر وصفائه وهدوئه التي بواسطتها ترتفع فوق الحب والبغض وفوق الظلم والعدل وفوق الغنى والعوز ناظراً إلى مصيرك الشخصي بهدوء بريء متجرد منصفٍ خالٍ من المحاباة ومن التفرّض وبراحة كاملة.

التأمل الخامس: التأمل بالنجاسة التي بواسطتها تمعن النظر في النتائج المميتة للفساد وفي تأثيرات الخطيئة والأمراض وكم هي سهلة اللذة الآنية وكم هي نتائجها قاتلة[1].

تقديس العقيدة البوذية:

يطلق على العقيدة البوذية اسم «**النظام**» أو «**عجلة الشريعة**» وهي تحظى عند أصحابها بنفس القداسة التي يحظى بها واضعها وقد قام بوذا بدفع هذه العجلة أكثر من أربعين عاماً مع جماعة من أتباعه الذين اختارهم وأشرف على إعدادهم ليكونوا دعاة صالحين مخلصين له ولعقيدته.

---

(١) المصدر السابق ص١٩٢.

قام أوبالي (أحد الرهبان) بعد أن تمت مراسم حرق جثة بوذا وذكر إخوته الرهبان بما كان يقوله المعلم السيد عن العقيدة قال: «**اعتاد معلمنا أن يقول للإخوة: أيها الرهبان بعد دخولي في النيرفانا يجب أن تحترموا الشريعة وتطيعوها وأن تنظروا إلى الشريعة كمعلم لكم، وتشبه الشريعة النور الذي يلمع في الظلمات ليرشد إلى الطريق وهي تشبه أيضاً جوهرة نفيسة يجب عليكم ألا تتراجعوا أمام أي عذاب بغية امتلاكها ويجب أن تكونوا مستعدين لتحمل كل تضحية حتى التضحية بحياتكم**».

«**أطيعوا الشريعة التي كشفتها لكم بتدقيق وبضبط كلي. احترموا الحقيقة كأنها على الإطلاق مشابهة لي**»[1] ومن الواضح أن تعاليم بوذا الواردة في هذه النصوص تؤكد على احترام الشريعة وطاعتها والتعامل معها كجوهرة ثمينة «**فالبوذا وازن بين نفسه والشريعة فجعلها شبيهة به لها نفس قداسته، فالشريعة لديه تمثل الحقيقة الخالدة وهي حاضرة في كل مكان ولا تتغير وهي جداً رائعة**»[2]

وقد عرّف بوذا في إحدى خطبه بعقيدته وبأهم ما جاء في الشريعة البوذية في شتى مسائل الوجود والآلهة والأخلاق والتنظيم الاجتماعي والفقهي والقانوني فقال: تشبه عقيدتي المحيط لأنها تملك الصفات الثماني التي يملكها المحيط.

١. كلاهما المحيط والعقيدة يصبحان تدريجياً وأكثر فأكثر عمقاً.

٢. هما يحتفظان بجوهرهما عند كل التغيرات.

٣. هما يلفظان الجثث على رمل الشاطئ.

---

(١) انظر انجيل بوذا ص١٥٥.

(٢) انظر انجيل بوذا ص٢١٨.

انظر انجيل بوذا ص٢١٧.

٤. وكما أن الأنهار الكبيرة عندما تصب في المحيط تفقد أسماءها وتصير جزءاً من هذا المحيط كذلك البشر من كل الطوائف عندما ينتمون إلى الكنيسة ينكرون أصلهم ويصيرون إخوة وأولاداً للساكياموني[1].

٥. المحيط هو الهدف الذي تجري بسرعة إليه كل الأنهار وأمطار الغيوم ومع هذا فهو لا يفيض ولا يجف أبداً كذلك تضم الشريعة الملايين من البشر ومع هذا فهي لا تزيد ولا تنقص.

٦. وكما أن المحيط الكبير له طعم واحد هو الملوحة كذلك عقيدتي لها عطر واحد هو الخلاص.

٧. كلاهما، المحيط والشريعة مملوءان بالأحجار الكريمة واللآلئ والجواهر.

٨. وهما المحيط والشريعة يعتبران مأوى لكل الكائنات[2] وأضاف بوذا:

عقيدتي تشبه الماء الذي يطهر كل شيء دون تمييز.

عقيدتي تشبه النار التي تحرق وتأكل كل الأشياء الموجودة بين السماء والأرض كبيرة كانت أم صغيرة.

عقيدتي تشبه السماء لأن فيها مكاناً واسعاً جداً يفوق قدر الكفاية لاستقبال الجميع من الرجال والنساء ومن الصبيان والبنات ومن الأقوياء والضعفاء.

هذه بعض الأوصاف التي ذكرها بوذا عن شريعته والتي توخى من خلالها نشر عقيدته لتعم كل البشر وكل الكائنات بهدف الجمع بين جميع فئات الناس في بوتقة واحدة وتحت ظلّ شريعة صالحة.

---

(١) الساكياموني: من أسماء بوذا نسبة إلى قبيلة ساكيا.

(٢) انظر انجيل بوذا ص١٥٨.

م. الأسس الفكرية للعقيدة البوذية

أولاً: الحقيقة: تشكل الحقيقة الهدف الأسمى الذي يسعى البوذي لتحقيقه، فالحقيقة هي جوهر الحياة كونها تستمر وتدوم بعد موت الجسد فهي خالدة تتابع حياتها حتى بعد اختفاء السماوات والأرض. وقد آمن بوذا بالحقيقة وتشابهها في كل الأوقات وفي كل الأماكن فهي غير قابلة للهندسة والتركيب والتنظيم فهي واحدة تحافظ على شكلها الدائم الخاص بها. ويؤكد البوذا كذلك أن العالم وجد لأجل الحقيقة إلا أن تدخلات الفكر وتركيباته الخاطئة هي التي غيرت طبيعة الحالة الحقيقية للأشياء وأحدثت الضلالات والجهل. فالذين يقعون في شباك الضلال والجهل تمتلئ قلوبهم بالأنانية وتتولد الشهوات في نفوسهم فينساقون مباشرة إلى الحزن والألم. في حين أن الحقيقة هي أقوى من الموت لأنها حاضرة في كل مكان وفي أي وقت فهي كما ذكرنا سابقاً خالدة وطريقاً مستقيمة وواضحة والسعداء هم من يسيرون وراءها ويبحثون عنها، هذا الطريق هو الذي اكتشفه البوذا وشكل أسسه وبين معالمه.

نشير هنا أن لا مكان للحقيقة في الإحساس ولا في ملذاته ولا في آلامه إلا أن أهمية الإحساس هي التي دفعت بوذا إلى تعليم الناس الكيفية الصحيحة لاستعمال الإحساس والممارسة الصحيحة والصالحة للعقل، كما وعلم أيضاً الصلاح حيث غير من خلاله المخلوقات العاقلة إلى كائنات إنسانية صالحة طيبة.

أما فيما يتعلق بالعقلانية فقد أشار البوذا مراراً أن لا وجود للحقيقة في العقلانية إذ إن هذه الأخيرة سيف ذو حدين، فالعقل يستعمل لمقاصد سامية ومحبة وفي الوقت نفسه يستعمل لمقاصد فاسدة مبغضة فبدون العقل لا يمكن الوصول إلى أية حقيقة.

الحقيقة في نظر البوذي هو البوذا نفسه فهي جوهره وهي المعيار الوحيد للتمييز بين العقائد الصحيحة والخاطئة، وهي ليست اختيارية بل يمكن لأي فرد البحث عنها إذا سلك الطريق الصحيح الذي وضعه بوذا.

ولكن كيف يمكن تملك هذه الحقيقة؟

أجاب البوذا عن هذا السؤال بأنه لا يمكن تملكها إذا لم يتعلم المرء التمييز بين الأنا والحقيقة، فالأنا سببها الأنانية ومنبع الخطيئة بعكس الحقيقة التي تقود إلى العدالة والمساواة[1].

فالحقيقة تستلزم الانقطاع عن الملذات، أما الأنا فتستلزم التطهر من الخطايا وتقديس الحياة وتحرير النفس منها وعدم الرغبة في أذية الآخرين، كما أن اللجوء إلى الباحثين عن الحقيقة يساعد في الوصول إليها.

وقد أعلن البوذا في خطبة «بنارس» عن الخطوط العامة للطريق الوسطى التي يجب أن تحل محل الطريقين المتطرفين فقال: «**هنالك طريقان متطرفان على الرجل الذي ينبذ العالم تحاشيهما فمن جهة عادة إشباع شهواته هذه طريقة تافهة وباطلة وبدون ثواب ولا تتناسب إلا مع الأرواح المتجهة نحو العالم ومن جهة أخرى فإن إماتة الذات هي تطبيق مرهق ومضنٍ وبدون فائدة وباطلة... حب اللذات الجسدية الشهوانية يضعف الإنسان. إشباع الشهوات يجعل المخلوق عبداً لأهواء نفسه الباطلة، البحث عن اللذة يتلف الإنسان ويذله ويدني منزلته.. إن سدّ حاجات ضرورات الوجود ليس شراً، والمحافظة على جسدنا ليبقى في صحة جيدة هو**

(١) انظر انجيل بوذا ص١٦.

واجب وبدون هذا لا نستطيع صيانة قنديل الحكمة.. هذه هي الطريق الوسطى أيها الرهبان التي تبعد جانباً الطريقين المتطرفين»[1].

الألم: شكل الألم الحافز الأول الذي دفع بوذا ليبدأ سفرته التأملية وأول احتكاك مباشر له مع الحياة والعالم الخارجي حيث لمس ثلاثة مظاهر للألم وهي:

ـ الألم الناتج بسبب المرض والشيخوخة والألم الذي يخلفه الموت في نفوس أقارب وأصدقاء المتوفى، وبعد تأملات كثيفة وجد البوذا أن سبب الألم وأصله يكمن في التغير الذي يثقل على الإنسان ويعيق وجوده وهذا ما دفعه إلى إطلاق الحقيقة الشريعة المتعلقة بالألم في خطبة «بنارس» حيث قال:

ـ والآن أيها الرهبان هاكم الحقيقة الشريعة المتعلقة بالألم.الولادة ألم، الهرم ألم، المرض ألم، وجودك مع من لا تحبه ألم.

ويقول أيضاً حول الحقيقة المتعلقة بأصل الألم:

ـ حقاً هي الشهوة الجامحة التي تسبب التجديد في الوجود والمصحوبة بالفرح الشهواني، فهي تبحث عن إشباعها مرة هنا ومرة هناك، هي شهوة إشباع الأهواء الفاسدة وشهوة الحياة المستقبلية وشهوة السعادة في هذه الحياة.

أما فيما يتعلق بحقيقة إخماد الألم قال البوذا:

تتألف من إطفاء العطش المتجه نحو أهواء النفس الرديئة وميول القلب الشريرة وإخفاء هذا العطش وهي الرفض القاطع لهذه الشهوة والتحرر منها وعدم التأسيس والبناء عليها[2].

إن الهدف الأساسي للدعوة البوذية هو بناء الإنسان المحب والمتسامح والمتساهل والذي في الوقت نفسه الذي تخلص من أناه وأنانيته، فبالأعمال

---

(١) انظر، انجيل بوذا، ص:٤٩ـ٥٠.

(٢) انظر، انجيل بوذا، ص:٥٠ـ٥١.

الطيبة والجودة واللطف والعطف والتساهل والتسامح المستمر نتوصل إلى طريق الخلود وبالمحبة نصلح أنفسنا ونجعلها تصل إلى الكمال.

يتضح مما تقدم أن المقصد الأسمى للإنسان هو وضع حدٍّ للألم ولن يكون له ذلك ما لم يعرف جذر الألم أي أصله وهو الأطماع والأهواء والميول والعطش إلى الحياة، ولا بدَّ أيضاً من معرفة الطريق المقدس ذي الشعب الثمانية الخاص بإزالة الألم، فإذا عرف الإنسان هذه الجذر يصبح رافضاً لكل الميول الشريرة ويتخلص من فكرة الأنا المسيطرة عليه ويتمكن من وضع حدٍّ نهائي لكل الآلام الموجودة في الحياة[1].

---

(١) انظر، انجيل بوذا، ص:١١٣.

ط. الفرق البوذية

تطورت البوذية بعد بوذا تطوراً جوهرياً باعد بينها وبين البوذية القديمة. وقد أدى هذا الوضع إلى اشتداد حدة الخلاف بين المحافظين أتباع المذهب القديم والمجددين أتباع المذاهب الحديثة وقد كان النصر في النهاية حليف المجددين فأطلقوا على أنفسهم اسم «**الماهايانا**» أي المذهب الأسمى، أما المذهب القديم فأطلقوا على أنفسهم اسم «**الهينايانا**» أي المذهب الأصغر.

ومن أهم المذاهب السائدة آنذاك هي:

١.مذهب الحكيم كابيلا *(Capila)*:

حيث وضع هذا الحكيم مذهباً فلسفياً تحت عنوان «**سانك**» أي مذهب التعدد والذي يقول بتعدد النفوس والأرواح وينكر وجود إله واحد يتصرف وحده في الكون.

٢.مذهب باتانجالي *(Patanijali)*:

ويعود ظهوره إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وهو الذي أسس المدرسة اليوجية الحديثة (الوحدة *Yoga*) التي كانت تؤمن بوجود الكائنات الروحانية وتنكر الوجود الحقيقي الواقعي للماديات.

٣.مذهب الحكيم كانادا:

الذي ظهر في القرن الثاني الميلادي تحت عنوان «**الفيسيشيكا**» ***(Vaiceshika)*** وهو مذهب منطقي مادي قائم على أن الكون كله مكون من ذرات مختلفة الأنواع ينضم بعضها إلى بعض بطرق مختلفة.

٤.مذهب جوتم أو جوتاما الثاني:

وقد ظهر في القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد ويسمى «**نيايا**» ***(Nyaya)*** وهو يعتبر أن الإحساس هو أساس الحياة العقلية، فالحواس هي التي تنقل الإحساسات إلى العقل فيدركها ثم ينقلها العقل بدوره إلى الروح فتتصرف فيها.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الفرق البوذية الحديثة ترى أن الواجب على البوذي المتدين ألا يتشبه بالزعيم الأكبر بوذا بل عليه أن يكتفي باتباع الأخلاق الفاضلة والتمسك بالآداب الدينية، بل يجب حتى على أي فرد أن يعمل ليصل إلى مرتبة البوذية نفسها وهذا الأمر لا يتطلب سوى السعي في سبيل الوصول إلى درجة الكمال في الحكمة والمعرفة والرياضة الروحانية والإحسان إلى الناس إضافة إلى السلوك الطيب.

ي. الله في التفكير البوذي

يقول العلاّمة رادها كرشنن: بوذا لا يقرر العقائد ولا يؤسس مذاهب فلسفية ولا يزعم أنه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصية ملكها من الأزل، بل يعلن بكل جلاء أنه كسب هذه الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على هذه الأرض دهوراً وأحقاباً بتعدد المواليد، وهو يرشد أتباعه، إلى نظام يضمن الرقي الأخلاقي، ولا يدعوهم إلى دين كسائر الأديان، إنه يُري أتباعه سبيلاً ولا يقررعقيدة، لأنه يرى أن قبول عقيدة يصدُّ عن البحث وراء الحق، فكثيراً ما ترفض الحقائق لأنها تخالف عقيدة تمسك بها الذين جاءت لهم هذه الحقائق.

فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التي لا يمكن بيانها بالألفاظ، فدعوته حكاية عن تجربته وعن الطريق المؤدي إليها، وهو يقول: إنّ الحق لا يعرف بالنظريات بل بالسّير في طريقه. وعلى هذا لم يُعنَ بوذا بالحديث عن الإله، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً وتحاشى كل ما يتّصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة في الكون، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله ويرى أن الإنسان صانع مصيره من كلماته في ذلك: كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفاً، ولا تعتصموا بملاذٍ خارجي، ولا تحتموا بغير أنفسكم.

وقد سأل أحدٌ بوذا مرة: هل الذات موجودة فسكت، فسأله ثانيةً: هل الذات ليست موجودة وظلّ ساكتاً. ثم سأله: هل هذا الكون دائم أو غير دائم... وأخيراً أجاب بوذا السائل قائلاً: هل قلت لك جئني أعلمك عن الذات وعن الكون، لا لم أقل هذا، أيها السائلون لا تفكروا كما يفكر الناس بل فكّروا هكذا: هذا ألم، هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم...

وقد اتجه بوذا أحياناً إلى الإنكار أكثر من اتجاهه إلى الإثبات فقد وقف في إحدى خطبه يسخر ممّن يقولون بوجود الإله، وقد قال في ذلك: إن الذين يتكلمون عن الله، لم يروه وجهاً لوجه، فهم كالعاشق الذي يذوب كمداً وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلّم وهو لا يدري أين يوجد القصر، أو كالذي يريد أن يعبر نهراً فينادي الشاطئ الآخر ليقدم له.

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحياناً اتّجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد، الإيمان بإله اتجاه نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكاً واضطراباً، من أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون في الإله ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه.

ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً فقد لعبت بهم الأهواء فاتحة بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضاً بل إن روح الله قد حلّت به بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتي هبط إلى هذا العالم لينقذه ممّا فيه من شرور. وقد ساهمت اتجاهات البوذية الخلقية واللاعقائدية في سرعة انتشار البوذية في الهند لسهولة هذه الاتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس. وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية في أخلاقها، ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس، ومنها بدأت البوذية تختلط في مظاهرها بالهندوسية، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالآلهة الهندوسية ويتقربون إليها، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة لها، بل كانت

خليطاً منها ومن الهندوسية، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى في الهند شيئاً فشيئاً وقد وضع البوذيون الذين قالوا بأن بوذا كائن إلهي، تمثال بوذا بين آلهة الهندوس ولم يعارض الهندوس هذا الأمر لأن العقل الهندي لا يضيره مثل هذه الأمور. وقد ذاب بمرور الزمن تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة وذاب أتباع البوذية بين الهندوس. فلم يعد للبوذية بعد ذلك شأن يذكر في شبه القارة الهندية، هذا وقد انتعش آلهة آخرون بجوار تمثال بوذا في البلدان الأخرى التي دخلتها البوذية حيث ظهر في اليابان تمثال الإله شنتو ***Shinto*** وفي الصين تمثال الإله تاوسيم ***Taosim***.

وذوبان بوذا في آلهة الهندوس ليس إلا عوداً إلى تفكير الجنانا يوجا الذي يرى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقاً ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسفة، ويرى أن أي دين أو فلسفة ليس هو كل شيء وليس هو كل الحق، ومعتنق هذا التفكير لا ينتمي إلى دين أو مذهب لأنه يرى أتباع كل الديانات المختلفة إخوة له مهما اختلفوا، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع ويأبى أن يتقيد بقيود أي منها.

ك. تعاليم البوذية

البوذية دين أم فلسفة؟ للإجابة على هذا السؤال ينبغي التوقف على فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا، ومتصرفة في أقدارنا، وقبول طائفة من المعتقدات على أنّها حقائق كشفت لنا، فإن بوذا بمقتضى هذا لم يكن صاحب دين فقد رأيناه لا يتكلم عن الله بل ربّما سخر ممن تكلموا عنه فيرى أن أتباع بوذا بعده رفعوه إلى درجة الآلهة وقبلوا كلماته على أنّها حقائق لا يتطرق إليها شك. وهم لهذا يرفعون فلسفة بوذا إلى مستوى الدين، ويرون أنه لم يتكلم عن الله لأنه هو الله. فالبوذية بناء على رأي بوذا فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين. إلا أن بعض المفكرين الغربيين يرون أن البوذية دين لأنها ترسم الطريق للتخلص من الذنوب، ولأن فيها جانباً روحياً، ولأن معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان.

١. لا عقائد بل عمل:

نقل العلاّمة الهندي رادها كرشنن أن بوذا لم يكن نبياً لأنه لم يقرر عقائد، ولم يكن أيضاً فيلسوفاً لأنه لم يؤسس مذاهب فلسفية، وإنما أسّس دعوته بناءً على تجربته الروحية التي لا يمكن بيانها بالألفاظ، فدعوته حكاية عن هذه التجربة، وعن الطريق المؤدي إليها. وبوذا يقول: إنّ الحق لا يعرف بالنظريات،

بل يعرف بالسير المتواصل في طريقه وفي ذلك يقول أيضاً: إنّ عملي ملكي وعملي ميراثي، وعملي هو الرحم الذي يحملني وعملي هو الجنس الذي أنتمي إليه وهو الملجأ الذي ألتجئ إليه. فأساس النظام الذي وضعه بوذا هو العمل لا العقيدة، فقد كان يحاول خلق عادة لا إقرار عقيدة، وعلى هذا ليس في تعاليمه إلا القليل الذي يصحّ أن يوصف بالعقيدة، كما أنه لم يأمر بعبادات ولا رياضات تقشفية وكل إلحاحه كان على التدريب الأخلاقي.

٢. أخلاق الجماعة البوذية:

كان أتباع بوذا جماعة واحدة لا يوجد بينهم طائفة من القساوسة والرهبان، وكانوا يتعاونون على الوعظ والإرشاد ويلتزمون حياة شعارها ضبط النفس من الشهوات، وليس هناك شعائر يتبعها من يريد الالتحاق بالبوذية، وعلى الراغب في الالتحاق بها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته للسؤال وينضم إلى الجماعة ويتخلق بأخلاقهم. ومن أهمّ الأخلاق البوذية احترام الحياة إنسانية كانت أم حيوانية فليس للبوذيّ أن يقتل حيواناً في لهوٍ كالصيد أو في جدٍّ كذبحه للأكل بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعدّه أخاه في الخلق. فالهدوء الروحي والحب لكلّ نسمة هو ما أرشد له بوذا. وتعتبر المحبّة الشاملة من أفضل الأعمال الحسنة لدى الجماعة البوذية وقد قال بوذا في ذلك: الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التي تحرر القلب من شوائب الشّر، لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحسنات، إن المحبة تشرق نوراً وبهاءً، ترون الأم تحيط بوليدها حتى في الأخطار التي تهدد حياتها، كذلك يجب على كل إنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق.

٣ . فلسفة الثروة:

ومما يتصل بالثروة رأيه في العمل والبطالة فقد كان واضحاً من سياسة «**الكشكول**» والسؤال هنا هل أنّ بوذا يتّجه للبطالة؟ولذلك سأله أحد الجينيين مرّة: هل أنت تدعو إلى ترك الأعمال وهجر الأشغال؟ فأجابه: إني أدعو إلى هجر ما لا يجوز فعله للجسد اللسان والفكر، وكذلك أدعو إلى ترك كل عمل قبيح يجرّ إلى الشرور، ولكني الى جانب هذا أدعو إلى القيام بكلّ ما هو حسن للجسد واللسان والفكر، وكذلك أدعو إلى الإقبال على كل عمل يؤدي إلى الخير والسعادة.

٤ . إلغاء الطبقات:

نادى بوذا بإلغاء نظام الطبقات، ومن أقواله: اعلموا أنه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب في البحر، كذلك تبطل الطبقات الأربع عندما يدخل الشخص في النظام ويقبل الشريعة.

٥ . المرأة في البوذية:

قال العلاّمة رادها كرشنن: إن المرأة الهندية في عصر بوذا لم تكن منعزلة، ولكن مع ذلك نجد بوذا يتردد كثيراً في قبولها لتكون من أتباع دينه، وقد سأله مرة أحد خاصته وهو ابن عمه آنندا:

كيف نعامل النساء أيها السيد؟

فأجاب: لا تنظر إليهن

ولكن إذا اضطررنا للنظر إليهن؟

لا تخاطبهن.

ولكن إذا خاطبننا؟

كن على حذر تام منهن.

وكان آنندا من أنصار المرأة، من هنا ألحّ على بوذا حتى قبل بضمّ النساء إلى جماعته وأتباعه على أنه على الرغم من ذلك كان يرى في هذا خطراًعلى المجتمع البوذي وقد قال لآنندا مرة: لو لم نضمّ المرأة لدام الدين الخالص طويلاً، أما الآن بعد دخول المرأة بيننا فلا أراه يدوم طويلاً.

أمّا الفترة الثانية والتي امتدت من القرن الأول حتى الخامس الميلادي بدأت البوذية انتشارها باتجاه الشرق إلى البنغال وباتجاه الجنوب الشرقي إلى كمبوديا وفيتنام، أمّا في القرن الثالث فانتشرت إلى الصين وأواسط آسيا ثم اتجهت بعد ذلك إلى الشمال الشرقي فدخلت كوريا وقد ساهم الحجّاج الصينيون في نشر البوذية في تلك البقاع وكانت تتعاون تعاوناً تاماً مع النظام الملكي الذي كان مسيطراً خلال هذه القرون على هذه الأقطار وهكذا انتشرت البوذية وكثر أتباعها وانتشرت معاهدها بشكل واسع وملفت للنظر.

ثم تابعت انتشارها بعد ذلك من القرن السادس وحتى العاشر الميلادي وبخاصة في كوريا والصين واليابان وزادت مواكب الحجاج في هذه الفترة وكثر نشاطهم وتنقلهم بين البلاد التي دخلتها البوذية.

أما في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر وحتى الخامس عشر فقد ضعف انتشار البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك بسبب عودة النشاط الهندوسي في الهند إضافة إلى ظهور الاسلام في الهند وفي سواها من الأقطار التي كانت تتربع فيها البوذية.

أما الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين فاعتُبرت فترة دقيقة من تاريخ البوذية، إذ وقفت البوذية وجهاً لوجه أمام تحدي الفكر الغربي الذي حمله الاستعمار إلى تلك البقاع حيث أدخل اتجاهاته الفكرية وإصلاحاته.

ل. انتشار البوذية

انتشرت البوذية في عهد بوذا انتشاراً واسعاً بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا، أما طبقة الملوك والجنود فقد دخلت البوذية تخلصاً من سلطان البراهمة الذين أثاروا سخط جميع الطبقات الأخرى، باستبدادهم وتعسفهم، وأما الطبقات الدنيا فقد دفعت بنفسها إلى البوذية لتتخلص مما عانته في رحاب الهندوسية من اضطهاد واحتقار. ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد موت بوذا بما أنها تركت فراغاً كبيراً في نفوس أتباعها وبمرور الزمن ملأ أتباعها هذا الفراغ بآلهة الهندوس أو بعبادة بوذا نفسه واتخاذه إلهاً. لم يأمر بوذا أتباعه بممارسة أي لون من ألوان العبادة ولهذا السبب لجأ أتباعه إلى معابد الهندوس فوضعوا فيها تمثال بوذا، من هنا أخذت البوذية تتلاشى في الهندوسية.

ومن أسباب ضعف البوذية في الهند اهتمامها بإصلاح الباطن أي إصلاح الأخلاق، فحاربت الشهوة والغرور والكبرياء وألزمت بالشُّعب الثماني من رأي سليم وسلوك حسن وشعور صائب، ولكن الهندوسية قنعت بأشياء ظاهرية كالغسل في الأنهار المقدسة والأخذ بالطقوس والقرابين بمعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالجة الأمور الباطنية وهكذا تخلى البوذيون عن صراعهم مع أنفسهم يوماً بعد يوم واكتفوا بقربان يقدمونه كما ترى الهندوسية.

هذا ما آلت له حال البوذية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، فقد ضعفت البوذية وانكمشت وجاء الملك العظيم آسوكا والبوذية على وشك الانهيار فاعتنقها وبعث فيها الحياة ودفع بها إلى الخارج. وقد كان الإسكندر المقدوني قد استولى على السند في زحفه نحو الشرق ولكنه لم يتقدم نحو نهر الكنج ولم يستولِ على باقي الهند وذلك بسبب رفض المقدونيين السير معه في ذلك العالم المجهول، فألَّفَ والمقدونيين ـ وهم عبارة عن مملكة صغيرة في الهند وفي سنة ٣٢١ ق. م. ـ كَمّاً. وتمكن الأمير شاندرا جويتا ***Chandragupta*** من أن يجمع حوله قبائل عديدة وأن يستولي على المملكة الإغريقية بالبنجاب ويزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي وجاء ابنه بعده فبسط رقعة مملكته،فلمّا جاء حفيده آسوكا وجد نفسه حاكماً على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس وسار آسوكا في مطلع حياته على خطى أبيه وجدّه في محاولة للتوسّع مستخدماً الحرب ذريعة لذلك. وقد أحس آسوكا بعد ذلك باشمئزاز من قساوة الحرب فتخلى عنها وكره النصر عن طريقها، فتبنى مذهب البوذية ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين في ميادين الدين. وتشير الأساطير إلى أن هذا التحول كان بسبب ما ناله من حيرة وبسبب تأنيب ضميره لقتله إخوته وعددهم تسعة وعشرون وحرقه زوجاته وجواريه.

استمر حكم آسوكا ثمانية وعشرين عاماً، حيث قام بحركة عظيمة للخير والثراء فحفر الآبار وزرع الأشجار، وأنشأ المستشفيات والحدائق العامة والبساتين، واهتم بأهالي الهند الأصليين، ودعا إلى تعليم النساء وأرسل البعوث الدينية إلى كشمير وسيلان وفارس والإسكندرية.

وهكذا انتقلت البوذية من مذهب ضمن المذاهب الدينية الهندية إلى دين عالمي، وقد لبى أهل سيلان دعوة آسوكا في اعتناق الدين الجديد.

وقد تنازل آسوكا بعد ذلك عن ممتلكاته ولم يستبقِ إلا ثمانية أشياء ضئيلة هي أردية ثلاثة صفراء ونطاق يشدها به وإبرة لترقيع الأردية وموسى لحلق شعره وغربال لتصفية الماء قبل شربه.

وأرسل آسوكا رجالاً للتجول في البلدان يرغبون الناس في النسك والورع ويعلمونهم مكارم الأخلاق، ليسهل على الناس الاقتداء بهم وعهد إليهم أيضاً النظر في الأعمال الخيرية وإدارة شؤونها ليزيد نفعها.مات آسوكا وقد انتشرت البوذية في الهند والبلاد المجاورة لها ولكن البوذية في الهند عادت بعد قليل تصارع الهندوسية كما فعلت من قبل ولم تستطع البوذية أن تثبت في هذا الصراع فالهندوسية كانت أثبت وأكثر صلة باتجاهات السكان وميولهم فاضمحلت آمال البوذية، وأخذت تنحدر حتى انحسرت عن الهند تقريباً. أمّا في البلاد المجاورة فسارت البوذية بنجاح وكثر أتباعها حيث بلغ عددهم حوالى ٥٠٠ مليون نسمة ينتشرون في بورما والصين وتايلاند وسيلان. وهناك نوعان من البوذية، القديمة انتشرت في بورما وتايلاند ويطغى عليها الطابع الأخلاقي والتربوي. أمّا الجديدة فتنتشر في الصين واليابان وإندونيسيا وقد اختلطت بالآراء والنظريات الفلسفية وأتباعها أكثر من أتباع االقديمة أما البوذية في الصين فقد صبغها الصينيون بثقافتهم وحياتهم فجعلوا آلهتها ثلاثة وثلاثين على نحوِ ما كانوا يعملون قبل البوذية، وأقاموا لها المعابد الجذّابة التي تزينها الفنون الجميلة. وسبب إقبال الصينيين على البوذية يعود إلى أن البوذية دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوذا إلهاً وأصبح تمثاله وقفاً يعبد وتُقدّم له القرابين وتُقام له الصلوات. اقتحمت البوذية حوالي ثلاثين قطراً في آسيا وكان تأثيرها عظيماً في آداب هذه الأقطار وفي اتجاهاتهم الدينية ومنذ القرن التاسع عشر اتّصل الفكر البوذي ببعض دول أوروبا فأصبح للفكر البوذي أثره في الفلسفة الغربية والأدب الأوروبي والموسيقى وغيرها من الفنون الثقافية.

وقد شهدت الفترة الأولى (من مطلع البوذية حتى القرن الأول الميلادي) تحولاً كبيراً في العقيدة البوذية فيما يتصل ببوذا، فقد كان معلماً ورجلاً عظيماً ثم أصبح بعد ذلك رجلاً مقدساً فمعبوداً فإلهاً وقد ظهر خلال هذه الفترة الإمبراطور آسوكا الذي دفع بالبوذية إلى خارج حدود الهند، وبدأت البوذية تبني المعابد وتضع فيها الآلهة كما بدأت تقيم الجمعيات التي ترعى الحياة الاجتماعية وتشرف على شؤون الدين وبخاصة في الهند وسيلان. أما في الفترة الثانية والتي امتدت من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلادي فقد بدأت البوذية انتشارها باتجاه الشرق إلى البنغال وباتجاه الجنوب الشرقي إلى كمبوديا وفيتنام. أما في القرن الثالث فامتدت إلى الصين وأواسط آسيا ثم اتجهت بعد ذلك إلى الشمال الشرقي فدخلت كوريا وقد ساهم الحجاج الصينيون في نشر البوذية في تلك البقاع وكانت تتعاون تعاوناً تاماً مع النظام الملكي الذي كان مسيطراًخلال هذه القرون على كلّ هذه الاقطار. وهكذا انتشرت البوذية وكثُر أتباعها وانتشرت معاهدها بشكل واسع وملفت للنظر. ثم تابعت انتشارها بعد ذلك من القرن السادس وحتى القرن العاشر الميلادي وبخاصة في كوريا والصين واليابان وزادت مواكب الحجاج في هذه الفترة وكثُر نشاطهم وتنقلهم بين البلاد التي دخلتها البوذية. أمّا في الفترة من القرن الحادي عشر وحتى القرن الخامس عشر فقد ضعف انتشار البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك بسبب عودة النشاط الهندوسي في الهند إضافة الى ظهور الإسلام في الهند وسواها من الأقطار التي كانت تتربع فيها البوذية.

أما الفترة الأخيرة من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين فاعتبرت فترة دقيقة في تاريخ البوذية، إذ وقفت البوذية وجهاً لوجه أمام تحدي الفكر الغربي الذي حمله الاستعمار إلى تلك البقاع حيث أدخل اتجاهاته الفكرية وإصلاحاته التربوية وفلسفاته في مختلف الشؤون. ولم تجد البوذية بدأً في أن تتعاون طوائفها

لتقف في وجه هذا الزحف الفكري، وهكذا التقت الفرق البوذية أو قربت بعضها من بعض لتقوى على النضال في معركتها مع المسيحية الغربية والفلسفات الأوروبية، وقد تبنت البوذية كثيراً من الاتجاهات الغربية كما تشربت المسيحية بعض الأفكار البوذية وتُبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتين الفلسفتين وتطور التعليم في المعابد فاقترب من مستوى كليات الغرب وجامعاته وقد تم التعاون في الخدمات الاجتماعية بين البوذيين الغربيين. إنّ الجيل الجديد في أكثر البلاد التي تدين بالبوذية غير قانع بها، وإن طبقة المثقفين على وجه الخصوص تنظر إلى طقوس البوذية بشيء من السخرية ويراها أكثرهم تاريخاً يصعب أن يعيش في الحاضر وأن يجاري مقتضيات الحياة الحديثة وقد نتج عن ذلك الشعور فراغ في نفوس المثقفين في هذه البلاد وتحاول المسيحية جاهدة أن تملأ هذا الفراغ وأن تجذب لها هؤلاء المترددين وفي سبيل ذلك تتبنى المسيحية بعض طقوس البوذية واحتفالاتها حتى تقترب من هؤلاء الشبان وحتى لا تبدو لهم شديدة البعد كما ألفوه، وما شاهدوا عليه أهلهم وذويهم.

هناك أشكال متعددة في البوذية التي تأثرت بثقافات البلدان التي انتشرت فيها، ففي الهند باتت هناك بوذية مطعمة بالهندوسية وبعضهم أضاف تمثال بوذا إلى تماثيل آلهة الهندوس، وفي الصين بوذية متأثرة بالكنفوشية وفي اليابان بالشنتوية، وقد تسربت إلى بعض مذاهب البوذية مفاهيم من أتباع الرسالات السماوية كالمسيحية والإسلام، ولا يخلو الأمر من مفاهيم بوذية دخلت في مذاهب عند غير البوذيين. ويتجاوز عدد البوذيين اليوم ٤٠٠ مليون نسمة وهم موجودون في الهند ونيبال والصين وماليزيا وهم يشكلون الأغلبية السكانية في الدول التالية: بورما – بوتان – تايوان – تايلاند – سنغافورة – فيتنام – كمبوديا. درست المسيحية الأوروبية هذا الوضع، ووضعت الشباك لتصطاد هؤلاء ولتجذبهم إلى حوزتها، بل أنشأت مسيحية يمكن أن نسميها المسيحية البوذية

تتبنى بعض طرق البوذية حتى لا يحس الناس بالفارق الكبير بين الدين الذي ألفوه وبين الدين المسيحي الذي يدعوهم، ويجذبهم ويفتح لهم أبوابه،نشرت الدعاة في كلّ مكان وبنت الكنائس والمستشفيات والمدارس المسيحية لتجذب الناس ووزعت ملايين النسخ من الإنجيل باللغات المحلية مجاناً بنشاط كبير. وليس هذا الوضع خاصاً بدولة من الدول وإنما هو وضع شامل لدول شرقي آسيا، إنك تراه في اندونيسيا وبورما وماليزيا مع اختلاف قليل أو كثير، تجد قلوباً فارغة لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها ولا استطاعت اللادينية أن تقنعها. إن هذه المشكلة ليست دينية فحسب، إنها مشكلة سياسية فانحياز هذه البلاد إلى المسيحية الأوروبية معناه فوزٌ سياسي تسعى له أمريكا وأوروبا جاهدتين.

لم يناقش بوذا موضوع الألوهية والخلق وعالم الغيب،من هنا صعُب على الدارس أن يصنّف بوذية بوذا بين الديانات الوضعية. آمن بوذا ككل الهندوس بالتقمص وانتقال الأرواح من بدن إلى آخر طلباً للخلاص الذي يتحقق بالنيرفانا التي تعني الإخماد أو الانطفاء تمهيداً لاتحاد النفس بالروح الكلية وهي عند البوذيين الاتحاد ببوذا المخلّص. يزعم البوذيون أن زعيمهم بوذا قبل أن يصبح الرجل المستنير تقمصت روحه في ٥٣٠ جسداً منها ٤٢ حالة تقمص في أجساد آلهة و٨٠ حالة في أجساد ملوك. ويعتقد البوذيون أن الموت الجسدي لا ينهي وجود الإنسان فالميت يبعث من جديد في شخص آخر أو في إله أو في حيوان. يعتقد البوذيّ أنّ خلاصه من الألم يكمن في التخلي عن أناه بكل أبعادها وصولاً إلى الخلاص من خلال النيرفانا التي تحقق الاتحاد ببوذا. وقد نقل أرنولد توينبي هذه الفلسفة اللاهوتية بقوله: «كان على الراهب البوذيّ أن يجاهد بكل مقدرته حتى يتم الوصول الفردي إلى النيرفانا وذلك لأن الكاهن مع أنه يستوحي تعاليم بوذا وقدرته لا يستطيع أن يطلب من بوذا نفسه العون الروحي. لأن بوذا نفسه بعد أن وصل إلى حالة النيرفانا لم يعد الوصول إليه ممكناً.

لقد ظلت النيرفانا الهدف الأخير للراهب الماهاياني لكن الهدف الأول لهذا الراهب كان أن يصبح بوذيساتفا (المستنير) وكان يتطلع إلى الحصول على العون في محاولته بلوغ هذا الهدف من مجمع البوذيساتفا القائمين والذين يمكن أن يتقدم إليهم للحصول على هذا العون، فالبوذي الماهاياني كان يأمل في الوصول إلى هدفه المباشر بمساعدة بوذيساتفا وهذا لم يكن المقصود منه الوصول إلى النيرفانا بل الوصول إلى الإقامة في السماء. والبوذيساتفا هو عامل في التجربة الروحية التي وضع النيرفانا بوذا أسسها. لقد وصل عتبة النيرفانا وأصبح باستطاعته الآن أن يدخلها إذا اختار ذلك، إلا أنه قد اختار بدلاً من ذلك (كما اختار بوذا نفسه) وكان اختياره تطوعاً أن يؤجل دخوله، وذلك كي يقدم المساعدة لزملائه المنتظرين، إن المؤمن الحق هو الذي يعرف طريق النيرفانا فلا يحتد ولا يغضب بل يكون طاهر القلب صافي النية مبتعداً عن الشر قولاً وفعلاً هو الزاهد السالك في سبل العالم حسناً. إن هذا النظام الحياتي الذي يقود إلى النيرفانا يعدّ نظاماً يؤسس رهبانية قاسية تغالي في إماتة البدن والهوى وفي هذا تلتقي البوذية ثانية مع الرهبانية في المسيحية ومع ما وفد إلى طرق صوفية كثيرة تعتمد هذا النظام. هذه هي إذاً اهتمامات البوذية لذلك تتمحور وصايا البوذية باتجاه ما يحقق ذلك ولا تهتم بالعبادة أو بطقوس معينة وربما تكون بذلك قد تركت الحرية لأتباعها ليمارسوا الشعائر التي يرون فيها ما يحقق هذا التطهر وصولاً للخلاص من خلال الاتحاد بالمخلّص بوذا. وهكذا فالبوذية لما مضى كله نسميها فلسفة لا ديناً له طقوسه وشعائره فهي تركز على الزهد والتأمل العقلي وإخماد الشهوات وصولاً إلى الخلاص بالنيرفانا لكن البوذية مع الزمن تأقلمت مع المناخات الدينية التي نشأت فيها قبات للبوذيين معابدهم وفيها تماثيل لبوذا ويؤدون فيها بعض الطقوس.

أثبت التاريخ الداخلي للبلاد البوذية ازدهار البوذية في أوقات السلام فقد استخدمت باستمرار فنون السلام بنجاح تام لخدمة أهدافها، فالرجل البوذي بموقفه الباطني هو بحدٍّ ذاته قوة فعالة لصنع السلام، فحتى عند الاختيار بين التسامح والإحسان من ناحية وبين العداء وامتلاك الحقيقة المطلقة من ناحية أخرى نجد أن البوذيين يفضلون بصفة عامة الخيار الأول وهذا ما نلمسه من خلال انتشارها في كافة البلدان فقد احتلت البوذية في الهند في العصر الحديث المرتبة الثالثة بين الأديان الهندية الكبرى، وقد تمتعت بمكانة مرموقة في اليابان وسريلانكا وتايلند وكمبوديا وفيتنام ولعل فن النحت البوذي والرسم والعمارة خير شهادة ناطقة على الأثر الرفيع الذي كان للبوذية على المجتمع البشري فالسلام الذي أعلنه البوذا هو سلام عالم أزلي.

الفصل الثالث

الديانة الجينية

أ. منشأ الجينية.

ب. نشأة مهاويرا.

ج. عقائد الجينية.

د. الجينية والآلهة.

هـ. الكارما والتناسخ.

و. الحسنة والسيئة عند الجينية.

ز. النجاة في فكر الجينية.

ح. الانتحار والعري.

ط. فلسفة الجينية.

ي. اليواقيت الثلاثة.

ك. طهارة الروح.

تمهيد

يعتبر القرن السادس قبل الميلاد من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة، ففى كلّ مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة، وفي كل مكان كان الناس يستيقظون مما مرّ عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان والقرابين، ويسألون أشدّ الأسئلة تعمقاً ونفاذاً، وكأنّما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة. ففي هذا القرن ظهر بالهند مهاويرا معلم الجينية، وظهر غوتاما مؤسس البوذية، وظهر بالصين كونفوشيوس المربي العظيم، وفى إيران ظهر زرادشت، وبين بني إسرائيل قام شعيا وغيره من المعلمين، وفى بلاد الإغريق ارتفع صوت فيثاغورس، وفى مدينة إفيسس تجلّى هيراقليتوس يواصل تأمّلاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء، وهكذا هبّت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها فى كل مكان. ومن بين ألوان النشاط الفكري التي انبثقت فى القرن السادس ق.م. كان كما قلنا. ظهور مهاويرا وبوذا بالهند، ويلاحظ على أفكار هذين المعلمين، بل على أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود أنّها دارت في الفلك الهندي ولم تتجاوزه، فالجميع يرون أن الحياة الدنيا تعاسة، والعيش فيها ويل، والتغير والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام، والجميع يقولون بتكرار المولد، وبالزهد وسيلة... وإذا شذّ أيّ مفكّر هندي عن هذا الإطار ضاع صوته دون غناء، ومن أجل هذا أيضاً لم تستطع البوذية الصمود فى معركتها ضدّ

الهندوسية حول موضوع الطبقات، وغادرت البوذية وطنها ثمناً لهذا الخلاف، ودخل نظام الطبقات إلى البوذية بشكل عملي وإن أنكرته نظرياً، أمّا الجينية فقد اضطرت بعد فشل مقاومتها إلى العودة لقبول نظام الطبقات بشكل ما، فقررت الاعتراف بالبراهمة ورسمت إجلالهم.

أ. منشأ الجينية

كانت الجينية فرقة واحدة طيلة حياة مهاويرا، ولم يحدث بها إلا خلافات غير عميقة الجذور سرعان ما كانت تلتئم، وبعد وفاة مهاويرا حدث انقسام خطير شطر الجينية إلى فرقتين تسمى إحداهما ديجامبرا ***Digambara*** أي أصحاب الزيّ السماوي أي الذين اتخذوا السماء كساءً لهم (والمقصود بهم العراة) والثانية تسمى سويتامبرا ***Swetambara*** أي أصحاب الزيّ الأبيض، وعن هاتين الفرقتين حدثت فرق أخرى كثيرة غير مهمّة، ويلاحظ أنّ تعدد الفرق لم يمس الفلسفة الأصيلة للجينية أو العقائد الرئيسية التى سبق أن تحدثنا عنها، وإنّما اتصل بأمور ونقاط غير مهمة، وتحدث عن تفاصيل الأساطير وممارسة التقشّف، ففرقة ديجامبرا ترى أن مهاويرا حملت به أمه «**تري سالا**» في بدء الأمر، إلّا أنّه استلّ جنيناً من رحم ديونندا البرهمية، ثم أُلقي به فى رحم «**تري سلا**» كما تعتقد فرقة سويتامبرا، وتنفي فرقة ديجامبرا عن مهاويرا ما تراه غير لائق به، فتقول إنّه لم يتزوج قط، وإنه هجر البيت والدنيا منذ مطلع حياته غير مبال بعواطف والديه، ويعتقدون أن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشيء، ويقولون إنّ من يملك شيئاً من متع الدنيا ولو كان ثوباً واحداً يستر به عورته لا ينجو، ويرون أن النساء لا حظّ لهنّ في النجاة ما دمنَ في قوالب النساء، إلا إذا دخلت أرواحهن فى قوالب أخرى فى حياة من الحيوات المتكررة، ويعتقدون أنّ التراث الديني المقدّس للجينية

قد ضاع كلّه: وأمّا ما تتلوه فرقة سويتامبرا فموضوع مختلف. أما فرقة سويتامبرا فرقة معتدلة، ترى أن مهاويرا وإن كان ميالاً من وقت أن بدأ شعوره إلى هجر الدنيا وقطع العلائق، إلا أنّه لم يفعل ذلك في حياة والديه احتراماً لإحساسهما، ويروون عنه قوله في ذلك: ولا يليق بي وأنا الابن البار أن أنتف شعري وأقبل على حياة التقشف والحرمان تاركاً البيت والأسرة احتراماً لعواطف والدي، وهم يبيحون الطعام للعرفاء، ويرون إمكان النجاة للنساء.

وهناك افتراق حدث للجينيين بسبب مجاعة شديدة نزلت بموطنهم الذي كانوا يتجمعون فيه في بلاد مكدا، فلجأ عدد كبير منهم إلى الهجرة طلباً للعيش وتخفيفاً للعبء عن سكان المنطقة، وذهب هؤلاء إلى الجنوب بزعامة بدرا باهوا ***Bhadra Bahu*** وقد سبق أن ذكرنا أن الجينية فرقتان: خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل، وعامة وهم الذين يؤيدون النظام الجيني، ويساعدون الرهبان مادياً، ويباشرون حياة العمل، مع تخلقهم ما استطاعوا بأخلاق الفكر الجيني، وقد كان لهؤلاء وأولئك نصيب في تاريخ الجينية، ومن أهمّ ما قالت به الجينية، ممّا حبّب هذا الدين للحكم والملوك، انّ الجينية مع أنها لا توقع أذى بذي روح توجب أن يطيع الشعب حاكمه، وتقضي بذبح من يعصي الملك أو يتمرد عليه، ولعلّ هذا هو الذي جعل الملوك والرجاوات يقبلون على الجينية ويعتنقونها ويؤيدونها سواء في وادي الأندوس أو في الدكن. اهتم في بداية العصور الأولى برعاية الجينية وأتباعها، وأصبح للرهبان الجينيين نفوذٌ كبير في بلاط كثير من الملوك والحكام، لا سيما في بلاط الملك سدراج والملك كماربلا، وبعد سقوط أمبراطورية ديجانكر بقي في الجنوب حكّام صغار من الجينيين إلى أن ظهرت سلطة الإنكليز، وفي عهد الحكم الإسلامي نالوا كذلك الاحترام والتقدير، واستخدمهم الملوك المسلمون في بلاطهم وفي كثير من الأعمال، وجاء الأمبراطور الشهير أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥م) الذي أدار ظهره للإسلام واتجه إلى خلق دين

جديد مزيج من جميع الأديان، وبخاصة أديان الهند الأصلية، فاحتضن الجينية، وخلع على المعلم الجيني «هيراويجيا» لقب(معلم الدنيا) ومنع ذبح الحيوانات أيام أعياد الجينيين في المناطق التي يوجد بها أتباع لهذه الطائفة.

الجينيون من طبقة العامة، أي الطبقة التي تباشر الأعمال وتساعد الرهبان، يكثر أن يعرضوا عن الزراعة خوفاً ممّا تستلزمه من قتل بعض الديدان وإلحاق الضرر بما فيه روح، ويتجه هؤلاء غالباً إلى التجارة وإقراض النقود وأعمال البنوك ممّا يقلّ فيه الاعتداء على ذوي الأرواح، وقد ضمنت لهم هذه الأعمال نصيباً كبيراً من الثراء والرقيّ الاقتصادي، حتى أصبح معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس في التجارة والمعاملات المالية، وقد مكّنهم ثراؤهم من أن يلعبوا دوراً هاماً في خدمة الثقافة الهندية والتراث العلميّ والفنيّ على العموم.

وللجينيين أيادٍ واضحة بصفة خاصّة في خدمة فنّ العمارة، فقد برعوا في النحت وإقامة التماثيل وتشييد العمارات والمعابد براعة فائقة، وقد نحتوا الكهف العظيم المسمّى «هاتي كنبا» في منطقة أوريسة في القرن الثاني قبل المسيح. والكهوف الجينية كثيرة ومنتشرة في مختلف أنحاء الهند، والجينيون مولعون ببناء المعابد، والمعبد ضروري للمجتمع الجيني، كما أنّ تعميره فرض ديني عندهم. ولا تجد ديانة تعتدّ بالمعابد اعتداد الجينية، ولا تجد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الفخمة أعظم ممّا شادته الجينية، فالحقّ أنّ معابد الجينية في كهجورا وجبل آبو وهي عجائب فنّ البناء في الهند، والحقّ أنّه يخيل إلى الناظر في أروقتها شبه المظلمة، اهتزاز قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يشعّون حياة ويكتنفون أحد الجيناوات البادي هادئاً رزيناً متربعاً في جلوسه على العموم، وهو في حالة عرض كامل.

ويبلغ تعداد الجينيين الآن حوالي المليون، وكلّهم في الهند، فالجينية كالهندوسية لم تخرج من الهند، ومستواهم الاجتماعي والثقافي راقٍ في الغالب، وعنايتهم بالثقافة لا تقلّ عن عنايتهم بالمال والفنون.

وضع البراهمة نظام الطبقات، وخصّ البراهمة أنفسهم بكثير من الامتيازات التي ذكرنا بعضها عند الكلام عن نظام الطبقات، وفي ظلّ هذا النظام استبدّ البراهمة وظهر تعسفهم وطغيانهم أحياناً، وضجّ الناس من استبداد البراهمة وجورهم وتمنوا ظهور قائد روحي جديد يخلصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم؛ وكانت طائفة الكشتريا أكثر الطوائف إحساساً بهذا الظلم لشدّة ما بين الطائفتين من تنافس كنتيجة لقرب المسافة بينهما. ويمكننا هنا أن نشير إلى أسطورة وردت في مهابهارتا تدلّ على مدى ما بين الطائفتين من أضغان، وتتصل هذه الأسطورة بالأميرة «**ديوناتي**» وهي من طبقة البراهمة خرجت في نزهة في فصل الصيف، مع «**سرمستها**» بنت ملك أسورا ومعهما بعض الأتراب، ووصلن بحيرة، فخلعن ملابسهن ونزلن للاستحمام، فهبت عاصفة حملت ملابسهن وخلطتها بعضها ببعض، وخرجن من البحيرة، فأخطأت «**سرمستها**» بنت الملك ولبست ملابس «**ديوناتي**» البرهمية فقالت لها «**ديوناتي**»: ألا تعلمين أيتها الجاهلية أن كسوة بنت الشيخ أكبر من أن ترتديها بنت التلميذ هل أنت بلهاء إلى هذا الحد؟ فغضبت «**سرمستها**» وأجابت: أنا بنت ملك يذكره الناس شاكرين أياديه، وأنت بنت رجل يعيش على الإحسان، عشيرتي عشيرة البرّ، وعشيرتك عشيرة الاستعطاف والتّسول... وأخرجت كل منهما ما في جعبتها من الحقد، ولم يقنع البراهمة بعد ذلك إلا بعقوبة قاسية تقع على بنت الملك، واختارت «**ديوناتي**» العقوبة التي ترضيها، وهي أن تصبح بنت الملك خادمة لها في المنزل الذي ستتزوج فيه.

وهكذا كان هناك سخط من كل الطبقات ضدّ استبداد البراهمة، وكان الكشتريا أكثر الطوائف سخطاً، ثم كانوا لقوتهم المسؤولين عن مقاومة طغيان البراهمة

وجبروتهم؛ وهكذا دبّ في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة، وقوي هذا الإحساس على مرّ الزمن، حتى جاء القرن السادس فإذا بالإحساس يصبح واقعاً؟

فهبّت ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسية.

ب. نشأة مهاويرا

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشتريا التي تسيطر على أمور السياسة والحرب، وكانت أسرته تقيم فى «بيساره» وهي بالقرب من المدينة المسماة الآن «بتنا» بولاية «بيهار» وكان أبوه «سدهارتها» عضواً في المجلس الذي يحكم المدينة أو قطاع المحاربين فيها، وتزوج «سدهارتها» من بنت رئيس هذا المجلس واسمها «ترى سالا» وارتقت مكانة «سدهيهارتها» حتى وصفته بعض الروايات بأنه كان أمير المدينة أو ملكها، وكان مهاويرا الابن الثاني لوالديه، ولذلك آلت الإمارة إلى أخيه عقب وفاة الأب. وكان مولد مهاويرا سنة٥٩٩ ق.م. وفي اليوم الثاني عشر لولادته اجتمع أعضاء الأسرة في حفل كبير، ودعيت عمّة الطفل لتختار له اسماً كالعادة، غير أن والديه ذكرا أنّ الأسرة نعمت بالرخاء والخير منذ حملت به أمه، واقترحا لذلك أن يسمى «وردهاماتا» أي الزيادة، ولكن أتباعه يدعونه «مهاويرا» مدّعين أنّه الاسم الذي اختارته له الآلهة ومعناه البطل العظيم، ويدعى كذلك «جينا» أي القاهر والمتغلب، وبهذا الوصف سميت الفرقة كلها وسميت به الديانة الجينية لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم والتّغلب على رغباتهم المادية.

ونشأ مهاويرا فى بيته المجيد، وسط الرخاء وطيب العيش، وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النساك حيث يجدون فى دار الأمير

إقامة طيّبة وحسن ترحيب، وكان مهاويرا منذ نعومة أظفاره يحبّ مجالستهم ويستمع إلى حكمهم وإرشاداتهم، وتأثر مهاويرا بهم وبفلسفاتهم فعزف عن المتع والملذات الدنيوية، ومال إلى الرهبانية والتبتل والزهد، ولكنّ الظروف لم تكن تسمح له بالتّعمق في الرهبنة والخوض في الزهد نظراً لمكانة أسرته التي كانت ترعى شؤون السياسة والنضال، وتعيش الترف والبذخ.

ودفعته حياة أسرته إلى الزواج، فتزوّج بفتاة اسمها «يسودا» وولدت له بنتاً سميت «أبوجا» وظلّ مهاويرا طيلة حياة والديه يكبت إحساسه وشوقه للرهبنة ويعيش في الظاهر كما يعيش أبناء طائفته، وينطوي باطنه على رغبة في الزهد والصفاء، فلمّا توفي والده أتيحت له الفرصة ليعلن ما أخفى، وكان أخوه الأمير قد تولّى الإمارة، فطلب منه مهاويرا أن يأذن له في الرهبنة، ولكن الأمير خشي أن يظنّ الناس أن تصرف مهاويرا كان نتيجة لقسوة أخيه عليه أو تقصيره في مطالبه، فطلب الأمير من مهاويرا أن يؤجل ذلك عاماً، فاستجاب له مهاويرا، وفي الموعد المحدّد عقد اجتماع كبير تحت شجرة أشوكا اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالي البلدة، وأعلن مهاويرا فيه رغبته في التخلي عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتل، وكان هذا مطلع حياته الروحية الصريحة، فخلع ملابسه الفاخرة، ونزع حليه، وحلق رأسه، وبدأ حياة جديدة وكان عمره آنذاك ثلاثين عاماً.

صام مهاويرا يومين ونصف يوم، ونتف شعر جسمه، وبدأ يجوب البلاد حافياً، وفي زيّ الزّهاد والنسّاك، ولجأ إلى الزهد والجوع والتّقشف، وغرق في التفكير، واهتمّ بالرياضة الصعبة القاسية والتّأملات النفسية العميقة، وبعد ثلاثة عشر شهراً من ترهبه خلع ملابسه دون حياء، إذ كان قد قتل في نفسه عواطف الجوع والإحساس والحياء، وكان أحياناً يعتكف في المقابر، ولكن أكثر وقته كان يمضيه متجولاً في طول البلاد وعرضها، وكان يغرق في المراقبة إلى حدٍّ لا

يشعر فيه بالحزن أو السرور، ولا بالألم أو الراحة، وكان يعيش على الصدقات الطفيفة التي تقدم إليه.

ودرجات العلم عند الجينيين خمسة سنتكلم عنها فيما بعد، ويرى الجينية أن مهاويرا ولد مزوداً بثلاث منها، وبعدما واصل تأملاته وتقشّفه حصل على الدرجة الرابعة، واستمرّ مهاويرا يصارع المادة ويزيد في تبتله، فراح يجوب البلاد دون راحة، وحرص كل الحرص على ألاّ يقتل حياً، وكان يراقب نفسه مراقبة دقيقة في صمت تام، وبعد اثني عشر عاماً أصبح كما يقول عنه أتباعه سيره مستقيماً كسير الحياة، لا يبالي بالعراقيل كالعاصفة، وكان قلبه نقياً كماء البركة في الشتاء، لا يلونه شيء كورق اللوتس، مشاعره محمية كأعضاء السلحفاة، وحيداً فريداً كقرن الخرتيت، حراً كالطير، جسوراً كالفيل، قوياً كالثور، مهيباً كالأسد، ثابتاً كالجبل، عميقاً. وصل مهاويرا إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله، وأفنى كل اتجاه مادي، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة وهي درجة العلم المطلق، ونيل البصيرة أو النجاة، وبعد سنة أخرى من الصراع والتأملات فاز بدرجة «**المرشد**» أو (تير ثانكارا)، وبهذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هي الدعوة لعقيدته، وقد اتجه أول الأمر إلى أسرته وعشيرته فاستجابوا له، ثم استجاب له أهل مدينته، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقواد الذين رأوا في هذه الدعوة ما يعبّر عن خواطرهم في الثورة على البراهمة، وسار في دعوته بنجاح حتى بلغ الثانية والسبعين، فنزل مدينة ينابوري في ولاية بتنا فألقى على الناس خمساً وخمسين خطبة وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالاً غير مسؤولة، ولما تمّت خطبه حان أجله فقضى نحبه سنة ٥٢٧ ق.م في الخلوة وحيداً، فتحرّر من قيود الحياة وتسلسل الولادة والشيخوخة والموت، وترك تراثاً ضخماً من الوصايا والحكم والفلسفات جديرة بالتقدير.

ويرى الجينيون أنّ الجينية مذهب قديم جداً، وأنّه قد تمّ نضجه على يد أربع وعشرين من الجينيين، وكان الجيني الأول اسمه «رسابها» وقد ظهر منذ أمدٍ بعيد، ولا يحفظ التاريخ عنه شيئاً، ولا ترتبط به إلا بعض الأساطير، وتتابع الجيناوات الواحد بعد الآخر حتى ظهر الجيناوان الأخيران في العصور التاريخية، أمّا أولهما وهو جينا الثالث والعشرون فاسمه «بارسواناث» وقد ولد فى القرن التاسع قبل الميلاد ومات فى القرن الثامن، وقد أسّس نظاماً رهبانياً شدّد فيه بضرورة الرياضات الشاقة المتعبة، وجعل أتباعه قسمين: خاصة وعامة، فالخاصة هم الرهبان والمتبتلون الذين التزموا الرياضة الشاقة والحرمان، وتركوا الأهل والمسكن، وأخذوا يجوبون الأقطار ويطوفون في القرى والأمصار، وهذا القسم هو عمود النظام، والعامة هم الذين يؤيدون النظام بأموالهم ويمدّون الرهبان بحاجاتهم، مع بعد عن الفواحش وانشغالٍ بالمكاسب من غير عنفٍ ولا إضرارٍ بأحد، مقتدين بالرهبان ما وسعهم ذلك. وجاء مهاويرا وهو جينا الرابع والعشرون، فاعتنق مبادئ «بارسواناث» وزاد عليها من فكره وتجاربه وإلهامه، وعلا شأنه، واشتهرت الطريقة باسمه، وعرف النظام بلقبه، فلا تعرف الجينية إلا منسوبة إليه.

ج. عقائد الجينية

هي حركة عقلية متحررة من سلطان الملذات، مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام، أسس بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهرب من الحياة اتقاء شرورها. منشؤها الزهد في خير الحياة فزعاً من أضرارها، عمادها الرياضة الشاقة والمراقبات المتعبة، ومعولها الجمود للملذات والمؤلمات، وسبيلها التقشف والتّشدد في العيش، وطريقها الرهبانية ولكن غير رهبانية البرهمية، وقد داوى الجينيون الميول والعواطف بإفنائها ووصلوا في ذلك إلى إخماد شعلة الحياة بأيديهم، وافتقدوا النجاة في وجود من غير فعلية، وسرور من غير انبعاث.

د. الجينية والآلهة

لم يعترف مهاويرا بالآلهة، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون، ومن هنا سمي هذا الدين دين إلحاد، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأنّ كل موجود إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً يتركب من جسم وروح، وأنّ كل روح من هذه الأرواح خالدة مستقلة يجري عليها التناسخ الذي اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية. هذا هو أساس الفكر الجيني تجاه الإله، غير أن الجينية دين مسالم، يبالغ كل المبالغة في البعد عن العنف حتى أنّه يكره قتل الهوام والحشرات الصغيرة. وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التي وضعها «**بارسواناث**» وهو جينا الثالث والعشرون، وبسبب هذه المسألة اعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث (برهما وشنو سيفا)، وكانوا في بادئ الأمر، كما يظهر من كتبهم، يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس ويحترمونها للمجاملة والمسالمة، ولكنهم عادوا فأجلّوها لذاتها، وإن لم يصلوا فى إجلالها إلى درجة الهندوس بطبيعة الحال، غير أن العقل البشري يميل إلى الاعتراف بإله، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التي يحتاجها إثبات الآلهة، ومن هنا وجد فراغ كبير في الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يكمل به صورة الدين الذي دعا إليه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلهاً؛ بل عدّوا الجيناوات الأربعة

والعشرين آلهة لهم، ولعلّهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندي الذي يميل في الأكثر إلى تعدد الآلهة. والجينية تتفق مع الإسلام في جزء يسير يتعلق بروح الإنسان، ذلك هو خلود الروح خلوداً أبدياً، وخضوعها للثواب أو العقاب لما يرتكبه صاحبها، وإن اختلف الإسلام مع الجينية في طريق الثواب والعقاب.

وعدم الاعتراف بالإله استتبع عند الجينيين اتجاهات مهمة سلبية تتعلق بالعقائد، فهم لا يقولون بالصلاة، ولا بتقديم القرابين، ولا يعترفون بالطبقات، ولا بما تدعيه الطبقة العليا في النظام الهندوسي وهي طبقة البراهمة من امتيازات ومزايا. ولكن خلق المسالمة الذي دفع الجينيين إلى الاعتراف بآلهة الهندوس كما ذكرنا آنفاً، دعاهم هنا إلى الاعتراف بالبراهمة، وأن من الواجب احترامهم المطلق، وليس معنى هذا وجود طبقة براهمة في الجينية. بل المقصود احترام براهمة الهندوس كطائفة لها مكانتها في الدين الهندوسي، أمّا الطبقات في الجينية فلم تتعدّ ما وضعه «بارسواناث» من تقسيم الجينيين إلى خاصة وهم الرهبان وعامة وهم الذين يؤيدون النظام من غير الرهبان، ولم تجعل الجينية للرهبان امتيازات كما فعلت الهندوسية، بل إن الجينية جعلت الرهبنة مشقة وتضحية وتكليفاً.

هـ. الكارما والتناسخ

الجينية لم تعتقد ما اعتقده الهندوس من أنّ الكارما أمر اعتباري يحقق قانون الجزاء الذي يحمّل الإنسان تبعة أعماله، ويجزيه عليها عن طريق تناسخ الأرواح، بل قالت الجينية بأنّ الكارما كائن مادي يخالط الروح كأنّه يمسك بتلابيبها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة، ولا سبيل لتحرير الروح من رقبة هذا الكائن إلا شدّة التقشّف والحرمان من الملذات فى كلّ مرحلة من مراحل الحياة، فهذه وحدها هي وسيلة تحرير الروح وحياتها حياة أبدية حرّة، وفي ذلك تقول النصوص الجينية المقدسة «**كما تتحد الحرارة بالحديد، وكما يمتزج الماء باللبن، كذلك تتّحد الكارما بالروح، وبذلك تصير الروح أسيرة فى يد الكارما**». للوصول إلى تخليص الروح من الكارما يظلّ الإنسان يولد ويموت حتى تطهر نفسه وتنتهي رغباته، وإذ ذاك تقف دائرة عمله ومعها حياته المادية فيبقى روحاً خالداً في نعيمٍ خالد، وخلود الروح في النعيم بعد تخلصها من المادة يسمى عند الجينيين «**النجاة**»، وهو ما يعادل الانطلاق في الهندوسية والنرفانا في البوذية.

و. الحسنة والسيئة عند الجينية

هي فعل الخيرات كإطعام المساكين ومساعدة المحتاجين، وبخاصة فيما يتصل بالرهبان الجينيين، وقسّم الجينيون الحسنات تسعة أقسام، وذكروا أنّ الحسنات تجزى باثنين وأربعين طريقاً، منها ما هو فى حياة الإنسان الحالية كالبركة والغنى والصحة، ومنها ما هو في حياة قادمة، وأمّا السيئة فهي ارتكاب الأعمال الخبيثة والفواحش، وقسّموها ثمانية عشر نوعاً، منها الكذب والسرقة والفسق والفجور والخيانة والجشع وما إلى ذلك، وأشدّ أنواع الجنايات وأفظعها لدى الجينيين هو الاعتداء على الحياة والعنف والتّشدد، ووضعوا كفارات خاصة لكلّ نوع من السيئات، منها الفقر والتناسخ في أشخاص تعساء أو في قوالب الحيوانات والجمادات. وتختلف الحسنات والسيئات باختلاف طبقتي الجينية وهما طبقتا الخاصة والعامة، على ما يشبه في الفكر الإسلامي الأثر القائل: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**».

فما يجوز للعامة لا يجوز صدوره من الخاصة، ويطلب من العامة الخلق الحسن وعمل الحسنات ويكافؤون عليها بما يضمن لهم حياة أو حيوات طيبة، أمّا «**النجاة**» فالسبيل إليها شاق عسير، وهي من خصائص الخاصة.

ز. النجاة في فكر الجينية

النجاة هي غاية الكون، وهي التطّهر من أوساخ العواطف والشهوات الحيوانية، والتخلص من قيود الحياة، ومن تكرار المولد والموت، وهي التمسك بالخير، والتخلي عن ارتكاب الشر، و«**النجاة**» طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية. وهي الفوز بالسرور الخالد الذي لا يشوبه ألم ولا حزن ولا همّ، ولا تكون للأرواح الناجية مطامع خاصة ولا أهداف تستميلها، والشخص الناجي ليس بذي جسم مادي، وليس بطويل ولا قصير، ولا لون له، يحيط بكلٍّ شيء، مطلق من جميع القيود، يكون دائماً في سرور وطمأنينة واستقرار ونعيم مقيم، مكانه فوق الخلاء الكوني، وليس للنجاة نهاية فهي أبدية سرمدية. ولا تحصل النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من عوائق ومتاعب. ولا نجاة بالمعنى الحقيقي إلا للبشر.

والسبيل إلى «**النجاة**» شاقٌ عسير كما قلنا من قبل، ولا يطمع فيها إلّا الخاصة من الرهبان. وللوصول للنجاة يتحتم على الناسك ألاّ يوقع أذىً بإنسان أو حيوان، وعليه أن يدرك أنّ احترام الحياة أقدس ما عني به مهاويرا وعلى هذا يحرم عليه قتل الحيوان وبالتالي أكل اللحوم، ولعلّ لهذا صلة بصوم المسيحيين عمّا فيه روح، فأغلب الظنّ أن صوم المسيحيين، ويبالغ الرهبان في الحيطة والحفاظ على ما فيه روح، فيمسك بعضهم بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه

خشية أن يطأ حشرة فيها روح فيؤذيها أو يقتلها، ويضع بعضهم غشاء على وجهه يتنفس خلاله حتى لا يستنشق أي كائن حي وهو يلتقط أنفاسه. ولا بدّ للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات، ومؤدّى هذا ألاّ يحسّ الراهب بحب أو كره، ولا بسرور أو حزن، ولا بحر أو برد، ولا بخوف أو حياء، ولا بجوع أو عطش، ولا بخير أو شر.

والجيني بذلك يصل إلى حالة من الجمود والخمود والذهول فلا يشعر بما حوله، ودليل ذلك أن يتعرى فلا يحسّ بحياء وينتف شعره فلا يتألم، لأنّه لما أحسّ بما في الحياة من خير وشر أو نظم متفق عليها، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها، وهذا يبعده عن النجاة. ولما كان أبرز ما في هذا التنظيم هو العري، والجوع حتى الموت، سميت الجينية دين العري ودين الانتحار.

ع. الانتحار والعري

يعيش الرهبان الجينيون عراة، لأن الجينية تقول: ما دام المرء يرى في العري ما نراه نحن، فإنه لا ينال النجاة، فليس لأحد أن ينال نجاة ما دام يتذكر العار، فعلى المرء أن ينسى ذلك بتاتاً ليتمكن من اجتياز بحر الحياة الزاخر، فطالما تذكر الإنسان أنه يوجد خير أو شر، حسن أو قبيح. فمعناه أنه لا يزال متعلقاً بالدنيا وبما فيها فلا يفوز بـ «موشكا» أي النجاة ويبيّن هذا خير بيان الحكاية المعروفة عن طرد آدم وحواء من الجنة، فقد كانا يعيشان فيها عاريين بطهر كامل، لا يعرفان همّاً ولا غمّاً، خيراً ولا شراً، حتى أراد عدوّهما الشيطان أن يحرمهما ممّا كانا فيه من البهجة والسرور والسعادة، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشّر، فأخرجا من الجنة، فالذي حرمهما من الجنة هو علمهما بالخير والشر وبأنهما عاريان، ويرى الجينيون أنّ الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم وعلى العكس من ذلك فعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصور الإثم وذلك زيادة في النقاء، فعلى كلّ ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عارياً، ويتخذ من الهواء والسماء لباساً له. أمّا الانتحار فقد كان نتيجة للتخلي عن كل عمل، وترك كل ما يغذي الجسم لعدم الإحساس بالجوع، ولقطع الروابط بالحياة، وللتدليل على أنّ الراهب أو الراهبة لم يبقَ له اهتمام بهذا الجسد الفاني، فهو يجيعه، وينتف شعره، ويعرضه لظواهر الطبيعة القاسية

حتى الموت. وقد انتشر الانتحار بالجوع بين رهبان الجينيين قديماً. ويعتبر الانتحار غاية أو جائزة لا تتاح إلا لخاصة الرهبان الذين اتبعوا النظام الجيني الذي سنشرحه عند الكلام عن فلسفة الجينية، وإتاحة الفرصة للانتحار معناها قطع الأعمال التي هي مظنة إلحاق الضرر بأي كائن ذي روح، ولا يكون ذلك إلا بعد قضاء اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً داخل الناموس الصارم المرسوم للرهبان الجينيين.

أليس تناقضاً عجيباً أن يحرص الجينيون بالغ الحرص على الحياة لكلّ حشرة وكلّ دابة، ثم يجعلون انتحار الرهبان جوعاً قربى من القربات؟ مهما قيل من الأسباب فإني أراه إيذاء للنفس وقضاء على حياة الانسان، مع أن الجينية لا تلحق الأذى بأحد ولا تقر القضاء على الحياة، ويظل تساؤلنا هذا قائماً مع تذكرنا أنهم يعملون ذلك رغبة في الخلود أو النجاة، أو نتيجة للخمود والجمود.

ولنعد للعامة من الجينيين، هؤلاء لا يلزمهم أن يقوموا بكل هذه المناسك والسبل، ولكن عليهم أن يقوموا ببعضها في حدود طاقتهم، فعليهم ألا يوقعوا الأذى بإنسان أو حيوان، وعليهم ألا يقتلوا النفس وألا يأكلوا اللحم وأن يقهروا رغباتهم، ولكن لا إلى درجة الجمود والخمود والذهول التي يتبعها الرهبان.

ط. فلسفة الجينية

المصادر المقدّسة لدى الجينيين هي خطب مهاويرا ووصاياه ثم الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والعرفاء والرهبان والنساك الجينيين، وقد انتقل هذا التراث المقدّس من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة، ثم خيف ضياع هذا التراث أو ضياع بعضه أو اختلاطه بغيره فاتجهت النية إلى جمعه وكتابته، واجتمع لذلك زعماء الجينية فى القرن الرابع قبل الميلاد فى مدينة «**باطلى بترا**» وتدارسوا هذا الأمر وجمعوا بعض هذا التراث من عدّة أسفار، ولكنهم اختلفوا بعضهم على بعض فى بعض المصادر، كما لم ينجحوا فى جمع الناس حول ما اتفقوا عليه، ولذلك تأجلت كتابة القانون الجيني حتى سنة ٥٧م فدوّنوا آنذاك ما استطاعوا الحصول عليه بعد أن فقد كثير من هذا التراث بوفاة الحفاظ والعارفين، وفي القرن الخامس الميلادي عقدوا مجلساً آخر بمدينة «**ولابهى**» حيث تقرر الرأي الأخير حول التراث الجيني المقدّس. أما لغة هذا التراث فكانت اللغة المسماة «**أردها مجدي**» فلما اتّجهت النّية إلى حفظه وتدوينه اختيرت اللغة السنسكريتية لهذا الغرض، وكانت لغة «**أردها مجدي**» هي لغة هذا التراث قبل الميلاد، أما اللغة السنسكريتية فقد حلّت محلّها في القرون الميلادية الأولى.

درجات العلم في الفلسفة الجينية: تقسم الفلسفة الجينية العلم خمسة أقسام حسب مصادره، وتكثر الفلسفة الجينية من التفريعات لكلّ قسم، ولنكتفِ هنا بإيراد الأقسام الخمسة الرئيسية:

١. الإدراك بطريق الحواس أو بطريق الذهن، ويشتمل هذا الإدراك على طريق القياس والاستقراء المبنيين على المشاهدة، كما يشتمل على الفهم والحفظ والاحساس، ويستلزم هذا العلم حضور الأشياء المعلومة للحواس أولاً حتى يتم إدراكها.

٢. العلم عن طريق الوثائق المقدّسة، ويعرف هذا القسم بالعلم غير المباشر لتوسط المستندات والوثائق بين من يعلم وما يعلم، وتقول الديانة الجينية أنّ كتبهم المقدّسة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة.

٣. العلم بالوجدان المحدود، وهو إدراك ذي الصورة من الأشياء الموجودة بطريق الروح، فالمدرك هنا موجود يمكن أن يرى، ولكن لبعده مثلاً لا تراه العين، وتراه الروح في هذه المرحلة من مراحل العلم. وللوصول إلى هذه المرحلة لا بدّ من تطهير الروح من الأدران والأوساخ والسموّ بها عن الوساوس والأوهام.

٤. العلم بالوجدان المحيط، وهو إدراك بطريق الروح لما ليست له صورة الآن، فهو إدراك يتخطّى مسافات الأزمنة والأمكنة، يعلم ما في السماء وما في الأرض من ظاهر وباطن وما كان فيهما، وهي مرحلة أعلى طبعاً من سابقتها وتستلزم مزيداً من الطهر والصفاء.

٥. العلم بمخبآت الضمائر والتصورات في السرائر، فهو علم بما لم يوجد إلا من حيث أنه خاطر في الذهن، وهو أرقى درجات العلم، ولا يتم إلا للذين هجروا الأهل والوطن وطهّروا أنفسهم بالرياضة الشاقة.

ي. اليواقيت الثلاث

يقول الجينيون: إنّ الحياة الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متّصل، نعيمها زائل والعيش فيها باطل، نطمح فيها إلى الخير فننال شراً، ونبتغي السعادة فتصيبنا الشقاوة حتى نموت ولم تنته حسراتنا! ثم نحيا حياة قد كسبتها أيدينا، خيرها تهلكة فكيف بشرّها، وتدوم عجلة الموت والحياة فيا لنا من خاسرين، ولا دواء إلا بأن ننزع ونزهد في الحياة وترفها، ولكن هناك شيئاً يجعلنا نتمسّك بالحياة، ويزين لنا باطلها، ما هو؟ إنّه الغواية (*Mittpaiua*) التي تخلق العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة، والجهل المشين، وهذه تكسو الروح بظلام، ويتراكم الظلام فتعمى الروح وتسير على غير هدىً، تحبّ الحياة وشهواتها، وتسير في طريق الضلال، وتظلّ الروح على هذا الوضع بين الموت والولادة، حتى ينبثق النور، إمّا من أعماق الروح بطريق الصدفة أو الإلهام، وإمّا بقيادة العرفاء والمبشرين وهدايتهم، وليس هذا النور إلا السبيل المثلث أو اليواقيت الثلاث التي من اتبعها وصل إلى برّ السلامة، وهذه اليواقيت هي:

أولاً: الياقوتة الأولى الاعتقاد الصحيح: وهو رأس «**النجاة**» ويقصدون به الاعتقاد بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين، فإن ذلك هو المنهج المعبد والصراط السوي، ولا يكون الاعتقاد الصحيح إلا إذا تخلّصت النفس من أدران الذنوب اللاصقة بها، والتي تحول دون وصول الروح إلى هذا الاعتقاد.

ثانياً: الياقوتة الثانية العلم الصحيح: ويقصد به معرفة الكون من ناحيته المادية والروحية والتفريق بين هذه وتلك، وتختلف درجة المعرفة باختلاف قوّة البصيرة وصفاء الروح، ويستطيع الشخص الذي يفصل أثر المادة عن قوّته الروحية وإشراقها أن يرى الكون في صورته الحقيقة، وتتكشف لديه الحقائق، وترتفع عنه الحجب الكثيفة فيميز الحقّ من الباطل والظنّ من اليقين، ولا تشتبه عليه الأمور، ولا يكون العلم الصحيح إلا بعد الاعتقاد الصحيح.

ثالثاً: الياقوتة الثالثة الخلق الصحيح: ويقصد به التخلّق بالأخلاق الجينية من التحلي بالحسنات والتخلّي عن السيئات، وعدم القتل وعدم الكذب وعدم السرقة، والتمسك بالعفة، والزهد في الملكية.

واليواقيت الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض، وإذا اكتملت في إنسان فإنّه يجد لذة لا تعدلها لذة وسعادة ليس مثلها سعادة.

ك. طهارة الروح

وضع الجينيون سبعة أصول رئيسية لتطهير الروح، وتعتبر هذه الأصول أمهات المبادئ الجينية وهي:

١. أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السَّيِّيء.

٢. التقوى، وهي المحافظة على الورع، والاحتياط فى الأقوال والأعمال، وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب الأذى والضرر لأي كائن حيّ مهما كان حقيراً.

٣. التقليل من الحركات البدنية، ومن الكلام، ومن التفكير فى الأمور الدنيوية الجسمانية، حتى لا تضيع الأوقات والأنفاس الثمينة فى صغار الأمور.

٤. التحلّي بعشر خصال هي أمهات الفضائل ووسائل الكمال وهي: العفو، والصدق، والاستقامة، والتواضع، والنظافة، وضبط النفس، والتقشف الظاهري والباطني، والزهد، واعتزال النساء، والإيثار.

٥. التفكير فى الحقائق الأساسية عن الكون وعن النفس، وبعض أمور الكون وأمور النفس يتوصّل لها بالحواس الخمس المادية، وبعضها لا يتوصل إليها إلا بمنظار الذهن ومن هنا لزم استعمال الحواس المادية واستعمال الفكر كذلك.

٦. السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التي تنشأ من الأعراض الجسمانية أو المادية، كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة، وسائر أنواع الشهوات المادية، وعليه أن يضرب حصناً متيناً حوله للتخلص من هذه الأعراض والحواس والتأثر بها.

٧. القناعة الكاملة والطمأنينة والخلق الحسن، والطهارة الظاهرية والباطنية.

وتقول الديانة الجينية أن هذه المبادئ تطلق الإنسان من الوثاق الذي يشدّه بالحياة، ويسلب عنه الراحة الذهنية والطمأنينة القلبية، وإذا اتّصف أحد بهذه الصفات السبع فإنّها تخرجه من الظلمات التي تحيط به بسبب هموم الدنيا ومشاكلها العديدة، حتى تصير روحه حرّة طليقة تنساب في سماء المعرفة والنور العلوي، وتحيط بالعلوم الربانية والكشف الباطني، فتكون في سرور دائم ولذة معنوية مطلقة، وهذه هي الطريقة الجينية للنجاة.

الفصل الرابع

الديانة اليانية

أ. مؤسسها.

ب. تاريخ اليانية.

ج. معتقدات اليانية.

د. المبادئ الأساسية للعقيدة اليانية.

أ. مؤسسها

مؤسس هذه الديانة هو فارداما وقد أصبح يعرف فيما بعد باسم مهافير أو الفاتح العظيم، ولد في مدينة مغادا وهي تسمى حديثاً بهار وتقع شمال شرق الهند وذلك في عام ٥٩٩ق.م. وكان أبوه يدعى (سدهارثا) وأمه تسمى (تريسالا).

وقد كان أبوه حاكماً لولاية كشاتريا، وتروي الأسطورة قصة ولادته فتقول بأن أمه حلمت أربعة عشر حلماً يكشف أنّها حامل بولد سيحقق شهرة واسعة وينال راحة أبدية، وقد وجدت أحلام أمّه منقوشة على كنوز فضيّة موجودة اليوم في المعابد اليانية، وقد روت أحلامها لزوجها وفسّرها لها المنجمون وتنبّؤوا لها بولادة فاتح روحي عظيم(يينا) وأنه سيكون ربّ العوالم الثلاثة، وإمبراطور الكون في الشريعة، كما وتخبرنا الأساطير عن شجاعته منذ كان صبياً، وكيف كان يفوق رفاقه في القوّة والبسالة، كما وتتحدث أيضاً عن جمال شكله وعقله.

عاش مع والديه حتى وفاتهما، وقد شعر بعد وفاتهما أنه أصبح حراً فاتّجه الى حياة الزهد، وبعد أن حصل على موافقة شقيقه الأكبر هجر الدنيا، ونقلاً عن إحدى الروايات التي تقول إنّه تزوج امرأة تدعى (ياسودا) وقد رزقا بابنة وتقول روايات إنّه اختار الزهد ولم يتزوج. وقد كان يشعر منذ نعومة أظفاره بحبّه لهجر الدنيا واللجوء إلى حياة الزهد والتّشرد، إلا أنّه لم يستطع تنفيذ ذلك خشية على

والديه، وقد قال أيضاً: «**لا ينبغي عليّ خلال حياة والدي أن أقصّ شعري وأترك المنزل وأهيم منشرداً**»[1].

اختار حياة الزهد وهو في الثلاثين من عمره أي بين العامين ٥٧٠ـ٥٦٩ ق.م. وقد كانت قبيلته نايا تتبع شريعة باراسفاناث وهو زاهد عاش قبله بمائتين وخمسين عاماً، ولقد كانت صوامع الزهاد تنتشر في غابة تدعى سندارفانا بعيداً عن مدينة فايسالي. وقد صام مهافير مدة يومين ونصف وتخلّى عن كلّ ممتلكاته، وعاش حياة زهدٍ وتقشّف مدة اثني عشر عاماً، وكان دائم الترحال والتنقل إذ كان لا يلبث في مكان واحد أكثر من ليلة. وقد قضى سنوات عمره وهو يتأمل ويمشي مبعداً نفسه عن الآثام ومحترساً في فكره وقوله وعمله، ولكنه على ما يبدو ملّ حياته فخرج منها واتجه الى المدن حيث عاش في إحداها أربعة أشهر.

ومن أجمل ما قيل عنه إنه «**وكما لا تلتصق قطرة الماء بحبة اللؤلؤ، كذلك لا يجد الإثم مكاناً له في نفسه، لا يعوق سيره شيء، وهو كالسماء لا يحتاج لدعامة تسندها، وكالريح لا تعرف العوائق، قلبه طاهر كالماء، لاشيء يدنسه، كورق اللوتس، أحاسيسه مصانة، كما تصون السلحفاة نفسها. إنه فرد واحد كقرن كركدن، وطليق كطائر، جسور وقويّ كثور، وأسد يصعب الهجوم عليه، راسخ وثابت كجبل ماندارا، عميق كالمحيط، رقيق كالشمس، نقيّ كالذهب، صبور كالأرض، يشرق بسناه كنار وهّاجة**»[2]. هذا ما روته عنه الأساطير وقد تبالغ أحياناً عندما يصل شخص ما وإنسان عادي إلى ما وصل إليه يانا فتصفه بأروع الوصف وأجمل الكلام كما وتروي عن استغراقه المطلق في التأمل وكيف أنه لا يشعر بالوجود الخارجي خلال هذه السنوات.

---

(١) الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم» ص:٢١٧-٢١٨.
(٢) الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم» ص:٢١٨.

يتحدث أتباعه عنه فيقولون بأنّ لديه ثلاث مراتب من المعرفة، وقد اكتسب المرتبة الرابعة وما فوقها وهو في عمر صغير أو في السنوات الأولى من حياته وقد عرف من خلال أفكاره جميع الكائنات العاقلة، وبعد اثني عشر عاماً من التطواف والعمل الفكري، حصل على المرتبة الخامسة ومن يحصل على هذه المرتبة كأنه حصل على العلم كلّه وهذه المرتبة مصنفة تحت عنوان العلم الكلّي. وبهذا اكتسب المعرفة البديهية والمعرفة المطلقة العليا والتي لا يقف أمامها شيء.

بعد أن تسلّح بكلّ هذا العلم والمعرفة، أخذ يلقي المواعظ، وكان أول ما ألقاه موضوعاً يتحدث عن المواثيق الخمسة وتتلخص رسالته بأنه لا أهمية للمحتد أو الطبقة، بل الوصول الى الكمال من خلال القضاء على الكارما، والكارما هي عبارة عن الأعمال التي يقوم بها الانسان وما ينتج عنها من سيئات، عدو التنوير والمعرفة والحرية، وقد انطلق بنشر تعاليمه بعد أن بشّر به صاحبه أندرابوتي، أمضى ثلاثين عاماً من عمره في الوعظ والارشاد والتوجيه ووضع نظام الزهد وقد أيّده بذلك أقرباؤه وأعطوه دعمهم وبعد أن بلغ مرحلة العلم الكلّي، أصبح مرشداً الى الطريق القويم، ويصل هذا الطريق بالمرء الى أن يصبح ناسكاً في صومعة أو إنساناً تقياً.

توفي مهافير عام ٥٢٧ ق.م. وكان يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً في قرية اسمها بابا (بافابوري الحديثة)، وهي قرية صغيرة في ولاية باتنا بالهند، ومن أعماله أنّه ألقى خمساً وخمسين موعظة، كما وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالاً.

ب. تاريخ اليانية

إنّ تاريخ اليانيين مدوّن في قصص بلغ عددها ثلاثاً وعشرين قصة، وقد عرّفها اليانيون من خلال المرشدين الروحيين لهم، ومنها قصص الفاردمان، وبعد إضافتها لها أصبح عددها أربعاً وعشرون قصة، ويؤمن اليانيون بأنّ دينهم من أقدم الديانات، و«**لا يعتبر مهافير أول من أنشأ التعاليم اليانية، بل هو المعلم الأخير من سلسلة مكوّنة من أربعة وعشرين معلماً للكونية الحالية حسب اصطلاحهم. وأول معلم هو ريشابا ويرون أنه الأول الذي أدخل المؤسسات الاجتماعية كالزواج والأسرة والقانون والعدل والحكومة والقراءة والكتابة والزراعة والحرف والرياضيات وبناء المدن والقرى، وتلاه ابن عمّه كشنا المعروف بعطفه ورفقه بالحيوانات ويقال إنه خلال زواجه سمع أنين الحيوانات التي ستذبح بالمناسبة، فقرر إلغاء الزواج وأصبح زاهداً وتبعته زوجته. وتشير الكتب المقدّسة الهندوسية والبوذية إلى أن اليانية كانت عرفاً شائعاً قبل ظهور مهافير**»[1]. وتكثر الروايات اليانية التي تعزز أصل الدين والنظام وتعود بمصادرها إلى ريشابا ديفا والذي يعتبر المؤسس الأول والمرشد الأول لهذه الديانة، إذ كانت حياته من أخصب فترات العالم، وقد علّم الرجال من أتباعه(٧٢ مبدأ) بينما علّم النساء(٦٤ مبدأ)، كان أول من دعا إلى اليانية، وقد ذكر كتاب الفيدا الهندوسي ثلاثة من المرشدين الأوائل

(١) الركابي، صادق: «لمحات من أديان العالم» الهامش ص: ٢٢٠

لليانية. ولقد أسس بارامفانات عقيدة اسمها الباراسفاناتية الذي ولد في ٨١٧ ق.م. في مدينة بياترس حقّق لنفسه مكانةً عظيمة كرجل خبير بالحياة والناس وكمقاتل شجاع، في الثلاثين من عمره اعتزل الدنيا وعمل زاهداً، ومارس التقشّف ثلاثة وثمانين يوماً وبعد ذلك وفي يومه الرابع والثمانين وصل إلى مرتبة العلم الكلّي والتي سبق وتحدثنا عنها، تولّى بعد ذلك منصب رئيس لجماعة كبيرة، وكانت أمه وزوجته أول المؤمنين به، ظلّ يدعو الناس مدة سبعين عاماً، بلغ خلالها درجة الانعتاق من عبودية الذات وهو على جبل ساميتا سكارا في البنغال، وأصبح يعرف منذ ذلك الوقت بجبل بارسفانات.

وقد وضع أربعة مواثيق مهمة لأتباعه وهي:

١.ألاّ يفتتنوا بالحياة. ٢.لا يكذبوا. ٣.لا يسرفوا. ٤.لا يمتلكوا شيئاً. وتدخل العفّة والعزوبة ضمن الميثاقين الأخيرين، وقد أضاف لهما العفّة والاعتراف.

عمل مهافير على إقناع الكثير من الناس للانضمام إلى دعوته وقد نجح في ذلك، إذ وضع لهم نظاماً كهنوتياً يشتمل على الدرجات الأربع والتي هي:

١.الراهبون. ٢.الراهبات. ٣.الرجل العادي. ٤.المرأة العادية. وقد وصل عدد أتباعه إلى أربعة عشر ألف راهب، يتولّى رئاستهم أحد عشر رئيساً من أصحابه، زرع رهبانه للتعليم في مدارسه والتي بلغ عددها تسع مدارس ووضع رئيساً لكلِّ واحدة منها. كما وتبعته أيضاً الكثير من النساء اللواتي اعتزلن الدنيا وأصبحنَ راهبات، وكانت كاندانا ابنة عمّه على رأسهن وتتولى رئاستهنَّ.

كما وقام (مهافير) بوضع درجة الرجل العادي في المرتبة الثالثة، وقد وضعه في هذه المرتبة لأنه ربُّ البيت ويتحمل مسؤولية عائلته فلا يستطيع أن يكون راهباً ولا يستطيع أن يعتزل الدنيا، وقد كان يرأس هذه الفئة من المجتمع شخص يدعى سنكاجي أو سلاكجي.

وقد وضع المرأة العادية في الدرجة الأخيرة إذ كانت تمنعها واجباتها المنزلية من أن تصبح راهبة، ويرأس النساء في إثنتين تلقبان بسولاسا وريفاتي. وقد تعتبر الأولى أرفع طرازاً من النسوة اللواتي يكرّسن حياتهن لمنازلهن، والأخيرة هي الطراز النموذجي من المرأة الكريمة والأمينة.

كان (مهافير) رأس هذه الدرجات الأربع، وبعد وفاته خلفه صديقه أندرابوتي مدة اثني عشر عاماً، ثم تولّى الخلافة بعده سدارما وكان هذا من رأس الرهبان ويعتبر رهبان اليانية الموجودون اليوم من سلالته وقد خلفه جلمبو سوامي وهو آخر من بلغ مرتبة العلم الكلي، بعد ذلك خلفه برابهافا الذي توفي في سنة ٣٧٩ق.م. وخلال تلك الفترة انقسمت اليانية إلى طائفتين هما:

الأوسفالا والسريمالا، وقد أنكر على الزعماء الذين تولوا الخلافة بعده أنهم وصلوا إلى مرتبة العلم الكلّي، ولكنهم حازوا على مراتب مهمة تؤهلهم لترؤس الزعامة وهي مرتبة المعرفة الكاملة بالكتاب المقدّس وكل الكتب المقدسة الخاصة بالديانة، وخلفهم داسابورفي، والذين كانوا يعرفون عشرة من أصل اثني عشر نصاً مقدساً كانوا أهلاً للزعامة. وبحدود العام ٢٩٦ق.م. توجّه نصف اليانيين بزعامة (بادرايا) نحو ميسور في الجنوب، ولقد كانت هذه المرحلة أساسية في تاريخ اليانيين، إذ أنّه قد نظمت خلال هذه الفترة التعاليم الأولى لليانية، وفي القرن الثالث ق.م. دعا الراهب ثولاباردا مجلس الرهبان في باتاليتر (بتنا الحالية)، وذلك للانعقاد ووضع أسس نظام للشريعة في الكتاب المقدّس المؤلف من أحد عشر نصاً. لم تبقَ اليانية في المنطقة الجنوبية فقط إنّما انطلقت لتصل إلى كشمير وذلك تحت زعامة أسوكا، ولم تكن عقائدها فقط شريعة الكتاب المقدس بل ظهرت قضية العري وقد حصل انشقاق كبير في الطائفة اليانية أدّى إلى انقسامهم وتقول الروايات إنه في القرن الثالث ق.م. تنبأ القديس الياني الكبير بادرابا هو بحصول محاجة في مسقط رأس مهافير أي بيهار، لهذا قاد ١٢٠٠٠من الرهبان

وتوجّه بهم إلى جنوب الهند تجنباً للمجاعة التي استمرت ١٢ عاماً، وعندما عاد إلى ديارهم بعد انقضائها، وجدوا الرهبان الذين ظلّوا هناك قد أحدثوا تغييرين كبيرين في الدين. الأول هو تسامحهم بشأن ضرورة العري للرهبان والثاني تأليفهم مجلساً لكتابة النصوص اليانية، والتي أنجزوها في ٤٥مجلداً[١] وقد انقسم اليانيون الى طائفتين:

١. السفيتامبارا وكانوا يرتدون الزيّ الأبيض.

٢. الديغامبارا وكانوا عراة لا يرتدون شيئاً.

وهؤلاء العراة أو ملتحفوا السماء، هم عبارة عن رهبان لا يرتدون شيئاً رمزاً للطّهارة من الإثم وعدم التعلّق بالأمور المادية. وهم لا يعتبرون أنفسهم عراة بل أن البيئة لباسهم، وكانوا يتحاشون الإضرار بها ويتحملون كافة تقلبات الطقس حرّاً وبرداً، ولا يمتلكون إلّا شيئين فقط: مقشّة من ريش الطاووس، ويقطينة يشربون بها الماء، وكانوا ينظرون إلى المرأة على أنّها لا يمكنها أن تبلغ مرحلة الطّهر الكامل ولا يمكنها أن تتعرى، إذاً فهي كانت أقل مستوى من الرجل، وترى طائفة أخرى أن بإمكان المرأة بلوغ نفس المراتب من السمو التي يصل إليها الرجل، والدليل على ذلك أن المرشد التاسع عشر في الديانة اليانية كان امرأة «[٢].

وكان انتشار هذه القضية بين عامي ٧٩و٨٠ ق.م. كما وإنّ وجهات النظر الفلسفية الخاصة بالطائفتين متماثلة ولكن هناك اختلاف من ناحية المبادئ الأخلاقية، فالطائفة الأولى طائفة متشددة في مجال الالتزام بالسلوك المتقشف، وترى أنّ القديس الكامل يستطيع أن يعيش دون طعام أو ممتلكات أو ملابس، وهي لا تنظر إلى المرآة على أنها من المستحيل أن تصل إلى مرحلة القداسة،

---

(١) الركابي، صادق، «لمحات عن أديان العالم» الهامش ص:٢٢٢.

(٢) ن. م.، ن. ص.

وتصور المرشدين الأوائل عراة وعيونهم مسمّرة على الأرض، ولا تعترف بكتب الطائفة الثانية (السفيتامبارا)، وقد قام ملوك غرب الهند برعايتهم ونقلوا مركزهم من بيهار إلى كوجارات في ولاية فالابهيور، وعُقد مجلس كبير لرهبانهم في عام ٤٥٤ق.م. وكتبوا عدة نسخ من الشريعة اليانية، وكتبت بلغة (أراد ماغادي) وتمّ الاعتراف بـ(٨١) كتاباً، وبعد الحقبة المسيحية أصبحت السنسكريتية لغة الدين الياني.

ج. معتقدات اليانية

هناك تشابه واضح بين البوذية واليانية، ولا يمكننا القول بأنّ ظهور اليانية جاء بسبب معاناة الناس، إذ أنّه كان هناك ثورة متولدة في التفكير الشعبي في تلك الفترة وطبيعي من بعد الثورة أن تظهر عدّة آراء تتعارض وتنشأ من جديد وتعتبر الديانة اليانية نتيجة من نتائج هذه الاضطرابات الفكرية والتي سادت في ذلك الوقت. وهناك اعتقاد سائد يقول بوجود روح لكلّ الأشياء في العالم، واليانية نظر إليها الناس كأي دين جديد مثل البوذية والبراهماتية باعتبارها (طريقاً للخلاص) وليس الخلاص من الموت بل طريقاً للحياة. والديانة اليانية لا تبغي الفرار نحو العدم ونبذ الحياة والاستغراق ولكن تهرب نحو حالة الكينونة الخالية من العواطف والعلاقات والصفات ولا تؤمن بالولادة الثانية أو الحياة بعد الموت، اليانية لا تدفع أتباعها للإقبال على الحياة بل تسمح لهم بالإقبال عليها تحت ظروف معينة وتقول بأنّه إذا لم يستطع المرء مقاومة المغريات وتحمل التقشف يسمح له بالانتحار وتنظر اليانية إلى أن شخصية الانسان ونفسيته هي التي تحدد مستواه في المجتمع. يتحدث اليانيون عن الاتجاهات الست التي تخصّ الفلسفة الهندية، ويقتبس اليانيون القصة القديمة للعميان الستة الذين وضع كل منهم يده على عضو مختلف من أعضاء جسم الفيل وحاولوا وصفه. وترى اليانية هذه

الاتجاهات الستة ولكننا إذا نظرنا بهذه الطريقة تبيّن لنا أنّ العقيدة اليانية زائفة إذ أنها تدعو الى عدم النظر للأمور من زاوية واحدة.

د. المبادئ الأساسية للعقيدة اليانية

وهي تدعو الى الأخوة بين الأشخاص والمساواة بين جميع الكائنات وعدم الاعتداء على الآخرين والصدق والأمانة والعزوبة وعدم اشتهاء ملك الغير، وباختصار عقيدتها تسعى الى نشر المحبة والسلام بين الجميع وعدم إيذاء أي مخلوق سواء في القول أو العمل أو الفكر.

وتعتمد العقيدة اليانية أربع قواعد للسلوك تستند فيها على الرحمة وتتمثل بهذه الأشكال:

١. أداء الأعمال الصالحة دون توقع مثوبة.

٢. السرور لخير الآخرين.

٣. العطف على الحزانى وتخفيف آلامهم.

٤. الشفقة على مرتكبي الآثام.

وككل فلسفة ترى الفلسفة اليانية أنّ قهر الذات والنفس هي ضرورة من أجل إدراك الحقيقة، كما وينظرون إلى المرشدين على أنّ لهم أرواحاً طاهرة بلغت الكمال ووحدهم يستطيعون وضع قانون للسلوك في الحياة، ولا تعتبر اليانية ديانة إلهية، فهي لا تؤمن بوجود إله خالق للكون وترى أن الكائن الأسمى هو فرد وليس إلهاً.

يعتقدون بأنّ الكون مؤلف من ذرّات وستبقى للأزل، وأن العالم مجرد ذرّات كيميائية نشأت وتتطور وسوف تظلُّ تتطور بسبب تفاعل المواد، وينقسم العلم في نظرهم إلى ثلاثة أقسام:

الأدنى والأوسط والأعلى. إذاً لا نهاية للتجديد بحيث أنّه لا يخلق شيء من العدم فالأشياء تظهر وتنتهي بسبب خواصها وتفاعلها كما وتنكر نظرية أن الكون وُجد من العدم والصدفة، وتؤمن أن الكون مؤلف من مواد ستة هي:

«١.**الزمن**. ٢.**الفضاء**.٣.**المادة**. ٤.**الروح**. ٥.**العمل**. ٦.**اللاعمل**»، وبهذه العناصر ووجودها في الكون وتفاعلها تتنوّع الظروف وتتفاعل مع الزمن والطبيعة والضرورة والعمل والرغبة في الكينونية. فالبذرة هي شجرة بالقوة ولكن يجب أن تساعدها الظروف الطبيعية من ناحية الزمن والبيئة والفعل فإذا لم نغرسها في الأرض ولم تمطر السماء لا تصبح شجرة.

كما وتقسم الكائنات إلى قسمين: عاقلة وغير عاقلة وهما لا يزالان يتفاعلان منذ أقدم العصور، والروح من صنع الخالق هي عبارة عن ومضة إلهية موجودة في الكائن الحيّ، قادرة على التفكير والمعرفة والشعور والروح مطلقة موجودة بذاتها من غير موجود وعالمة بكل شيء ومفعمة بالوعي، إنّ طبيعة الروح هي المعرفة والايمان والسلوك الحقيقي وتفاعل الأشياء العاقلة وغير العاقلة مع بعضها وتسبب الاختلاف والتنوع في الكون، يؤدي الى التطوّر. وتتحدث عن الكون فترى أن الفضاء مليء بالكائنات الحيّة، وتصنف كالآتي[1]:

١. الأرواح الحرّة: وهي تلك التي تخلّصت من كل عبودية وهي طاهرة وشفافة وبلغت الكمال.

٢. الأرواح المقيدة بأغلال الكارما: وتقسم الى قسمين:

---

(١) الركابي، صادق: «المحات عن أديان العالم» ص:٢٢٥ـ٢٢٦.

أولاً: الجامدة وهي الأرواح المجردة من كل قدرة على الحركة ولها حاسة واحدة هي اللمس وتعتبر الأرض والماء والنار والهواء والمملكة النباتية من هذا الصنف.

ثانياً: الأرواح المتحركة هي التي تتمتع بقدرة على الحركة وتصنف إلى أربعة أصناف حسب طبيعة وعدد الحواس التي تمتلكها هي كما يلي:

١ـ التي تمتلك حاستي اللمس والذوق فقط مثل الحشرات.

٢ـ التي تمتلك ثلاث حواس، اللمس والذوق والشم كالنمل.

٣ـ التي تمتلك حاسة البصر إضافة الى الحواس السابقة مثل النحل.

٤ـ التي تمتلك حاسة السمع إضافة للحواس السابقة مثل الطيور والحيوانات والانسان.

كما وتتحدث اليانية عن خمسة أصناف للمعرفة هي:

١. ماتي جنانا: وهي المعرفة التي تستطيع الروح الوصول إليها باستخدام أعضاء الحواس.

٢. سروتي جنانا: وهي المعرفة المستندة إلى قول رجل عالم.

٣. أفادي جنانا: وهي معرفة حوادث معينة حصلت بالماضي دون إخبار من أحد.

٤. مانابارِيا جنانا: وهي معرفة ما يدور في فكر الآخرين، وتأتي نتيجة زوال العقبات عن مثل هذه المعرفة.

٥. كيفال جنانا: وهي المعرفة التامة التي لا يحدها شيء، وتستبق بلوغ النيرفانا، وتتميز بالعلم الكلي والتفوّق على كل المعارف الأخرى[1].

وتعتمد الفلسفة اليانية على تسعة أسس هي: «**١ـ الأشياء الحية أو ذات الروح.٢ـ الأشياء غير الحية أو عديمة الروح.٣ـ الفضائل.٤ـالرذائل. ٥ـ**

(١) راجع: الركابي، صادق: «المحات عن أديان العالم» ص:٢٢٥ـ٢٢٦.

أسباب الفضائل والرذائل.٦ـ إعاقة تدفق الكارما داخل الروح.٧ـ عبودية الروح بالأعمال. ٨ فناء الأعمال.٩ـ تحرر الروح من الأعمال»[١].

الأساس الأول: هو الروح أو ذوات الروح، هي مادة واعية، قادرة على التطور ولا تدركها الحواس، هي عامل ناشط وهي بحجم الجسد الذي تمثل فيه وهي في حالة تطور دائم.

إنّ جوهر الوعي له مظهران وهما: الإدراك والتفكير.

أولاً: الإدراك وهو المعرفة المبسطة.

ثانياً: التفكير وهو المعرفة المعمّقة.

إذاً هناك اندماج للمظهرين في الروح الكاملة، والمعرفة الكاملة هي المعرفة الخالية من أي شكّ أو فساد أو غموض. توجد كل المعارف الخالصة في الروح الكبرى، التي تظهر نفسها عندما تنعدم العوامل المعوقة لها. وهذه العوامل هي:

العائق الأول: هو الهوى والعاطفة التي تسبب تدفق المادة وتمنع الروح من أداء وظائفها الطبيعية بكامل قدراتها.

العائق الثاني: هو الرغبة في مظاهر الحياة المادية، والتي تقيّد المعرفة الحقيقية. وتتميز الروح التي لا يعوقها شيء، بقدرتها على معرفة الماضي والحاضر والمستقبل. يتلوث طهر الروح، بالانشغال بالمواد اللاواعية. عندما تنعدم القوى المعوّقة للروح، تنطلق الأخيرة بنغمها الطبيعي وتمارس وظيفتها وتنشر سناها على الخلق. وعندما تتحرر من الحمل الذي يشدّها نحو الأسفل، ترتفع إلى قمة الكون.

تعتبر الأخلاق أمراً لازماً لتشكيل طبيعة الانسان، فهي تمنع تكوّن كارما جديدة له، إذ إنّ الطريق إلى التحرر والانعتاق هو الهداية الروحية[٢].

---

(١) راجع: ن.م.، ن.ص.

(٢) راجع: الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم» ص:٢٢٧.

الأساس الثاني: وهو الأشياء غير الحية أو عديمة الروح، وهي نقيض الروح من كل الجوانب، وتقسم الى قسمين:

١. التي لا شكل لها.

٢. التي لها شكل.

ولكلّ صنف منهما أقسام وينقسم كل قسم إلى أجزاء ويشمل الصنف الثاني أو المواد التي لها لون ورائحة وذوق وشكل والقابلية على اللمس والاستهلاك أو التلف أو التغير.

الأساس الثالث: هو الفضائل، وهي كل الأعمال الصالحة التي تقود الإنسان إلى المعرفة السليمة وتجلب السكينة إلى العقل والروح. وهي ترتكز على معرفة الخير ومحبته وهي السعادة المضافة الى شيء معيّن. ويجب إضافةً الى ذلك أن يبذل المرء حصداً مضنياً فبدونه لا تكتمل فضائل الروح. ولكي يصبح الانسان فاضلاً عليه أن يثابر على الأعمال الفاضلة فتصبح مَلَكَة في نفسه فترتفع الروح الى أعلى المستويات وقد حدّد حكماء اليانية ممارسة الفضائل في تسعة أمور هي: تقديم الطعام، والماء، وإكساء العاري، وإيواء ابن السبيل، وتقديم الفراش له، ومحبة الخير للجميع، والعمل على إنقاذ الحياة، وعدم الإساءة في الحديث، وأداء التحية. ويبدو لنا واضحاً أنّ اليانية قد وضعت جلّ اهتمامها في تقديم الخدمة الإيثارية للغير، فهي تفتح الأبصار وتشرح القلب وتزيد الانسان سمواً وترفع من مستوى تطوره.

الأساس الرابع: هو الرذائل أو الخطايا فإذا كانت الفضائل تمثل القوة الأخلاقية فالرذائل تمثل الضعف الأخلاقي وإنّما تأتي نتيجة رجحان لغة العواطف وإن العامل المشترك بينها وبين الفضائل هو الإرادة الحرّة للإنسان في أداء أيّ منهما فالانسان هو الذي يقرر الخير من الشّر ويختار الفضيلة أو الرذيلة، ويورد اليانيون ثمانية عشر شكلاً من أعمال الرذائل التي تؤثر على الروح وتعوق تقدمها

وتغشي البصيرة والمعرفة. إذاً، فهم يعتبرون قتل الكائنات الحيّة وحرمانها من حياتها لهو من أفظع الأمور ومن أشنع الرذائل ففكرتهم الأساسية هي ليست انقاذ الحياة بل الكفّ عن تدميرها وعدم إتّباع العنف. إنّ الدين الذي يسمو بالانسان هو ذلك الدين الذي يحرّم قتل المخلوقات الحية، وهناك فرق بين القتل الروحي والقتل المادي، فالقتل الروحي هو تمني الموت أو النية بإلحاق الأذى بكائن معين، فعلى المرء أن يُبعد نفسه عن هذه الفكرة ذهنياً وروحياً وإلا اعتبر قاتلاً، والصنف الآخر من القتل هو وضع نهاية فعلية لحياة مخلوق معين أو هم يعتبرون العنف من أسوأ الخطايا في اليانية. وهي تعرف بسبع عشرة خطيئة هي:

١ـ الكذب.٢ـ الغش.٣ـ الفسق.٤ـ القسوة.٥ـ الغضب.٦ـ الغرور.٧ـ الكيد.٨ـ الجشع.٩ـ الكاسايا، وهي عواقب الخطايا الأربع الأخيرة، ويقولون عندما يُهزم الغضب، يدخل التسامح، وعندما يُهزم الغرور يأتي التواضع، ويُخلي الكيد محله إلى البساطة، والطمع إلى القناعة.١٠ـ الرغبة المتأججة، ويعتبر التعلق بشخص أو بشيء خطيئة.١١ـ الكراهية والحسد. ١٢ـ الخصام.١٣ـ الافتراء.١٤ـ الغيبة.١٥ـ الانتقاد.١٦ـ عدم ضبط النفس.١٧ـ النفاق ويشمل الإيمان بدين أو معلم زائف. يُدخل اليانيون تحت عنوان الخطيئة النتائج المترتبة عليها. ويعطون خمس طرق لكيفية إعاقتها للمعرفة والسعادة ويقولون إنّ لها أثراً على الرؤية المادية والروحية، وهي تعوق التأمل وهناك اثنتان وثمانون عاقبة للخطيئة[1].

الأساس الخامس: هو الكارما وهي النتائج المتراكمة عن الأعمال السابقة لأن اليانية تؤمن أن أفعالنا هي التي تغير حياتنا ومستقبلنا، والكارما هي مادة رقيقة تتراكم في داخل أنفسنا عندما نعمل ونفكر، ويقول عنها مهافير مشبهاً إيّاها بغطاء من الطين يشدّ الروح الى الأسفل. لهذا فهم يبتعدون عنها وفق ثلاثة مبادئ هي:

(١) راجع: الركابي، صادق: «المحات عن أديان العالم»، ص: ٢٢٩.

١ـ اللاعنف أو الأهيمسا: تتأثر اليانية فيه بتعاليم المهاتما غاندي فهم يؤمنون أنّ كلّ الوجود فيه كائنات حتى الغبار، وحتى قطرة الماء يمكن أن تحتوي على حوالي ٣٠٠٠ كائن حي وهي ما نسميها الآن بالبكتيريا وفي نظرهم الانسان ليس أفضل منها لكي يحيا فمن حقّها إذاً أن تعيش، هذه هي الكارما ولكن من الصعب على الانسان تطبيقها فربما يقتل أحدها وهو يسير أو ربّما يدخل البعض منها أثناء التنفس، ويصف اليانيون بعض هذه الكائنات (ذوات الحاسة الواحدة مثل: النباتات، المعادن، الأحجار، الماء، النار، الريح، فيشبهونها بالأخرس أو الأعمى فهم نباتيون لا يأكلون سوى النباتات، إضافة الى ذلك يشمل اللاعنف الكلام والتفكير فهو لا يؤذي الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه لذا فاليانيون الآخرون وهم إن عملوا يفعلون أموراً مكتبية أو تعليمية أو قانونية لا تؤذي أحداً، أمّا أعمال الزراعة والحراثة فإنهم لا يفعلونها وهي محرّمة لأنّها تؤذي الكائنات الحية الموجودة في الأرض أو على ظهر الثور.

٢ـ عدم التعلق بالأشخاص أو الأشياء أو (الابارغراها): فبرأيهم أنّ علينا عدم التعلق بالأشياء أو الممتلكات لأنّها تملكنا ولا نملكها، لذلك يعيش بعض الرهبان عراة كمعلّميهم القدامى، فهم يرون أنّ الانسان عليه أن لا يتعلق بالأشياء الدنيوية لأننا كلّما تعلقنا بها فسنبقى ننزف من أجلها، وإذا تركناها، سنعيش بسلام.

٣ـ النسبية (أو الانيكانتودا): من المبادئ الأساسية عند اليانيين عدم الغضب وتجنب إصدار الأحكام الآنية ويدعون إلى تفتح الذهن إذ بنظرهم يجب عدم النظرإلى الأمور من زاوية واحدة لأنّه لا يمكن معرفة الحقيقة إلا إذا نظرنا إليها من جميع جوانبها لأنّ لها عدّة وجوه وصور. ولا فائدة ترتجى من البحث عن أخطاء الآخرين بل يجب أن نركّز اهتمامنا على تطهير وتوسيع رؤيتنا. وإضافة الى الكارما هناك الإسرافا في المبدأ الخامس وهي تدفق جزئيات الكارما داخل الروح

وهو يأتي بفضل قوى معينة تستخدمها الروح لتجذب بواسطتها مواد من الخارج. وهذه القوى هي:

تشويه الحقائق، الرغبة، الهوى، الاهمال، النشاط الوظيفي للعقل والجسد، إذ أنهم يرون أن روح الانسان شفافة ويتسرب إليها أيّ شيء فكما يتسرب الماء داخل قارب صغير ويغرقه تتسرب الكارما الى روح الانسان عبر الإسرافا وتعيق تقدمها.

ويرون بأن الحواس هي الوسيلة الوحيدة لدخول الكارما الى الروح فالعواطف الغضب والغرور والرياء والطّمع كلّها أمور تسهل دخول الكارما. إضافة الى ذلك تدخل إذا تعلّق الانسان بالماديات من قبل العقل أو الجسد أو الكلام، وهناك الكثير من المنافذ أيضاً وقد عدّها اليانيون خمسة وعشرين منفذاً صغيراً تدخل منه الكارما للروح[1].

الأساس السادس: إنّ استمرار تدفق الكارما إلى الروح يوصل الإنسان إلى حالة من العبودية الخالصة للماديات التي تمتلكه.

والمبدأ السادس في اليانية يشترط على الانسان إعاقة تدفق الكارما الى الروح وهذه الذنوب هي التي تستعبد المرء وتتملكه وتسيِّر حياته ومسيره وتفكيره وتعتبر أساس الحزن والبلاء الذي نشعر به.

إنّ أيّ ذرة من ذرّات الكارما تمثل حجماً من الجهل وتمنع الرؤية الواضحة لذا على الانسان أن يسعى جاهداً للتخلص منها. وهناك تسعة من أنواع الكارما وهي:

١ـ الكارما التي تعوق معرفة الحقيقة.

٢ـ التصورات التي تعوق البصيرة الصحيحة.

٣ـ تجارب المسرة والألم.

---

(١) راجع: الركابي، صادق، «المحات عن أديان العالم» ص: ٢٣١.

٤ـ الكارما التي تمنع اعتناق الدين الصحيح والمعتقد الزائف والهوى والتعصب.

٥ـ الصنف الذي يمنع الانسان من اتباع السلوك القويم والطريق السليم، أو بالأحرى الغضب والتكبر والصفات التي تؤدي بالإنسان الى الهلاك.

٦ـ القوّة التي تقرر فترة ارتباط الروح مع الجسد المادي.

٧ـ القوّة التي تنظم فعاليات الجسد والأطراف.

٨ـ القوّة التي تجذب الروح الى رحم جديد.

٩ـ القوّة التي تحدّ من قدرات الروح[1].

الأساس السابع: وهو على عكس الأساس السادس ويكمن في عمليات تأخير تدفق الكارما داخل الروح، وهو يكبح الكارما ويسعى الى معالجتها من أجل بلوغ مرحلة التحرر والانعتاق، ويقولون إنّ هناك سبعاً وخمسين طريقة لكبح الكارما.

إذاً، إنّ سلوك الطرق الخمس التي تدلّ على سلوك الإنسان وتصرفاته، توجب عليه أن يتصرف بحذر حتى لا يؤذي الآخرين من حوله أو أي كائن حيّ، وحتى أثناء النوم أو المشي، ويجب أن يكون كلامه رقيقاً ومهذباً، وينتقي طعامه بدقة، وأن يبتعد عن الملكية وينبذها. وقد صرحت اليانية بعدة طرق لتهذيب النفس وكيفية ضبط العقل والجسد وطريقة الكلام، إذ يمكن ضبط العقل من خلال عدم إطلاق العنان للفرح أو القلق أو الغضب أو الحزن. كما ويمكننا ضبط الكلام من خلال مراعاة الصمت والتحدث أقل ما يمكن، إذ يجب أن يقتصر على الضروريات وضبط الجسد من خلال تقييد حركته. ويمكن الإكثار من الكارما وذلك بالصبرعلى الشدائد، فعملية تهذيب النّفس تعلّم الإنسان كيف يكون صبوراً على تحمّل الجوع والعطش والبرد والحرّ ولسعات الحشرات وأن يقنع

(١) راجع: الركابي، صادق، «لمحات عن أديان العالم» ص: ٢٣١.

بأي ملبس سواء كان بالياً أو خشناً، ولا يهتم بمسكنه ويتجنب مخالطة النساء. ومن أهمّ الأعمال التي يجب على الراهب القيام بها هي التأمّل وهو جالس أو واقف وأن يُبقي أطرافه ساكنة لا تتحرك ويتلقى الضربات بفرح وينظر الى المرض على أنّه أمرٌ عادي وشيء معروف، وإذا تلقى ثناءً ومديحاً يجب أن لا يبهره ذلك ويكون بالنسبة إليه أمراً عادياً، كما ويجب عليه أن يؤدي واجباته العشرة بتفان، وأول هذه الواجبات التسامح ومقاومة التكبّر والتحلّي بالتواضع، كما ويجب عليه أن يبتعد عن المكيدة والخديعة في القول والعمل وأن يتحلى بالبساطة ويترك الطمع ويصوم كثيراً ويتقشّف، ويجبر عقله على الصدق والطهارة وأن يكون فكره نظيفاً ولا ينظر إلى شيء على أنّه ملك له، ويحافظ على عزوبته بتسع طرق محددة. كما وتحدثت اليانية عن خمس قواعد من السلوك وهي: ١.الابتعاد عن الإثم. ٢.عمل الخير. ٣.التوبة. ٤.اعتزال الدنيا قدر الإمكان. ٥.وعدم نسيان المبادئ الإثنى عشر وهي:

أن الدنيا فانية زائلة، وأننا قد جئنا فرادى الى هذه الحياة، وسنرحل فرادى، كما وأن الروح والجسد شيئان مختلفان والكارما تتدفق باستمرار في داخلنا عبر قنوات نحن نصنعها وعلينا أن نفكّر بكيفية كبحها وأن نتذكر أن كل شيء سهل في الحياة.

اكتساب الجواهر القوية: الإيمان الصحيح، المعرفة الصحيحة، السلوك الصحيح، ويجب معرفة أنّ عملية الوصول إلى النرفانا تتمّ عبر هذه الأشياء.

والإيمان الصحيح عند اليانيين عبر الاعتقاد بأن المرشدين(أو الترتانكارا) هم الآلهة الحقيقيون، وكتاب الساسترا هو الكتاب المقدس الحقيقي، والأولياء اليانيون هم المعلمون الحقيقيون كما وأنّه من واجبات الياني الابتعاد عن المتع الحسية واعتبارها مصدر الخطايا، ويجب محبة الأفاضل وذلك لأنهم يحملون صفات إلهية كما ويجب عدم الاعتراف بالمذاهب العقائدية الزائفة، وتقوية إيمان

الياني، وتعلّم المحبة والاحترام ونشر العقيدة بين الأخوان وإقامة مجد الإنسان الكامل. والذي يصل الى هذه المرتبة في عقيدتهم يسمى (سدهانا)، وعن طريق التخلص من الجهل، والردّ على الانتقادات الموجهة الى اليانية. وإن من يصل الى المعرفة الصحيحة ويعرف طبيعة الأشياء تتعلم الروح كيف تصل الى السلوك الصحيح لبلوغ حالة اللارغبة عن طريق محو الحبّ والكره.

والسلوك الصحيح هو نوعان:

الأول: هو الذي يتبعه الزاهد وهو أكثر قسوة من أي سلوك آخر.

الثاني: هو ما يفعله الرجل العادي وهو عدم أذية الآخرين. والأهمّ من ذلك أنّ الصفة الرئيسية التي يتمتّع بها السلوك الياني هي الأهيمسا أو اللاعنف واللاضرر وهي من إلحاق الأذى بأي كائن حي.

الأساس الثامن: وهو يكون للخلاص من الكارما، فعلى الرغم من الاحتياطات، تستمر الكارما بالتراكم في الروح ومن أساس أتباع العقيدة الإيمانية عندهم التخلص من الكارما وكيفية القضاء عليها، ومن الطرق الرئيسة حرقها بالتقشف.

والتقشف نوعان خارجي وداخلي: الخارجي هو الصوم التام والجزئي وهو تناول القليل من الطعام والامتناع عن المأكولات التي يفضلها المرء، ثمّ يخضع الى إماتة الجسد وتجنب المغريات.

أمّا التقشف الداخلي فهو ستة أنواع وهي: الاعتراف بالذنوب، التوبة عنها، خدمة البشر، التأمل، عدم الاكتراث بالرغبات، عدم الرضوخ للحاجات الجسدية.

الأساس التاسع: هو التحرر أو الانعتاق.

ويرى اليانيون أنّ الشخص الذي يتحرر من الكارما ويتخلص من العبودية تصفى روحه وتنفصل عن الجسد وهذا لا يعني الموت إنّما يبقى جسده يتحرك

لكنه لا يشعر بالأشياء من حوله ذلك لأنّه وصل إلى مرتبة الكمال فأصبح في عالم بعيد عن هذا العالم وروحه في مكان سام. بحيث لا يتأثر بالمغريات من حوله وهو كائن بلا طبقة، لا يتأثر بالرائحة، وليست له حاسة ذوق أو شعور أو شكل، لا يجوع ولا يتألم ولا يحزن ولا يفرح ولا يولد ولا يشيخ ولا يموت، وهو دون جسد، ودون كارما، ويعيش سكينة دائمة لا نهاية لها[1].

«من الصعب قهر النفس.. ولكن عندما تقهر، قُهر كلّ شيء»[2].

إذاً، يلاحظ أنّ اليانية تعطي أهمية كبرى لأسس الفلسفة اليانية التسعة كما وتهتم كثيراً بالتخلص من الكارما فتعتبرها مفتاح لغز الحياة.

فالتخلص منها يعني ولادة جديدة للإنسان، وعليه أن يخضع لهذه الولادة الجديدة إذ إنّ الروح تتقيد بالكارما وعندما تصعد الروح وتعود إلى صاحبها فإنها تحمل معها القوّة المتراكمة من الكارما وتحاسب على أساسها، وهناك أربعة مصادر للكارما أو الرغبة في الحاجات الدنيوية والاستخدام غير المقيّد لهذه الحاجات يؤدي إلى نشوء الكارما. ومن أحد الشعائر اليانية (التطهّر).

يؤدي هذه الشعيرة الراهب والإنسان العادي وهي متبعة منذ آلاف السنين، الغاية منها تخليص الروح من الشوائب الداخلية. فالغضب والغش صفات ينبغي محوها. إذا أراد الياني أن تصل روحه لطبيعتها الحقيقية في المعرفة المطلقة والوعي الطاهر والنشوة الروحية فإنه يمارس هذه الشعيرة في المساء وبعد العمل والعشاء، حيث يجلس في مكان هادئ ومنعزل وينزع ملابسه ثمّ يردد تراتيل لتطهر وتهدأ الروح وتبتدئ بعهد نبذ كل النشاطات المؤذية، ثم يتبعها بطلب الصفح والغفران: أطلب الصفح من كلّ الكائنات.

أرجو أن تغفر لي.

---

(١) راجع: الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم» ص: ٢٣٥.

(٢) الكتاب الياني المقدس، ترجمة الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم» ص: ٢٣٥.

أنني صديق لها.

ولست عدواً لأحد.

ثم ينشد لكلّ أشكال الحياة ويختمها بأبيات تحثه على نبذ الطعام والرغبات الجسدية والأهواء وبدعاء للتقبل منه:

فليتوقف الحزن

ولتتوقف الكارما

وليأت الموت أثناء التأمل

ولنبلغ التنوير

يا يبنا المقدس، صديق الكون كله

لتحقق لي ذلك

لقد طلبت ملاذي تحت قدميك.

كما وتصنف اليانية عملية الخلاص من الكارما في عدّة أمورهي:

تلك التي تحجب المعرفة، والتي تحجب إدراك الايمان الحقيقي، والتي تثير مشاعر المتعة والنفور والسعادة والتعاسة، والتي تنشأ من الولع بالدنيا والانغماس في العواطف، حسب طول المدة التي تعاني خلالها الروح المقيدة من عواقب الكارما، التي تحدد حالة الشخص الخاصة، والتي تحدد منحدره وطبقته، والتي تعوق إرادة وقوة الشخص[1].

وهم يؤمنون ويعتقدون بأنه لكي يتخلص المرء من الكارما ومن عبوديتها يجب أن تصعد روح المرء سلم الأربعة عشر درجة، إذ إنّ كل درجة تمثل مرحلة معينة من مراحل تطور الروح.

تتلخص هذه المراحل بما يلي:

---

(١) الركابي صادق، «لمحات عن أديان العالم» ص٢٣٥-٢٣٦.

المرحلة الأولى: هي مرحلة الحياة المفعمة بالشهوة والمتعة، حيث يلف الروح ظلام الجهل.

في المرحلة الثانية: وهي عملية الاختيار الواعي، بحيث يسيء المرء فهم الغاية والطريق الحقيقي للإدراك.

في المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الوعي والإيمان. وفيها تمارس الروح الضبط والكبح وتحدد المجرى.

الصحيح للعمل. وبهذا العمل يتمّ بلوغ شكل من أشكال الكمال والانسجام الروحي، ولكن هذا الانسجام لا يعتبر كاملاً.

في المرحلة الرابعة التي تختفي فيها كلّ الصراعات وتشرق الروح بطهرها وعلمها الكلّي. كما ويمكن بلوغ ذلك، بعد بصيرة عقلية صافية حول ما ينبغي أن يكون السبيل الصحيح لإدراكه، حيث يصل الانسجام في هذه المرحلة الى الكمال فيكون كاملاً. ولفهم سلّم الأربع عشرة درجة يجب فهم الأصول الأساسية وهي الإدراك الصحيح والمعرفة الصحيحة والسلوك الصحيح.

والمراحل التي تعبرها الروح من العبودية إلى الخلاص عديدة تأتي في بداية الأمر بالعمل على التخلص من المعرفة الزائفة والتي تعمل على اخضاع الروح لسلطان الكارما، ولهذا السبب تصبح عاجزة عن إدراك الصورة الحقيقية للأشياء. وقد قيل إنّه عندما يكون الإنسان أعمى منذ الولادة، لا يستطيع أن يحدّد ما هو القبيح وما هو الحسن لأنه لا يرى، وهكذا عندما يكون الإنسان في هذه المرحلة لا يستطيع تحديد الحقيقي من الزائف، وهكذا تظهر الروح بعد دورة وجودها بعضاً من الجهل الكامن في نفسها وغريزتها، وبعد الوصول إلى هذه المرحلة من العلم تظهر مرحلة التأرجح بين المعرفة والشّك، وبعد مرحلة الشكوك تبقى الروح غير قادرة على حماية نفسها من الكارما لأنّ الفكر البشري يظلّ يتأرجح بين الشكّ واليقين ويظلّ يرهق نفسه وروحه لمجرد العلم والمعرفة وبذلك

تكتسب الروح خمس صفات حميدة، إنّ عملية التفكّر والتأمل تجعل الروح تدرك الأهمية الكبرى للسلوك، ويلتزم الفرد باثني عشر ميثاقاً تساعده في محاربة الكارما. ويتقيّد بالقواعد الست للحياة اليومية أي عبادة الإله وخدمة المعلم ودراسة الكتب المقدّسة والسيطرة على المشاعر والتّقشف وإعطاء الصدقات، وتتم عملية تهذيب النفس بالسيطرة على العواطف وعدم التّكبر ولكن يبقى بعضها وهو ما يُعدّ انفعالات غير مقصودة كالغضب والغرور والكيد والطمع. بعد كل هذه المراحل التي تمرّ بها النفس تصل الى مرحلة السلوك الكامل الذي يغمر القلب بالسعادة وفيها يُقهر التّكبر ويرتفع الإنسان فوق أفكار الجنس والمتع الحسية ويكرس نفسه للتأمل بحيث يفقد الانسان حسّ الفكاهة والتّمتع بالجمال ولا يعود يشعر لا بالحزن أو الخوف أو القرف أو الجوع أو الاشمئزاز، وهذه الأمور لا يصل إليها إلا الزاهد، والذي ينكر مطامع الدنيا والهموم والمشاكل الدنيوية وتسعى النفس للتخلص من الطمع وكل هذه المراحل سعياً للتخلص من الكارما وتطهير الروح من أدناسها وبعد ذلك تشرق الروح بالحكمة الأبدية والسرور المطلق، حيث يؤسس رهبنة ويصبح مرشداً، وبعد أن يقطع كل هذه المراحل ويصل إليها بنجاح، تبقى المرحلة الأخيرة وهي تبديد كل مؤثرات الكارما، ويصل الانسان عندها إلى مرتبة تحقيق الذات (ماكشا). بحيث لا يتوحّد الذي حقّق ذاته مع الواحد الشامل، بل يظلّ روحاً حرّة متحررة من كل أشكال العبودية التي تسببها الكارما. ويوصف الحكيم المتحرر بأنّه يتمتع «بعلم كليّ وبصر لا حدّ له وصلاح مطلق وقوة غير محدودة ونشوة روحية خالصة، وعدم قابليته على الموت، وهو وجود دون شكل وجسد لا هو بالثقيل ولا هو بالخفيف وهذه ميزات الروح الكاملة (السدها).

وقد أخذنا من الكتاب بعد ترجمته قصة حياة راهبة يانية روت يوماً من أيامها وهي تعتبر يومية من حياتها التي يعتمدها الرهبان في حياتهم:

تخليت عن أسرتي لا أملك مالاً ولا ممتلكات، ولا شيء مسجّل باسمي، حياتي مكرّسة لخدمة هذه المؤسسة، غايتنا تعليم أنفسنا وتعليم الآخرين ما تعلمناه. أول المواثيق التي يجب علي الالتزام بها هي اتباع مبدأ الاهيمسا أو اللاعنف ثم الالتزام بالحقيقة والعزوبة، وعدم التملك، وعدم السرقة. ونكرر يومياً مواثيق اليانية ونطلب الصفح عن الخطايا التي قد نرتكبها. أنام على الأرض على لوح من الكرتون المقوّى، أفرش عليه بطانيتين. ليس عندي وسادة ولا أي شيء آخر، لا أفتح النور أو المروحة بيدي. إذا جلس أحد معي وأراد فتحها، فله ذلك. ولا أستخدم مروحة للتهوية بل أفتح الشبابيك فقط. لدي ثلاثة أزواج من الملابس، أستخدم زوجين فقط خلال النهار، أحدهما عند الصباح والآخر في المساء. لدي منديل أو ثلاثة وقطعتين من ورق التنظيف. أحتفظ بآنية خشبية أتناول طعامي فيها وقد صنعتها بيدي وأعالجها كل سنة.

أستيقظ عادة في الثالثة أو الرابعة صباحاً وأقرأ ما حفظته من الكتاب المقدّس ثم أقوم بالتأمل والصلاة وأكرر المواثيق اليانية وأطلب المغفرة عن ذنب اقترفته. وبعد الشروق، أمارس اليوغا ثم أذهب لجمع الصدقات، لأننا لا نطبخ طعاماً لأنفسنا. نذهب لعدة بيوت ونأخذ جزءاً قليلاً من طعام كل عائلة. أذهب يومياً إلى عشرة منازل أو خمسة عشر منزلاً، عند الصباح والغداء والعشاء. ليس الأمر كالجدية، فالناس يحترموننا ويقدروننا ويدعوننا لمنازلهم كي يزوّدونا بالطعام.

بعد تناول الإفطار، أحضر محاضرة لساعة ونصف ثم استراحة وبعدها أذهب لجمع طعام الغداء. وبعدها، هناك استراحة لمدة نصف ساعة، ثم نأخذ بتعلّم الكتاب المقدّس، برفقة عدد من اليانيين العاديين. وبعد جولة جمع طعام العشاء، هناك أيضاً محاضرة. وعند العاشرة ليلاً، أذهب إلى النوم على الأرض. أعيش هكذا لأكثر من عشر سنوات، وأشعر بالسعادة والمتعة فيها، فلا شيء

أقلق بشأنه[1]. إذاً، نستخلص من الديانة اليانية أنّه على الياني اتباع السلوك السليم القويم، ولكي يصل الى ذلك عليه اتباع العديد من الأمور وأن يلتزم بالمواثيق التي وضعتها الديانة لكي تساعده في تقدمه نحو الخلاص، وقبل ذلك عليه أن ينبذ الخطايا الخمس، وأن لا يفكر في اعتناق دين آخر وأن يؤمن إيماناً قطعياً بحقيقة الكارما وأنّه يجب أن يسعى للتخلص منها وأن لا يرغب باعتناق دين آخر، ويجب عليه أن لا يختلط مع المنافقين ويلتزم بالميثاق الأول والذي يقول بالامتناع عن تسبيب الأذى للكائنات الحية أيّاً كان نوعها وحجمها؛ فمن حقّها أن تعيش. إلا الكائنات الضّارة التي تعيش على جسده، وألا يقتل بنفسه أحداً. كما وعليه ألاّ يتلفظ بأيّ كلام مزيف وهذا يشمل الكلام وكشف الأسرار والتحدث بسوء عن زوجات الآخرين وتقديم النصيحة السيئة لأيّ كان. كما ويجب عليه ألا يسرق وأن يكون عفيف النفس كريمها، وعدم التملك وتسمى هذه المواثيق بالمواثيق الصغرى. وعلى المرء أن يحافظ عليها بكل صرامة وعلى معانيها وتأويلاتها الواسعة كما ويمكن أن نطلق عليه لقب (سرافاكا) أو الملتزم دينياً.

كما ويؤمن اليانيون بأنّ هناك منافع عظمى عند مراعاة هذه المواثيق فالاعتدال يبقي جسم الفرد معافى ونشيطاً، ومن الناحية الروحية يصبح الانسان محرّر الروح من الرغبة والحقد وما شابهه.

خلاصة القول إن الفلسفة اليانية لا تكمن فقط في ترابط تعاليمها الأخلاقية مع نظامها الماورائي، بل أيضاً في تحليلها المميّز والمثير للطبيعة البشرية، والذي يقدمه نظامها الأخلاقي، ويلاحظ أنهم يقسمون المبادئ الأخلاقية بطرق متعددة من أجل إعطاء المزيد من التوضيح. ولقد حصلت اليانية على الحقيقة الجوهرية للأمور وذلك من خلال هذه التفرعات والتنظيمات التي وضعتها اليانية

(١) راجع: الركابي، صادق: «المحات عن أديان العالم» ص: ٢٣٩.

في تصرفات أتباعها. ولا تعترف اليانية بوجود إله واحد إنّما تقول بأن هناك روحاً عظمى تقود هذا العالم وهذه الأشياء تسمى عندهم الآلهة، وتصلح الروح الكاملة للعبادة كإله. وهذه الروح هي تلك العالمة بكلّ شيء المنزّهة عن حبّ الدنيا وعن العجز، والتي تعبدها العوالم الثلاثة، وهي التي تعطي للدين معناه وهو أنّ هذا الإله المعبود هو الاله العظيم.

ومن شعائر الديانة اليانية التي اعتمدها بعض الزاهدين نورد ما يلي[1]:

تعتبر اليانية طريقاً زهدياً في الحياة. لهذا يمارس الرهبان وحدهم طقوسها كاملة، وبالإضافة الى التأمل الروحي، يتّبع الرهبان حياة العزوبة والصوم والتفكير الجسدي والبساطة في الحياة. قد ينامون على الأرض دون فرش أو على ألواح خشبية، ويتحمّلون تقلبات الطقس دون اكتراث. وعند بداية الدخول إلى الرهبنة، ينتفون شعرهم من الجذر ولا يحلقونه، وعليهم تحمل الاستهجان الاجتماعي، والاعتماد على الآخرين في الحصول على الطعام، وألا يشعروا بالتكبر لبلوغهم السموّ الروحي أكثر من الآخرين. وهم حريصون بصورة مبالغ فيها على عدم إلحاق الأذى أو الضرر بالكائنات حتى الأحادية الحواس كما يقولون. ومن الأعمال التي ينبغي عليهم تجنبها، حفر أو حراثة الأرض (لأنّ هناك كائنات أرضية فيها) أو إطفاء أو إشعال النيران (لأن النار تعني أن الجسم الناري يطفأ في الآخر) ويحرّم الاستحمام والسباحة والمشي تحت المطر(لأنّ الكائنات المائية قد تتعرّض للأذى)، وكذلك التهوية بالمراوح (لتفادي التغييرات المفاجئة في درجة الحرارة والتي قد تؤدي إلى إيذاء الكائنات الهوائية)، والمشي على النباتات أو لمس النباتات الحيّة.

ولا يستطيع الإنسان العادي أن يعتزل الدنيا كالراهب، مع ذلك، يستطيع أن يطهّر نفسه ويسعى بها نحو الكمال. ويأتي هذا من خلال بذل المزيد من الاهتمام

(١) الركابي، صادق: «لمحات عن أديان العالم»، ص: ٢٤٣-٢٤٤.

لطهارة الطعام والجسد والبيئة. فبيوت اليانيين ومعابدهم نظيفة باستمرار، وهم لا يأكلون إلّا النباتات ولا يستخدمون أدوية تمّت تجربتها على الحيوانات. كما يجب عليهم ضبط أنفسهم وعواطفهم بشدة. ويؤمنون أنّ الكون لا بداية له، وهذا يعني أنّه لا خالق أو مدبّر له. وحياة المرء هي نتاج أعماله، ولا منقذ له عداها.

يقول بادما أغراوال:

على النقيض من المسيحية والعديد من العقائد الهندوسية، لا تؤمن اليانية بشيء مثل أب سماوي يراقبنا، بل بالعكس ترى أنّ التعلّق بإله معين ومحبته، يقيّد الياني أكثر إلى دورة الولادة الثانية. لهذا يجب استئصال هذا الشيء من الجذور.

يسير العالم بفعل قوّة الطبيعة ووفق مبادئ طبيعية، إلا أنّ اليانيين يؤمنون بالآلهة والشياطين، لكن الأولى لها نفس الأهواء والعواطف التي لدى البشر. ولكن لا يستطيع بلوغ التحرر أو الانعتاق الروحي غير البشر، لأنّهم وحدهم من يستطيع إزالة تراكمات الكارما من الروح. ولغاية تحرير نفسها، تظلّ الروح الدنيوية تدور في الكون بدورة لا نهائية من الموت والولادة لتتقمّص أنواعاً من الكائنات عند موت الجسد السابق الذي كانت تحلّ فيه.

وبالإضافة إلى مواثيق نبذ الدنيا التي يلتزم بها اليانيون العاديون، هناك ستة فروض عليهم هي: الالتزام بالاتزان من خلال التأمل والثناء على المعلمين الأوائل واحترام المعلمين الحاليين (الذين يعيشون كمتسولين) وإصلاح انتهاكات المبادئ الأخلاقية، وعدم الاكتراث بالجسد (مثل اتخاذ وضع معيّن لمدة طويلة) والتخلي عن أنواع معينة من الطعام أو الأعمال خلال فترة محدودة. وهم يصومون وكذلك الرهبان لأيام أو أسابيع أو حتى أشهر. ويرون أن هذا يساعد في إضعاف قيود الكارما. وهناك عدّة نصوص في كتبهم المقدّسة تحثّ على ضبط الرغبة في الطعام لأنّ له مضاعفات كارمية طالما أنّه لا طعام دون إلحاق الأذى بكائن معيّن.

فإذا استطاع الفرد استئصال هذه الرغبة، وهي أولى الغرائز، استطاع التغلّب على كافة أهوائه.

ونتيجة لالتزامهم بأخلاقيات صارمة وضبطٍ عالٍ للنفس، حقّقوا نجاحات كبيرة في أعمالهم التجارية، وأصبح الكثير منهم من الأثرياء، الذين أغلبهم من المتصدّقين والمحسنين. وتتركّز تبرعاتهم على بناء المعابد اليانية المزخرفة التي يحرصون كثيراً على نظافتها.

وهم يكرمون في معابدهم المرشدين الأوائل من خلال وضع تماثيلهم فيها، وجميعها متشابهة، لأن الأرواح الكاملة كما يقولون لا تختلف عن بعضها. وتستخدم صورة الثور مع المرشد الأول لمساعدة المتعبدين في تمييزه. ومشاعرهم إزاءهم، هي مشاعر تقدير وتبجيل أكثر ممّا هي تضرع وتوسل إليهم. كونهم يمثلون قدوة لهم أكثر ممّا هم شفعاء. وبما أنّ الدين ليس سماوياً، فليس هناك قساوسة، ويمكن للإنسان العادي أن يقيم صلاته بمفرده أو مع جماعة. ويعبر عن تقديره للمرشدين الأوائل بوقوفه أمام تماثيلهم وتقديم النذور إليها، فتتحرر الروح ويأتي ذلك بمجهود شخصي.

الفصل الخامس

الديانة السيخية

أ. نشأة السيخية.

ب. نشأة مؤسسها.

ج. خلفاؤه.

د. العقيدة السيخية.

هـ. الكتب السيخية.

و. الطقوس السيخية.

ز. انتشار السيخ اليوم.

أ. نشأة السيخية

نشأت السيخية في منطقة البنجاب في شمال الهند، وهي نشأة غير منفصلة ولا مغايرة للمفاهيم التي تنتشر في هذه المنطقة. وعندما ندرس السيخية من جميع الجوانب نلمس ذلك حيث نجد مؤثرات هندوسية كثيرة بعضها مؤثرات إسلامية وبعضها الآخر من الصوفيين خاصة.

ناناك ***nanak*** وهو المؤسس الأول للسيخية وهو من مواليد عام ١٤٦٩ م. ناناك من أصل هندوسي، هندي المولد والنشأة عاش في مناخ إسلامي وتأثر به.

ولقد سبقت السيخية حركات إصلاحية وسط الهندوس، وأثرت على ظلال عقيدة التوحيد التي حملها الإسلام إلى بلاد الهند، وكان كبير ***Kabir*** وهو من مواليد (١٤٤٠م ـ ١٥١٨م) من أبرز المصلحين السابقين على ناناك، بسبب تأثره بالتراث الهندوسي وبالقرآن الكريم وبالطرق الصوفية. ولا بدّ لنا أن نذكر هنا بأن ناناك نفسه لم يكن إلا ابن المناخ الديني نفسه أي الهندوسي والإسلامي عامةً والصوفي خاصةً، ممّا يجعلنا نؤكد على مسألة دخول الإسلام إلى بلاد الهند من خلال الطرق الصوفية بطريقة خاصة. وبما أنّ التعصب كان يسود المجتمع الهندوسي فقد اضطرّ كل من كبير وناناك إلى طرح هاتين الحركتين الإصلاحيتين. وهكذا نجد ناناك قد قام بتأسيس السيخية على غرار أنه لم يلمس أي فارق بين اسم الجلالة الله عند المسلمين وفيشنو الإله ***Vishnu*** المحافظ عند الهندوس.

«ولديه الإله الواحد، هو ذلك الذي ينير الروح، هذا الإله الذي يحيط علمه بالملايين وليس له أعين وهو الخالق لملايين الأشكال والأجسام وهو ليس متجسماً، وهو الغالب لكل ساحر ومشعوذ، وما من قلب منير إلا والنور الذي حلّ فيه من مصدر واحد هو هذا الإله، فهذا الإله مفارق للمخلوقات كافة»[1].

وهذا المفهوم هو ما جاءت به الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]

إنّ ما طرحته السيخية وما جاءت به من هذا التنزيه لله تعالى عن الشبيه والمثيل وعن التجسيم وهذا المفهوم المتغاير بين الخالق والمخلوقات يتلاءم ويتوافق تماماً مع المفهوم الديني السليم.

وقد رأى مؤرخو الأديان بأن ناناك قد تأثر بمؤثرات إسلامية وأنه نشأ وترعرع في جوٍّ هندوسيٍّ فمن هذه الازدواجية نجد انطلاقة ديانة السّيخ مع هذا المعلم ناناك أو الغورو ناناك.

---

(1) ***Clarke*, *Peter* B.** et autres auteurs, le grand livre des religions du monde, ***Paris***, éditions solar, l 'année 1995, P.173.

(٢) سورة الشورى:الآية ١١.

ب. نشأة مؤسسها

يعتبر الغورو ناناك (١٤٦٩ م ـ ١٥٣٩ م) ***Gourau Nanak*** هو المؤسس الأول والحقيقي للسيخية في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد، وكان الحديث عنه منتشراً في منطقة البنجاب، وكانت تصحّ به الأدبيات المنتشرة هناك من منطلق ديني سيخي تأخذ الجانب المعروض لزهده بما ينسب إليه من أفعال وأقوال. وكانت وقائعه العلمية غير مسجّلة أو مدونة بسبب عدم اهتمام أتباعه بها، ولد ناناك من عائلة هندوسية متواضعة الشأن (في منطقة البنجاب) وكانت طبقته دون طبقة «كساتريا»، طبقة العسكر حسب التصنيف الهندوسي للطبقات الاجتماعية. وكانت ولادته في أبريل (نيسان)، ١٤٦ في قرية تلفاندي ***Talvandi*** جنوب غرب لاهور التي تبعد ٤٠ ميلاً وتعرف الآن باسم (شكان) أي الصاحب. وتجدر الإشارة إلى أنّ السّيخ يحتفلون بميلاد ناناك في شهر نوفمبر، وعندما أصبح ناناك شاباً، كان يعمل في المحاسبة لدى حاكم سلطانبور ***Sultanpur*** ممّا زاده خبرة في الحياة العملية وأكسبه ثقافة أولية حول الإسلام والهندوسية، وفي أثناء عمله تعرّف ناناك على عامل يدعى مارادونا ***Maradona*** وكان هذا يعزف على آلة موسيقية هي الربابة، وبموافقته بدأ ناناك ينظم الأناشيد ويلحنها على ألحان ربابة مارادونا، وقد قاما معاً بتأسيس فرقة للإنشاد الديني، فالإنشاد أمر معتمد عند معظم المتدينين، وقد تعاون أيضاً ناناك ومارادونا على إقامة مطعم صغير شعبي قصده

المسلمون والهندوسي باختلاف فئاتهم كلّ ذلك وفّر للمعلم ناناك اتصالاً واسعاً مع الناس. وعندما بلغ ناناك الثلاثين من العمر في حوالي عام ١٥٠٠م، اختفى عن الأنظار لبضعة أيام. وبعد عدّة أيام ظهر مدّعياً أنه كُلّف بدعوة من الإله. وقد زعم وهو مقتنع بذلك بأنه وبناءً لنداء إلهي علوي، بات الرسول المبعوث للمسلمين والهندوس ولكلّ الطبقات الاجتماعية وكذلك للناس الفضلاء والصالحين.

وكانت دعوته ترتكز على ثلاث قواعد هي:

١. الكدّ والعناء، وسلوك طريق التقشف وشظف العيش.

٢. ممارسة الإحسان والبر للآخرين.

٣. التأمل الذي تصدر عنه ملامح مؤلفة من قبل الغورو، وأهمية التأمل لأنه يوفر للإنسان غذاءً روحياً مما يمكنه من رؤية الله في وجود كل أبناء الإنسانية».

مكاوي، عبد الغفار: «سلسلة عالم المعرفة «، الكويت ١٩٩٣م. ص:٢٠٠.

Clarke، *Peter* B.، *Ibid*، P.١٧٤.

هكذا بدأ ناناك برحلته البعيدة المدى نسبياً، فذهب إلى مكة وبغداد والتيبت ومختلف أرجاء الهند وشرقي آسيا.

كان السيخ يعتقدون بأن معلمهم ناناك قد اكتسب من مشارب كثيرة، ولم يكن همّه بالأصل أن يؤسس ديناً أو مذهباً خاصاً به، بل إنه لبّى النداء الإلهي من جهة، ومن جهة ثانية، اجتمع حوله العدد الكبير من المريدين الذين بايعوه وآمنوا بما جاء به، لأنه الرئيس والمصلح وبذلك وفي آخر سنوات عمره، أصبح ناناك صاحب دين جديد بكل ما للكلمة من معنى.

ومع الغزو المغولي الذي اجتاح بلاد الهند بقيادة بابير، اضطر ناناك لوقف رحلاته، ومن المعلوم بأن أحد الأشخاص تبرّع له بقطعة أرض موقعها على ضفاف نهر رافي *Ravi*، فأقام عليها قريته المسماة كارتربور *Karturpur*.

قضى ناناك معظم سنواته الباقية في هذه القرية إلى أن وافته المنية هناك قرب نهاية العقد الرابع من القرن السادس عشر في شهر سبتمبر [1]١٥٣٩. وكان قد أقام في هذه القرية أول معبد للسيخ وهو اليوم في باكستان.

ج. خلفاؤه

حمل تسعة أشخاص لقب الغورو ***Gourou*** أيّ المعلم بعد الغورو ناناك وتعاقبوا على زعامة الجماعات السيخية. في البداية، كان أتباع الغورو ناناك يدعون باسم: ناناك بانتيز ***(Nanak - Panthis)*** أي المتحدون مع ناناك، ثم عرف الواحد منهم بعد مدة باسم السيخ أي المتعلم أو المريد. كان الغورو أنجد ***Angad*** هو الخليفة الأول لناناك فالثاني على زعامة السيخ (١٥٠٤م ـ ١٥٥٢م) وكان ناناك قبل وفاته اختاره بنفسه لإنجاز هذه المهمة على أن أنجد هذا لم يكن له الفضل في تطوير السيخية.

بعد أنجد جاء دور الغورو الثالث عمار داس ***Amar Das*** (١٤٧٩م ـ ١٥٧٤م). بدأ عمّار داس بعملية بلورة للشخصية السيخية فأخذ يحدد لهم الطقوس الخاصة من الزواج والموت وباقي وجوه الحياة، ومنها أيضاً، اعتماد ثلاثة أعياد مستفيدة من الطقوس الهندوسية، واعتماد الاغتسال في الأعياد من طقوسهم، وشدّدوا على زيارة الأنهار على طريقة الهندوس.

نقل عمار داس محل إقامته إلى مدينة جوندفال ***(Gondwal)*** وسعى الى نشر السيخية وذلك بنقل السيخ إلى الريف لنشر دعوته بين الأرياف بدل أن تبقى محصورة بين المؤسس والخليفة وبين سكان المدينة الواحدة. أمّا الخليفة الرابع فكان الغورو رام داس وهو زوج ابنة رام داس ***Ram Das*** (١٥٣٤م ـ ١٥٨١م)، وهو

من طبقة الخاتري *Khatri* وهذه الطبقة هي أدنى من طبقة الكشاتر أي العسكر عند الهندوس.

كان رام داس يؤلف الأناشيد وقد أضافها إلى التراث السيخي وكانت خمسة منها قد أدخلت في نصوص كتاب السيخ المقدس آدي غرانت ***Adi Granth*** وما ذكره هو تأملات في الله سبحانه وتعالى الخالق القدير الذي لا تدركه الأبصار والذي ليس له شكل.

أسّس رام داس مدينة أمريستار ***AMRISTAR*** وهي تبعد ٤٠ كيلومتراً عن جوندفال من جهة الشمال الغربي، وقد أصبحت أمريستار بعد هذا الإجراء مدينة السيخ المقدّسة وأقيمت فيها معابدهم على الإطلاق، منها:

معبد الذهب ***TEMPLE D›OR***، وكان بناء هذا المعبد قد تمّ من قبل الغورو الخامس أرجان ***ARJUN***. كان رام داس قد اختار ابنه الغورو الخامس أرجان ***ARJUN*** لمتابعة هذه المهمة وللقيام بهذا المنصب، وأرجان (١٥٦٣ ـ م ١٦٠٦ م) استلم هذه المهمة بعمر الشباب بعد أن خلف والده سنة ١٥٨١م، وبالحقيقة كان رام داس من أهمّ مؤسسي السيخية الأساسيين وكان مركزه في أمريستار. بنى السيخ معبدهم الأساسي في عهده وبإشرافه وسمّوه بمعبد الذهب الذي ما زال حتى هذا اليوم، الموقع الأكثر قداسة عند السيخ. قام أرجان بوضع نصوص كتابهم المقدس المعتمد حتى هذا اليوم، ويدعى آدي غرانت ***ADI GRANTH*** أو غرانت صاحب ***GRANT SAHIB***، وفي عهده برزت محطة أساسية في تاريخ السيخية، حيث تعزز وجودهم وأدّى ذلك إلى اغتباط المغول الذين كانوا يحكمون بلاد الهند فقام حاكمهم الزعيم المغولي جهانكير باعتقال أرجان ووضعه في السجن إلى أن قضى وذلك سنة ١٦٠٦ م. وبذلك تولى المنصب بعد أرجان ابنه الغورو السادس هارغو بند ***HARGOBIND*** (١٥٩٥م ـ ١٦٤٥م). مارس السيخ السلطة أثناء عهده في مناطق تواجدهم سياسياً وعسكرياً، وتلك

الممارسة كانت جديدة في مذهبهم، وقد ظلّوا محافظين على الأسس التي قام بوضعها معلمهم الأول الغورو ناناك. وقد كان الغورو هار راي قد تولى المنصب وهو حفيد الغورو السادس هارغوبند، والغورو السابع هار راي ***HAR – RAI*** (١٦٣٠م ١٦٦١م) تولّى رئاسة السيخ ودعي بمعلمهم عام ١٦٤٤م.

وفي عهده شهدت المنطقة مرحلة سلام بالنسبة للسيخ حيث آثر المسالمة مع المغول والتراجع عمّا سنّه سلفه. كان هار راي وقد اختار ولده الغورو الثامن هار كريشان ***HAR KRISHAN*** (١٥٥٦م ـ ١٦٦٤م) وولاه هذا المنصب وسمّاه منذ أن كان طفلاً سنة ١٦٦١م ولكن هذا لم يعش طويلاً فقد أصيب بالجدري وكانت وفاته سنة ١٦٦٤م عن عمر بلغ ثماني سنوات.

كان لهارغوبند الغورو السادس ابن يدعى تاج بهادور ***TEGH – BAHADUR*** (١٦٢٢م ـ ١٦٧٦م) فولاه منصب السيخ وكان هذا ميّالاً إلى المسالمة والامتناع عن المواجهة والحروب.

ومن بعده استلم القيادة الغورو العاشر ابنه غوبند سنغ ***GOBIND – SINGH*** (١٦٦٦م ـ ١٧٠٨م).

كان الغورو العاشر غوبند سنغ هو الأخير، حسب المذهب السيخي ومن بعده بات المعلم هو الكتاب المقدّس آدي غرانت صاحب. كان للغورو العاشر ابن العشر سنوات أهمية خاصة لدى السيخيين ليس لأنه الأخير بل لأنه قام بوضع إضافات نوعية في النظام السيخي كما قام بتحويلهم إلى مؤسسة عسكرية بكل معنى الكلمة. وعندما اشتد التسلّط المغولي على السيخ في عام ١٦٩٩م، قام غوبند سنغ بإعلان تأسيس الخلسا ***KHALSA***، وتعني هذه الكلمة عند السيخيين الطاهر وهي من مصطلحات الغورو العاشر وعموماً، أصبحت كلمة السيخ تعني «**المخلصون للسيخية**» الذين تعاهدوا بالدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الجديد. عمّد غوبنداري (سنغ) خمسة من السيخ في الثالث عشر من نيسان ١٦٩٩م،

ونظّمهم فيما سميّ الخلسا، ومنحهم كنية جديدة هي سنغ ***SINGH*** أي الأسد، وأصبح هذا الاسم يطلق على الرجل من السيخ، أما المرأة فمنحها اسم كير ***KAUR*** أي اللبوءة. هذه الأخوية الجديدة للأتقياء (الخلسا) ألزمتهم بنظام الزهد والتقشف والامتناع عن شرب الخمر والتدخين وأكل لحم الخنزير.

لقد قامت صراعات كثيرة مع المغول في عهد الغورو العاشر أدّت إلى قتل العديد من أتباعه ومن بينهم أولاده الأربعة، وقاموا بطرده من البنجاب وتم اغتياله في نانددد التي تعرف اليوم باسم مهارشترا في تشرين الأول من العام ١٧٠٨ م، عندها أُعلن انتهاء تعاقب المرشدين (الغورو) في السيخ بعده، وأضاف (آدي غرانت صاحب) إلى كتابهم أدبياته حيث جمعها في كتاب وأطلق عليه اسم داسام غرانت *DASAM GRANT*H.

انطلاقاً من هذا المنحى، الذي اتخذه مسار الحياة السيخية الذي يقوم على العمل العسكري، استطاع قائد السيخ بندابهادر بعد غوبندسنغ أن يوجه ضربات موجعة للمغول، وبذلك استطاعوا بناء مملكة خاصة بهم شملت معظم إقليم البنجاب واستمرت ثماني سنوات إلى أن تمكن منه المغول واعتقلوه مع سبعمائة من أتباعه وقاموا بإعدامهم في منطقة دلهي سنة ١٧١٦م.

ج. العقيدة السيخية

السيخية هي عبارة عن توليفة وقد حدثت نتيجة مؤثرات هندوسية وإسلامية في وقت واحد. أمّا عقيدتهم فكانت تقوم على «**إجلال وتقديس الإله غير المشخّص لتجنب أية حالة وثنية، وهو في الأصل خالق العالم وعملية الخلق هذه تستند إلى قدرة الإله الذي حوّل العالم من اللاكيف إلى حالة لها كيفياتها**»[1]. إنّ هذا التنزيه للإله لم يكن ليمنع ناناك من القول بأنه الداعية لوحدة العقيدة عن جميع الناس فاعتقاد المسلمين بوحدانية الله لا يختلف برأيه عن اعتقاد الهندوس بإله الخير (فشنو). كان لعملية الخلق عند السيخ مفهومها الخاص الذي يخلط بين عدة مفاهيم

ويخضع لعدة مؤشرات وكان خلق العالم عندهم ضرورة لإظهار قدرة الله تعالى وعملية الخلق لديهم فسرت على الشكل التالي:

أولاً «مضى زمن لم يكن فيه سماء ولا أرض ولا نهار ولا ليل ولا شمس والخالق كان في حالة تأمل عميق ولم يكن من موجود سواه تعالى.

ثانياً: العالم جاء إلى الوجود بإرادة إلهية. عندما أمضى الله إرادته كان وجود أو ظهور العالم. لقد خلق الله العالم بأقسامه الجوهرية وعناصره الأساسية

(1) ***Encyclopedie*** des eligions, ***Ibid***; p.993.

الوسيطة والثانوية. والإله المطلق تجلى وأعلن عن نفسه وعن قدرته من خلال مخلوقاته»[١].

كانت المفاهيم التي تمّ ذكرها أقرب في معانيها إلى الإسلام وبعيدة إلى حد كبير عن الهندوسية التي تطرح مفهوماً مختلفاً وتربط إتمام الخلق ببراهما الأول في الثالوث المكوّن من: براهما، فشنو، شيفا.

لقد أعطى السيخ للغورو مكانة خاصة وبالرغم من كلّ ذلك لم يعطوه صفة الألوهية فأساس عقيدتهم هو تنزيه الخالق وقد ورد في الكتاب المقدس لديهم **«آدي غرانت»** ما يلي:

«لا يوجد إلا إله واحد
وليس كمثله شيء
ويوجد الغورو وهو معلّم الكل
الثواني والدقائق والساعات والأيام والفصول
كلّها نتيجة من المصدر الوحيد نفسه
وهو المصدر نفسه الذي خلق الشمس
وكل ما هو مخلوق صادر عن الإله»[٢].

من هذا النص نتأكد ممّا ذكرناه سابقاً عن العقيدة السيخية وبأنها أقرب إلى الإسلام منه إلى الهندوسية. وبحسب رأي السيخية فإنهم ينصحون بعدم التركيز على العبادات والطقوس فهذه كلّها مظاهر بلا فائدة فالمطلب الأساسي هو أن يعيش الشخص بحالة تمكنه من أن يستحضر الإله في قلبه بالتأمل والتركيز على العلاقة القلبية بالله والتي تسعفنا في إثبات تأثر الغورو الأول ناناك بالهندي الصوفي المعاصر له «كبير». وحتى يتمكن من استحضار الله في القلب عليه

---

(1) ***Delahoutre, Michel, Ibid,*** P. 37.

(2) ***Delahoutre, Michel, Ibid,*** P. 37.

أن يردد اسم الله مرات متتالية مع الاستسلام لإرادته، فالإنسان يسعى باتجاه الله ليحقق له الخلاص، فالله الذي أضفى على العالم الإشراف والبهاء وحوّله من عالم لا وجودي إلى عالم كائن له كيفياته يستحق العبادة والإخلاص.

الغورو عند المذهب السيخي هو إنسان معصوم لذلك اعتبروه هو المخلص والمنقذ لهم. وقد جاء في كتابهم «**آدي غرانت**» على لسان الغورو الخامس «**أرجان**» ما يلي:

«كل البشر الذين نعرفهم خطّاؤون

الغورو الحقيقي وحده لا يخطئ

إنه الزاهد الفعلي بكل جدارة».

ولقد اختلفت حالهم اليوم بعد الغورو غوبندسينغ وبات مفهومهم يتضمن ما يلي:

«**الإنسان لا يمكنه الخلاص منفرداً، وهو بحاجة في ذلك إلى الغورو، والغورو اليوم هو كتابهم المقدّس** «آدي غرانت» المتوافر دوماً في معابدهم «**غوادوارا**» ويقع في ١٤٣٠ صفحة تحتوي على أناشيد من مصادر سيخية وغير سيخية وبشكل خاص من مصادر صوفية إسلامية وهو ليس كتاباً دينياً تقليدياً وإنّما مقتطفات على شكل أغان وأناشيد تناسب موسيقياً طقوسهم»[1].

---

(1) ***Encyclopedia*** des religions ***Ibid***, P. 993.

هـ. الكتب السيخية

بعد خمسين عاماً من وفاة المعلم الغورو الأول ناناك، انتشرت عند السيخية أدبيات متعددة منها «**جانام سيخ**» وهي قصص عن معلمهم الأول ناناك، وكان علماء السيخية قد رفضوها واكتفوا بما ورد في كتابهم «**آدي غرانت**» عن حياة معلمهم الأول ناناك وكذلك بالنسبة لكلّ ما انتشر عندهم بحيث جعلوا لهم كتاباً واحداً حدّدوا به ديانتهم.

وكانت السلسلة قد توقفت بعد الغورو العاشر غوبند سينغ ليصبح الخلاص السيخي محصوراً بكتابهم «**آدي غرانت**» بدلاً من الغورو. كان للغورو العاشر كتاب هو داسم غرانت وهو عبارة

عن مجموعة نصوص لكنه لم يكن يتمتع بالقداسة التي يحتلها «**آدي غرانت**».

«**آدي غرانت**» الكتاب الأساسي المقدّس لدى الطائفة السيخية ألفه الغورو أرجون عام ١٦٠٤م وتوجد منه ثلاث نسخ على الأقل، وتختلف عن بعضها البعض في تفاصيل بسيطة كما ويعتمد السيخ النسخة التي راجعها ونقّحها الغورو غوبند سينغ في عام ١٧٠٤ م.

الـ «**آدي غرانت**» يتضمن ٦٠٠٠ ترنيمة نظّمها الغورو الخمسة الأوائل وهم: ناناك (٩٧٤) وأنجد (٦٢) وأمرداس (٩٠٧) ورام راس (٦٧٩) وأرجون (٢٢١٨) وكان

غوبند سينغ قد أضاف إليها ١١٥ ترنيمة تنسب لأبيه تاج بهادور. إضافة إلى ذلك، يضم الـ «**آدي غرانث**» ترانيم القديس بهاكتي والمسلمين الصوفيين... وترانيم بعض الشعراء الذين ينتمون إلى حاشية الغورو»[1]. وبعد هذا الكتاب كان هناك أمر مهم عند الطائفة السيخية وهو ما دعوه بالكفايات الخمسة وهو عبارة عن خمس كلمات بالسنسكريتية ومن الصعب نقلها إلى العربية على مبدأ الكافات الخمسة بسبب اختلاف لفظها وتنسب هذه الكافات إلى الغورو العاشر غوبند سينغ وقد ترافقت مع نظام الخلسا ***KALSA*** أي نظام الأخوة بين الطائفة السيخية الذي يقوم بتوحيد جوانب التزامات السيخي الدينية والعسكرية والاجتماعية.

أما الكفايات الخمسة التي كان السيخ يصرون على الالتزام بها فهي:

١. الكيسا ***KESH***: وهي تعني الشَعر الذي يجب المحافظة عليه إذا انتسب السيخي إلى الأخوة KALSA. فشَعر الرأس واللحية من المفروض أن يطلق ولا يُقصّ وقد بدأت حرمة قصّ الشعر عندهم قبل الغورو العاشر والخلسا وهذا ما يتميز به السيخي وهذا الإجراء يعمل به عند بعض الهندوس وخاصة عند فئة الرهبان الهندوسية الذين يعيشون حياة التقشف والزهد.

٢. مشط ***KANGHA***: يجب على كل سيخي أن يمتلك مشطاً ويحمله معه أينما ذهب ليسرّح به شعر رأسه ولحيته الطويلة.

٣. الكاشا ***KACCHA***: يرتديه السيخي وهو عبارة عن سروال قصير لفوق الركبة وهو يشبه الشورت العسكري.

٤. كارا KARA: على كل سيخي أن يضع بمعصم يده اليمنى سواراً من فولاذ باعتقادهم فهو تعويذة تبعد عنهم الشر والأذى.

٥. كيربان *KIRPAN*: هو عبارة عن خنجر من الفولاذ أو مدية يتمنطق بها السيخي ومن الواضح أن هذا الأمر ملازم لشخصيتهم العسكرية التي تقوم على مبدأ القوة التي أكّدها الغورو العاشر عندهم غوبند سينغ.

وهكذا، فإن على كل سيخي أن يلتزم بهذه الكافات الخمسة ومن يرتدّ عنها يطلقون عليه صفة باتت *PATIT* أما بالنسبة للسيخ الذين لم يتطهروا أبداً من قبل حسب طقوسهم ولم يلتزموا بهذه الأمور فإنهم يعطونهم فرصاً للاقتراب من التزام الكافات الخمسة تدريجياً ويطلقون على الواحد منهم اسم «**المتكيّف البطيء**»[1].

و. الطقوس السيخية

كان السيخ يعتقدون بوحدانية الله وتنزيهه عن الشبيه وعن التجسيد لذا امتنعوا في معابدهم عن إظهار أية صورة أو رسوم تشير للإله بكافة معابدهم التي تسمى غوردوارا أي البوابة (*GURDWARA*) والمعبد الذهبي(*HARMAN D›OR*)،

وقد بنى السيخ معبدهم الأساسي والرئيسي في أمريستار (بركة الخلد) ومدينة أمريستار كانت قد تأسست منذ سنة ١٥٦٦ بعد أن وهب أرضها السلطان المغولي للغورو رام داس وكان معبدهم فيها يطلق عليه اسم «**المعبد الذهبي**» وكان السيخ يذهبون إليه للحج.

كانت معابد السيخ شبيهة بالمساجد في أنظمة بنائها ولكن الاختلاف أن الصلاة في المساجد تكون باتجاه واحد أي إلى مكة المكرمة بينما في المعابد السيخية لا يكون لها اتجاه محدد وكان السيخ يستحضرون في معابدهم العالم الخارجي حيث كانوا يزينونها بـ «أوراق الأشجار والأزهار ورسوم العصافير والأشجار مع رسوم أخرى وصور أخرى للغورو ولوحات تنطق بأهمّ المحطّات في تاريخ السيخ حيث ترتفع فيها موسيقى تتميّز بالقوة والرصانة[1].

كان السيخ يؤدّون صلواتهم في معابدهم، فكان يلتقي أتباع الخلسا في الغوردوارا «ونمط العبادة المتبع في الغوردوارا، يعتمد أساساً على إنشاد فقرات

(1) ***De*** la hautre, ***Michel***, ***Ibid***, P. 121

نصوص المعلم جرانت صاحب، وعندما يدخل السيخي لهذا البناء للمرة الأولى فإنه يتجه نحو الكتاب المقدس وهو الغورو جرانت صاحب، ويلمس الأرض بجبهته ويقدم قرباناً إلى الغورو وفي أوقات معينة يشترك فيها جميع الحاضرين في تلاوة الأرداس (*ARDAS*) أي صلاة السيخ. وهي تبدو على شكل معين من الابتهالات للنعمة الإلهية، وتذكر الآلام الماضية التي مرّت بها الجماعة وكذلك أمجادها «[1]. وبما أنّ الكتاب المقدس لدى السيخ الـ «**آدي غرانت**» أصبح هو الغورو الملهم الذي يتوجّه به السيخ لتطبيق طقوسهم فقد باتت هذه الطقوس التعبدية في الغوردوارا بحاجة إلى طقس يومي تعطي فيه الغورو مكانة خاصة تليق به تشبه حالة التجسيد البشرية.

«**وكتابهم الغورو غرانت صاحب يُرفع في كل صباح ويوضع تحت ستار من القماش وبعدها يدخل السيخيون وينحنون أمامه ويقدمون القرابين طوال النهار وفي المساء يعاد غرانت صاحب إلى موضعه. وفي الأعياد يحمل السيخ الغورو غرانت صاحب ويطوفون به في الشوارع وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم طقوس السيخ تركّز على كتابهم الأول «آدي غرانت»**. وقد اشتهر عندهم طقس في المعابد هو أن يجتمع عدد من السيخ يقرؤون هذا الكتاب من الغلاف إلى الغلاف دون أي توقف ومن طقوسهم أن تتم هذه القراءة خلال يومين بلياليهما. وطريقة ختم الكتاب عندهم تكون بأن يقرأ أحدهم وإذا تعب يليه سواه وهكذا حتى إتمام قراءة الكتاب»[2].

لا يوجد نظام كهنوتي عند السيخ بل إن الراشدين من الجنسين هم الذين يقومون بإحياء الطقوس الدينية والشعائر بالإضافة إلى أداء الترانيم والأناشيد في الصلاة وفي سائر المناسبات

---

(١) بارنرد، جفري، م. س.، ص. ٢١٢.

(2) ***The*** new ***Encyclopedia Britannica Volume*** 27, ***Macropoedia, Ibid***, P. 283.

كما أنّ السيخ يقومون بأداء التسابيح وذلك بتكرار اسم الإله لمرات عديدة مع ترانيم الغورو غرانت صاحب، مُعتقدِين أن ذلك يطهرهم من الأخطاء ويساعدهم في التخلص من الشّر.

ويوجد لدى السيخ نوعان من الطقوس والصلاة تتم على الشكل التالي:

الأول: يقوم السيخي يومياً بتلاوة فقرات معينة من كتاب الغورو غرانت صاحب وخاصة الجابجي ***JAPJI*** للغورو ناناك الذي يجب تلاوته من الذاكرة مباشرة بعد النهوض من النوم والقيام بالاغتسال.

الثاني: تجتمع بعض الأسر كل يوم صباحاً ومعها نصوص المعلم جرانت صاحب ويقومون بقراءة فقرات يتم اختيارها عشوائياً وهذا ما يسمى بالطقوس اليومية للأسرة وهي ليست عامة إطلاقاً. ولقد مرّ معنا ذكر الحج في الطقوس السيخية وكما أشرنا إليه فإنه يتم بالذهاب إلى أمريستار حيث معبد الذهب ***HARMANDIR*** وهو يأتي عندهم في المرتبة الثانية وبعده «**نانكانا**» وهو مكان ولادة الغورو الأول ومؤسس السيخية ناناك وهو يقع الآن في باكستان، ويوجد أيضاً أماكن في البنجاب أقلّ أهمية من الاثنين الأوليين منها: أناندبور، باتيلا، باتنا، نانداد، وهذه المواقع جميعها ترتبط بالغورو العاشر والأخير غوبند سينغ.

يتمّ إقرار أمور الطائفة السيخية من خلال الشورى ويكون ذلك في المعبد وبالتصويت على أن لا تشارك النساء في هذا العمل. وأمّا في الأعياد والمناسبات فهناك طقس جماعي يقوم به السيخ ويمارسونه في معابدهم وهو المأدبة الجماعية.

«وهذا الواجب الثقافي الإنساني يتحقق من خلال وجبة طعام مشتركة تعدّ في المعبد حيث هناك مطبخ وغرفة طعام خاصة ملحقة بالغوردوارا وهي بجوار القاعة المخصصة للغوروغرانت صاحب، يتم تحضير الطعام وهو من الطحين

والسكر والسمن المصفى المذاب وله اسم هو كراه براسا ***KARAH PRASSA*** هذه الوجبة المشتركة العامة تحقق غرضين:

١. تقديم الطعام المحضر لكل ذي حاجة.

٢. إتاحة الفرصة أمام كل الحاضرين ليتناولوا طعاماً موحداً بحضور وبركة الغورو.

هذه المؤاكلة العامة تعني عند السيخ أنّ كلّ البشر سواء أمام الإله وقد أرادوا هذه الطقوس لدحض القاعدة الهندوسية التي تقوم على أن الناس متفاوتون حسب طبقاتهم ويراعى ذلك حتى في تناول وجبات الطعام»[1].

الأسرة هي الحلقة الأهمّ في المجتمع السيخي لذا نجد أن الزواج عندهم هو زواج ديني بحت، وتتم مراسمه في المعبد «**الغوردوارا** »**وأمام كتابهم** «**الغوروغرانت صاحب**».

يحتفل السيخ بالزواج ويتم على الطريقة التالية:

«**إحضار الخطيبين أمام الغوروغرانت صاحب ويرافق ذلك ترتيل أناشيد وترانيم مخصوصة ويطلب من العروسين أن يقفا أثناء أداء الصلاة والموعظة ومراسم الزواج من قبل الشخص الذي يقود الاحتفال الزوجي، وبعدها يقوم العروسان اللذان يصليان بالانحناء أمام الغورو غرانت صاحب، وذلك إشارة إلى أنّهما قررا أن يتزوجا. واللحظة الهامة في الاحتفال الزواجي تكون عندما يقوم العروسان بأربع دورات حول الغوروغرانت صاحب ترافقهما ترانيم العرس وبذلك يختتم الاحتفال**»[2].

وبالنسبة للولادة وإنجاب الأطفال فهناك أيضاً بعض المستلزمات، أهمها إنشاء عدد من المقاطع من نصوصهم الدينية احتفالاً بالمولود الجديد. «**وبعد أيام**

---

(1) ***Dalahoutre, Michel, Ibid,*** p. 136.

(2) ***Delahoutre, Michel, Ibid,*** P. 138 – 139.

قليلة يحضرون الطفل إلى الغوردوارا ويفتح كتاب «آدي غرانث» ويعطى المولود اسماً استناداً إلى أحرف الكتاب ويكون عادة الحرف الأول من الكلمة الأولى على الصفحة اليسرى»[1]. وعندما يبلغ طفل المذهب السيخي سن الوعي يبدؤون بتعليمه بعض النصوص المقدسة من كتبهم وعندما يتم بلوغه يقومون بتعميد أولادهم باحتفال في الغوردوارا ويسقون المعمّد شراباً يدعونه الرحيق الإلهي ثم يتم إعلانه بالانضمام إلى الأخوية المسماة الخلسا.

أما في حالة وفاة الشخص فهناك مراسم خاصة للجنائز يقومون بها مأخوذة من الهندوس «الجنائز عند السيخ تعالج بشكل بسيط جداً حيث يحملون الجثمان إلى مكان مخصوص لإحراق الموتى، وتحضّر الجثة للحرق ويتم حرق الجثمان وسط تواشيح وأناشيد معينة ترتل بشكلٍ متواصل وتتلى صلاة ابتهالية، هذا مع اختلاف النظرة للجنازة حسب سنّ المتوفى. فإذا كان المتوفى شاباً يحصل الكثير من النحيب والندب من قبل العائلة لأن حياة هذا الشاب قد انتهت في وقت مبكر. أما إذا كان المتوفى متقدماً في السن فإن لوناً من الغبطة يسود لأنهم يتوقعون الخلاص وانعتاق النفس لهذا الشخص»[2].

كما ويقوم السيخ بعد إحراق جثّة الميت بإلقاء رماد الجثمان في أحد الأنهار ويفضل إلقاؤها في نهر الغانج لأنه نهر مقدس عند الهندوس وهذه العادة تمّ أخذها من قبل الهندوس.

---

(1) *The* new *Encyclopedia Britannica*, *Volume* 27, *Macropoedia*, *Ibid*, P. 283

(2) *Delahoutre*, *Michel*, *Ibid*, P. 139.

ز انتشار السيخ اليوم

يعدّ القسم الهندي من منطقة البنجاب هو الموطن الأساسي للسيخ، لأنهم يجدون فيه شعار نشأتهم

ويوجد فيها معبدهم الذهبي الرئيسي لديهم الذي يقع على بحيرة أوتيسار. وبعدما ضعف المغول الذين حاربوا السيخ، قام السيخ بالسيطرة والاستيلاء على البنجاب، وتمكنوا من الدخول إلىمدينة لاهور في ٧ تموز(يوليو) سنة ١٧٩٩م، وقبل ذلك قاموا بتشكيل وحدة عسكرية تحت حكم لانجيت سنغ(١٧٨٠م .١٨٣٩م) الذي أطلق عليه اسم مهراجا(*Mahraja*) أي الحاكم العام للبنجاب وكان ذلك في عام ١٨٠٠. ومن بعدها أصبحت هذه التسمية لزعيم السيخ ما دام الغورو العاشر غوبند سنغ قد منع أن يكون بعده غورو آخر.

أراد الإنكليز ترويض السيخ وإخضاعهم لسيطرتهم لأنهم كانوا قد استعمروا الهند، وقامت حروب عديدة بين الإنكليز المحتلين للهند والسيخ بين عامي (١٨٤٥.١٨٤٩) انهزم عندها السيخ وأصبح إقليم البنجاب ملحقاً للهند التي يقوم باحتلالها الإنكليز.

تعامل الانكليز مع السيخ معاملة حسنة وإيجابية، بعد ذلك اعتمدوا عليهم في بناء جيشهم، ويتبين لنا ذلك من انتشار السيخ في عدة مناطق من العالم التي

خضعت للاحتلال البريطاني، وقد أدّى ذلك الى تشتت السيخ في كل أقطار العالم وما وراء البحار ولكنهم يعتبرون جميعاً من سكان البنجاب الوطن الأصلي.

انتشرت الديانة السيخية أيضاً خارج بلاد الهند وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للأمبراطورية البريطانية وتتكلم الإنكليزية بالإضافة إلى بريطانيا نفسها هناك أيضاً أستراليا والولايات المتحدة وكندا وكينيا وأوغندا وملاوي والدول الإسكندنافية وزاوبيا والبلاد المجاورة للهند كأفغانستان وباكستان وبنغلادش وماليزيا وغيرها.

إذ يتراوح عدد السيخ في العالم بين الـ ١٥ مليون نسمة و٢٠ مليون بينهم ٨٠٪ في بلاد البنجاب. وقد استمر الاحتلال البريطاني السيخي ما يقارب السبعين عاماً أي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، في هذه الأثناء كان السيخ يشكلون ٢٠٪ من الجيش البريطاني وبعد هذا التاريخ تغيّرت الأحوال وانضم السيخ إلى حركة المهاتما غاندي الحركة التحررية التي تعمل على إخراج الإنكليز من الهند.

كما وهاجر حوالي المليونين ونصف المليون من السيخ إلى الجانب الآخر من البنجاب التابع للهند وذلك بعد أن قسمت شبه القارة الهندية إلى دولتين: الهند وباكستان عام ١٩٤٧بحيث أصبح القسم الغربي من بلاد البنجاب تابع لمقاطعة باكستانية، وحصل بعدها الصدام بين المسلمين والسيخ وبات هذا القسم موطنهم الكثيف والأكثر حضوراً ويعيش حوالي ٤٪من السيخ في المنطقة المتاخمة لشمال راجستان ودلهي أمّا مكان تمركزهم حالياً فهو بلاد البنجاب وهارايانا[1]. لقد أطلق السيخ على منطقتهم اسم «**سلة الخبز الهندية**»، لأن هذه المنطقة خصبة غالباً وقاموا باستغلال أراضيها فزرعوها بأيديهم وبذلك وفّروا قوة اقتصادية زراعية متنوعة.

---

(١) بارندر، جفري، م.س، ص٢١٢.

تمتّع السيخ بنفوذ معين تحت ظلّ الاحتلال الإنكليزي باختلاف ما كانوا عليه في ظلّ الحكم الهندي، فبدؤوا بالسعيّ من أجل الحصول على حكم ذاتي وأن يصبح لديهم اتحاد فيدرالي مع الحكومة الهندية. ومع كلّ ذلك فقد تمتّع السيخ بوضعية مميزة بالنسبة لهم كأقلية دينية في المجتمع الهندي.

لقد قال عنهم جفري بارندر: لم ترجح كفّة السّيخ العددية في أيّ مكان من الهند فهم حتى في ولاية البنجاب يشكلون حوالي ٥٠٪من السكان وإن كان لهم تأثير كبير بسبب حجم تعدادهم لا داخل ولاية البنجاب وحدها بل كذلك داخل ميادين واسعة من الحياة الهندية وهذا التأثير يشمل القوات المسلحة والنقل والمواصلات والنشاط السياسي والنشاط الرياضي وتنعم جماعة السيخ أيضاً بوضع اقتصادي ممتاز نسبياً وهم قد بلغوا في مستوى التعليم درجة أعلى من المتوسط في كل أنحاء الهند»[1].

وعند مطالبة السيخ بإقامة الحكم المستقل ليكون لهم اتحاد فيدرالي مع الهند وبالإضافة إلى كل ما تمتعوا به من نفوذ جعل الهندوس يتحركون لكيدهم وبدأت بذلك الاضطرابات بينهم وبين الحكومة الهندية وكان ذلك في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات وبهذه الأثناء قام السيخ بتأسيس حزب لهم يدعى «**أكيل دال**» وقاموا بتحركات أهمها كان في عام ١٩٧٨ وعقدوا اجتماعاً موسّعاً في المعبد الذهبي بأمر تيسار.

أمرت أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند آنذاك في ٢حزيران (يونيو) ١٩٨٤ بإخماد تمرّد السيخ، فتمّ محاصرة المعبد الذهبي من قبل الجيش الهندي وهاجموا السيخ ممّا أدّى إلى مقتل القائد السيخي بندراويل ***BHINDRAWAL*** مع حوالي ١٥٠٠ شخص من السيخ ومقتل ٥٠٠ من الجيش الهندي. في هذه الأثناء بدأ السيخ بالتخطيط لاغتيال رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي، وبوقت قصير

(١) بارندر، جفري، م.س.، ص٢١٢.

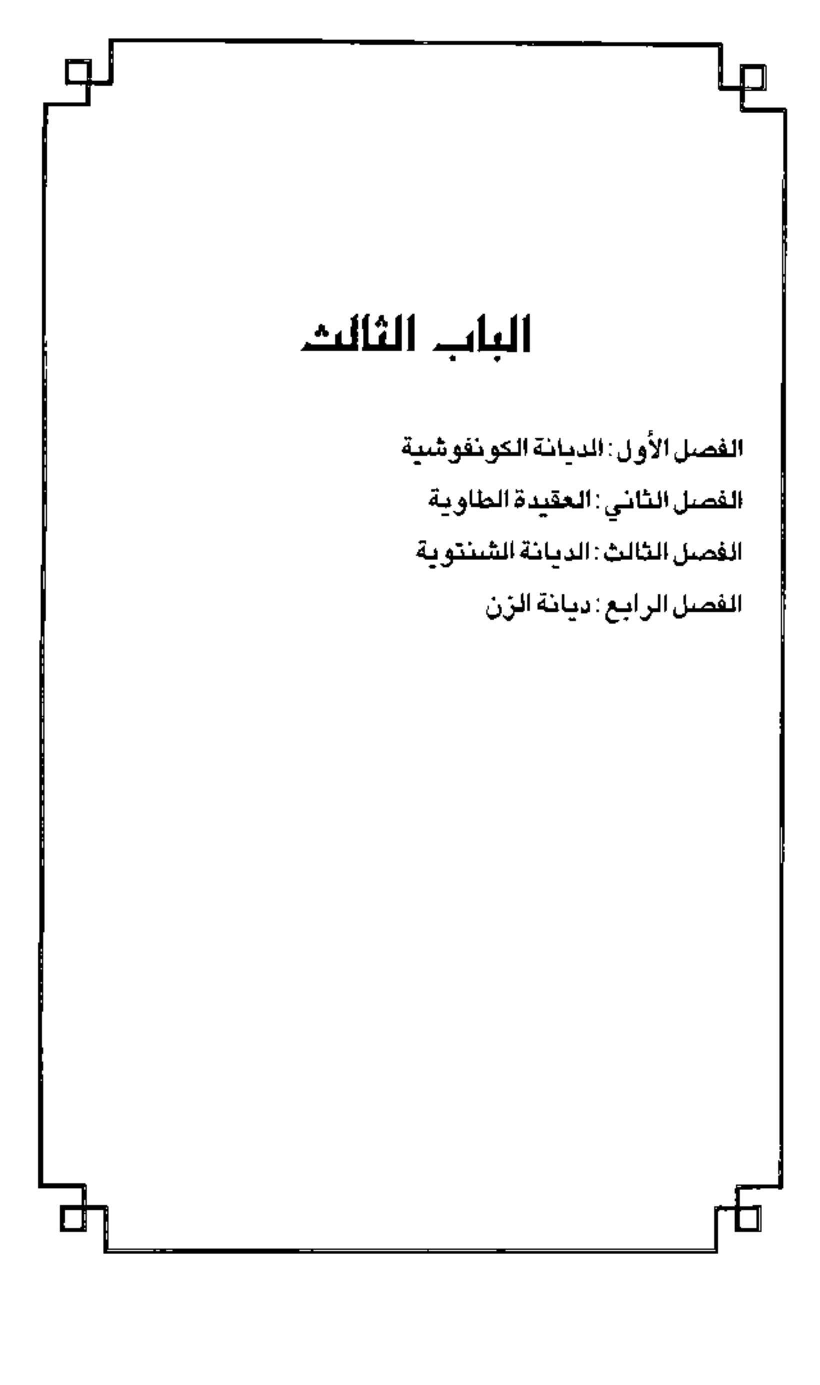
تمكنوا من ذلك، فأقدم رجلان من حراسها وكانا ينتميان إلى المذهب السيخي في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٨٤ باغتيالها.

وقد قامت صراعات دامية بين الهندوس والمسلمين بسبب تحفز السيخ للاستقلال السياسي في البنجاب، ومع أنهم كانوا متمسكين بطقوسهم في بلاد البنجاب والهند إلا أن شتاتهم أدّى إلى التخلي عن بعض الرموز والطقوس رغماً عنهم أو حتى لمسايرة الأوضاع.

وبالرغم من كلِّ ذلك كانوا حريصين وملتزمين بشعائرهم والدليل على ذلك أنّ السيخ كانوا يملكون ٥٠ معبداً جوردوارا في بريطانيا فقط.

وأخيراً..وبناءً على ما تقدم يتبين لنا أن طقوس السيخ وعباداتهم وجميع شعائرهم متنوعة المصادر بعضها إسلامي وبعضها هندوسي والبعض الآخر مسيحي كالتعميد مثلاً، ومنها ايضاً عادات وتقاليد اجتماعية موروثة أو وافدة، إضافة إلى ذلك، فإنهم اليوم يشكلون جماعاتٍ بشريةٍ لها معتقداتها ومفاهيمها وخصوصيات تتعلّق بها.

وهذه الجماعة تتصرف بشكل عدائي تجاه المسلمين وأقلّ منها تجاه الهندوس من مواطنهم وهذا ما قد يحتاج إلى استطلاعات دقيقة لاستكشاف الثغرات التي يتم النفوذ منها إلى هذا المجتمع البشري الديني الذي يبلغ عدد سكانه العشرين مليوناً، وإذا استمر التعاطي معه على أنه أقلية وبقي منبوذاً فقد يزيد الأمور سوءاً وتعقيداً. ولا بدّ لنا من البحث الدقيق والهادئ للاطّلاع على ما يعتمده السيخ إن كان إيجابياً أو سلبياً حتى يكون التعاطي على أسس إظهار الإيجابي ونفي السلبي..



الباب الثالث

الفصل الأول: الديانة الكونفوشية

الفصل الثاني: العقيدة الطاوية

الفصل الثالث: الديانة الشنتوية

الفصل الرابع: ديانة الزن

الفصل الأول

الديانة الكونفوشية

أ. نشأتها.

ب. كتب الكونفوشية.

ج. المشروع الفكري عند الكونفوشيوس.

د. مذهب الكونفوشية.

هـ. معتقدات الكونفوشية.

و. عبادات الكونفوشية وهياكلهم.

ز. مبادئ السياسة والأخلاق عند الكونفوشية.

ح. وصايا كونفوشيوس.

ط. آثار الكونفوشية.

أ. نشأتها

تنسب الكونفوشية إلى شخص يدعى *K'ung - FU - TZU* كونغ ـ فو ـ دزه، وهي تعني بالصينية «**المعلم**». ولد كونفوشيوس سنة٥٥١ق.م. في جوٍّ مليء بالمدارس الفلسفية في الصين، ومحور هذه الفلسفات كان يدور حول عالم الإنسان إدارة شؤون الدولة والمجتمع ولذلك غلب طابع الاجتماع والسياسة على الفلسفة الصينية، وكان كونفوشيوس هو الشخص الوحيد المميّز في هذه السلسلة دون سواه. ولد كونفوشيوس في مدينة تشوـ فو وهي في مملكة لو ***Lu*** وتسمى حالياً ولاية شان تونج وبقي فيها إلى أن وافته المنية سنة ٤٧٩ ق.م[١].

نشأ كونفوشيوس في أسرة أرستقراطية عريقة ما جعل أفكاره وأوهامه الخيالية تتناقلها القصص الصينية إلى أن أصبحت تراثاً تناقلته الأجيال منها على سبيل المثال: أنّ الأشباح أبلغت أمّه الشّابة مولده غير الشرعي، وكيف أن الأرواح الإناث كانت تعطر لها الهواء وهي تلده في أحد الكهوف. عاش كونفوشيوس يتيماً بعد وفاة والده، وكان يبلغ من العمر ثلاث سنوات، وهو ينتسب إلى سلالة «**يين**» التي كان ملوك بلادهم ينحدرون منها إلى أن انتزع السلطة منها سلالة «**زهو**»، وبميله إلى دراسة الفلسفة فقد فرض نفسه على مجتمعه، فبدأ يستعين

---

(١) ديورانت، ويل: «قصة الحضارة»، ج٤، ص:٤٠.

به الأمراء وجعلوه مستشاراً لهم وقلّدوه مناصب الحكم والقضاء إلى أن وصل إلى منصب الوزير الأول في (لو *LU*) عام ٤٩٦ ق.م.

لقد كان همّ كونفوشيوس الأساسي نشر مذهبه الفلسفي وقد اعتمد الأسلوب الإصلاحي الاجتماعي الأخلاقي، كما اعتمد التعليم المباشر والحوار مع أتباعه الذين شارفوا على الآلاف أثناء وجوده، أمّا في أواخر حياته فقد تفرغ لعمله التعليمي هذا، وقبل وفاته بقليل سمعه البعض من مريديه ينشد صباحاً هذه الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق،

وتتحطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ب. كتب الكنفوشية

اعتمد كونفوشيوس في التعليم على الطريقة السقراطية من خلال المحاورة، وقد بقي قسم من تراثه يتناقله طلابه شفهياً وقاموا بتدوينه فيما بعد، وهذا ما جعل الصينيين يقومون بإعطاء التدوين صفة معينة منفردة قبل كونفوشيوس باستثناء الأمور الطقسية والشعائرية أو لأرشيف الحكومات، وبالنسبة للتأليف الفردي فهو غير معتمد كلياً. وكان كونفوشيوس أول من قام بكسر هذا التقليد، واتخذ لنفسه مهمّة الكتابة والتدوين لنوعية أتباعه لما ينشره من المبادئ والقيم الأخلاقية والاجتماعية التي تدور حول شؤون السلطة وكيفية إدارة المجتمع أمّا الكتب الكونفوشية المعتمدة والمنسوبة فهي الكتب الكلاسيكية الخمسة التي تركها كونفوشيوس، بالإضافة إلى أربع كتب دوّنها التلامذة، وهي تتضمن مجموعة من الأقوال والتوجيهات التي قالها كونفوشيوس لمريديه، وهي خمسة كتب كلاسيكية ألّفها ودوّنها كونفوشيوس، ولكلٌ منها خصائص ومميزات وموضوعه مختلف عن الآخر، وهي:

١. كتاب الشعر أو الأغاني ***Shine ching***: ويضمّ مجموعة أشعار، يعود تاريخها إلى عهد تشو، تتألف من ستة تواشيح تُغنى مع مصاحبة الموسيقى و٣٥٠ أغنية.

٢. كتاب التاريخ ***Shuching***: ويحتوي على تاريخ الأباطرة في الصين وملوكها، وفيه وثائق مهمة من تاريخ الصينيين، إضافة إلى القصص التي تبين

سمو الأخلاق والطباع من الصين الأمبراطورية الموحدة في عهد كونفوشيوس بحيث يعتقد أنّ حكامها كانوا أبطالاً يعملون لتمدين الشعب والرفع من مستواه دون أنانية من أحد ويحكي عن المرحلة من عام (٢٠٠٠ ق.م حتى ٧٠٠ ق.م).

٣. كتاب التغيرات أو التحول *I- ching*: وهو يحتوي على الصيغ السحرية والتعاويذ، ونصوصه تتمحور حول تفسير الظواهر الكونية والطبيعية، وهي تستخدم بنطاق واسع في العرافة وينسب هذا العمل إلى وينج وانج ***Weng Wang*** (١١٠٠ ق. م). وقد تطرق هذا الكتاب الى الحديث عن موضوع ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). على الرغم من تشديد كونفوشيوس على عدم الاقتراب منها.

٤. كتاب الطقوس أو سجل المراسم *Li Chi*: وهو يحتوي على وصفٍ دقيقٍ للطقوس الدينية الصينية القديمة، إضافة إلى القواعد المنظمة للسلوك الاجتماعي، وهذه القواعد هي باعتقاد كونفوشيوس من آداب اللياقة والأسس الدقيقة التي لا استغناء عنها لتكوين الأخلاق وتطويرها وإلى استقرار النظام الاجتماعي، وهذا الكتاب تمّ وضعه بعد كونفوشيوس كما أشارت بعض الدراسات ولكنه يبين لنا بصورة جيدة العادات والقواعد التي تعود إلى العصور السابقة.

٥.كتاب حوليات الربيع والخريف *Chun chiu*: ويتضمن هذا الكتاب وقائع الأحداث ومجريات الأمور في لو *Lu*، مكان نشأة كونفوشيوس من عام ٧٢٢ق.م. حتى ٤٦٤ ق.م.

أما الكتب الأربعة الأخرى فهي عبارة عن نصوص نسبت إلى كونفوشيوس أو لبعض تلامذته وقد دوّنت بعدما أضيفت إليها بعض التفسيرات، وهذه الكتب هي التالية:

١. كتاب الأخلاق والسياسة أو مختارات كونفوشيوس *Lunu*: ويحتوي على مجموعة من الآراء والنصائح والمواقف لكونفوشيوس، وقد عمل تلامذته على

جمعها وتنسيقها وجميعها تعاليم توجه إلى القيم الإنسانية وتوجه الإنسان نحو الكمال.

٢.كتاب العلم العظيم *Ta hsueh*: ويتضمن أهم وأبرز تعاليم كونفوشيوس حول نظام الحكم، وهذا الكتاب يحتوي على تطوير هسون تسو لفكر كونفوشيوس.

٣.عقيدة الوسط (تشونج يونج *Chung yung*): ويتضمن التعاليم الضرورية لمراعاة الانسجام في جميع الأمور والابتعاد عن التطرّف، ومحور موضوعاته تدور حول تنظيم الحياة وتحقيق الانسجام لذا أطلق عليه بعضهم اسم: «**كتاب الإنسجام المركزي**».

٤.كتاب منشيوس منج تسو *Meng tzu*: ويتضمن أمثالاً وحكماً تعود إلى كونفوشيوس وللبعض من تلامذته مع شرحها وحواشيها التي وضعها منشيوس والذي يعتبر من أوائل الشراح لفكر كونفوشيوس.

هذه الكتب الفلسفية التسعة ليس لها صلة بالإلهيات والخلق وفيما وراء الطبيعة بل نراها تتجه الأحداث والوقائع والأخلاق والسياسة وإدارة المجتمع ونظامه والحكم والقضاء والعدل.

فالشيء الرئيسي في تعاليم كونفوشيوس، هو أنّها تعاليم عن قواعد السلوك، وعن المياه السليمة. إنّها منظومة أخلاق سياسية وذاتية، وكونفوشيوس بالذات قليلاً ما كان يصرف انتباهه نحو الأمور الميتافيزيقية...

ولقد كان اهتمامه الرئيسي موجهاً نحو الجانب العملي من مذهبه».

ج. المشروع الفكري عند الكونفوشيوس

لقد أولى كونفوشيوس اهتمامه وتركيزه على الإنسان، فلم يبحث في نظام الكون والسنن ولم يهتم بالماديات والظواهر الطبيعية، كما لم يذهب باتجاه الحديث عن خلفيات ما وراء الطبيعة، فكلّ هذا جعل فكره يتمحور نحو الإنسان فقط. لجعله يحقق السعادة بكل أساليبها وطرقها.

لذلك قال جون كولر: إن الاهتمام بالناس يأتي أولاً في الصين، فالعالم الإنساني له الصدارة، أما عالم الأشياء فيحتل مرتبة ثانوية، وهذه السمة تتجلى في الكونفوشية في التأكيد على النزعة الإنسانية الاجتماعية.

يؤدّي التأكيد على العظمة الإنسانية، بصورة طبيعية، إلى التأكيد على الأخلاق والحياة الروحية، فالروح، وليس الجسم، هي الجانب الأهمّ في الوجود البشري، وهذه الروح لا بدّ من تغذيتها ورعايتها، لكي تتطور بحسب قدراتها، ولقد كانت الحياة الأخلاقية مطلباً مسبقاً لهذا التطور وتلك إحدى الخصائص البالغة الوضوح في الكونفوشية»[1].

من خصائص هذه السمات الحضارية ذات الطابع الإنساني انطلق المشروع الفكري الإصلاحي الكونفوشي، ولأن الكونفوشية نسبت إليه فكان هذا كأمثاله في الهندوسية في الهند، والشنتوية في اليابان. فالهندوسية والشنتوية مثل

---

(١) كولر، جون، الفكر الصيني، ص ٣٢٧.

بعضهما، فكل واحدة تعبِّر عن التراث والتراكم المعرفي لدى أجيال بلدهما، وكذلك أيضاً الكونفوشية فهي صياغة إنشائية من قبل منشئها كونفوشيوس تم اتباعها لشرح وتحليل أفكاره للمفردات والمفاهيم الصينية.

لذا تواصل العطاء في الصين من الكونفوشيوس إلى يومنا الحالي، فهو الذي صاغ العديد من الأفكار وما زال في حالة تراكم معرفي واتصال يتابع بعضه البعض. فقد كان التوحّد بين الحضارة الصينية والكونفوشية مركزاً تعليمياً وأساساً للممارسة الاجتماعية والسياسية، فكانت الكونفوشية تبعث الحياة في الفكر الصيني عبر جميع المراحل. لذا نرى أنّ الشريعة الكونفوشية «**لا تتكون من مؤلفات مؤسس الكونفوشية فحسب، بل كذلك من الوثائق الدنيوية التي كانت موجودة قبل كونفوشيوس، وتشكل التراث الكلاسيكي للصين. لقد ظلّت الشريعة الكونفوشية لألفين من السنين هي العصب الرئيسي لمنهج التربية والتعليم في الصين، وكان الإلمام بالشريعة على سبيل المثال هو أحد المتطلبات الرئيسية في امتحانات الخدمة المدنية**»[1].

أما البحث عن سرّ نجاح المشروع الفكري لكونفوشيوس، فيقول: إن كونفوشيوس عكف على مجتمعه باحثاً في أزماته وقضاياه التي تمسّ حياة المواطن من الجوانب كافة، وعاد إلى تراث بلاده، ومن ذلك خرج بأفكاره الإصلاحية التي تنطلق من الإنسان والمجتمع من أجل الإنسان، فكان لأفكاره القبول العام بسبب ذلك.

إنّ الكونفوشية ليست ديناً وضعياً بالمفهوم المتعارف عليه، لكنّها تؤسس على يقين مقدّس فلسفة إنسانية تركز على أن الاعتقاد بفطرة الإنسان الطيبة وبضرورة تطوير الذات والحياة الخاصة هذا مع احترام الآخرين، فإنّ ذلك سيساعد على نشر السعادة من المجتمع عليه.

(١) بارندا، جفري، الأديان والمذاهب، ص ٢٦٩.

لقد كان كونفوشيوس مصلحاً اجتماعياً وسياسياً، ويدلّنا على ذلك ما مارسه خلال حياته، فقد ركّز اهتمامه على الناحية الإصلاحية من أجل تحقيق الاستقرار لبلده، لذلك لم يشغل وقته بنظام العبادات والشعائر فقط، حيث إن حياته كانت في أصعب فترة من تاريخ الصين وفي منطقة لو *Lu* خاصة أي البلد التي ينتمي إليها.

كان كونفوشيوس «يرى نفسه رجلاً شريفاً متحضّراً، كرّس حياته لتعليم الناس، الإحسان الى الآخرين، وقواعد الأخلاق، والعلاقات العائلية السليمة، هذه المبادئ وغيرها هي التي نبني عليها مجتمعاً سليماً ومنظماً ومنسجماً»[1].

أجل هكذا كان مشروع كونفوشيوس، مشروعاً هدفه إصلاح المجتمع وسعادة الإنسان، حيث تسود القيم الأخلاقية لتحقيق دولة قوية مستقرة.

---

(١) Ibid، p ١٨٠. *Le* grand livre des réligions du monde

د. مذهب الكنفوشية

إن الكونفوشية مذهب يدين به خُمس سكان العالم، فقد كانت في زمن تأسيسها أقل مشروعاً دينياً ومذهباً وضعياً وأكثر من نظام أخلاقي، حتى تحولت في المراحل اللاحقة إلى شريعة وعقيدة، اتّبعها عدد كبير من السكان في الصين.

«والواقع أن كونفوشيوس كان يعتبر الدين والأخلاق والسياسة شيئاً واحداً، فكلمة لي (*Li*) التي تعني عنده النظام الاجتماعي، تعني في نفس الوقت النظام السياسي والنظام الديني، وهذه الكلمة قد أخذت معنى خاصاً عند الصنيين، فإذا أطلقت وحدها فُهم منها مذهب كونفوشيوس السياسي والديني والاجتماعي»[1].

إذاً إنّ النقاش الذي يدور حول ما إذا كانت الكونفوشية مذهباً دينياً أم مجرد نظام أخلاقي سببه اعتماد كونفوشيوس أسلوب التركيز على ما يعني السلوك الإنساني وفي المقابل تجنبه لأي حديث عن الغيب وما بعد الموت، ومن المعلوم أن النزعة التي تسيطر على الكونفوشيوس كانت تطبق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم، فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كلّ الأمور الغامضة، أو الأمور السماوية. صحيح أنّ ذكر السماء والصلاة كان يرد على لسانه أحياناً، وأنه كان ينصح أتباعه بألاّ يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية في عبادة الأسلاف والقرابين القومية، ولكنه كان إذا

(١) راجع: كولر، جون، الفكر الصيني، ص:٣٣٤.

وُجِّه إليه سؤال في أمور الدين أجاب إجابةً سلبية.. ولما سأله كي_لو، عن خدمة الأرواح، أرواح الموتى أجابه: إذا كنتَ عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟

وسأله كي_ لو: هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت؟ فأجابه إذا كنت لا تعرف الحياة فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت»[١].

هذا هو الأسلوب الذي اعتمده كونفوشيوس في التعاطي مع النظام العقائدي، ويظهر لنا بأنه لم يعطِ هذه المسألة الاهتمام الأكبر، ولم يذهب بعيداً عن معاناة الناس وإنما حاول أن يبقى ملتصقاً بالواقع في ما طرحه.

لذا يمكننا القول:«**إن الكونفوشية ليست نظاماً ذهنياً أو فكراً عقائدياً أو ذا اتجاه قطعي في أطروحاته، لأن مؤسس هذه الديانة لم يعمل لفرض نظرياته وآرائه، ولا رغب في استغلال معاناة الناس وعذاباتهم، وإنّما سعى بسلوكه ذي الطابع الإنساني أن يثبت أنّ للحياة معنى، وأن السعادة تكون بالعيش في مناخ الفضيلة واحترام القيم والاعتراف بالآخر**»[٢]. لقد عاش كونفوشيوس في جوٍّ يسوده الاضطراب والفوضى وبدون انتظام للمياه العامة بالشكل السليم، فقد ركز جهده ومذهبه لينقذ المجتمع من هذه المعاناة، لذلك فقد طغى الجانب الاجتماعي على ما عداه في الكونفوشية، لذا قال أحد معاصريه:

«**الكونفوشية مذهب يتّسم بنزعة اجتماعية دنيوية، قد ناضلت من أجل بلوغ أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية يمكن تحقيقه في مجتمع إقطاعي بيروقراطي**»[٣]. وبالإضافة إلى ما تقدم يمكننا أن نستنتج بأن الكونفوشية

---

(١) ديورانت، ول، قصة الحضارات، ج٤، ص:٥٣.

(2) *Encyclopédie* des religions v1.Ibid.p.1097.

(٣) نيدهام، جوزيف، موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة محمد غريب جودة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص: ١٣٩.

تركزت بشكل ديانة لها معتقداتها وطقوسها ومعابدها، وإن كان الجانب الغالب فيها هو الاجتماعي السياسي الأخلاقي. وقد تطورت وامتدت عبر قرون عديدة بلغت حتى أيامنا هذه ٢٥ قرناً.

هـ. معتقدات الكنفوشية

لقد وجّه كونفوشيوس تركيزه واهتمامه إلى الإصلاح الاجتماعي السياسي، وكان هدفه صياغة مجتمع صيني مستقر، فهو لم يخرج عن العادات والتقاليد الصينية في العبادة ولم يعبد مظاهر طبيعية كالشنتويين في اليابان، الذين عبدوا الشمس وقدّسوا آلهتها، أو كالهندوسية في الهند التي انطلقت من الثالوث: براهما- فيشنو- شيفا للإيمان بالآلهة المتخصصة لكلّ شأن.

وقد آمن كونفوشيوس «بأنه ليس في الوجود سوى إله واحد قوي الإرادة هو السماء، وكان أول من صرّح بوجود العناية الوحدانية بالصين عندما كانت الصين غارقة في ظلمات الوثنية والوحشية. ولم يكن هو نفسه موضع عبادة أو تأليه، ولم يرضَ بذلك، لأنّه كان يعتبر الآلهة رموزاً لقوى الطبيعة وأرواح السلف ليس أكثر.

تقوم الكونفوشية على عقيدة أساسها عبادة السماء مع تلمّس الوحدانية وعلى وجود آلهة تعرف عنها قوى الطبيعة ومظاهرها، وعلى تقديس الأسلاف على طريقة الشنتو اليابانية.

من الممكن لنا أن نحدد العقيدة الكونفوشية على الشكل الآتي: «**إن الديانة التي اعتقدها كونفوشيوس والتي كانت سائدة في أيامه، على الرغم من الاضطراب الفكري والديني والفلسفي الديني الذي كان سائداً آنذاك، كانت قائمة**

أولاً على عبادة السماء باعتبارها الإله الأعظم وحاكم الحكام أو ربّ الأرباب، ثم عبادة الأرض لأن الأرض هي الأخرى إله، ثم عبادة أرواح الأجداد ثم عبادة الجبال والأنهار»[١].

يحاول الكونفوشيون أن يبرروا اعتقادهم بظواهر الطبيعة ومكوّناتها، وينطلقون من الماء والنار وما يتعلق بهما وصولاً إلى الانسان لأنه عندهم أعلى مكانة من باقي الكائنات، وقد عبر هسون تسو (٣١٢ ق.م ـ ٢٣٨ق.م) عن ذلك بقوله: «**للماء والنار جيهيان *Chihi*، أي روحان رقيقتان، لكن ليس لهما شينج *Shêng* (حياة)، وللنباتات والأشجار شينج، ولكن ليس لهما چيه *Chih* أي «إدراك»**، وللطيور والحيوانات چيه وليس له(آي I) (إدراك للعدل). أمّا الإنسان فله جيهي وشينج وچيه بالإضافة إلى آي، لذا فالإنسان أنبل الكائنات الأرضية»[٢].

بناءً على ما تقدم نلاحظ أنّ الإنســان يعدُّ في المرتبة الأولى عند الكونفوشية حيث يتمتّع بكل الخصائص الموجودة في سائر المخلوقات ثم ينتقل المعتقد بعدها إلى الثنائية التي تتحكّم في أنظمة الأشياء ومن ثمّ إلى العناصر الخمسة وما يتعلق بها والتي هي أساس الحركة في السنن الكونية. يعتقد الكونفوشيوس بأن الكون متحوّل ويسير في دوامة لا تتوقف. من هنا «**نشأ مفهوم الـ *ying* والـ *Yang* الذي يدلّ في الأصل على الطرف المضيء لهضبة، والـ*Ying* الذي يدلّ على الطرف الآخر، حيث اختير هذان الطرفان لأنهما مختلفان تماماً ومتكاملان ومتواصلان. إنهما يحكمان الأرض:الـ*yang* المضيء الجبار القاسي والمذكر.والـ *ying* المظلم البارد العذب والمؤنث... والعناصر الخمسة نظموا أيضاً: الأرض ـ الخشب ـ النار ـ المعدن والماء، ولكل عنصر منهم جهة هي بالتالي: الوسط ـ الشرق ـ الجنوب ـ الغرب ـ الشمال، ولكلّ عنصر لون هو: الأصفر ـ الأخضر ـ الأحمر ـ الأبيض**

---

(١) شحاتة، حسن، كونفوشيوس، ص:٦٣.

(٢) نيدهام، جوزيف، تاريخ العالم والحضارة في الصين، ص٦٣.

والأسود، ولكلّ عنصر طعم هو: حلو ـ حامض ـ مر ـ حار ـ مالح، ولكلّ واحد منهما عنصر فيزيائي هو: العضلات ـ العظام ـ النفس ـ الأظافر ـ الدم، ولكل عنصر نشاط إنساني هو: الطهارة ـ العلوم ـ النظام الجيّد ـ الخبرة ـ الرصانة، ولكلٍّ عنصر شعور هو: الحب ـ الفرح ـ السعادة ـ الحزن ـ الغضب»[1]. هذه العناصر الخمسة شكّلت محور الاعتقاد الكونفوشي، من ذلك نشأت عندهم عبادات ارتبطت بالعقيدة وهي عبارة عن خمسة قرابين: «وهذه العبادات الخمس كانت لها طقوس خاصة تختلف من عبادة لأخرى، كما كانت القرابين التي تقدم في حالة عبادة السماء غير تلك التي تقدم في حالة عبادة الأرض مثلاً. وعبادة هذه الأشياء الخمسة إنّما كانت لأغراض نفعية خاصة بالإنسانية، فعبادة السماء أو رب الأرباب تؤدي إلى أن يقوم كلّ ربّ من الأرباب الأخرى المنتشرة في السماء والأرض والبحر بمهمته المكلّف بها، وعبادة الأرض من شأنها أن تحفز إله الأرض على إنماء النبات وإخراجه إلى حيّز الوجود، وعبادة أرواح الموتى الأجداد في المعبد الخاص بذلك من شأنها أن تؤكد الصلة بين الأجداد والأحفاد والآباء والأبناء وتولّد الشفقة والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة. أمّا عبادة الجبال والأنهار فهي لتقديس الأرواح الإنسانية الأخرى غير أرواح الأقارب والأجداد، أمّا تقديم القرابين الخمسة فالقصد منه تخليد أصل الحِرف الإنسانية»[2].

نتيجة لما تقدم يمكننا تلخيص العقيدة الكونفوشية بما يلي:

- تقديم قرابين معينة لكلّ إله من آلهة الأرض والشمس والقمر والكواكب والجبال والأنهار.
- إله السماء أو الإله الأعظم.
- نفوس وعبادة أرواح الأسلاف.

---

(1) *Le* grand livre des religions du monde.Ibid,p.178.

(٢) نيدهام، جوزيف، م.س، ص ١٤٣.

- خصائص العناصر الخمسة والإيمان بها وبثنائية الـ ***yang*** والـ ***ying*** وصولاً إلى القرابين الخمسة التي تقدم ولكل واحدة جهة خاصة.

و. عبادات الكونفوشية وهياكلهم

قبل ظهور كونفوشيوس كان الصينيون يعبدون السماء ويقدسونها كما كانوا يقدسون الأسلاف ويعبدونهم إلى أن جاء كونفوشيوس وثبت أسس هذه العبادة فاستقبله الصينيون، وانتشرت عباداتهم في جميع الأرجاء انتشاراً سريعاً، فوافقت طباعهم وعاداتهم تراثهم الديني. ومن المعروف أن لواقع الصين انتصاراً وسيادة «**الكونفوشية وعبادة الأسلاف**» على كثير من الديانات المنافسة لهما، وقد قاومت هذه الديانات هجمات كثيرة من أعدائها وخرجت ظافرة من صراع دام عشرين قرناً، ذلك لأن الصينيين يشعرون بأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن ديانتهم لأنها تساعدهم في الحفاظ على التقاليد القومية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها. كما وكانت هذه الديانات هي الضمانة الحقيقية لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي. فقد ظلّ الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني»[1]. توحّد هذا الاعتقاد والمذهب لدى الصينيين وساهم في تماسك الوحدة الدينية والقومية ممّا قوّى مجتمعهم في كافة الظروف وأمام كلِّ التحديات. ومن أبرز العبادات لديهم، **الاحتفالات** السنوية الضخمة التي كانوا يقيمونها بمشاركة الأمبراطور. وتقدم فيها القرابين

(١) شحاتة، حسن، كونفوشيوس، ص:٦٣.

للسماء لأنها باعتقادهم تدلّ على إرادة الإله. يصف ويل ديورانت الاحتفال السنوي فيقول: «**كان من الأصول المقررة في الديانة الكونفوشية الاعتراف بالسنج تي، أي القوى العليا المسيطرة على العالم، وكان الأمبراطور في كل عام يقدم القرابين باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المحرر. وقد خلا هذا الدين الرسمي من كل إشارة للخلود، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الإله أو نظام العالم**»[1]. آمن الكونفوشيوس كالذين سبقوهم من الصينيين بالسماء التي تخلف وتسير المخلوقات. وبعد السماء تأتي عبادة الأسلاف التي جعلت بعضاً من الخصوصيات العائلية في الطقوس والعبادات وبإقامة معابد وهياكل تخصّ كل عائلة وجعلوها تخليداً لذكرى مؤسس العائلة ويدعونه البجودة وهو الشخص الأكثر بروزاً. «**إنّ عبادة الأسلاف هذه أضحت القسم المكوّن الرئيسي للمعتقدات والطقوس الدينية، رغم أنّها ليست ديناً رسمياً في الصين، فكان لكلّ عائلة معبدها العائلي الخاص أو مصلاها، حيث تقام فيه طقوس العبادة العائلية في وقت محدد**»[2]، ولكل سلالة ـ شي ـ معبدها العشائري للأسلاف (مياو ـ أوتزون ـ مياو) وكثيراً ما يدعى الآن نصيتان، مكرس الأوائل من أنشأ السلالة المعنية. إنّ لكل مجموعة عشائرية رئيس هو الأكبر سناً. وكان لها معبد بدورها مكرس لأول رئيس عام للعائلة. أمّا القرابين والصلوات في هذه المعابد فكان يقيمها إمّا رأس العائلة أو الأكبر سناً في العشيرة. كما وإن هذه الخصائص عند الكونفوشية تبين لنا مقدار ما يجلّ ويحترم الكونفوشي عائلته وكبارها إضافة إلى الأسلاف وهذا ما هو موجود أيضاً عند اليابانيين والشنتو.

لعبادة الأسلاف عند الكونفوشية مراسم وطقوس ومناسبات فإن ذلك «**يحدث التوجه بصلوات مشابهة إلى الأسلاف عند حدوث وقائع عائلية أخرى، وخلال**

---

(١) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ج٤، ص:٢٦٥.

(٢) ديورانت، ول، قصة الحضارات، ج٤، ص:٢٥٩.

الأعياد وفي أيام محددة من السنة. ففي أواسط كل شهر من أربعة شهور في السنة مثلاً (أرباع السنة) ينبغي تقديم قربان عائلي. وقبل فترة وجيزة من حلول الموعد يتقدم رب العائلة من معبد الأسلاف، ويجثو على ركبتيه أمام اللوحات المخرجة من الخزائن وهو يتلو: أنا العابد الحفيد فلان الفلاني، اليوم وبمناسبة حلول أواسط الفصل كذا، أودّ تقديم قربان لكم، أيّها المرحومون إلى القريب والجدّ، وجدِّ الجدّ، وجدّ جدّ الجدّ. وإلى القريبة الجدّة، وجدة جدة الجدّة، وأملك الجرأة لنقل لوحكم الخشبي إلى قاعة المنزل لأدعو لأرواحكم لتنعم هناك بقبول القرابين التي ستقدم مع فائق التبجيل»[1].

ترتبط عبادة الكونفوشيوس بالأسلاف، وأيضاً هياكلهم «البجدات» واشتقت الكلمة من الهندية بت ـ كده وتعني بيت الأصنام. تنتشر الهياكل بشكل واسع في الصين، فمن ذلك يظهر لنا أن «أقدم البجودات التي لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة في سونج إيورسو، والتي شيدت عام ٥٢٣م على جبل سوبح شان المقدس في هونان، ومن أجملها البجودة الصيفية، وأروعها منظراً بجودة آليشب في بيجنج، وبجودة المزادة في (وو ـ واي ـ شان) وأوسعها شهرة برج الخزف في تانكنج وقد شيد عام (١٤١٢م ـ ١٤٣١) ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر، وقد دمّر هذا البرج في ثورة تاتينج التي حصلت في عام ١٨٥٤ م. وأجمل الهياكل الصينية هي المخصصة للديانة الرسمية في بيجنج (ابيكنغ). ومن هذه الهياكل كونفوشيوس... ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر ممّا يخلّد الفن، وقد شيّد في القرن الثالث عشر الميلادي، ثم أدخلت عليه عدّة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدّة مرات»[2]. إن وجود هذه الهياكل بكثرة لم يلغ مظاهر القداسة لكونفوشيوس إذ كانت ولم تزل تقام القرابين وتقام الطقوس

(١) توكاريف، سيرغي، الأديان، ص:٢٧٢.

(٢) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ج ٤، ص:١٨١.

تخليداً لذكراه مرّة بعد أخرى، وبذلك كانت الهياكل بعض منها للأسلاف وبعض منها لكونفوشيوس. وقد قال كونفوشيوس كالذين سبقوه من فلاسفة الصين بانتظام الأمور الكونية وشؤون المجتمع حسب قوانين ثابتة. وهو على ضفة نهر غان يردد العبارة التالية:

«كل شيء يجري كما تجري هذه المياه، لا شيء يتوقف، لا النهار ولا الليل، من لا يعرف إرادة السماء لا يصبح حكيماً[1]». لا يتدخل الإنسان في إرادة النظام الكوني، فتقول الكونفوشية بجبرية مطلقة وبالتكيف معها من خلال الإرادة السماوية. لذا ينسجم الإنسان مع المسيرة الحياتية ويهمل ما وراء الطبيعة ويفكر بواقع اجتماعي ويسعى لتثبيت النظام الأخلاقي الحقيقي. وبناء على ما تقدم، نستنتج ما يلي: «الكونفوشية لها نصوصها التي هي موضع إجلال وتقدير ولكن دون مفهوم للألوهية، ومن دون مناصب كهنوتية، ومع قليل جداً من الطقوس الدينية، وبالتالي لم تشتمل هذه الفلسفة على أي عبادة ما، وإنّما أكدت فقط على التفكير السديد والحياة السليمة من خلال الولاء للحاكم وولاء الأبناء للآباء، والتمسك الصارم بمجموعة الطقوس والآداب الاجتماعية. لم يضع كونفوشيوس نظاماً للعبادات والطقوس كالصلاة والصيام والحجّ بل توجّه إلى إصلاحٍ إجتماعيٍّ سياسيٍّ أخلاقيٍّ من خلال السماء والأسلاف والحاكم أو الأمبراطور.

---

(1) *Le* grand livre des religions du monde, Ibid, p.178.

ز. مبادئ السياسة والأخلاق عند الكونفوشية

خصّص كونفوشيوس تركيزه في تحقيق سعادة الإنسان، والذي دفعه إلى ذلك الفوضى والظلم والاستهتار وبالإنسان وقد ركّز على مسألة الولاء للأسلاف ووضعهم في مقام القداسة مع توافق الحكّام والشعب للإرادة السماوية التي هدفت إلى سعادة الإنسان. هذا التوافق والتقدير ساد نحو نظام اجتماعي أساسه الترابط رأيشا والتحابب على جميع المستويات. وبهذه الطريقة «**أصبح الولاء النبوي يعني خدمة الوالدين أثناء حياتهما، ومن ثم اكتملت العلاقات الخمس لتعاليم كونفوشيوس وهي: علاقة الأمير بالرعية، وعلاقة الابن بأبيه، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر وعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الصديق بصديقه**»[1]. بهذه العلاقات الخمس الاجتماعية تحقق قدر عالٍ من الاستقرار الاجتماعي ويؤدي إلى تماسك الحكام والشعب، وكان المصلح كونفوشيوس يرى أن السياسة لا تصلح إلا إذا اقترنت بالضوابط الأخلاقية، لذا سعت فلسفة كونفوشيوس لإقامة «**نظامٍ سياسيٍّ اجتماعيٍّ على أساسٍ من المنطق السليم والمبادئ العقلية السليمة، وهذا النظام السياسي يتّخذ أساسه من الأخلاق، لأن الأخلاق فيما يرى الكونفوشيوس هي المبدأ الرئيسي الذي يجب أن يكون أساساً لأي نظام اجتماعي مستقر، ولا يتحقق النظام السليم إلا إذا كان الأفراد الخاضعون له متحلّين بالأخلاق السليمة...**

(١) بارندا، جفري، الأديان والمذاهب، ص: ٢٨٨.

فالسياسة والانطلاق في نظر أصحاب هذا المذهب ليسا إلّا شيئاً واحداً، وهما يستهدفان تحقيق غرض واحد، وهو إقامة نظامٍ اجتماعيٍّ متين مستقر»[1].

كان كونفوشيوس يسعى نحو اتجاه أساسه ربط السياسة بالقيم الأخلاقية، وفي عهده عرفت الصين عهداً غير مستقر فساد التسلّط وانتشرت الفوضى وقام الحكّام باستغلال هذا الوضع لمصالحهم الخاصة باعتماد أساليب بعيدة عن الأخلاق والقيم وحصل ذلك خصوصاً في موطنه لي *Lu*. وكان الحاكم برأيه بحاجة إلى شرطين هما:

- تأهيل علمي أكاديمي.
- مستوى عالٍ من الخلق.

أمّا الانتماء الاجتماعي فلم يكن ذات أهمية، فالهمّ الأساسي هو أن يكون الحاكم على قدر من الأخلاق والعلم. لذا «**أيّد كونفوشيوس فكرة التعليم الشامل، ونادى بأنّ المناصب الدبلوماسية والإدارية يجب أن يتولاها أفضل المؤهلين من الناحية الأكاديمية لا من الناحية الاجتماعية**»[2].

ولتحقيق العدالة في المجتمع لا بدّ من وجود عنصري العلم والأخلاق حسب ما يراه كونفوشيوس وجعلهما في الصدارة. ويرى كونفوشيوس «**أن مشكلات الشعب تنبع من السلطة الحاكمة التي تمارس بغير مبدأ أخلاقي، ولمجرد تحقيق مصلحة الحاكم ورفاهيته فحسب، فلا عجب إذاً أن نجده يدعو إلى الإصلاحات الاجتماعية التي من شأنها أن تسمح بأن تدارالحكومة لمصلحة الناس جميعاً، وقد شدّد على أنّ ذلك يمكن القيام به إذا كان أعضاء الحكومة ممّن يتميزون بأعلى قدر من الاستقامة الشخصية، ويتفهمون احتياجات الناس ويهتمون بمصالحهم**

---

(١) شحاتة، حسن، كونفوشيوس، ص: ٣٥.

(٢) نيدهام، جوزيف، مذهب الكنفوشي، ص: ١٣٩.

وسعادتهم قدر اهتمامهم بأنفسهم»[١]. ذلك الذي اعتمده كونفوشيوس في توجهه ألا وهو المبدأ السليم. ولو أنّ كل حاكم أو زعيم اعتمده في تعاطيه السياسي لساد العدل والأمن والاستقرار بين الشعب والحكام، ولتمكّن أصحاب المجتمع الواحد من مواجهة التحديات والصعوبات التي تعترضهم وتوجههم. كما أن كونفوشيوس اهتم بنظام المقدرة في سلوكيات الحاكم، فطالب الحاكم أن يطبق ويمارس في تصرفه القواعد السياسية والخلقية السليمة عندئذ يطلب من الشعب القيام بنفس المبدأ لمحاكاة الحاكم في أفعاله دون قيد أو شرط. يقول كونفوشيوس بهذا الخصوص: «**حكم أو قيادة الناس، هو جعلهم يتبعون الصراط المستقيم. إذا أنت نفسك أيّها الملك الحاكم مشيت في مقدمتهم على الطريق المستقيم، من يجرؤ ألا يتبعك؟**»[٢].

يتمتع المجتمع بالسعادة الكاملة إذا كان حاكمه قدوة يلتزم بالفضائل والأخلاقيات، وهذا يقول به مبدأ «جين» أي المبادئ الأخلاقية هي التي تحقق الكمال للإنسانية. امّا من يبتعد عن مبدأ «جين» فإنه يبتعد عن الكمال الإنساني. ويقترن مبدأ «جين» بمبدأ لي (*Li*) أي الاستقامة هذان المبدآن اقترنا بمبدأ «هسياو» أي ولاء الأبناء للآباء. فمن خلال هذه المبادئ يصبح الإنسان حاكماً ومحكوماً. عندها يسود الإصلاح والاستقرار والأمن وتعمّ السعادة. وعلى أساس هذه المبادئ ترتبط السياسة بالأخلاق، فإذا «**كان الناس صادقين مع أنفسهم ويتسمون بالأخلاق فإنّهم سيجسدون الفضائل المختلفة، وإذا ما قام كل شخص بهذا فإنه من المؤكد أنه ستكون هناك حكومة جيدة، ونظام اجتماعي تعمّه السعادة**»[٣]. إنّ الحاكم الذي يتولى مقاليد السلطة تقع على عاتقه المسؤولية

---

(١) كولر، جون، الفكر الصيني، ص: ٣٣٣.

(2) *Le* grand livre des religions du monde. Ibid, p.180.

(٣) كولر، جون، الفكر الصيني، ص: ٣٥٧.

الأساسية، فإذا كان مثلاً يُقتدى به بإدارة شؤون بلده ومجتمعه ويلتزم بالمبادئ والأخلاق والاستقامة والولاية للأسلاف، فإن ذلك يؤدي إلى ترابط اجتماعي صحيح يحقق سعادة المجتمع، وإذا كان العكس فإنّ بلده سوف يسوده الفوضى والاضطراب ويعمُّه الفساد والخراب. وقد قال كونفوشيوس الكثير عن مشروعه الإصلاحي على الحكام: «**من هنا يتعيّن إدراك أنّ المهمة التي يضعها كونفوشيوس على كاهل الحكومة هي مهمة عملاقة لأنها شريفة المقصد، وهو يقول: إن مهمة الحكومة التأكد من وجود الوفرة المادية والروحية، وإن الناس يتصرفون على نحو أخلاقي، وذلك لكي يتحقق السلام. وتتبنى إحدى هذه الطرق موقفاً قوامه أنّ الوسائل الواضحة للوصول إلى الوفرة المادية والروحية هي إصدار القوانين وجمع الضرائب، وبناء المدارس والمعابد والمتاحف وتنظيم العمل والإنتاج بحيث يتم إنتاج ما يكفي، ويحصل كل شخص على نصيبه من الإنتاج**»[1].

إن هذه من أصعب المهمات التي ينشرها كونفوشيوس بين أهل الحكم، لكنه يرى أنّ حلّها ممكن إذا التزم الحكام الطريق المستقيم والمبادئ السامية العالمية، وأن يقوم كل واحد بواجبه تجاه بلده ومجتمعه. هكذا هي الكونفوشية، ترتكز على نظام سياسي اجتماعي شامل تطبق مبادئهما من قبل الحاكمين. لأن الحاكم هو المتمتع بهذا الموقع وبهذه الصلاحية، وهناك شروط حددها كونفوشيوس للحاكم وجعلها أسساً للقيام بالمهمة بالشكل الصحيح والسليم، وهذه الشروط هي:

أن يتعلم قواعد الأخلاق الشخصية.

- أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه.

أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى، وأن يقوم بالتزاماته الرسمية إزاءهم كاملة.

---

(١) ن.م.، ص: ٣٥٩.

- أن يجلّ وزراء ولايته أو أمبراطويته.
- أن يعامل موظفي دولته بالحسنى.
- أن يجعل من الصالح العام والرفاهية الاجتماعية صالحه الشخصي، ورفاهيته الشخصية، وأن يجعل من نفسه أباً للشعب، أو الأفراد الذين يقوم بحكمهم.
- أن يعمل على تشجيع الفنون والنهوض بها.
- أن يعطف على رعايا الدول الأخرى، الذين يقيمون في دولته.

أن يهتم برفاهية أمراء الأمبراطورية»[1].

هذه هي القواعد الأساسية التي يجب أن يركز عليها الحاكم من أجل الوصول إلى مجتمع سليم تسوده المحبة والأمن والعدل والاستقرار.

---

(١) شحاتة، حسن، كونفوشيوس، ص:٣٥٩.

د. وصايا كونفوشيوس

بناءً على ما تقدم نجد أن الأخلاق كانت المحور الأساسي عند كونفوشيوس وأن الفوضى هي فوضى أخلاقية أولاً وأخيراً. هذه هي قناعة كونفوشيوس التي وجهها لأتباعه وركّز على ضرورة اعتماد نظام شخصي من قبل كل شخص منهم يعمل على تطهير نفسه وعلى اكتساب القدر الكبير من المعرفة.

وبهذا يقول: «**إنّ القدامى الذين أرادوا أن ينشروا في أرض الفضائل في أنحاء الأمبراطورية قد بدؤوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدؤوا بتنظيم أسرهم، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدؤوا بتهذيب أنفسهم، ولما أرادوا تهذيب نفوسهم بدؤوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهرّوا قلوبهم عملوا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدؤوا بتوسيع معارفهم إلى أبعد حدّ مستطاع وهذا التوّسع بالمعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء**»[1]. لقد جمع الكونفوشيوس تلامذته حوله واعتمد على التعليم، وكان يكرّر أن الطبيعة الإنسانية هي معدن خير والاهتمام بالتعليم زوال «**ما علق بها من أدران الشّر وأن يجلو النفس البشرية**»[2]. وقد كان كونفوشيوس معلماً شديداً في تعليمه وفي تعاطيه مع تلامذته إذ كان يرى أن

---

(١) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ج٤، ص: ٥٤.

(٢) شحاتة، حسن، كونفوشيوس، ص:٥٢.

موقعه كمعلم يجب أن يبقي هذا الأخير حداً فاصلاً بينه وبين التلامذة حتى تسود علاقاتهم معه المرتكزة على قواعد وآداب وسلوكيات رئيسية وأساسية في العلم والتربية. لذا فإن كونفوشيوس كان «**معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التنائي عن تلاميذه، وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم، وكان شديد المراعاة للمراسم، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه، وكان يبذل ما في وسعه للحدّ من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها**»[1]. ركّز كونفوشيوس على التعليم العملي، الذي تعمل فيه المعارف في سبيل التسامي من قبل المتعلم إذ لا مجال فيه لتحكم الأهواء والشهوات، وشدّد على أهمية وجود قواعد الاحترام للآخرين في المنزل وخارجه، إذ قال: «**في المنزل على الشاب أن يحترم أهله، وخارج المنزل يجب أن يحترم الأكبر منه. يجب أن يتكلم قليلاً ولكن بصدق، كما ويجب أن يحب كل الناس، لكن عليه أن لا يتصل إلا بالأشخاص الصالحين والشجعان، وعندما تترك له واجباته بعض الفراغ عليه أن يخصص هذا الوقت لدراسة المعارف الجيدة والمفيدة**»[2].

هذه هي تعليمات كونفوشيوس واختياراته التعليمية تتضمن قواعد تربوية محورها الأدب والأخلاق وكيفية التعامل مع المجتمع باحترام وصدق وحبّ ومصاحبة الفضلاء والشجعان واستغلال الوقت بما هو مفيد ونافع.

وقد أمر كونفوشيوس تلامذته بالتدرّب على الروح الجماعية، والتخلّي عن الفردية وشدّد على الجهود الموجهة للأمور العملية التي تنفع في الدنيا بينما خفّف من الأبحاث حول الروح والسماء. وفي هذا الموضوع يذكر الدارس ما يأتي: «يتميّز المذهب الكونفوشي إلى جانب ذلك، بتربية الأفراد وتنشئتهم

---

(١) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ص: ٤٤.

(2) *Les Entretiens* de *Confucius*,traduit par *Pierre Reykmans* preface d'*Etiemble*. *Paris*,editions de *Gallimard*, l'année 1987, P.14.

بحيث يشعر كلّ منهم بأنّه عضو في جماعة، وبأنه بهذه الصفة مسؤول عن الإيفاء بالتزامات خاصة نحو غيره من الأفراد الذين يشاركونه في معيشته الاجتماعية، أي أن الكونفوشية تستهدف غرس الشعور بالمسؤولية الجمعية في نفوس الأفراد.

وهي لا تبحث عن مثل عليا في عالم غير عالمنا الأرضي، بل ولا ترسم مُثلاً لا يمكن للطبيعة الإنسانية أن تحققها، ولكنها ترسم أنماطاً من السلوك المبني على الطبيعة الإنسانية وإمكانيات هذه الطبيعة»[1]. إن هذا الأسلوب في التربية والتعليم لم يخل من مظاهر المرح والسرور عند كونفوشيوس، بل رافقه بعض من الموسيقى والغناء والشعر.

وكانت الموسيقى عنده «**تعبر عن النفس الإنسانية وما يعتريها من أحوال نفسية أو انفعالات، وإذا كانت الموسيقى تعبر عن الحالات النفسية المختلفة، فإننا نستطيع، بشكل عكسي، أن نؤثر على الحالات النفسية بوساطتها، فنهدئ النفوس ونثيرها ونطمئنها ونقلقها... عن طريق الموسيقى، لأنّ الأنغام المختلفة تعبر في الوقت ذاته عن الحالات التي نريدها متى استطعنا أن نُسمع الفرد موسيقى من نوع ملائم للحالة التي نريد إيجادها**»[2].

هذا وكان الحكام في الصين يصغون إلى الموسيقى الهادئة كي يولد الاستقرار والانسجام في مجتمعهم ويوجّهونها كما يشاؤون. بينما كان كونفوشيوس يطلب من أتباعه أن يعتمدوا على الاعتدال في كافة الأمور، لذا يقول: «**إن الإنسان المستقيم أو الشريف يقوّم سلوكه على الاعتدال، ويتصرف**

(١) شحاتة، حسن، كنفوشيوس، ص:٣٦.

(٢) ن.م.، ص: ٨٧.

وفقاً للطقوس والشمائر ويؤدّي عبادته باعتدال وتواضع، ويقدم على إنجاز أفعاله بإخلاص ونوايا حسنة، هكذا يفعل الإنسان المستقيم»[1].

ونجد أيضاً أن الكرامة والعزة كانت الأساس في تعليمات كونفوشيوس إذ لا يقوم شيء على حساب إنسانية الإنسان وكرامته، لذا قال كونفوشيوس: «**إن الإنسان الكريم والفاضل لا يسعى لتوفير حاجاته ومقومات حياته وصموده على حساب إنسانيته، وإنما الإنسان الفاضل هو من يكون مستعداً للتضحية بحياته من أجل حفظ إنسانيته»**[2].

لقد قلّل كونفوشيوس من شأن المرأة وقام بعزلها كمن سبقه من الشنتويين والبوذيين والهندوس، واعتمد نظاماً أبوياً أساسه الذكورة، ما جعل عهده يبدأ بسلطان فأن «**يكون سلطاناً مطلقاً في جميع الأمور فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً، وأن لا يفعل ذلك إلا إذا كان هناك ضرورة قصوى... وكان يتناول الطعام بمفرده، ولا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه، إلا في أوقات قليلة نادرة، وإذا مات كان المفروض على أرملته ألا تتزوج بعده، وكان يُطلب إليها في بادئ الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له، وظلت حوادث من هذا النوع تقع في الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد، وكانت النساء يعشن في أقسام خاصة من المنزل، وقلّما كنّ يختلطن فيها بالرجال»**[3].

سعى كونفوشيوس ليقلل من شأن المرأة، واتهمها بالغواية والفتنة، إذ دعا ثمانين من الفتيات الجميلات في لو (LU) ليرقصن أمام الحاكم ومعاونيه، وليؤكد موقفه السلبي من المرأة قال:

«احذر لسان المرأة

---

(1) *Les* entretiens de *Confucius*, Ibid, p.86.

(2) *Les* entretiens de *Confucius*, Ibid, p 85.

(٣) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ص:٢٧٢.

إنك ستلدغ منه إن عاجلاً وإن آجلاً.

واحذر زيارة المرأة

إنها ستصيبك إن عاجلاً وإن آجلاً»[1].

هذا الموقف من المرأة غير مقبول في خليفة كونفوشيوس، إذ هو من بنى دعوته على الصلاح والأخلاق والترابط الأسري والاحترام فجأة نراه يحطّ من شأن المرأة ويحجبها عن المجتمع.

(١) شحاته حسن، كونفوشيوس، ص:١٠.

ط. آثار الكونفوشية

عمد كونفوشيوس الى التمسّك بتراث الصين جاعلاً الأخلاق أولاً، وقد دارت دعوته حول الإصلاح الاجتماعي والسياسي حتى وصل إلى الاستقرار في المجتمع والانتهاء من الفوضى، فسادت أفكاره بتاريخ الصين إلى أن حصلت حركة تجدد رئيسية على بدء شوهسي *Chu-Hsi* (١١٣٠م- ١٢٠٠م) فطوّر الكونفوشية وبقيت سيطرتها الفكرية إلى يومنا هذا، وامتدت إلى كورسا واليابان. والكونفوشية التي طوّرها شوهسي هي: «إنه يوجد في أي عقلٍ بشريّ مَلَكة للمعرفة، كما يوجد في أي شيء مبرر وجوده. ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علّة كل شيء، ولا بدّ للطالب أن يذهب إلى جميع الأشياء الموجودة تحت قبة السماء، بادئاً من المبادئ المعروفة، وساعياً إلى الوصول إلى أسمى المبادئ وبعد بذل الجهد الكافي يأتي اليوم الذي يصبح فيه كل شيء واضحاً ومفهوماً»[1].

سادت الكونفوشية في الصين وما سيطرعليها من فكر وسياسة وطقوس وقيم بشكل لم يتحقق مثله لأي مذهب من المذاهب. حتى قيام الشيوعية، حاول ماوتسي تونغ وقف سلطان الكونفوشية لكن ذلك بقي في المجتمع الصيني لمئات السنين وضمن لهم الاستقرار والتماسك الوطني. وفي هذا يقول ديورانت: **«الفلسفة الكونفوشية أهمّ ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين، ذلك أن كتابات معلمها**

(١) بارندر، جفري، الأديان والمذاهب، ص:٣٢٩.

الأكبر ظلت جيلاً بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية، يكاد كل صبي يتخرج من تلك المدارس أن يحفظها عن ظهر قلب، وقد تغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين، وسرت في دمائهم، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو في غير بلادهم، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلسفة أن تحيا حياةً اجتماعية متناسقة متآلفة، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أكسبت الحضارة الصينية قوّة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قوتها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها»[1].

كما انتشرت الكونفوشية في كوريا واليابان، وشكلت أساساً للحضارة الصينية، ويدين بها مئات الملايين في الصين أي خمس سكان العالم.

---

(١) ديورانت، ويل، قصة الحضارات، ص:٦٧.

الفصل الثاني

العقيدة الطاوية

أ. الطاوية.

ب. مؤلفات الطاوية.

ج. تعاليم الطاوية.

د. خصائص حياة الإنسان.

هـ. البدائية والبساطة.

و. صفات الحكيم والحاكم.

أ. مدخل

هي عقيدة فلسفية يؤمن بها عددٌ كبير من الصينيين وهي عبارة عن دين ومذهب فلسفي في وقت واحد، مؤسسها هو «**لاوتسو**» الذي عاصر كونفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد وأخذ عنه الكثير. فكونفوشيوس استخدم هذا المصطلح بمعنى الطريق الصحيح للعمل في النواحي الأخلاقية والاجتماعية والسياسية إلا أنّه لم يعطِ لهذا اللفظ أي بعد ميتافيزيقي.

إن كلمة «**طاو**» ***Tao*** في نظر الطاويين تعني إضافة إلى الطريق المادة الأولية التي وجدت منها الأشياء وهي لذلك مادة بسيطة لا شكل لها وقد وجدت قبل السماء والأرض فالإنسان لا يحتاج عندما يطلبها لبذل جهد فبمجرد طلبها يكثر العطاء على الإنسان الرضا والسكينة وتجعله يعود إلى الحلّة البدائية الممتلئة بالخير والسعادة. وقد وصف لاوتسي (***Laotseu***) الذي عمل حافظاً للوثائق الملكية في المكتبة العامة لوهاينغ وهو بدوره مؤسس الديانة الطاوية (الطاو) قائلاً: الطاو مثلها كوعاء رغم أنّه فارغ يمكن أن يسحب منه بلا نهاية، وليس في حاجة قط لأن يملأ، وهي عظيمة جداً وبالغة العمق حتى ليبدو أنّها أقدم من كافة إذا ما انغمس فيها أي طرف صار ناعماً، وأصعب مشكلة تحل وأقوى ضوء

ساطع ينتشر وأشدّ المشكلات تعقيداً تستحيل إلى أمور بسيطة إنّها في سكونها كالخلود ونفسه إنني لا أعرف وليدة من هي؟»[1].

يعني اسم لاوتسي المعلم القديم وعرف أيضاً باسم طاوتي كنج «***Taote ching***» والمعلومات عن حياته قليلة لا يمكن الركون إليها. يستعمل الطاويون لفظ «تي» للإشارة إلى الفضائل الطبيعية والغريزية والصفات التي تقابل الفضائل الناتجة عن النواهي الاجتماعية وتذكر الروايات أن كنفوشيوس قصد لاوتسي وسأله حول بعض المسائل المتصلة بالتاريخ وتلقّى منه إجابة مختصرة وقد جاء فيها: «**إنّ الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً، ولم يبقَ إلا ألفاظهم وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فوره وتولى القيادة، أمّا قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام في سبيل كل ما يحاوله. ولقد سمعت أنّ التاجر الموفّق يحرص على إخفاء ثروته ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وأنّ الرجل العظيم بسيط في أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال، فتخلّص من كبريائك ومطامعك الكثيرة وتصنّعك وآمالك المفرطة البعيدة، إنّ هذه كلّها لا ترفع قط من أخلاقك وهذا ما أشير به عليك**».

ذكر «**زومان تشين**» وهو مؤرخ صيني أن كونفوشيوس عمل بنصيحة «**لاوتسي**» وقال لتلامذته بعد عودته: «**إني أعرف كيف يطير الطير ويسبح السمك، ويجري الحيوان ولكن الذي يجري على الأرض يمكن اقتناصه، والذي يسبح في الماء يمكن صيده، والذي يطير في الجوّ يمكن إصابته بالسهام، غير أن هناك تنيناً مهولاً، ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويخترق بها السحاب ويعلو في أجواء الفضاء.** لقد قابلت اليوم «لاوتسي» ولست أستطيع أن أجد له مثيلاً غير التنين»[2].

---

(١) راجع: لاوتسي، كريل، «الفكر الصيني»، ص ١٥٠-١٥١.

(٢) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ج٤ ص٣٨.

ب. مؤلفات الطاوية

ترك لاوتسي السياسة وقرر مغادرة الصين والبحث عن مكان منعزل يستريح فيه في الريف، وتشير الروايات أنّ «**لاوتسي**» عندما وصل إلى حدود البلاد قال له الحارس «ين شي»: «**إنّك إذن تنشد العزلة وأنا أرجوك أن تكتب لي كتاباً فكتب له لاوتسي كتاباً من جزءين في الطاو يشتمل على خمسة آلاف كلمة وعندما أتمّه اختفى ولم يعلم أحد أين مات؟**»[1]. ومع العلم أنّ هذا الكتاب أثيرت حوله الشكوك وخاصة من ناحية مضمونه إلا أنّ الكتاب الوحيد والذي دوّنت فيه تعاليم الطاوية هو «**طاوتي كنج**» والذي يعني كتاب «**الطريقة والفضيلة**» وهو يحتوي على أهمّ النصوص الخاصة بالفلسفة الطاوية التي يعتبرها العلماء الصينيون موجودة حتى قبل لاوتسي منذ وقت طويل. ومن بين الكتب الطاوية المقدّسة كتاب «**شوانج تسو**» وهو يتضمن حكايات رمزية وحوارات بين «**شوانج تسو**» ونقاده إضافة إلى مجموعة قصص عن القديسين الطاويين ويتحدث هذا الكتاب عن شكل من أشكال المعرفة لا يلمّ به إلا الخيّر أو السالك وذلك لأن آلهة النهر لا تعرف شيئاً عن البحر أو أن الحشرة لا يمكن أن تتصور طيران الطيور المهاجرة فكذلك أيضاً الإنسان قليل المعرفة لا يمكنه أن يتصور أو يفهم «**المعرفة**

---

(١) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ج٤ ص٣٠.

الأعظم». فإذاً هذه هي الكتب الطاوية المقدسة التي يمكن الرجوع إليها للاطلاع على تعاليم هذه الديانة العريقة.

ج. تعاليم الطاوية

شرح ماسبيرو بأنها فلسفة صوفية طبيعية *((Nature mysticisme))*[1] وقد علّق عليها «كريل «قائلاً: «قد تبدو الطاوية وسط مدننا هراءً تاماً، ولكن أخرج إلى الطبيعة والأشجار والطيور والمناظر النائية وهدوء المنظر الخلوي في الصيف أو غضب العاصفة العنيف تجد أن للطاوية ثبوتاً أقوى من أشدّ المنطق تعقيداً.

والمتصوفون المسيحيون والمسلمون ينشدون التقرّب والوصول إلى الله، أمّا الطاوية فتنشد أن تكون جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة التي يطلقون عليها اسم (طاو)[2]، وقد عبّر لاوتسي في عدة أفكار طرحها عن أهمّ تعاليم الطاوية ومنها:

الطبيعة: يعتبر «**لاوتسي**» أن الطبيعة هي النظام الذي تقوم عليه الفصول وتتبعه نجوم السماء، فهي النشاط التلقائي وهي الطريقة الظاهرة في كلّ حجر وفي كلّ شجرة وكلّ نجم. وهي أيضاً قانون الأشياء العادلة والمقبولة يخضع له قانون السلوك في حال أراد الناس العيش في خير وسلام. والملاحظ في التعاليم الطاوية هو تمييزها ما بين الطبيعة والحضارة فقد تحدّث «**لاوتسي**» عن الطبيعة: **«إنّ كلّ ما في الطبيعة من أشياء تعمل وهي صامتة وهي توجد وليس في حوزتها شيء، تؤدي واجبها دون أن يكون لها مطالب، وكل الأشياء على السواء تعمل**

(١) ماسبيرو، الطاوية، ص٢٢٧.

(٢) انظر: «كريل»، الفكر الصيني، ص ١٥٠.

عملها ثم تراها تسكن وتخمد. وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كلٌّ منها إلى أصله وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدّر لها أن تؤديه. وعودتها هذه قانون أزلي ومعرفة هذا القانون هي الحكمة»[1].

يقدّس الطاويون الطبيعة ويحترمونها فهم يجدون فيها كل ما يُسُّر ويبهج فهم يعتبرون أن «**كل منظر يبعث على السرور وأن الإنسان هو الحقير**». فالطاويون ينظرون إلى أن العاقل ذلك الذي ابتعد عن التعقيد الحضري واختفى في أحضان الطبيعة بعيداً عن المدن والكتب والموظفين المرتشين، ففي الطّبيعة وحدها يجد الإنسان السعادة الأبدية، فالطبيعة وقوانينها هي المثال الأعلى والطريق السليم الموصل إلى السعادة وراحة البال.

(١) انظر: ديورانت، ويل، قصة الحضارة، ج٤ ص٣٥.

د. خصائص حياة الإنسان

يمرّ الإنسان بعدّة مراحل على وجه الأرض ما بين الضياع والقلق والمرارة والهمّ وقد عبّر لاوتسي عن رأي الطاوية في الحياة الإنسانية فقال يانج تسو: **«لا يعيش إنسان أكثر من مئة سنة ولا يعيش ذلك العمر المديد أكثر من واحد من الألف، وحتى هذا الواحد يقضي حياته كطفل لا حول له، أو كرجل عجوز ضعيف الفهم. وما تبقى من ذلك العمر يقضي نصفه في النوم أو في ضياع خلال اليوم، وما تبقى يُبتلى فيه بالمرض والحزن والمرارة والموت والهمّ والخوف وفي عشر سنوات أو أكثر ونادراً ما تمرّ ساعة يحسّ فيها المرء أنّه في سلام مع نفسه ومع العالم دون أن ينال منه القلق»**.

إذاً ما قيمة حياة الإنسان؟ وماهي مباهج هذه الحياة؟ هل هي الجمال والثروة؟ هل هي وقف على الصوت واللون؟ هل نعيش اليوم لأننا مرّة يرعبنا الخضوع لإرهاب القانون وعقوباته ومرّة نحث على العمل بجنون وراء وعد بمكافأة أو ذيوع صيت؟ إننا نبدّد أنفسنا في زحفٍ جنوني سعياً وراء انتزاع المديح الأجوف لساعة مخططين ومدبرين بطريقة ما أنّ بعض البقية من الشهرة تبقى بعد موتنا. إنّنا نتحرك خلال العالم في طريقٍ ضيّق وتشغل بالنا الأمور التافهة التي نسمعها ونراها، نحن بحقّ مسجونون كما لو كنا راقدين في أعماق السجن مكبّلين بالأغلال».

وهناك مقارنة أشار إليها «يانج تسو» بين الحياتين البدائية والمدنية «في الماضي كان الناس يعرفون أن الحياة تأتي بدون إنذار وتولي بنفس السرعة، لم يحسوا قط بالرغبة في الشهرة. كانوا يهيمون في الحياة متمتعين بما فيها من مباهج كلّما حرّكهم محرك، غير مهتمين على الإطلاق بالشهرة ولا بالمديح عاجلاً كان أو آجلاً ولا بالحياة طالت أم قصرت»[1].

وهناك دعوة إلى سلوك طريقة البساطة في الحياة بلا تعقيد حيث أن الولادة والموت أقدار محتمة على الناس بغض النظر عن أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وقال «يانج تسو»في هذا السياق: «في الحياة تختلف الكائنات ولكن عند االوفاة كلها سواء والناس على قيد الحياة هم حكماء أو حمقى أو نبلاء أو وضيعو الأصل، فإذا ماتوا فكلهم سيعفنون.. ومن ثم الأشياء العديدة متساوية عند ميلادها وتصبح متساوية أيضاً عند وفاتها، متساوية في حكمتها وحماقتها ونبلها وحِطّتها، ذلك إنسان يعيش مائة سنة وآخر عشر سنوات والنتيجة واحدة كلاهما يموت.

كان «ياو» و«نشون» في حياتهما ملكين حكيمين فلمّا ماتا أصبحا عظاماً نخرة. وكان «تشيه» و«تشو» في حياتهما طاغيين قاسيين، فلما ماتا أيضاً أصبحا عظاماً بالية، فمن يستطيع عندئذٍ أن يفرّق بينهما، من هنا على الإنسان أن يستفيد في كل لحظة من اللحظات المتبقية من عمره ليس هناك متسع للتفكير فيما يأتي بعد الموت»[2].

نستنتج إذاً أنّ العقيدة الطاوية تجعل الناس جميعهم في مستوى واحد وأمام الدقيقة الواحدة وهي الموت، وتتغافل عمّا يحدث بعد الموت وما يصير إليه الإنسان الذي يصبح كتلة من العظام الضعيفة والعفنة ولعلّ هذا الإهمال في بحث

---

(١) «كريل»، الفكر الصيني، ص١٤٢.

(٢) «كريل»، الفكر الصيني، ص١٤٢.

مصير الإنسان بعد الموت سيكون سبباً من الأسباب التي دفعت الصيني إلى ترك الطاوية ومن ثم الكنفوشية واعتناق البوذية الوافدة إلى الصين من جارتها الهند.

«**وفي مقابل كل هذا نجد أتباع الطاوية يهتمون بأمر الموت نفسه، هذا وقد احتلت مسألة طلب طول العمر وإدامة الشباب والخلود مكانة مرموقة في تاريخ الطاوية ولأجل هذا اخترع «تشوانج طاولينج»** شراباً يكسب شاربه الخلود ويطيل في عمره ويسمى «**إكسير الحياة**» إلا أن الإفراط في شربه أودى بحياة العشرات من أباطرة الصين.

ويقال أيضاً إنّه في العام ١٤٨م قام أحد رجال الدين بشفاء الناس من الأمراض من خلال طلسم أو عُمدٍ بسيط يقدمه لهم مقابل خمس حفنات من الأرز وكان يقال لمن لم يثمر فيهم الطلسم إنّ إخفاقه يعود إلى ضعف إيمانهم»[1].

إلى جانب ما تقدم برز اتجاه آخر يؤمن بأن المرء يجب أن يموت وإذا مات الفرد سينعدم هذا الشعور وهذه «**الأنا**» اللجوج ولكن هل يختلف العالم إذا لم يكن هناك أنا؟ أو هل سيتأثر إذا ماتت «**الأنا**». وقد أجاب لاوتسي على كل ذلك بالنفي لأن العالم لن يتغير ولن يتأثر سواء وجد «**الأنا**» أو لم يجدها. وحول هذه المسألة يقول «تشوانج تسي»: «**العالم وحدة من كافة الأشياء ولو أدرك المرء مرة ذاته مع هذه الوحدة، إذاً فلن تعنيه أجزاء جسده أكثر ممّا تعنيه: القذارة والموت والحياة والبداية والنهاية، ولن يعكر صفو هدوئه أكثر من تعاقب الليل والنهار**»[2]. لذلك يرى لاوتسي: «**أنّ طول العمر الحقيقي يتمثل في حقيقة أنّه «برغم أن المرء يموت إلا أنه لا يُفقد من الكون**»[3].

(١) راجع: سليمان، مظهر، «قصة الديانات» ص:٢٣٨.

(٢) «كريل»، الفكر الصيني ص:١٤٨.

(٣) لاوتسي، الفصل: ٣٢.

إنّ الحكيم الطاوي لم يستسلم فحسب لمثل هذه العمليات الكونية التي تتضمن موت الفرد بل كان يجد متعة في تأملها ولعلّ الذي يثبت ذلك. ما ورد في النص التالي: وإذا ما حلت الحياة فمردّ ذلك إلى أن الوقت قد حان لها أن تفعل ذلك، وإذا ما ولّت الحياة فهذه نتيجة طبيعية للأحداث وتقبل كل الأشياء التي تحدث في تمام وقتها في هدوء، والعيش بسلام مع التعاقب الطبيعي للأحداث، لهو أمرٌ لا يتطاول على تفكير صنو حزن أو فرح. هذا هو حال أولئك الذين أسماهم القدماء المتحررين من العبودية. كما وإنّ التّحرر من العبودية يستلزم العيش ببساطة، أي سلوك الطريقة البدائية القريبة من الطبيعة.

هـ. البدائية والبساطة

إنّ شعار الطاوية: كل ما هو بدائي هو أيضاً خير. وقد أخذ هذه الفكرة أيضاً أفلاطون في كتاب القوانين حيث قال: «**إن المجتمع الذي لا يوجد فيه فقر ولا غنى سيظل دائماً متمسكاً بأنبل المبادئ. ولا توجد فيه أيّة نزاعات أو أحقاد ولذا فهم خيّرون وهم كذلك لأنّهم كانوا ما ندعوهم بسطاء العقول، وقد أخذ أيضاً بها** «روسو» في كتابه «إميل «و»العقد الاجتماعي «حيث قال: «**وأرّقه ما كان في تلك الأمبراطورية أن الملك المطمئن إلى عرشه لم يكن يخشى تمرداً ولا حرباً ولا متآمرين**»[1].

تتميز الحياة البدائية بالبساطة التي تجعل الإنسان في انسجام تام مع القوانين الطبيعية الكونية وهي مغايرة بالكلية لكلّ الدساتير المصطنعة. ويرى لاوتسي في هذه البساطة اتّباعاً للطاو وسلوكاً لطريق الخلود والابتعاد عن كلّ أذى لأنّ من يعرف النمط الأبدي أي الطاو لن تعصف به الكوارث ولن توهنه ويكون محصّناً من كلِّ ناحية. يقول لاوتسي: «**يأتي إلى الوجود عشرة آلاف شيء، وقد شهدتها وتعود لا يهم كيف تنتعش انتعاشاً بالغاً، كل شيء يجب أن يعود إلى أصله الذي صدر عنه، هذه العودة إلى الأصل تسمّى الهدوء، هي تحقيق لمصير فرد وأن يحقق كل شخص مصيره لهو النمط الأبدي، وإذا عرفت النمط الأبدي استنرت، ومن**

(١) جان جاك روسو، «العقد الاجتماعي»، ص: ٢١.

يعرفه لن تعصف به الكوارث ولن توهنه ومن يعرف النمط الأبدي فهو محصّن من كل ناحية والمحصّن من كل ناحية هو عادل تماماً، وإذا كان عادلاً فهو ملك، ومن كان ملكاً فهو كالماء، وإذا كان كالماء فهو متمشٍ مع الطاو، ومن كان متمشياً مع الطاو فهو مثلها لا يفنى، وبرغم أنّ جسده قد يختفي في خضمّ محيط الوجود فهو بعيد عن كلّ أذى»[١].

إن اتّباع البداثية والبساطة في تناول الأمور يؤدي إلى الأخذ بمبدأ أساسي في العقيدة الطاوية وهي مبدأ النسبية في الحكم على الأشياء الموجودة في الطبيعة وتقييم الأفعال والأخلاق الإنسانية والأحكام السياسية.

ويصحّ أيضاً تطبيق النسبية على المشاكل الأخلاقية وقد ورد في كتاب «تشوانج تشي» ما يلي:

«بالنسبة للصواب والخطأ في مسألة ما هو متمشٍ مع هذا النمط، وما هو غير متمشٍ مع هذا النمط. فلو أنّ الصواب هو حقيقةً صواب فلا داعي للجدال حول حقيقة أنّه مختلف عن الخطأ وإذا كان ما هو متمشٍ مع هذا النمط في الحقيقة «متمشياً مع هذا النمط «فلماذا نجادل في الطريقة التي يختلف فيها عمّا ليس متمشياً مع هذا النمط؟ وبغضّ النظر عن مسألة هل الحجج المختلفة تتلاقى بالفعل أو لا تتلاقى، فإنّ علينا أن نعمل على تناسقها داخل الكون الكامل الشامل، ونتركها تسير في طريقها»[٢].

---

(١) لاوتسي الفصل:١٦.

(٢) راجع: ليجي «كتابات كوانج زي»، ج١ ص١٩١-١٩٥.

و.صفات الحكيم والحاكم

الطريق في العقيدة الطاوية يعني الابتعاد عن العلم وعن العمل والحكيم من نبذ العقل ولم يفعل شيئاً. ينظر الطاويون إلى التفكير على أنّه أمر عارض لا خير فيه، لا بل ضرره أكثر من نفعه ودليلهم على ذلك أنّ السفلة عددهم في ازدياد منذ انتشار العلم فأسوأ أنواع الحكومات، هي حكومة الفلاسفة كونهم يدخلون النظريات في كل نظام طبيعي وفي كتاب (طاو. ده جنج) أي كتاب «**الطريقة والفضيلة**» مقاطع تؤكّد صحة الذي ذُكر. ومن ذلك: «**أنّ المهرة لا يجادلون وأصحاب الجدل عطل من المهارة، وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب.. والحكيم يبقي الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة، وإذ وجد من لهم علم منعهم من الإقدام على العمل، وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في «الطاو»** ولم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس، بل ليجعلوهم سذجاً جهّلاً... والصعوبة التي يواجهها الحكام إنّما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينكّل بها ويفسد شؤونها، أمّا الذي لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة. فصاحب الفكر خطر على الدولة فهو يحاول بناء المجتمع على قواعد هندسية وهذا ما يقضي حتماً على ما يتمتع به المجتمع من قدرات، أمّا الإنسان العادي فهو أقلّ خطراً على الشعب إذا تولّى شؤونه وتدبير أموره فهذا الرجل إذا تولى الحكم سيقود الشعب نحو البساطة البعيدة

عن أساليب الفتن والخداع. ففي حال عدم تحرر الناس من القيود التي تفرضها الحكومات ستقلّ الاختراعات التي لا تفيد إلا في زيادة ثراء الأثرياء وإفقار الفقراء. وقد علّق أديب صعب على هذه الأفكار قائلاً: «**أمّا ترجمة هذه المبادئ سياسياً فتعني عدم تدخل الحكومة في شؤون الناس بل أن تترك لهم الحرية لكي يفعلوا ما يشاؤون. هذه هي الطريقة الوحيدة إلى الحرية والسلام. وفي الطاوية أنّه «كلّما ازدادت القوانين ازداد عدد السارقين واللصوص. لذلك يقول الحكيم: إذا كففت عن التدخل في شؤون الناس صاروا أغنياء»**. فالحاكم الحكيم بنظر الطاويين هو الذي يدع الناس يصلحون أنفسهم بأنفسهم ولا يهتم بأمورهم وذلك ليحصلوا على الثراء بجهدهم ويرى «**لاوتسي**» أن مصائب الناس ناتجة عن كثرة النواهي والمحرمات التي تفرضها القوانين[١].

ولكن ما هي صفات الحكيم الحقيقي؟

الحكيم هو الذي اقتنع بأن الإنسان يستطيع معرفة العالم كلّه من غير أن يبارح باب منزله، كما يستطيع أن يرى الطاو الأزلي من غير أن يطلّ من النافذة «**فكلّما ازدادت أسفار المرء قلّت معرفته، من هنا كان الحكيم يعرف كلّ شيء قبل أن يسافر حتى أنّه يسمّي كل شيء من دون أن يراه**»[٢].

وقد جاء في الكتاب نفسه: «**من كان صالحاً معي أكن صالحاً معه، ومن لم يكن صالحاً معي أكن أيضاً صالحاً معه، وهكذا يغدو الكل صالحاً، ومن كان مخلصاً معي أكن مخلصاً معه ومن لم يكن مخلصاً معي أكن مخلصاً معه وهكذا يصبح الكلّ صادقاً ومخلصاً**»[٣].

---

(١) صعب، أديب: الأديان الحية، ص:٧٦.

(٢) ن.م.، ن.ص.

(٣) سليمان،مظهر: قصة الديانات، ص:٢١٧.

ويهدف الحكيم الطاوي بعباداته وأفكاره إلى الوصول إلى حالة من الركون والسكون والعيش ببساطة، فالسكون هو بداية الحكمة، والحكمة تنقل بالقدوة والتجربة وليس بالألفاظ. وأهمّ صفة يتمتّع بها الحكيم هي التواضع، فعند بلوغه سنّ الخمسين يدرك أنّ المعرفة شيء نسبي وأن الحكمة شيء ضعيف سريع العطب، فهو قد يتفاهم مع السذّج أكثر ممّا يتفاهم مع العلماء كما أنّه لا يبالي بالثراء والسلطة.

نستخلص من كل ما تقدم أن أفضل وسيلة لحكم العالم هي تركه بلا حكم، فما دامت الصفات والقيم نسبته فإنّ كلّ ما هو موجود وعلى أيّ نحو وجد هو خير، وأيُّ حياة يعيشها المرء بصورة عفوية هي حياة سعيدة لا تنغصّها الحروب والمنازعات حيث لا وجود للرغبة في الخصام والقتال.

وما يدلّ على ذلك قول «لاوتشي»: **«إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك وألين الأشياء في العالم تصدم أصلها وتتغلب عليها.. وليس في العالم شيء ألين أو أضعف من الماء ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية»**[1].

---

(١) ن.م.،ن.ص. نقلاً عن لاوتسي الفصل الثاني.

الفصل الثالث

الديانة الشنتوية

أ. لمحة تاريخية.

ب. ماهية الشنتو.

ج. الأسس والمبادئ العقائدية التي قامت عليها الديانة.

د. الديانة الشنتوية.

هـ. التربية الشنتوية في اليابان.

و. مفاهيم الطقوس لدى الشنتوية.

ز. مكانة الأسرة في فكر اليابانيين.

أ. لمحة تاريخية

الديانات اليابانية ليست مجرد ديانات ترتكز على قواعد وأصول وعقائد وصلوات، إنما هي عبارة عن أخلاق تسعى إليها كل الأمم، فالأخلاق هي التي تنمو بالفكر الإنساني وتصل بالمجتمع الى التطور والتحضر سعياً إلى تحسين الأوضاع الاجتماعية والتخلص من كل الآفات التي تعترض البشر، وذلك عن طريق الدين والتحلي بالأخلاق الحسنة والتربية السليمة والمبادئ الجيدة، هذا ما لحظناه ولسوف ترونه في معظم الديانات اليابانية ومنها الديانة «**الشنتوية**». وقد يطول الحديث عن اليابان لما تميز به من موقع اقتصاديٍّ عالميّ، فاليابان تتألف من ٣٩٠٠ جزيرة صغيرة، وأهم هذه الجزر: هونشو هوكايد- كيوشو- شيكوكو. وتبلغ مساحتها ٣٦٩٦٦٢ كلم٢، كما ويبلغ عدد سكانها حوالي ١٢٨ مليون نسمة.

وعلى الرغم مما حلّ بها من أزمات تاريخية ومنها القصف النووي الأمريكي لمدينتي ناكازاكي وهيروشيما والجمود الثقافي الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية والنصف الثاني من القرن العشرين للميلاد فإنها لم تعد في حال من النقاء الثقافي الذي كانت تعيشه إلى حدٍّ كبير على امتداد الزمن، ففي القرن الخامس للميلاد بدأت أول حالات الانفتاح على جوارها وتفاعلت معه وقد كان ذلك مع الكوريين، ثم دخلت البوذية الآتية من الهند سنة ٥٣٨م، وبعدها لم تحدث

حالات من الانفتاح بسبب العوامل الطبيعية مع الواقع الاجتماعي لليابان فقد باتت في عزلة عرفتها بعض دول شرق آسيا كالصين مثلاً، ولكن هذه العزلة لم تدم طويلاً في غير اليابان لذا أسست شخصية حضارية منفردة بتطلعاتها وبما تحمله من إيجابيات وسلبيات.

ب. ماهية الشنتوية

إنّ الشنتوية هي عبارة عن ديانة عند اليابان منذ القدم، وهي تشكل المجال الرئيسي من التراث الياباني، وقد أصبحت معتقداتها مختلطة بالاسم والمفاهيم السائدة، وكانت الشمس تعتبر المركز الأول في المعبودات عند «**الشنتو**» حتى باتت ترتبط باسم اليابان.

وكان السكان الأوائل الذين هاجروا إلى اليابان من المناطق المجاورة لقارة آسيا يطلقون عليها اسم «**نيبون**» أي بلد الشمس، وقد بدؤوا بهذا، وأصبح اعتقادهم بأن الشمس التي تشرق من خلف الجبال المنتشرة على الجزر اليابانية هي التي تنير كل العالم. وبقيت هذه التسمية حتى هذا اليوم، ويطلق اليابانيون على جزرهم حالياً اسم «**نيبون تيكولا**» أي بلد الشمس المشرقة. وبما أنّ الصينيين كانوا الأكثر اتصالاً مع الجزر اليابانية فإنّهم كانوا يطلقون عليها اسم: «**جيم بن كو**» أي البلاد التي تشرق منها الشمس، أمّا ماركو بولو فكان يسميها «**زابانغو**» ثم اختصرت التسمية حتى أصبحت «**زابان**» وتحورت بعدها لتصبح «**جابان**» في اللغات السلافية فإن الجيم تقلب ياء وهكذا كان الاسم: اليابان.

إن دين اليابان القومي هو «**الشنتو**» بكلٍّ ما فيه من أساطير ووقائع، فهو يرتبط بالتراث الياباني وتاريخها وبمعظم ما ينتشر عندهم من عادات وتقاليد وسلوك فإن الشنتوية هي النمط الغالب حتى أصبحت تعني الوطنية اليابانية.

«الشنتو» كلمة صينية الأصل تتألف من مقطعين: ***Shen-Toa***. تعني كلمة شين الروح أو الإله أما كلمة تاو فتعني الطريق. وإذا دمجنا الكلمتين فإنّهما تصبحان طريق الإله. وهذا المعنى هو نفسه والدلالة أيضاً هي نفسها في التعبير الياباني الأصل» ***Kami-No-Michi*** كامي- نو- ميتشي».ويعني في العربية طريق الإله أو الآلهة.

ج. الأسس والمبادئ العقائدية التي قامت عليها الديانة

إنّ هذه العقيدة قائمة بالأغلب على الأساطير «**والعقيدة عندهم تربط معبوداتهم بتعدد آلهة على علاقة بكل مظاهر الطبيعة، حيث الكلّ مقدّس من الكواكب إلى الأنهار إلى الأجداد والأسلاف إلى الأباطرة والكثير من المظاهر الطبيعية وعلى هذا الأساس لا نجد للشنتو معتقداً خاصاً ما خلا الذهاب في كل ما يقدسونه ويجلّونه من مظاهر باتجاه «الكامي** ***Kami***» فباسمه ومن خلاله تتم كل الأشياء[1].

وتأكيداً على ما ذكر يمككنا القول بأن الشنتو تعني الطريق «**كامي**»، ولكن هناك مشكلة في مفهوم الـ «**كامي**» نفسه من حيث الالتباس والغموض. وكثيراً ما تترجم كلمة الـ «**كامي**» بالإله أو الآلهة، لكن من الأفضل أن تظلّ بغير ترجمة لأنّها تطلق على الطيور والوحوش والنباتات والجبال والبحار والظواهر الطبيعية. كما أنّها تنطبق على أسلاف العشيرة أو المحاربين.

كان موتوري نورينجا ***Motoori Noringga*** أحد فقهاء الشنتو في القرن الثامن عشر قد اعترف بعجزه عن فهم معنى هذه الكلمة، فراح يعرفها بصورة عامة بألفاظ مقدّسة، فكان يقول: «**جميع الأشياء أيًا كانت التي تستحق التبجيل وتبعث**

(1) ***Malherbe, Michel***, les ***Religions*** de l'humanité 1, ***Paris, Critérion***, l'annee 1993, ***Page*** 333.334.

على الرهبة لأنها فوق المألوف وكذلك القوى الفائقة التي تملكها تسمى «كامي». ومع ذلك فكلمة «كامي» موجودة في اللغة اليابانية وهي تعني: فوق أو أعلى وسوف يكون من الحكمة أن تربط بين المقطع *Ka* الذي هو تعبير عن التعجب أو الحيرة التي يثيرها الشيء المخيف أو ما لا يمكن الإحاطة به»[1].

تقع معتقدات الشنتو في كتابين يعود زمن تاريخها بالشكل المتداول حالياً إلى النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، والكتابان هما: كوجيكي- نيهونجي *Kojiki-Nihongi*.

كتب كتاب كوجيكي في سنة ٧١٢م. وهو يتضمن سجلات الآثار القديمة، وكان قد كتب بالأصل بأحرف صينية تصور بألفاظ صوتية للسكان، وفيه أساطير اليابانيين حول خلق العالم وانتشار المخلوقات وارتباطها بالشمس والتي لها الدور الأساسي فيها[2].

أمّا كتاب نيهونجي فقد كتب في سنة ٧٢٠م. ويتضمن سجلات الأحداث التاريخية لليابان ويتطرق إلى تاريخ اليابان منذ القدم حتى العام ٦٩٧م. وفيه سعي لإثبات عراقة اليابان ومكانة الأسرة الأمبراطورية[3]. ويعد هذان الكتابان من أبرز مصادر العقيدة والفكر بالديانة الشنتوية. كما وتعتبر الشمس المركز الأساسي والأهمّ في العقيدة الشنتوية، وتتميز عندهم من خلال وصفها بالحكمة والفضل والقلب الطيّب الذي ينشر الأمن والنظام وهو الذي ينظم أصول المعيشة. وهذه الشمس تسمى: «أماتيراسو- أومي- كامي *Amaterasu _ Omi _ Kami*» إنها تملك أخاً ذكراً الذي يسمى: «سوسا- نو- وو *Swsai _ No _ Wo*» وفي يوم من الأيام قام «سوسا- نو- وو» بعمل فوضويّ وتشويش داخل مملكة أخيه الأكبر

(١) مكاوي، عبد الغفار، «عالم المعرفة» العدد ١٧٣، ص:٣٣٨-٣٣٩.
(٢) د. عبد الغفار، مكاوي، الكويت، عالم المعرفة العدد ١٧٣، ص: ٣٣٨-٣٣٩.
(٣) راجع: «كوجيكي»، ترجمة «محمد عطية».

«**أماتيراسور ـ أومي ــ تومي**» لدرجة أن صنمه المقدس فزع وهرب واختفى في نار أو كهف بالسماء ولهذا تظلم الدنيا ويكسوها الليل»[1]. تختلط عقيدة الشنتو من مقدسات ومعبودات عديدة ابتداءً بما هو سماوي إلى ما هو أرضي إلى ما هو بشري، أما الـ «**كامي**» فهو صاحب الفعل فيها كلّها وبالإضافة إلى ذلك فلا بدّ من الإحسان كي تسير الشؤون الحياتية والطبيعية بشكل صحيح.

إن سازو إيديمتو يلخص هذا المفهوم العقدي فيقول: «**لدينا نحن اليابانيين «أون أوشيرو ـ** ***On ـ O — Shiro*** **»** وأون تطابق بصورة عامة الحسّ بالامتنان والالتزام ولكنها توصي وتنطوي على أكثر من ذلك. أون ***On*** علّم اليابانيين في الأزمنة الغابرة أن يؤمنوا بأنهم مدينون بحياتهم وسعادتهم ورفاهيتهم (شي ـ أون ـ ***Shi ـ On***)، أي نعم المحسنين الأربعة، وأن يقدروا واجباتهم حق التقدير.

والمحسنون الأربعة هم: السماء والأرض والوالدان والحاكم والشوجو «***Shujo***» (جميع الكائنات الحساسة التي تشمل الحيوانات والطيور والنباتات... والإنسان أيضاً).

وبناءً على ذلك، يدرك اليابانيون تقليدياً فضل الطبيعة عليهم وواجباتهم نحوها، ونحو جميع الظواهر الطبيعية والأشياء الطبيعية والمجتمع وسائر إخوانهم البشر. ولم يسع أسلافنا إلا أن يعترفوا بجميل «**التينو** ***Tinno***» وأن يكونوا ممتنين له، للحماية والعناية اللتين منحهم إياهما، ولم يسعهم إلا أن يشعروا بالامتنان للبيئة السليمة التي وفرتها فضائل العائلة الإمبراطورية.

كانوا يعلمون أنهم مدينون بحياتهم ورفاهيتهم لنعمة «**التينو** ***Tinno***» ونعمة المجتمع، ونعمة الأجداد وليس نعمة المخلوقات المجانية وحسب بل وجميع

---

(١) شلبي، رؤوف، «التفكير الديني في العالم قبل الاسلام»، ص:١٥٨.

الكائنات الحساسة. ذلك هو الحس بال «أون *On*» وهو ملك لنا نحن على نحو مميز»[1].

عقيدة الشنتو المعروفة هي: «كامي» وال «كامي» هو ما يسيطر على الأشياء والبشر من قوة روح ولا حدود لعددها في ديانة الشنتو وتتضمن ال «أون *On*» وهو رمز الإحسان والمحسنين، وال «تينو *Tenno*» وهي التي ترمز إلى العلاقة مع الأصنام القائمة للآلهة المتعددة والمعبودات وعلى فعل وإحسان الإمبراطور.

إن أكبر هياكل العبادة عند الشنتو هو «أماتيراسو» أي صنم الشمس، وهم يقيمون إلى جانبه الآلاف من الأصنام للعديد من الآلهة أو المعبودات كالجبال والبحار وغيرها...

وهكذا فإن «**الروح الأهم هي الروح المتعلقة بالأمن الغذائي والزراعي، فصنم، إناري *Inari*»** رمز الإله الذي جسدوه على شكل الذئب «*Serigala*» وكما تقدّست هذه الأسماء الكثيرة فإن الأبطال والشجعان قد عبدوهم وقدسوهم كذلك إنهم ينادونهم باسم «كامي *Kami*».

وفي خلاصة القول: إن «الشنتو» لم يقرّوا في معتقداتهم بإله واحد هو الخالق الوحيد للكون ولا لعقيدة التوحيد عند «الشنتو» بل إنّهم مؤمنون بالآلهة المتعددة والمعبودات التي يقيمون لها الهياكل والمعابد والتماثيل والأصنام. أمّا عقيدتهم فتلازم الموقف الأخلاقي الحازم لناحية الطقوس والتقديس. أمّا طقوس الطهارة فتكون بأن يتمكّن الإنسان من إقامة العلاقة مع الـ «كامي». أما الآخرة فليس لها مكان عند «الشنتو» بل ذلك دين أرضي التوجهات ولا اهتمام لأتباعه بما بعد الموت. لدى الشنتو هياكل ومزارات يقصدونها بالآلاف وشعائرهم يؤديها ما لا يقل عن ٩٥٪ من اليابانيين.

---

(١) إيدي ميتسو، سازو، «كن يابانياً أصيلاً»، ص ٣٤.

وإن قسماً كبيراً من اليابانيين يعتنقون الديانة البوذية بمدارسها وتفرعاتها وهذا لم يمنعهم من المحافظة على طقوسهم الشنتوية فهم يعتمدون المزاوجة بين البوذية والشنتوية.

إننا نؤكد على أن الـ «كامي *Kami*» يشكل المحور الأساسي والركيزة المعتمدة في عقيدة الشنتو فالـ «**كامي**» لديه قدرات غير محدودة وغير اعتيادية وهو يشكل الصورة غير الطبيعية التي يصعب تصورها. كما وإن الانبثاق والخلق الوجودي المعتمد في كتاب الـ «**كوجيكي**» ينطلق الشنتو في عقيدتهم من أساس عبادة الشمس وتقديسها من خلال الإله «**أماتيراس**». وهذا الصنم يعتبر عندهم من أهمّ الأصنام والهياكل مركزاً وعناية وعبادة. هذا ويذهبون في ذلك للاعتقاد بالآلهة المتعددة كما وينسبون لكلٍّ واحدٍ مهمة محددة وخاصة.

لقد تضمن كتاب الـ «**كوجيكي**» عرضاً كاملاً لعقيدة الخلق عندهم واعتمد على قاعدة الاتصال بين الأرض والسماء من خلال جسرٍ يصل بينهما.

إنّ الأسطورة عندهم تقول: إنّ أول الموجودات كان ولد آلهة من السماء وهم: الإله المولى مركز السماء المهيب ثم بعدها كان وجود إله الإنتاج الأعلى المهيب وأخيراً كان إله الولادات الإلهية. هذا الثالوث من الآلهة وهو الأول من سلسلة الآلهة له عندهم صور جسدية حيث صرّحوا أن هؤلاء الآلهة كانوا عازبين وقد حجبوا أجسادهم عن الأنظار ولم يبرروا كلامهم وعمّن كان الحجب ما داموا هم أول من وُجد لذلك ولم يعللوا سبب قولهم بآلهة ثلاثة.

هذا وتتوالى عندهم أعداد أخرى، ولكن كما تبين من أسماء هذه الآلهة الثلاثة الأول فإنهم نسبوا إليهم الإنتاج والمهابة والولادات وهذه هي الأمور الأساسية في الخلق والسلطان.

ثم من بعدها كان إلهان من الأرض هذه المرة هما: الإله الأمير الرضيّ، والإله المقيم أبداً في السماء وبذلك تمّ عندهم عقد الآلهة الخمسة السماويين والذين يتميزون عن الآلهة الأخرى التي يقولون بها.

بعد ذلك كان إلهان آخران عازبان ومحجوبان عن الأنظار كالخمسة السابقين هما: الإله المقيم أبداً في الأرض والإله حقل الغيوم الوافرة. بعد ذلك يجيء دور الآلهة المتزاوجين وبحسب أسطورة ال «**كوجيكي**» يولد إله الطين وزوجته إلهة التيف وبعدهما الإله الوتد الثابت والقوي وزوجته الإلهة الوتد الهائج ومن ثم يولد الإله الذكر الهيكل الكبير وزوجته الإلهة الأنثى الهيكل الكبير ويأتي دور الإله الهيئة الناضجة وزوجته الإلهة المعشوق ويكون أخيراً من منهما كان الأباطرة. وهذان الإلهان هما: إيزاناكي نوكامي وزوجته إيزانامي نوكامي، ولهذين الإلهين الأخيرين أسندت مسألة الخلق والتكاثر والتوالد وبعملهما كانت الجزر اليابانية حسب الأسطورة.

لقد جاء الأمر من الآلهة السماويين لـ «**إيزاناكي – نو – ميكوتو**» وزوجته «**إيزانامي – نو – ميكاتو**» ليبدأا مسيرة حياتهما التي منها كانت الجزر اليابانية وهي أول ما وُجد على الأرض، وعندما نزلا باتجاه الأرض كانا يسيران على جسر السماء العائم الذي يصل السماء بالأرض أعطيا فأساً إلهية غطّاها في ماء البحر المالح وعندما سحباها أحدثت قبقبة ومن ثم نزلت قطرات ماء البحر فتحولت إلى جزر اليابان. من خلال هذا التكامل الذي بينهما بدأت العلاقة التوالدية وهذه العلاقة بدأت بالجسد ورافقها إعجاب كلٍّ منهما بالآخر وأنه مفتون به، ولقد جاء في النص: «**وبينما كانا يدوران تكلمت إيزانامي – نو – ميكوتو أولاً: «آه يا للرجل الفاتن»** فتابع إيزاناكي – نو – ميكوتو: «**آه يا للمرأة الفاتنة**» وبعد ذلك كان إنجاب الجزر ثم ولادة الآلهة ومنها إله الريح الذي يسمى: الإله الأمير ذو الهبوب الطويل، ثم إله الخشب المسمى: الإله روح الجذع وبعده إله الجبال المسمى:

الإله روح الجبل الكبير، ثم إلهة السهول المسمّاه أميرة الأعشاب أو الإلهة روح السّهل. وبذلك تتابعت سلسلة الولادات من هذا الالتقاء فكان لكلّ أمر ومخلوق إله، فالآلهة منبعثة من كل مظاهر الطبيعة فجعلوا لكلّ مظهر إلهاً، فالنار لها إله والمناجم لها إله وهكذا... لقد اعتبر أن كل ما يوجد في اليابان مولود إلهي: البحار، الجبال، الجزر، ومظاهر الطبيعة (سهول، جبال، نباتات، أشجار). وأيضاً الحكام الأباطرة المنحدرون من سلالة أماتيراس وبعدهم الشعب الياباني عموماً الذي يعدّ مميزاً ومتميزاً على سائر الأمم والشعوب. وقد جاء دور ولادة العائلة الإمبراطورية بعدما توالت عمليات الخلق والانبثاق وهي من أنواع الآلهة، وتعدّ الآلهة في اليابان بالآلاف أما الولادة الأمبراطورية فقد جاءت من إله الشمس أماتيراس. «أماتيراس – نو ـ كامي منذ القدم القديم ينظر إليه على أنّه رئيس أصنام نحلة الشنتو ***Shinto*** ومن بقاياه قطع مادية يعتقد في قداستها أنها ترجع إلى أصل الصنم الرئيس المقدّس، وهذه القطع المقدسة عبارة عن مرآة وخنجر وبقايا سبّحة.

ومتابعةً لهذه القصة فإن أماتيراس – نو – كامي أرسل ولده الذي يدعى «ني – **نيجي** – ***Ni ـ Nigi***» لكي يحكم بلاد اليابان، ثم تزوّج هذا الابن من ابنة جبل فوجي ***Fuji*** وحفيد هذين الزوجين المسمّى جمو – تنو ***Jimmu – Tenno*** نصّب نفسه قيصراً وملكاً ذا سلطان وحكم فهو القيصر الياباني الأول.

وبناءً على ما تقدم، فإن منزلة الصنم المقدس أماتيراسو مستمرة وأبدية طالما كان حفيده قيصراً على اليابان. أما الأرستقراطيين الآخرين فقد يعدون من سلالة ونسل هذه الأصنام المقدسة ***Dewa Succi*** لكنها أقلّ من منزلة الأصنام المقدسة العليا الحاكمة فإن كان أماتيراس – نو – كامي يعتقد أنّه رئيس الأصنام المقدسة فإن ذريته ***Tenno*** رؤساء العالم البشري، والمقصود هو الشعب الياباني».

لقد عمل الشنتو بطريقة أسطورية على تفسير توالي الليل والنهار من خلال حكاية أماتيراس والأمبراطور ذي الأصل السماوي مع استخدام السيف والمرآة والسبحة أو العقد والتي وردت في الـ «كوجيكي» وبإعطاء الموقع الخاص لـ «أماتيراس».

لقد ورد في الأسطورة: «**والحالة هذه، خافت الإلهة الكبيرة المهيبة أماتيراس فانزوت داخل مغارة سماوية عند ذلك أسدل الليل خلاله فارتفعت أصوات آلاف الآلهة وحلّت كوارث لا تحصى، فعندها اجتمع ثمانية ملايين إله في مجرى نهر السكينة السماوي، وتواصلت جهود الآلهة مع صباح طويل في مسعى لجعل الشمس تشرق أي لكي تخرج أماتيراس من المغارة السماوية، أما صنع الآلهة سيفاً ثم مرآة وعدداً من فصوص الـ«تاما»** معقوفة منضدة داخل خيوط طويلة تكون بشكل عقد أو سُبْحة فقد برّر الشنتو استخدامهم لهذه الأدوات الثلاثة:

المرآة والسيف والسُّبْحة.

ولما خرجت أماتيراس من المغارة السماوية وبدأ نظام التعاقب لليل والنهار أمرت أماتيراس ولدها لينزل إلى الأرض كي يكون ولياً للعهد وحاكماً ويتسلم السلطة من الامبراطور أوكني-نشي، وقد تمّ هذا الأمر عندما هدأت الأرض واستقرت البلاد.

لقد انبثقت السلالة الحاكمة للأمبراطورية اليابانية من أماتيراس إله الشمس وهي سلالة إلهية لا تزال قائمة ولكنها تراجعت بعض الشيء بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م، وبعد إلحاق الهزيمة باليابان على يد الحلفاء وخاصة أمريكا.

كان لأماتيراس حفيد يتولّى مهمة الحكم في الأرض وقد سُلِّم لهذه المهمة المرآة المقدّسة والسيف والسُّبْحة. اتخذ حفيد أماتيراس الأمير جلالة السنابل الناضجة لبناء قصره مكاناً على جبل تاكاتشيهو جنوب جزيرة كيوشيو وفي هذا المكان ولد حفيده الرابع «جيم» جلالة الأمير إيواريه من ياموتو المقدس وهو

أول أمبراطور ولد في اليابان وحكم فيها وذلك سنة ٦٠٠ ق.م. ومن بعدها تعاقب على الحكم أباطرة يابانيون من ذات السلالة إلى أن وصل الحكم إلى الأمبراطور الحالي أكهيتو الذي استلم الحكم بعد موت والده الأمبراطور هيروهيتو سنة ١٩٨٩م. لقد توالى ١٢٥ أمبراطوراً على حكم اليابان من هذه السلالة وبذلك تعتبر الإمبراطورية اليابانية من أقدم الأسر الحاكمة التي لا تزال في الحكم في كل العالم.

د. الديانة الشنتوية

الديانة عند الشنتو هي منذ التاريخ القديم عادات وتقاليد وتراث وطقوس توارثوها من الآباء والأجداد، ومعظمهم يمارسونها على اعتبار أنها حالة الانتماء للوطن والحضارة وهي بسيطة وسهلة وليس لها طقوس معقّدة وخاصة وتتوافق مع كل المذاهب.

ولذلك يقال: «إنّ مذهب الشنتو ما هو إلا عادات اجتماعية يابانية تقليدية ومتوارثة عبر الأجيال. إن الشنتو هي أسلوب حياة يعيشها اليابانيون»[١].

إن الشنتو هي طريق الآلهة بحسب اعتقادهم وهم يعتقدون بالـ «**كامي**» الذي أصبح معبوداً لديهم، وتقوم على عشيرة أو طائفة بعبادة وتقديس تجلّ وتحترم الـ «**كامي**» وإن كل شخص هو بحاجة ماسة للتعايش مع هذا الكائن المفروض والتوافق معه والعودة إليه بكل الأحوال.

إن اعتقاد الشنتو بالـ «**كامي**» دفع أتباعه إلى الاعتراف بأشكال متنوعة من الشعوذة والسحر والتنجيم والأساطير بشكل يبعد عن الواقع والعقل السليم[٢].

---

(١) شبانة، عبد الفتاح محمد: اليابان، العادات والتقاليد وإدمان التفوق، القاهرة، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٦ص ١٠٠٩.

(2) راجع:***Lénoir. Frederic*** et ***Masquelier*** ysé. ***Encyclopedie*** des réligions. paris. ***Bayarad*** éditions L'année 1997. ***Page*** 1127.

لقد ركزت ديانة الشنتو على فعل الـ «كامي» بكلّ ما هو موجود وبكل ما يطلبون إحلاله أيضاً ومن المقدسين لديهم: الشمس ولها صنم أماتيراس والأسلاف والعائلة الأمبراطورية وتقتصر أكثر طقوسهم على الزيارات الموسمية للحج وإلى مواقع ترمز إلى عبادة الشمس أو إجلال الأسلاف أو تقديس الأباطرة وأتباع الشنتو لا يتجاوزون أبعد من هذا الحد ولا يهتمون بعالم آخر وبحياة أخروية لذلك لا نجدهم يعملون للحياة ما بعد الموت.

لذلك يقول ول ديورانت: «**لم تكن ديانة شنتو بحاجة إلى تفصيل مذهبيّ أو طقوس معقدة أو تشريع خلقي ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها، ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء في نفوس الناس من خلود الروح ونعلم الفردوس فكان كلّ ما تطالب به معتنقيها أن يحجوا من وقت لآخر لأسلافهم وأن يتضرعوا لهم خاشعين ويفعلوا ذلك لامبراطورهم ولماضي أمتهم**»[1]. إن ديانة الشنتو تعتمد على الرموز ولا تستخدم فيها الرسوم والصور وأهمها: المرآة وهي تشير عندهم إلى الارتباط مع إله الشمس «أماتيراس» لأنها تعكس نور الشمس، وكذلك السيف والسبحة أو العقد الذي يتألف من مجموعة حبّات أصلها من الجواهر.

لقد بدأت الشنتوية على شكل الفلسفة والتوجيهات العامة ولم تكن تحتوي في القديم على شعائر وطقوس بمستوى معقّد ورفيع ولكن ذلك تغير مع الزمن وأدّى إلى تطوّر هذه الديانة.

وبناءً على ما تقدم يمكننا اعتبار أن طقوس الشنتو كانت في البداية بسيطة إلى أقصى حدّ إذ لم تكن تتطلب مباني خاصة بل تقام الصلوات وتؤدّي الطقوس في هياكل طبيعية تحت شجرة ساكاكي ***Sakaki*** المقدّسة مثلاً، وهي موجودة الآن داخل كل هيكل في أية ضاحية، ويتلفظ بالكلمة الإلهية عن طريق الشامان وهو

---

(١) ديورانت ويل، قصة الحضارة، ص:١٣.

في حالة استحواذ الـ «كامي» عليه، يعبّر عنها بلفظ كامي «جاكاري» ***Kami – Gakari*** و «**كانجاكاري *Kanagakari***» التي كثيراً ما تتجلى في رقصة الوجد»[1].

كانت الطقوس المعتمدة لدى الشنتو تؤدّى بشكل جماعي وقد توسّع نطاقها من العائلة إلى العشيرة حتى أصبح لديهم هيكل لكل عشيرة وكانوا يقومون برقصات الوجد ظنّاً منهم أن هذا يقودهم إلى التوحيد مع الـ «**كامي**». لقد قال جفري بارندر عن العبادات لدى الشنتو في الهياكل: «**كانت العبادة في بدايتها مسألة عائلية خاصة بشؤون الأسرة لا العشيرة ولما كانت العشيرة امتداداً للأسرة فهناك عدد كبير من الهياكل مخصصة لـ «يوجي جامي *Uji – Gami***» أي كامي العشيرة وهي تختصّ بالمصالح المشتركة للعشيرة والقول بأنّ الجماعة تستمد وحدتها من علاقتها باليوجي جامي بوصفهم «**يوجيكو *Ujiko***» أي أطفال العشيرة. لا بدّ أن يوحي بأن يوجي جامي يقوم مقام الأب***la coparantis*** بالنسبة للجماعة أعني الـ «**أويا *Oya***» أو الأب، كما يوحي بأن طلب الحاجات المادية له مغزاه، لأن الأب على استعداد أن يمنح أطفاله هبات سخية وهيكل يوجي جامي يسمى هيكل العشيرة، أو يسمى أحياناً هيكل عشيرة كامي»[2] ويبدو لنا أن التقديس الموجود للأسلاف في ديانة الشنتو كان سببه اختصاصي كل عشيرة بهيكل معين، والصينيون الكونفوشيون كانوا من المشتركين مع الشنتو في هذا المعتقد، لذا كان من الطبيعي أن «**تلعب عبادة الأسلاف العائلية، العشائرية دوراً فائق الأهمية في الشنتوية وهناك اعتقاد بأنّ كلّ ميت يتحول إلى كامي، وهي التسمية العامة التي تشمل كافة الأرواح والآلهة، ويؤدي ربّ العائلة أو رئيس السلالة الصلوات اليومية كما يقدم لها القرابين**»[3]. كان هيكل مدينة أيس ***Ice*** الذي يقع على المحيط

---

(١) بارندر، جفري، «المعتقدات الدينية لدى الشعوب»، ص:٣٣٩.

(٢) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص:٣٤٠.

(٣) توكاريف، سيرغي، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ص:٢٨٦.

الهادي هو من أهمّ الهياكل اليابانية والذي يقصده الشنتويون للحج وكان تشييده قد تمّ في القرن الثالث الميلادي وهو يتألف من هيكل داخلي خصص لعبادة إلهة الشمس «**أماتيراس**» وللجد الأول لأسرة الأمبراطورية، وهيكل خارجي أقيم في القرن الخامس الميلادي وهو أقلّ مكانة من الأول، وقد خصّص لعبادة الآلهة «**تويوك ميكامي** ***Toyouke mikami***» أي آلهة الزراعة.

كانت الهياكل مرتبطة بالأسر والعشائر وقد ظهر ذلك الربط بين الـ «**يوجي جامي**» وعبادة الأسلاف. فقد كان ال» يوجي جامي» السلف الرئيسي المحلّي أو القائد المحلي والعكس هو الصحيح، فالسلف الحقيقي يمكنه أخذ محلة الـ «**يوجي جامي**». وكان يتسلّم القيادة الأسرة الحاكمة في الأمبراطورية، فالأمبراطور الكبير هو كاهن نفسه في اعتقاد أسرته والتي تحولت إلى الهيكل الكبير «**آيس** ***Ice***» والذي بدأ يستطلع إلى حارس أسرة كامي بوصفه سلفاً للامبراطور. فهذا الاعتقاد في التوحد بين السلف عند الأسرة الأمبراطورية وال» كامي» ترك لديهم تفكيراً بأن العائلة الإمبراطورية هي من أصل سماوي – إلهي.

ومن أهمّ الهياكل المميزة عند الشنتو هيكل «**تيشا** ***Taisha***» في «**إزومو** ***Izumo***» وإزومو اسم للعشيرة وكان فيها سوق تجاري للمنتجات الزراعية فنالت شهرة واسعة لكونها من المراكز الدينية الأكثر أهمية عند الشنتو. أمّا أقدم الهياكل عند الشنتو فتقع في الضاحية من جهة الشمال الغربي من تيشا وهي مقصد للحجاج طيلة أيام السنة.

أما في شهر أكتوبر/ تشرين الأول من كل سنة فكان الشنتو يجتمعون في الهياكل الصغيرة فأطلقوا عليه اسم: شهر بلا آلهة.

يكون اتجاه الهياكل عند الشنتو أحياناً نحو الجنوب وأحياناً نحو الشرق. أمّا الاتجاهان الآخران فلا يوجد فيهما الحظ، وعلى مداخل الهياكل يقوم حارسان وهما كلبان كوريان ما عدا هياكل الإناري ***Inari*** المخصّصة للـ «**كامي**» والتي يقوم

على حراستها تمثال ثعلب يعتقدون أنه رسول ال «كامي». والإناري هو الإله الذي يحمي زراعة الأَرُزّ عند اليابانيين وإله العطاء والرخاء وذلك لأنّ الأرز هو المادة الأساسية في طعامهم.

لقد أصبحت الشنتوية مرتبطة بالروح الوطنية وباتت في مكان كبير وذلك لاهتمام المسؤولين بها. ومن أجل ذلك، أقاموا نظاماً قامت فيه الدولة بدعم معابد الشنتو الكبيرة التاريخية وتطوير المعابد الوطنية الجديدة الأخرى مثل معبد «ميجي» الجميل الضخم القائم في طوكيو والذي خصص لأول أمبراطور ياباني معاصر، ومعبد ياسوكوني الموجود في طوكيو أيضاً وقد كرّس لأرواح العسكريين الذين ماتوا دفاعاً عن الوطن ولكي تحافظ الحكومة اليابانية على زعم أن اليابانيين يتمتعون بحريتهم الدينية المطلقة أصدرت الحكومة بياناً رسمياً يقول بأن الشنتو الوطنية هي عقيدة الدولة ليس بوصفها ديانة وإنّما بوصفها مظهراً للوطنية»[1].

لقد أصبحت الهياكل المركز الأهمّ والأساسي في ديانة الشنتو حتى في التقاليد الوطنية اليابانية، وكان يقصدها اليابانيون من جميع الأعمار والمستويات من الأمبراطور فالحكام إلى الأطفال ويمارسون فيها دياناتهم ومعتقداتهم وطقوسهم الشنتوية.

(١) ليلى، الجبالي، الكويت، عالم المعرفة، العدد ١٣٦، ص:٣١٣.

هـ. التربية الشنتوية في اليابان

إنّ الخصائص الجغرافية التي تتكوّن منها اليابان فرضت على سكانها نوعاً من الحياة الخاصة التي يتمتعون بها، فاليابان تتألف من مجموعة جزر كبيرة منها: هونشو، شكوكو، كيوشيو، هوكايدو، وتبلغ مساحتها ٣٦٩٦٦٢ كلم٢، أمّا الجبال فتشكل ٨٥٪ من مجموع أراضيها وهي تقذف الحمم البركانية في معظمها.

وبما أنّ اليابان كانت في عزلة عن العالم حتى ما يساوي النصف قرن، نشأت فيها أنماط ثقافية دينية واجتماعية خاصة بها. كعبادة إلهة الشمس مثلاً وتقديس الأسلاف والعائلة الإمبراطورية التي بدأت من حفيد أماتيراس المُنزل من السماء وليقوم بممارسة السلطة في اليابان. لقد أظهر اليابانيون قدرتهم على التفوق وبرروا ذلك بقولهم: ما دام الأمبراطور الياباني سليل الآلهة المباشرة فهذا كاف لتكون اليابان متفوقة على بقية الأمم والشعوب.

من خلال هذه النزعة نشأت روح المقاومة والجدية والنشاط في العمل وحققوا إنجازات أثبتت هذا النجاح. لذلك فإن التربية اليابانية قامت على أساس العنفوان والتصدّي وعدم الاستسلام.

وبناءً على ذلك يقول عبد الفتاح شبانة: «**حدث بعد الاحتلال الأمريكي لليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية أنّ اليابانيين لم يستخدموا إطلاقاً كلمة**

تسليم أو استسلام أو كلمة جيش الاحتلال، **لا في الوثائق الرسمية ولا في جرائدهم ومجلاتهم واستخدم اليابانيون جملة: انتهاء الحرب بدلاً من التسليم، وجملة: الجيش الذي عسكر في قاعدة متقدمة بدلاً من جيش الاحتلال»**[١]. لقد عاش اليابانيون مناخاً عاماً لم يألفوه من قبل بسبب الهزيمة التي أصابتهم خلال الحرب العالمية الثانية قد صعب عليهم رؤية علم يحلّ محل علمهم. كما كان من الصعب رؤية أمبراطورهم المقدّس معلناً استسلامه. أمّا الأمبراطور نفسه الذي كان يعيش حالة القداسة فإنه لم يعتد ولم يرث عمّن سلفه هذه الحالة فبالرغم من هذه الحالة فإنه تعامل معها بأسلوب عدم الخضوع، وقال عندها كلمته المليئة بالانفعال وقوّة الإرادة وممّا جاء فيها: «**من الحكمة أن نتحمل ما لا يمكن احتماله فإن ذلك أفضل من سفك المزيد من الدماء**»[٢].

والذي ساعد اليابانيين على النهوض من هزيمتهم هو عدم التسليم للواقع الذي حصل، لذلك نجدهم اليوم قد نجحوا وتفوقوا في عدّة ميادين. وما ساعدهم أيضاً هو الروح القومية التي تمتعوا فيها وساعدتهم عليها التربية اليابانية التي أنبثقت مع ثورة التجديد في ديانة الشنتو مع الأمبراطور ميجي (١٨٦٧_ ١٩١٢م).

عند قيام هذه الثورة أحس اليابانيون بشعور وطني وأصبحت الشنتوية الوجه الآخر للوطنية وأصبح المعبد والقصر هما دلالة واحدة، وبهذه الانطلاقة «**أظهروا نفوراً من كل ما هو أجنبي.. وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الأولى**»[٣]. وفي هذه الحالة تمكّن الإمبراطور من وضع دستور تأتي ركائزه من تصنيف الشنتوية

---

(١) شبانة، عبد الفتاح محمد، اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق، ص: ٣٩، ٤٠.

(٢) راجع: ن.م.، ص: ١٧.

(٣) حميد، فوزي محمد، «عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة «ليبيا، ص:٢٤٧.

أمّا الروح الجماعية فقد كانت تحكم قناعات الشعب وتتحكم بأسلوبه فليس للأنا مكان في السلوك والثقافة.

والشخص عندهم كان يجد سعادته إذا انخرط مع الجماعة بالشكل والمضمون وبخاصة الثقافة الغربية التي كان يطلب فيها الشخص التمايز بالخصوصيات وكانت تعزز الفردية عندهم على الحساب العام.

«يؤمن اليابانيون أنّ اتخاذ أي قرار يجب ألا يصدر عن شخص واحد وإنّما ينبغي أن يصدر عن أغلبية الأصوات وبعد مشاورات جماعية أو من خلال لجنة عمل مكوّنة من فريق ذلك، لأنّه بالنسبة لليابانيين يعتبر اتخاذ القرارات بالإجماع هو هدف في حدِّ ذاته بحيث يصدر القرار بالاتفاق العام دون أن يتمسك فرد واحد برأيه المعارض مهما كان موقع هذا الفرد أو سلطانه. فإذا فرض أنّ حدث مثل هذا الموقف وتمسّك شخص برأيه المعارض وسط جماعة ما، فلا ينظر إليه إلا بالاستياء الشديد وحتى القرارات لا تصدر عن الإجماع وإنّما عن أغلبية الأصوات لا يشعر نحوها اليابانيون أيضاً بالرضا»[1].

لقد عزز هذا الانسجام القومي التعاون الجماعي فتكافلت الجهود مع منافسة الإطار العام، وهذا من عوامل النهضة اليابانية. وإذا قمنا بالمقارنة بين الثقافة الغربية وما نشأ عليها أفراد المجتمع وإن ما قامت عليه الثقافة اليابانية من الأسس التربوية في الروح الجماعية فإننا نجدهما في طرفين نقيضين. **«فاليابانيون في معظم الأحوال يقومون بأعمالهم أكثر من الغربيين في مجموعات وهم على الأقل يدركون تماماً أنّهم يعملون بهذا الأسلوب الجماعي وبينما نجد الغربيين يؤكدون على الاستقلال والفردية، نجد معظم اليابانيين يشعرون بالرضى والراحة وهم متماثلون في قلبهم وسلوكهم وأسلوب حياتهم حتى في تفكيرهم**

---

(١) رايشاور، أدوين، اليابانيون، ص١٩٢.

بمعايير الجماعة»[١]. كما واعتمد اليابانيون هذا المنهج التربوي الجماعي للأبعاد فانطلقوا من مفهوم الشنتو لإعداد أولادهم، منذ الطفولة ينشأ الطفل الياباني على الانخراط في الجماعة ويمارس عليه سلطة المجتمع. فتربية الأطفال في اليابان لها قواعد تظهر ذلك بوضوح فإن أدوين ريشاور تحدث عن هذه المسألة وقال: **«ينمو الطفل وهو يتوقع دائماً تفهّم أمّه وتسامحها معه بل يقبل سلطتها عليه أيضاً، وينمو معه هذا الواقع ليشمل فيما بعد تقبله سلطة الوسط الاجتماعي المحيط به وحاجته إلى تقبّل اعتماده هذا من الجماعة الأكثر اتساعاً. وبهذا الأسلوب التربوي ينتقل الطفل من واقعه الطبيعي في سنوات عمره الأولى إلى قبوله السلطة الأبوية ثم سلطة المدرسة الصارمة بسهولةٍ تثير الدهشة بعدها يجيء قبوله وتسليمه بما تصدره الجماعة التي ينتمي إليها من أحكام أو من المجتمع ككل. ولذلك نجد أنّ الطفل إذا ما تعرض لتأنيب أبيه أو زجره بقوله: إنّ الناس يضحكون عليك يكون هذا التأنيب بمثابة قوة مدمرة للطفل تعادل في تأثيرها مقاطعة الجماعة إياه في حال ارتكابه خطأ ما. أمّا في القرية اليابانية التقليدية فيكون نبذ مجتمعها لفرد من أفرادها هو أقصى عقوبة يمكن أن يتعرّض لها الفرد، وهي العقوبة التي عرفتها العصور القديمة باسم** «موراها شيبو*Muraha Chibu*» ومعناها الحكم بالنفي إلى جزيرة أو إقليم بعيد، وهي أقصى عقوبة يخشاها الياباني»[٢].

إنّ الشخص الياباني يخاف الفردية والانفراد وهو أليف متوحّد مع أهله ومجتمعه ووسطه الذي يعيش به، فالمقاطعة تهيّيء للشخص اجتماعياً عقوبة مناسبة، ويؤدّي الياباني واجبه ودوره من خلال مجموعة وينصُّ على ذلك ما يأتي: «إن رأس المسمار البارز هو الذي يتلقى ضربات المطرقة[٣].

---

(١) ن.م.، ص:١٨١.

(٢) ن.م.، ص:١.

(٣) رايشاور، أدوين، اليابانيون، ص:٢.

إنّ دلالة الحضارة عند اليابانيين على مدى التاريخ أنّها لم تشهد حرباً أهلية ولا تصدع في وحدتها الوطنية وحتى عند هزيمتها في الحرب العالمية الثانية وعند تدخُّل الغرب بشؤونها فقد أعطى ذلك درساً واضحاً لجميع الأمم بأنّ التربية على منهج جماعي وثقافي حقق وحدة أهل هذا المجتمع وتلاؤمه بالوحدة الوطنية. يبدأ اليابانيون الشنتو بإعداد أولادهم وتربيتهم في وقت مبكّر منذ بلوغهم الثلاث سنوات فيصحبونهم إلى زيارة المعابد والهياكل في جميع المناسبات ويدربونهم على الإيمان بمعتقداتهم ومشاركتهم بذلك. إن الأسرة اليابانية، وخاصة المرأة لا ترضى أن يرجع ربُّ الأسرة الى البيت قبل سواه وأن لا يبقى في عمله مدة أطول فذلك عندهم يعتبر أنّه أقل قيمة من غيره. أمّا التعليم فهو إلزامي حيث يذهب التلميذ إلى المدرسة ٢٤٠ يوماً في السنة. فالوقت لديهم له أهمية ويتمّ استدراكه بشكل مدروس.

وإنّ الجديّة نراها في سلوك التلامذة اليابانيين حيث يذكر عبد الفتاح شبانة عند مراقبته النظم المدرسية اليابانية ما يأتي: «**لا يوجد في المدارس اليابانية عمّال نظافة بل إنّ مسؤولية نظافة الفصول والمدرسة تقع على عاتق التلاميذ يقومون بها تحت إشراف المدرسين وقد علّق خبير أميركي على هذه المعلومة بقوله: لعلّ ذلك هو السبب في عدم وجود كلمات بذيئة مكتوبة على الحوائط والجدران**»[1].

إنّ الدين عقيدة وشريعة يكون له فعله في سلوك الإنسان وبمقدار صدق الإيمان والالتزام الديني ينعكس ما يؤمن به الشخص في سلوكه وإذا كانت الشنتوية عند اليابان تعني الثقافة الوطنية وحضارة اليابان وتراثها فإن ما يسود من سلوك وأساليب تعامل هو نتاج هذه الثقافة على وجه التأكيد. إنّ النّجاح وطرد الفشل أساس تربوي تزرعه الثقافة اليابانية في أتباع الشنتو وأمام أيّة حالة فشل تحصل ردّة الفعل الطبيعية والمألوفة عندهم هي الانتحار. فالأم التي يرسب

(١) شبانة، عبد الفتاح محمد، اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق، ص ٤٣.

ابنها في الامتحان قد تنتحر لأنها تعتبر نفسها مسؤولة عن فشله، والأب الذي أساء لأسرته بإدمان أو مفسدة قد ينتحر تعبيراً عن الاعتذار والتوبة والتلميذ الذي يرسب قد يلجأ إلى الانتحار، وهناك أبٌ ابنه سرق فقتله ثم انتحر عقاباً، وذلك لإزالة العيب واعتذاراً من المجتمع وهكذا دواليك»[1]. فالياباني يرى أنّ النجاح يجب أن يحالفه دائماً وإلا لما كان ليحصل هذا التشدد في معاقبة النفس بحسب ثقافته ومن الصعب السكوت عن العار أو الرذيلة.

---

(١) راجع: ن.م.، ص٣٧.

و. مفاهيم الطقوس لدى الشنتوية

إنّ تقديس إلهة الشمس الذي يرمز إليها بـ «**أماتيراس**» هي الأساس في العقيدة الشنتوية وتقديس الإمبراطور لأنه سليل إلهة الشمس الذي يخضع له الجميع. والعائلة الإمبراطورية في اليابان كانت أقدم العائلات الحاكمة في العالم وقد تجددت مكانتها مع الإمبراطور شنتويا ميجي ***Meigi*** (١٨٦٧ـ١٩٠٢م) فعند موته حزن عليه جميع الناس في مدينة نيبون ***Nippon*** وتردّد الجميع عليه للزيارة ثم اعتقدوا أنّ روحه لها أصل بالقديس «**أماتيراسو ـ أومي ـ كامي**» فعظّموه ورفعوه لأنه من أصلٍ مقدس ولقد أرادوا أن يعظّموه أكثر من كونه إنساناً عادياً.

فالقياصرة الذين جاؤوا من بعده قبلوا هذه المنزلة العليا التي خلعت عليه، ومع طول الزمن ظهرت فكرة: إن تنوهيكا ***Tennoheika*** «**لا بدّ من أن يعبد من كل طبقات الشعب كما يعبدون إله الشمس**».

يتّجه الشنتو في صلواتهم إلى الأسلاف الذين تقام صورهم عليها ويضعونها على الرفوف ويعتبرونها المقدس الثالث عندهم أمّا الهياكل فهي الأساس في عبادة الشنتو، وكأنّ معبد آيس ***Ise*** الواقع على المحيط الهادئ يشكّل المعبد الأكبر والرمز للوحدة اليابانية وتراثها، ولزيارة هذه المعابد طقوس خاصة يصفها جفري بارندر بالقول: «**إذا كانت زيارة الهيكل خاصة سار المتعبِّد على قدميه**

بمجرد أن يتخطى الثوري الأول(البوابة الأولى) ولا بدّ أن يغسل يديه وفمه من ماء نبعٍ طبيعي في مجمع الهيكل أو من حوض الماء المحفور في الصخر مستخدماً أواني يزوده بها الهيكل ثم يصف المتعبد أو تصف إن كانت أنثى وهو يحني الرأس إجلالاً أثناء تقديم توسلاته. غير أن التوسّل يمكن أن يكتب على ورق ويعلق على إحدى أشجار السكاكي *Sakaki*.المقدسة»[1].

إنّ الديانة الشنتوية غير معقدة ولا مستحيلة فطقوسها واضحة وأصبحت تراثية شعبية ذات طابع وطني توارثتها الأجيال ومع الزمن ظهرت الطقوس المحدّدة أساسها التطهر والقربان الذي يقدم والصلاة والوليمة الجماعية.

وتتألف عبادة الشنتو الرسمية من أربعة عناصر هي:

١. فعل التطهر(هاراي – *Harai*): مع الإضافة للاغتسال إذا لوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكي على رأس المتعبّد.

٢. القربان (شينسن *Shinsen*): ويكون من الحبوب أو من التراب، أما الآن فقد أصبح من المال أو يكون رمزياً في صورة غصن من شجرة السكاكي.

٣. طقوس الصلاة *Norito*.

٤. الوليمة الرمزية *Neorai* وهي تناول الطعام مع الـ «كامي» ويشمل رشف قطرات قليلة من خمر الأرز ميكي *Miki* المقدس الذي كان يقدّم في أعياد الحصاد الذي يقدمه كاهن أو كاهنة من الميكو*Miko* وتطلب جماعات المتعبدين أن تطلب تأدية الرقصة المقدسة للمعبد (كاجورا *Kagara*) التي يوجد فيها خمس وثلاثون رقصة تعبر عن الأساطير القديمة»[2].

إن الأسرة اليابانية تخصص مكاناً للعبادة في المنزل ويطلقون عليه كامي- دانا *Kami -Dana*. أو(رف – كامي) أي الإله على الرّف، ويصبح هذا الهيكل

---

(١) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٢) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص: ٣٤٣.

المنزلي وعلى هذا الرّف يضعون بعض التمائم التي يأتون بها من هيكل آيس *Ise*، الذي هو هيكل قومي ورمزللوحدة

اليابانية ووحدة الأسرة داخل المجتمع تحدث من جراء توحّد الأسلاف مع الإمبراطور.

إن الشنتو يمارسون في صلواتهم أدعية وابتهالات في الهيكل العام أو في هيكل المنزل وهذه الأدعية ترمز غالباً إلى المطالب الدنيوية وخاصة المتعلقة بالزراعة يبتهلون للكامي حتى تصبح المحاصيل وافرة وخاصة الأرز. ومن نماذج نصوصهم ما يلي: «**أولاً وقبل كل شيء، هناك في حقلك المقدّس أيها الإله المهيمن، ليت حبة الأرز الأخيرة التي سيحصدونها، ليت الحبة الأخيرة من الأرز التي ستحصد، بحبات العرق المتساقط من سواعدهم، وتشدّ مع الوصل العالق بالفخذين، ليت هذه الحبة تزدهر بفضلك، وتتفتح سنابل الأرز التي تتوق إليها الأيدي الكثيرة، فتكون أولى الثمرات في الشراب وأعواد النبات**»[1]. إنّ النصوص عند الشنتو غير موحدة لذلك يقوم الكهنة بصياغة نصوص للدعاء والابتهال تناسب الظروف والمناسبة وبقي ذلك مستمراً بعد عصر الإمبراطور ميجي الذي فرض ديانة الشنتو فأصبحت قوميةً يابانية. يقوم في اليابان حوالي ٨٠،٠٠٠ هيكل لطقوس الشنتو ويؤدون فيها معتقداتهم بطلاقة، وبعد العام ١٩٤٦ م تأسست جمعية «**هياكل الشنتوية**» وهي التي تتولى الإشراف على الهياكل وتقوم بصياغة النصوص للصلوات ومع ذلك تبقى الحرية المطلقة للشنتو لتأليف النصوص والتضرع كلٌّ حسب رغبته. يقوم الشخص الشنتوي بتأدية صلاته كل صباح ومساء في هيكل المنزل المختص به، فيتوضأ بالماء ثم ينحني أمام الهيكل ويصفق مرتين بيديه ثم ينحني بصمت وتأتي بعدها الابتهالات. لا تبالي الشنتوية بالحياة الأخروية بل يقال: «إن الشنتوية ديانة محض دنيوية لا تؤمن بحياة غير

(١) ن.م.، ص: ٣٤٣،٣٤٤.

الحياة الدنيا لذلك تتركز اهتماماتهم على تحقيق السعادة الدنيوية والموت ينتهي عندهم بجسم المتوفى إلى منطقة ملوّثة أمّا الروح فبالموت تكون قد تخلّصت من قيود البدن المادية لتتّحد من جديد بالقوى الطبيعية وهذا ما يقرب الشنتوية من مفهوم الهندوس والبوذيين الذين يقولون بأن النفس بعد دورة التطهير تغادر الأبدان لتتّحد بالروح الكلية للكون. ولكن هذا المفهوم لم يمنع الشنتو استمراراً في تقدير وتقديس الأسلاف والأهل من ممارسة طقس سنوي يسمونه (*Obon*) يوم أرواح الأهل.

فما وقائع هذا الطقس السنوي؟

يقول عنه السفير عبد الفتاح شبانة ما يلي: «**يحدث في شهر يوليو من كل عام في اليابان حالة تكاد تقترب من الهجرة حيث يسافر الناس إلى قراهم وموطنهم الأصلي ليحضروا هذا الاحتفال ويسمى يوم أرواح الأهل. يعتقد اليابانيون إن أرواح أقاربهم الموتى تعود في هذه الفترة إلى منازلها الأرضية حيث يستقبلها الأهل بالترحاب والاحتفالات. تضع هذه الأسرة شعلة صغيرة من النيران في مدخل البيت من الخارج وتقدم الهبات إلى نموذج المعبد المقام داخل المنزل والهبات عادة ما تكون بعضاً من ثمرات فاكهة الموسم مع البخور، يؤمن اليابانيون أنّ أرواح الأهل تسترشد بالشعلة وتدخل المنزل وتحيط بالمعبد المنزلي الصغير وتحيط بهم لتباركهم معهم هذه الفترة وبعد يومين يُعاد إيقاد الشعلة خارج المنزل لتعرف الأرواح طريق العودة إلى مقرها الدائم**»[1].

وهذا ما يؤكد لنا مدى ارتباط الشنتو بالأسلاف وطقوس الشنتو يوم أرواح الأهل من مرتكزات العبارة لديهم. إن الشنتو اعتمدوا على طقوس خاصة مع أرواح الأهل وقاموا بابتهالات وتضرعات في مراسم الحزن وهذه تعود إلى الإمبراطور كينكو وأسرته عندما مات أحدهم الذي يدعونه الـ «كوجيكي»

(١) شبانة، عبد الفتاح، «اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق»، ص:١٣.

الجلالة العنيف – ياموتو – ياموتوتاكير إذ هناك ما يلي: «والحالة هذه نزلت نساؤه وأطفاله الذين كانوا في ياماتو، نزلوا جميعاً إلى إقليم إيسيه وبنوا له ضريحاً هناك. بكوا منطرحين على الأرض مختلجين متخبطين في حقول الأرز المجاورة وغنوا:

سروع الأيام

التي تلف جذوع الرز وتعربش بها

جذوع رز الحقول المجاورة

عندئذ تحول إلى طائر أبيض كبير وطار في السماء

ثم أخذ يسيطر باتجاه الشاطئ.

أمّا نساؤه وأطفاله فقد تابعوه نائحين نادبين ولم يشعروا بآلام أقدامهم التي تشققت من جذوع الخيزران المكسرة النافرة من الأرض، آنذاك أنشدوا في غابة الخيزران.

تتعب خواصرنا، ودون أن نذهب إلى السماء

سنذهب إلى الأقدام

وكذلك عندما دخلوا البحر بمشقة وعناء، أنشدوا:

سنذهب في البحر، وتتعب خواصرنا

سنتوه في البحر، مثل أعشاب

تنبت في نهر كبير.

وكذلك عندما توقف الطائر وحطّ على الشاطئ الصحراوي أنشدوا:

يا طير الشاطئ

سوف لن نطير على امتداد الشاطئ الرمليّ

ولكن على امتداد الشاطئ الصخري.

لقد أنشدت هذه الأشعار أثناء مراسم الحزن وهي تنشد وتغنى حتى هذا اليوم في مراسم الأباطرة الجنائزية»[١].

إنّنا نستنتج ممّا مر معنا في هذه النصوص للمراسم الجنائزية عند الأباطرة ما يلي:

- الاعتقاد بالعلوّ، لأن الميت تتحول روحه الى طائر.
- التأكيد على الاهتمامات الدينية الدنيوية من حيث ربط الابتهالات بالأرز والحقول والخيزران.
- التأكيد على أهمية الرجل، بخطابهم له بأنهم سيتشردون ويضيعون بدونه
- الاهتمام بموطئ القدم باعتبار الشاطىء الصخري المفضل لديهم.
- اهتمام الشنتو بالبحر لأنه مصدر رزقهم وعيشهم.

هذا وتقام أعياد أخرى سنوية يقوم الشنتو خلالها بزيارات للمعابد للصلاة والدعاء منها:

في ١٧/اكتوبر/تشرين الأول، وهو يوم احتفال للكامي ويتوافق مع أداء محاصيل الأرز، وفي٢٣ نوفمبر/تشرين الثاني، يقومون بالحج الى معبد آيس ***Ise*** طالبين منه مواسم حصاد أفضل. وأما أعيادهم فأبرزها:

عيد النار.

عيد كامي الماء.

وجميع هذه الأعياد تدور حول محور واحد يتعلق بالحياة الدنيوية من الحصاد وحقول الأرز والماء والنار وهذا ما يجعلنا نؤكد الطابع الدنيوي للديانة الشنتوية.

ز. مكانة الأسرة في فكر اليابانيين:

---

(١) كوجيكي، وقائع الأشياء القديمة، ص ٢٣٩،٢٤٠.

لدراسة هذا الموضوع لا بد لنا من الانطلاق من مفاهيم الشنتو المؤسسة على المعرفة والعادات والتقاليد والأعراف والمتأصلة في الشعوب اليابانية باعتبارها تراث لا يتفكك.

لقد كان هناك قرار من الآلهة بتزويج اثنين منهم حسب اعتقادهم وحسب ما جاء في كتابهم الـ «كوجيكي» وهذان الزوجان هما: ايزانامي_نو_ميكوتو والزوجة هي: إيزانا مي_بو_ميكوتو، فهذان الزوجان يُعدَّان الأبوان الأصليان لليابان. وقد قامت العلاقة بينهما على أساس المجتمع الذي يقوّم الرجل أولاً ولا يقبل تقدم المرأة عليه. ولذلك جاء في نصوص الـ «كوجيكي» ما يأتي: «لذلك صاح إيزاناكي – نو_ ميكوتو_ قائلاً: والحالة هذه سندور أنت وأنا، حول الدعام السماوي المهيب ثم نقترن أبعد تبادل العهود بينهما. قال: تدورين أنت من اليمين وأنا من اليسار كي نلتقي. وبينما كانا يدوران تكلمت إيزانامي – نو_ ميكوتو أولاً: آه! يا للرجل الفاتن! فتابع إيزاناكي_ نو – ميكوتو: آه! يا للمرأة الفاتنة!

بعد أن لفظ كل منهما قوله هذا، أردف إيزاناكي_ نو_ ميكوتو قائلاً: ليس حسناً أن المرأة تكلمت أولاً»[1].

وبعد أن تزوجا أنجبا أولاداً غير مكتملين، فبدآ بمراجعة الآلهة بشأن النقص والأولاد، فكان الجواب ما يلي: «فأجاب الآلهة السماويون بعد مزاولة الكهانة والتنجيم بحرق عظم كتف إبل مخلوط بالخشب: لم يكن حسناً أن تتكلم المرأة أولاً. ارجعا. اهبطا وأعيدا كل شيء.

هكذا هبطا، ومثل السابق، دارا حول الدعام السماوي المهيب. فقال إيزاناكي – نو – ميكوتو أولاً: آه! يا للمرأة الفاتنة! فتابعت زوجته إيزانامي– نو–ميكوتو: آه! يا للرجل الفاتن ثم تزوجا وأنجبا»[2].

---

(١) كوجيكي، وقائع الأشياء القديمة، ص ١٠٥،١٠٤.

(٢) ن.م.، ص: ١٠٥.

من هذه الأسطورة تبين لنا، تفضيل الرجل على المرأة وإعطاءه المركز الأول وجعله في الطليعة فهو السيّد المطاع في منزله أما الزوجة والأولاد فمهمتهم الإجلال والتقدير والاحترام لهذا السيد أي رب الأسرة ولذلك قالوا: «**اليابان جنّة الرجل**».

للأحفاد الذكور دور وامتيازات أكثر من الفتاة. وهذا ما دفعهم للإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه عائلته وتجاه بلده، وكان الرجل يغيب عن بيته فترات طويلة فتقوم المرأة بمعظم حاجات الأسرة من تدبير المنزل والأولاد ورعايتهم وتعليمهم.

وعن هذا الموضوع نقل لنا السفير عبد الفتاح محمد ما يلي: «تتحكم التقاليد اليابانية في حياة الأسرة، فالرجل يقدس عمله ويقضي فيه أوقاتاً إضافية حتى دون الحصول على أجر إضافي ويعقب الانتهاء من العمل أن تتجمّع كلّ مجموعة في أحد المشارب لتناول بعض المشروبات في جو بعيد عن رسميات العمل وتناقش مشاكل العمل في جوّ وديّ بين المرؤوسين والرؤساء.

... يترتب عليها أن يصل الزوج متأخراً إلى منزله ممّا يحرمه من رؤية أولاده والإشراف على تعليمهم وتربيتهم تاركاً ذلك للزوجة المكافحة ومن الطريف أن الزوجة التي يعود زوجها للمنزل باكراً تحس بالإحباط وخيبة الأمل لأن عودة زوجها مبكراً تعني أمام جيرانها أنه ليس من العناصر المهمة في المؤسسة التي يعمل بها»[1]. إنّ حبّ الرجل الياباني لعمله شكل أهمّ الركائز لنهضة اليابان الحالية بعد الهزيمة التي ألحقت بها في الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م.

أمّا المرأة التي خففت من مسؤولية الرجل وساعدته على تخطي الأعباء فما زالت حتى هذا اليوم «**هي المسؤولة عن المهام الجسام في الأسرة فهي المسؤولة عن تدبير نقود لشراء مسكن للأسرة أو سيارة أو الآلات المعمّرة**

(١) شبانة، عبد الفتاح محمد، اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق، ص٢٤،٢٥.

للمنزل وهي المسؤولة عن اختيار مدارس الأولاد ومتابعة دراستهم والاتصال بالمدرّسين وحضور اجتماعات مجالس أولياء الأمور والزوجة هي التي تمثل الأسرة في جمعية الحيّ وتشترك في المداولات والقرارات لتحسين مستوى الخدمات بالحي»[1].

ويقر الشنتو في شريعتهم تعدد الزوجات وقد جاء في نصوص الـ «كوجيكي» بلسان زوجة أحد الأباطرة: «يا جلالة الإله – الثمانية آلاف ـ فأساً (أوكني – نشي).

مولاي، مولى الإقليم الكبير! أوكني ـ نشي

لأنك رجل سوف تجد بسهولة

زوجة شبيهة بالأعشاب الفتية

في كل رأس من الجزر حيث سوف تمر.

وأنا لأنني امرأة،

لا أستطيع أن أتخذ رجلاً، أي رجل، غيرك، فسواك لا أستطيع أي زوج»[2].

هذا النصّ يبيّن مدى خضوع المرأة للرجل.

«يتم الجانب الرسمي من الزواج في أحد معابد الشنتو ويتناول العروسان كأساً من الساقية، المشروب الوطني المصنوع من الأرز المختمر بعد أن يباركه الراهب في حضور أفراد قلائل من الأسرتين. يقف العروسان أمام الراهب ويركعان أمام نموذج المعبد ثم يأخذان من الراهب كأس الساقية الذي يقدم قرباناً لآلهة الزواج. يقوم كل من العروسين بارتشاف قليل من الساكية ثلاث مرات لأنّه في ديانة الشنتو يعني الحظ الطيّب وهو رقم محبّب للآلهة فتستجيب للدعوات»[3].

---

(١) ن.م.، ص:٢٤.

(٢) كوجيكي، وقائع الأشياء القديمة، ص: ١٤٣.

(٣) شبانة، عبد الفتاح محمد، اليابان العادات والتقاليد وإدمان التفوق، ص ٢٧.

لا يزال المجتمع الياباني مجتمعاً محافظاً على الحياة الزوجية ولم تتخطّه الأخلاق السيئة التي تصيب العالم الغربي. وبما أنّ المرأة اليابانية كانت وما تزال تساهم في الأعمال داخل المنزل وأنها على استعداد لترك العمل من أجل إدارة شؤون منزلها وأسرتها فقد جاء في نيسان أبريل من عام ١٩٩٩تقرير حكومي أكدّ على ذلك: «ذكر تقرير للحكومة اليابانية أمس أن واحدة فقط من بين كل عشر نساء عاملات في اليابان تتولى منصباً إدارياً. وقارن التقرير بين نسبة اليابانيات اللواتي يشغلن مناصب وهي ٣،٩٪ من بين، ٢٦،٦٥ مليون امرأة عاملة في اليابان بين نسبة٣، ٤٤ ٪في الولايات المتحدة و٦،٣٠٪ في النروج و٦،٢٦٪ في المانيا.

وقالت هانيوا ناتوري مدير مكتب المساواة بين الجنسين التابع لمكتب رئيس الوزراء:

إنّ الكثير من النساء يستقلن قبل بلوغهن مناصب قيادية بسبب العبء الإضافي المتمثل في الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال»[1].

إن الأبناء يكرّمون والديهم في اليابان وهذا ما يدلنا على التضامن الأسريّ القائم عندهم كما يتضامن الأخوة مع بعضهم في الحالات الطارئة.

وهذا التضامن القوي **«يساعد بقدر كبير على استقرار حياة الأسرة والأفراد وعلى سبيل المثال، فما زال من المعتاد أن يعيش الآباء المسنون مع أولادهم، وفضلاً عن ذلك ففي كثير من الحالات يقدم الأبناء الذين يعيشون منفصلين عن آبائهم كبار السن مساعدات مالية لهم. ولتشجيع مثل هذا التضامن وضعت الحكومة مزايا ضريبية لأولئك الذين يساعدون ذويهم المتقدمين في السن كما أنّها تنفذ مشروعات لبناء مساكن عامة مصممة خصيصاً لسكن الآباء والأبناء معاً»**[2].

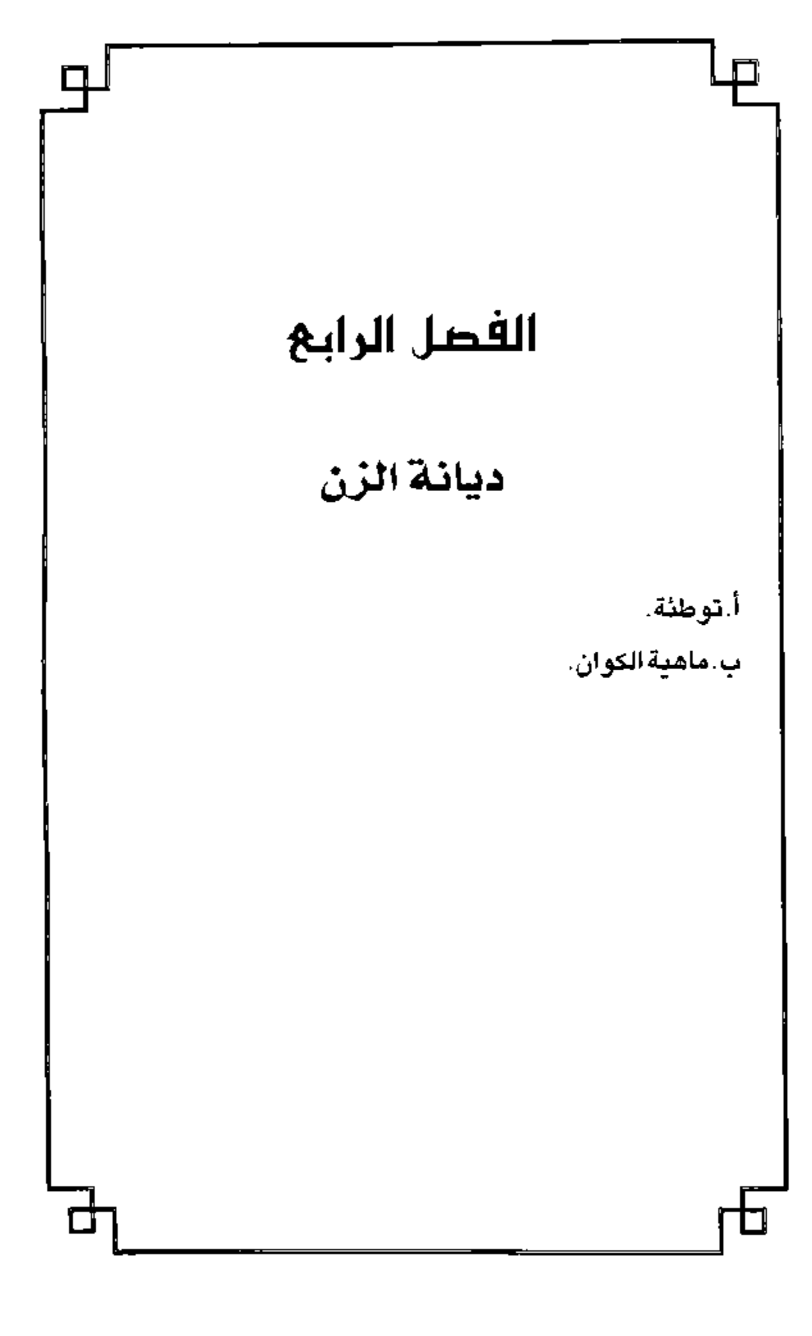
---

(١) جريدة الديار، بيروت، العدد ٣٨٠٩، السنة١٢، السبت ٢٤/ ٤/ ١٩٩٩.

(٢) شريف، د. حسين، «التحدي الياباني في التسعينات»، ص:٢٨١.

هذا التضامن الأسريّ في اليابان والتماسك الوطني والاستقرار الجماعي جعل من اليابان دولة مزدهرة اقتصادياً على المستوى العالمي تنافسها معظم الدول الكبرى كأوروبا وأميركا وغيرها.. إنّ الحرية الدينية اليوم مكفولة لكل مواطن فاليابانيون لم يعطوا امتيازاً لأي هيئة دينية وقد جاء في دستورهم: «**لا يجوز لأي تنظيم ديني أن يتمتع بأي امتيازات من الدولة أو أن يمارس أي سلطة سياسية ولن يجبر أي شخص على الاشتراك في أي عمل ديني أو احتفالات أو شعائر أو ممارسة دينية، ويمتنع على الدولة وأجهزتها إدخال الدين في المناهج الدراسية أو القيام بأي نشاط ديني آخر**».

إن الشعوب الشنتوية عقيدة تأصلت جذورها في الشعب الياباني وأصبحت راسخة في أذهانهم حتى يومنا هذا. فاليابان وواقعها أمسيا جزءاً لا يتجزأ من الشنتوية.



الفصل الرابع

ديانة الزن

أ. توطئة.

ب. ماهية الكوان.

أ. توطئة

برزت هذه الطائفة في زمن العاصمة «**كاماكورا** »**عام ١١٩٢ ـ ١٦٠٣م. وقد انتقلت هذه الطائفة سابقاً إلى الصين مع بوذا ويطلق عليه أيضاً اسم** «بوديهارما» الذي عاش في القرن السادس الميلادي. فبعد انتقال البوذية التأملية إلى اليابان تمّ الاطلاع عليها بشكل دقيق، أسّس ميون إيزي (١١٤١ـ١٢١٥م) مدرسة الـ «**زن**» التي انتشر أتباعها في بقاع ساموري الحربية. وكلمة «**زن**» مشتقة من الكلمة الصينية «**تشن**» ***chan*** وهي بدورها أيضاً مشتقة من الكلمة الهندية السنسكريتية «**دهيانا**»(***Dhyana***) **وهي** تعني التأمل أو التفكّر. سعت مدرسة(زن رنزي) ***Rinzai*** والتي أسّسها إيزي إلى تحقيق هدفها وهو بلوغ الاستنارة بطريقة مباشرة ومفاجئة عن طريق إيقاظ الوعي. وقد انقسمت هذه الفرقة بعد ذلك إلى خمس عشرة فرقة ويوجد لها حالياً حوالي ستة آلاف معبد. وهناك مؤسس آخر لفرقة «**زن**» اليابانية وهو الراهب الأرستقراطي «**دوجن**» ***Dôgen*** الذي عاش ما بين ١٢٠٠و١٢٥٣م. وينتمي إلى أسرة نبيلة وأصبح يتيماً في السابعة من عمره ورسم راهباً في الثالثة عشرة.عكف في بداية حياته على دراسة الكتب البوذية ودرس التأمل في الصين (١٢٢٣ـ١٢٣٣م) وتوصل إلى موصلة الإستنادة بمساعدة أحد رهبان الـ«زن» ثم عاد بعد ذلك إلى اليابان وأسّس فرقة «زن» خاصة به وهي شبيهة بفرقة «**سوتو**» وتسمى فرقته «**زن سوتو**» «***Zensoto*** ». وبنى بعد ذلك معبده الخاص سنة ١٢٢٧م

وأصبح من معلمي الزن المشهورين في تاريخ اليابان ويبلغ أنصاره اليوم حوالي ثمانية ملايين أكثرهم من عامة الشعب أمّا بالنسبة لأتباع (زن رنزي) فيبلغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين وأكثرهم من المفكرين والصناعيين والفنانين. أشرنا سابقاً إلى أن بوذية زن تصبُّ جلّ اهتمامها على التأمّل والتفكّر للوصول إلى الاستنارة. وهذه النظرة المتابعة لاستنارة الرسل من أيّام بوذا إلى أيام شاب أوصلتها إلى معرفة معنى الكوان (*koan*) وهو في قاعة التأمّل.

ب. ماهية الكوان؟

الكوان هو عبارة عن سؤال مقتضب جداً يعبر عن مأزق عقلي أو مشكل ذهني يطرحه المعلم على الراهب المبتدئ الذي يبذل جهداً فكرياً ليصل إلى حلّه. والهدف من وراء ذلك هو حثّ الراهب على إنهاك قواه العقلية وإرادته حتى يصبح الذهن مهيئًا لتلقي الإجابة بطريقة حدسية مباشرة. وهكذا أصبح «**الكوان**» وسيلة تعليمية اعتمدتها مدرسة «**زن زاي**»(***Rin- Zai***).

وقد تمكن الراهب الصيني «**قوان ـ وو**» (***Vuan-Wu***) من جمع حوالي ١٧٠٠ «**كوان**» من الأمثلة على هذا النوع من الأسئلة. عندما تصفّق اليدان تحدثان صوتاً، فهل تستطيع الإصغاء إلى صوت اليد الواحدة؟.

تركز مدرسة «**زن سوتو**» على أهمية التأمل فبواسطته يمكن بلوغ الاستنارة والتوصّل الفجائي إلى الحقيقة، فبعد أن يتابع الطالب دروساً في التأمل على يدي معلم لمدة تتراوح بين اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة، وبعد أن يتأكد المعلم أن الطالب قد وصل إلى اكتشاف حقيقة المعنى الداخلي للبوذية يُرسَم كاهناً ويصبح معلماً[(١)].

يتابع المريدون أو صغار الكهنة طقوس التأمّل وتدريباتهم على المعبد وإقامة طقوس العبادة الرسمية وهم يعيشون أيضاً حياة تقشّف قاسية ويتوفر لهم الوقت

---

(١) بارندر: المعتقدات الدينية ص٣٦٥.

الكافي للاستماع إلى محاضرات المعلم التي تهدف إضافة إلى التثقيف والإيحاء والمساعدة على التأمل. كما وتوجد بعض المفارقة بين مدرسة «**رن ـ زي**» (*Rin-j Zai*) ومدرسة «**زن سوتو**» بحيث تعتمد الأولى على تقنية خاصة لبلوغ الاستنارة وبالتدريج بواسطة المتأمل في وضعية الجلوس (زازن باليابانية ***Zazen***) فيعمد عندها المعلم إلى ضرب المتعلم بِعَصاً ليبقيه مستيقظاً.

نشير هنا إلى أن رفض الفكر والاستدلال العقلي لاقى رواجاً عند طبقة المحاربين «**الساموراي**» (*Samorais*) وأبرز ما يميزهم طريقتهم في الانتحار للحفاظ على المجد والكرامة بشقّ البطن بالسيف وإخراج الأمعاء وتتم هذه العملية مع تركيز فكري شديد يعطيها صفتها البطولية، فهم طبقة غير مثقفة وهذا ما يشعرهم بأنهم أدنى من طبقة الأرستقراطيين المثقفين[١].

في البداية كانوا سعداء لمعرفتهم أن التجريد الفلسفي مختلف ومتعارض مع طريقة الاستنارة. وهذا يتعارض طبعاً مع تركيز الـ «زن» على الإجابة الحاضرة والمرتكزة على الحدس والمنسجمة مع تقاليدهم في الأعمال الحربية. من هنا لاقت طريقة «رن زي» قَبولاً حسناً في الأوساط العسكرية وخاصة تلك التي تعتمد على طرائق التأمل وبعبارة أدقّ التركيز. وقد حلّت الساموراي محل الطبقة الأرستقراطية في تسلّم زمام الحكم وفرضت عاصمة عسكرية جديدة في مدينة كاماكورا (***Kamakura***)، ويحمل الساموراي أيضاً لقب السيافين (أي الذين يجيدون القتال بالسيف).

يمكن اختصار كل ما تقدم بأن عقيدة الـ «زن» كانت في بدايتها حركة معارضة للنظريات الفلسفية وبخاصة الكنفوشية التي سادت عصر «**تنج**» ***Tang*** في حين كانت في وقت من الأوقات ديانة الطبقات المسيطرة عسكرياً وأصبحت اليوم عنصراً مهماً في تكوين طبقة المثقفين والفنانين اليابانيين.وتذكر أكثر كتب هذه

---

(١) يطلق عليها في الياباني هاراغيري (***Haragiri***).

العقيدة قصة توضّح الفكرة الأصلية التي قامت عليها هذه الديانة وهي لاتخلو من بعض الفكاهة وهذه القصة هي التالية: طلب أحد الفتيان من معلم الـ «زن» وهو مشهورٌ في فنِّ القتال بالسيف أن يصبح تلميذه، وأقسم التلميذ أمام المعلم بأن يضحّي بكل شيء طوال فترة التدريب ليصبح ساموري بأسرع وقت ممكن فأجابه المعلم بأن التدريب يحتاج لفترة عشر سنوات على الأقل.أُحبط التلميذ لكنّه عرض على المعلم بأنّه سوف يتدرب ليلاً ونهاراً ليكسب المهارة في نصف المدة المطلوبة. أجابه المعلم بأنّه حتى لو تدرب ليلاً ونهاراً سيصبح محتاجاً إلى ثلاثين سنة فأقسم الشاب على وضع كل طاقته في هذا السبيل.

ردّ عليه المعلم عندئذ بأنّه سيحتاج إلى ستين سنة.

وأراد الفتى أن يثبت وجوده للمعلم فأمضى ثلاث سنوات في وضعية الجلوس(*Zazen*) يقوم بفرط الأرز وغربلته دون أن يرى خلالها السيف مطلقاً. وذات يوم تسلّل المعلّم ومعه سيفٌ من خشب ووقف خلف الفتى وصار المعلم يضرب الفتى بالسيف في كلّ مرة يلتفت فيها إلى الوراء واستمرّ على ذلك الحال حتى صارت حواس الفتى متنبهةً ومتأهّبة في كلٍّ لحظة بصورة أوتوماتيكية لتلقي الضربات المنهالة على جسمه من وقت لآخر. وعندما تأكّد المعلم بأن جسم الفتى المتعلم وفكره أصبحا في حالة الانتباه والتأهب الدائمين وغير مكترث لأفكاره ورغباته،عندئذ بدأ المعلم بتدريب الفتى على فنّ القتال بالسيف.

وهكذا إكتشف الساموري بالجملة أن تلقي الضربات في القتال والردّ عليها يجب أن يكونا بصورة مباشرة وحدسية -لا تحتاج إلى تفكير- لهذا السبب أصبحت الـ «زن» مدرسة فضائل عسكرية ذات قيمة عالية في الملاكات العسكرية. ركّزت الـ «زن» على كره الموت وهذا ناتج عن قيامها على أصول بوذية تقول بالتّقمص، وهذا الكره هو الذي يميّز قانون الشرف العسكري الياباني.

لمحة عن إيران

كانت في هذه البلاد ولاية اسمها فارس وكانوا يدعونها (پارس) ويدعوها اليونانيون (پرسيس *Persis*) ومفهوم هذه الكلمة كما يستعملها الإنجليز واليونانيون واليهود والسريانيون والعرب وبقية الأجانب أوسع من مفهومها الأصلي. فالإنجليز كانوا يدعون الإيرانيين (پرشنز *Persians*) وبلاد إيران (برشيا *Persia*) بينما يطلق أهل هذه البلاد على أنفسهم لقب الإيرانيين، ويسمون بلادهم إيران، وإيران وإران *Eran* وإيران *Airân* التي أطلق عليها في الأفستا: آيريانا، هي موطن الآريين. (إريا في الأفستا إيريا وباللغة السنسكريتية آريا) وطبقاً لهذا فإن مفهوم هذا الاسم بعيد جداً عن لفظ (پرشيا) لأن (برشيا) هي إيران الحالية نفسها.. أي إيران بمفهوم الكلمة الجديد. وقد كانت بلخ وسغد وخوارزم تشكل قسماً من أرض إيران، وكان الأفغانيون والأكراد إيرانيين.

غير أنّها لكونها مسقط رأس الأسرة الهخامنشية التي كانت تحكم إيران قبل الميلاد بستة قرون، والأسرة الساسانية التي كانت تحكم إيران في القرن الثالث بعد الميلاد، ولأنّ هاتين الدولتين كانتا بمثابة الساعد القوي لإيران، قد رفعتا اسمها عالياً في مغرب البلاد. وانتشر هذا اللفظ وشمل الشعب كله والمملكة بأسرها وهي التي نسميها (پرشيا).وفي إيران اختلط سكان پارثيا وماد وپارس مع مرور الأيام، وكوّنوا شعباً واحداً هو شعب إيران ونتيجة لاختلاطهم وامتزاج لهجاتهم ظهرت اللغة الفارسية على مسرح الاستعمال وصارت اللغة الوحيدة لهذه الشعوب. وإيران هي تلك البلد التي أسّس فيها الشعب الفارسي الآري، ومن براهين ذلك أنه قد عثر في الشمال الغربي لبلاد فارس على آثار يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح تحمل أسماء مشاهير آلهة الهند قبل «ميتهوا» و«أندرا» و«فارونا» وقد عبدت هذه الآلهة في الهند كما عبدت في فارس ولكن تغيّر بعضُ أسمائها، وقد ذهب العلماء إلى ما هو أبعد من هذا، فقالوا إن

«أهورامازدا «إله «زرادشت «هو محرّف ومأخوذ عن «أور رواناشول» الإله الهندي العتيق، ولكن هذه مغالاة شديدة من أصحاب هذا الرأي، إذ إنّ النظريات العلمية لا يصح أن تبنى على مثل هذه التكهنات المستنتجة من التحركات اللفظية. وهذا التغيير لم ينل إلا ألفاظ أسماء أولئك الآلهة، أمّا صفاتهم الجوهرية وأخلاقهم الأساسية ومميزاتهم الخاصة فهي متشابهة عند الشعبين تشابهاً يلفت النظر.

وأيضاً من دلائل المشابهة بين الديانتين أننا نجد في الكتاب الفارسي المقدّس «زند أفستا» وهي أسطورة تحدثنا عن «ييما» أول إنسان، وهو نفس «ياما» أول ملك عند الهند أنه أطعم أبناءه لحماً محرماً (لعله لحم ثور) ليصيرهم خالدين وأنّه قد فعل هذا نزولاً عند نصيحة أحد الآلهة وقد ظلّت هذه العقيدة فيما يظهر سائدة حتى جاء (زرادشت)، وإنّما هو شيء معنوي يمنحه «أهورامزدا» لمن يستحقه بالفضيلة. واستمر تطور إيران والبلد الإيراني وشعبها ولغتها وحضارتها وثقافتها وصناعتها حتى وصلت إلى كل العالم وأصبحت من الدول التي لها حسابها في المنطقة استراتيجياً وعسكرياً وسياسياً واقتصادياً.

تقع الجمهورية الإسلامية الإيرانية في القسم الشمالي من الكرة الأرضية وفي الجنوب الغربي لقارة آسيا وتبلغ مساحتها في محدوديتها الجغرافية حوالي ١٦٤٨٠٠٠ كلم مربع. تشمل دولة إيران بحدود برية وبحرية يبلغ طولها ٧٧٤٤ كلم مع دول أذربيجان تركمنستان وأرمنستان وأفغانستان والباكستان وتركيا والعراق والخليج الفارسي وبحر عمان ويبلغ طول السواحل الشمالية على شاطئ بحر قزوين ٦٦٤ كلم وبينما يصل طول السواحل الجنوبية على شاطئ الخليج الفارسي وبحر عمان إلى ١٩٥ كلم، من حيث الجبال تقع إيران بين سلستي جبال زاجروس من جهة الغرب والجنوب وكذلك جبال البرز من جهة الشمال وتعد قمة جبل دماوند أعلى قمة جبل في إيران والتي تعلو حوالي٥٦٧١ متراً عن سطح البحر وتقع على مقربة من شمال شرق العاصمة طهران.

كما ويبلغ عدد السكان في إيران وفقاً لآخر الإحصائيات حوالي ٦٥ مليون نسمة حيث يشكل عدد السكان الذين يسكنون في المدن نسبة ٦٠٪ وفي القرى ٤٠٪ من مجموع سكان إيران. يعتبر المجتمع الإيراني مجتمعاً شاباً إذ إن فئة الشباب تحت سن العشرين عاماً يشكلون حوالي نصف عدد السكان من حيث التركيب الجنسي للسكان لما يولد في إيران ١٠٣ مواليد ذكور في مقابل كل ١٠٠ مولود أنثى.

كانت إيران تعتبر في السابق من دول العالم الثالث غير المنتجة، أمّا بعد انتصار الثورة الإسلامية فقد أصبحت إيران من الدول الصناعية، فأصبحت منتجاتها تصدر إلى الدول الصناعية الكبرى مثل اليابان وكوريا والصين ومجموعة الدول السبع ودول أوروبا الغربية والشرقية الدول الاسلامية.

فحسب ما جاء في الدستور الإيراني تحديداً الفقرة ٤٤، ينقسم الاقتصاد الإيراني من حيث الملكية الى ثلاثة قطاعات هي: القطاع العام والقطاع الخاص والقطاع التعاوني الذي لا يتعدى حجم مشاركته في الاقتصاد الإيراني ٢/٥٪ والباقي موزّع بين القطاعين العام والخاص وتشير أرقام الميزانية العامة الإيرانية الى أن ٥٠٪ من مجمل الإنتاج القومي الإيراني يأتي من المصادر الحكومية المباشرة.

وقد تطوّر القطاع الصناعي بعد سنوات الحرب الأليمة في إيران. وبعد قيام الثورة الإيرانية وقيام الجمهورية الإسلامية واستقرار الوضع السياسي والاقتصادي أصبح قطاع الصناعة المحرّك الأساسي لعجلة النموّ الاقتصادية في البلاد. وخلال سنوات ما بعد انتصار الثورة الإيرانية أصبح هذا القطاع قطاع الصناعة والتعدين وخاصة في مجال صناعة الغاز والرّي وإسالة المياه والطاقة الكهربائية من أكثر قطاعات الاقتصاد نمواً أمّا في مجال قطاع الخدمات فقد حاز قطاع المواصلات والاتصالات على أعلى نسبة نمو في هذا المجال وأدّى هذا النمو إلى ترسيخ بنية

قطاع الخدمات في الاقتصاد الوطني. وعموماً فإن تطوّر الإنتاج الوطني والمعطيات الإنتاجية وارتفاع القيمة المضافة للقطاعات الاقتصادية المختلفة خلال الأعوام الأخيرة يدلّ على ظهور توجهات جديدة في هيكلية الاقتصاد الوطني ترتكز على دعامة أساسية ألا وهي أرجحية موقع الإنتاج وخاصة الصناعي على خارطة الاقتصاد الوطني.

مع تزايد النمو السكاني خلال العشرين سنة الماضية اتخذت الصناعة الإيرانية طريق الرقيّ والازدهار فحتى أواسط الثلاثينات تحسنت المصنوعات الإيرانية في مجالي النسيج والمواد الغذائية ولكن بعد مرور أربعين عاماً حدثت طفرة عظيمة في الصناعة الإيرانية من حيث تنويع الإنتاج والكمية والجودة ومنذ بداية الأربعينيات اتّسع نطاق المنتجات الإيرانية والكمية والجودة، وبدأ إنتاج العديد من المواد الكيماوية الأساسية مثل السماد الكيماوي والأصباغ والصابون وخلال أعوام الأربعينات والخمسينات تطورت الصناعات الكهربائية والميكانيكية وأعطت هذه الجهود ثمارها في الستينات على شكل تنويع المنتجات الإيرانية وتشير الإحصائيات الخاصة بتوزيع القيمة المضافة للإنتاج في قطاعات الصناعات الأساسية *(M.V.A)* التي أجرتها منظمة التنمية الصناعية (اليونيدو) بخصوص حجم التغييرات الهيكلية للقطاع الإنتاجي في إيران، لأن قطاع الإنتاج الصناعي يرتبط تقليدياً بصناعة النسيج والصناعات والقطاعات المتعلقة بمعدات ووسائل النقل والمواصلات والتي بلغت حصتها بصورة مشتركة بحدود ٤١٪ من مجمل الانتاج أمّا في العصر الحاضر فإن القطاعات الإنتاجية الأساسية في الاقتصاد الوطني هي: صناعة التعدين اللافلزي مثل الزجاج والسيراميك والصناعات والمنتجات الفلزية ما عدا الأجهزة والمعدات وصناعات الأجهزة الكهربائية وغير الكهربائية وكل واحد من هذه القطاعات ساهم بنسبة تتجاوز١٠٪ من مجمل القيمة المضافة للإنتاج هذا القطاع أكبر بكثير من معدّل النمو في الإنتاج القومي. ويعتبر قطاع الصناعة

والتعدين في الوقت الحاضر أحد الأركان الأساسية والحيوية لاقتصاد الدولة ولذلك ركّزت الجمهورية الإسلامية الإيرانية على قطاع التعدين وخطت خطوات واسعة في هذا المضمار.

في أعوام الأربعينات والخمسينات كانت إيران إحدى الدول المستوردة الأساسية للصلب والحديد ولكن اليوم أصبحت من الدول المصنّعة والمصدرة للحديد والصلب وصاحبة سمعة وتقنية خاصة بها في هذا المجال وبمتابعة البرامج والخطط المرسومة في مجال زيادة إنتاج وتصدير الفولاذ الى الخارج نأمل أن تصبح إيران في المستقبل القريب إحدى الدول الأساسية المصدرة للفولاذ. ومن الجدير بالذكر أنه حتى في الماضي القريب لم يخطر ببال الخبراء الدوليين يوماً أن تضاعف إيران من إنتاجها من القصدير والحديد الإسفنجي والسبائك المعدنية والعوازل الحرارية أو أن تبتدع آلية وطريقة جديدة في مجال صهر الحديد والصلب والألمنيوم الخفيف وقطع أشواط بعيدة في تكنولوجيا التعدين. وحتى عملياً فإن استخراج الأحجار الكريمة وأحجار الزينة والرخام من المناجم شهد تطوراً كبيراً. ففي السابق كان يتم استخراج الأحجار والرخام بأساليب بدائية (أسلوب التفجير) ولكن في الوقت الحاضر وبعد إدخال أحدث أساليب الاستخراج والتصنيع أصبحت هذه الصناعة من أكثر القطاعات الصناعية تقدماً في البلاد.

إنّ المنتجات المعدنية والفلزية الإيرانية مثل السبائك الفلزية المختلفة تصدّر اليوم الى الدول الصناعية الكبرى مثل اليابان وكوريا الجنوبية والصين وإيطاليا.

يتمتّع القطاع الزراعي بدور محوريّ في اقتصاد إيران وأثبت دوره الإيجابي في الظروف الخاصة في الوقت الحاضر في اضطلاعه بمسؤولية توفير المواد الغذائية لسكان إيران وتوفير فرص العمل لثلث القوى العاملة في البلاد. وقد لعبت الزراعة دوراً مهماً في زيادة الإنتاج القومي والصادرات النفطية وبالنتيجة

تـم تحقيق الموازنة في مجال توفير العملة الصعبة للبلاد ولا يخفى أن الصناعات الغذائية بمستقبلها الواعد تعتمد بصورة أساسية على القطاع الزراعي.

يتمّ تصدير البضائع والمنتجات غير النفطية في الغالب إلى الدول التالية: الدول الأعضاء في مجموعة الدول السبع وهي ألمانيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة وكندا واليابان وكذلك إلى دول أوروبا الشرقية ودول أوروبا الغربية من غير الدول الأعضاء في منظمة الاقتصاد الأوروبي (*E.C.*) وإلى الدول الإسلامية الأعضاء في منظمة إكو(*E.C.O.*) وباقي الدول الإسلامية.

إيران هي تلك الروضة التي بسطها الخالق على جزء من الأرض إذ تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة بدءاً من أعلى قمم الجبال ووصولاً إلى السهول والبحيرات والأماكن المقدسة والآثار التاريخية والقصور وكلّها تختزن تاريخها وحضارتها. وبفضل مناخها الأسطوري وتعدد المشاهد الطبيعة تتيح لزائريها ولمحبي الطبيعة عدداً غير محدود من النشاطات الثقافية والرياضية والسياحية.

تقع إيران في منطقة الشرق الأوسط وتشكل جسراً طبيعياً بين بحر مازندران والخليج الفارسي وتشكل مفترقاً للطرق بين الشرق والغرب. إنّ عيون المياه الرقراقة ومزارع الرمان والفستق ومناظر الأشجار التبريزية المتراصة وتنقُّل قوافل القبائل الرحل خلال فصول العام المختلفة والليالي الحافلة بالنجوم المتلألئة والصخور والجبال الشامخة والمنحدرات والمرتفعات اللامتناهية والجبال البركانية الخامدة والمغطاة بالجليد والغابات الكثيفة المتنزّهات الغنّاء وسلسلة جبال البرز الشامخة وسواحل مازندران كلها تشكل لوحات جمالية متنوعة عن طبيعة إيران الخلابة.

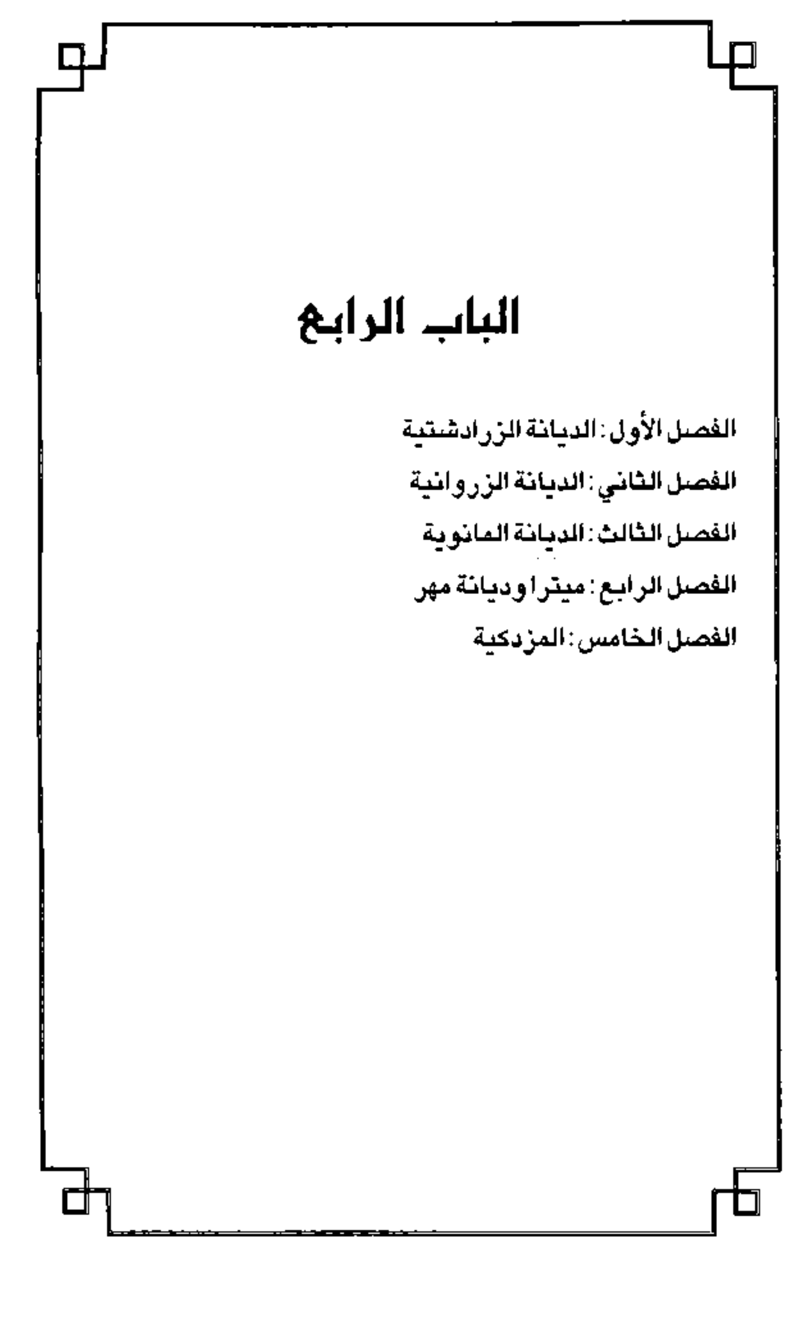
تتغير مناظر السهول والمرتفعات الإيرانية خلال فصول العام المختلفة فتارة تغطيها الرمال والحصى وتارة تجري فيها السيول وتارة يكسوها الجليد

أو الرواسب الطينية وأحياناً تكتسي برداء من الزهور والورود والنباتات الخضراء وغالباً ما يجسّد الفنانون الإيرانيون طبيعة إيران الخلابة في أعمالهم الفنية رمزاً ومظهراً لجمال الكون والوجود.

يقدر الإيرانيون قيمة وأهمية الماء دائماً ويعتبرونه مصدراً للحياة والإعمار وتجري المياه في المزارع والمراعي والحدائق والمتنزّهات والمساجد والأماكن المقدسة والبيوت والقصور بصورة دائمة لتسقي الكثير من الأشجار والنباتات وخاصة أشجار السرو والحمضيات والكروم والصنوبر والنخيل في خوزستان وغيرها. كما وتشكل الطبيعة الخلابة وأراضيها الشاسعة أحد أهم العوامل المساعدة للاستقطاب السياحي فمن ضمن ملايين الهكتارات التي تشكل اليابسة الإيرانية هنالك ١٩مليون هكتار من المزارع والبساتين و١٠ملايين هكتار من السهول والمراعي الخضراء و١٩مليون هكتار من الغابات الجميلة المختلفة والباقي عبارة عن أراضٍ جرداء ومناطق صخرية وصحراوية. ومن الخصائص المهمّة للأراضي الإيرانية الشاسعة والتي لها قيمة كبيرة جداً، وجود السلاسل الجبلية الشامخة التي تناطح السحاب وكذلك السهول والمراعي المنبسطة والمناطق الصحراوية والأنهار الجارية والبحيرات المتنوعة بحيث يمكن الاستمتاع بأحد الفصول الأربعة دائماً في أرجائها فهي تجمع الفصول الأربعة في آن واحد ففي فصل الشتاء يمكن الاستمتاع بأنواع الرياضة البحرية مثل السباحة والتزحلق على الماء في بحر هادئ وممتع في المناطق الجنوبية من البلاد وفي الوقت نفسه الاستمتاع بأنواع الرياضة الشتوية مثل التزحلق على الجليد في المناطق الجبلية في شمال وغرب البلاد. أمّا في الكثير من المدن الساحلية لبحر مازندران فيمكن التمتّع بجوٍّ ربيعيّ ونسيم عليل؛ فسواحلنا على بحر مازندران ترسم شريطاً ساحلياً في منتهى الجمال والجاذبية يمتد بين بحر مازندران وسلسلة جبال مليئة بالغابات الخضراء.

أما سواحل الخليج الفارسي فبعض مناطقها صخرية وبعضها الآخر رملية ورخوة. محافظات إيران الجنوبية وخاصة خوزستان التي تعتبر جزءاً من سهول بين النهرين الشاسعة وامتداداً لها منبسطة وعارية من التضاريس وعلى ارتفاع قليل عن سطح البحر. أما إذا قام أحد السّواح بالتجول في المناطق الجبلية من شمال وغرب إيران سيشرف على المدن والقرى والمزارع والبساتين والمناظر الطبيعية الخلابة والتي ستثير إعجابه وانبهاره. إنّ ارتفاع الهضبة الإيرانية الكبيرة عن سطح البحر ووجود أغلب المدن الإيرانية على ارتفاع أكثر من ألف متر عن سطح البحر يشكل أحد أهم الخصائص للأراضي الإيرانية فسلسلة جبال البرز الشاهقة في الشمال وجبال زاكرس في الغرب والسلاسل الجبلية الممتدة من خراسان وحتى بلوشتان في الشرق تحاصر الأراضي الإيرانية من ثلاثة محاور.

إذاً، لقد تطورت الحياة في إيران وأصبحت بلداً سياحياً راقياً يقصده الناس من جميع أقطار العالم وها نحن نرى العالم يُعجب بثقافتها وحضارتها وأديانها ولغتها.



الباب الرابع

الفصل الأول

الديانة الزرادشتية

أ. لمحة تاريخية.

ب. حياة زرادشت.

ج. كتب الزرادشتية.

د. الطقوس في الديانة الزرادشتية.

هـ. الأعياد عند الزرادشتية.

و. الأخلاق في الزرادشتية.

ز. الزكاة عند زرادشت.

ح. حرمة الصيام عند زرادشت.

ط. علاقة الميترائية والزرادشتية.

أ. لمحة تاريخية

الزرادشتية نسبة لمؤسسها في القرن السادس قبل الميلاد زرادشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب الملك وتسمى المجوسية لأن قبيلة المجوس من سكان بلاد فارس في زمن زرادشت وهي من أوائل من آمن بهذه الدعوة فانطبع اسمها عليها، لذلك يقال لهذه الديانة زرادشتية أو مجوسية.

والزرادشتية في الديانات الحيّة ورغم نشأتها الفارسية تاريخياً إلا أن انتشارها اليوم في أكثر من بلد وحسب تصريحِ حديث العهد نسبياً للمرجع الأعلى للطائفة الزرادشتية في إيران، السيد رستم شهرزادي فإن عدد أتباع هذه الديانة يزيدون على ثلاثماية ألف ويبلغ عدد أبناء الطائفة الزرادشتية (المجوسية) في إيران واحداً وتسعين ألف نسمة، حالياً موزعين بشكلٍ رئيسي على مدن طهران وكرمان وأصفهان وشيراز، وهناك أعداد قليلة تسكن بعض المدن الإيرانية الأخرى... والإحصاءات تشير إلى أن هناك حوالي مئة ألف في الهند وخمسين ألفاً في الباكستان وخمسين ألفاً في دول أوروبا وعشرين ألفاً في أميركا، وعشرين ألفاً آخر في إفريقيا الجنوبية»، أمّا اليوم فإن العدد الحقيقي للزرادشتيين غير معلوم وحالهم كسائر الأقليّات الدينية حيث قد يخفي بعضهم انتماءه الديني، أو قد تقلل الحكومات أحياناً من عدد طائفتهم لذلك وبصرف النظر عن الأرقام فإنّ الزرادشتية موجودة ولها أتباعها كما أن لمعتقداتها ومفاهيمها الدينية آثاراً في مذاهب وطوائف أخرى. ويبدو أنّ الزرادشتية دخلت الهند في القرن الثامن للميلاد،

ومنذ حوالي سنة ١٦٤٠ م. تمركز معظم الزرادشتيين الهنود في بومباي وهكذا تكون الهند الموطن الثاني للزرادشتية بعد إيران وعددهم في الهند يفوق عددهم في إيران، وعلى عادة الأقليات تجدهم يعملون في قطاعات مهنية مؤثرة، فمعظم زرادشتيي بومباي رجال أعمال ومصرفيون وتجار. ويتمتّع الزرادشتيون في إيران بقدر واسع من الحرية وحقّ المشاركة في الحياة السياسية خاصة بعد الثورة، ويعود السبب الرئيسي لقلّة عدد أفراد هذه الطائفة، إغلاقها باب الدعوة، حيث لا يدخل في عِداد أتباعها أشخاص من معتقدات أخرى أعلنوا عن رغبتهم في ذلك وقد أكدّ على هذه المسألة زعيمهم الروحي الذي تحدث عن هذا الموضوع قائلاً: **«السبب في ذلك هو أنّنا لسنا كالأديان نقبل بانتماء الآخرين إلى ديانتنا، فالديانة الزرادشتية لا تقبل بانضمام أي فرد آخر إليها ما لم يكن من أبوين مجوسيين وهذه القاعدة نعمل بها وعمل بها معظم زعمائنا الدينيين منذ الفتح الإسلامي لإيران قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام».**

ب. حياة زرادشت

المؤسّس هو زرادشت بن يورشب وأبوه كان من أذربيجان وأمه من الريّ وتدعى دغدوية. قال المسعودي: «**والأشهر من نسبه أنه زرادشت بن أسبيمان وهو نبيّ المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس واسمه عند المجوس: بستاه... ثم عمل زرادشت تفسيراً عند عجزهم عن فهمه وسمّوا التفسير زندا ثم عمل للتفسير تفسيراً وسماه بازند**»[1].

وفي هذا السياق أيضاً قال ابن الأثير: «**أمّا المجوس فيزعمون أن أصله من أذربيجان وأنّه نزل على الملك من سقف إيوانه وبيده كرة من نار يلعب بها ولا تحرقه، وكل من أخذها من يده لم تحرقه، أنّه اتبعه الملك ودان بدينه وبنى بيوت النيران التي هي بيوت عباداتهم من تلك إلى الآن**»[2].

هذا وتؤكد المصادر أنّ المجوس يؤمنون بإله واحد ألا وهو الذي خلق مزدا أو أهورامزدا ويقولون إنه: «**إله النور والسماء وإن غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته**». ويعني اسم زرادشت ***Zarathushtra*** الكلمة الإنكليزية ***Zoroaster*** وهي مشتقة من المصطلح الذي استخدمه الإغريقيون القدامى شيئاً يشبه «**سائس الجمل**» وهو الأمر الذي يعطي نبذة عن الرجل ونوع المجتمع الذي

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ص:١٥٠.

(٢) ابن الأثير، نقلاً عن جيلاني، سعيد، تطور الديانات، ص:٥١.

عاش فيه. هناك عدّة قصص تُروى عمّا حدث عقب ولادة زرادشت تقول إحدى هذه القصص، إنّه عندما ولد الصبي بدأ «**دوران سرون**» كبير سحرة إيران ونائب الملك في المقاطعة يرتعد خوفاً، لأنّه عرف أن طفلاً قد ولد وأنه عندما يكبر وينمو فسوف يقضي على السحر وعلى عبادة الأصنام ويطرد السحرة والكهّان جميعاً من البلاد.

وأرسل «**دوران سرون**» ثلاثة من سحرته لإحضار زرادشت إليه في معبد النار، وفي أثناء ذلك أعدّ «**دوران سرون**» ناراً على المذبح وعندما جيء بالطفل إليه وضعه وسط النار وانطلق خارجاً من المعبد هو وسحرته. وظنّ «**دوران سرون**» أنّ هذه هي نهاية زرادشت ولكنه كان مخطئاً فعندما عادت أم الطفل إلى البيت ولم تجد ولدها انطلقت إلى معبد النار لتصلي وتدعو الآلهة أن ترده إليها وهناك على المذبح وجدت الأم طفلها يلعب في ابتهاج وسط اللهب كما لو كان يعبث في حمام دافئ.

وهكذا تأكد «**دوران سرون**» أن زرادشت ليس طفلاً عادياً فدبّر خطة جديدة واستدعى سحرته الثلاثة وأمرهم بإحضار الطفل زرادشت مرة أخرى ووضعه وسط الطريق العام حيث يمرّ قطيع كبير من الماشية وقد حمته البقرة من بقية القطيع إلى أن جاءت أمه حيث وجدته سليماً لم يلحقه أيّ أذى. هنا استبد الخوف بكبير السحرة وظلّ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ يدبر المؤامرة ثم قرّر في النهاية أن يسرق الطفل زرادشت ويضعه في وكرٍ للذئاب. وحدّث دوران سرون نفسه قائلاً: «**حتى إذا لم تقتله الذئاب فلا شكّ أنّه سيموت جوعاً**»[1].

ولكن الذئاب عندما عادت إلى وكرها أحسّت بأن أحداً ما بالداخل وعند اقترابها تسمرت فجأة في مكانها وعجزت عن التحرك. هذه واحدة من القصص الكثيرة التي تحدثت عن زرادشت عندما كان في المهد، وبالنظر إلى ما حدث

(١) نيبرك، أديان إيران القديمة، ص: ٢٥٠.

توقع أبوه وأمه مستقبلاً باهراً لولدهما زرادشت فقررا أن يعلماه أحسن تعليم في البلاد.

عند بلوغه السابعة عشرة من عمره أرسله والده ليدرس مع بورزين– كوروس الذي امتدت شهرته بالحكمة في جميع أنحاء إيران، وقد قضى معه زهاء ثمانية أعوام حيث لم تقتصر دراسته معه على العقيدة، بل تعدتها إلى الزراعة وتربية الماشية وعلاج المرضى. وبانتهاء أعوامه الثلاثة عاد زرادشت إلى موطنه وارتدى القميص المقدّس وتمنطق بالحزم وكان ذلك رمزاً لتعميده في عقيدة شعبه[1]. على أن زرادشت لم يكد يعود إلى موطنه وهو في حوالي الخامسة عشرة حتى غزا التورانيون إيران من الإقليم المجاور وتطوّع زرادشت الشاب على الفور للذهاب إلى ميدان القتال لتطبيق معرفته في معالجة المرضى والجرحى من الجنود.

وقد كرّس الشاب حياته ولمدة خمسة أعوام لذلك العمل النبيل الذي تطوّع للقيام به، وعندما عاد إلى موطنه طلب منه أبوه أن يتخلى عن عمله بين الناس وأن يتزوج ويستقر كصاحب أرضٍ وراعي ماشية. ولكن زرادشت لم يستجب لطلب أبيه سوى بالزواج من فتاة حسناء اسمها «**هافوية**» وهكذا استمر زرادشت في عمله في خدمة المرضى وعلاجهم في كلّ مكان[2]. واستمر زرادشت ولمدة عشرة أعوام يعمل بين الفقراء والمحتاجين ويبتكر وسائل جديدة للتخفيف من آلام ومعاناة الناس[3].

---

(١) عزيزي، محسن، الزرادشتية، ص:١٥.
(٢) نيرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٧١.
(٣) ن.م.، ن.ص.

الأفستا *Avesk*:

عرّفه العرب باسم «**الأبستاق**» وهو كتاب الزرادشتيين المقدّس وقد تم تدوينه بحسب ما روي بعد القرن الخامس الميلادي وهو عبارة عن ملخّص للكتاب الذي دوّن في أيام زرادشت على عهد الملك «**فشتاسبا** *Vishtaspa*» إذ تبالغ الروايات حول حجم الكتاب فيذكر مؤرخو العرب أنّ النص الكامل لهذا الكتاب دوّن ضمن اثني عشر ألف جلد من جلود البقر بعد صباغتها. وهناك روايات تشير إلى أن «**فشتاسبا**» كتب نسختين منه الأولى التهمتها النار عندما أحرق الإسكندر المقدوني القصر الملكي في العاصمة برسوبولس. أمّا النسخة الثانية فحملت إلى بلاد اليونان حيث ترجمها اليونانيون إلى لغتهم. وقد باشر ملوك فارس في جمع ما تبقى من الأبستاق منذ القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثالث أمر الملك «**ڤلجيس الخامس**» بجمع كل ما تبقى منه في صدور المؤمنين وتدوينها وذلك عندما أصبحت الزرادشتية دين الإمبراطورية الساسانية واتخذ الكتاب من يومها شكله الباقي إلى يومنا هذا وكلمة «**أبستاق**» مشتقة من الكلمة الآرية «**فيدا**» والتي تعني المعرفة أو الحكمة. ويمكن تقسيم ما تبقى من الأبستاق إلى خمسة أجزاء وهي:

١. «اليسنا (*Yasna*)»: أو يزنا ويعرف هذا القسم بكتاب الطقوس وتعني كلمة اليسنا العبادة أو التسبيح، وذلك بسبب احتوائه على خمسة وأربعين فصلاً من الطقوس والترانيم التي كان يرددها الكهنة أثناء إقامة الشعائر الدينية.

٢. جاثا *(Gathas)*: أو «جتا» وهو يتألف من سبعة وعشرين فصلاً ويتضمن أقوال وأناشيد زرادشت وترانيمه وجاءت صياغتها على نحوٍ موزون وتصلح للإنشاد.

٣. الـ يشت (*Yashtas*): أو (اليشتا) وهي واحد وعشرون نشيداً في مدح الملائكة المشرفين على أيام الشهر ويعرض آخرها نبوءة عن نهاية العالم.

٤. الـ ونديداد (*Windidad*): وهي تعني القانون المعبد للشياطين وهو يتألف من اثنين وعشرين فصلاً تتناول قضايا فقهية وقوانين أخلاقية. هذا وتهتم جماعة البارسيين اهتماماً كبيراً بهذا القسم.

٥. الـ وسپرد (*Vispard*): وهو يتألف من أربعة وعشرين فصلاً تتعلق جميعها بالطقوس الدينية. وقد نشأت في القرن التاسع جماعة مناهضة للإسلام والمسيحية وضعت شروحات جديدة على الديانة الزرادشتية أطلقت عليها اسم «**ديانة الخير**» وتعرف هذه الشروحات بـ «**المصادر البهلوية**» وأهمّ المصادر البهلوية كتابان الأول يسمى «**بنداهشن**» ويتناول مسائل تتعلق بأصل الكون، والثاني يسمى «**دنكارت**» وهو دائرة معارف لمأثورات دينية.

أمّا الشاهنامة وهي ملحمة الفرس التي ألفها الفردوسي ففيها بالإضافة إلى أخبار نشأة الامبراطورية ودسائس ملوكها وانتصاراتهم حتى عهد كِسرى أنوشروان أخبار عن عادات الفرس وتقاليدهم وطقوسهم الدينية في جميع المراحل الإمبراطورية وعهودها.

فرض زرادشت على أتباعه أداء الصلاة خمس مرّات من قبل الآريين واحدة عند الفجر وأخرى عند منتصف الليل. وكان يتوجب على المؤمن بالإله مازدا أن يؤدي صلاته دوماً في وضعية الوقوف بوجود النار إمّا الشمس أو النار المقدسة. كما كان يجب على المصلين أن يربطوا الحبل المقدس الآري القديم حول خصورهم ويفكوه عند كلّ صلاة، وقد وسّع زرادشت هذه العادة التي كانت تخصّ الذكور وحدهم لتشمل النساء أيضاً ومن بين الطقوس أيضاً أنه يجب أن يكون في كل عائلة زرادشتية شخص يتولّى مسؤولية الحفاظ على النار المقدّسة لكي لا تنطفئ أبداً وكانت هذه هي الدلالة الأكثر خوفاً على وجود الزرادشتيين بالنسبة للمراقبين الغرباء مثل الإغريقيين القدماء. فقد كان مفروضاً على الزرادشتيين أن يظهروا الاحترام والتقدير لكلّ أصناف المخلوقات الطبيعية وأن يسعوا بكلّ جهدهم للمحافظة على نقائها لأنّ كلّ شيء في الطبيعة يحيا بروح الـ (*Mainyu*) الخاصة. وكان يتوجّب عليهم أيضاً حماية المصادر المائية بكلّ أمانة إلى جانب الحفاظ على طهارة التراب أيضاً، وقد تخلّى الزرادشتيون عن عادة دفن الموتى وأصبحوا يعرضونها في بروج الصّمت تاركين للنسور الجارحة مهمة تنظيفها وللشمس مهمة تطهيرها.

أمّا فيما يتعلق بالكهنة فكانت طقوسهم معقّدة حيث كان يتوجب عليهم ترتيل المقاطع الشعرية السبعة عشرة كلّها كلّ صباح إلى جانب نسخة معدلة من الياسنا القديمة الخاصة بطقس التضحية مستخدمين الحيوانات والمادة المسببة للهلوسة المعروفة باسم ***haoma*** معاً[1]. وقد كان الكهنة السابقون يرتجلون الكلمات الخاصة بالتضحية ضمن نماذج معينة. وقد أسّس زرادشت طقساً ثابتاً يدعى الياسنا ***haptanhaiti*** أو عبادة المراحل السبع. يبدأ الكاهن ومن خلال الطقس الرسمي بتقديم التبجيل للإله مازدا إلى جانب أربع من الأرواح الست الصالحة الأخرى وتدعى (الخالدون الكرماء)، والتي يُعتقد بأنّها تنبعث من زرادشت: ***Asha*** الحقيقة والعقل الصالح والسلطان والعبادة والطاعة[2]. أمّا الروحان الأخريان اللتان تضمهما هذه المجموعة الإلهية السباعية الصحة والكمال الخلود فهما غير مشمولين لسبب ما في عبادة المراحل السبع.

---

(١) راجع: نيبرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٨٠.

(٢) ن.م.، ص:٢٨٤.

هـ. الأعياد عند الزرادشتية

من بين الأعياد الأكثر أهمية هو العيد الديني في التقويم الزرادشتي وهو يوم الاعتدال الربيعي الذي يمثل بداية العام الجديد وتدعى هذه المناسبة نوروز(*Noruz*) ويعني اليوم الجديد، وما يزال الإيرانيون لغاية اليوم يحتفلون بها وقد اتسعت رمزية هذا العيد الديني في الزرادشتية لتشمل ليس فقط انبعاث الحياة في كلّ ربيع بل لتتوقع بالمستقبل المجيد الذي يعتبر هذا العيد السنوي من أكثر المناسبات ابتهاجاً عند الإيرانيين. وتعرف الأفيستا الحديثة ستة أعياد دينية أخرى وهي مرتبطة بالسنة الزراعية وهي تشكل مع النوروز سبعة أعياد دينية، وقد كانت هذه الأيام السبعة تعكس المظاهر السبعة للربوبية ممثلة في ***Ahura Mazola*** و***Amesha Spentas*** بالإضافة إلى المراحل السبع لعملية الخلق الأولى، وكان الزرادشتيون يعتبرون عدم الاحتفال بهذه الأعياد الدينية السبعة بمثابة خطيئة يعاقبون عليها. نشير هنا إلى أنّ الزرادشتيين أخذوا عن الأقوام السابقة عدداً من الاحتفالات القديمة وأجروا عليها بعض التعديلات مثل عيد النيروز ولكن النتيجة كانت غير لائقة نوعاً ما في بعض الأحيان كما هو الحال مع عيد كل الأرواح السنوي الذي يجري في الليلة الأخيرة من السنة ويعود أصل هذا العيد إلى الهندي الأوروبي وهو يشترك في النسب مع عيد ***Halloween*** (عيد جميع القديسين) في التقليد الأنغلو أميركي. ويوجد دلائل أخرى في ال «***Yashts***» من

الأمنيستا الحديثة على الاستمرار في إقامة الطقوس الدينية بناءً على مطالب شعبية والـ «*Yashts*» هذه هي صلوات ابتدعها الكهنة الزرادشتيون موجهة إلى مجموعة الأرواح (*Mainyus*) بأكملها. حيث كانوا يكسبون من ورائها رزقهم من خلال إقامة طقوس معينة بناء على طلب بعض السادة من أجل النجاح أو الحصاد الجيّد وغيرها. وضع الكهنة الزرادشتيون مجموعة من التشريعات الخاصة بالطهارة دعيت *Viderdat* وتعني قوانين الشيطان وهي تحوي على إرشادات موسعة ومفصلة حول المحافظة على طهارة الأرض والنار والماء وهي تأمر بعقوبة الموت على أي شخص يلوّث ناراً مقدسة وتؤيد قتل المخلوقات التي كان يعتقد بأنها شيطانية مثل الحشرات والعقارب والأفاعي والتي تعرف باسم *Khrafstra* حيث كانوا يعتقدون بأنها تنفذ الأعمال الشريرة للروح العدائية[1].

(١) نيبرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٨٢.

و. الأخلاق في الزرادشتية

تدعو الديانة الزرادشتية إلى المرح والاستمتاع وهي تضفي بدورها على حياة الإنسان المعاني السامية وتكسوه برداء الكرامة على نحو لم تشهده الديانات الأخرى فهي من جهة تعد بانتصار إله النور «**أهورامزدا**» على إله الظلمات «**أهريمان**» وكل الشرور والمآسي التي دفع بها «**أهريمان**» إلى ساحة الصراع ستزول بزواله حتماً. تشير الديانة الزرادشتية إلى أنّ النفس والبدن وحدة واحدة، فالمادة والارتباط بالمادة ليسا السبب في الوقوع بشرك الخطيئة بل السبب هو «**أهريمان**» وشروره. وترفض الديانة الزرادشتية النسك والزهد بالحياة وتعتبرهما خطيئة أكبر من خطيئة الانغماس في الشهوات، ثم إن الإنسان بحسب زرادشت ليس مجرد بيرقٍ يتحرك بغير إرادته ففي قدرته أن يختار بين طريق النور أو طريق الظلمات والكاذب في الحالة الثانية يكون خادماً مطيعاً لأهريمان. أما القوانين الأخلاقية فهي في غاية البساطة إذ يعتبر أن الطبيعة لا تكون خيِّرة إلا إذا منعت صاحبها أن يفعل بغيره ما ليس خيراً له هو نفسه. وقد ورد في الأبستاق أنّ على الإنسان ثلاثة واجبات وهي[1]:

١. أن يجعل العدو صديقاً.

٢. أن يجعل الخبيث طيباً.

---

(١) راجع: عزيزي، محسن، الزرادشتية ص:٣٥.

٣. أن يجعل الجاهل عالماً.

وهكذا يبدو أن القيم الأخلاقية عند الزرادشتيين هي في أساسها فعّالة وإيجابية فالعمل ملح الحياة ولكن خلق الشخصية لا يعبّر عنه فقط فيما يفعل المرء ويقوله رجلاً كان أو امرأة بل بأفكارهما ولا بدّ للناس أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة وأن يقهروا الجشع بالرضا، والغضب بالصفاء، والسكينة والحسد بالإحسان والصدقات والحاجة باليقظة، والنزاع بالسلام والكذب بالصدق».

ومن أعظم الفضائل الخلقية التقوى ويليها الشرف والأمانة قولاً وعملاً فقضاء الدين هو من الواجبات المقدّسة عند زرادشت فهو يرفض الربا، وطلب من الزرادشتي أن يكون محسناً يساعد الفقراء والمحتاجين وأن يواظب على الأعمال المفيدة كالزراعة وتربية الماشية. ويمثل زرادشت النموذج الأسمى للإنسان الفاضل وقد ذكر في الأبستاق وهو كتابه المقدّس: «**لن أقدم على سلب أو نهب ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر: وأُقرّ أني أعبد الإله الواحد أهورامزدا وأني أعتنق دين زرادشت وأقرّ أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطّيب والعمل الصالح**».

كما وسعى زرادشت إلى ترسيخ فكرته في أذان الناس والتي تتمحور حول أنّ الواحد عندما يقوم بعمل خير فإذا فعله هو لا يسجل في كتاب حياته فقط بل يضاف إلى خير العالم ويساعد أهورامزدا في كسب معركته ضدّ أهريمان روح الشر. هذا وشددت تعاليم زرادشت على ست خصال فاضلة وهي[1]:

١. طهارة الفكر والكلمة والعمل.

٢. النظافة والبعد عن كل ما هو نجس.

٣. الإحسان بالفعل والقلب.

---

(١) ن.م.، ص:٢٨٥.

٤. الرّفق بالحيوانات.

٥. القيام بالأعمال النافعة.

٦. تعليم من لم يتيسّر لهم التعليم.

إضافة إلى كل هذه التعاليم هناك واجب ديني مفروض على الزرادشتي وهو أن تكون له زوجة وأطفال لأنّه بذلك يسهم في زيادة أتباع الخير وينمّي عدد المؤمنين بالأفعال المقدسة والعبادات في الديانة الزرادشتية.

تعددت آراء علماء الأديان والمؤرخين والمفسّرين حول زرادشت وما دعا إليه، وهل هذا عائد إلى مصدر الوحي أم عائد إلى نتاجه الفكري.

فالشهرستاني يرى أنّه كان موحداً لله تعالى[1]، أما ابن حزم «فيعتبر أن المجوس هم المصدقون بنبوة زرادشت والمكذّبون بنبوة موسى[2]».

أما العلاّمة محمد حسين الطباطبائي فقال: «**والمجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرادشت وكتابهم المقدس (أفستا)**»[3].

وخلاصة القول: ما جاء به زرادشت من جديد في الديانة أنّه أنكر الوثنية وجعل الخير المحصن من صفات الله، ونزل بإله الشّر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى، وبشّر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال: بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه[4]. عندما دعا زرادشت قومه إلى التوحيد دخلت الريبة في تعاليمه خاصة عندما حدد للعالم أصلين أحدهما للخير وسماه «**أهورامزدا**» أي (أنا الموجود أنا الخالق) وآخر للشر وسمّاه «**أهريمان**» وزعم

---

(١) الملل والنحل ج١ ص١١٥ مطبعة الحيدري بمبي الهند ١٣١٤هـ.

(٢) ن.م.، ن.ص.نقلاً عن ابن حزم الأندلسي.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص:٣٥٨.

(٤) محمود، عباس، موسوعة العقائد الاسلامية في التوحيد والأنبياء، ج١، ص:٧.

أنهما في صراع دائم، وهذا التقسيم هو مدعاة للتنويه إلا أنّ المتتبع لما دعا إليه في صلواته وأدعيته يدخله في مصاف المصلحين.

كفر زرادشت بآلهة قدامى الإيرانيين فلم ينطق بأسمائهم ولم يلجأ أو يتضرع إليهم بل أنكر عليهم عبادتهم لمظاهر الطبيعة (الماء – الهواء – التراب)..

وجعل زرادشت للنار قدسية كرمز للطهر والسموّ الربّاني وأمر أتباعه بالمحافظة عليها كي تبقى متّقدة ومشتعلة وكانوا يأتون خمس مرّات في اليوم ليوقدوها من خشب الصندل لكي لاتنطفئ أبداً[1].

وفي الصلاة عند الزرادشتيين دعاء إلى (أهورامزدا) في كل مناسبة تستلزم ذلك وأبرز مثال على ذلك دعاؤه المأثور: «**أرجو منك أيّها الرّب الخالق المطلق القدير أن تغفر لي ما ارتكبت من سيئات وما دار بخلدي من تفكير سيما وما صدر عني من قول أو عمل غير صالح، إلهي إنني أرجو منك أن تباعد بيني وبين الخطايا حتى أحشر يوم الدين مع الأطهار والأخيار**»[2].

---

(١) نيبرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٨٨.

(٢) زرادشت الحكيم د. حامد عبد القادر ص٩١-٩٢.

ز. الزكاة عند الزرادشتية

لم يفرض زرادشت على أتباعه زكاة محددة بل ترك لهم حرية الاختيار وذلك لبث روح التعاون والتآلف الاجتماعي فيما بينهم، وقد نبذ في مجتمعه الفقر والعوز ودعا الجميع لمساعدة الفقراء والمساكين وتقديم الأعمال النافعة أو المواد المفيدة للناس تكفيراً عن أخطائهم مثل إعطاء رجال الدين من الأسباب لإنجاز وظائفهم وإعطائهم الأدوات الزراعية كما دعا إلى إعطاء المحاربين ما ينقصهم من أنواع السلاح.

م. حرمة الصيام عند زرادشت

حرّم زرادشت الصيام على أتباعه لأنّ ذلك يعيقهم عن الحركة والنشاط واهتمّ اهتماماً واسعاً بالزراعة واعتبرها عملاً وواجباً دينياً مقدساً لأنه يعطي الثمار والخير للناس إلا أنّ ماني بن فاتك الذي كان زرادشتياً وضع بعد وفاة زرادشت نظاماً صارماً وشاقاً للصيام ولم يخلُ دين من الصيام إلا دين زرادشت. وقد لقي زرادشت بعد وفاته تعظيماً وتبجيلاً من ناحية مرقده وكذلك المشاهد التي عاش فيها، فحجّوا إليه متضرعين مبتهلين ولكن بمرور الزمن انتفت هذه الشعائر مع ظهور الديانات السماوية. هذا وقد تأثرت الزرادشتية بالديانتين اليهودية والمسيحية في صورة الابتهالات وتقديم البركات كما أخذ الزرادشتيون عن اليهود والمسيحيين بعض حركات الركوع والسجود، ولكن تلك التأثيرات تجلّت بصورة أوضح في البحوث المتصلة بالملائكة والشيطان حيث نجد تشابهاً بين الملائكة السبعة عند الزرادشتية[1].

---

(١) نيبرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٨٩.

ط. الأخمينيون والزرادشتية

الميديون هم مجموعة من الإيرانيين الغربيين الذين سكنوا في المنطقة الوسطى الشمالية من إيران، ومن المرجّح أن يكون الكهنة الميديون قد تبنوا نوعاً من الشعائر الزرادشتية التي انتقلت إليهم من الشرق مع حلول القرن الثامن قبل الميلاد، هذا وقد حصلت مواجهة بين القوى الميدية وبين مجموعة إيرانية من سكان المنطقة الجنوبية من بلاد فارس وفي العام ٥٤٩ق.م. تمكّن سيروس العظيم من بسط سيطرته ونفوذه على النجد الإيراني وبلاد الرافدين حيث أسّس أمبراطورية الإخمينيين.

تشير الروايات إلى أنّ المصادر الإخمينية عبارة عن نقوش مسمارية كُتبت بلغة إيرانية غربية تعرف باسم الفارسية القديمة التي تنحدر منها اللغة الفارسية الحديثة. وهذه النقوش بدورها عبارة عن مراسيم وتصريحات ملكية والتماسات وبالرغم من محدوديتها فهي لم تأت على ذكر زرادشت أبداً لكنها ذكرت الإله مازدا والدين الذي يعبده كوسيلة إيديولوجية لتدعيم شرعية فتوحاتهم. كما أنّها تذمّ الأعداء وخصوصاً القبائل الإيرانية الأخرى لعدم عبادتهم لمازدا، هذا ويفخر الإخمينيون بهدمهم لمعابد مخصصة لعبادة آلهة الشرّ.

لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ المصادر الإغريقية هي وحدها التي تقدم المعلومات بشكل مفصّل عن الدين في زمن الإخمينيين خاصة وأنّ الفرس

كانوا المنافسين الأهمّ للسلطة الإغريقية في منطقة الشرق الأوسط، ولقد اهتم الإغريقيون كثيراً بمعرفة ثقافة خصومهم وهذا ما دفع المسافرين اليونانيين إلى إيران أمثال هيرودوس ليجمعوا أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العدو. وممّا يلفت الانتباه في هذا السياق أن المصادر الإغريقية أتت على ذكر زرادشت ووصفه بأنه النبي الفارسي الأساسي.

ذكر هيرودوس بأن الفرس لم يبنوا معابد لآلهتهم بل على العكس كانوا يمارسون شعائرهم على قمم الجبال في كل أنحاء البلاد، واستمروا على حالهم هذا حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد حيث اكتسبوا عادة بناء المعابد المقدسة وهذا عائد إلى تأثرهم بجيرانهم البابليين والأقوام الأخرى في الشرق الأدنى[1].

كانت أشكال معظم هذه المعابد على شكل معابد النار على قمم الجبال فيما كان بعضها الآخر عبارة عن أبنية فاخرة يعطيها ويدعمها نخبة من القوم، وحتى اليوم يمكن للسائح في إيران أن يشاهد بقايا هذه الهياكل في كلّ مكان تقريباً.

وقد سعى الإغريق في تلك الفترة للهيمنة والسيطرة على الأراضي الوسطى الخصبة من الشرق الأدنى وتمّ لهم ذلك حيث قاد الإسكندر المقدوني جيشه إلى عاصمة الإخمينيين بيرسيبو ليس بالقرب من مدينة شيراز الحالية، وقد أحرقها كلها في العام ٣٣٢ق.م. وأدّى هذا الوضع إلى خضوع معظم الأراضي الإيرانية في سهل بلاد الرافدين إلى حدود الهند الشمالية الغربية وذلك لسيطرة الإغريق ونفوذ الثقافة الهيلينية.

وقد بنت الجيوش الإغريقية مدناً على غرار المدن السابقة المكمّلة بالمسارح والأسواق والمعابد التي تمجّد الآلهة اليونانية، وقد جرت العادة أن تبنى هذه

---

(١) نيبرك، أديان إيران القديمة، ص:٢٩١.

المدن العسكرية بجوار مدن موجودة سابقاً ممّا جعل الأراضي الإيرانية تبدو كقطعة فسيفساء مؤلفة من مدن توءمية.

وقد كشفت الحفريات في منطقة نهر أوكسوس- شمال أفغانستان اليوم- عن دلائل تشير إلى وجود تمازج ديني وثقافي إيراني إغريقي مثير للفضول، حيث تمّ الربط بين الآلهة الإغرقية والآلهة الإيرانية «زيوس مع أهورامازدا، أفروديت مع أناهيتا، وأبولو مع ميترا على سبيل المثال. وقد لجأ الإغريق والإيرانيون في بعض الأحيان إلى عبادة الآلهة الخاصة بكلٍّ منهم في أقسام منفصلة في نفس المعبد. وقد تطوّرت هذه العادة إلى تجسيد آلهة إيرانيين على الطريقة الإغريقية على قطع النقود مثلاً.

وتضمّ المواقع الإيرانية الإغريقية مزاراً لهرقل وفيريثراغنا معاً في منطقة بيهيستون، يعود تاريخه إلى العام ١٤٧ ق.م. ومعبداً في كردستان لأناهيتا وآرتميس معاً.

وفي النهاية تمكّنت قبيلة بارني ***Parni*** من الإطاحة بالحكّام الإغريق في إيران الذين يعرفون باسم سلالة سيلوسيد تيمّناً باسم أحد قادة الإسكندر العظيم. واستمر حكم البارثيين ما يقارب الأربعة قرون وإليهم يعود الفضل في إيقاف حركة توسّع الرومان باتجاه الشرق حيث كانوا يعمون أبصار الفرق العسكرية الرومانية بأعلامهم الحريرية اللامعة تحت أشعة الشمس ويدفعونهم للهجوم عن طريق قيام فرسانهم برشق السهام من فوق أكتافهم وهم يتظاهرون بالانسحاب من المعركة.

ترك البارثيون عدداً من الوثائق المكتوبة الخاصة بهم وإن كانت قليلة وهنا تكمن الصعوبة في عدم التمكّن من معرفة معتقداتهم وشعائرهم الدينية غير أنّ المتداول عنهم أنّهم كانوا يسمحون للشعوب المختلفة بالحرية المطلقة في ممارسة ما يحلو لهم من طقوس شريطة أن يلتزموا بدفع الضرائب.

ي. علاقة الميترائية بالزرادشتية

هي ديانة غامضة بحدّ ذاتها تقوم على فكرة صعود الروح إلى السماوات السبع ويُرمز إليها من خلال مرور المؤمن عبر سبع مراحل أثناء دخوله السّري في الدين. وقد أخذ هذا الدين شكله النهائي في آسيا الصغرى المتعددة الثقافات، ثم بعد ذلك في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية بحلول أواخر القرن الأول الميلادي. كما واعتقد البعض أن ميترا هو الإله المخلص وله ارتباط بالشمس. كان المؤمنون بالميترية يجتمعون في معبد يسمى ***Mithraeum*** من أجل استحضار ذكرى قبض ميترا على الثور البدائي وقتله كما تروي الأسطورة وهذا ما يذكرنا حتماً بطقس التضحية بالثور في الدين الإيراني القديم مع فارق أن هذا الأخير يُنسب إلى روح الشّر أهريمان في الزرادشتية. وهذه الديانة رغم اقتصارها على الذكور، كانت تشدد على تنمية روح الصداقة بين المؤمنين بها وخاصة الجنود منهم الذين كانوا يُنقلون إلى أماكن مختلفة. ازداد اضطهاد أتباع الميترية وبقية الديانات الوثنية الأخرى والجماعات المسيحية المنشقة ما عدا المغتربين الإيرانيين الذين فضلوا الانزواء بعيداً عن المجتمع حيث اعتُبروا صنفاً من الناس البدائيين الغريبي الأطوار والمثيرين للاهتمام رغم قلّة عددهم. بقيت بعض من جوانب الميترية في بعض الطوائف المنشقة في المرحلة الإسلامية وخاصة

اليزيديين وأهل الحق في كردستان. وقد حافظت على عقد أساسي سيُذكر ميترا على أنه إله العقود المجسّد يُحتفل به من خلال التضحية بأحد الثيران.

ك. الساسانية والزرادشتية

بعد خمسة قرون من سقوط الإخمينيين، تولّت السلالة الساسانية الحكم وذلك في العام ٢٢٤ م.

في بداية عهدها حافظت الإرادة الساسانية على السياسة الثقافية لأسلافها البارثيين حيث منحت الحرية الدينية لرعاياها أصحاب الانتماءات الدينية المتنوعة إلا أنّ الوضع تغير عندما بدأ الإمبراطور الساساني أردشير الأول مدعوماً من الكهنة المازديين بترسيخ سلطتهم الخاصة بإعطاء الأمر بتدمير التماثيل الدينية في كل أنحاء إيران وإحلال النار المقدسة بدلاً منها وأكثر النيران المقدسة أهمية هي التالية: ***AdurBurzen-Mehr*** في بارثيا و***AdurGushnaq*** في ميديا و***Adur Farnbag*** في بارس وجميعها كانت مشتعلة في زمن الإخمينيين لكن معابدها لم تشيد إلا في بداية الحقبة الساسانية.

أصدر أردشير أمراً بجمع التعاليم الدينية المنتشرة في كل أنحاء الإمبراطورية هادفاً من وراء ذلك إلى تأسيس دين خاص بالدولة وقد تكون هذه المبادرة مدعومة ومدفوعة من قبل الكهنة في البلاط الملكي.

وقد برزت دعوة بضرورة التخلي عن السياسات القديمة المتعلقة بفصل الدين عن الدولة إلى الملك أردشير. وقد وصف المسعودي الدين والحكم بشيء يشبه الأخوة عارضاً وجهة نظر الزورفانيين ***Zurranite*** التي تقول: إن أورمزد

وأهريمان كانا شقيقين ولدا من إله الزمن زورفان: «**الدين أساس الملك والملك حامي الدين، وأي شيء يفتقر إلى الأساس مصيره الفناء وأي شيء يفتقر إلى من يحميه مصيره الزوال**».

كما وتحدث عن الخطر المحدق بالكهنة المازديين والمتمثل بشخص (النبي) البابلي ماني مؤسس الديانة المانوية وهو الذي دفع المازديين إلى تبني هذه السياسة الجديدة، فماني الذي ولد وتربى في طائفة مسيحية شديدة التأثر باليهودية والغنوصية، أسس دينه الخاص وتمكّن في النهاية من جذب اهتمام بعض أفراد العائلة الملكية الساسانية إلى تعاليمه. أدخل نفوذ ماني الرعب إلى نفوس الكهنة المازديين ممّا حدا بالكاهن الرئيس (*Mobud*) في البلاط الملكي كردير إلى التآمر عليه، حيث نجح أخيراً في إقناع الإمبراطور بالقبض على ماني وإيداعه في السجن حيث وافته المنية بعد فترة قصيرة.

وقد حقد كردير على الدين المسيحي والأديان الأجنبية الأخرى التي تمارس شعائرها على الأراضي الإيرانية وحمل عليها بشدة مثل اليهودية والصابئة المندائية والبوذية والبراهماتية، وفي الختام تمكّن الكهنة المازديون بقيادة كردير من جعل دينهم الدين الرسمي للدولة الساسانية، وقد تمكنوا بنفوذهم هذا من أن يرسلوا ممثلين عنهم إلى مختلف أنحاء المملكة من أجل فرض السياسات الخاصة بدينهم.

في البداية بدت هذه السياسات وكأنها مرتكزة على طقوس أساسية ترتبط بالنار والشمس والقمر والماشية. ولكن وفي عهد شابور الثاني بدأ الكهنة بكتابة الصلوات والتعاليم التي انتقلت إليهم شفهياً منذ عصر زرادشت. من هنا كانت البداية الرسمية للمعتقدات والشعائر الزرادشتية المكتوبة ولكن الصعوبة كانت في معرفة الأصول الحقيقية لمعظم ما سيصبح بعدئذٍ متناً للأدب المقدس. إنّ المعتقدات التي برزت في الحقبة الساسانية كانت معتقدات جديدة كلياً مثل

رفع زورفان إله الزمن والقدر إلى منزلة الخالق الأصلي الذي وُلد منه الشقيقان إله الخير أورمازد وإله الشر أهرمان وفي بعض الأديان الإيرانية لا يكتفي زورفان بالاستيلاء على منزلة أهورامازدا ككائن أسمى بل يستولي أيضاً على النور والشمس.

ومن بين الطقوس الممارسة في الحقبة الساسانية والأكثر أهميّة صبّ الخمر الذي أتخذ شكلاً أكثر سمواً كما في القربان المقدس المسيحي، ومنذ القدم يكرر الأدب الفارسي الطقس الذي يُسكب فيه الخمر من أوعية ذات أشكال حيوانية في أكواب هلالية الشكل. وكان ينظر إلى الخمر على أنه يمثل ضوء الشمس، أحمر مثل ضوء الشمس عند الغروب، أو ناراً سائلة تمثّل القمر، فعندما تُملأ الأكواب بمادة الشمس فإنها بذلك تجسّد التحام الشمس بالقمر.

إنّ المواقف الرسمية من العادات والأعراف الدينية السائدة خلال القرون الثلاثة والنصف التالية من الحكم الساساني مرتبطة بمزاج الإمبراطور وتغيُّر الظروف السياسة وكان شابور الثاني في تلك الفترة أقل تسامحاً من غيره خاصة في الأمور المتعلقة بالدين فبناء على أحد النصوص الزرادشتية المتأخرة عقد شابور في بداية فترة حكمه مناظرة بين ممثلين عن الأديان المختلفة في مملكته تمخضت عن تكريس سيادة الكهنة المازديين على بقية الكهنة في المملكة. وقد قال شابور بحسب المؤرخين ذات مرّة: **«الآن، وبما أننا شهدنا الدين الصحيح، لن نتسامح مع كل من يدين بدين خاطئ، وسنكون متحمسين أكثر فأكثر»**.

تعرّضت السيادة الزرادشتية للتهديد عام ٥٣٠ م من قبل زعيم ديني يُدعى مزدك، فالسياسة المزدكية هدفت إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وهذا ما زاد من الهوّة بين طبقة النخبة بمن فيهم الزرادشتيين والشعب الفقير.

لقد بشّر مزدك بمذهب الشيوعية فأمر أتباعه بالمشاركة بثرواتهم بالتساوي وهذا ما أدّى فيما بعد إلى موجة من العصيان والعنف ولكن سرعان ما سيطر الحاكم الساساني على الوضع المتردي فألقى القبض على مزدك وأمر بإعدامه.

وهكذا انطمست معالم المزدكية عن الساحة ولكن أفكارهم ومعتقداتهم عادت للظهور من جديد في ثورات لاحقة من العصيان مثل ثورة باباك التي حدثت في القرن الثامن الميلادي.

الفصل الثاني

الديانة الزروانية

أ. لمحة تاريخية.

ب. العقيدة الزروانية.

ج. ارتباط الزروانية بالمانوية.

د. أثره في بقية الديانات.

أ. لمحة تاريخية

الديانة الزروانية هي من إحدى الديانات القديمة للإيرانيين، وقد ظهرت في عهد الساسانيين مجدداً بعد مرور آلاف السنين وانتشرت بصورة واسعة. وتقول هذه الديانة: إن زروان هو الرّب الكبير وخالق أهورامزدا وأهريمن (الشيطان). فقد ورد اسم زروان الى جانب الآلهة الأخرى في الأفستا لعدة مرات، وقد اعتبره ملائكة عصره الواسع والكبير. ففي أغلب الكتابات ترافق اسم زروان بصفات أكرانه (*Akrana*) الواسع وقد جاء في مينوخردبازند أنّه (زروان رزنك خداى) وجاء في الرسالة الفارسية لعلماء الإسلام أنه (زمان رزنك خداى). ويبدو من هذين الوصفين أنّهم لم يأخذوا بالحسبان بداية ونهاية للزمان، حيث اعتبر ثابتاً دائماً وبعبارة أخرى قديماً وخالداً. وفي زادسيرم في الفصل الأول من الفقرة الرابعة والعشرين، يعتبر زروان خالق أهورامزدا وعلى مستوى الآلهة الأخرى ويحظى بالدعاء، ولكنه كان قبل زرادشت يُعبد على أنّه خالق العالم فيقول مغان، قبل بدء الخليقة، وقبل تواجد السماء والأرض وأي من المخلوقات، كان هناك موجود حقيقي يسمى زروان (*Zarwan*). وكان زروان يعتبر ربّ الحظ والطالع والسعد. وقد عُبِد لمدة ألف عام، وقدّم القرابين حتى يرزق ابناً باسم أُزميزت (*Ormizt*) ليخلق الأرض والسماء وما بينهما. وحيث أنّه أمضى على هذا المنوال ألف عام دخل إلى قلبه الشّك، إن كان هذا القربان والعبادة والعناد سيثمر وسيرزق ابناً باسم أُزميزت؟. وبينما كان الشك يراود زروان، كانت أُزميزت حبلى بأورمزد وأهريمن (الشيطان). وحيث

اطلعت على التوءمين، قالت لنفسها: إنّ واحداً منهما سيمنح عند ولادته لقب ملك العالم. لقد اطلع أورمزد على هذا الفكر واطلع أهريمن على ما يفكر به زروان وعلى هذا الأساس فإنّ أهريمن بَقَرَ بطن أبيه ووقف أمامه.

فسأله زروان متعجباً: من أنت؟

ردّ أهريمن: أنا ابنك.

قال زروان: إنّ ابني يجب أن يكون لامعاً ويُشمّ منه رائحة طيّبة بينما أنت مظلم وتفوح منك رائحة كريهة.

خرج أورمزد بعد أن اطلع على القصة من بطن أبيه فوراً ووقف أمامه. وعندما رأى زروان ابنه لامعاً وذا رائحة طيّبة عرف أنّه ابنه الذي عبد وقدم القرابين من أجل أن يولد.

وقدّم له حفنة من الخشب المقدّس الذي كان بيده وقال: لقد قدّمت القرابين وما زلت أقدمها حتى الآن من أجل أن تولد، ومنذ الآن عليك أن تقدم القرابين من أجلي وأن تقدم فدية. في هذه الأثناء وقف أهريمن أمام زروان وقال: أنت تعهدّتَ بأن تمنح أيّاً منّا يولد قبل الثاني، مُلك العالم هذا. وحسب تعهدك يجب أن تمنحني الملكية. فخاطبه زروان بالقول: أيّها الموجود اللئيم، أمنحك تسعة آلاف عام من حكم العالم ولكن بعد ذلك سيكون حكم العالم على عاتق أورمزد وأوامره ستنفذ. بعد ذلك بدأ الخلق، فالذي كان يخلقه أورمزد كان جيّداً ومثمراً وكل ما كان يخلقه أهريمن كان قبيحاً ومضراً.

وجاء في رسالة علماء الإسلام حول دين زروان، (على الآخرين أن يعلموا بأنه من خلق العالم والنجوم ودوران الأفلاك والنور والظلام والخير والشّر والذي ظهر في العالم). ولكن في كتاب بهلوي فإن العالم قد خلق ومن الظاهر أنّ كل شيء مخلوق عدا (الزمان) وأنّ خلق الزمان يسمى زمانه فإنّ الزمان غير حادث وأن الأعلى والأسفل غير حادث ولكنه دائمي. فكل إنسان يجب أن يفكّر ويقول:

من أين أتى الزمان؟ والجواب لقد خلق أورمزد النار والماء إذ وصلا سويةً، وخلق منهما الزمان فكان خالقاً ورباً، وعلى هذا فإنّ أورمزد كان طاهراً ونوراً وذا رائحة طيبة وذا أعمال خيّرة وكان قادراً على كل خير، وحيث أنّه نظر من علٍ ومن٩٦٠ ألف فرسخ رأى أهريمن أسوَد وكبيراً ولئيماً وكان سيّئ الفعل، فتعجّب أورمزد وعرف بأنّه عدوه اللدود، وعندما رأى أورمزد عدوه، فكّر ملياً وقال بأنّ عليّ أن أقضي عليه...[1] وقد تحدث بلوتارخوس حول الدين الزرواني الذي هو أول دين للإيرانيين، قبل خمسة آلف عام من حرب طروادة، كانت جماعة من الناس تؤمن بإلهين وكانوا يعتقدون بأن أحد هذين الإلهين خالق للخير والآخر للشّر والأعمال المضرة[2].

وكانت جماعة ثانية وهي من الزرادشت تعتقد بأن الله هو خالق الخير والشيطان خالق الشّر. فزرادشت كان يعتبر إحدى القوتين هرمزد ***(Hormazes)*** والثاني شيطاناً[3] وكان يرى بأن هرمزد كان يشبه نوراً ساطعاً والشيطان يشبه الظلمة المطلقة، كما كان يعتقد بأن مهر[4] هو وسيط بين الاثنين. وقد علّم الناس بأن يقدموا النذور لهرمزد من أجل الكفّ البلاء والأضرار.

يقول بلوتارخوس: أن المغان الزروانيون يطحنون عشباً باسم ***Omoni*** داخل هاون أثناء إقامة مراسم دعاء أهريمن ويدعون للظلام. عندها يخلطون العشب المطحون مع دم الذئب، ويرشونه في منطقة نائية لا تصلها أشعة الشمس وحالكة الظلام. وهم يعتقدون بأن خالق الخير هو الذي يخلق الأعشاب الجيّدة وخالق الشّر وهو الشيطان يخلق مجموعة أخرى. كما أنّهم يعتبرون الحيوانات كالكلب

---

(١) روايات «داراب هرمز ديار» من روايات دستور بروز، ج٢، ص: ٦٣.

(٢) بلوتارخوس، إيزيس وأوزيريس، طبع منشورات عزيزي، ص:١٧.

(٣) ***Areimanios***

(٤) ***Mitres***

والطيور والقنفذ من خلق إله الخير، بينما الجرذ المائي من خلق الشيطان. كما كانوا يقولون بأن من يقتل أكبر قدر ممكن من حيوانات الشيطان سيكون هو الأسعد والأكثر خيراً على الأرض[1].

(١) بلوتارخوس، أيزيس وأوزيريس، ص:٢٥.

ب. العقيدة الزروانية

وتسود عقيدة بين أتباع زرواني ومن ضمنها أن هرمزد أو النور المطلق والشيطان أو الظلام الدامس هما في قتال وصراع دائمين. فهرمزد أو أورمزد خلق ستة آلهة تتصف بالخلق وذلك لتقدم له العون وهذه الآلهة تسمى: إله الخير وإله الصدق وإله القوة وإله العقل وإله النعمة والثروة وإله الفرح. وقد قام الشيطان بخلق مماثل إذ خلق ستة شياطين ليواجهوا الآلهة الستة. عندها بسط قدرته ثلاث مرات لتتوسع سلطته أكثر من الشمس وخلق النجوم، وجعل سيروس *(Sirus)* (شِعران يماني) والمقصود شِعرا بكسر الشين اسم النجمتين تسمى إحداها شِعرا شامي والأخرى شِعرا يماني، كما ويطلق عليهما شعرا الغميصاء وشعرا العبور. نجمة شعرا يماني تظهر في ليالي الصيف، وتسمى بالفارسية وخواهران ما يعني (الشقيقتان)، وهي أيضاً سيدة النجوم. ومنذ ذلك الحين خلق أربع وعشرين إلهاً أُخرَ وقد وصلوا إلى داخل بيضة الدجاجة وهكذا اختلط الخير والشّر كلّ منهما الآخر مع بعضهما في النهاية، فقد حان الوقت لكي يفنى الشيطان الذي خلق جميع الشرور، لكي تصبح الأرض المسطحة مليئة بالخير وتصير الحياة جميلة ويسعد كل سكان الأرض ويعيشوا بسلام ويتكلموا بلسان واحد.

وقد نقل «تيوبومبوس» بأنّ المغان كانوا يعتقدون بأنّ أحد الإلهين سيحكم ثلاثة آلاف عام متتالية والإله الآخر يذعن له. وفي الثلاثة آلاف عام التالية يتحارب

الإلهان ويحكمان سوية، ولكن في النهاية ينهار الشيطان الخبيث وينشغل الناس بالفرح ويستغنون عن الغذاء دون الحاجة إلى الظّل وأن إله الخير سيرتاح ولكن لفترةٍ محدودة[١].

وقبل أن نقوم بنقد وتحليل رواية بلوتارخوس، نشير إلى أنّ ما نقله تيوبومبوس هو شرح لدين زروان، وليس حول الدين الزرواني على اعتبار أنّه دين رئيسيّ ولم يتأثر بغيره.

إنّ ما قاله حول الدين الزرواني خليط من عناصر محددة من الدين الزرواني والدين المزدائي والزرادشتي والميترائي وعناصر أخرى نفذت إلى هذا الدين من بين النهرين وآسيا الصغرى.

ويصور بلوتارخوس بصورة واضحة ومحدّدة الخلقة بأسرها على أساس الفكر الزرواني والذي يؤمن بآثار فعل إلهين أو قوتين. وهو يضع أمام كلمة إيزد (الإله) كلمة ***Theos*** ويضع أمام كلمة ديد (الشيطان) ***Duimon*** وجاء اسم هذين الإلهين في أوست يزت (***Yazta***)ودئو(***Daeva***). فدايمون الذي يقف في مرتبة الإله مع خصائصه المبهمة وغير المعلومة وطبيعته الشريرة هو خالق القبح ولكنه قادر على أن يخلق موجودات خيّرة. ولكن من خصائص هذا المؤرخ، أنه يطرح قدرة وفعل قوتين تقفان وجهاً لوجه مع أنّهما في قطبين متضادين وأن الخليقة تأتي على أثر فعل هاتين القوتين. فالشيطان مثل الظلام والجهل وأورمزد مثل النور والضوء. إنّما النقطة التي تثير الانتباه هي الدور المتساوي لكلٍّ من هرمزد والشيطان من الخليقة ودعاء المؤمنين. فالخليقة صُنعت على يد كليهما وهما موضع تقدير واحترام، فهرمزد سبب خلق الخير والبركة وأهريمن سبب خلق الشيطان والمرض والشر. ولا يكون لأحدهما فضل على الآخر وهما متساويان في القوة وفي مجال العمل والخلق لأنهما توءمان.

---

(١) تيوبومبوس، فيليبي كل، الحضارات، ص:١٠١.

ج. ارتباط الزروانية بالمانوية

لم يكن الدين الزرواني معروفاً حتى الفترة الأخيرة كما يجب، ولم يكترث أحد به ولكن بعد العثور على النصوص المانوية ظهرت قيمة وأهمية هذا الدين للجميع، ففي دين ماني تحدث عن زروان بأنّه أعظم إله وأن هرمزد ابنه. وهكذا فإنّ مثل هذا الفكر يتبع الفكر الزرواني. ونتيجة للأبحاث والدراسات ظهر لنا بأن هناك جذور عظيمة لهذا الدين وقديمة وأكثر مما يتصور لدينا. وقد اعتمد الباحثون على أسطورة نسجت لزروان، ومؤدّاها أن أورمزد والشيطان أو سبنت مئتين يو ***Spent a،Main*** وأنكره مئين يو ***Angra ، Mainyu*** وهما جوهرتان قديمتان وقد خلقا نفسيهما وهما ولدان توءمان لزروان، وهؤلاء انتبهوا الى كاتاها. وقد جاء بأن قطعة كاتائية أتت من جوهرتين توءمين تمثلان الخير والشر. وقد انتبه أحد الباحثين في الأفستا وحلّل استنباطه إضافة إلى أسطورة زروان. فعلماء علم الكلام المزدائي قد أوجدوا الدين الزرواني وفتحوا بذلك طريقاً للتحليل والدراسة الميتافيزيقية للديانة المزدائية وقالوا بأن أهورامزدا والشيطان هما توءمان للإله الكبير أي زروان بيكرانه.

يعتقد يونكر **Yunker** بأن إثارة كاثاثي دليل على قدم هذا الفكر الذي كان في العصرين الأكادي والساساني وأنّ قضية رزوانيسم لم تكن جديدة بل إنها كانت عودة الى أصل قديم[١].

كما وإنه من المسلّم به أنّ الدين الزرواني كان معروفاً منذ العهود القديمة وحتى قبل زرادشت وكان واسعاً ومنتشراً، واعتبر بعض الباحثين بأن زروان هو نفسه«**برهما *Brahma* وكرونس *Kronos* وساتورن *Saturn***»[٢].

إن أقدم الباحثين والمؤرخين في هذا المجال والذين تحدثوا حول الديانة الزروانية هم تيودور دو موبسست ***Theodor-de-Mopsues*** وأيضاً أزنيك ***Eznik*** وهو راهب مسيحي عاش في القرن الخامس الميلادي، تحدث كثيراً عن الديانة الزروانية وفي جانبه تحدث عن الصراع بين أورمزد والشيطان وقد تحدث أزنيك كمتدين مسيحي وهو من المؤرخين الأرمن، عن الدين الزرواني وإلى جانب ذلك تحدث عن الصراع بين أورمزد والشيطان فقال:

«إنّ أهريمن (الشيطان) قدم إلى أورمزد لحضور احتفال، وحيث أن أورمزد شارك في ذلك الحفل واشترك للجلوس على المائدة، كان من الطبيعي أن يدخل أولاد أورمزد الذكور مع أولاد أهريمن الذكور في معركة، وقد قبل أهريمن ودخل أولاد العمومة في عراك وفي هذه المعركة تغلب أولاد أهريمن على أولاد أورمزد. وبحث أورمزد وأهريمن عن حَكَم ولكنهما لم يجدا شخصاً وفي هذه الأثناء خلقا الشمس من أجل أن تقوم بالتحكيم»[٣].

يعتقد النونيست بأن أورمزد دعا أخاه الى مأدبة، في هذا الاحتفال وطلب أهريمن الأخ الأصغر من أورمزد الدخول في صراع وقتال وفي هذا القتال هزم

---

(١) يونكر، معجم أسماء أفستا، ج ٢، ص:٦٣٥ـ٦٣٤.

(٢) يونكر، معجم أسماء أفستا،ج٢، ص:٦٨٢ و٦٣٤.

(3) E. ***Benvenite*** R.***Kent*** dd ***Persion Grammen***,vol. 75.1955 P. 175 F.

أورمزد ولهذا السبب بحثوا عن حَكَم لكي يحكم بينهما، فأورمزد تلقى في البداية بشرى النصر من أبيه، ولكنه اندحر من هذه المعركة وضعفت قوته ولهذا السبب طلب العون من الشمس، على أمل أن يحافظ على النور والضياء. وجاء في كتاب بندهشن (*Ron_daheshn*) في الفصل الأول الفقرة السابعة عشرة بأن: أورمزد اقترح على أهريمن الدخول في صلح وسلام، من جهة أخرى فإن روايات المانويين حول مسألة الخلق[١]، كانت تؤيد هذا الامر ويقول نيبرك إن مغان رجل الدين عاد قبل أن يتقبل دين زرادشت من قِبل أتباع الدين الزرواني. فهناك تشابه كبير بين الدين الزرواني والمانوية[٢].

ثيودوروس بار خوناي *Theodorus-barkhonoy* وهو من الكتّاب المسيحيين السريانيين وعاش في القرن الثامن الميلادي، كتب من كتاب يسمى سكوليا (*Seholia*) حول الأديان الإيرانية وهي جديرة بالاهتمام.

وينقل رواية يزيل اللبس عن رواية المعركة بين أورمزد والشيطان وكيفيتها ودور مهر ويُظهر مدى التضامن الكبير بين روايتي الخلقة في المذهب الزرواني ودين ماني. عندما نريد أن نهتم بنظرية نيبرك الذي يعتقد بأن رجال الدين المعروفين بالمغان كانوا قبل دين زرادشت زروانيين،

كما ونرى من هذا المبدأ وهو كيف انَّ أخشيج زرواني قد دخل الأديان الإيرانية الواحد تلو الآخر. وجاء في رواية ماني حول مسألة الخلق، أن جوهر الضياء وجوهر الظلمة، جوهر الضياء جميل وخيِّر وعالم وجوهر الظلام قبيح وسيىء وجاهل. فقد كانت حدود الضياء والنور في الشمال وليس لها نهاية وحدود الظلام كانت في الجنوب حيث كان يلتحق بحدود الضياء والنور. كان زروان ملك عالم النور، وقد كان يحكم عالماً من النور والضياء والصفاء والاستقرار.

---

(١) انتظامي، محمود: الديانة الزروانية المنسية، ص: ٣٠.

(٢) نيبرك: «أديان إيران القديمة» ص:٣٨٨.

في هذا العالم لم يكن الموت والمرض والتوتر والحروب فقط بل كان هناك أيضاً الخير والنور. وفي عالم الظلام وكان الشيطان الرجيم يحكم هذا العالم، فمملكة الحرص والطمع كانت مليئة بشياطين السوء والصراع والقتال[1].

هذان العنصران كانا يعيشان منفصلين، ففي يوم من الأيام نظر شيطان الظلام خلال تحركاته الشيطانية، إلى العالم وهو عالم الضياء والجمال والاستقامة وحدّق فيه، وأراد أن يحتل عالم النور وأن يسيطر على جوهر النور وقد هاجم مع مجموعة من الشياطين عالم النور،ولكنّ ملك العالم (زروان) لم يكن على استعداد للدخول في هذا الصراع والعراك، لذلك خلق إلهين آخرين، أحد هذين الإلهين كان هرمزد، إله الحرب أرسله من أجل طرد الشيطان. وقد اتخذ هرمزد من الماء والرياح والنار والنسيم والنور سلاحاً لحربه ضدّ الشيطان. وقد لبس الماء والرياح والنور والنسيم كما وجعل النار حربةً في يده وذهب إلى محاربة الشياطين. ولكن الشيطان كان قوياً وكان له أنصار كثر ولذلك انتصر في المعركة وهزم هرمزد. فالشيطان الحريص والطمّاع وأنصاره ابتلعوا العناصر النورانية الخمسة التي كانت أبناء هرمزد وكانت بمثابة سلاحه. وعندها هزم هرمزد فجلس مدهوشاً في قعر العالم المظلم دون أنصار، وبعد فترة قام فرأى نفسه أسيراً للشياطين دون أنصار أو أعوان. وقد أطلق هرمزد من قعر العالم صيحة وطلب العون من أمه التي كانت إلهة وخالقة زروان، فصيحة هرمزد التي انطلقت من قاعدة الشياطين، وصلت في فترة قصيرة الى عرش الآلهة ووصلت إلى أمه.

ذهبت أم هرمزد الى زروان وقالت له: يا ملك عالم النور، قدّم المساعدة لابني هرمزد الذي هُزم وهو الآن في أسر الشياطين ودون معين. عندها خلق زروان آلهة آخرين من عنده من أجل إطلاق هرمزد من الأسر. وقد أرسل مهرإيزد وهو من أقوى الآلهة إلى حدود عالم الظلمة من أجل إنقاذ هرمزد عندها نادى

(١) يونكر، معجم أسماء أفستا ص: ٦٥٠ـ٦٥٤.

«مهرايزد» «هرمزد» فلم يسمع جوابه، عندها خلق خمسة أولاد من أجل قتال الشياطين وكان من شجعهم وليسبود (*Wilsbod*). وقد حمل سلاحه وتوجه لقتال الشياطين تنفيذاً لأوامر مهرايزد وهزمهم وسحقهم بأرجله ونزع جلودهم عن أجسادهم وحبس الكثير من الشياطين في السماوات.

عندها قام «مهرايزد» ببناء عالمنا، وخلق أحد عشر سماءً من جلد الشياطين وخلق من لحومهم ثماني طبقات من الأرض وخلق الجبال من عظامهم. وقد أمر أحد أبنائه وهو «باهرك بود» ليجلس على السماوات ويأخذ زمامها بيديه حتى لا تتفلّت. وقال لأحد أبنائه وهو «مان بود» أنّ عليه أن يضع طبقات الأرض على كتفه حتى لا تنهار ومثلما قيل فإن مهرايزد الذي كان إله الخلق، حارب الشياطين وتغلب عليهم وهزمهم ودفع بلحومهم وجلودهم الى خالق العالم. هذه الرواية نقلت من إيران الى سومر وبابل والصين وإيسلندة، وأماكن أخرى وقد صنعت هناك روايات مشابهة لها وبموجب هذه الأساطير السومرية والبابلية فإن الإلهين الكبيرين ابتداءً، من أب سو(*APSU*) وتيامت(*Tiamet*) إضافة الى آلهة أخرى ولدت من هذين الإلهين، وحيث أن هذه الآلهة تسببت بغضب آب سو (أباهم) وتيامت (أمهم)، لذلك فإن آب سو وموم مو*Mummu* قررا القضاء على خالق الآلهة. وقد طرحوا وجهة نظرهم على تيامت، ولكنه عارض، لذلك تم الكشف عن خطة آب سو. وطرح آنا (*Ena*) وهو أحد الآلهة الذين يتسمون بالعقل فخططا وصنعا الدسائس والمؤامرات الى أن تمكنا من حبس آب سو وموم. عندها صنع آنا لنفسه عرشاً إلهياً من جثة آب سو ووضع التاج على رأسه وجلس مع زوجته دام كينا (*Damkina*) على العرش. وقد ولد من الالهين إله كبير باسم مرودخ (*Mardukh*) وأصبح من أكبر الآلهة وهو من حيث العينين والأذنين أشبه كثيراً بميترا الإيراني، ولم يكن قتل آب سو دون جزاء. حيث اطلع الآلهة على هذا الأمر وغضبوا كثيراً ومن بينهم الإله كين كو (*Kingo*) وتيامت على قتل آب سو

ومؤامرة آنا. وهذان الإلهان جهّزا جيشاً كبيراً مع الآلهة الأخرى حتى يقاتلوا آنا. عندها خاف وطلب من أبيه (إنشار *Aushar*) العون فقام إنشار بتقديم النصح له وعيّن ابنه مرودخ ملكاً. دخل مرودخ إلى ساحة المعركة وواجه كين كو وتيامت. وقد سخر الماء والرياح والنار والتربة واستخدمها كأدوات للحرب وقد انتصر بهذه الأسلحة على تيامت وقتل هذا الغول وصنع من لحمه وجلده ودمه وعظامه جميع المخلوقات.

وعندما هُزمت الشياطين على يد مهرايزد، خرجت الكثير من العناصر التي بلعها هرمزد خلال الحرب وأصبحوا أحراراً. وقد خلق مهرايزد نجوم السماء من هذه العناصر النورانية. وخلق دورة الشمس من النار ودورة القمر من الرياح والماء والنجوم الأخرى من النور الذي تضرر من آفة الشياطين. ولكن جميع الأنوار التي ابتلعتها الشياطين لم تتحرر، ومع أن الكثير منها قد تحرر ونجا ولكن قسماً آخر منها بقي في أسر الشياطين. إذاً لم يكن من الحكمة بمكان وضع النور في قلوب الشياطين بل كان يجب البحث عن حلٍّ آخر، ولهذا فقد تجهز كلّ من هرمزد ومهرإيزد وآلهة عالم النور وتوجهوا إلى زروان، طأطأ الجميع رؤوسهم عند عرشه وقالوا: «يا ملك عالم النور أيّها الذي خلقتنا من نورك العجيب وهزمت شيطان الطمع والشياطين والجنّيات على الدنيا وحبستهم، لا يزال النفع من جوهر النور قليلاً بسبب حبسه في سجن الشياطين، عليك أن تجد الوسيلة لكي تخلص جوهر النور من أسر الشياطين وأن يعود إلى عالمه. عندها خلق زروان للمرة الثالثة آلهة أخرى من عنده، وقد عيّن روشن مهرايزد وكان من الآلهة ليدير العالم. ومثلما كان زروان ملك العالم الأعلى فهو سيكون إلهاً وملكاً على الأرض والسماء والعالم كلّه، وعليه أن يجعل العالم مضيئاً وأن يخلق الليل والنهار وأن يدير ويحرك عجلات الشمس والقمر والنجوم ويقود جوهر النور الذي تخلّص تدريجياً من قبضة الشياطين نحو جنّة زروان. بعدها قام روشن مهرإيزد بتحريك

هذا العالم الذي صنعه مهرإيزد، وأدار عجلات الشمس والقمر والنجوم وبذلك خلق العالم الذي نحن فيه وتحرك وبدأ الحياة. ففي هذا العالم عندما تتخلص ذرّات النور من سجن الظلمات تتجمع في غرفة ضوئية، وحيث أنّ هذا النور يتوجه يوماً بعد يوم الى دورة القمر وتتجمع هناك وعلى هذا الأساس فإن القمر يكون في البداية هلالاً ويكبر يوماً بعد يوم ويصبح أكثر وأكبر حجماً، وعندما تكتمل دائرة القمر يقلّ حجمه يوماً بعد يوم حتى يختلي من النور ويختفي[1].

وعندما تتجمع ذرّات النور في الشمس تذهب في النهاية الى «**جنة النور**» وهو سكن زروان ويلتحقون بمسكنهم الأول. إن الشياطين والجنيّات التي هزمت على يد (وليس بود) ابن مهرإيزد، وتمّ حبسهم في السماوات، كانوا يخفون بعض عناصر النور داخلهم، ويلتحقون بمسكنهم الأول. وقد قام روشن مهرايزد بالتدبير من أجل إخراج ذرّات النور من وجودهم وأقدم على خلق موجودات أخرى من هذه الشياطين وقد أنبت من بذور الشياطين الذكور خمس شجيرات في الأرض ومن هذه الشجيرات الخمس نبتت جميع الأعشاب والأشجار وخَلق من بيوض الشيطانات خمس حيوانات، وخلق من هذه الحيوانات جميع حيوانات العالم منها الحيوانات ذات الرجلين والأربعة أرجل والطيور والزواحف والماء. وفي داخل كل عشب وحيوان تختفي شرارة من جوهر النور، ذلك النور الذي ابتلعته الشياطين بعد أن هزموا هرمزد والآن فإن وجودهم نقل إلى الأعشاب والحيوانات. هذا هو النور الذي ينعتق تدريجياً ويتجمّع في حزمة من نور ويذهب إلى القمر. إنّ دورة العالم تأتي من أجل أن يتم اخراج ذرّات النور تدريجياً من قلب الأعشاب والموجودات الأخرى. وإعادتها إلى بدايتها حيث تنظّم أمر العالم وتحركت العجلات، وأصدر (روشن مهرايزد) أمراً إلى أحد الآلهة ويعرف بالصانع الكبير، فمثلما صنع منزلاً لجمع النور الذي يتحرر من هذا العالم، فإنّ

---

(١) راجع: انتظامي، محمود: الديانة الزروانية المنسية، ص: ٤٥.

عليه أن يبني سجناً خارج طبقات السماء والأرض من أجل الشياطين والهدف من بناء هذا السجن هو عندما ينتهي العالم، وعندما يتخلّص جوهر النور من وجود الشياطين، تحبس الشياطين في هذا السجن ويُحرمون إلى الأبد من الوصول إلى عالم النور. وفي مثل هذا اليوم يترك (باهوك بد) الذي بيده زمام السماوات وتتلاشى السماوات. ويلقى (مان بد) الذي يضع طبقات الأرض على عاتقه عن كتفه عندما يحدث حريق كبير ويحترق العالم من النار ولا يبقى من العالم غير تل من الرماد. يقع الشياطين في الأسر ويتخلص جوهر النور من قبضة الظُلمة.

د. أثره في بقية الديانات

يشاهد بأن أنصار زروان كانوا يؤمنون بنوع من القيامة وهم يعتقدون بفناء العالم. كان دين زروان في زمان ما وحدّه، وبعد ذلك انتشر هذا الدين بين الآريين مع عبادة مهر ولكن بعد ظهور زرادشت وانتشار تعاليمه، انقرض دين زروان. ولكن بعد عهد الاشكانيين ظهر هذا الدين بحيث غطّى على دين زرادشت وقد تنافس رجال الدين الزروانيون مع رجال الدين الزرادشتيين وكانوا يقومون بالدعاية بعضهم ضدّ بعض.

كان ظهور دين زروان من أحد التجليات الفلسفية للدين الزرادشتي حيث بنى من العهد الاشكاني علم الكلام المزدائي. وكانت هذه محاولة لإدخال العناصر الفلسفية وكانت أولية الزمان والقدم قد تجلت في هيئة الرّب الكبير. إذ كان وجود إله واحد لازماً وواجباً، وأن يكون أزلياً وأبدياً، وأن لا يظهر نوع من الجسمانية وأن لا يكون له صفات وأعمال، وأن يكون له جميع صفات الألوهية، حتى يحظى بعناية واعتقاد الجميع، فهل يكون سوى زروان اكرن أي الزمان اللامتناهي؟

من جهة أخرى، فإنه من المنطقي أن تحل في مثل هذا التفكير قضية الخير والشّر، فالخير والشّر ولدا من بطن زروان وكان النصر حليف هذا تارة، وتارة

أخرى حليف ذاك، ولم يكن للزمان هدف مباشر في خلق أي منهما. هذه كانت فلسفة وخلق زروان ومعتقد الإيرانيين به في ذلك الوقت.

الفصل الثالث

الديانة المانوية

أ. الغنوصية.

ب. نشأة المانوية.

ج. حياة ماني.

د. مفاهيم ومعتقدات المانوية.

هـ. أعياد المانوية.

و. كتب ماني.

ز. نظرية ماني حول نشأة العالم.

ح. الميتافيزقاء المانوية.

ط. نهاية ماني.

أ. الغنوصية

بدأت الغنوصية بالظهور في منطقة شرق المتوسط قبل فترة قصيرة من ميلاد السيّد المسيح. وقد استخدم هذا المصطلح في ذلك الوقت لوصف حالة من التدين السرّي.لم تكن الغنوصية ديناً في جوهرها، بل كانت أقرب إلى مقاربة للدين ويمكن التعبير عنها من داخل كل المعتقدات الدينية المتنوعة. جاءت التسمية من الكلمة الإغريقية *gnosis*، التي تقابل الفعل عرف بالعربية، ولكن بمعنى المعرفة الحدسية وليست الإدراكية.ولد تشابه بين مفهوم الديانة المانوية والغنوصية من حيث أنّها تتميز بعدد من الأفكار والمدركات المتكررة بين الديانتين. ترى الغنوصية أنّ الكون قائم على ثنائية شاملة يرتبط فيها الخير بالروح والشّر بالمادة، ويرمز للروح بالنور وللمادة بالظلام، وترى أيضاً أنّ البشر هم في حالة متدنية يائسة، محتجزة في وجود مادي مدنّس ومثير للاشمئزاز. يسعى الغنوصيّ لتجاوز هذه الحالة من خلال أشكال من التطهير الذاتي، بغية الرجوع في نهاية المطاف إلى كينونته الروحية الأصلية، ومن المتّفق عليه عادة أنّ هذا الخلاص سيحظى به قلّة مختارة من الناس هم أولئك الذين يستطيعون إدراك الحقائق المستعصية على إدراك الكثيرين، ويكون طقس العماد جوهرياً في الغالب في الغنوصية، إذ إنّه يمثل أسلوباً من أساليب الدخول إلى عالم الغنوصية العميق وذلك في الرؤية الغنوصية للعالم، مما يمكّن من اكتشاف بقايا التأثيرات

الإغريقية والسامية والإيرانية بوضوح. ففي حين تذكرنا ثنائية الروح والمادة بالفكر الأفلاطوني، نجد أنّ ثنائية الخير والشّر رمزيتها الممثلة بالنور والظلام مستمدة من الدين الإيراني. كما أنّ عادة العماد وأفكارها المرتبطة بها وهي التطهير والتجدد والبصيرة المطلقة مغرقة في القدم، فقد وجدت عند المصريين القدماء، والإغريق، وآخرين غيرهم. إضافة إلى ذلك، يظهر علم الكونيات الغنوصي، إلى جانب الاهتمام العميق بعلميّ الفلك والأعداد تواصلاً مع المنظومات المعرفية لبابل العميقة»[1].

---

(١) راجع: شيحا، بسام: «الروحانية في أرض النبلاء»، ص:١٢٩.

ب. نشأة المانوية

نشأ الدين المانوي من بيئة هجينة غنيّة إلى درجة استثنائية في بلاد الرافدين وهذا الدين اعتبر لاحقاً من الأديان الأساسية الرئيسية في العالم ولقد عاش هذا الدين مدة تقارب الألف عام، إلا أنّه اختفى اليوم من العالم كلياً.

تعرض الدين المانوي «*Manichaeison*» لتشويه وربّما هو من أكثر الديانات التي تعرضت للتشويه في العالم، ولم يعرف هذا الدين إلا من خلال المقالات الهجومية التي كان يتعرض لها من قبل معارضيه ومعاديه مثل القديس أوغسطين في الإرث المسيحي، وعدد من المؤرخين وكتّاب سير الطوائف المنشقّة في الإرث الاسلامي، وقد قال عنه المؤلفون البيزنطيون على سبيل السخرية اسم «*Mania*» التي تعني الجنون في اللغة العربية، وهو عبارة عن تلاعب لفظي باسم «*Mani*» ماني التي تعني بالفارسية «**الفريد**». وحتى الصينيون نبذوا المانوية باعتبار أنّها تشجّع في ديانتها على أكل النباتات فاعتبروهم من النباتيين وهي صفة من صفات عبدة الشيطان.

تعود هذه الديانة إلى مؤسسها «**ماني بن فاتك**» أو «**مانيس**»، ولد في بابل عام ٢١٥ وقتله أحد ملوك الفرس في سنة ٢٧٥ بعد المسيح (بعد الميلاد)، كان متنسكاً صوفياً متشائماً لا يؤمن بانتصار الخير على الشر أبداً، ولا أمل عنده في إصلاح هذا الوجود، تأثر في بعض نواحي مذهبه بالزرادشتية، وفي البعض الآخر

بالميترائية القديمة وفي البعض الثالث بالديانة البراهمتية الأولى، وفي البعض الرابع بالمسيحية قبل وضع الكنيسة[1]. وقد حاول ماني إيجاد صلة بين ديانته وديانة «عيسى» أي المسيحية.

إذاً المانوية هي عبارة عن فرقة غنوصية مسيحية وقد كانت من أخطر البدع والهرطقات التي تعرّضت لها الديانة المسيحية وأطولها عمراً لأنّها استمرت من القرن الثالث حتى القرن الثالث عشر، وأهمّ أركانها قولها بالثنائية أي بإله النور والظلمة، وتوجد فيها من التعاليم المسيحية واليهودية والبوذية والزرادشتية، وكان انتشارها في آسيا الصغرى والهند والصين وبلاد البلقان وإيطاليا وفرنسا[2]، كما وانتشرت هذه الديانة في فارس وسوريا ومصر وافريقيا والهند والصين ويرجع ذلك الانتشار لما اتسم به معتنقو هذه الديانة من صرامة فى النظام والآداب كما اتسمت ديانتهم بالبساطة. إلّا أنّها هوجمت بعد ذلك في العصور المتقدمة ولا يزال نسل المانويين باقٍ إلى الآن في الجبال بين فارس والهند.

ظهرت المانوية في المدة الفاصلة بين ظهور المسيحية والإسلام، واستطاعت في مدّة وجيزة أن تنتشر وأن تكسب أنصاراً مخلصين متحمسين، وهي في الواقع مزيج من معتقدات الصابئة والبوذية والزرادشتية والمسيحية، وازدادت رقعة انتشارها بسبب أصولها العرفانية والإنسانية، وقد كانت المانوية مصدراً لإلهام بعض الحركات القومية.

والفكرة الأساسية في مذهبه تقول: بأنّ الكون قائم على مبدأين اثنين هما الخير والشر وهما أزليان أبديان متساويان في كل شيء ولا ينتصر أحدهما على الآخر. أعلن ماني دينه في العام ٢٤٠ م في أثناء تتويج شابور الأول، كان ماني

---

(١) غلاّب، محمد: الفلسفة الشرقية، دار بيبليون باريس ص:٢٠١.

(٢) الحفني، عبد المنعم: «المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية» مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٠م ص:٧٢

يعتقد أنّ الشّر موجود منذ الأزل، وأنّه في وسط الضوء ظلمة، ويجب على المانويين أن يغتسلوا ليتطهروا من خطاياهم، وقد اعتبر ماني أنّ جميع كتب التوراة والعهد القديم باطلة، وآمن بإنجيل بولس ووسائله.

إذاً هناك شبه بين المانوية والغنوصية من الناحية العرفانية في نظرتها إلى أصل الإنسان وهي تعدّ هرطقة من الهرطقات المسيحية من نظم التأملات الدينية التي تمثل الفداء وهذه المعرفة تهتم بفهم الأشياء المقدّسة وكيفية الخلاص، وقوام الخلاص هو تحرير الروح من سجنها الجسدي ولتحرير الروح من السجن الجسدي عليها أن ترتفع عن الجهل، ومقابل الجهل هناك المعرفة والمعرفة أي العلم تكمن في الابتعاد عن رغبات وشهوات النفس والجسد ذلك لأن التفكير الحتمي في تحقيق ما تمليه علينا شهوات الجسد ورغباته شرّ يؤدي بالإنسان إلى العبودية وهي التي تمنع الروح من الخلاص. كما وتهدف الديانة المانوية إلى تخليص روح الإنسان من السجن الجسدي حيث ترى أنّ بقاء الروح في الجسد مدّة طويلة أدّى إلى نسيان أصلها السامي وسبّب لها الجهل. كما وأنّ سبيل الخلاص من الجهل هو الإتيان بالمعرفة، ولذلك شجّعت المانوية على الزهد والرهبنة.

ج. حياة ماني

كان والدا ماني أرستقراطيان ينتميان إلى واحدة من الطوائف المعمدانية العديدة في منطقة بلاد الرافدين، هم الصابئة المندائية.

ولد ماني في سنة ٢١٥ م في قرية ماردينو قرب بابل وعندما بلغ من العمر سنّ الثالثة عشرة بدأ الوحي ينزل عليه لكي يبلغ ديانته واستمرّ حتى سن الخامسة والعشرين، في البداية نزل عليه مَلاك ومنعه من أكل اللحم والخمر ومقاربة النساء[1]، كان والد ماني عضواً في جمعية الصابئين وأدخل ابنه أيضاًمعه، وبعد فترة ظهر ملاك التوام على ماني وبدأ بترويج ديانته التي كانت ثنويتها أكثر قواماًمن الصابئة بسبب كثرة غسل التعميد وهو ما يسمى عند العرب بالمغتسلة. وكلمة ماني تعني بالفارسية (الفريد او النادر) وقد عاصر ماني (سابور بن أردشير) أمبراطور بلاد الفرس في ذلك الوقت. ادّعى ماني النبوة عام ٢٢٨ م ثمّ توجه عام ٢٤٣ م إلى شابور الأول عند تتويجه ودعاه إلى دينه، بدأ رحلته إلى السند وهناك تمكّن من هداية حاكم بوذيّ محلي إلى ديانته الجديدة. وعندما عاد إلى إيران وذلك بعد حوالي عشرين سنة، حيث كان الحكم الساساني في ذلك الوقت، لقي ماني ترحيباً كبيراً من ملكها شابور الأول الذي منحه الحرّية في نشر تعاليمه في أنحاء إيران. كما واعتنق ماني الديانة المسيحية لفترة وكان يحاور

(١) راجع: رازي، عبد الله: «تاريخ كامل إيران» ص: ١٠٩.

اليهود والوثنيين. عندها قام بالمقارنة بين الديانتين المسيحية والمجوسية وأخذ منهما ما أعجبه فيهما وخرج بديانته الجديدة.

إذاً الديانة المانوية هي عبارة عن مختارات من المسيحية والمجوسية أخذ منهما ماني وخرج بديانة جديدة نسبها إليه، إضافة إلى تأثره بالبوذية والزرادشتية لهذا تعدّ خليطاًمن أربع ديانات مختلفة. وككل ديانة جديدة تلاقي اهتماماً ونجاحاً كديانة.

لقد أثارت المانوية الغيرة في نفوس الكهنة الزرادشتيين الذين يتزعمهم الكاهن الأكبر كردير، وظلّ الرجلان يتنافسان، كردير وماني، حتى تولّى بهرام الأول الحكم بدلاً من شابور وذلك في عام ٢٧٣ م، وهكذا تمكّن كردير من أخذ مكان ماني بنيل الحظوة في القصر الملكي. بعد ذلك اتّجه ماني إلى السّحر من أجل اكتساب شهرة النبوة وقدرته على إتيان أفعال خارقة وقد تصدّى ماني لعلاج ابن ملك الفرس الذي فشل الأطباء في علاجه ولكنّ الطفل مات على يديه أثناء ممارساته السحرية عليه ممّا جعل ملك الفرس يأمر بقتله إلّا أنّه استطاع رشوة الحرّاس والهروب إلى فلسطين والاستمرار في نشر دعوته هناك ولكنه هوجم من قبل أحد الأساقفة، فلم ييئس واستمرّ في دعوته غير آبه بالخطر الذي يمكن أن تجلبه عليه هذه الدعوة، وقد انتشرت تعاليمه بصورة كبيرة وفي أنحاء كثيرة في دول العالم.

تتجلّى هذه المفاهيم في عدّة أفكار طرحتها هذه الديانة وذلك تمّ بعد قراءة ماني لجميع الأديان وفهمها بوضوح، وقد قرأها بشغف وأخذ منها الأفضل وما وجده صحيحاً ووضع معتقدات ديانته؛ إذ إنّه أخذ من الزرادشتية وصية عدم الكذب، إضافة إلى رمزية النور والتراتبية الكونية، واستعار من البوذية مبدأ احترام كل المخلوقات، والاعتقاد بفكرة التقمص، وأنّ الأفعال الصالحة تكسبنا الحسنات. ونادى بالتقشف وهو مبدأ تعتمده جميع الديانات تقريباً وهو التّرفع عن ملذات الحياة وهو مبدأ مألوف بالنسبة للحياة الزهدية المسيحية والبوذية معاً. وأخيراً أخذ ماني من الغنوصية أفكاراً مثل: اقتران البشر بتوائمهم السماوية أيّ أنّ كلّ جسد إنساني جسماني موجود في هذه الدنيا له روح من النور في عالم النور الفردوسي وعلى الإنسان أن يتوحّد ويقترن بتوءمه الموجود في ذلك العالم ليخلّص نفسه ويطهرها من هذا العالم المادي.

من هنا يبدو لنا تاريخ ماني مدروساً وناجحاً بشكل استثنائي، بحيث أنّ قلّة قليلة من الديانات التي تسعى إلى جمع ما هو أفضل وأنجح العقائد من الديانات الأخرى. وهذا ما فعله ماني وما بناه من مبادئ لتأسيس ديانته فكان هذا الدين ديناً توفيقياً مقصوداً بين المعتقدات المتعارضة للأديان المختلفة؛ فها هو ماني نفسه يكتب في ***Kephalia*** ما يلي: «**إنّ الكتابات والحكم، والرؤى والقصص والترانيم**

المقدّسة الخاصة بالكنائس الأولى أعيد توحيدها من كلّ الأطراف في كنيستي الحكمة التي كشفتها لكم. فكما يندمج نهر ما بنهر آخر ليشكّلا معاً تياراً قوياً، كذلك اندمجت الكتب القديمة بكتبي لتشكل بمجموعها حكمة واحدة قوية، لم يسبق أن وُجد مثيل لها في الأجيال السابقة»[1].

١ . مفهوم الخير والشر

تقوم هذه الديانة على اعتقاد أنّ العالم واقع تحت سيطرة قوتين هما الخير والشّر وتقول هذه النظرية بأنّ الشرّ أزلي أي مستمر وموجود، إذاً فإنّ طبيعة مكونات هذه الأرض من هواءٍ وماءٍ وترابٍ كلّها عناصر من عناصر الخير على هذه البسيطة ولكن لا يمكننا أن نتجاهل وجود النار والعواصف والأعاصير الطبيعية وهذه ما تمثّل قوى الشرّ في الطبيعة. إذاً هذا ما يراه ماني في الطبيعة من خيرٍ وشرٍ.

٢.مفهوم النور والظلمة:

النور والظلمة أيُّ شيء نوراني مصدره الرحمة والإيمان والصبر والتعقّل وأيّ شيء ظلماني مصدره الحقد والشهوة والغضب والحماقة من هنا ولد الخير والشر والنور والظلمة التي قامت عليها النفس البشرية واستمرت في هذا الكون أبدية أزلية. ولم يؤمن ماني بكتاب التوراة ولكنه كان يؤمن بكتاب الإنجيل ومخطوطات» سن بل»[2]. كما ونجد أن إله النور رحيم ومحسن بينما إله الظلمة شقي ويسعى لجعل الكل أشقياء. إنّ الرؤية المانوية للعالم هي رؤية ثنائية غنوصية، تقوم على القول بأن البشر محتجزون في المادة، ومُبعَدون عن

---

(١) شيحا بسام،الروحانية في أرض النبلاء،ص:١٢٩.

(٢) رازي، عبد الله: «تاريخ إيران الكامل» ص١١٠.

وطنهم الحقيقي الموجود في عالم النور. الله في الدين المانوي، يُسمّى أبا النور، وفي بعض النصوص يسمى زورقان وهو بعيد ولا يمكن الوصول إليه. كما وتؤمن الديانة المانوية بوجود يسوع خاص بها وهو ليس يسوع المسيح الخاص بالديانة المسيحية وله ثلاثة صفات:

أولاً: إنّه يسوع العظيم وهو الناقل الأصلي للمعرفة التي أعطاها إلى الإنسان الأول عند بداية الزمان والذي يستمر في إعطاء المعرفة العميقة للبشر.

ثانياً: إنّه يسوع التاريخي والذي يظهر للبشر فقط وهو يختلف عن المسيح والذي ترمز عذاباته إلى حالة الخير المحجوز ضمن الجسم المادي كذرات من النور المغلفة بالمادة.

ثالثاً: إنه يسوع الحَكَم والذي سيأتي مرة أخرى في نهاية الزمان.

كما وتقول إحدى الترنيمات الدينية المانوية عن يد شريرة قامت باحتجاز النور وهي شخصية أنثوية وهذا طبعاً ليس صدفة فالديانة المانوية من أهمّ مبادئها تحديد النسل وذلك لإنهاء الشر. وهم ينظرون إلى المرأة نظرة خاصة ويتخذون موقفاً سلبياً من النساء المسؤولات عن عملية التناسل والتي يُنظَر إليها على أنّها عملية مدمرة، إلى حدّ أنّها تؤدي إلى تخفيف ذرّات النور بتعاقب الأجيال، لأنّ المبدأ الأساسي للمانوية هو مبدأ الامتناع عن الزواج أو اعتماد طريقة منع الحمل، إلا أنّ هذا المبدأ في الواقع العملي، يطبق فقط على الرهبان (يدعِون المختارين) لأنهم يحتاجون الى سلسلة مستمرة من الأجيال الجديدة من الأتباع العاديين (يدعون المستمعين)الذين يدعمونهم.

الترنيمة بحسب نصّها هي:

انظروا، تلك هي مملكة الخلاص العظيمة تنتظر في الأعلى،

متهيئة لأولئك الذين يملكون المعرفة، الذين سيجدون أخيراً

السلام هناك.

ان إيزوس أم البشر الأولين الشريرة والخاطئة تعدو بهياج
جيئة وذهاباً،
إنّها لا تمنح السلام لكل الأطراف العليا والسفلى من النور.
إنّها تحتجز النور في الأجسام العظيمة الستة،
في الأرض، والماء، والنار، والريح، والنباتات، والحيوانات.
إنّها تحوّله إلى أشكال عديدة، وتقولبه في العديد من النماذج.
إنّها تقيّده في سجن حتى لا يصعد إلى الأعلى.
إنّها تحيك شبكة حوله من كل الجوانب وتضع
حارساً عليه.
وتجعل الطمع والرغبة زميليه في الأسر (أي داخل
الجسم البشري).
إنّها تضع هواءً مدمراً في تلك الأجسام العظيمة الستة.
إنّها تغذي جسدها الخاص لكنها تدمر أبناءهم.
إنّ قوى النور في الأعلى تربك شياطين الانتقام،
أبناء إيزوس تلك تحظى بمكانة أعلى[1].

إذاً ثمة مواضع رئيسية في هذه الترنيمة من بينها شعور بالاشمئزاز من الجسد وموقف سلبي من النساء الذي يعتبر المرأة مسؤولة عن عملية التناسل وينظر إليها على أنّها عملية مدمِّرة. تتألف ديانة ماني من اثني عشر قائداً واثنين وسبعين منتخباً والباقي هم المؤمنون الذين يسمون أيضاًبالمستمعين، وقد عيّن ماني خليفة له من المنتخبون، والمنتخبون يعينون من قبل المستمعين[2].
أتباع ماني يجتمعون يوم الأحد ويتلون الأدعية والأوراد، ويقرأ عليهم شخص

(١) شيحا، بسام، الروحانية في أرض النبلاء ص:١٣٢-١٣٣.
(٢) رازي، عبد الله: «تاريخ كامل ايران» ص:١١٠.

كتاب ماني وهم يستمعون إليه باحترام ولهذا يسمونهم المستمعين، أما بالنسبة للقادة والمنتخبين فعليهم أن يكونوا على درجة عالية من الزهد والورع فلا يأكلون اللحم ولا يشربون الخمر ولا يقتلون الحيوانات ولا يقطعون الأشجار ويبتعدون عن النساء. هذا ما يلتزم به القادة فقط. أمّا المستمعون فهم غير ملزمين بهذه الأمور. فقط عليهم اجتناب الكذب والبخل وقتل النفس والزنا والإلحاد، والمنتخبون بعد الموت يدخلون الجنة، بينما يتقمص المستمعون من جسد الى آخر حتى يوم الحشر[1].

ومما توافق مع الديانة البوذية أنّها تحرّم قتل أي من المخلوقات الحية وكذلك المانوية فالمختارون المانويون كانوا يعتقدون بأن النباتات والحيوانات تمتلك أرواحاً، وكانوا يتّبعون الطريقة النباتية في غذائهم على أنّها أقل الشرور، وكانوا لا يزرعون لأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ العبث بالتربة وحصد النباتات، يؤذيان ذرّات النور الموجودة فيها. كما وأنّهم كانوا يعتمدون على المستمعين في إعداد الطعام وهم لا يفعلون ذلك بأيديهم.

لهذا وبدون مجتمع متوالد كيف لهذه الديانة أن تحيا فهي قد عاشت جيلاً من الزمن فقط، ثم انقرضت بعدها مثل الديانة البوذية، على الرغم من أنّ الأتباع المستمعين لم يكونوا ليطمحوا بخلاصٍ فوريّ، إلا أنّهم كانوا يحلمون بولادة ثانية ليصبحوا عندها أعضاءً من طبقة المختارين.

لهذه الديانة عبادات فرضتها على أتباعها فنجد أنّها قد شرعت الصيام ولكن مدة سبعة أيام في الشهر، كما فرضت العديد من الصلوات وعدد السجدات عندهم اثنا عشر سجدة وفي كل سجدة يقرأ دعاء، هناك أيضاً ممارسة الاعتراف والتوبة قانون كان في نهاية الشهر الثاني عشر وذكر أيضاً وجود التعميد المانوي والعشاء الرباني أو «**الوليمة المقدسة**» محور هذا العيد هو تذكر وفاة ماني وهذه

---

(١) ن.م.ن.ص.

المعتقدات تشبه مثيلاتها عند نهاية شهر الصوم المانوي، كما وحرمت المانوية كل ما يشجع شهوات الجسد الحية ولذلك حرمت اللحم على افتراض أنّه ينشأ من الشيطان كما تخلوا عن الزواج والإنجاب. ويعيش المانويون على الفواكه وخاصة البطيخ كما أنّ الزيت مستحسن عندهم. كما وأنّهم قاموا باجتناب تناول كميات كبيرة من الماء باعتباره مادة جسدية.

هـ. أعياد المانوية

ومن الأعياد التي كان يهتم بها التقويم المانوي هو عيد بيما ***Feast of Bema***، والذي يحتفل بذكرى وفاة ماني ويؤدي وظيفة مشابهة لوظيفة عيد الفصح في الدين المسيحي.

كما ونلاحظ أنّ الديانة المانوية ركزت على علم الكون والأساطير. هذا ما قدمته لنا الدراسات المعاصرة لهذا الدين وكشفت لنا ما اكتشفته النصوص حديثاً، إلا أن «**جيسون بيدون**» تصدى لهذه المقولة مؤكداً بأن الشعائر المانوية هي أقرب إلى الجوانب العملية منها إلى الجوانب الأسطورية بحيث إنّها ليست مجرد انسحاب من عالم العبودية المادية المثير للاشمئزاز، إذ إن هدف الحياة المانوية كان يتمثل في الكفاح من أجل تحرير ذرّات النور من خلال طقوسهم وشعائرهم، فكانوا لا يتركون وسيلة لتطهير أنفسهم فقاموا باستخدام الطعام المناسب ونظّموا حياتهم، وكانوا يعتقدون أنّهم بذلك يطهرون أنفسهم بتنظيم حياتهم، وكانوا يزيلون الشّر الذي يعلق بهم كما تعلق البقعة على وعاء فضّي إذ كان يعتقد المختارون المانويون أنّهم يستطيعون تحرير ذرّات النور ضمن الطعام وهو ما يسمى عندهم «**الخلاص الاستقلابي**»: «**كل ما توعدون به المستمعين ليس إحياء، بل إلى وجود بشري آخر، سيعيشون فيه حياة مختاريكم، الحياة التي تعيشونها أنتم أنفسكم، والتي تمجّدون بسببها، أو إذا كانوا يستحقون الأفضل،**

فإنّهم سيدخلون إلى البطيخ والخيار، أو بعض الأطعمة التي ستُمْضَغ، وبذلك سيتطهرون بسرعة من خلال تجشّئكم»[1].هناك جاذبية كبيرة تمتعت بها المانوية بحيث دفعت الكثير من المرتدين إلى اعتناق نظرتها المتقشفة للكون، مع أنّه لم يكن يمكن للناس العاديين فهمها والوصول إلى كنهها إلا أنّ ماني إضافة إلى بعض مبشريه كانوا يملكون شخصيات جذابة إلى درجة استثنائية رغم أنه من المؤكد أنّ القناع البلاغي والعقلاني لعباً دوراً مهماً، إلا أنّه كان لا بدّ من استخدام مهارات أخرى في الإقناع مثل السحر وشفاء المرضى ومعظم الديانات يساعدها على الانتشار المعجزات التي تحدث العقل البشري وخاصة عند الناس البسطاء والعاديين لا يؤمنون إلا عن طريق هذه الأشياء إذ يعتبرونها قوى خاصة تقربهم من الله والفقراء دائماً هم الأقرب إلى الله لأنهم الأحوج إليه. وعلى مرّ التاريخ كانت الروايات تتحدث عن الديانات ومعجزاتها ويسوع الناصري كان أبرز مثالٍعلى ذلك. وقد اشتُهر ماني مثل السيد المسيح بأنّه طبيب ورجل قادر على القيام بمعجزات فقد اكتسبت خلال السنوات التي قضاها في البلاط الملكي تقديراً لمعرفته الطبية أكبر من التقدير لمعرفته الدينية، ويخبرنا التاريخ أنّ إحدى الكنائس المانوية وهو مكتوب باللغة السوغدية أن أحد أتباع ماني تمكّن من شفاء فتاة مريضة وكان يدعى غابرياب ولقد تحدّى المسيحيين في البلاط ما إذا كان أحدهم يستطيع شفاءها قائلاً: إذا استطعت، برحمة الله، أن أشفي الفتاة من مرضها، فسأطلب منكم هذا الأمر: «**أن تتخلوا عن الدين المسيحي، وتقبلوا دين الرّب ماني!** «عندئذ استدار وقال للمسيحيين: «**كان يسوع المسيح إلهاً قادراً على اجتراح المعجزات، فقد شفى العميان والمشلولين من مرضهم. وبنفس الطريقة، أعاد إحياء الموتى. والقاعدة تقول: إن الابن يحمل صفات أبيه، وأنّ التلميذ يعكس تميّز أستاذه. فإذا كنتم حقاً وفعلاً أتباع المسيح، وصفات المسيح**

(١) شيحا، بسام،الروحانية في أرض النبلاء.ص:١٣٤.

ومزاياه موجودة فيكم، فتعالوا جميعكم إلى هنا واشفوا الفتاة من مرضها، كما قال المسيح لحوارييه: «أينما تضعون يدكم، فسأصنع تحسناً في ذلك المكان من خلال يدّ الله! فإذا لم تفعلوا ذلك، سأقوم أنا بقوة الله بشفاء الفتاة من المرض، وعندئذ ستخرجون أنتم المسيحيون من مملكة ريفان».

فقال المسيحيون: «إننا لسنا بقادرين على شفائها، فأعد أنت إلى الفتاة صحتها بدلاً منا»[1]. طبعاً نجح غابرياب في شفاء الفتاة، وأصبح الملك مانوياً. ولكنه بعد فترة وبعد رحيل غابرياب أقنعه المسيحيون الماكرون بالعودة إلى الدين المسيحي وقد رجع، لأن عقيدته لم تكن كافية ليعتنق هذا الدين.

وكُتُب ماني:

ألّف ماني كتباً عديدة وأقدم كتبه باللغة البهلوية وهو الكتاب الذي قدمه لشابور الأول وألّف باقي كتبه باللغة السريانية وقد عثر على آثار مانوية في مدينة طورفان بتركستان بعد عمليات البحث والتنقيب التي أجريت هناك، أيضاً إنّ إحدى ابتكارات ماني، استعانته بالرسوم والصور لنشر أفكاره بين الناس الذين تفشّى فيهم الجهل، كما قام بتدوين أفكاره ودوّن مجموعة تسمى «ارجنغ» عثر على بقايا منها وثمة كتب مصورة له ولأتباعه. كما وتُنسب إليه الكتب الستة التالية:

١ـ شابوركان: كتبه باللغة البهلوية، واكتُشف قسم منه في مدينة طورفان.

٢ـ انغليون: وهو إنجيل، ويضم تصاوير، ولعلّه هو «ارجنغ» السالف الذكر.

٣ـ جواهر الاحياء: ويشتمل على أحكام.

٤ـ براغماتيا: كتاب جامع.

٥ـ كتاب الأسرار.

٦ـ كتاب الشياطين.

---

(١) شيحا، بسام، الروحانية في أرض النبلاء. ص: ١٣٥-١٣٦.

اخترع ماني لغة جديدة جذورها من الأحرف الآرامية وذلك لكي يتمكن من شرح أهدافه بصورة جيّدة لجميع الناس العامة والخاصة حتى يستفيدوا من كتبه وقد زيّن مؤلفاته بتصاوير تمثل قوى «**النور والظلمة**»[1].انتشرت تعاليم ماني بصورة كبيرة وتوزّعت كتبه في أرجاء بابل والشام وفلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية وأيضاً في أفريقيا كما وانتشرت في جميع أنحاء المناطق الإسبانية وجنوب فرنسا وإيطاليا حيث انضم كثير من الناس إلى مذهبه كما وصلت ديانته إلى الصين[2].

---

(١) رازي، عبد الله «تاريخ كامل إيران» ص: ١١٠.

(٢) ن.م.ن.ص.

ز. نظرية ماني حول نشأة العالم

«يرى ماني أنّ العالم نشأ من عملاق قسّم جسمه إلى أجزاء ثم كوّن الموجودات من بعض هذه الأجزاء. ولا ريب أنّك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود والتي حدثتنا عن اشتياق الإله «براجاتي» إلى التكاثر أيّ التوالد والتناسخ وحدث أن جزّأ جسده ونثر أجزاءه في الكون ليأخذ ويتوالد منها جميع الكائنات.

أمّا رأيه في المبادئ الأولى فهو يخلص في أنّ للكون مبدأين يقوم عليهما ألا وهما الخير والشر وهما أزليان متساويان في كلّ شيء ولا شكّ أنّه في هذه النقطة قد تأثر بـ «زرادشت» من ناحية وبديانة «الثانوية» المغالية التي نشأت من مذهب «زرادشت «من ناحية ثانية.

ويقول الشهرستاني عن هذا المذهب إنّه حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، أنّ الحكيم «ماني» زعم أنّ العالم مصنوع من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنّهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكروا وجود شيء لا من أصل قديم، وزعم أنّهما لم يزالا قوتين حساستين، سمعيتين، بصيريتين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والظلّ، إلى أنّ يقول: ثم اختلفت المانوية في المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم: إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق، لا بالقصد والاختيار.

وقال أكثرهم: إن سبب المزاج أنّ أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل، فنظرت إلى الروح فرأت النور فبعث الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشّر، فلمّا رأى ذلك ملك النور وجّه إليها ملكاً من ملائكته في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة، فاختلطت الخمسة الظلامية، فخالط الدخان نسيم، وإنّما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان، وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء.

فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرّة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة، فلمّا رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة، لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة[1]. هذا ما يراه ماني حول نشأة العالم من جسد ذلك العملاق.

---

(١) راجع: غلاب، محمد: «الفلسفة الشرقية»، دار بيبليون - باريس ص:٢٠٢.

ح. الميتافيزياء المانوية

تتحدث هذه النظرية عن أصل الانسان وتدرس نفسيته وممّا ولد. يرى هذا المذهب أنّ الانسان الأول ولد من نور وقد خلق للنور وللشمس الذي هو «اهورامزدا» ثم تقول الأسطورة بأن الإنسان كان يتألف من نور فقط أي الخير كل الخير فلا يرى شراً ولا يرى ظلاماً ولا حقداً.

والحكمة من خلق هذا الإنسان المولّد من النور إنّما هي للجهاد والمحاربة ضدّ الظلام وضدّ الشّر، ولكن هذا الخصم أيّ الظلام كان عنيفاً جداً وما لبث أن انتصر على الإنسان وكبّله ووضعه في سجنه الحالك القاتم المظلم، غير أنّ قوّة إله الخير ما لبثت أن عملت على تخليصه من هذا السجن، فنجحت بعض الشيء، ووُلد بعدها شيء اسمه الصراع بين النور والظلمة، نور النفس وظلمتها نفس الإنسان وما قد تحمله من خير للآخرين أو أحقاد قد تبعث على النفور وأذية الآخرين، لأنّ إله الشّر نفسه كما تقول النظرية كان يكمن في جسمه نور قد قام هو بحبس جسمه النوراني في هذا الغمد الكثيف المكوّن من المادة المظلمة، وهذا دليل قوي على أنّ كل انسانٍ مهما كان شريراً سيئاً تكمن في داخله قوّة من النور مخفية قد حجبتها كثرة الظلام فصارت هذه المادة المؤلفة من الشرّ والتي يسمونها «الماكروسكوم» أو «الميكروسكوم» والتي هي أصل الشّر والسوء في هذه الدنيا تنتشر بعد أن قامت بسجن الروح النورانية.

إذاً فأصل النفس نور ولكن اندماجها مع الجسد واتباع شهواته ونزواته وأحقاده ولّدت الشر، من هنا نشأت عند «**ماني**» فكرة وجوب تخليص النفس من الجسد ولأنّه هو الذي يساعده على الشر، فعمل «**ماني**» على انهاء العالم المادي أو العالم الجسماني الذي فيه الجسم البشري وذلك باضعاف النوع البشري وإبادة النسل بواسطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها، وهذا ما كان منافياً للديانة الزرادشتية ولطبيعة الفرس فقد حبّب «زرادشت» إليهم متع الحياة ولذاتها ومنها الزواج والإنجاب وعرّفهم وسائل القوة والإخصاب.

إنّ ما يجعلنا نطرح سؤالاً مهماً هنا، هل هذه الديانة هدفها الحياة أم الموت؟ وكيف عاشت هذه الديانة مدة ألف عام مع هكذا مبادئ؟.

إذ إن كل الديانات التي جاءت أو نزلت سعت الى تخليص البشرية والسير بها نحو الخلاص وإلى طريق السعادة، لأنّ كل نبي جاء برسالة أو ديانة سعت ديانته لتخليص الناس من الشّر وبثّ روح الخير في أنفسهم ومساعدتهم على العيش بسعادة في هذه الدنيا ولكن ليس هذا ما نراه في الديانة المانوية التي تبعت خطوات «**الزرادشتية**» خطوةً بخطوة إلا فيما يخصّ موضوع الفناء والتي تقول بأنّه لا بدّ بأن يأتي يوم وينتصر الخير على الشّر وينتهي الشّر وتعيش البشرية بسعادة.

الا أنّ الديانة المانوية تقول بعكس ذلك وهي تؤمن بوجود المملكتين وبأنّهما ستظلان موجودتين متباعدتين متعاديتين متساويتين فلا ينتصر أحدهما على الآخر والحلّ إن هو إلا بفناء أحد ما إمّا النفس وإمّا الجسم المادي فاختار ماني الجسم المادي ذلك لتخليص الروح من الجسد وتطهيرها من الشّر.

ط. نهاية ماني

كل دين يولد وفي أيّ عصر كان وفي أيّ زمن ومهما كان الحكم السياسي، ما هو الا عبارة عن مادة جديدة توضع بين يدي الناس ومن هنا يولد التعارض والمعارضة فمنهم من يأتي مع الشيء الجديد وله أسبابه، ومنهم من يأتي ضدّه ولكن في النهاية لا يصحّ الا الصحيح.

وهكذا فإنّ أيّ ديانة جديدة تدخل على مجتمع كالمجتمع الإيراني تتعرض للنقد والانتقاد أو حتى للمحاربة والمعارضة وذلك من قبل الديانات الأخرى والتي تتوافق مبادئها مع مبادئ هذه الديانة الجديدة.

وقد واجهت الديانة المانوية في بدايتها معارضة ومنافسة من قبل الزرادشتيين الذين اعتبروا أن الدين المانوي سيشكل خطراً على ديانتهم، وقد يكون الأمر على صعيد شخصي إذ حصل خلاف بين (ماني وكردير) وهو من كهنة الزرادشتية، وقد كان الكهنة الزرادشتيون ينظرون إلى المانوية على أنّها رمز الهرطقة. والمصطلح الذّي كان يُطلق على الشخص المُهرطِق، وهو زنديق كان يعني في الأصل مانوي، إذاً أول ما أطلق على الشخص الذي يتبع الدين المانوي هو زنديق أي كافر وهو مصطلح أطلق على من يؤمن بغير الله ويقول بالثنوية أي (الخير والشّر) والنور والظلمة ويقول بأزلية العالم وكان يطلق على كلّ شاكّ أو ضال أو ملحد وقد ظلّ هذا المصطلح مستخدماً حتى الأزمنة الإسلامية.

ومن أهم ما هاجم به الزرادشتيون المانوية ما ذكرته في كتاب لها اسمه ***Denkard*** ويعني بالعربية (أفعال الإيمان)حيث يورد الكهنة في هذا العمل اثنتي عشرة نقطة تتعارض حولها بشكل أساسي الديانتان وهي تتضمن عدّة معتقدات أبرزها الخلاف الأساسي حول (جوهر الطبيعة البشرية)، فالزرادشتيون يقولون بأنّ البشر خيّرون بطبيعتهم بينما كان المانويون يعتقدون أنّ البشر أشرار؛ لا، بل هم أصل الشر في الوجود. أيضاً هناك مسألة (نبذ العالم) الذي يعتقد الزرادشتيون بأنّه خلق من قبل أهورامزدا وسيستكمل ليصبح مثالياً في المستقبل، فيما يعتقد المانويون بأنّه خُلق بفعل قوى الشّر، ولهذا السبب ينبغي التحرر من الجسد. وطبعاً آراؤهم هذه انعكست على أمور كثيرة كالزراعة التي كان الزرادشتيون ينظرون إليها على أنها تعطي الحياة، فيما كان المانويون يعتقدون بأنها تدمر الحياة أي النور وذلك لأن أيّ عبث بالتربة والحصاد يفسد ويقتل ذرات النور، وكانوا يعتقدون بأن العالم المادي مليء بالأرواح الخيّرة.

لم تكد مبادئ هذه الديانة تنتشر في بلاد فارس حتى بدأ الناس بالتذمّر منها ومن صعوبة اتّباعها لما تحتويه من ضعف ويأس وانزواء وأفكار خاطئة وحرمان من ملذات الحياة المباحة، ووصلت أصداء هذه الديانة إلى ملك البلاد فأحضر ماني وناقشه فيها، وصرّح أمامه بأنّ التخلص من الشّر أمر مستحيل، والوسيلة الوحيدة للقضاء عليه هي تدمير العالم حيث تبدأ بإبادة النسل البشري ثم بفناء الأجساد فأَعجبَ الملكَ ما قاله ماني وطبّق عليه مذهبه فكان مذهب ماني هذا سبباً في موته[1].

بعد قتله قام أتباعه بالدعوة إلى المانوية، حتى انتشرت وسادت مناطق في أوروبا والصين. ويقطن أغلب المانويين في آسيا الوسطى، وثمّة جماعة من المانويين بقيت تقطن ولقرون متمادية في البوسنة والهرسك.

---

(١) غلاب، محمد، «الفلسفة الشرقية»، دار بيبليون- باريس ص:٢٠٤.

الفصل الرابع

ميترا أو ديانة مهر

أ. ميترا.

ب. كردونه مهر.

ج. آراء الباحثون.

د. مقتل الثور وعلاقته بديانة مهر.

هـ. التثليث عند ميترا.

و. ميترا وذبح الثور.

لمحة تاريخية

قبل ظهور زرادشت، كان الأريائيون يؤمنون بعبادة مهر وكلمة مهر تعني المحبة والصداقة كما ويقول يوستي بأنّ مهر وسيط ورابط بين النور المحدث والنور الأزلي وبعبارة أخرى فإنّه وسيط بين الخالق والمخلوقين. ففي «**كات هاجار**» كلمة «ميترا» جاءت بمعنى العهد، ومهر في الأفستا يعتبر من خالقي أهورامزدا وهو الإله وهو حافظ للعهد وعلى هذا فإن ملائكة النور والضياء خافوا عليه لذلك يعتبر اليوم السادس عشر من الشهر السابع من كل عام عيداً خاصاً للاحتفال بعيد مهر وقد ذكر ذلك في الأفستا. فدين مهر انتشر بداية من إيران وصولاً إلى بابل وآسيا الصغرى وبعد ذلك عُبد. وهكذا فإن دين مهر قد ظهر الى الوجود في إطار مفهوم الدين الزرواني، وفي الأفستا يعتبر مهر من أكبر الآلهة.

في الألواح الهخامنشية، كتبت ميترا بالإملاء والتلفظ الأفستائي وجاءت بكلمة ميثر ***Mithra*** وجاء في السنسكريتية كلمة «ميترا» ***Mitra*** وفي البهلوية «ميتر» ***Mitr*** وفي الفارسية مهر.

إنّ أقدم الوثائق المكتوبة التي وصلت إلينا وسجل اسم هذا الإله البشري القديم، هي عبارة عن الواح طينية تعود إلى ١٤٠٠عام قبل ميلاد المسيح وقد عثر عليها في «**كاباتوكا**» ***Kapatuka*** في مدن آسيا الصغرى، وفي مكان باسم يغازكوى.

وفي أحد هذه الألواح حيث يعتبر بين «الهيتيين» *Hitties* و«الميتانيين» *Mitanies* طلبت المساعدة من «ميترا» و«وارون» *Waruna* إلهي الهند واسم هذين الإلهين، اسم إلهين قديمين للهند وإيران وهما «ايندرا» *Indra* و«نساتي» *Nasatya*.

في وداها[1] ذُكر اسم ميترا مرتين وبصورة قصيرة وبشكل منفرد، ولكن لميترا في الأفستا مقام شامخ خلافاً لوداها. كما وقد كان يعتبر من أكبر الآلهة في زمن ما قبل أفستا وثورة زرادشت، بحيث ذكرنا بأن اسمي «ميترا» و«واروا» يأتيان مع بعضهما وكذلك لهذين الاسمين مراسم مدح وعبادة مشتركة. لا يعرف شيء عن الدين الميترائي في الأفستا والميترائية العالمية في العهود العالمية ذلك لأن القاسم المشترك بينهما هو ذبح الثيران قرابين للآلهة هذا العمل يتوضح بمساعدة الروايات القديمة الودائية حول مهر وبعض الآلهة الأخرى. لأن الكلام التالي سيوضح النقاط المبهمة. لهذا فإننا نطرح بحثاً مختصراً حول ميترا ودائي، وفي البداية سنطرح بحثاً حول ميترا من وداها وبعد ذلك سنتحدث حول وارن وبعدها وسنقدم تحليلاً حول العلاقات بين مهر وكاوكشي.

---

(١) ودا هو اسم الكتاب المقدس للهنود، هذه الكلمة مشتقة من ويد بمعنى العلم والنظر والمعرفة فسوادها هي أناشيد باللغة السنسكريتية وقد جمعت من أربعة دفاتر هي:
أولاً- ريك ودا (rig-veda) وتشمل أناشيد تمدح الآلهة.
ثانياً- ياجورودايا ججربيد (*yajur-veda*) وتتعلق بالنذور والأوامر بتقديم القرابين.
ثالثاً- سام بيدبا سامادوا (*Samaveda*) وتتعلق بالألحان والأنغام والأغاني.
رابعاً- أتهروودا (*Athara-Veda*) وتشمل الأوراد والأدعية السحرية.

أ. ميترا

ميترا وهو الذي يعني الرفيق والصاحب والمساعد والمعاون، هو ذلك الإله المحافظ للشمس وهو اسم لأحد النيران العشرة وهذه بعض منها:

١. برزي سوكهه(*Berezisavangha*) أي بمعنى النار المفيدة جداً والمقدسة والتي مصدرها السماء وتحترق أمام أهورامزدا. قار معبد النار تتلقى نورها من النار المقدسة.

٢. آذر وهومزيان(*Vahu-friana*) وهو نار عزيزة تحترق في جسد الإنسان والحيوانات ومن هذه النار تأخذ الأجساد حرارتها وتجري الحياة والحركة.

٣. آذر اوروازيشت(*Urvazishta*) هي النار التي تشتعل في النباتات وتوجد في الخشب وعلى أثر الاحتكاك تولد النار.

٤. آذروازيشت(*Vazishta*) النار السماوية التي تولّد البرق وتنتشر في عرض السماء تنشر الشياطين.

٥. آذر سينيشت(*Spenishta*) وهي النار التي تحترق في كرزمان أو كردمان *(Garode Mane)* وهي الجنّة أمام أهورامزدا[١].

وقد جاء على ذكر النار السادسة المسماة بـ نيئري سنكه*(Nairysangha)* أيضاً وكذلك جاء ذكر النار بين الهنود حيث توقد أثناء إقامة مراسم القربان، وإهداء

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى ايرانيان باستان» ص ٥٥.

الهدايا حيث نقلت من إيران إلى الهند وسميت نراش مش (*Narashamosh*) في الفصل السابع عشر بندهش من نار ثلاثة مراكز لعبادة النار المعروفة قديماً في إيران وهي عبارة عن:

١. آذركشسب (*Goshansp*) في شيز والقريبة من مدينة أرومية.

٢. معبد النار المسماة آذر غروبا أو آذر فرنبع في كاريان فارس.

٣. معبد النار المسماة آذر برزين مهر في ريوند خراسان.

ولكن يعتقد الزرادشتيون بأن معابد النار الثلاثة الأخيرة نزلت من السماء، ودارت حول العالم أثر حركة الريح، الى أن نزلت كل واحدة في مكان على عهد أحد الملوك البيشراديين أو الكيانيين. إنّ ما يجذب الانتباه هو أن معابد النار الثلاثة في عهد الساسانيين كانت أماكن زيارة خاصة وعامة.

وجاء في رواية الزرادشتيين بأن آشور زرادشت كان بصحبته نار خالدة. يقول دقيقي من الشاهنامه: أتى أحدهم بمنقل من النار وقال إني أتيت به من الجنة

وهو أيضاً اسم أحد آب سَرَ*AP-Sara* وهي مجموعة من ملائكة السماء الإناث وهنّ زوجات كندهرو *Gandharva* وهي أيضاً مجموعة من الموجودات الاستثنائية وأسطورة وآخرها اسم أحد الآديت *Adity* وهي من الآلهة السماوية.

آديت ها هم أبناء آديت *Adit* وهم ضمن الآلهة السبعة الذين عاشوا في السماء ويعلوهم وارونا *Waruna* حيث يرأس ستة آلهة ويسمى آديت ويأتي بعده ميترا مباشرة.

وفي الكتب الهندية قلّما يظهر ميترا على شكل وهيئة إله الشمس، واشهرهم سورس *Surya* أو سويتري *Savitri* وهو سابع آديت وارونا إله الشمس وربّ الليل.

ميترا هو إله الضياء والنور والإله المعين للنار، ويقيمون مراسم مشتركة لإلهي الليل والنهار فميترا ووارونا يعتبران من الآلهة القديمة للهندوس وفي بعض الأحيان، يعتبرونهما أكبرالآلهة ويضاهون أورانوس *Uranus* عند اليونان.

ميترا هو أيضاً إله المياه والبحار وإحدى صفاته أود۔ دام *Ud-dama* أي الذي يقوم بالحصار، وزوجته واروني *Waruni* إله الشراب وفي الأساطير يسمى باسمي سورا *Sura* أو ماد *mada*.

هناك علامة يُشار إليها وهي تسمى بالصليب المعقوف (جليبا) ولكنه في الحقيقة ليس صليباً معقوفاً، ففي الدين المسيحي لم ينظر إليه نظرة احترام، بل الصليب الحقيقي تكون أبعاده غير متساوية بل إنّ ضلعيه متساويان ويشبه جسم الإنسان المفتوح الذراعين.

يقال لهذا الشكل † الصليب، وإذا ما قمنا بلَيّ العلامة فإنها ستصبح ما يسمى بالصليب المعقوف الآن، وكان يرى البعض أنّ هتلر كان يستخدم هذا الشعار في الحزب النازي وكانت توضع على أذرع أعضاء الحزب وجنود SS وحيث أن النازيين دخلوا في نزاع عنيف مع اليهود، لذلك اعتبرت هذه العلامة معادية لليهود، ويجب الأخذ بالعلم أن هذه التسمية غير صحيحة وهي مجرد اصطلاح فيغير محله.

وقد عرفت هذه العلامة بأنّها ترتبط بالنزاع مع اليهود ولهذا فقد علق هذا الاسم في أذهان الناس.

ولكن هذه العلامة هي علامة آرية لأن لها تاريخ قديم يعود إلى آلاف السنين وذلك في إيران والهند ومن المحتمل أنّ هذه العلامة انتقلت إلى اليونان في العهد القديم على أثر الاتصال والعلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية وبعد ذلك استخدم النازيون خلال عهود قوتهم التي كانوا يشيدون بالتعصب وفلسفة العنصر

الأفضل من خلال رعايتهم وتعاليمهم وأعطوا لهذه العلامة قيمة تدلّ على أنّهم من الجنس الآري[١].

لم يكن من السهل على الإنسان الأول أو أنّه لم يكن قادراً على التصديق والقبول بأن الموت هو ظاهرة طبيعية ونتيجة لتحول جهاز الجسم وفي النهاية توقف حركة الحياة. ولهذا كان من الصعوبة بمكان أن يقبل الكبار والشباب بالموت على أنه حركة القوى الجسدية وردود فعل فيزيائية، بل إنه كان يعطيه حالة ما وراء الطبيعة وميتافيزيقية سماوية وفي النهاية كان الانسان يعمل جاهداً وباستمرار من أجل الاحتفاظ بالحياة ومواصلتها وسدّ الحاجات الانسانية. إذ أنهم كانوا يضعون مع الموتى أدواتهم وغذاءَهم وفي بعض الأحيان نساءَهم، فالخوف من الموت أي هذه الظاهرة الطبيعية، والخوف من عوامل الطبيعة وكذلك الخوف من المجهول والأشياء غير المعروفة كان في أكثر الأحيان مصدراً وأساساً تقوم عليه المعتقدات الدينية. وبهذا فإن الجبال الشاهقة والبراكين والبحار المتلاطمة والأنهار كلّها أصبحت موضع مدح وثناء، ففي معتقدات القدماء إن الانسان لم يكن فقط ذا روح بل إن الأشياء والعالم الخارجي كان لهما روح أيضاً. فالقمر الذي يحظى اليوم بدراسة الباحثين وموضع بحث علمي للإنسان الطموح، كان يوماً ما يُعبد، وكانت الشمس تحظى بالمدح والثناء عندما كان الانسان يميل إلى حياة الزراعة ورأى بأن الشمس سبب لعطاء الأرض ونمو الأعشاب ودفء الانسان ومنحه القوة. فقد امتزجت الأساطير التي حيكت للشمس مع المنتجات الزراعية للشمس بصورة جيدة، فالشمس كانت تمدّ سلطتها فترة طويلة على السماء المترامية، بل أنها كانت تمتلك قلوب الناس الذين مالوا إلى عبادة الشمس بسبب امتدادها للحياة الأخرى وأشعتها الذهبية.

---

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاي إيرانيان باستان» ص:٥٧.

إنّ حبّ الانسان للشمس وآلهة السماء اللامعة خلال حياته قد وصل إلى زمن الموت أيضاً فلم يكتف الانسان بذلك بل أنه شرّع باب بيته للشمس ووقف يصلي لها وذلك إكباراً وإجلالاً لتلك الدائرة النارية من الكون والتي كانت لفترة طويلة إلهاً وحيداً للسماء، بل أنه أظهر رغبة كبيرة للإحتفاظ بارتباطه مع الشمس كأسلوب ديني. فقد شوهدت قبور كثيرة بنيت باتجاه أشعة الشمس وكان لها شكلٌ خاصٌ، أي القبور أو الأماكن التي كانت توضع فيها الموتى. وفي العهود التي سبقت التاريخ وفي عهد عبادة مهر (ميترائيسم) كانت دورة الشمس تقتفي وكان زمن الموت أو زمن دفن الأموات بعد حساب دقيق ونظرة ثاقبة في المقابر التي كان يُدفن فيها الموتى. وهذه الأخيرة دليل على المدح والثناء على الشمس التي هي عند آلهة السماء، إله الشعاع والنار التي لا تزال بكلّ كبرياء وغرور تسطع على من يعبدونها وتنظر إليهم. وكان العالم اليوناني أنكساكوراس[1] يعتقد بأن الشمس ليست آلة بل هي كرة مشّعة ونارية، فالناس وجهوا إليه الشتائم وتعاملوا معه معاملة سيئة وطردوه أخيراً من بيته ومدينته. فأكثر النجوم، والعناصر الأربعة والحيوانات والأنهار والجبال والاشجار وحتى السماوات كانت يوماً ما آلهة للناس وكانوا يعبدونها، لأنها باعتقاد الناس كانت قادرة أو أن تحتوي على الآلهة فمثلاً الاله زيوس وهو إله اليونان القديم وكان إله السماء. فالطلاسم والسحر كانت قرابين للإنسان والحيوان لكي يحفظ البشر أنفسهم خوفاً من قوى ما وراء الطبيعة غير المعروفة. فعندها يشتد الخوف والاضطراب، تظهرالقوى على شكل وجوه الآلهة وتصل العبادة على شكل تقاليد في الزمن الحاضر، وعلى هذا فإن صانع الدين هو فطرة الإنسان التي تواصل البحث والتنقيب وهي تبحث دائماً مقابل الخوف والرهبة، عن الوحدة والخوف ملجأ مطمئناً وحياً وهي في بعض الاحيان تعمل بكل طاقتها وتلجأ إلى المظاهر

(١) نقلاً عن: تاريخ الأديان القديمة في إيران.

والعلامات والتي تعبّر عن المعتقدات والأفكار وتقيم المراسم بنيّة صافية وذهن وقّاد. فالموحّدون يقفون للدعاء أمام أهورامزدا ويهوه والأب والرّب والله ويقف عبدة الأصنام للدعاء أمام الأجسام التي صنعوها بأيديهم.

وجدت علامة الصليب المعقوف أول مرة بالقرب من خوزستان وتعود إلى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد وبذلك فإن سابقتها التاريخية في إيران قديمة وأقدم من سابقتها عند الآريين في الهند. ويسميها هرتسفلد عجلة الشمس وقد عثر على قبور في منطقة كرمى مغان في أذربيجان تعود الى العهد الأشكاني وبينها قطعة قماش جميلة جداً.

وقد شوهدت هذه الصورة على فتحة الأواني الخزفية التي كان يوضع فيها الأموات وتظهر هذه الأواني بأنها كانت توضع على جوانب الهضاب والجبال التي تمرّ فيها الأنهار وكانت فتحات هذه الأواني توضع أمام الشمس، فقد عثر على قطعة خزفية تعود إلى عهد الاشكانيين عام ١٣٤٤ شمسية (١٩٦٥ميلادية) في كرمى أذربيجان حيث ترى هذه الصورة بارزة وجميلة، وقد صنع هذا الخزف بصورة قوية وجميلة وسجلت برقم ٣٤٠٥ في متحف إيران القديمة[1].

وفي السنين الأخيرة، بذلت جهود خيرة من أجل إعمار وبناء (طاق بستان كرمانشاه) وخلال القيام بالأعمال العمرانية، عثروا على أوانٍ وآثار متبقية من مبنى ومقبرتين. وفي الأواني الصغيرة والكبيرة وقد وُضع في كل منها جسد على بعد ٥٠٠ متر عن الآثار التاريخية لـ(طاق بستان) على الجهة الشمالية الشرقية،

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاي إيرانيان باستان» ص٥٩–٦٠.

مثلما يُرى ذلك في صورة قبور على شكل أوانٍ لا تزال فيها عظام الموتى متوجهة لجهات مختلفة حيث تتبع دوران الشمس.

وهذه الصورة تشير إلى أن المقبرة واسعة وطويلة وحيث أن مركز مهر برستان من الشمال الى الشمال الشرقي وغرب إيران فلا شكّ أن هذا المبنى الذي بني من الأحجار يعود الى عهد عبادة مهر. وفي عام ١٣١٨شمسية (١٩٣٩ ميلادية) عندما انتهى بناء قصر الشاه في كلاردشت (شمال إيران) لاحظ المعماري الذي بنى القصر بأن مسبح القصرلا يحتفظ بالماء، ولذلك عمل من أجل صيانة وإكمال المسبح. وعندما أراد صيانة أرضية المسبح وجد أرضاً رخوة وبعد الحفر ظهر سرداب تحته، وبعد القيام بالحفريات في السرداب وجدت أجساد وعدّة كنوز قيّمة، ومن أحد النماذج إناء ذهبي نقش عليه جسد أسد ويعتبر الأسد عند الآريين حيواناً عظيماً، وشكله رمز للإيرانيين. فهذا الإناء الذهبي الجميل كشف يوم الخميس ٢٣مرداد ١٣٣٧شمسية (١٩٥٨ميلادية) خلال الحفريات على هضبة حسناء تقع جنوب غرب بحيرة أرومية. ويُرى على هذا الإناء نقوش كثيرة من ضمنها صورة الأسد ومروِّضه حيث تظهر الصورة المروِّض وهو يربط حزاماً على رقبة الأسد ما يُظهر أن الإنسان قادر على السيطرة على الحيوانات واستخدامها والاستفادة منها وربما كانوا يُعِدُّون الأسود ويركبونها. ويُشاهَد على هذا الإناء صورة عجلة مهر منقوشة على فخذ الأسد.

وهناك الكثير من الصور التي وردت في الكتب عليها أشكال من آثار هذه الديانة دلّت على حضارتهم وثقافتهم وعقائدهم فهناك إناء ذهبي نقشت عليه صورة الأسد في كلاردشت، ونقش الصليب المعقوف على فخذ الأسد. وفي صورة أخرى إناء هضبة اسمها حسنلو وفي ثانية صورة الوعل الجبلي على إحدى الآنيات الخزفية، وهناك عِقد من العهد الأشكاني وهذا العقد مصنوع من العقيق مع خرز صغير وكبير عُثر عليه خلال عمليات الحفر التي قام بها علماء

الآثار عام ١٣٤٥ شمسية (١٩٦٦ ميلادية) في منطقة جوبن جيلان (شمال إيران) وقد نقشت على خرز هذا العقد عربة مهر بلون أبيض في غاية الجمال والمهارة وبشكل هندسي منظم، وقد تمّ تسجيل هذا العقد برقم ١٩٣٩٤ في دفتر متحف إيران القديمة.

وفي الحفريات التي جرت عام ١٣٥١ شمسية ١٩٨٢ ميلادية في أوروبا التابعة لجيلان (شمال إيران) عثر على عقد ذهبي يعود الى سبعة آلاف عام قبل الميلاد. وفي هذا العقد استخدمت ثلاثة نقوش لعجلة الشمس من الذهب وبفاصل منظم وبدقة.

وأيضاً عثر على عِقد في منطقة رودبار جيلان.

عجلة الشمس كانت في البداية على شكل الصليب المعقوف وشيئاً فشيئاً زالت الخطوط المحنية وأصبحت على هذا الشكل (+) وتارة بخطوط مكسورة ولكن بزاوية ٩٠درجة وأخذت شكلاً هندسياً وتركيباً كاملاً. كان القدماء يعبدون الكثير من الحيوانات ومن هنا وجد التوتميسم وأحد هذه الحيوانات وعلٌ جبليّ وهو مظهر الربح والفائدة للطبيعة، أي الشمس. وقد شوهد هذا النقش على أوانٍ تعود إلى قرون قبل الميلاد والأهمّ من ذلك هو العلاقة التي وضعها الناس القدماء بين الهلال والشمس وقرن الوعل الجبليّ. وفي كثير من الأواني الخزفية يشاهد بين انحناءة قرن الحيوان وظهره علامة + أو ‡. وعلى سبيل المثال فقد نقش على كأس خزفي يعود الى ٣١٠٠ قبل الميلاد وقد عثر عليه في سيالك كاشان على علامة+ تحت انحناءة قرن الوعل.

كما نقشت على الأواني الفخارية التي عثر عليها في هضبة (حصار دامغان) تعود الى ٥٠٠٠ عام قبل الميلاد، خلال حفريات عام ١٣١٠ شمسية (١٩٣١ميلادية) صورةُ الوعلِ الجبليّ مع علامة تشبه النجمة أو الشمس وذلك بين انحناءة القرن.

وفي كتاب الأديان الفكري في العالم، هناك صورة لراحة قدم بوذا وعليها نقوش تعرف المعتقدات والديانة والرموز التي كان يعتقد بها ومن ضمنها أربعة أصابع لرجله حيث علامة عربة مهر ومقاساتها متساوية.

وفي إيران القديمة، أعطيت العناصر التي صنعت وأولت وأدارت عالم الوجود مرتبة واحتراماً خاصاً واعتقاداً بأن امتزاج وتقارب هذه العناصر إنما هو بنسبة معينة من الوجود، فإنّه يجب التصور بأنه دليل على أن كل فرع أو بيت منه يشبه جناح المطاحن المائية والهوائية، فإن أحد العناصر هو مظهر من مظاهرها التي تقوم عن طريق دورانه وتحافظ على نظام الطبيعة وذات الخليقة وتتولّد منها الحركة والتغيير والحياة والموت. وهذا الجسم أصبح تدريجياً رمزاً وأثراً تداعت له المعاني فإن العناصر الأربعة أصبحت مقدّسة في الأذهان وصار لها احترام ديني.

إن شكل الصليب المعقوف عند هذه الديانة يعني بالنسبة إليهم امتزاج العناصر الأربعة وهو يحرك عجلة الخليقة وبذلك يستمر نظام الكون.

قال أفستا حول مهره وعجلته مثلما قلنا: إن شمال غرب إيران كانت مركزاً لعبادة مهر. يقول بلوتارك:

«**إن هرمزد يشبه النور في العالم المعنوي ويُشبه الشيطانُ الظلمةُ ويوجد بينهما مهر**»، فمهر في الأديان القديمة يعتبر واسطة بين الله والعباد.

ففي فركرد الرابع (ونديداد) وهو قسم من كتاب أفستا، عندما يأتي الحديث عن العقد والمعاهدة وعقد المعاهدات، تأتي كلمة ميثر=ميترا في البهلوية تكون ميتّر، وفي الفارسية تعني مهر العهد والمعاهدة. فميترا في الهند مثل ميثر في أفستا، يعني حارس الصداقة والعهد ومن هنا تتوضح الصورة بأن مهر عند المجموعتين الآريتين (الإيرانيين والهنود) مقدّس وموضع احترام وتقدير. ولكنّ

زرادشت قلّل من أهمية الآلهة الأخرى من أجل توسعة عبادة مزدا وجعل مهر الذي اعتبره أساساً للربوبية أحد آلهة دينه.

ونظراً إلى أن علامة عجلة مهر قريبة من شاهين وفَرَوَهَرن، لذا فإنه يمكن التصور أنّه في الوقت الذي انتُقص فيه من أهمية مهر، فإن علامة ميترائيسم المقدّسة تبدلت تدريجياً إلى شاهين، وهذا الشاهين هو عبارة عن صورة فَوَهَر أخذت الجاذبية المعنوية والروحية لهذه العلامة وأصبحت مظهراً لعظمة وجلال مينوي.

إذا تجاهلنا العلاقة النجومية التي اعتبرها المنجمون القدماء وخاصة في هذه الدورة بين منطقة البروج والنجوم السبعة حيث كانوا يعتبرون الشمس من ضمنها (كانوا يعتبرون برج الأسد بيت الشمس) فإنه يمكن القول، بأن هذه العلامة الأريائية انتقلت تدريجياً من فخذ الأسد إلى أعلى رأسه. وكانت في بداية الأمر مصنوعة على شكل نجمة وأصبحت على شكل شمس وأصبحت بعد ذلك علامة رمزية وأساسية للأسد والشمس وأخذت قيمة علامة مميزة، ويمكن مشاهدة هذا النقش بصورة أخرى على القاشاني الموضوع على الباب الشرقي لمقبرة بايزيد من بسطام.

القسم الخارجي لقُبَّة مدرسة «**طلاكاري** في» سمرقند» والذي يعود إلى القرن ١١هجرية (١٧ميلادية) سجادة شاه سلطان «**حسين صفوي**» في مدرسة جهارباغ.

د. مقتل الثور وعلاقته بديانة مهر

نجد في مثل العلاقة في التأويلات الأسطورية وخاصة مع وجود تشابه في الأڤستا والمصادر البهلوية ودين مهر:

١. سُوم (*Soma*) وقد جاء في الأڤستا باسم هئوم(*Haoma*) وفي واديها اسم أحد الآلهة الكبيرة واسم عشب تكون سيقانه دقيقة يصنعون منها شراباً قوياً حيث كان الآلهة يستسيغون هذا الشراب كثيراً. ولهذا فإن كمية كبيرة من هذا الشراب يقدم هدية للآلهة وتُسدُّ حاجاتها وكان رجال الدين ومجموعة من المؤمنين يشربون من هذا الشراب المسكر خلال المراسيم الدينية لكي يتقربوا من الآلهة. وكانوا يسمّون هذا الشراب بالإله الكبير وخلال حياة الآلهة يستقون خلودهم منه. فالناس ليس بمقدورهم أن يصبحوا خالدين بشرب هذا الشراب، بل إنّهم يحصلون على نوع من الخلود المؤقت وهو كناية عن وحدة الآلهة وبعبارة أوضح فإنَّه السكر والضياع واللحاق بالآلهة.

إذاً، سوم هو إله الحياة وهو المطر الذي يهطل من القمر فتمتلئ الأرض بالماء وهذا المطر يجعل الأعشاب والأشجار تنمو ويتغذى الإنسان والحيوانات منها. فالجين يتبدل في الانسان والحيوان الى حيوان منوي ويتبدل الجين في الأنثى من الحيوانات الى حليب. ولكن عندما يواجه الانسان والحيوان الموت،

تعود هذه العصارة الى القمر حتى يمتلئ القدح ويعود مجدداً الى الأرض على شكل مطر[1].

وقد حرصت الآلهة على شرب سُوم، بحيث أنّه إذا لم يشرب ابندرا كمية كبيرة من الماء فإنه لن يجلس الى مائدة الأنس والطرب ولن يذهب إلى ساحة الوغى، ولهذا السبب فإنّه عندما يمتلئ قدح القمر في كل مرة تشرب منه الآلهة. هذه العصارة تحوي حياة بيضة الثور المقدس وربما الأحياء الأخرى، تهطل على الأرض فإن الثور المقدس يشرب هذه العصارة عن طريق جذور السيقان حيث يحصل بدنه على القوة ومن هذه القوة التي هي الحليب يتغذى الناس.

ومثلما جاء في مقال كيوش اورن **Geush.Urvan** فإن الثور هو كناية عن القمر وهو واحد مع القمر، ومن جهة أخرى، نرى أثراً من هذه الرواية في أسطورة وهجركا **Vahdgargu** وبنت فرانك **Franag**. هذه القصة جاءت من الفقرة الثامنة وورد شرحها في مقالة باسم أيبي ڤينكهو **Aipi.Vanghu**.

ويروى أيضاً بأنها من أجل الريش لأولادها خلقت جاموسة مقدسة. وقد ربطت الجاموسة الى جانب بركة حتى يمتص الريش الماء من سيقان الأعشاب، بعدها أعطت حليب الجاموسة الى أولادها وأصبحوا خالدين، فالآلهة من أجل الحصول على ماء الحياة أو عصارة عشب الحياة وإلى الأبد قررت أن تقتل سوم (الثور). فسُوم الذي كان قمراً وفي نفس الوقت إله القمر كان له أربع زوجات وحيث أنه كان يكنُّ حباً كبيراً لإحداهن، قامت الزوجات الثلاث الأخرى وهنَّ بنات دكش **Daksha** بتقديم شكوى الى والدهن وقلن له بأن سوم لا يكنّ لهنّ الحب ودكش كان أحد برجابتي **Pradhapati** وبرجابتي كن عشر موجودات أسطوريات يتمتعن بالقوة وقد خلقن من قبل برهما **Brahma**. لذلك أصاب دكش «سُوم» بمرض عضال ولكن عندما أراد دكش أن يبرئ سوم من ذلك المرض

(١) راجع رضاني، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاي إيرانيان باستان» ص٧٢-٧٣.

أصيب بالعجز ولم يتمكن من ذلك، فقام بتعديله وتغيير المرض المزمن الى نوع من المرض الدوري الذي يظهر في حالات القمر. وإن أحد ألقاب القمر سوم، هو سي تا ماري تشي ***Sita.maritchi*** ويعني النور البارد.

وقد وقع خلاف بين الآلهة، ووقعت حرب بينهما أنزل شيوا ***Shiva*** وضربه بسيف سُوم جعله نصفين وهذا شكل من أشكال قتل الثور المقدس وحيث أن مصدر غذاء الثور المقدس قد زال، مات الثور من الجوع. ولكن في رواية أخرى فإن الآلهة تُقرِّر خلال اجتماع لها أن تقتل سُوم ويتولى ڤايو***Vayu*** إله الريح هذه المهمة الصعبة ومن أجل تنفيذ هذه المهمة يطلب من ميترا ووارنا المساعدة وفي النهاية يقضي على سوم بين حجرين. فعلى ميترا أن يرش من أسماعه من عصارة سوم على الأرض حتى يخلق الحيوانات والنباتات، فقتل الثور المقدس وسكب دمه على الأرض أدّى الى ثورة الطبيعة وخلق الحيوانات والنباتات. في الكتاب المقدس الأفستا، في الجزء العاشرالمسمى بـ ميثريشت أو مهريشت. هذا اليشت من أقدم اليشت الموجود (فيشت٥ و١٠ و١٩ من أقدم اليشتات) وأن مهريشت هو الأقدم. وقد جاءت إشارات حول مراكز الآريين وإشارات لمدينتين من الفقرة الرابعة عشرة لم يرَ من أي مكان من الأفستا وحتى لم تكن اشارات جغرافية وأسماء بلدان ذكرت في فركرد الأول لونديداد وجاء في الفقرتين ١٣و١٤ بأن ميترا يقف من على جبل هرا (البرز) ويطلّ على قواعد آرية بقلق وبنظرة الى أنهر كبيرة تجري نحو ايش كت ***Ishkata*** وبثوروت ***Pouruta*** ومئور***Mouru*** وآريا ***Arya*** وكو ***Gava*** أو سوغذ ***Sughaza*** سغد وخِوَائيرزم ***Khvairizem*** خوارزم، خراشمي. لا شك أن هذه الأنهر التي لم يأتِ ذكرها هي أنهر آمودريا، مرغاب، زرافشان وهريرود.

وجاء في يشت الفقرة ١٠٤: «**أن مهر، سوف يأخذ ناكثي العهد ويجازيهم أينما كانوا ولو كانوا في شرق أو غرب الهند**». إن هذه الإشارة تحكي عن وجود

عهد يظهر عدم قدرة فرديسنا على السلطة في بلدان سهل السند وكذلك إشاره الفقرتين الأخيرتين ١١٣و١٤٥حول ما يتكون منه ميثراهوز.

فميثر يتابع الذين يكذبون والذين يخونون العهد في أنحاء البلاد ويقوم بإنزال الخبراء منهم أينما كانوا.

فالعهد الذي يُوقَّع يحترم، سواءٌ أكان هذا العهد مع من يعبد مزدا أم يعبد الشيطان. كما وجاء في يشت ها: «**أشيد بميترا الذي يملك الصحارى الواسعة والمحافظ على البلدان الآرية حيث تستقر الأوضاع في هذه البلدان وتنعم بالأمن وهو يجد الحل للأعمال الصعبة وهو يجلب الخير والنصر للشعب وهو شجاع أينما حل وموضع مدح وإشادة وتعظيم**».

ميتر الأقوى بين جميع الآلهة، وهو يحظى بالإشارة الى جانب زئوثر ***Zaothra*** وهو الماء المقدس الذي يستخدم في المراسم الدينية، وهئوم ***Haoma*** هوم بارسم ***Baresma***.

ميتر له صحاري واسعة، وهو على علم بالأعمال الجيدة التي يقوم بها الناس، له ألف عين ترى وألف أذن تسمع وهو حيّ ينظر من أعلى السماء الى الناس. فمهر ليس فقط إله الضياء والعهد، بل هو إله الحرب والانتصار أيضاً.

يظهر ميتر على شكل الشمس وخلافاً لما نعتقد فإنه ليس شمساً، بل هو ضياء وأنوار الشمس الذهبية. قبل أن تشرق من خلف جبل هرا، فإنّه ينظر إلى البلدان الآرية من أعلى الجبل وهو يلبس لباسه الذهبي وحليّه. ففي الفقرة الخامسة عشرة، يُشار إلى سبعة بلدان ينظر إليها مهر بكل عيونه وهو قلق عليها حيث تزخر هذه البلدان بالمراعي الواسعة والحيوانات الكثيرة. هذا الإله القوي والكبير يمنح العزّة الملوكية والنصر طبعاً لمن يشيدون بـ «**أهورامزدا**» بإخلاص.

ميتر أو مهر هو في الأفستا، مظهر للأخلاق الإيرانية المزدائية. وهو عدوٌ لدود للكذب والكذّابين، إذ من الواجب أن لا يكذب أحد سواءاً كان ربًا

للعائلة أو مختار القرية أو ملكاً، لأن مهر يستاء من أي شيء وأي عمل وأي كذبة، ولهذا السبب فأينما كان الكذب فإنه ينزل منزله هناك بغضب ويجازي الكذابين. وميثر يحظى بالإشادة لأنه يحب الحديث الصادق، يجب الإشادة به لأنّه يمنح الفائدة والثروة وإنّ جسمه مظهر للكلام المقدس الإلهي لأنّه يعطي العظمة والقوة، والنعمة والثروة، ويجعل العائلة زاخرة بالسرور والفرح وفي المقابل يقف بالمرصاد «خان ومان» وهما أعداء الصدق والكذابين ويدمر عديمي المحبة. فمكان مهر يسع الأرض بأسرها، وهو ملجأ واضح وشرق وخارج عن حاجة كل محتاج، فثمانية آلهة هم من أتباعه ينظرون من أعلى ثماني مرتفعات، إلى أعمال الناس حتى إذا ما حصل خرق لعهد ما أو أُعطي لجوء لناكثي العهد والكذابين فإنهم يهاجمونهم ويفضحونهم، ومهر هو أيضاً بعيونه الألف يراقب أنصاره ويحفظهم من كل خطر.

فأهورامزدا صنع لميثر أجمل الأماكن على قمة هرئيتي برز ***Haraiti_Bareza*** العالية والمضيئة، وهناك حيث يقف مهر ينظر إلى الناس بقلق، في ذلك المأوى اللامع الذي لا حرّ فيه ولا برد، لا ليل فيه ولا نهار ولا يصيبه الضباب. لقد أعدّوا هذا المكان السماوي بأمر من أهورامزدا، أمشاسبندان والشمس، فمهر ينظر إلى العالم الترابي بأسره من مكانه السماوي الأعلى وعندما يقوم أي رجل بعمل خلافاً للصدق وأصول العهد، فإنه يقوم إلى جانب سروش وإله نئيريو. سنجها *Nairyo-Sangha* بتحريك عجلته وتجازي عجلته ناكثي العهد والكذّابين. أينما وُجدوا يرفع إله ميترا يديه نحو أهورامزدا ويعاتب وهنا نسمع العتاب الذي يطلقه إيزدتيشترى *Tishtrya*: «**أنا حارس جميع آلهة الخير، أو أهورامزدا ولكن الناس لا يخصونني بالمدح كما يجب في مراسم المدح، وهم لا يشيدون بي مثلما يشيدون بالآلهة الآخرين، بينما أنا أنزل بكل قواي عندما يحتاجون وأشدّ حوائجهم**»[1].

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاي إيرانيان باستان» ص:٧٦-٧٧.

وعندها تقرأ أنشودة في مراسم الدعاء للإله. نقرأ في الفقرة ٦٠و٧٢ جزءاً آخر من النشيد القديم عن مهر كالتالي: إنّ الثناء والمدح مختص لمهر الذي يملك الأراضي الواسعة وهو حاد البصر ولا يمكن لأحد أن يخدعه لأنّ له عشرة آلاف عين. هو من يشرف على القرى والمدن وهو مستعد دائماً لتقديم العون للمؤمنين، فينزل المطر في الموعد المقرر وتخضرّ الأرض والأعشاب عندما ينزل المطر. فميثر ينزل في أي مكان من أجل نشر دينه وهو يشعّ بنوره على سبعة بلدان وهو في نفس الوقت قوي وذو قدرة وسريع، يمنح جميع النعم وهو الذي يحافظ على قطعان الأغنام والأبقار وهو ذو العظمة والجلال وهو يرزق العائلات الأولاد الصالحين ويَعُدُّ الآلهة مثل أرت((*Art*) وبارندي (*Parandy*) وفركياني وداموئيش أوبامانا (*Damuish.Upamana*) وفروشيان من أنصاره.

علينا أن نتذكر بأن الآلهة أرادت أن تقتل الثور المقدس الذي خلقه وهجركا وقد تمكنت من هذا العمل، فمقتل الثور المقدس وإراقة دمه على الأرض أدّى إلى أن تتغير الطبيعة وتظهر الحيوانات والنباتات.

وقد ظهرت فيما بعد رسوم في مهراب[1] تُظهر كيف أنّ الثور قد ذبح وقدم قرباناً. فالنار بسقفه اللازوردي والمزيّن بالنجوم، كناية عن السماء وكل العالم ولهذا السبب كانوا يزينون مداخل وحواشي الغار بالورود والرياحين وكانوا يمررون ساقية الى داخل محرابه من أجل النظافة، وهذا الأمر جعل ذبح الثيران وتقديمها قرابين يتمّ في فصل الربيع وكانوا يفسرون ذلك بأنه إذا ما سكب دم الثور على البساتين والسهول والمزارع فإنها تكسب الخير والطراوة في الطبيعة. فذيل الثور له دور حيث يتمّ منه إنتاج حبّات القمح. وبعد أن يحل الربيع ويمضي الصيف والخريف يأتي الشتاء الذي يقضي على كلّ شيء وبعد أن كانت الحياة

---

(١) مهرآب هي عبارة عن نافذة تفتح باتجاه الشمس وكان المؤمنون يعبدون أهورامزدا (مكان باتجاه الشمس).

مزدانة بالنشاط والسرور تتحوّل الى الركود والذبول. ولكن عندما كان يذبح الثور في مطلع الربيع فإن الحياة كانت تدبّ من جديد على وجه الأرض. كانت هذه الرواية ومثلها موجودة في بابل وسومر والصين واليابان وسوريا وروما واليونان ومصر والهند وأماكن أخرى. وجاءت نماذج بارزة منها في الأساطير الأيسلندية، وبموجب هذه الأساطير فإن فكرة ذبح الثور موجودة منذ زمن وهي خرافية ولا تتشبه للإنسان الذي تدبّ فيه الحياة ويحب الطبيعة، وعلى أساس حركة الطبيعة لكلّ عام فإن فكر الإنسان القديم غير الناضج قد ألّف أساطير حتى يقلل من تطور الطبيعة وأصبح ذبح الخرفان والعجول والديوك عادة. ولقد سموا الربيع في الأساطير البطولية والدينية للشعوب القديمة بطلاً وشاباً وبهلواناً وجميلاً ومشهوراً[1].

وقد كان هذا البطل بصفاته وخصاله التي ذكرت البهلوانية والشبابية يختفي فجأة، وكان لهذه الغيبة طرقاً عديدة وكان منها الصعود الى السماء. وفي هذه الأثناء كانت مجموعة من الناس تقيم مراسم العزاء له وتذرف الدموع الغزيرة حزناً عليه كما وكانوا يقيمون مراسم لذكراه ولكنهم كانوا يعلمون بأن هذا البطل سوف يعود، وحيث أن الشتاء كان يرحل والربيع يبدأ كانوا يقيمون احتفالات للربيع. وتبعاً لعض المصادر البهلوية فإن الشيطان حسب (جاما سب نامة ودينكرد)، قد وصل الى أول خليقة لأهورامزدا في الحرب بين الخير والشر وقد قتل الثور، وخرج من دمه وجسده أنواع الأعشاب والحيوانات على الأرض وعندما أراد الشيطان أن يزيل نطفة الثور، فإن النطفة انتقلت الى القمر، ولهذا السبب ارتبط نمو الأعشاب وازداد نسل الحيوانات مع القمر[2]. هذه الروايات نقلت من إيران

---

(١) رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودين هاى ايرانيان باستان» ص:٧٨.

(٢) رضى، هاشم: «آئين مهر- ميترائيسم» ص:٨٠.

الى أوروبا وأضيفت إليها أسرار ونقاط مبهمة جديدة وبذلك راج قتل الثيران والخرفان هناك.

إن ما يثير الانتباه هو أن ميتر أو مهرنيز يأخذ بداية الربيع حياة جديدة. فقتل الثور على يده يؤدي إلى إعادة الحياة إلى الطبيعة وفي بداية الشتاء يغيب فجأة ويركب عربته ويصعد الى السماء.

إنّ الموضوع الذي يثير الدهشة هو ولادة ميترا، لأنه ولد من قطعة حجر. ولكن وجدت لوحة تظهر ميترا وهو يخرج من شجرة. وهو في البداية يحل من بطن شجرة ولكن بعد ذلك يخرج غصن ويولد ميترا منه كالوردة.

فأساطير (آت تيس *Attis*) وأدونيس(*Adonis*) وأوزيريس(*Osiris*) تشبه بصورة كاملة أسطورة ميترا. كان (آت تيس) أحد الآلهة الآسيوية وذهب الى أوروبا ودخل أساطير اليونان والرومان. (آت تيس) يدلّ على الربيع والطبيعة الخضراء المورقة. أمه (الشتاء) تعشقه كثيراً وتريد أن تتغلب عليه بما يسمّى بـ (غلبة الشتاء)، ولكنَّ (آت تيس) يخصي نفسه ولا تتمكن أمه من السيطرة عليه. (هذه الأسطورة تتطابق مع دخول الشمس في برج العقرب وهو بداية الخريف). في هذه الأثناء يموت (آت تيس) وتقام مراسم العزاء له في آسيا وفي مثل هذا الوقت يخصي عدد من الأشخاص أنفسهم. (ولا ننسى أن السيد المسيح يقول (مرحى للذين يخصون أنفسهم). ولكن عندما تقع الشمس في برج الثور وهو بداية الربيع، وتبدأ الطبيعة بتجديد حياتها، يحيا (آت تيس) مرة أخرى ويخرج على شكل وردة من التراب ويحصل هذا في وقت تقام فيه احتفالات ربيعية كبرى لأجله.

إن أسطورة أوزيريس كانت في مصر على هذه الحالة، فأساطير أدونيس والآلهة الأخرى التي أستُقيت من الأساطير والأساطير اليونانية. ومن المدهش كثيراً أن هؤلاء القوم المختارون من العالم القديم، تعود جذورهم الحيوية الى

شرق آسيا ومن الشرق الأوسط. وهناك روايات مختلفة حول حياة أدونيس فإذا ما اجتمعت أصبحت بحدّ ذاتها رسالة. قد كتبنا نموذجاً على أشهر هذه الروايات.

وكان لملك سوريا تئي ياس(*Theias*)[1] بنت اسمها ميترا(*Myrrha*) وقد أثارت غضب أفروديت عليها أن تنام مع والدها. وقد نامت لمدة اثنتي عشرة ليلة بصورة سرية مع والدها وبمساعدة من مرضعتها. ولكن في الليلة الثانية عشرة رأى سلطان سوريا أن المرأة التي تنام معه ليلاً وفي الظلام ليست سوى ابنته ولهذا السبب قرر أن يقتلها. وقد فرت ميترا ولجأت الى الآلهة وقد عفت الآلهة عنها وأخرجوها على شكل شجرة، وبعد عشرة أشهر وجدت داخل الشجرة شقاً وُلد منه ولد سُمّي أدونيس. وتبنت أفروديت الولد أثر دهشتها من جماله كلفت شخصاً اسمه برسِفُن(*Persephon*) بتربيته. قام برسفن برعاية الطفل وبعد أن كبر تعلقّ به تعلقاً شديداً فامتنع عندها من تسليمه لأفروديت، ووقع عراك وشجار بينهما. وأخيراً قام (كالي يوب وزئوى) بالحكم بينهما وتقرر أن يقضي أدونيس ثلث العام مع برسفن وثلث العام مع أفروديت والثلث الآخر بما يراه هو. وفضّل أدونيس أن يقضي الثلث الآخر مع أفروديت، وبذلك كان يقضي ثلثي العام مع أفروديت وثلث العام مع برسفن[2] هذه الرواية تدل على ارتباط الطبيعة مع الربيع وظهور الأعشاب يدل على ثورتها.

ويقضي أدونيس ثلثي العام مع أفروديت وهي إلهة العشق والطراوة، ومظهر الربيع ويقضي ثلث العام مع برسفن في الطابق الأرضي.

في هذه الأسطورة، هناك اتصال بين خروج الأعشاب وولادة أدونيس من الشجرة وحياته خلال ثلثي العام على الأرض وثلث العام تحت الأرض ومع الطبيعة (الحر والصيف والشتاء والبرد والثلج).

---

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص: ٨٠.

(٢) راجع: رضى، هاشم: «آئين مهر- ميترائيسم» ص: ٨٢.

إن قصة أوزيريس في أساطير مصر القديمة تثير الإنتباه، كانت ايزيس(*Isis*) زوجة أوزيريس وأم هورس(*Horos*) إله الشمس، حيث يقوم ست (*Set*) إله الظلام والظلمة بقتل أوزيريس وهو مظهرمن مظاهر الربيع وثورة الحياة، ويدخل هورس(إله الشمس) في صراع معه للانتقام من مقتل أوزيريس، عندها يحزن إيزيس ويندب القتيل ويقوم بمساعدة الآلهة الآخرين للعثور على أشلاء أوزيريس ودفنها، هذه النقط ذات أهمية كبيرة، هي أن إيزيس يجسد زوجة أوزيريس على شكل أنثى ثور وعليها إشارة الهلال، أوزيريس بعد فترة يعود الى الحياة في بداية الربيع. إن ظهوره في بداية الربيع على شكل حرارة تدبّ في النباتات، كان يدعو المصريين لإقامة احتفال له في مصر واليونان وذلك في بداية الربيع من كلّ عام. وما يحظى بالأهمية هو أن أوزيريس هو إله العالم السفلي وحاكم الأرواح، وطبقاً لبهمن يشت واشارة يشت العاشر والمصادر المأخوذة من المصادر البهلوية والافستائية فإن ميثر (مهر) حكم الأرواح.

وهكذا تكون قصة ديوني سوس(*Dioni Sos*) مدهشة جداً. وهو موضوع الربيع وثورة الطبيعة. فحياته ومودته مختلطان مع نموّ النباتات مع الربيع والشتاء. وهو يخرج على شكل وردة ونبات كل عام وفي بداية الربيع ولهذا السبب احتفلوا بولاته مرة ثانية.

وجاء في رسالة سدّ وفي الفقرة هشن، بأن نطفة زرادشت موجودة في مياه بحيرة كيان سيه(*Kyansih*) وكس اى(*Kasaoya*) زره، هامون وأن مشيئة أهورامزدا تقوم على أن هذه النطفة تتولد منها كل ألف عام أحد ثلاثة موعودين مزدائيين من فتاة بهدينية تغتسل من ذلك الماء وتصبح حبلى منه. وبالقرب من البحيرة تلك جبل، ويقع الى جانبه عين ماء، ويعيش عندها عدد من رجال الله، فهؤلاء الرجال كانوا يرسلون الفتيات مرتين كل عام من ذلك الجبل المسمى بجبل الله، حتى يغتسلن من مياه البحيرة، وفي المرتين يصادفن نوروز ومهركان.

وذلك خلال ألف عام يولد أحد الموعودين من ثلاثة فتيات. فتعميد المسيحيين، وجعل النار ماءً متبركاً في الكنيسة، والمشروبات والأحواض التي تقام داخل المساجد والتكايا، كلها تشير الى ذكريات دين ميترا، وقد ذكر في مهريشت بوضوح الغسل الذي جاء في دين ميترا.

وفي جميع المحاريب، كانت النارالمقدّسة مشتعلة موضوعة داخل مجمرتين توضعان على جانبي المحراب فإن الدين المسيحي ولد من دين ميترا. مثلما كانت عيون الماء جارية من المحاريب. وقد حفر المسيحيون على توابيتهم رسوماً تظهر انطلاق الماء من العين بواسطة موسى الكليم[1] ومن المحاريب كانت بئر الماء موجودة أو عين ماء حيث كان يغتسل المؤمنون فيها. وقد جاء في مهريشت بصراحة، إن الذين يريدون ان يشاركوا في مراسم الإشادة بمهر عليهم أن يغتسلوا مرتين في المرة الأولى لمدة ثلاث ليالٍ والمرة الثانية يومين وليلتين.

ويشاهد في الرسوم واللوحات التي تمّ العثور عليها أن المرشد المهرائي هي كلمة تطلق على أتباع دين مهرأو المغان (رجال دين ميترا) حيث يقومون بتعميد المؤمنين. وفي مدخل محرابه هناك حوض ليس معلوماً هل كانوا يستخدمون أحواضه الصغيرة من أجل غسل الأشخاص الآتين حديثاً أم لا.

إذاً، إن السبب الرئيسي لاهتمامهم الكبير بالغسل في روما كان اعتقادهم بميترا. ففي روما كانت هناك حمامات كبيرة جداً وعظيمة. في عهد كاراكالا إمبراطور روما الذي كان من أحد أتباع ميترا، بنيت حمامات كثيرة

---

(١) ففي سفر الخروج الباب السابع عشر الآيات ٣ إلى ٧ جاء بأن اليهود بعد خروجهم من مصر واجهوا نقص الماء وبذلك قاموا بتبديله مع موسى. وقد توسل موسى الى الله بأن هؤلاء القوم سوف يرمونه بلاحجر وقال عليك أن تجد حلاً. قال الله اضرب بعصاك صخرة هوريب(***Horib***) حتى يخرج الماء وفعل موسى بما أمر، وقد صنع قديسو الأديان رواية حول معجزة إخراج الماء من الأرض أو الصخر وهذا العمل يعد من المعجزات.

معروفة. وكانت مجموعات كبيرة من المقاتلين الرومان، يدخلون هذه الحمامات ويقيمون فيها مراسم الغسل من أجل الدخول الى المحاريب وعبادة ميترا.

وقدكان السمك أحد علامات المسيحيين وصلت من القرون الأولى وكان السمك رمزاً للتعرف على أتباع هذا الدين، وهذا كما التعميد دلالة وعادة ميترا، وفي أحد محاريب أوروبا رسم صورة سمكة على رجل ميترا وهذا رمز مسيحي ودليل على دين ميترا. إن المهم هو أن كثيراً من الرموز وأسرار ميترا وخلافاً لما هو معروف، ذات أصول إيرانية حافظت عليها، ويقوى هذا الظن وربما يتبدل الى يقين بأن الرسوم التي نقشت على الإناء الذي تمّ العثور عليه على مرتفع حسنلو، كان من ضمنها رسم لسمكة وهي عبارة عن جزء من الرسوم الموضوعة تحت الإناء.

والتعميد المتداول الآن عند المسيحيين مثل كثير من المراسم والآداب الأخرى، مقتبس من الآريين، ولا يخفى أن هذا العمل كان متأصلاً وقديماً جداً بين الأقوام الآريين عندما اقتبس. وكانوا يعمّدون الطفل باسم الشمس وهم يقرؤون النشيد المقدس ويغمسونه ثلاث مرات تحت الماء. والنقطة المشتركة هي أنهم خلال هذه المراسم التي كانت تقام باسم الشمس كانوا يتوسلون بربّ الشمس، والتعميد لم يتم فقط أيام الطفولة، بل كانوا يعمّدون الشباب في سنوات بلوغهم حتى يتخلصوا من الذنوب والأرجاس والتعميد كان يعني بأن الشخص المعمّد ولد من جديد[1].

وكان مرسوماً عند الزردشتيين القدماء والإيرانيين قبل آشوزردشت، تعميد الأطفال في المحاريب وبيوت النار. ومن المحاريب كان رجال الدين الزردشتيون يعمّدون الأطفال باسم الشمس وكان رجال الدين يدخلون الأطفال تحت الماء وبعدها كانوا يطلقون عليهم أسماءً، فالتعميد كان يرافق مفهوماً

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص:٨٣.

لولادة أخرى أي أن تعميد الإنسـان كان يهدف إلى تنظيف الإنسان من الخطايا والذنوب والأرجاس، ولهذا السبب فعندما كان الشباب غير الناضجين يريدون دخول المعبد للمشاركة في المراسم الدينية، كانوا يُعمَّدون هناك وقد نقل (ديو جنس) لريتولى روايات جيدة حول مراسم تعميد الأقوام القدماء. في روما كان التعميد دليلاً على براءة الإنسان من الذنوب والولادة من جديد. في السويد والنروج كانت تقام هذه المراسم، وكانت هذه المراسم معروفة بين الجرمن (الألمان). وكان التعميد موجوداً في المكسيك بين ماياها وآزتكها مثل كثير من الطقوس والمعتقدات المسيحية. ومن ضمن الاعتراف بالذنوب وغفران الذنب. ومن المراسم الدينية أن كان الكاهن يوقف الطفل نحو الشرق وأمام الشمس، وبعد قراءة الدعاء والأوراد لنصفي الرب باسم (كوكول كن ***Kukulcan***) و(كواتزال كواتل(***Quetzal-coatle***) كان يبلل باصبعه فم وصدر الطفل بالماء المقدس وبعد ذلك كان يغطسه في الماء. إن ما كان يثير الانتباه هو بأن نصفي الرب المذكور كانا يشبهان ميترا من حيث نظرة أساطير الحياة وأنها كانت آلهة غابت عن الناس حتى تعاد مرة أخرى.

هـ. التثليث عند ميترا

إن أساس التثليث عند المسيحيين يقوم على التثليث عند اليهود والإيرانيين. ولكن الأساطير الهندية والإيرانية الجميلة جداً استخدمت المسيحية لأغراض إلهية وصنعوا منها خليطاً وهاجموه بعد قرن من الزمن وتسبب ذلك بتفرقة كبيرة بينهم[1].

إن تثليث ميترا عبارة عن: ميترا وكوتس (***Kotes***) وكوتوباتس (***Kotopates***). فكوتوس وكوتوباتس الذان يسميان باسم كوت(***Kot***) وكوتوبات (***Kotopat***) يلعبان دوراً أثناء ميلاد ميترا من الصخرة. إن الذين يعبدون مهر يعتبرون هذين الشابين راعيان، إذ إن بعض الرسوم تظهر هذين الشابين على شكل راعيين، ففي أكثر الرسوم التي عثر عليها من ميترا كان هذان الشابان يقفان عند ميترا يقف أحدهما على الجانب الأيمن ويقف الثاني على الجانب الأيسر وكل منهما يحمل شعلة بيده. فشعلة كوت ممدودة نحو السماء وكناية عن بزوغ الشمس وشعلة كوتوبات ممدودة نحو الأرض وكناية عن غروب الشمس وميترا يقف بين الشمس عندما يلمع بين السماء[2].

---

(١) ن. م.، ص: ٨٤.

(٢) رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص: ٨٢-٨٣.

يقول دنيس أرئوباجي (*Denis Areopagie*) الذي كان يعيش في القرن الرابع الميلادي: «**ميتر الإله الحامل للشعلة في يديهما، هم آلهة مهر الثلاثة**».

ففي الحديث السابق، جاء شرح عن أسطورة ميلاد ميترا، وقد لوحظ بأنه بموجب بعض الرسوم فإن ميترا قد ولد من شجرة الصنوبر. إن شجرة الصنوبر والسرو شجرة خاصة بالشمس لأنها شجرة مخضرة دائماً وطرية. وفي رسم آخر، خرجت من شجرة السرو ثلاثة أغصان ومن كل غصن يتجلى ميترا والأعين.

وفي نصوص الأفستا والمصادر البهلوية فإن ميترا هو الإله الذي يتدخل في أحداث القيامة وميزان الأعمال يوم القيامة والتحكيم في عمل الأرواح. فقد سمي مهريشت بأنه حكم بين أرواح الأموات. ففي مهريشت سمي عدد من الآلهة الذين يقفون إلى جانبه. في الجهة اليمنى يقف الإله سروش (سراونا) ومن الجهة اليسرى يقف الإله رشنو[١] ومقابله يقف ورث رغن (*Verethraghna*) أو إله بهرام، إله الحرب والنصر وأمامه خنزير وحشي غاضب في حال الركض، ميترا هو إله الحرب وبهرام هو إله النصر ويرى دائماً في صورة هجوم[٢] فالإلهان اللذان يقفان الى يمين ويسار ميترا ويعرفان على أنهما كوت وكوتوبات هما إلهان غَيَّرا شكليهما وقد جاء في الفقرة ٩٩و١٠٠ من اليشت: عندما يركب مهر عربته ويسير سريعاً في الأفق، يقف على جانبه الأيمن سروش وعلى جانبه الأيسر رشن (*Rashon*) فكوت وكوتوبات هما سروش ورشن.

سول (*Sol*) إله الشمس حلّ في روما محل شمس أفستا هوخشئت (*Hvare Khshata*). ففي الأفستا جاء ميترا في وقت كانت الشمس قريبة من بعضها البعض جداً والشمس من الآلهة التي تساعد مهر ولهذا، فإن اليونانيين قد وضعوا شمسهم هليوس (*Helios*) والروم وضعوا شمسهم سول في خدمة مهر. ولا يخفى أن كثيراً

---

(١) يشت العاشر ٢٥/ ١٠٠.

(٢) يشت العاشر ١٨ / ٧٠.

من الآلهة والعناصر الأسطورية المصرية والبابلية والسومرية والرومية واليونانية وضعت بتصرف خدمة ميترا، ولكن الفروع تطورت وقد أحاطت الشخصيات الإيرانية بميترا وتغيرت الأسماء. وفي أحد المحاريب باسم سانتا بريسكا والتي تمّ الكشف عنه في روما ومعروف جداً، يوجد الى جانبه ما يشبه غرفتين إحدهما بلون برتقالي تظهر كوت وديكه بنفس اللون[١] والغرفة الأخرى بلون أزرق غير شفاف مع لون باهت وخاصة كوتوبات الذي يظهر حزيناً. فرسم الديك الذي جاء في مكان ولون واحد مع كوت، يزيل أي لبس بأن كوت هو نفس سروش. لأن الديك هو رسول سروش وطائر مقدّس كان مشهوراً باسم طائر إيران في يونان القديمة. هذا الطائر هو مساعد سروش والعدو اللدود للشيطان والشياطين. وفي الأفستا نرى أن صياح الديك يقتل الأعداء والشياطين والظلمة ويدعو الناس إلى العمل وبذل الجهد.ويقول هيبوليت *(Hippolit)*: «كان أتباع كيش يعمّدون خلال السَحَر عندما يصيح الديك.

---

(١) في الرسوم الأوروبية يقف الديك الأبيض إلى جانب ميترا.

و. ميترا وذبح الثور

تنتهي مهمة ميترا بعد أن يقدم الثور قرباناً على الأرض وعند ذلك يستعد للعروج الى السماء. ولكن قبل العروج الى السماء، يقيم مأدبة عشاء وتسمى العشاء الأخير وهذه المأدبة تقام تقديراً لانتصارات ميترا وتوديعه لأتباعه. ويجلس في مقدمة هذه المأدبة سول إله الشمس الرومانية وميترا ويأكل الجميع لحم الثور الذي قدم قرباناً. وفي هذه المأدبة التي وصلت رسوم تحكي رموزها وأسرارها، يشارك مجموعة من أنصار ذلك الدين في الطعام والشراب المشترك ويساهمون فيه. فمجموعة من الأنصار الذين كسبوا تقدماً في هذا الدين، مشغولون باستقبال الضيوف ويدورون وفي أيديهم أقراص الخبز درئون (***Draon***) وشراب هئوم (***Haoma***) وميترا وسول يحبسون في حالات متعددة وهم منشغلون بتناول الطعام والاستراحة. ونرى في الرسوم، أنّ المؤمنين من الدرجات العليا وذوات المناصب الدينية يلبسون ملابس ميترا ويتخلّقون بأخلاقه وهم مشغولون بالحديث أو تناول الطعام. ونرى في رسم آخر ميترا وسول ومجموعة من رجال الدين (مغان) يقفون خلف الثور المذبوح. ويلاحظ بوضوح أن الإخوة في الدين متساوون ومن جهة أخرى فإن جماعة المؤمنين بمشاركتهم في هذه المراسم يريدون الحصول على القوة والروحانية من الحيوان المذبوح. (إن الفهم الكامل لهذه الصور والمراسم لا يتم بدون معرفة الرمز بصورة دقيقة لأن هذه النقطة هي التي تبرر هذا التحليل

المنطقي لهذه المراسم). كما ويمكن البحث في العالم القديم عن هذه المراسم ومثلها كثير.

كان لدى الآريين وبعض الشعوب الآرية الأصلية، الثور حيوان مقدّس يحرّم الاستفادة من لحمه وجلده وأية استفادة أخرى. هذا العمل كان يطبق بين الهنود بصورة أكبر وبين الإيرانيين بصورة متوسطة. ولا يزال ذبح الثور واستخدام لحمه مكروه عند الزرادشتيين. وفي الأساطير الاسكندنافية التي تتشابه كثيراً مع الأساطير الإيرانية فإن العنصر الأول للبشر كان سابقاً لوجود الأساطير حيث الثور كان في البداية. ولهذا السبب فإن مجموعة المؤمنين بميترا كانوا متساوين وكانت الأخوة منتشرة. الكل كان له ملابس موحدة وكانوا يقفون صفاً واحداً في مجالس الغذاء المقدس حيث كانت المواد الغذائية الأصلية اللحم ودم الثور وكان أنصار المرشد ومجموعة السالكين والباحثين يقفون في مستوى واحد. وإن رسمهم على الثور يدل على أنهم متساوون مع الثور والحيوان المقدس ورمزهم. وفي مجالس الاستقبال التي كان أتباع هذه الديانة يقيمونها فيما بعد إحياءً لذكراه، كانوا يقدمون أنواع الفواكه واللحوم وبعض الأحياء الأخرى والخبز والشراب[1] وفي مراسم لإحياء الدينية، كلما كان متعذراً إعداد الثور، فإنهم كانوا مجبرين على ذبح الحيوانات الأخرى. وإذا ما تعذّر ذلك أيضاً، كانوا يقدمون الخبز والشراب فقط. فاستهلاك الخبز والشراب حتى في العهد الميترائي لم يكن شيئاً جديداً، لأن استهلاك الخبز المقدّس في دين المزدائيين والذي كان يسمى دران(*Draona*) والشراب كان هئوم. فقد دمر المسيحيون، مع الأسف الشديد، المحاريب وذلك في القرنين الرابع والخامس الميلادي وبتحريض من قس أناني ومتعصب باسم ترتوليان (*Tertulian*) وقاموا بملاحقة أتباع دين ميترا. وفي هذا المجال،

---

(١) الشراب كان في ذلك الزمان عصارة عشب هوم وكان مسكراً وشافياً وكان يسمى هئوم(*Haoma*).

تضررت لوحات الرسوم المرتبطة بالخبز والشراب أكثر من الرسوم الأخرى، لأن المسيحيين أدركوا بعد عدة قرون بأن أعمالهم وتصرفاتهم تقليد عن الميترائية التي كانت رائجة قبل آلاف السنين في إيران وأن مراسم أوكاريستي (*Eucharistie*) المقدّس بذلك الشكل والهيئة والمفهوم، هو أصل وأساس الدين الميترائي. ذلك القس كان يصدر أحكامه على هذه المراسم بأن أتباع مهر اقتبسوها من المسيحيين بشكله الشيطاني. وبرغم عبادة مهر فإن ذبح الثور كان يؤدي الى ثورة الطبيعة وذلك عام ٦٥٠٠ قبل الميلاد كما كانت الأعشاب تنمو من الأرض وتسرح الحيوانات في المراعي، وكانت تحصل ثورة في نفس الحليب وداخله؛ فشرب الدم وأكل لحم الثور، كان يجعل النفس أقوى ويصفيها وكان يعدّ الانسان لكي يشارك بصورة أفضل من الثورة. كان أن ميترا وخورشيد (الشمس) بأكلهم اللحوم وشربهم دم الثور كانوا يريدون أن يكونوا متساوين مع الحيوان المقدس.

كان المسيحيون ينسبون جميع المراسم والآداب الميترائية الى أنفسهم، فالعشاء الرباني والعشاء المقدس الذي تناوله المسيح مع حوارييه،وبعد ذلك صلب وصعد الى السماء كل ذلك مأخوذ من المراسم الميترائية[1]. قال عيسى المسيح في العشاء الأخير لحوارييه:أنا خبز الحياة، فآباؤكم في الصحراء أكلوا وماتوا، هذا الخبز نزل من السماء حتى إذا أكله أحد لا يموت، ومن يأكل من هذا الخبز سيبقى حيّاً الى الأبد والخبز الذي أعطيه هو جسمي أقدمه الى العالم ليحيا.

بعدها كان اليهود يتنازعون فيما بينهم ويقولون: كيف يمكن لهذا الشخص أن يقدم لنا جسده لكي نأكله.

قال عيسى لهم:آمين آمين أقول لكم إذا لم تأكلوا جسد أولادي ولم تشربوا معهم، لن يكون لكم حياة، وكل من أكل جسدي سيكون له حياة خالدة وأنا سوف أوقظه يوم القيامة، لأن جسمي سيكون قابلاً للأكل ودمي سيكون قابلاً

(١) رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص:٨٩.

للشرب، إذاً فمن يأكل جسدي ويشرب دمي يبقى داخلي وأنا داخله، مثلما بعثني أبي الحي أنا من أبي الحي. فمن يأكلني سيبقى حياً بي. هذا هو الخبز الذي نزل من السماء وليس مثل آبائكم الذين أكلوا وماتوا، بل إن من يأكل هذا الخبز فسيبقى حياً الى الأبد[1].

ففي دين ميترائيسم توجد أسطورة كالآتي: يصعد ميترا بعد أن يتناول العشاء المقدس مع أنصاره الى السماء، فأداة الصعود كانت عربته تجرها أربعة خيول، وفي الرسوم التي تم العثور عليها، كان إلهان باسم سُول وهليوس (*Helios*) يجران العربة. وميترا لا يمتنع عن مساعدة الناس والمؤمنين بدينه. ويهدي أرواح الأنصار للعبور في الطبقات السبعة للسماوات ليصلوا الى الطبقة الثامنة وهو موقع النور والاستقرار المطلق. والمنطق الطبيعي لهذا الموضوع يلزم أتباع هذه الديانة أن يتحرروا من كل الذنوب حتى يستطيعوا المرور في هذه المراحل السبعة لتصفى روحهم من كل الخطايا عندها فقط يصلون الى مرحلة النور والكمال المطلق.

ولا يوجد خلاف بين الباحثين حول تراتبية الدرجات السبع أو المقامات السبع باستثناء حالة واحدة وهي المقام الثاني والذي سنأتي على شرحه تالياً. والمقامات السبعة الروحانية هي:

المقام الأول: نعيق الغراب (*Corax*) ويطلقون عليه اسم يبكِ (الرسول).

المقام الثاني: كري فيوس (*Cry Fius*) الذي يعني المختفي أو المغطى.

المقام الثالث: الجندي (*Miles*).

المقام الرابع: الأسد (*Leo*).

المقام الخامس: الفارس (*Parsis-Perses*).

المقام السادس: الشمس (*Heloodrooms*).

---

(١) إنجيل يوحنا، الباب السادس، الآية ٤٨ وحتى ٥٨.

المقام السابع: الأب (*Pater*) أو أب الأباء (***Pater-Patrum***).

وحيث أن أصحاب ميترا كانوا يستخدمون اللغة اليونانية وقد استخدموا اللغة اليونانية في تسمية هذه المقامات السبعة.

وقيل سابقاً، بأن ميترا بعد قتل الثور أقام مأدبة مقدسة، وصعد الى السماء على عربة الشمس، فإنه عند القيامة سيرجع الى الأرض كناج أو مخلص أو سوشيانت. وفي الديانة المانية فإن نيترا يعتبر ناجياً من الثورة قبل احتراق العالم. فميترا في السماء هادي أرواح المؤمنين، وعلى الأرواح أن تعبر من سبعة سماوات وفي كل سماء(فلك) أن تبعد أحد العناصر الغانية عنه، حتى ترد الفلك الثامن منزّهاً ونظيفاً من قبل أهورامزدا النور المخفي.

وكان على المؤمنين أن يعبروا سبعة أدوار للتصفية والتزكية من أجل الوصول إلى المقام الأعلى، وفي كل مقام كان هناك مشقات وصعوبات وعذابات للوصول إلى التقدم وكان على المريدين والسالكين أن يتحملوها، إن الذين كانوا يعبرون المرحلة السادسة ويصلون الى المقام السابع هم قليلون جداً، ولكنهم كانوا يستقرون في النور الخالد وآخر عتبة السماء وذلك بواسطة أهورامزدا وميترا أنفسهم.وأما شرح المقامات السبعة هي فكما يلي[1]:

المقام الأول: طبقاً لرواية برفيريوس (***Parphyrios***) فإن المقام الأول هو مقام خدم مهراية، والذين كانوا يريدون أن يكونوا من زمرة الأتباع، وتحت إشراف الأب المقدس فإنّهم كانوا يقبلون بالتحاقهم بمجموعة المؤمنين. فما يقوله الباحث والمؤرخ المشار إليه يتلاءم مع ما اكتشفه علماء الآثار، لأن بعض الرسوم تظهر الأشخاص الذين صوّروا أنفسهم على شكل غراب، كانوا منشغلين باستقبال المشاركين في مأدبة الطعام المقدس. فالذين كانوا يريدون أن يلتحقوا بالجماعة كان عليهم أن يقوموا بسلسلة مراسم وتشريفات. هذه المراسم كانوا

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص:٩٠-٩١.

يسمّونها كروفينا(*Korvina*) كوراسينا. ساكرا(*Corasina-Sakra*). وعندما كانت تنتهي هذه المراسم، كان الأب أو العجوز المقدس يسميهم بالغراب المقدس (*Leros.Corax*) وهذا كان يعني بأن مقامهم أصبح رسمياً، ومن هنا كان هؤلاء يلبسون من المحاريب ملابس الغربان وكانوا في بعض المراسم يقومون بتقليد أصوات وحركات الغراب. وفي الحقيقة فإن هذا كان أدنى المقامات من مقامات الدين الميترائي.

المقام الثاني: هذا المقام كان كري فيوس وكان بعض الباحثين يعرفونه بمقام كركس ويعتبرونه كلمة محرّفة من الكلمة اليونانية كربس (*Grops*) ومعناه النسر. لكن يجب أن يعتبر هذا المقام مقام المتلبسين. فالمجموعة التي هي في المراتب الابتدائية لا يحق لها المشاركة في المراسم، وعليها أن تعمل بجدٍّ كي تتعلم التعاليم الضرورية حتى تصل إلى المقام الأعلى. ففي التصوّف والعرفان الإسلامي الإيراني، تعتبر هذه المرحلة إحدى درجات السلوك ويُعبّر عنها باتحاد الخالق والمخلوق. وفي الدين الميترائي لا مكان للنساء، لأنه لم يعثر حتى الآن على إشارة أو دلالة تدل بصراحة وبقناعة على أن هناك دليلاً على دخول المرأة في دين ميترا.

وعندما كانت تقرأ الأناشيد الدينية في مهرابة، كان على المغنين والموسيقيين أن يكونوا بدرجة نيمف ها.

ويعتقد بعض الباحثين بوجود مقام نيمف (*Nimphe*) أو (*Nymphus*) ويُراد منها الزوجة بدلاً من مقام كرى نيوس.

فنيمف ها من الأساطير اليونانية والتي لها خصائص يمكن الاستفادة منها للمقارنة مع الأساطير الميترائية، وفي ختام إلقاء الأناشيد، كانت تقرع الأجراس وكانوا يرفعون صوت الناقوس.

(فقرع الأجراس نقل من إيران إلى أوروبا بمحبة ميترا). كانت إحدى مراسم الزرادشتيين في معابد النار قرع الأجراس، وفي أوقات خاصة لا تزال تقرع الأجراس. لا ننسى أنّ الشراب الذي كان الميترائيون يشربونه كان اسمه هئوم، عصير نبات هوم، ولكن لم يكن هذا النبات موجوداً في أوروبا حتى يأخذوا منه العصير، لذلك كانوا يشربون الماء في البداية وبما أن الماء لم يكن يولّد قوة الإحساس والفرح، لذلك كانوا يشربون ماء العنب أو الشراب. وفي رسم يظهر ميترا أثناء ولادته من قطعة(الغيم، السماء) وهو يمسك بعنقود من العنب.

المقام الثالث: هو منصب الجندي، وفي نص مهريشت الأفستائي، فإن ميترا إله الحرب الذي لا يقهر وإن الجنود والمحاربين كانوا يطلبون العون منه في ساحة الحرب وكان ميترا يقدم لهم العون بسرعة. فالمحاربون من أتباع دين مهر كانوا يعتبرون النصر حليفهم، وهذه القدرة الروحية مولودة من الاعتقاد بمهر، وأنصاره يحاربون الى جانبه ويوصلونه الى النصر. وعلى العكس فإن أعداء دين مهر كانوا يواجهون الخوف والشك تجاه هيبة هذا الرب الذي كان يمنحهم تلك الجرأة والجسارة. ويمكن التعرف على مقام الجندي وعلاقته بميترا وكيفية دعم ميترا له في الفقرات الدولية من مهريشت[1].

فعلامة الجندي، حقيبته التي يلقيها على ظهره والخوذة والرمح وجنود ميترا كانوا يحاربون على جبهتين الجبهة الأولى الحروب العارية التي كانوا يخوضونها من أجل الحفاظ على البلد وتوسعه. وإن الأهم من ذلك الحرب والقتال مع قوى الشر والقوى الشيطانية. وبناءً على الإدراك الصحيح لكومنت (*Cumont*) فإن دين ميترا كان مبنياً على أساس الأخلاق ولهذا السبب فإنهم كانوا مسؤولين أن يكافحوا الشّر والسوء بأي شكل كان. فالدخول الى مرحلة الجندي كان له تشريفات خاصة. ويجب إضافة هذا الموضوع وهو أنه من حيث المبدأ فإن

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص:٩١-٩٢.

الجندي في رموز دين ميترا كناية عن عنصر التراب، فمثلما يكون الأسد كناية عن عنصر النار والغراب كناية عن عنصر الريح ونيمفوس كناية عن عنصر الماء، فإن الأشخاص الذين كانوا يريدون أن يتشرفوا بمقام الجندي، كانوا مجبرين على أن يدخلوا في تجارب صعبة وأن ينجحوا فيها. وكانت هذه التجارب عبارة عن قبر للنوم وكان على الشخص أن يتحمل الجوع والظلمة والخوف، وحيث أن الجندي كان ينام لمدة في تابوت صناعي مثل الميت، فقد كانوا يضعون أمامه خنجراً ملطّخاً بالدم أو تاجاً معلقاً برأس سيف. فالسالك في هذا الطريق كان يقبل ذلك ولكنه لم يكن يضع التاج على رأسه بل كان يضعه على كتفه ويقول: «**إن ميترا تاج رأسي**». فإذا ما أجريت بحوث بهذا الشأن يصبح معلوماً بأن هذا العمل بمثابة مراسم أداء قسم الجندية. فالسالكون كانوا يقاتلون الذئب في ظروف صعبة. فكانوا يقيدون أيديهم بمصاريف الدجاج وكانوا يرمونهم في حفرة فيها ماء. وكان عليهم أن يخلصوا أنفسهم من الماء بأيدٍ مكبلة، وفي الشتاء كان عليهم أن يمشوا حفاة على الثلج وأن يتحملوا الجوع والعطش. وكانت آخر مرحلة من التجارب، تقديم التاج، التاج المتدلي من السيف، هذه المراسم كانت تقام في السراديب المظلمة والمخيفة. في هذه المراسم كان يرفع التاج على سلك ويقول: ميترا تاج رأسي، وعندها كان الجندي يُقبل. وفي هذه المرحلة يرمونه في الماء ويخرجونه منه وكان هذا العمل في الواقع يعني ولادة جديدة، أي أن الماضي يمحى ويولد من جديد بعنوان «**جندي ميترا**»[1].

فالجنود بعد أن كانوا يقبلون كان عليهم أن يكون لهم علامة مميزة، ولهذا كانوا يِصِمون جباههم بختم مهر وكان آخر عمل هو إقامة مراسيم القسم. هذه المراسيم كانوا يسمونها ساكرامنتوم (***Sacramentum***).

المقام الرابع: وكان المقام الرابع هو مقام الأسد، ففي الرسوم التي وصلتنا على القماش والرسوم التي حفرت على الأحجار، فإن دور الأسد كان كبيراً وبارزاً وهذا ما أدّى إلى وضع الأسد والشمس كرمز على العلم الإيراني بعد دخول الإسلام إلى إيران وخاصة في عهد السلاجقة (العلاقة بين الأسد والشمس في إيران القديمة كانت موجودة قبل زرادشت). وفي هذه الرسوم كان يُرى الذين وصلوا الى المنصب الرابع أما في حالة تقديم الهدايا بحضور ميترا. هذه الطبقة كانت مجبرة على اجتياز اختبارات ولكن هذه المرة لم يكن بينها تحمل الرياضات والعذاب البدني. بل كان على الشخص أن يظهر قدرات نفسية واستعدادات أخلاقية ووحدة فكرية ودرك الأسرار، ومثلما قيل فإن الأسد كناية عن النار، فالروايات الرمزية الميترائية تحكي بأنه في الأيام الأخيرة من عمر العالم، سيحدث حريق كبير، وفي هذا الحريق سيحترق الانحباس وسوف يرتاح الطاهرون وكأنهم يغتسلون في عين.

المقام الخامس: هو المقام البارس والمقام البارس بغض النظر عن طبيعته الرمزية فإنه كناية عن اتصال مع الطبيعة ونمو النباتات، وبين أتباع دين ميترا هناك دليل على الحرية والأحرار. لا شك أن أتباع مهر كانوا يعتبرون الحرية والتحرر والشجاعة أحد الوجوه المعروفة للإيرانيين وقد سموه المقام البارس. فالذين كانوا يصلون الى هذه المرحلة كانت أيديهم تنظف بالعسل وذلك خلال مراسم خاصة وكانوا يضعون على رؤوسهم قلنسوة فيريجته كان يضعها ميترا على رأسه وكانت القلنسوة كناية عن الحرية والتحرر. وكانت إحدى علامات البارسية الهلال والمنجل حيث أنهما متناسقان مع الحصاد.

وحيث أن ذبح الثور وتقديمه قرباناً كان يتسبب بنمو النباتات، فإن الشخص البارسي يحصد بمنجله سيقان الأشجار حتى يؤمن معاش يومه ويقوم بتخزينه. فالرسوم الحائطية كانت علامة أخرى للرمز البارسي، إذ كان الهلال هو الرمز.

وقد أشير الى أنهم كانوا في مراسم التشرف الى المقام البارسي، يطهرون أيدي الشخص بالعسل وكان هذا العمل كناية عن وجود الخير والبركة والثروة والنعمة بين الإيرانيين.

كان القمر منبعاً للعسل حسب الاعتقاد في إيران القديمة (قبل ظهور زرادشت). وبعد ذبح الثور، كانت هذه النطفة سبباً لقيام ونمو النباتات وسلامة وازدياد الحيوانات. إذاً كان القمر كما جاء واضحاً في الأفستا والرسائل البهلوية، حافظاً للنباتات والحيوانات، وهو دليل خاص على المقام البارسي ومنبع العسل. ولا يزال الاعتقاد القديم باقياً وخاصة بين المزارعين والفلاحين بأن نور القمر له الأثر الكبير في نمو النباتات والفواكه.

المقام السادس: هو منصب الشمس، ولكن في الحقيقة فإن ممثل الشمس إما سول وإما ييك هليوس. فسُل هو إله الشمس عند الرومان وهليوس إله الشمس في أساطير اليونان القديمة. وفي كتاب الأفستا وخاصة اليشت العاشر المختص بـ ميترا(مهر)، فإن ميترا وخورشيد لهما علاقة قريبة جداً وفي الواقع هما متحدان مع بعضهما وقريبان بحيث يعرف مهر على أنه نور الشمس فعندما وصل دين ميترا الى أوروبا وانتشر هناك، جعل الرومان هليوس إلههم بدلاً من الشمس فسول هو إله الشمس وفي اليونان سُمّي هليوس إله الشمس. وطبقاً لمعتقدات الرومان فإن ميترا بعد ولادته، سيطر على جميع الموجودات والعناصر وصارع الشمس وأخضعه لسلطته وبعد ذلك أصبحت العلاقات بينهما ودية جداً. وهذا أول ارتباط بين ميترا والدين الروماني. وبعد مقتل الثور، شارك ميترا وسول في مجلس التوديع والضيافة، وجلسا جنباً إلى جنب وبين اتباعهما وأكلا اللحم وشربا دم الثور، كما أنهما أكلا الخبز وشربا الشراب وبعد ذلك ذهبا الى السماء بعربة خورشيد (الشمس).

إذا كان بارسي معروفاً ودليلاً وممثلاً للعنصر الإيراني في المقامات السبعة، فإن هليودرُوموس (*Heliodromus*) هو الشاخص للعنصر الرومي. لأنه من مجمع دين مهر يعتبر رسول الشمس. وهو أيضاً ممثل سول، هليوس. وفي الرسوم التي تم كشفها فإن هليودروموس (رسول الشمس) وسول هما حاضران، وهما متشابهان تماماً في الملبس لهما ألوان متشابهة[1].

المقام السابع: هذا المقام هو الأعلى والأكبر لمرحلة التشرف للسالك الميترائي، وكانوا يسمون هذا المقام مقام بترا أو بدر وبدر بدران. فبدران في الحقيقة هو أعلى المناصب في الدين الميترائي. وقد اقتبس العيسويون هذا اللقب من المراسم الميترائية ونسبوه لأنفسهم.

إذاً، فالمناصب السبعة الروحانية والمقامات السبعة التي خصصت للتكميل والارتقاء بالمدارج بين الفرقة الباطنية أو الإسماعيليين التقليديين مأخوذة من الأساس الميترائي. وللصوفية سبعة وديان للسلوك بنيت على أساس هذه المراحل السبعة الميترائية. وما يجلب الانتباه هو أن مقام بير في التصوف والعرفان يجب أن يكون أنموذجاً من مقام بتر (بدر) في الدين الميترائي. ففي الدين الميترائي، في المقام السابع وهو مقام العقاب وهو آخر مرحلة ارتقاء للدين الميترائي.

عندما ننظر للعرفان، وخاصة في منطق الطير للعطار، نرى بأن العنقاء هو نهاية مدارج الكمال عند الصوفية، فمقام بدر بدران نقيّ جداً (*Pientissimus*) وأعلى مقام كان ديكينيسوس (*Dignissimus*) كان من ضمن المراتب الميترائية، ففي الأدب الفارسي وخاصة في أشعار حافظ تدل الى بير مغان (شيخ مغان).

وعندما كانت المراسم تقام في مهرابه، كان بدر أو بير ويعرف من البارس بير مغان يلبس ملابس تشبه ميترا وكان يضع قلنسوة على رأسه وكان العلامة الفارقة عصا وحلقة. وكان يعرف بأنه عارف للأسرار ومرشد أعظم وروحاني

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص: ٩٤-٩٥.

كبير، وكانت جميع أمور مهرابه ترجع إليه وكان على الذين يريدون الدخول إلى الدين أن يحصلوا على موافقته. فترقية الرتب واختبار الذين كانوا يسيرون على خطى ميترا يتم بعدها أخذ موافقته. وكان هو مغان مع أعظم (***Magister.Sacrorum***) وكان يعتبر ممثلاً لميترا وكان يقوم بالنشاطات الدينية بنفسه. وعلى كل حال، فإن الناس أي أتباع ميترا في مهرابه كانوا أخوة ومتساوون تماماً وكانت الأخوة والمساواة من مختصات ذلك العهد[1]

(١) راجع رضائي، عبد العظيم: «أصل ونسب ودينهاى إيرانيان باستان» ص:٩٥-٩٦.

الفصل الخامس

المزدكية

١. لمحة تاريخية.
٢. أصل ونسب مزدك.
ج. مبادئ المزدكية.
د. أسباب ظهور المزدكية.
هـ. زند كتاب المزدكية.
و. موقف أنوسيروان من مزدك.
ز. الدين في عهد الساسانيين.
ح. تأثير مزدك من أفكار العلماء.
ط. تأثير مزدك بالزهد.
ي. معتقدات مزدك.
ك. آراء مزدك حول تعليم العدالة والمساواة.

أ. لمحة تاريخية

جاء مزدك في بداية عهد قباد الساساني(٤٨٨_٥٤١م.) والد خسرو أنوشروان، يشبه هذا المذهب الى حدٍّ كبير في مبادئه مبادئ الاشتراكية وكان أساسه مشاركة المال والمرأة. وقد جمع مزدك في فترة قصيرة أنصاراً كثيرين وكان قباد أحد أتباعه والمناصرين لدينه. ولهذا السبب ولأسباب أخرى، عزل قباد من الحكم وسجن، ولكن بمساعدة زوجته فرّ من السجن ولجأ الى ملك هياطلة[1].

وعندما كان قباد في السجن أو في ظل لجوئه لملك الهياطلة، تولّى أخوه (جاماسب) الحكم ودامت حكومته من سنة ٤٩٦ م.الى سنة٤٩٨ م. ولم يمرّ وقت طويل حتى استولى قباد من جديد على الحكم بمساعدة ملك الهياطلة، وبمسعى من زرمهر الذي كان من كبار الشخصيات، وبعد قباد حكم ابنه خسرو أنوشيروان. وفي أواخر عام ٥٢٨ م وبداية عام ٥٢٩ م. قام بقتل مزدك وأتباعه وقضى على دينه. بعد فترة أثار أنصار مزدك مشاكل للحكومة الخاصة في العصر العباسي إذ شنّوا حروباً وسببوا فوضى كبيرة، ولكن هزموا في عهد المعتصم بالله(من ٢١٨ _ ٢٧٧هـ)وتحملوا خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، ولكنهم لم

---

(١) الهياطلة كانوا طائفة من الجنس المغولي وفي سنة ٤٢٠م هجمو على إيران وبعد ذلك سكنوا واختلطو شيئاً فشيئاً مع الشعوب المجاورة وشكلوا شعب خوارزم.

يكفُّوا عن نشاطتهم حتى عام ٣٠٠هـ. فكانوا يثورون بين الحين والآخر، ولكنهم لم يتوقفوا عن الدعاية، وكانت نهايتهم عام ٣٠٠هـ[١].

لقد كتب «تَنسر» مؤلف كتاب رسالة تنسر، بين عام ٥٥٧ و٥٧٠ ميلادية رسالة باللغة البهلوية حول الاوضاع السياسية والاجتماعية والادارية والدينية للساسانيين واعتبر مزدك رجلاً مصلحاً. ويقول محمد اقبال اللاهوري في كتابه مسيرة الفلسفة في إيران، كان يعيش هذا النبي القديم ذو الشعبية في عصر أنوشيروان الساساني(في القرن السادس الميلادي) وقد أظهر مزدك ردّة فعل على الزروانيين من أبناء عصره وجاء بنظرية مزدوجة. وكان مزدك يعتقد خلافاً لمن سبقوه، أن الاختلاط مع الانفصال النهائي للضياء والظلام لا يتلاءم عمداً بل أنه نتيجة للصدفة. وفي النظام الفكري لمزدك، فإنّ الله له الاحساس والشعور وله أربع قوى رئيسية وهي: التمييز والذاكرة، والفهم والسرور. فالقوى الاربعة تتجلى في أربعة أشخاص وهؤلاء الأربعة يحكمون العالم بمساعدة أربعة آخرين. فخصائص الموجودات التي تجعلهم ينفصلون عن بعضهم البعض، مولودة من إختلاط القوى الأربعة.

إنّ ما يميز تعاليم مزدك هو حبّه للشعب، فالاتجاه المانوي كان يعتقد بأن حبّ الشعب جعله يحكم العالم. وكان مزدك يقول بأن جميع البشر متساوون ولكن الاشرار يريدون أن يحولوا العالم الالهي الى ميدان للعذاب وهم يزورون مفهوم الملكية الفردية ويجرّون الناس الى التنكيل بالآخرين. ومع أن أنصار مزدك كانوا يعتقدون بأن النار المقدسة قد تحدثت وشهدت بصحة ورسالة مزدك، لكن رجال الدين الزردشتيين الذين كانوا غير راضين عن الجانب الاجتماعي من دينه قتلوه وقتلوا أنصاره[٢].

---

(١) جمال زروان، صحيفة كاوه، العدد ٢،ص:٨-١٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست،ص:١٢٥ وتنسر، رسالة تنسر، ص:٢٨.

ظهور مزدك في هذا الوقت خلال ذكره لخلع قباد من الحكم وجلوس أخيه جاماسب مكانه ويسمى الحركة المزدكية بالطريقة الاباحية. مع ان جميع الكتاب اعتبروا ظهور مزدك قديم في عهد قباد الا أن هناك اختلافاً في هذا المجال. بأن مزدك قد ظهر في عهد امبراطورية خسرو انوشيروان، ولكن الدينوري[١] يقول بأن رجلاً من أهالي استخر وكان يدعى مزدك ظهر بعد عشر سنوات من حكومة قباد وجاء اليه ودعاه الى دينه. تكرر دائرة معارف الدين والأخلاق هذا الموضوع يقول حمزة الأصفهاني[٢]: هناك رواية تقول بأن مزدك قد تغلغل في السعودية وذلك في عهد قباد. وأن حارث أمير عشيرة كنده(*Kondah*) كان على دين مزدك في أيام قباد. ويعتقد الدكتور معين بأن «مزدك إنسان من نسا أو من استخر فارس، وقبل قرنين من ظهور مزدك، جاء رجل باسم زردشت بونده (بوندس) دين خوركان وهو من أهالي نسا كان مانوياً وجاء بدين باسم دريست دين(*Drist-den*)

وقد قام مزدك بنشر هذا الدين وهو ابن بامداد والطبري الذي كان لديه مصادر صحيحة يعتبره من الناس الحديثين *Mordene* ويمكن اعتبار هذا الاسم مادرايا (*Mavraya*)المدينة التي تقع غرب دجلة كوت العمارة حالياً أي في العراق[٣].

دريست دين تعني دين بوندس لزردشت ومزدك كان بمنزلة المصلح في دين ماني وكان هذا الدين قد بدأ البحث عن العلاقة بين المبدئين القديمين أي النور والظلمة. والفرق بين ذلك الدين مع دين ماني هو أنه كان يعتقد بأن الظلمة ليست مثل النور لا تعمل بالإرادة والقصد، بل إن تصرفها يقوم. وعلى هذا فإنّ اختلاط النور والظلمة وهو نتيجة لهذا العالم المادي، وأن ما فكر به ماني لم يكن طبقاً لخطة وإرادة، بل من غير اختيار وإرادة. إذاً فأفضلية النور على الظلمات

(١) الدينوري،الأخبار الطوال،ترجمة صادق نشأت،ص:٢٤٠.
(٢) الأصفهاني،حمزة،سني الملوك والأنبياء،ص:٩٣.
(٣) معين،محمد،قاموس معين،ص:٣٩٢.

في دين مزدك أكبر مقارنة بدين ماني. فالله الذي هو النور سيتغلب على الشيطان وهو الظلمات ولكن انتصار مزدك لم يكن كاملاً، لأن العالم المادي الذي يتشكل من اختلاط مبدأين أساسيين، وأن الهدف النهائي من تطور العالم هو أن يخلص من الاندماج مع الظلمة، وحول هذه النقطة يشترك دينا ماني ومزدك فالذين كانوا يسمون الصعاليك بالعربية، هم من بقايا رجال مزدك حيث كانوا يعتقدون بأنه يجب أخذ المال من الأغنياء بقوة السيف وتوزيعه بين الفقراء. وقد ظهرت مجموعات منهم وانتشرت في السعودية[1].

فالبحوث التي أجريت دون تعصب وأهداف، أظهرت بوضوح بأن المؤرخين القدماء لم يكترثوا بالملكية الاشتراكية. بينما حديث مزدك او كما يقول العلامة إقبال لاهوري: إن جوهر انقلاب مزدك يقوم على اشتراك الملكية. وإذا ما نظرنا بدقة الى التعاليم الدينية لمزدك سنرى أن منع ذبح الحيوانات ومنع أكل اللحوم، أحد الأوامر الأولية عنده. إضافة الى ذلك فإنّ أنصاره كانوا يلبسون طوال حياتهم ملابس خشنة وكانوا يعيشون حياة الشظف ويمتنعون عن اللذات والشهوات. فبمثل هذه التعاليم الأخلاقية، كيف يمكن تصديق ما يقال بأن مزدك وأنصاره كانوا يحبون الفسق والفجور والشهوات، وكانوا يعتقدون بالعيش مع النساء بصورة مشتركة. ويعتقد المستشرق الانكليزي المعروف نيكسلون بأن المؤرخين لم يدركوا أفكار ومعتقدات مزدك في كتابة الأحداث التي وقعت في العهد الساساني وتحدثوا بتعصب وبعيداً عن الحقائق[2].

---

(١) راجع:كاظم،سعدى،تمدن ايرانى،ص:٢٥.

(٢) راجع:محمود، عسلويه،مرورى بر گذشته ايران،ص:١٨.

ب. أصل ونسب مزدك

كلمة مزدك مشتقة من مزد ومزد باللغة الأفستانية تعني الله، وأهورامزد التي تغيرت الى أورمزد وهرمز مشتقة من نفس الكلمة. واختلف المؤرخون حول اسم والد مزدك. فذكر ابو ريحان البيروني اسمه همداذان (بامداذان)، ويذكر مُسكويه: قامارد والدينوري يذكر اسمه مازيار.

فالظاهر أن الاختلاف ناجم عن اختلاف النُسخ، وقد جاء من ترجمة أفستا البهلوية اسم والد مزدك هو بامداد، وتكتب في اللغة البهلوية بامدات وصارت بعدئذ بامداد. وقد ذكر بعض المؤرخين مثل حمزة أصفهاني اسمه بامداذان (بالالف والنون) وهذا يرجع الى الخطأ الذي وقع في الترجمة البهلوية فقد كتب مزدك بامداذان. فالالف والنون في بامداذان هي الف ونون الأبوة (بضم الهمزة والباء وتشديد الواو أو فتحها). حيث يشير الى نسبة الأب والابن ويجب أن لا يشتبه مع الألف والنون في العربية. وهناك اختلاف أيضاً حول مكان ولادة مزدك ويرى الدينوري أنّه من أهالي استخر، ويرى أبو ريحان البيروني بأنه من مدينة نسا التي تبعد عن خراسان خمسة منازل بين خراسان ونيشابورويقول أبو ريحان في الآثار الباقية: «مزدك بن بامداذان هو من أهالي نسا وكان مؤبد مؤبدان أي قاضي القضاة، وظهر على عهد قباد الساساني وقبل النوبة وروج لسبيل المشاركة في

المال والمرأة. والطبري الذي تقدم على الآخرين يمكن الاستناد اليه وقال بأن المدينة التي ولد فيها مزدك مَزريه أو مَدرية[1].

والجدير بالذكر أنّ مزدك نفسه لم يدَّعِ النبوة، بل إنه كان من أتباع شخص باسم زردشت حيث ظهر في ذلك الزمان أو اقترن بزمن ظهوره وكان يريد إدخال إصلاحات في دين زردشت النبي الايراني. ولكن تقدم عليه وأزاح مراده وحلّ محله. وجاء في تاريخ الطبري «أنه كان في البداية من أنصار شخص آخرعندما وصل خسرو أنوشيروان الى الحكم أسقط شخصاً منافقاً من أهالي نسامدينة المسمى زردشت ابن خوركان وهذا الدين كان بدعة ومنعه هذا الشخص في الدين المجوسي وقد سار على طريقته، ومن ضمن الأشخاص الذين كانوا يدعون الناس الى هذا الدين شخص اسمه مزدك ابن بامداد[2] وجاء في كتاب الفهرست لابن النديم حول مزدك «الحزمية على مجموعتين، الحزمية الأولية ويسمون بـ محمّرة ومتفرقون حوالي عراق العجم (الجبال) بين أذربيجان وأرمينيا وبلاد الديلم وهمدان ودينور وبين أصفهان وبلاد الأهواز. إنّ هؤلاء في الأصل زردشتيون (مجوس) ومذهبهم بدعة وهم من ضمن الطوائف المعروفة بلقطة أو لقظة وزعيمهم مزدك القديم.

لقد دعاهم الى الملذات والشهوات والأكل والشرب والزواج فيما بينهم في حال لا يوجهون الضغوط الى بعضهم البعض وأن لا يكونوا مستبدين وأن يشتركوا في النساء والعائلة وأن لا لا يمنعوا أحداً من التمتع بامرأة رجل آخر وهم كانوا يعتقدون أيضاً بالعدل والصلح وترك القتل وعدم إيصال الأذى للناس وفي الحفلات كانوا يظهرون تصرفات لم يرها أي شعب وعندما كانوا يدعون

---

(١) الطبري،تاريخ الطبري،طبع لندن،ص:٨٩٣.

(٢) محمود، عسلويه،مروری برگذشته ایران،ص:٢١.

شخصاً الى منزلهم لم يمتنعوا عن الاستجابة لمطالبه أياً كانت[1]، والمزدكيون كانوا يسيرون على هذا المنهاج. وقد ظهر بينهم في عهد قباد ابن فيروز وقام أنو شيروان بقتله وقتل أنصاره وأخباره معروفة ومشهورة.

ويعتقد البعض بأن الذي يدعي النبوة لا يمكنه أن يروج للاشتراك في التمتع بالمرأة لأن تعصب الرجل بالنسبة الى امرأته وناموسه كان موجوداً منذ قديم الزمان، وشخص مثل مزدك الذي كان يعتبر نفسه قائداً وزعيماً لم يرتكب مثل هذا الخطأ الكبير ولن يقوم به. وعندما يتحدث مزدك عن الأخوة والمساواة، لايعجب الأشراف والأثرياء والإقطاعيين بهذه الدعوة لأن مزدك كان يعتقد بأنه يجب الأخذ من الأثرياء وإعطاء الضعفاء. كان الأثرياء خائفين من شعارات مزدك ورجال الدين (المغان) الذين جمعوا ثروات طائلة كانوا يعارضون تقسيم ثرواتهم بين البؤساء. إنهم اتحدوا مع الأشراف حتى يلصقوا تهمة الزنديق بمزدك وأنصاره. وألصقوا تهمة المشاركة في المرأة عند أنوشيروان وهو ولي العهد ولم يدرك تعاليم مزدك وقام بقتل هذا الرجل الإصلاحي وأتباعه. بعد ذلك صنعوا قصة (نقب يشت آتشكده) واعتبروها نصراً لهم. وبذلك حافظ هؤلاء على ثرواتهم بقتل ٣٠٠٠٠شخص. وفي رسالة خسروان، يشيرإلى أنه عندما ظهر مزدك، كان أنوشيروان عمره ست سنوات. ولا يبدو هذا القول صحيحاً، لأن الطفل البالغ من العمر ست سنوات لا يمكنه أن يشارك في مؤامرة كبرى. وقد شوّح هو نظام الملك بكل تعصب الحوار الذي جرى بين أنوشيروان ومزدك بصورة مفصلة، ويقول خواجه نظام الملك بأن أنوشيروان قد وصل الى سن البلوغ ولكنه قد وصل الى مستوى العقل، والمُسلَّم به أن ظهور مزدك كان في عهد قباد، وكان أنوشيروان حامل لواء المؤامرة التي دبرها رجال الدين وأبناء الأشراف[2]. وفي

(١) كاظم،سعدي،تمدن إيراني،ص:٤٠ .نقلاً عن أبوريحان،تبصرة العوالم،ص:١٨٠.
(٢) محمود، عسلويه،مروري بر گذشته ايران،ص:٢١.

عهد قباد ظهر رجل مفكر باسم مزدك ابن مداد، وأوجد ديناً جديداً بعد مزدك دين ماني وزردشت ومعتقدات أفلاطون في كتاب الجمهورية وكان أساس هذا الدين الإصلاحات الاجتماعية. وكان مزدك من عداد مواطني استخربارس والمانويين وانصار زردشت خوركان، كان أستاذه زردشت خوركان وكان من أهالي فسا وعاش سنوات في بيزنطة (روما الشرقية) وتعرف هناك على الكتب الفلسفية واليونانية وخاصة كتاب الجمهورية لأفلاطون، وتأثر بأفكار المدينة الفاضلة لأفلاطون[1].

كانت أفكار زردشت خوركان متضمنة أفكاراً اقتصادية واجتماعية نشرت من قبل تلميذه في المجتمع الايراني وعلى أثر الجفاف الذي دمر إيران في أواخرعهد فيروز وأوائل حكومة قبالة في إيران، تمكن الأهالي الذين واجهوا الجفاف أن يوصلوا شكواهم عن طريق مزدك الذي كان رجلاً خطيباً الى قباد ملك إيران، فقباد الذي كان يطالب بالإصلاحات في الشؤون الاجتماعية في إيران كان يخاف رجال الدين والكبار ولم يقدم عليها، فوجود رجل قوي مثل مزدك الذي كان يناصر كثيراً من الفقراء كانت فرصة لقباد لكي يجري تعديلاً على يديه للثروات العامة وأن يقوم بإصلاحات اجتماعية، وحيث أن هذه الخطوات كانت مبتكرة لمجتمعه لم يتمكن قباد من مواجهة نفوذ الكبار ورجال الدين، وكان هؤلاء ذوي نفوذ وسلطة كبيرة، فشكوه الى الملك، وحبسوه في أنوشبرد (قلعة النسيان) واختاروا أخاه جاماست ليحلّ مكانه[2].

كان مزدك يقول: بأن الخلافات بين الناس تأتي من شيئين: المال والمرأة. ومن أجل أن تزول هذه الخلافات يجب أن نأخذ المال من الأثرياء ونقدمها للفقراء حتى يزول الظلم وتحل المساواة. وكان يعتقد أن على رجال الدين

---

(١) ن.م.ص:٣٥.

(٢) محمود، عسلويه،مروری برگذشته ایران،ص:٤٣.

والرجال الكبار في الدولة الذين كانوا يحتفظون بنساء كثيرات في بلاطهم عليهم أن يقتعوا بامرأة واحدة، وأن تقسم النساء الأخريات بين الرجال الغرباء حتى يتمكن كل رجل بالغ أن يحظى بامرأة، فإصلاحات مزدك يمكن أن نعتبرها نوعاً من الاشتراكية، فنظريته الاجتماعية مبنية على المساواة وتقسيم الثروة بين أبناء البشر. وهذه النظرية جلبت انتباه المواطنين. بعض العلماء رأوا بأن حركته كانت بمثابة رد فعل العبيد والقرويين الذين يعيشون كنصف عبيد وكذلك طغيان سكان المدن الحرة وضواحيها ضدّ الإقطاع والأجهزة التي كانت تتولى إدارة العبيد، حيث أصبح هناك جدال طبقي وحركة ضدّالرجال الذين كانوا يحتفظون بنساء كثر في منازلهم. يعتقد بعض الإيرانيين بأن قباد كان في إيمان بمزدك خائفاً ومجبراً، لأنه كان ذا أتباع وكان يخاف من سلطته وكان البعض يعتقد بأن مزدك كان من ضمن الدهاة (جمع داهية) وكان يعلم بأن قباد، يحب زوجة ابن عمه وكان يريد الزواج بها، وهنا اغتنم مزدك هذه الفرصة. كان الرجل داهية وذا علم استمع منه قباد البطل. جاء أمر من الملك بأن احتفظ بهذا الكنز، وأعلن عليه دينه، وقبل قباد دينه فوراً... رُوِّجت تعاليم من النصف الثالث بين فرقة الزردشت، وسميت باسم مزدك زعيم الحركة في نهاية القرن الخامس الميلادي والمزدكية،وكان يوصل تعاليمه المزدكيون إلى اليانية، ولكن كان هناك قبول الثنائية (النور والظلمة) من قبل المزدكيين والمانويين مشتركاً. وكانت تعليمات المزدكيين متفاوتة مع التعليم الديني والتعليم الاجتماعي مع تعليمات أنصار ماني. بناءً على تعاليم المزدكيين فإن نشاطات ملك النور كانت العدل والعقل ولها هدف، أما نشاطات ملك الظلمة فكانت مقترنة بالفوضى وعدم التعقل.

كان أنصار مزدك يدعون إلى الاشتراكيةوأخذوا المرأة من بعض التخيلات الاجتماعية في العهد القديم. فاشتراك المرأة كان في الواقع ضرب حريم الأشراف، حيث كان يوجد في بلاطهم مئات أو آلاف النساء، وكان عملهم هذا محكوماً

به من قبل كثير من الرجال الفقراء[1]. فالزواج الجمعي، والتزويج بالمحارم القريبين، اتخاذ عدة أزواج، وضيافة هترسيم (***Heterism***) كلمة مأخوذة من هترا (***Hetra***) ومعناها المرأة التي لا زوج لها وأن يكون لها حياة الأشراف وأن تعيش مثلما كانت تريد. وهذه كلها كانت شكلاً من الرسوم والأشكال المنسوخة والقديمة في الزواج عن الإيرانيين[2]. وكما أن فكرة الاشتراك في المرأة كان لها صدى أنهم كانوا يدعون إلى المساواة الاجتماعية وإحياء القيم القروية في إيران ومن المصادر اللاحقة، يطلق على مزدكيان اسم العوام (الناس العاديين) الفقراء عامة الناس. هذه الحركة كانت تضمّ فقراء المجتمع وهي حركة المزارعين. هذه الحركة بدأت عندما بدأ القحط يؤثر على الشعب الذي كان على رأسه مزدك وكان يريد فتح مخازن الحبوب الحكومية وقد قبل قباد هذا الطلب وجعل مزدك مستشار، وبذلك حصل في إيران مصادرة أموال الأشراف والأغنياء.

الفقراء كانوا يستعيدون البيوت والنساء والأموال، لم يأتِ في المصادر ذكر عن تقسيم الأراضي، ونعتقد بأن سبب ذلك، بأن الأرض كانت بيد القرويين وكان يتطلب ذلك الغاء حكومة الإقطاعيين. دافع قباد حوالي خمس سنوات عن أصحاب مزدك. البعض يقول بأن قباد قبل تعاليمهم عن طيب خاطر وهناك توضيح قريب للواقع، كان قباد يأمل أن يحصل على مساعدة أصحاب مزدك وتمكن من اضعاف الأشراف والجيش والكهنة ومن أن يقضي عليهم. وهناك احتمال أيضاً أن الملك كان يخشى ثورة أنصار مزدك وحتى لا يعرض ملكه الى الخطر لم يجرؤ على عدائهم. وفي عام ٤٩٦ م قام الأشراف بخلع قباد من الملك وحبسوه في قلعة باسم (قلعة النسيان) وعينوا أخاه جاماسب مكانه. تمكن قباد أن يهرب من السجن وأن يلجأ الى ملك هيتاليان آخشو نوار. وأن يقترن به ويأخذ

---

(١) راجع:إيفانوف،إيران القديمة، ص:١٧٠.

(٢) محمود، عسلويه،مروري برگذشته ايران،ص:٤٣.

منه جيشاً وأن يعود عام ٤٩٨ـ٤٩٩ م الى إيران وأن يستعيد ملكه. ثم تصالح مع الأشراف ولم يدعم أنصار مزدك، وفي عام ٥٢٩ م قرر قباد أن يقضي على أنصار مزدك، وقام ابنه خسرو بذلك، وجلب زعماء مزدك الى تيسفون وقتلهم جميعاً وبعد ذلك، بدأ في كل مكان البطش الدموي، الاعتقالات الجماعية وقتل أنصار مزدك[1].

يقول كلمان هوارحول مزدك: «مزدك ابن بامداد ولد في نيشابور كانت مواعظه تتسبب بفوضى في البلاد، لأن قباد جعله حراً في نشر دينه ودعمه دون أي حدود وتعاليم مزدك مأخوذة من معتقدات ماني، هو كان يقول مثل ماني هناك مبدآن الأول النور والآخر الظلمة. لكن النور له إرادة وله قوة إدراك وذكاء بينما الظلمة له جذب صرفي ودون عقل ووعي. الاختلاط بين المبدأين النور والظلمة جاء صدفة ودون مخطط مسبق، وجاء انفصالهما. العالم كون من ثلاثة عناصر الماء والنار والتراب. وظهر من اختلاط العناصر الثلاث الخير والشّر. الخير جاء من الأجزاء الطاهرة والشر جاء من الاجزاء الشريرة. كان مزدك يعتقد بأن العالم الروحاني شبيه بالعالم المنظم هذا. الله مثل الملك يجلس على العرش وتقف أمامه أربعة قوى: الطهر، العقل، الذكاء، السرور. هذه القوى الأربع تدير العالم عن طريق سبعة وزراء هم سلار، بيشكار، باربر، بلوان، أو يروان كاروان، دستور وكودك. هؤلاء الوزراء يتحركون داخل اثني عشر موجوداً روحانياً وهم، خوننده، دهنده، ستاننده، برنده، خورنده، دونده، خيزنده، كشننده، زننده، كننزه، آبنده وشونده...»[2]

إن صغر عمر الملك ساعد على الهزج والمرج والفوضى في البلاد وسمح لطبقة رجال الدين والكبار العمل بحرية وتسبب في الفوضى وكان ظلم رجال

---

(١) ن.م.ص:٥٠.

(٢) راجع: كلمان،هوار، إيران والحضارة الإيرانية،ص:٢٠٠.

الدين كبيراً وكان قباد يصل الى سن الرشد وكان يعلم أنه إذا أقدم ضد سوفرا وزيرة القوى من الممكن أن يكون مصيره كمصير عمّه بلاشك أن يسقط من الوفود وكان يترصد الفرصة لكي يقلص من قوة وقدرة رجال الدين والكبار وكان لظهور مزدك الذي جاء إثر ظلم رجال الدين والكبار وأصبح على رأس هذه الحركة[1].

---

(١) جمال زاده، محمد علي، صحيفة كاوه، العدد٣ سنة الخامسة ص:١١.

ج. مبادئ المزدكية

علينا أن نبحث عن أصول ومبادئ دين مزدك، لازم أولاً أن نعلم بأن ما كتبه فردوس وابن بطريق (الذي كان يعيش في العهد العباسي) متساويان، ومعلوم ان مصدرهما واحد. ويقول ابن بطريق بخصوص مذهب **مزدك** «خلق الله الرزق على وجه الأرض، لكي يقسمه الناس بينهم وأن لا يملك أحد أكثر من الآخر، ولكن الناس يظلمون بعضهم بعضاً ويفضل الشخص نفسه على أخيه. نحن نريد أن نشرف على الوضع وأن نأخذ المال والثروة ونقدمها الى الفقراء، فكل من يملك مالاً ونساءً وخدماً وأمتعة كثيرة نأخذها منه ونقسمها بين الناس حتى لا يكون هنا امتياز لأحد على الآخرين»[1]. يقول نظام الملك: «**قال مزدك إن المال يقسم بين الناس وهم عبيد الله وأبناء آدم إشارة إلى ابن الفداء الذي قال: ظهر مزدك الزنديق وادعى النبوة وأمر الناس بالتساوي، من الأموال وأن يشتركوا في النساء لأنهم أخوة لأب وأم وآدم وحواء. لماذا يبقى هناك محتاج؟ يجب أن يصرفوا مال أحدهم للآخر لكي لا يبقى هناك فقير والكل يكون مساوياً مع بعض، وأن يباح المال،**

(١) محمود،عسلويه،مروريبرگذشته ايران،ص:٢٠٢.نقلاً:بطريق المجموع على التحقيق والتصديق،ص:٢٠٦

والنساء يجب أن تقسم حتى لا يبقى أحد محروماً من اللذات والشهوات وأن يحصل الجميع على النعم»[١].

نولدكه يقول حول النساء: هل أن مزدك قضى على الزواج؟ المؤرخون العرب لم يقولوا شيئاً صريحاً وواضحاً، ولكن أخذ النساء من الذي لديه نساء كثره بالقوة وحلّ الخلافات وأزال الامتيازات والقضاء على الأموال الشخصية، تؤدي كلها الى نسخ الزواج لأن التساوي من الأشياء، يؤدي الى الاشتراك فيها، أي لا يكون هناك مال لشخص، وبديهي أنّه إذا أراد أحد أن يزيل المال الشخصي،عليه أن يقضي على الإرث العائلي المتوارث. كتب بعض المؤرخين العرب بغضب وتعصب: نصف الأطفال لم يكونوا يعرفون من هم آباؤهم[٢]. ويواصل السيد محمد علي جمال زاده ويقول: هذه مبادئ دين مزدك وحول النظم الاجتماعية يقول: الله ساوى بين الناس وخلق الأرزاق والنعم حيث يستفيد الناس بصورة متساوية منها ولكن العيوب الخمسة هي الحسد والغضب والعداوة والحاجة والطمع تسبب من الظلم والدروان وعدم المساواة، وحيث ان هذه الشياطين الخمسة تأتي من المال والنساء، لذلك يجب جعل المال والمرأة أمراً مشتركاً من أجل إقرار المساواة، لكي يستفيد الجميع منها، وحتى يزول الاعتراض والطمع ولكن يمكن ان لا يكون مزدك قد عرض كل هذه القضايا جيداً ولكن لا شكّ أن هذه الأفكار خرجت منه وتركت آثارها[٣]. كان المجتمع الإيراني يتوسد على ركنين: الملكية والدم (العنصر) وطبقاً لرسالة تنسر فإنّ الحدود كانت موجودة وكان النجباء والأشراف منفصلين عن عامة الناس، كانت امتيازاتهم عبارة عن الملبس والمركب والمكان والبستان والمرأة والخدم». ويقول أيضاً: لقد ميّزوا

---

(١) نظام الملك،تاريخ إيران،ج١،ص:٢٥.

(٢) جوادي،ناصر،تاريخ الإيرانيين،ص:٤٥٨.

(٣) جمال زاده، محمد علي،صحيفةكاوه،العدد٣،ص:١١.

الأشراف بالملبس المراكب وآلات التحميل، ونـاؤهم تـميز بالملابس الحرير والقصور الفاخرة والخوذ والصيد. والعسكر كانوا في رفاه وأمن واطمئنان، وكانوا يتمتعون بالنساء والأولاد[1]. من أهم قواعد الـسياسة عند الـساسانيين، الجميع يجب أن يكونوا في مستواهم ولا يحق لأحد أن يأخذ درجة أكبر ممّا يستحق. ففي العهد الساساني عندما كان يخرج أحد من الدين الرسمي للدولة، كان يُحرم من الإرث والملكية وكانت أملاكه تقسم بين أقربائه.وعلى الحرفيين أن لا يزاولوا الحرفة التي لا يعرفونها، وأن يعملوا جيداً في ما يختصون به، وأن يحصلواعلى أجورهم، فالذي يشتغل في مهنة لا يتقنها، يعمل بلا فائدة، يقول أبو الفداء: ملوك إيران لم يسلموا أي عمل ديواني وأداري إلى الأشخاص ذوي النسب الدنيء[2]. الناس الذين كانوا يعيشون في المدن كان وضعهم جيداً، كانوا مثل الفلاحين يدفعون الضرائب، ولكنهم كانوا معفيِّين من خدمة العلم، كانوا يزاولون الصناعة والتجارة ويحصلون على المال والجاه، كان حال الرعايا سيئاً، كانوا مجبورين طوال حياتهم أن يسكنوا قريتهم، وأن يعملوا في الأعمال الدنيئة، وأن يخدموا في الجيش. إن هؤلاء القرويين كانوا يخرجون مع الجيش جماعات، كانوا محكومين بأن يكونوا عبيداً، لم يُدفع لهم أجور، ولم يكن هنالك قانون يحمي القرويين[3]. الأشراف كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الغلمان والرعايا، ولم يكن وضع الرعايا متفاوتاً مع الغلمان،

---

(١) كريستين، آرتور، إيران في عهد الساسانيين،ص:٣٥.

(٢) ابو الفداء،تاريخ إيران قبل الإسلام،ص:١٦٠.

(٣) الطبري،تاريخ الطبري،ص:٢٦٥.

د. أسباب ظهور المزدكية

من أجل معرفة سبب ظهور مزدك علينا أن ندرس أوضاع ذلك الزمن، لأن السبب الرئيسي لأكثر الثورات العالمية هو تغيير الأوضاع الاجتماعية والمعركة بين المنتجين والمستفيدين من جهة ووجود الخرافات الدينية التي كانت سبباً في تزلزل المبادئ الدينية. وكذلك ظلم الطبقات الثرية بحق الفقراء وهذا ما كان يؤدي الى الغوص في نظم البلاد. فثورة مزدك لم تكن بعيدة عن تلك الحالات.

فالثعالبي يقسم الملوك الفرس في زمن الساسانيين إلى طبقتين:

الأولى: طبقة الرجال والأقوياء.

الثانية: طبقة الناس العاديين.

كان في إيران الى جانب بقايا العشائر والجماعات القروية عبيد كانوا يسمون بندك. وهم عبارة عن أسرى ولم يكونوا إيرانيين. وتشير المصادر التاريخية القديمة بأن النظام الإداري كان قائماً على الإقطاع. إذ إن الأشراف والأثرياء كانت لديهم السلطة بينما لم يكن لدى الناس أية سلطة وحقوق سياسية وربما كان الناس يستفيدون في بعض الأحيان من حقوقهم السياسية. وكان ظهور مزدك نتيجة هذه العوامل، لأن الأوضاع الداخلية للساسانيين حوالي سنة ٤٩٠ م وما بعدها، أظهرت أن إيران القديمة كان يوجد فيها عدّة طبقات منهم رجال الدين والأثرياء وكان أدنى الطبقات هم الكادحون والقرويون، فالملاكون كانوا

يملكون المناجم وكانوا يملكون عبيداً وكان بإمكانهم بيع العبيد الى الآخرين، أو يقرضونهم، كانت الملكية وراثية وكانوا فوق جميع القوى كان الأشراف أولاد الملوك بيدهم جميع المناصب، وكان الملك القائد الأعلى. بعض الناس كانوا يشتغلون بالتجارة وكانت في عداد الحرف، وكان القرويون يشتغلون في الزراعة والرعيّ ومختلف الحرف، وكانوا يدفعون الضرائب الثقيلة وهذا النظام الإقطاعي تسبب في ظهور طبقتين مقتدرتين، طبقة الأقوياء وأصحاب النفوذ ورجال الدين. يقول هنري ماسه: في العهد الساساني كان المجتمع الإيراني مقسّماً إلى طبقات متناحرة، وكان هناك فرق شاسع بين النبلاء والرعايا. وكان الضعفاء يأكلون ليعيشوا ولم يكن لهم مكان في أي دائرة حكومية، ولكن الأثرياء والمتمكنين وأصحاب السلطة كانوا يملكون الذهب والقوة والسكن والبساتين والملابس والنساء والخدم وكانوا يمتازون عن عامة الشعب، ولم يكن يحقّ للفرد الذي يولد من الطبقة الدنيا أن يصعد الى طبقة أعلى، وكانت القوانين تحمي الطبقات العليا ولم يكن للطبقات الكادحة أن تعمل بمهنة غير مهنتها ولم تسلم الأعمال الإدارية في هذا العصر إلى القرويين[1]. إن أحد أسباب ظهور حركة مزدك شيوع الخرافات من دين زردشت. فالإقطاع كان يوصي المبلغين ورجال الدين أن ينشروا الخرافات أن ويُلهوا الناس حتى لا يفكروا في النظريات الراقية، بحيث كان الإقطاعيون والمُلّاك بيدهم الاراضي وكان الفلاحون يعملون على أراضي الملاكين وكانوا مضطرين الى دفع الضرائب الى الملاك ولذلك هرب الفلاحون من القرى وجاؤوا الى المدن وصاروا في عداد العبيد، كما أن القحط أصاب إيران في عهد فيروز أبوقيا ولمدة سبع سنوات وفرغت الخزانة على أثر هجوم الهياطلة حيث هاجموا جزءاً من شرق البلاد ودمروها وفرضوا على الناس الغرامات ممّا جعل الناس ينتظرون ثورة وحركة يقوم بها شخص ليخلصهم من الظلم ولذلك فإن الباحثين

(١) الثعالبي،أخبار الملوك الفرس،ص:٢٠٠.

متفقون على أن اليأس وخراب الوضع الاقتصادي والاجتماعي تسبب في ثورة مزدك. وجاء في كتاب إيران منذ البدء وحتى الإسلام بقلم «كير شمن» حول مزدك: كانت حركة مزدك تعتمد على دين له معتقدات خاصة تتعلق بالخلق والعالم الآخر، واستخدم مزدك تعليمات ماني ونشرها ودعا أنصاره الى الامتناع عن الحقد والقتال، وكانت نظريته الاجتماعية تقوم على المساواة من تقسيم الثروة بين أبناء البشر، وكان يقول إن قسماً من أموال الناس يجب أن تعطي للفقير وكان هدفه من الأموال الأشياء المادية والنساء.[1] ففي إيران حيث كانت طبقات متعددة موجودة، لم يكن يحق لأبناء الطبقة الدنيا أن يصعدوا الى طبقة عليا لأن الجهاز الاجتماعي كان يعتمد على العائلة والاملاك والتمييز الطبقي.برنامج مزدك كان حقاً يسمى الشيوعية الإيرانية، وكانت ثورة حقيقية. بعض العلماء يعتبر حركة مزدك رد فعل العبيد والمزارعين وأهالي المدن ضدّ الاقطاع والجهاز المختص بالعبيد حيث بدأ حرباً طبقية ضدّ الأغنياء، الذين كانوا يملوكون نساءً كثيرات يحبسونهن في البيوت. كان قباد يدعم هذه الحركة، ووضع قوانين بعضها تخصّ النساء وقد خلع من منصبه على أثر مؤامرة وحبس وحوكم.

---

(١) كيرشمن،إيران منذ البدءوحتى الإسلام، ص: ١٨٠.

هـ. زند كتاب المزدكية

عزل قباد جاء على أثر معارضة مزدك، كان مزدك يريد جلب انتباه الناس الى العالم المادي، وأن يغير الأوضاع السياسية والاقتصادية على أساس دين زردشت. عرض مزدك في كتابه زند نظريات عارضها رجال الدين ورأوا بأنه سيقضي عليهم بنظرياته وربما كان رأيهم صحيحاً. كان كتاب مزدك زند تفسيراً جديداً، ولا نعرف هل بقي بعد قتل أنصار مزدك أم لا؟ ولكن المؤرخين المسلمين قالوا بأن كتاباً باسم زند كان موجوداً بعد مقتل مزدك. وذكر الخوارزمي في كتاب مفاتيح العلوم طبع ليدن بأن كتاب زند تأويراً لأفستا وحيث أن الزردشتيين كانوا يعرفون أفستا كتاباً سماوياً، اعتبروا زنداً بدعة خطيرة في الدين المزدائي، كانوا يسمون أنصار زند بالزنديق[1]. ولكنَّ المؤرخين الإسلاميين يقولون بأن مزدك كتب كتاب زند لفضح دين زردشت. ومن النسخة الزندية التي لا تاريخ لطبعها وهي نسخة قديمة. يتم شرح كلمة زنديق ويذكر بأن كتاب مزدك زند هومن أجل التبليغ لمشاركة المرأة والملكية.

وفي شرح اصطلاح إباحة المحرم، طبقاً لتعليمات كتاب زندخان الزواج مع البنت والأخت والمشاركة في المرأة بين الناس جائز[2].المؤرخون

---

(١) الخفاجي،شهاب الدين، شفاء العليل فيها من كلام العرب عن الخليل،ص:١٨.

(٢) كريستين، آرتور، إيران في عهد الساسانيين،ص:٤٠.

الإسلاميون الآخرون، ذكروا آراءهم عن تعصب، وبصورة مغرضة. ومن ناحية تواتر الروايات فإن مزدك كتب كتاباً مهماً ولم يُذكر المؤرخون متى كان هذا الكتاب.

سربرس سايكس يقول: في الوقت الذي هاجم قباد الخزريين الذين كانوا وحوشاً وهزمهم وقتلهم وأعدمهم، جاء مزدك وهو من أهالي استخر بدين جديد هو عبارة عن شيوعية بدائية أو مذهب اشتراكي. وطبقاً لهذا الدين فأن كل الناس خُلقوا متساوين ويحق لهم طلب المساواة في الدنيا، إذ إن المال والمرأة يجب أن يكون مشتركاً بين الجميع، وهو الذي جاء بالزهد والتقوى والذكر والامتناع عن تناول الغذاء الحيواني، واحترام الحيوانات. وإنه في نشره لدينه استخدم الخدعة وبنى تحت بيت النار حفرة أو طبقة تحت الأرض ومدّ أنبوباً الى أعلى بيت النار ووضع أحد أنصاره في الطابق السفلي وادعى بأنه يتحدث مع العنصر المقدس (النار). وقد استخرج هذه الخدعة بحضور الملك وهذا ما جذب قباد إليه، وأصبح مريداً له[1]. إن أنصار هذا الدين حظوا بدعم الملك وقد قاموا بأعمال لا تطاق بحيث ثارت أرمينيا المسيحية ضدّ أعمالهم وكادت ثورة الأرمن أن تؤدي إلى انفصال أرمينيا عن إيران.

---

(١) سايكس،سربرس،تاريخ إيران،ج١،ص:٦٠٦.

و. موقف أنوشيروان من مزدك

يبدو أن أنوشيروان أدرك بأن مزدك عدو أمبراطورية إيران المستقلة، وإذا ما قويت شوكته سوف يقضي على الإمبراطورية وسلسلة ملوك إيران، ولكن الواقع لم يكن هكذا، لا نرى هذا الامر في أي من الكتابات التاريخية، عندما ننظر الى الأوضاع في العهد الساساني، بأن الظلم في ذلك الوقت قد عمّ وأجبر مزدك على الثورة حتى يخلص الفقراء من النظام الإقطاعي، ولكن المناظرة بين مزدك وأنوشيروان الذي نقله نظام الملك، يبين أن انوشيروان كان يعتبر مزدك عدوه لأنه أثناء المحادثات يسأل أنوشيروان مزدك: هل أتيت لكي تزيل الملكية من عائلة ملوك العجم؟. ويقول الخواجه نظام الملك بأن أنوشيروان أرسل رسالة الى مؤبدان وقال: لماذا أنتم ساكتون ولا تتكلمون عن مزدك، ولماذا لا تنصحون والدي؟ لماذا لا تعملون من أجل هؤلاء الناس. قولوا له: لماذا يقوم بأعماله؟ إذا سكتم فسوف يزيل أموالكم ونساءكم وملككم وحكومتكم، انهضوا واذهبوا عند والدي وانصحوه وناظروا ما حجته؟ ويقول أيضاً: كان أنوشيروان يبعث رسائل الى أقربائه والكبار، بأن الفساد عمّ والدي وأزال عقله، لأنه لا يفرق بين المصلحة والفساد، عالجوه لكي لا يستمع إلى مزدك ولا يعمل بأقواله. لا تنخدعوا مثل والدي، لأنه باطل والباطل لا يدوم، ولا فائدة لكم غداً[1].

(١) كريستين، آرتور، إيران في عهد الساسانيين،ص:٤٢.

كان مزدك يصر على أنوشيروان لكي يتبع دينه، اشتكى مزدك أنوشيروان عند قباد، وقال بأنه يعارض دينه، أمر قباد بأن يأتوا بأنوشيروان وقال له: إن أتى بحجة تدلل على بطلان دين مزدك أو ائتني بشخص له حجة أقوى من حجة مزدك وإلا سأقتلك لتكون عبرة للآخرين، ولهذا السبب أصبح قباد عدواً لأنوشيروان، وكان يعاتبه لأنه لم يقبل دين مزدك ولهذا السبب قرر أنوشيروان أن يقتل مزدك وأنصاره، وبذلك قام بفعله باستخدام الحيلة. يعتقد عسلويه بأن الايديولوجية الاشتراكية لمزدك تختلف عن الاشتراكية في زماننا لأن اشتراكية مزدك لها أساس ديني، بينما اشتراكية زماننا على المادية، ولهذا السبب لم يتمكن من تنفيذ برنامجه الاقتصادي الى الاشتراك ويجب القول بأن مزدك هُزم، وبصرف النظر عن المعتقدات المذهبية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية لمزدك يجب الانتباه بأنه منفذ لعقيدة المساواة الاقتصادية لزردشت خوركان الذي كان يعيش قبله في إيران وكانت تعاليمه مبنية على أساس تعاليم ماني[1] يرى مزدك بأن الإنسان ينحرف عن الطريق الصحيح بخمسة أنواع من السوء:

١ـ التعصب.

٢ـ الغضب.

٣ـ الانتقام.

٤ـ الحاجة.

٥ـ الملكية التي هي برأي مزدك أسوأ هذه الأنواع.

إن الذي يمتنع عن السوء يلتحق بأهورامزدا. وكان يقول أن المرأة والملكية توجد السوء في المجتمع، فيمتنع انتشار الدين الصحيح، لذلك يجب أن يكون الاثنان مشتركين بين الناس حتى ينتشر الدين الصحيح بين شعوب العالم. من وجهة نظر مزدك، بأن عدم الاشتراك في المرأة والمطالب، يوجد التعصب

(١) محمود،عسلويه،مروريرگذشته ايران،ص:٢٢٥.

والملكية والحاجة. ونتيجة لذلك ينتشر الغضب والانتقام بين الناس. فمثل هذا الذي كان له مثل هذا المعتقد كان من المستحيل أن يدعو إلى الإباحية والفحشاء. وإن الإباحية والفحشاء التي ينسبها المعارضون إلى المزدكية تتعارض مع أسمى عادات أنصار مزدك وهي الطهارة، والزهد والرياضة وتجنب إراقة الدماء.

كان مزدك ذا معتقدات خاصة وقد استخدم التعاليم المانوية ونشرها وكان يدعو أنصاره إلى الامتناع عن المساوئ. إن نظرية المساواة الاقتصادية جذبت الناس إليه، ففي كتاب روضة الصفا الممتلئ بالتعصب والتزمت، جاء ما يلي: «**كان مزدك يسمح بالعلاقات الجنسية بين الأقارب**» كان أحد تعاليم مزدك أنه كان يمنع ذبح الحيوانات وأكل لحومها ودم الحيوانات. كان أنصاره يلبسون أقمشة خشنة جداً وكانت حياتهم مليئة بالصعوبات ورياضة النفس والامتناع عن لذات الحياة والتوبة. وفي مثل هذه الأسس من الزهد والرياضة لا يمكن أن تصدق بأن مزدك وأنصاره كانوا يدعون الفسق والفجور والشهوات. إن ما كتبوا عن شعار وشخصية مزدك تنم عن تعصب وأن ما قصده هو استخدامهم الكتابة بانحراف وكان هدفهم قلب أفكاره الإصلاحية[1].

---

(١) راجع: محمود،عسلويه،مروريبر گذشته ايران،ص:٢٣٠.

ز. الدين في عهد الساسانيين

حيث إن الملوك الساسانيين كانوا ينسبون أنفسهم الى كوى ويشتاسب وهوكى كشتاسب كيانيان، وكان كشتاسب قد قبل بهم فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أنصار مزديسنى (الدين الزرادشتي) وفي عهدهم أصبح مزديسنى الدين الرسمي للإيرانيين ووضع قيادة الدين على عاتق مغان (رجال الدين) وكان المقام الروحي للدين محصوراً بهؤلاء وعندما استولت شريعة زردشت على كافة أنحاء إيران، أصبح مغان الزعماء الدينيين الجدد، ففي كتاب أفستا نرى اسم طبعة رجال الدين باسم آتربون ***Athravan***، ففي عهد الاشكانيين والساسانيين كان يطلق على هذه الطبقة اسم مغان وكانت هذه الطبقة قد حافظت على أصالتها الزردشتية وكانت تعتبر نفسها ذات جذور آريائية وعامة الناس كانت تعتبر هذه الطبقة طبقة خاصة ومتعلقة بقبيلة حيث كان واجبها العبادة لله وتنفيذ الواجبات الدينية وهداية الناس الى الطريق (مزديسنى). ففي عهد الساسانيين، كان رجال الدين والنبلاء يقتربون من بعضهم يتحدون في عهود الضعف وانحطاط الدولة ضدّ الشاه والملك. وهؤلاء (مغان والنبلاء) كانوا سبباً لزوال البناء والعمران. ففي نبلاء الساسانيين لم يصل أحد الى درجة مؤبدان وزعماء رجال الدين (مؤبدان مؤبد) كانوا ينتخبون من بين مغان. كان مغان ومؤبدان ينسبون أنفسهم الى منوش جيترا أو منوجهر بيشعادى الملك القديم. فرجال الدين كانوا يتدخلون في شؤون

البلاد، وكانوا يمنحون أعمالهم قدسية ولوناً دينياً. أفراد هذه الطبقة يتدخلون في جميع الأمور الشخصية للأفراد، وبعبارة أخرى كان أفراد الشعب معرّضين لأشراف رجال الدين هؤلاء، فعامة الناس كانوا يعتبرون مغان ومؤبدان مقدسين ومحترمين، فأعمال عامة الناس كانت تدار من قبل مغان.

كان هؤلاء يتدخلون في دعاوى الاشخاص وخاصة يدققون فيها وكانوا يعملون من أجل أن لا تذهب حقوق الأفراد سدى. الناس كانوا لا يعدون العمل صحيحاً وكانت الحكومة فوضت رجال الدين القيام بحق القضاء وتسجيل الولادات والأعراس والتطهير والضحايا لأن مصدر قدرتهم هو مصادرة الأموال والأملاك والثروات الكبيرة التي كانت تأتي من طريق فرض غرامات دينية وشرعية وصدقات. كانت هذه المجموعة لها استقلالها في عملها وكانت تشكل دولة داخل دولة. وفي عهد شابور الثاني، كانوا يطلقون على بلد ما وخاصة ولاية آتروباتن (آذربيجان) بلد مغان حيث كانوا يملكون العقارات والأراضي الزراعية والقصور الفارهة والنباتات العالية التي لا تحيطها الأسوار. وكانت عقارات وثروات رؤسائهم الكبار كبيرة جداً بحيث لم يكن بالإمكان إحصاؤها كان رجال الدين الزردشتيون لهم درجات وكانت هذه الدرجات منظمة كما كان مغان يسمون أيضاً مگو آن (*Magugan*) أو مكوكان (*Magugan*) وكانوا يشكلون طبقة دنيا. كان رئيس بيوت النار الكبيرة يسمي مغان مغ (مكو آن مكو). والطبقة الأعلى كانت تسمى مؤبدان أو مكويت (*Magupt*) وكان المؤرخون اليونانيون والرومانيون يطلقون على مغان ومؤبدان اسم ماكوس (*Magus*).

كانت أرض إيران تقسم إلى أقسام وكان كل قسم له مؤبد. لقد وصلتنا قطع أحجار نقشت عليها صورة واسم مؤبدان. ومن ضمنها بابك (*Pabag*) مؤبد خسروهرمز، ويزشاهپور(*Viz-Shahpur*) مؤبد اروشير خورة، فرخ شاهبور مؤبد ايران، خوره شاهبور وبافرك (*Bafarrag*) مؤبددشت ميشان. رئيس مؤبدان كان

مؤبدان مؤبد وكان يقاس بيابا المسيحيين. هذا اللقب أُعطي لأول مرة من قبل أردشير إلى شخص اسمه ماهداذ (*Mahdaz*). ربما كان هذا اللقب موجوداً قبل اردشير، ولكن هذا اللقب أخذ أهميته عندما أصبح دين مزدسين، الدين الرسمي لإيران. كانت رئاسة شؤون رجال الدين على عهدة مؤبدان. كان يطلق فتاوى في القضايا النظرية والمبادئ الدينية والفروع العلمية، وكان يحدد سياسة رجال الدين. كان مؤبدان مؤبد له حق عزل وتعيين رجال الدين، ولكنه كان يعين من قبل الملك، كان الملك يطلب رأي مؤبدان مؤبد في جميع القضايا الدينية، كان مستشاراً معنوياً وروحانياً للسلطان وكان له نفوذ كبير في شؤون البلاد. يقول الخوارزمي:بأن معنى هيربذ يعني خادم النار، وعين اثني عشر الفاً من هيربذا من أجل القيام بالدعاء وقراءة الأغاني في بيوت النار. فعظمة هيربذان عُرفت عندما سيطر الرب على ولاية بارس إذ كان هيربذ هناك وكان يتولى الأمور الدينية. ومن بعض عصور سلطنة الملوك الساسانيين، كان الرئيس العام هيربذان (هيربذان هيربذ) يأتي بالدرجة الأولى بعد مؤبدان مؤبد. وكان أحد هيربذان معروف بـ تنسر (*Thanser*) والآخر زروان داذ ابن مهر نرسه. إن هيربذا رشحه أبوه لشؤون الدين والقضاء، وهذا يعني بأن بعض الأعمال القضائية كانت من خصائص وظائف هيربذان هيربذ[1]. هيربذان كانوا يصدرون الفتاوى عندما كانوا يتولون أمر الفتوى. إن أحد المسؤولين الكبار لرجال الدين كان يسمى وردبذ (*Vard baz*) وكان مختصاً بالقضايا الدينية والبحوث المتعلقة بالمعقول والمنقول ومستشاراً قضائياً وكان يرجع إليهم في القضايا المعقدة والمشبوهة. قام أردشير بجمع جميع (مؤبدان) من أجل تدوين أفستا. وكان مغان اندرزبد (مكوكان أندرزبد) عنوان المعلم ومعلم التعاليم الزردشتية، كان رجال الدين يتولون واجبات ترتبط بالمجتمع والوظائف والواجبات الدينية والمتنوعة وكان من هذه الواجبات:

(١) الخوارزمي، مفاتيح العلوم،ص:١١٦.

تنفيذ الأحكام الإلهية، الطهارة، الاستماع الى اعترافات المذنبين، وعفوهم وتحديد نسبة الغرامات، والكفارات وإجراء المراسم العادية خلال الولادات، عقد كستيك (*Kustik*) أي الرباط المقدس والأعراس وتشييع الجنائز والأعياد الدينية. رجال الدين كانوا يؤدون الصلاة خمس مرات في اليوم، وكانوا يقرؤون الأدعية الخاصة، كانوا يتوضؤون وكانت النار مستقلة دائماً ولم يأكلواالغذاء من الأواني المعدنية، وكانوا يغتسلون إذا ما لمسوا ميتاً أو جسد امرأة حائض أو امرأة ولدت تواً أو انجبت طفلاً ميتاً، وكان أحد مؤبدان مؤبد محيطاً بجميع أحكام الدين والقضاء وعلوم المعقول، وكان على علم بقوانين مغان. وكان يلقب بلقب همك دين (*Hamat. Daean*) وكانت القوانين الخمسة التي تسمى بنخ تك (*Datak*) هي عبارة عن:

١ـ امتريك اش (*Ampartak. ash*) أو مجموعة المعتقدات الدينية الكاملة وتقرأ باللغة الأرمنية أمبر دكيش (*Ambard-Keesh*).

٢ـ بزيست (*Boz-Payit*) يشرح كيف يتم العمل بأحكام الدين وطريق النجاة.

٣ـ بهلويك (*Pahlavik*) أو رسالة القانون العام.

٤ـ بارسيك دين (*Parsik-Daena*) مجموعة من الزردشتيين من العهد الساساني، جاؤوا بطريقة جديدة كتبوا الكتاب المذكور، كان شرحاً لمناسك دينهم وكان مخالفاً للمراسم والشعائر الدينية للزردشتيين.

٥ـ خراك نامك (*Kharag Namak*) كتب حول كيفية أخذ الضرائب.

كانت هناك أديان ومذاهب أخرى،و كل منها تهديد لدين زردشت، وكانت عبارة عن: دين زرواني، المسيحية والمانوية. كان مؤبدان ورجال الدين يركضون وراء العقارات والخدم والحشم ولم يهتموا بالدين وكان همهم يصرف من أجل المحافظة على الأشراف والنبلاء. ونتيجة لذلك فالأغنياء كانوا يغنون والضعفاء كانوا أكثر ضعفاً وفقراً.

وقد وصلتنا صورة أخرى من ذلك العهد وهي عبارة عن شكوى برزويه الطبيب، ويقول في مقدمة كليلة ودمنة حيث إنه جزء من أوضاع العهد الساساني من الناحية الروحانية: في هذه الأيام السوداء، فإن الخيرات تتراجع، ووقرت همم الرجال، وأدبرت الأعمال، إذ إن الخيرات ودعت الناس، والأحوال أصبحت مندرسة والطريق الصحيح قد سُدَّ. طريق الضلال والعدل غير معروف والجور ظاهر والعلم متروك والجهل مطلوب، واللوم والدناءة مستولية، والكرم والمروءة في عزلة، والصدقات ضعفت والعداوات قويت والرجال المحسنون قد ذلوا وأصبح الأشرار محترمين والحق مهزوماً والباطل مظفراً وأصبح اتِّباع الهوى سُنّة متبوعة والحرص غالباً والقناعة مغلوبة والعالم الغدار أصبح فرحاً وضاحكاً و....[1].

إذا كان هذا الكلام قد كتب في عهد أنوشيروان، فإنه يظهر صورة لرجال الدين في زمن الضعف والفساد حيث لم يكن فيه رجال الدين يحملون أية رسالة تعزية أو أمل. في ذلك الحين لم تكن المراسم الدينية سوى مراسم، ومنذ تشكيل الحكومة الساسانية كان بيت النار ومؤبد يزداد غنى، ولم تتوصل جهود شابور الثالث ومزدك الأول وقباد إلى الحيلولة دون توسع سلطة رجال الدين، فطبقة مغان كانت مرتبطة بالعوائل القوية، فكانوا إضافة إلى كونهم يحكمون بالدين يحكمون الدنيا، وكان لديهم المال والقوة. هذه القوة والثروة كانت تفسدهم نتيجةً لذلك، لم يبق أي أثر من الروحانية والمعنوية لدى هؤلاء. فالدين المسيحي كان يجعل الدين الزردشتي يتأخرعند الطبقات الفقيرة وحتى الأشراف. ويقول أحد العلماء بأنه لو لم يصل الإسلام إلى إيران، لكانت الكنيسة دمرت بيوت النار وحلَّت محلها. كان رجال الدين في خدمة الإقطاعيين، وكانوا يدعمون قوة الطبقة العليا، فيجب أن يقال بأن الدين الزردشتي والنظام الحكومي، كانا

(١) محمود،عسلويه،مرورييرگذشته ايران،ص: ٢٥١ نقلاً عن كتاب كليلة ودمنة.

قوتين توءمين إنّ قوة الدين الزردشتي كانت أقوى من قوة الشاهنشاه (الإمبراطور) والحكومة والبلاد فقد كان رجال الدين الزردشتيون يستغلون الناس العاديين باسم دين زرادشت، كانوا يلزمون الناس أن يدفعوا كفارة ذنوبهم التي ارتكبوها إلى مؤبدان ولم يكن أمام الناس طريق سوى أن يقدموا ما يملكون إلى رجال الدين، وبذلك كانت أموال طائلة تذهب إلى جيوب مؤبدان. كانت المراكز الدينية وبيوت النار مليئة بكنوز لا يمكن وصفها وقد وقعت هذه الكنوز من الصنف الأول من القرن السابع بيد البيزنطيين والعرب. فإضافة إلى ذلك فإن جزءاً من عيوب رجال الدين الزردشتيين وردت في الفصل التاسع والخمسين من مينوك خرد أن الإلحاد والنفاق والطمع والنسيان والمنفعة كان كثيراً وأن الجدال والمحاجة كانت موجودة وكان مؤبدان وسائر رجال الدين يقدمون استدلالاتهم إلى معاندي دين مزدنسيني. كان رجال الدين بقيامهم بأعمال منها: شراء الزنوج وخدمة الإقطاعيين والعناد مع الأديان، لم يكونوا قادرين على المحافظة على أصالة الدين الزردشتي وهذا ما أدى الى أن تخرج محبة زردشت من قلوب الناس، وفي هذا الخضم تمكنت المانوية من أن تجذب انتباه الناس والثورة على الطبقة الفاسدة[١] إن دين ماني حظي بدعم التجار والمثقفين في ذلك العهد وأصبح دين الحكمة والفلسفة، وأخذ وجهة أي جهة دينية، وتبدل الى سلسلة من الثورات ضد ظلم وجور الإقطاعيين، هذه الثورة لم تكن في إيران فحسب بل شملت أراضي شاسعة[٢].

---

(١) محمود،عسلويه،مروريبر گذشته ايران،ص: ٢٣٠.

(٢) ن.م.ن.ص.

م. تأثير مزدك في أفكار العلماء

نظر بعض الباحثين المعاصرين مثل كليماووس (*Klima.woos*)، ڤسكي وتروسكي (*V.k. Trutovskiy*) والآخرين، الى معتقدات مزدك من وجهة النظر الشيوعية، لكن استنباطهم من فلسفة مزدك كان خلافاً لاحتياط العلماء. لأن أفكار مزدك حول المساواة الاقتصادية كانت تعتمد على المعتقدات العرفانية وليست على أساس الفلسفة المادية. ويقول جمال زادة: هناك تفاوت كبير جداً بين مزدك والاشتراكية. إن مزدك يتكلم باسم الدين والله، والاشتراكية تنظر من منظار حب البشر ودون الأخذ بعين الاعتبار الايديولوجية الدينية والأفكار السماوية. فمعتقدات مزدك ليست كما ذكر أكثر الكتاب المغرضين يقوم على الاشتراك بين المرأة والمطالب بل إن مزدك جاء بمدرسة تأثرت بالأوضاع الاقتصادية والسياسية في ذلك الزمان كما تأثرت بالمانوية. مع أن هذا الدين من وجهة نظر الماديين تعبير عن الذهم ومُعقَّد؛ فإن تجزئة التعاليم الروحانية لهذا الفيلسوف عن معتقداته الثورية أمر صعب جداً. إن المعتقدات الدينية والمادية هي أساس للمدرسة المزدكية، أو بعبارة أخرى فإن حركة مزدك الثورية، تعتمد على أساس المعتقدات الفلسفية والمذهبية، وعلى هذا فإن معرفة هذه المدرسة تحتاج الى معرفة أفلاطون والأفكار الحديثة لأفلاطون والمانويين.

قدم أفلاطون فرضية لإثبات الوجود. كانت الفرضية تعتمد على وجود قوالب موضوعات محسوسة وكان يسمي هذا القالب (*From*) أو فكراً وكان يشخُص الوجود (*Bring*). فأفلاطون بهذا الفكر كان يعتقد بعدم الوجود، وكان يقيسه بالمادة والزمان. ومن وجهة نظر أفلاطون فإنّ العالم المحسوس (*Sensible Word*) الذي هو منتوج الأفكار والمادة التي لها دور الوسيط. فإنّ الأفكار خالدة وسابقة للتجربة، هذه لا تزيد ولا تهزم. ولا ترتبط ببعضهما البعض ولا تتقيّد بالزمان والوقت.

فمعرفه العالم من جانب أفلاطون مبنية على نظريته حول روح العالم، ولكن نظريته (معرفة النفس) ترتبط بذكرى روحانية، تدخل في قالب جسمي. أفلاطون يقسم أنواع العلوم على أساس موضوعات المعرفة (*Cognizaoie*) ومن وجهة نظره، فإن الوصول إلى العلم، ممكن في وقت يعتمد على أفكار صحيحة وموجودة. فالحصول على مثل هذا العلم، هو روح خالدة يمكن أن يسمى علامة ذكرى عالم الفكر. لا يمكننا أن ندرك عالم المحسوسات وظواهرها، إذا لم نكن نعتقد بالأفكار والموضوعات المتعلقة بالدنيا المحسوسة. وعلى هذا فإن أفلاطون من أجل الحصول على العلم، يوصي باستخدام الأصول الرياضية، هذا الأسلوب هو التعرف على المناظرة المنطقية الي تعتمد على حكمة ماوراء الطبيعة، حيث هناك حركة من جانبين إحداها حركة صعودية (*Ascending*) والأخرى نزولية (*Descending*) فالحركة الصعودية لها ارتباطه نتيجةً كليّةً للارتباط حيث تُشخّص في المراتب العليا. وعكسَ ذلك فإن الحركة النزولية ترتبط بالدرجات الدنيا، وفي هذه الحال فإن الأفكار الأصلية تحاط وليس الأشياء الفردية والقابلة للحسّ. أفلاطون كان يؤمن بالعالمين الروحاني والمادي وكان يعتبر أصل الدنيا العالم المثالي، وكان يقول بأن عالم المثال هو أصل الأشياء والأمور وكل ما هو العالم السفلي تصوير لذلك العالم، وكان يعتقد بأن حياة العالم المادي، هي صورة

حياة ذلك العالم. فاعتقاد مزدك حول نظام الدنيا كان شبيهاً بنظرية أفلاطون حول العالم المثالي والمحسوس. كان مزدك يعتقد بأن العالم المحسوس مثل العالم الروحاني وأمور هذا العالم شبيهة لتصوير حقائق ذلك العالم. فاعتقاد افلاطون حول الله وخلق العالم يعتمد على معتقداته مثل صدور النور (***Emanation***) وأزلية المادة وخلود الروح وفرضية الروح وفرضية تقديم الوجود (***Pre_Existence***) تجسد النور.

وأما المدرسة الأفلاطونية الحديثة، فهي فلسفة صوفية كرد فعل على دورة أفول سلطة الرومان (من القرن الثالث إلى القرن السادس).هذه المدرسة من حيث سلسلة التدرج ترى العالم المادي منخفضاً وتراه على ظهور الأصلية للعالم والجوهر المطلق أو الوحيد. إن أساس هذه المدرسة رمزي، وإن هذه المدرسة الفلسفية قلبت أفكار الوجود إلى العرفان بالأفلاطونيين الجدد الذين كانوا يعتقدون بأن الروح فقدت طريقها في الظلمة، وعلى هذا الأساس من الضروري العودة إلى الله. كان هؤلاء يقولون بأن الروح ومضة إلهية يمكن أن تحرر الإنسان من مملكة الظلام. كانوا يعتقدون بأن توقيت العودة الى الله ليس بيد الفرد، بل يرتبط بحركة عالم الوجود، فالوجود النوعي هو أعلى وجود. وأهم طلائعيي هذه المدرسة هو بلوتي ـ نوس (***Plotinus***) حيث يرى في نظامه الفكري، أن الصورة جانب من وجود الجسم وأن المادة تستدعي الكثرة والصورة جانب من الوحدة. نرى عقيدة بلوتي نوس حول الزهد منعكسة من أفكار مزدك. إن أساس هذا المعتقد هو الاعتقاد بأن روح الإنسان تقع في قوس نزولي من عالم الملكوت نحو عالم الناسوت وتواجه المادة وتتلوث بقبحها؛ فالنفوس التي تريد العودة إلى عالمها، عليها أن تخلص نفسها من قيد المادة والعلائق المادية.

في القرن الأول قبل الميلاد، كانت تعيش مجموعة تعتبر نفسها تتمتع بعالم الأسرار الروحانية وكانت حياة أفرادها تعتمد على الرياضات المشبوهة وكانت

من أكثر النواحي مختلطة بتصوف المشرق. لكن أنصار هذه الطريقة عاشوا في منتصف القرن الثاني. بدأت أفكارهم تنتشر قبل حوالي قرن قبل ظهورهم وذلك من ناحية مفهوم الفكر العرفاني.

كنوسي لم يكن اسم فرقة، بل كان اتجاهاً (*Tendency*) توسع بحركة واسعة وكان يواجهه في كل عصر تحولات مستقلة. إن أساس هذا الاتجاه المعرفة الرمزية، وإن الهدف الرئيس كان تحصيل العلمين طريق الشعائر الدينية ومراسم سحرية، أو أن يحصلوا على تعليمات سرية وبالإلهام الروحاني. قيل إن المعتقدات العرفانية مولودة عن المسيحية اليونانية ولكن هذا الكلام غير مقنع لأن التعبيرات اليونانية كانت ممثلة للحضارة الأوروبية، في الوقت الذي لم يتضامن العرفان مع الحضارة الأوروبية؛ إذ إن العرفان كان مدرسة ازدهرت في مراحلها الأولى في سوريا وتوسعت في القرن الثاني بصورة تدريجية وأصبحت حركة عرفانية شرقية. فخصوصيات هذا العرفان لم تكن مرتبطة بالفلسفة اليونانية، فالعرفاء كانوا مفكرين أحراراً بالنسبة إلى معتقدات الكنيسة، ولكنهم لم يريدوا الابتعاد عن معتقداتهم الموروثة. إنهم لم يروا حاجة أن يبسّطوا معتقداتهم لكي يفهمها الناس، بل إنهم اهتموا بمجموعة لا تعرف العرفان أو بعبارة أخرى، إن محور فكرهم كان العقل والروح ولم يهتموا بالعلم والفلسفة. كان هدفهم الرئيسي هو أنه يجب على الروح الانسانية أن تتحرر من قيود المادة والجسم حتى تلتحق بالروح الرئيسة والنهائية. وإن أفكار العرفاء كانت مثل تركيبات أفلاطونية كانت تُصفّى من جميع العادات والتقاليد، وتخرج كمنظومة قصصية تعكس مصير أن العرفان، وهذه المدرسة العجمية تكوّنت من المعتقدات الروحانية المسيحيّة واليونانية الشرقية وأن أساس هذه المدرسة يقوم على الله والخلق وأصل المساوئ والفوز. إضافة إلى ذلك فإنه كان هناك مدرسة أخرى باسم العرفان اليهودي حيث ترسخت أصوله في مدرسة العرفان المسيحية على شكل بدعة.

إن الكنسيين أظهروا خصوصيات المعتقدات المسيحية والعوامل الشرقية واليونانية بحيث كان يُظَنُّ بأن جميع هذه التأثيرات كان من البدع المسيحية، ولكن يمكن القول بأن اختلاط المعتقدات في القرن الثاني كان خطيراً على المسيحية؛ فالحقيقة أن المدارس العرفانية كانت كثيرة وكان أشهرها:

أ. سرين توس (*Cerinthus*)،

ب. مرقيون (*Marcion*)،

ج. أوبتيس (*Opties*)...

وكانت تعتقد هذه المدارس بأن الهوة التي تفصل الله عن المادة، قد امتلأت بالمخلوقات الروحانية. وكان أحد هذه المخلوقات المسيح. وكانت هذه المخلوقات غير المادية والروحانية التي عادت الى الله من أجل فوز الانسان سميت (بالمتمم) أو (المكمل) ففي مدرسة العرفان والمرقيون كانت تأثيرات المسيحية موجودة من قبل، كما كانت هذه المعتقدات موجودة في المدارس الأخرى، وربما صنعت المدارس العرفانية إطاراً تختلط فيه المعتقدات الشرقية واليونانية مثل معتقدات فيثغورس الحديثة، وأفلاطون الحديثة وعوامل مسيحية. وخلاصة الأمر يجب القول بأن المدارس العرفانية، جاءت في وقت كانت المدارس الفلسفية والعرفانية تحتاج الى أجواء روحانية مناسبة للحصول على معرفة النفس. إضافة الى هذا، فإنّ التعليمات العرفانية اختلطت مع المعتقدات الشرقية السحرية. وأوجدت ديناً وآتينا حظي بالاهتمام على طول الزمان. إن معتقدات مزدك حول فلسفة الكون ركبت مع معتقدات أفلاطون، الذي كان يعتقد بالعالمين المادي والروحاني وكان يعتبر أصل الدنيا عالم المُثُل. وكان يقول: إن عالم المثال هو أصل الأشياء والأمور وكل شيء موجود في العالم الأسفل هو تصوير لذلك العالم، كان أفلاطون يعتقد بأن حياة العالم المادي تصوير لحياة نفس العالم. إن الشبه بين معتقدات مزدك حول نظام الكون مع أفكار أفلاطون

يأتي من أن مزدك كان يعتقد بأن العالم المحسوس مثل العالم الروحاني وأن شؤون هذا العالم في ظل حقائق ذلك العالم. لقد تخللت جذور معتقدات مزدك المذاهب الكنوسية القديمة وكانت هذه المدارس مبنية على المعتقدات الثنائية اليونانية والإيرانية القديمة وطرق التصوف الشرقي. فزهد مزدك كان يشبه معتقدات بلوتي نوس. كان مزدك يقول إنه يجب قتل النفس حتى تتخلص من السوء ويمنع الاختلاط مع الظلام.

إن ارتباط عقيدة مزدك مع بلوتي نوس يكون فقط في أن بلوتي نوس يعتبر قدرة النور أعلى من كل شيء،بينما يرى مزدك النور ضمن العالم المحسوس ويعتقد بأنّ النور يعمل في حرية تامة، في الوقت الذي يكون فيه نشاط الظلمة صدفة مبنياً على الجهل. إن تبريرات بلوتي نوس حول العالم غير المرئي ربما لا تكون على القياس العقلي، لكن مزدك لم يكن مثل أفلاطون وبلوتي نوس فيلسوفاً، ومع ذلك أوجد بكل صدق اتفاقاً بين نشاط النور والظلمة والرغبات الانسانية وعُرف بأنه مؤسس مدرسة جديدة[1].

إنّ مدارس كنوس كانت توصي بتزكية النفس والرياضيات الشاقة من أجل معرفة الأصل النهائي للعالم، وإن توجه مزدك نحو مزدك تازهد كان تشبهاً بهذه المدارس. ولكن يجب القول بأن مزدك أكثر اتصالاً مع الثورة المانوية فإضافة الى مدرسة مرقيون، كانت هناك مدرسة أخرى في طليعتها برديسان، كان لها تأثير عميق على أفكار مزدك من ناحية فلسفة التكامل، فأنصار برديسان كانوا موجودين حتى أواخر القرون الوسطى، وكانوا فرقتين، مجموعة كانت تعتقد بأن النور ارتبط بالظلام برغبته وبعد ذلك انفصل عنه، بينما كانت مجموعة أخرى تعتقد أنه عندما يشعر النور بالظلمة، والنجاسة يعمل من أجل حريته.

(١) محمود،عسلويه،مروريبر گذشته ايران،ص:٢٣٠.

لقد اعتبروا برديسان من وجهة نظر فلسفية نظاماً متقدماً على ماني، وكان يؤمن بتأثير النجوم. وطبقاً لتعاليم معرفية عند برديسان، فإنّ جميع أفراد العالم يتأثرون بالنجوم وهو العامل الذي يسمى بالبخت والحظّ. قدرة مُنحت من قبل الله إلى النجوم والعناصر الأخرى. هذا الجهد، عندما ينفذ العقل في الروح ويحل في الجسم يحل الاعتدال. إن حياة البشر في قبضة قوانين العقل والحظ.

إذاً على البشر أن يكافحوا الخظ من أجل نجامة حتى تضعف القوانين يوماً بعد يوم.

ط. تأثيرمزدك بالزهد

إن تعاليم مزدك القائمة على الزهد كانت تشبه الى حد كبير معتقدات فرفوريوس. فاختلافهما هو من جهة البيان. إن المفهوم الذي كان يتبنه فرفوريوس، كان يعتمد على الفكرفي الوقت الذي شرح مزدك ذلك بطريقة بسيطة. وعلى سبيل المثال فإن فورفوريوس مثل أفلاطون، كان يولي أهمية كبرى إلى العدالة الاجتماعية، ولكنه مثل فيثاغورس كان يعتقد بأن الرحم والشفقة هما أعلى من العدالة، وكان يقول: «امتنع عن أذى الآخرين من جنسك، بل امتنع عن أذى جميع الحيوانات. أن الذي يحصر العدل بالإنسان هو ضيق الفكر. إن من يرحم يشفق على جميع الموجودات والإنسان سيطر على الخير والشر من داخله. أي إنه يشبه نفسه بالله. إن مزدك حرّم قتل الحيوانات وأكل اللحوم، وإسالة دمها ومنع ذلك منعاً باتاً، ولكنه سمح بأكل بيض الدجاج. أنصار مزدك كانوا يلبسون ملابس خشنة جداً وكانت حياتهم كلها مقترنة بالألم والتوجه وقتل النفس والامتناع عن حياة الملذات. وإضافة الى ذلك فإن معتقدات مزدك المتسمة بالزهد، كانت تشبه عقائد فرفوريوس، وهذا دليل بارز على أن مزدك كان قد قبل المعتقدات العرفانية القديمة.

إنّ كتابات فرفوريوس حول المنظومة الشمسية، أخذها من مصدرين، أحدهما من مدرسة ميكرزبيوس والآخر من خطب جوليون حول هليوس. إن قدم

هذه النصوص يدل على أنها أعدت قبل سنة ٢٦٣ م من فرفوريوس، عندما جاء الى روما، والتحق بمدرسة بلوتي نوس واستفاد منها. إن معتقداته حول المنظومة الشمسية متساوية مع عقيدة مزدك.

ي. معتقدات مزدك

يعتقد عسلويه بأن مزدك كان يفكر مثل زردشت حول الثنوية، وعلى هذا فإن معتقدات مزدك وخاصة حول العبادة الثنائية لم يكن سوى التحرر الفكري[1].

يقول العلامة إقبال لاهوري عن مزدك: إن مزدك أبرز رد فعله تجاه وحدانية الزروانية في عصره وقدم نظرية ثنائية الجانب، ورأى مثل ماني بأن تنوع الأشياء يعود إلى مبدأي الخلود المستقلين. إن أحد هذين المبدأين هو النور والآخر الظلمة. كان مزدك خلافاً للقدماء يعتقد بأن الاختلاط أو الانفصال النهائي لا يقترن عمداً أو اختياراً بل هو منتوج بالصدفة من وجهة نظر مزدك فإن الله له إحساس، وله من وجوده السرمدي أربعة قوى رئيسية: التمييز والذاكرة والفهم والسرور. إن القوة الرباعية تتجلى من أربعة أجسام، وإن هذه الأجسام الأربعة تأتي لمساعدة أربعة أخرى من أجل قيادة العالم فخصائص الموجودات تؤدي الى انفصال أحدها عن الآخر، وهي مولودة من اختلاط وامتزاج القوى الأربع[2] ومن حيث الثنوية وتأثيرها على مدرسة مزدك، يجب القول بأن أقدم مدرسة للثنوية تلك التي اعتبرها مؤلف بيان الأديان (لأبي المعالي محمد حسين علوي) مذهب مغان. وقد شرح معتقدات زردشت وماني ومزدك حول قِدَم هذه المعتقدات

---

(١) محمود،عسلويه،مروربر گذشته ايران،ص:٢٣٥

(٢) لاهوري، إقبال، سير الفلسفة في ايران، ص:٢٨-٢٩.

فقال: إن مذهبه هو مغان ويقولون إن كل الخير يأتي من الله وجميع الشرور تأتي من الشيطان، الإله الأعلى يسمى الله والشيطان يسمى أهريمن. اتباع مذهب مغان، كانوا يعتبرون زردشت نبياً، ويقول عن ماني: إن أسلوب ماني هو نفس أسلوب زردشت، مزدك كان له مذهب زردشتي كانت مدرسة ماني تعتمد على المعتقدات الدينية لإيران القديمة وهي المسيحية والبوذية، وإن أصل المذهب كان ثنائية العبادة، وعلى هذا الأساس المعتقد لإإن هناك مبدأين من العالم، مبدأ الخير الذي كان يعتبره ماني نور الله أو هرمزد. والمبدأ الثاني هو مبدأ الشّر الذي يتمثل بالظلام أو أهريمن. إن هذين المبدأين هما خالدان ويتنازعان معاً وهذا النزاع دائمي أيضاً. إن ما نراه من نزاع وتضاد في العالم يأتي على أثر كفاح هذين المبدأين. إن روح الإنسان هو منتوج الخير أو النور، في الوقت الذي يظهر الجسم من الظلم والقبح.عندما ندرس معتقدات مزدك بدقة نستنتج بأنه عكس ماني، كان يريد عن طريق التأويل أن يبدل الثنوية الى التوحيد الفلسفي (*Marism*). ومثلما قيل، فإن النظام الالتقاطي لماني يعتمد على التشبيه، لتأثره بالمدارس العرفانية القديمة، أما تأثر مزدك بهذه المدرسة فكان يعتمد على الفكر المادي وكانت فلسفته تقوم على التثنية، كما هو الحال بالنسبة لفلسفة ماني.

ويشيرالخوارزمي: منذ بداية الخلق، فإن للعالم صانعين، أحدهما فاعل الخير وهو الله والنور، والآخر فاعل الشر وهو أهريمن أي الظلمة، الله المتعال هو فاعل الخير، ولا يُنتظر منه إلا الخير. فالعقول والنفوس والسماوات والكواكب من خلق الله، وأهريمن (الشيطان) لاقدرة له عليها، والعناصر والتركيبات تخلق الحق. فالنار، تحمي البردان، والرياح تبرد الحرارة،والماء يروي الظمآن والتراب محل للاستقرار. فمن المناجم يستخرج الذهب والنحاس ومن النبات تخرج الأشجار والفواكه وهي كلها من خلق الله: والشيطان هو الذي يخلق الحيوانات المفترسة والمؤذية والأسد والنمر والعقرب والحيّة وأمثالها. وحيث

أن الشيطان لا قدرة له على الأفلاك، فإن ذلك ينتج الجنة وحيث أن الشيطان يعجز عن القيام بأي عمل فإنّه تبرز عنه المعارضة والضدية ولهذا فإنه لن يطول ويستمر. فالله يمنح الحياة، ولكن الشيطان يقتل الحياة، كما ويمنح الله الخلق الحياة والعيش والشيطان يمنح الموت، الله يمنح الصحة والسلامة ولكن الشيطان يخلق العذاب والمرض. فواهب العطايا خلق الجنة، والشيطان جاء بالعذاب. فالله يستحق العبادة، لأن ملكه وسيع والشيطان لا قدرة له في عالم العناصر، وصلت روحه الى عالم الخلد، وبقي الشيطان في جهنم إذاً فإنّ شرط العقل هو أن يخيب العاقل نفسه من الشياطين، ولو أن الشيطان لا يكف عن أذاه، فإذا خرج من جسمه فإن نفسه تذهب إلى الفلك، لأن الشيطان لا قدرة له على الوصول إلى الفلك[1]

---

(١) راجع: الخوارزمي، مفاتيح العلوم،ص:١١٩.

ك. آراء مزدك حول تعليم العدالة والمساواة

قام مزدك بتوضيح الظواهر الاجتماعية ونقدها، طبق معرفته للعالم على قضاياه المعيشية اليومية. إن المسألة المهمة التي اهتم بها مزدك، هي إبراز جذور عدم المساواة في المجتمع وطريق الوصول الى العدالة والمساواة. فمن وجهة نظر مزدك فإن النعم المادية التي وضعها أهورامزدا بصورة متساوية تحت تصرف الناس، يجب أن تقسم بين الجميع، وعدم المساواة يتأتى من أن هناك أشخاصاً يريدون عن طريق القوة السيطرة على أحوال الآخرين وأن يستغلوهم وكما نعلم فإنه في عهد الساسانيين، كان الأشراف يغتصبون أراضي الفلاحين بالقوة، أو أن القرويين كانوا مجبورين أن يبيعوا أراضيهم إليهم، وقد رأى مزدك أن كل ذلك ناجم عن الغضب والتصرف العدواني وينجم عنه بالتالي عدم المساواة. فقدّم المساواة في تقسيم النعم المادية ضد الظلم، وأن طريق الوصول الى العدالة، وإزالة الظلم هو إقرار المساواة والتنعيم بالنعم المادية.

كان مزدك يعتقد بثلاثة عناصر هي: الماء والنار والتراب. وأنه مثل تعليم النور والظلام كان يربط القضايا بالمسائل الاجتماعية، وكان يقول: مثلما الماء والنار والتراب يعود للجميع، فإن النعم المادية يجب أن تكون للجميع، ولذلك فإن

وجود النعم المادية عند الجميع ناجم عن أن العناصر هي للجميع، وأن العالم قد صنع من تركيب هذه العناصر[١].

يرى مزدك بأن عدم المساواة، وفقدان المساواة في المجتمع، هو سبب للعداوة والغضب والحرب، هذه البلايا والمشاكل قد جعلت الحياة البشرية سوداء. فإذا ظل عدم التوازن الاستفادة من النعم المادية، فان الأسباب المادية والاجتماعية لهذه البلايا الاجتماعية العظيمة لن تزول ولن تتحقق العدالة، فإن العناد والحسد والغضب والحروب تعطي مكانها للصلح والمحبة والصداقة والعدل. فالكفاح من أجل انتصار النور هو الجهاد في سبيل انتصار المساواة والعدل والمحبة والصلح والصداقة، وهذا كله حرب ضدّ الشيطان.

وضع مزدك لمنتخبيه ـ كما قام ماني بذلك مبدأين هما الرياضة وعدم التسبب بالأذى، واشترط عليهم التعميد بهذين المبدأين. منع مزدك القتل وإيصال الأذى إلى الآخرين، وكان يعلّم أتباعه أن يكونوا مرنين حتى مع العدو، وأن لا يبخلوا حتى عن بذل الروح للآخرين.

هذه التعاليم التي كانت تشبه مبدأ الهيمسا من فلسفة جنيسم (***Janism***) الهندية، لم تكن للأهداف الثورية لمزدك، وكانت مثل هذه التعاليم في مواجهة الأعداء الرأسماليين الذين أراقوا دمه ودم أتباعه، بمثابة نزع السلاح المعنوي للثوريين. فمزدك الذي كان يعلم أتباعه عدم إيذاء الآخرين، كان يعلمهم الرياضة أيضاً، وقد حرم على مريديه وأتباعه قتل الحيوانات وأكل اللحوم وإراقة دمائها. كان مزدك يمنع الناس من الحقد والعداء والحرب والنزاع. لأن أكثر نزاعات الناس كانت بسبب المال والنساء. إنه أحل النساء وأباح الأموال واشترك جميع الناس في الأموال والنساء، فمثلما الناس في الماء والنار والتراب، فإن الضياء والظلام من وجهة نظر مزدك كان رمزاً للقوى الايجابية والسلبية.

---

(١) محمود،عسلويه،مروربرگذشته ايران،ص:٢٣٥.

إن رأي مزدك في هذا الصدد، هو أن العناصر مادية تنتج السوء، وإن صفاء هذه العناصر يظهر الروح أو الجوهر الرئيسي. أمّا من وجهة النظر الفلسفية فإن الروح ليست من العناصر المركبة، بل إن وجود الروح هو من غير العناصر المادية. المراد من صفوة العناصر، العوامل التي تسمى في الاصطلاح الفلسفي بالعرض (الذات، النفس، والناموس) مثل الرحم والشجاعة والسخاوة والحقد والحسد. ومن أجل تشخيص عنصرين أحدهما الجوهر والآخر المادة هناك اصطلاحان هما ممثلا قوتين، إحداهما النفس المطمئنة أو اللوامة والثاني النفس الأمارة، فباعتقاد مزدك فإن المدبر والجيد هو النفس المطمئنة ويتصف بجوهر المشاعر الجيدة، والمدبر السّيِّء هو نتيجة الفكر السّيِّء. إذاً فمدبر الشر الذي يحل في هيئة الإنسان يجب أن يقتل حتى المدبر الجيد أو النفس المطمئنةأو الروح الأصلية للإنسان وأن يعود إلى مركزه.

يعتقد مزدك بأن إلهه يجلس على عرش في عالم أعلى وأن مقابله أربعة قوى تقف على أرجلها، وهذه القوى الأربعة هي:١.التلقي. ٢. الذكاء. ٣. الذكر. ٤. الفرح. ومثلما يحضر أمام شاه ايران أربعة أشخاص باسم موبد، موبدان، هيربد الكبير وسبهبد ورامشكر، فباعتقاد مزدك أن هؤلاء الوزراء يتحركون في الدوائر الاثنتي عشرة الروحانية.ومن وجهة نظر مزدك فإن لكل إنسان أربع قوى، وسبعة عشر وجوداً وهي كلها بتصرف العالم السفلي ولهذا السبب سلب منهم الجبر. مزدك كان يقول بأن ملك عالم الآخرة، هو بعدد الحروف ومجموع هذه الحروف يشكل الاسم الأعظم. وكل من له تصور عن شيء يرتبط بهذه الحروف، فإن أكبر الأسرار ستنكشف له. ولكن إذا حرم أي شيء منها فإنه سيغرق في بحر من الجهل وعدم البصر والنسيان وعدم العقل والحزن.

لم يجد أحد من أي بلد أو شعب أن وضع الناس نساءهم تحت تصرف الآخرين أمر مقبول، وهناك أشخاص كثر فدوا ارواحهم وأموالهم من أجل سعادة

شعوبهم، ولكن لم يكن أحد مستعداً أن يسمح لشخص ولو كان من أقرب الأقربين إليه، ان يوجه إهانة ولو صغيرة إلى زوجاته. ومنذ خُلق البشر وإلى الآن فإن أي شعب أو قوم قاموا بتقديم كل شيء من أجل الوصول الى الهدف، ولكنهم كانوا يحمون ويدافعون عن أعراضهم ونواميسهم ويكنون الاحترام للمرأة والعائلة، ولم يسمحوا لأحد أن يعتدي على أعراضهم، وخاصة في إيران القديمة حيث عُرف الإيرانيون بدفاعهم عن نواميسهم وأعراضهم ومن جهة تعاليم زردشت وأفستا كانت تشجعهم على المحافظة على المرأة وأفراد العائلة، وكانت توصي النساء والرجال بالحفاظ على العفة والطهر ومن جهة أخرى كانت تنزل عقوبات شديدة على النساء والرجال الذين كانوا يرتكبون الزنا. وقد جاء في قسم الطلاق بأن المرأة التي لها زوج إن زنت مع رجل آخر، فإن زوجها يحق له أن يطلقها دون أي مانع وبالعكس.

وأشار أفستا إلى العفة والطهر مرات عدة: أننا نحيّي ونشيد بالنساء والرجال الأطهار وإن الزنا واللواط من الأعمال الدونية، وقد وضع للمرأة المومس أقذع الكلمات وهي كلمة (جهيكا). ومن جهة أخرى، فإنّ مزدك يدعو الى تعليم الناس والتوجه الى الزهد ويوصي بعدم قتل النفس وعدم الأذى وارتداء الملابس الخشنة حتى إنّه يحرم ذبح الحيوانات وأكل لحومها وإراقة دمها. وهو يتبرأ من الحرب وإراقة الدماء والعداوة. ولهذا السبب فإنه يمنع أنصاره من حمل أي نوع من السلاح ولهذا السبب أيضاً كان يتبعه عدد كبير من الناس ويجعل ملك زمانه مدافعاً عنه، ويكسب تقدماً ملحوظاً. إذاً، كيف يمكن لشخص يدعي النبوة، ويقول: «إنني جئت لكي أشيع وأنشر دين زردشت»، أن يبيح المرأة المتزوجة للرجل الأجنبي وأن يصدر الاعتداء على النساء!

إننا نلاحظ إن أيَّ مكان كان يأتي فيه ذكر مزدك، كان يأتي ذكر الاشتراك في المرأة والمال، ولا نشك بعقيدة الاشتراكية في المرأة والرجل، لكن أي امرأة وأي مال!؟.

ففي مزديسنى لا يحق للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة إلا في حالات استثنائية جداً، ولكن الأعيان والأشراف ورجال الدين الذين كانوا يتبعون دين مزديسن كانوا يتبارون مع بعضهم البعض في جمع النساء والنبات وحبسهن في بيوت الحريم ولم يسمحوا للآخرين بالزواج من النسوة. وعلى سبيل المثال، فإن خسرو برويز الذي جاء بعد مزدك، كان يحتفظ بثلاثة آلاف امرأة في قصره وإضافة الى هذه النساء فقط كان يحتفظ بالآلاف من الجواري اللاتي يغنين ويطربن! وهنا يُطرح السؤال: كيف يمكن لآلاف من النسوة يعشن في سجن دون أن يكون لهن أزواج، وإضافة الى ذلك ما مصروف هذه النسوة وما الأموال التي تصرف على هذه النسوة من أجل رجل واحد! ومن المسلم به، أن في عهد قباد كانت مثل هذه الحالات كثيرة حيث كان الأفراد يختارون أعداداً كبيرة من النساء والبنات. ومن أجل إعداد هذه القصور كان من الضروري أن يستغلوا الطبقات الفقرة وأن يسيطروا على أجورهم بالحيل والقوة. من هذه الأوضاع والأحوال خرج مزدك ورفع راية محاربة الظلم والقوة وعدم العدالة وأخذ المال من الظالمين وإعطائه للمظلومين وأخرج النساء من القصور.

يجب أن نسلِّم أنه في كل زمان كان هناك أفراد همهم الاستغلال، فعندما أعلن مزدك الاشتراك في النساء والأموال، قام هؤلاء باستخدام قانون سوء وأثاروا الفوضى. إن دعوات وأعمال مزدك عندما كان على قيد الحياة جعلت النبلاء والأشراف يخافون منه، بل إنه بعد قتل مزدك وأنصاره، قلل هؤلاء من ظلمهم الطبقات الفقيرة، بصورة ملحوظة، ولم يجرؤوا على أن يظلموا الذين كانوا تحت إمرتهم، وأن يصادروا أموالهم، لأن الناس استيقظوا الى حدّ لم يعد

بالإمكان أن يجعلوا أنفسهم عبيداً لهؤلاء. في ذلك الوقت عندما كان رجال الدين في خدمة الأشراف والنبلاء والأعيان، ألصقوا بأمر من الكبار تهمة زنديق الى مزدك وأنصاره، لأن الأعمال الانسانية لمزدك لم ترق لهم.

إن دعوات مزدك كانت سبباً في أن يقوم آخرون بعده ويواجهوا الظلم مثل به آفريد، سنباد، إسحق، أستاذ سيس، عطايا، أبو مسلميه (أنصار أبي مسلم) مبيضة (ذو الملابس البيضاء) محمرة (ذو الملابس الحمراء) خرميه، جاويدان، بابك خرم دين وغيرهم، ونتيجة لذلك فإن جمع الأموال من قبل الأغنياء قد قلّ نتيجة أعمال وحركات مزدك وأنصاره، وكما قلّ الظلم أو انخفض خاصة في زمن العباسيين حيث كان هؤلاء، خوفاً من الرجال الأحرار يقللون من ظلمهم تجاه الإيرانيين الأحرار وكانوا يماشونهم من أجل مصلحتهم الخاصة.

المحتويات





للطباعة والنشر والتوزيع

بئر العبد ـ مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية ـ بناية فوعاني ـ الطابق الأول

ص.ب: ١١ ـ ٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ ـ ١١٠٧ ـ هاتف: (٠٣/٥١٤٩٠٥) ـ تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان

الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com

E-mail : Albalagh-est@hotmail.com